رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم من كلمات الشيخ الأكبر

محيي الدين محمد ابن العربي الطائي الحاتمي

الجزء الثاني

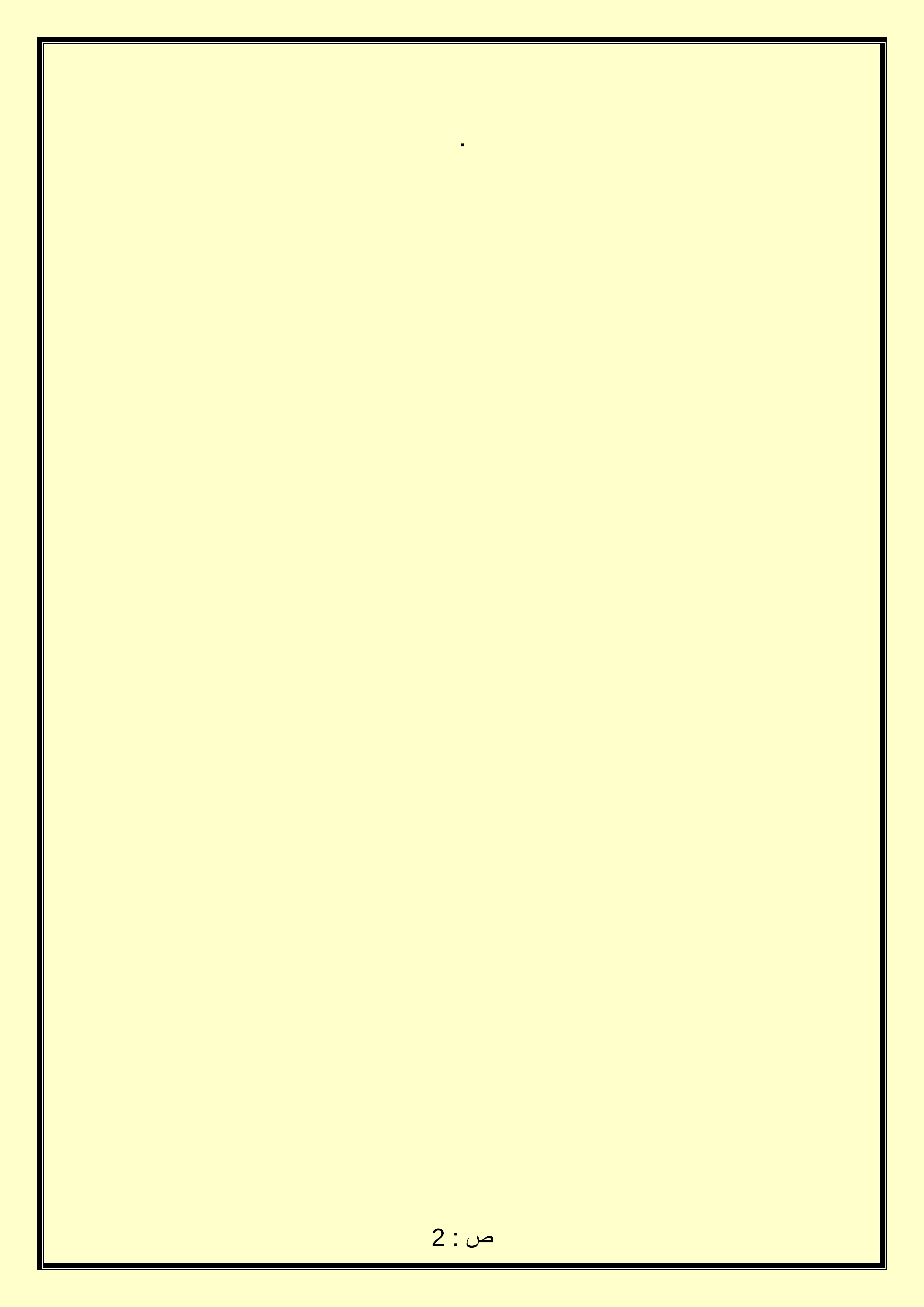
جمع وتأليف

أ. محمود محمود الغراب

وعلى هامشه إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن

للشيخ الأكبر

محيي الدين محمد ابن العربي الطائي الحاتمي



.

ص : 2

الجزء الثاني

(5) سورة المائدة مدنيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة المائدة (5) : آية 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ (1)

اعلم أن الوفاء بالعقد مع الله فيما يعقده المؤمن معه مما له الخيار في حله ، فمذهبنا الوفاء به ولا بد ، إلا أن يقترن به أمر من شيخ معتبر لتلميذ ، أو لأحد ممن له فيه اعتقاد التقدم ، فإن له أن يحلّ ذلك العقد مع الله المخير فيه ولا بد ، وإن لم يفعل فويل ، فإن لم يقترن به مثل هذا فالوفاء به مذهبنا . ولما كان التأيه قد يكون بما هو موجود في الحال أن يكون باقيا في المستقبل ، قال تعالى :« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ »وهم في حال الوفاء بعقد الإيمان ، فإنه نعتهم في تأيهه بهم بالإيمان ، فكان البعد في العقود إذا قبلوها متى قبلوها ، فإن التأيه مؤذن بالبعد .« أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ »البهائم ما اختصت بهذا الاسم المشتق من الإبهام ، والمبهم إلا لكون الأمر أبهم علينا . فقد جاءت الآيات والأخبار تبين ما هي عليه من المعرفة بالله وبالموجودات ، وإنما سميت بذلك لما انبهم علينا أمرها ، فإبهام أمرها إنما هو من حيث جهلنا ذلك أو حيرتنا فيه ، فلم نعرف صورة الأمر كما يعرفه أهل الكشف ، فهي عند غير أهل الكشف والإيمان بهائم لما انبهم عليهم من أمرها لما يرون من بعض الحيوان من الأعمال الصادرة عنها التي لا تصدر إلا عن فكر وروية صحيحة ونظر دقيق ؛ يصدر منهم ذلك بالفطرة لا عن فكر ولا روية ، فأبهم الله على بعض الناس أمرهم ، ولا يقدرون على إنكار ما يرونه مما يصدر عنهم من الصنائع المحكمة ، فذلك جعلهم يتأولون ما جاء في الكتاب والسنة من نطقهم ونسبة القول إليهم ، ليت شعري ما يفعلون فيما يرونه مشاهدة في الذي يصدر عنهم من الأفعال المحكمة ! ! كالعناكب في ترتيب الحبالات لصيد الذباب الذي جعل الله أرزاقهم فيه ، وما يدخره بعض الحيوان من أقواتهم ، فيأكلون نصف ما

ص 3

يدخرونه خوف الجدب فلا يجدون ما يتقوتون به كالنمل ، فإن كان ذلك عن نظر فهم يشبهون أهل النظر ، فأين عدم العقل الذي ينسب إليهم ؟ وإن كان ذلك علما ضروريا فقد أشبهونا فيما لا ندركه إلا بالضرورة ، فلا فرق بيننا وبينهم لو رفع الله عن أعيننا غطاء العمى ، كما رفعه الله عن أبصار أهل الشهود وبصائر أهل الإيمان ، فإن البهائم تعلم من الإنسان ، ومن أمر الدار الآخرة ، ومن الحقائق التي الوجود عليها ، ما يجهله بعض الناس ولا يعلمه . وجميع ما سوى الثقلين وبعض الناس والجان على بينة من ربهم في أمرهم ، من حيوان ونبات وجماد وملك وروح« إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ »أي ما دمتم حرما في المكان الحلال والحرام وسكانا في الحرم وإن كنتم حلالا أو حراما فحيث ما كانت الحرمة امتنع الصيد »إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ ».

سورة المائدة (5) : آية 2

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً وَإِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (2)

« وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ »أي قاصدين البيت الحرام« وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ :«وهو الإحسان بالإنعام« وَالتَّقْوى »: أي اجعلوا ذلك وقاية ، فإنه من أعان شخصا على عمل كان مشاركا له فيما يؤدي إليه ذلك العمل من الخير ، لا مشاركة توجب نقصا بل هو على التمام لكل واحد من الشريكين ، كما جاء في الحديث من سن سنة حسنة « الحديث » ولما كان التعاون في فطرة الإنسان خاطبهم الله تعالى بحكم التعاون فقال :« وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى »فيكون ما فطروا عليه عبادة ، فإنهم قد يتعاونون بتلك الحقيقة على الإثم والعدوان فقال :« وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ.«

ص 4

سورة المائدة (5) : آية 3
حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَما أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3)

« إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ »الذكاة طهارة بعض الحيوان ، والميتة حرام لأنها ما ذكيت« وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ »على هنا بمعنى اللام فإن حروف الجر تبدل بعضها من بعض ، ويعرف ذلك بالمعنى ، وهذا من أعجب ما في القرآن أي وما ذبح للنصب ، وهي الأصنام ، التي نصبوها للعبادة ، فكانوا يقربون لها« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »بعد ثبوت الكمال لا يقبل الزيادة ، فإن الزيادة في الدين نقص من الدين ، وذلك هو الشرع الذي لم يأذن به الله ، وهذا يدل على أن الاجتهاد ما هو أن تحدث حكما ، هذا غلط ، وإنما[الاجتهاد المشروع]
الاجتهاد المشروع في طلب الدليل من كتاب أو سنة أو إجماع وفهم عربي على إثبات حكم في تلك المسألة بذلك الدليل ، الذي اجتهدت في تحصيله والعلم به في زعمك ، هذا هو الاجتهاد . فإن الله تعالى ورسوله ما ترك شيئا إلا وقد نصّ عليه ولم يتركه مهملا« فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ »الجنف : ميل إلى الشيطان« فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »فالشخص الواحد الذي لم يكن حاله الاضطرار ، أكل الميتة عليه حرام ، فإذا اضطر ذلك الشخص عينه ، فأكل الميتة له حلال ، فاختلف الحكم لاختلاف الحال والعين واحدة ، والمحرم المضطر يأكل الميتة أو الخنزير دون الصيد ، فإن اضطر إلى الصيد ، صاد وعليه الجزاء لأنه متعمد ، فما خصّ الله مضطرا من غير مضطر.

ص 5

سورة المائدة (5) : الآيات 4 إلى 5

يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (4) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (5)

« وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ»

نكاح المحصنات من أهل الكتاب

أهل الكتاب قد يقصد بها القائمين بكتابهم ، أو هم الذين أنزل عليهم كتاب من الله سواء عملوا به أو لم يعملوا ، فإذا كان أهل الكتاب هم الذين أنزل إليهم الكتاب ، وجاءهم الرسول بذلك ، وكانوا كافرين بكتابهم ، وأمرنا الله بقتالهم حتى يعطوا الجزية فيجوز لنا نكاح بناتهم بقوله :« وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ »ونمنع من ذلك بقوله :« وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ »على من يحمل النهي هنا على التحريم وقوله :« وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ »على أظهر الوجهين فإن النصّ عزيز في ذلك فيؤيد تحريم نكاح المشركات ، فيلحق بالنكاح الفاسد الذي لا ينعقد معه النكاح فإن اللّه قد أحبط عمله في الدنيا بقوله :« وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ »مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ »كل نكاح خارج عما شرع اللّه بعقد ، أو بملك يمين ، أو بهبة ، وهو خاص برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فهو سفاح لا نكاح ، أي هو بمنزلة الشيء السائل الذي لا ثبات له ، لأنه لا عقد فيه ولا رباط ولا وثاق« وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ »في الدنيا لقوله تعالى« وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ »فإن العمل لم يكن مشروعا لعدم المصحح ، وهو الإيمان والنكاح من جملة العبادات .

ص 6

سورة المائدة (5) : آية 6

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.(6)

اجتمع المسلمون قاطبة من غير مخالف على وجوب الطهارة على كل من لزمته الصلاة ، إذا دخل وقتها ، والوضوء مخصص بعض الأعضاء بالاغتسال والمسح ، وعليك بالوضوء على الوضوء فإنه نور على نور ، ولولا أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم شرع في الوضوء ما شرع من صلاة فريضتين فصاعدا بوضوء واحد ، لكان حكم القرآن يقتضي أن يتوضأ لكل صلاة .

وبالجملة فهو أحسن بلا خلاف ، فإن الوضوء عبادة مستقلة وإن كان شرطا في صحة عبادة أخرى ، فلا يخرجه ذلك عن أن يكون عبادة مستقلة في نفسه مرادا لعينه ، وأما أفعال هذه الطهارة فقد ورد بها الكتاب والسنة ، وبين فرضها من سننها ، ومن استحباب أفعال فيها .

ولهذه الطهارة شروط وأركان وصفات وعدد وحدود معينة في محالها " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ "

الوضوء والمسح والاغتسال من الجنابة

لا خلاف في أن غسل الوجه فرض ، واختلف في تحديد غسل الوجه في الوضوء في ثلاثة مواضع : منها البياض الذي بين العذار والأذن ، والثاني ما سدل من اللحية والثالث غسل اللحية ، واللحية شيء يعرض في الوجه ما هي من الوجه ، ولا تؤخذ في حده« وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ »أجمع العلماء بالشريعة على غسل اليدين والذراعين في الوضوء بالماء ، واختلف في إدخال المرافق في الغسل قال تعالى :« وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ »فيها خروج الحد من المحدود ، ومذهبنا الخروج إلى محل الإجماع في الفعل فإن الإجماع في الحكم لا يتصور ، فغسل اليدين والذراعين وهما المعصمان واجب ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذا غسل ذراعيه في الوضوء يجوز المرفقين حتى يشرع في العضد ،

ص 7

والخلاف في حدّ اليدين أكثره إلى الآباط ، وأقله إلى المفصل الذي يسمى منه الذراع فبقي إدخال المرافق ، ولا خلاف عند القائلين بترك الوجوب على استحباب إدخالهما في الغسل .« وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ »اتفق علماء الشريعة على أن مسح الرأس من فرائض الوضوء ، واختلفوا في القدر الواجب منه ، وأصل هذا الخلاف وجود الباء في قوله تعالى :« بِرُؤُسِكُمْ »فمن جعلها للتبعيض ، بعّض المسح ، ومن جعلها زائدة للتوكيد في المسح ، عم المسح جميع الرأس ، ولا يتمكن لنا إظهار الحق في هذه المسألة لأن ذلك لا يرفع الخلاف من العالم فيه ، والمسألة معقولة ، وكل مسئلة معقولة لا بد من الخلاف فيها لاختلاف الفطر في النظر« وَأَرْجُلَكُمْ »اتفق العلماء على أن الرجلين من أعضاء الوضوء ، واختلف في طهارة الأرجل ، هل ذلك بالغسل ، أو بالمسح ، أو بالتخيير بينهما ؟ فأي شيء فعل منهما فقد سقط عنه الآخر وأدى الواجب ، هذا إذا لم يكن عليهما خف ، فمذهبنا التخيير ، والجمع أولى ، فالمسح بظاهر الكتاب ، والغسل بالسنة ، ومحتمل الآية بالعدول عن الظاهر منها ، وسبب الخلاف هو القراءة في قوله :« وَأَرْجُلَكُمْ »بفتح اللام وكسرها من أجل حرف الواو على أن يكون عطفا على الممسوح بالخفض ، وعلى المغسول بالفتح ، فمذهبنا أن الفتح في اللام لا يخرجه عن الممسوح ، فإن هذه الواو قد تكون واو المعية تنصب . وكذلك من قرأ« وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ »بفتح اللام فحجة من يقول بالمسح في هذه الآية أقوى لأنه يشارك القائل بالغسل في الدلالة التي اعتبرها وهي فتح اللام ولم يشاركه من يقول بالغسل في خفض اللام ، وينقل عن العرب أن المسح لغة في الغسل ، فأمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم المتطهرون ، وهم الغر المحجلون ، تحجيلهم دليلهم ، لو كان لغيرهم هذا النعت المخصوص من الطهور ، ما اختصت هذه الأمة المحمدية بهذا النور . فإنه قال صلّى اللّه عليه وسلم : ما تعرف هذه الأمة المحمدية من سائر الأمم إلا به ، فانتبه ، فوردت الأخبار المنصوصة بطهارة هذه الأعضاء المخصوصة ، فأسبغناها طهورا ، فجعل لنا بذلك غررا ، وألبسها نورا ، فكان لهم بذلك التمييز والتعريف ، المقام الشريف والتشريف ، فمن أسبغ طهوره ، تمم اللّه له نوره ، ومن ثنى وثلث فرح بذلك أكثر من صاحب الواحدة إذا تحنث ».وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا »خروج المني على وجه اللذة موجب للاغتسال ، وعليه وضوء واحد في اغتساله ، ولما كان الغسل يتضمن الوضوء ، كان حكم المضمضة والاستنشاق من حيث أنه متوضئ في اغتساله لا من حيث أنه مغتسل ، فإنه ما ورد أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم تمضمض ولا استنشق في

ص 8

غسله إلا في الوضوء فيه ، فالحكم فيهما عندي راجع إلى حكم الوضوء ، والوضوء عندنا لا بد منه في الاغتسال من الجنابة« وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ

مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ »التيمم - انظر النساء آية (43)
[- تحقيق ونصيحة - « إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ »]
-تحقيق ونصيحة -« إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ »

ولما أتينا بالطهارة كلها .... على وفق شرع الله في الحسّ والعقل
أتينا نناجيه بقدس كلامه .... على نحو ما قد صح عندي من النقل
فلم يستطع إحداث لفظي لكونه .... قديما فناجيت المهيمن بالفعل
ولم يستطع معناي أيضا كلامه .... فقد صحّ عندي أنني لست بالمثل
فردّ علي الله من عرش ذاته .... بما طابق اللفظ الذي جاء من ظلي
على نحو ما أتلوه في النور والهدى .... بإيجاد وصف العدل منه أو الفضل
وما سمع الرحمن غير كلامه .... على مقولي في الفرض كنت أو النفل
فصحّ لي التعبير عنه لأنه .... تعالى عن الأصوات والحرف والشكل
فإن قلت : إني قد تلوت كلامه .... فقد قلت : إني ما تلوت سوى مثل
فإن تك خالفت الذي قد نصصته .... فقد غصت يا مسكين في أبحر الجهل
فيا عقل انصرف إلى مصلاك ، ليتلو سبحانه كلامه عليك ، فاستمع وانصت ، وتحقق ذلك المقام ، وأثبت فإنه مقام الدهش والطيش ، ومحل الحياة والعيش ، فاشحذ فؤادك ، واترك اعتقادك ، ولا تدبر في حين الخطاب ، ولا تفكر فيما تردّ عليه من الجواب ، فإنه مقام التأييد والقوة ، ومشربه الرسالة والنبوة ، فإن إجابة الحق إذا خاطب عبده لا ينتجها فكر ، ولا يقوم لها ذكر ، حسب العقل قبول الخطاب ، وقبول ما يخلق فيه من الجواب ، من غير تقدم قصد ولا نية ، ولا فكر ولا روية ، (وأنت) يا حسّ أتل على ربك كلامه ، ولا تلتفت ، وحقق معنى ما تناجيه به وتثبّت ، وشمّر أذيالك ، واجعل خلفك أعمالك وآمالك ، وضع اليدين مكتوفتين فوق السرة وتحت الصدر ، واطلب منه في ذلك المقام فضل ليلة القدر ، في كونها خيرا من ألف شهر ، واجعل كل صلاة تدخل فيها آخر صلاتك ، وذلك النفس منته حياتك ، فلا تزال مقنعا ، ولربك مستمعا ، متوشحا بالحياء ، غير ملتفت إلى السماء ، طرفك حيث سجودك ، وقلبك حيث معبودك ، وخشية تخشع

ص 9

الجوارح ، وهيبة تقصف الجوانح ، وعبرة تسفح ، وزفرة تلفح ، وأنين وزمزمة ، وحنين وهمهمة ، وتلاطف في تعاطف ، وتوسل في ترسل ، ومشاهدة في مجاهدة ، وتغيّر في تحيّر ، واختلاف صفات ، وتنوع حالات ، وآداب وسكينة ، واعتدال وطمأنينة ، إلى أن تفرغ من صلاتك ، فتنظر عند ذلك فيما زكا من صفاتك ، وما تقدس من ذاتك ، فعند ذلك تكون المصلي السابق وغيرك المصلي اللاحق ، جعلنا الله وإياكم ممن حضر في صلاته ، فأجزل له في صلاته ، فكان جزاؤه النور ، ودار السرور .

[- إشارة - « وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا »]

إشارة : « وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا »لا يتطهر من الحدث إلا الحدث ، ولا من الجنابة إلا من هو عن الحضرة الإلهية في جنابة ، إن العقل إذا نظر في كونه ، فهو في جنابة عن عينه ، فجنابته جنايته ، فإذا نظر إلى نفسه ، فهو في الحدث الأصغر الذي في عكسه ، فحدثه حدثه ، **والماء ماءان:**

لأن المتطهر به عالمان ، **ماء سماوي** ، فتطهر بهذا الماء أيها العقل الأقدس .

والماء الآخر ماء أرضي من عالم الأمشاج ، فمنه عذب فرات ، ومنه ملح أجاج ، فتطهر بهذا الماء أيها الحسّ الأنفس ، فيا أيها العقل إن كنت ذا جنابة أو متعملا ، فعم الطهر بذاتك المنصوصة ، وإن كنت ذا حدث فاغسل الأعضاء المخصوصة ، فسرّ التعميم في طهر الجنابتين ، لغيبتك الكلية عن علم نكاح الصورتين ، الصورة المثلية العقلية ، والصورة المثلية الشرعية ، وسرّ الطهر المخصوص لبعض الأعضاء ، للغفلات التي تتخللك في حضورك عند الاقتضاء ، وإن عدمت الماءين ، فاعمد إلى ما خلقت منه ، ولا تعدل عنه ، فإنك تبيح العبادة ولا ترفع الحدث ، لما قام بك من الخبث . واعلم أن الطهارة الباطنة واجبة عند أهل الله .

سورة المائدة (5) : الآيات 7 إلى 12

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (7) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (8) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (10) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11)

ص 10

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَبَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ(12)

إشارة في الأجور

-إشارة - فالذين أقاموا صلاتهم ضاعف صلاتهم ، والذين أدوا زكاتهم قدّس ذواتهم ، والذين آمنوا بالرسل ، أوضح لهم السبل ، والذين عزروهم عززوا ، والذين أقرضوا الله قرضا حسنا ، وقّاهم سرا وعلنا من كونه محسنا .

سورة المائدة (5) : آية 13

فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (13)

يحرفون الكلم عن مواضعه - إذا سمعت الأحاديث والآيات الواردة بالألفاظ التي تطلق على المخلوقات باستصحاب معانيها إياها ، ولولا استصحاب معانيها إياها المفهومة من الاصطلاح ما وقعت الفائدة بذلك عن المخاطب بها ، إذ لم يرد عن الله شرح ما أراد بها مما يخالف ذلك اللسان الذي نزل به هذا التعريف الإلهي قال تعالى :« وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »يعني بلغتهم ليعلموا ما هو الأمر عليه ، ولم يشرح الرسول المبعوث بهذه الألفاظ بشرح يخالف ما وقع عليه الاصطلاح ، فننسب تلك المعاني المفهومة من تلك

ص 11

الألفاظ الواردة إلى الله تعالى كما نسبها لنفسه ، ولا يتحكم في شرحها بمعان لا يفهمها أهل ذلك اللسان الذي نزلت به هذه الألفاظ بلغتهم ، فنكون ممن يحرفون الكلم عن مواضعه ، ومن الذين يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون بمخالفتهم ، ونقرّ بالجهل بكيفية هذه النسب ، وهذا هو اعتقاد السلف قاطبة من غير مخالف في ذلك .

سورة المائدة (5) : الآيات 14 إلى 15

وَمِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (14) يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ (15).

"وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ " لما كان العفو يجمع بالدلالة بين الضدين القليل والكثير ، فإنه في المؤاخذة على الذنوب في قوله ويعفو عن كثير يأخذ على القليل ، فيدل هذا العفو على أنه لا بد من المؤاخذة ولكن في قلّة ، والقلة قد تكون بالزمان الصغير المدّة ، ثم يغفر الله ويجود بالإنعام ، ورفع الألم عن المذنب المسلم ، وقد يكون بالحال ، فيقلّ عليه الآلام ، بالنظر إلى آلام هي أشدّ منها ، فثمّ ألم قليل وألم كثير ، فأهل الاستحقاق وهم المجرمون المأمورون بأن يمتازوا ، وليس إلا أهل النار الذين هم أهلها ، وهم المشركون لا عن نظر ، فيكون أخذهم بالعفو في الزمان لأن زمان العقاب محصور ، فإذا ارتفع بقي عليهم حكم الزمان الذي لا نهاية لأبده ، فزمان عذابهم قليل بالإضافة إلى حكم الزمان الذي يؤول إليه أمرهم ، فهو عفو عزّ وجل بما يعطي من قليل العذاب ، وهو عفو بما يعطي من كثير المغفرة والتجاوز ، فإنه عزّ وجل قد أمر بالعفو والتجاوز والصفح عمن أساء إلينا ، وهو أولى بهذه الصفة منا ، ولذلك كان أجر العافين على الله لكونه عفوا غفورا« قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ »وهو القرآن فهو نور من حيث ذاته لأنه لا يدرك لعزته ، وهو ضياء لما يدرك به ولما يدرك منه ، فبالقرآن يكشف جميع ما في الكتب المنزلة من العلوم ، وفيه ما ليس فيها ، فمن أوتي القرآن ، فقد أوتي الضياء الكامل الذي يتضمن كل علم ،

ص 12

ومن أعطي القرآن فقد أعطي العلم الكامل .« وَكِتابٌ مُبِينٌ »الكتاب : ضم معنى إلى معنى ، والمعاني لا تقبل الضم إلى المعاني حتى تودع في الحروف والكلمات ، فإذا حوتها الكلمات والحروف قبلت ضم بعضها إلى بعض ، فانضمت بحكم التبع ، لانضمام الحروف ، وانضمام الحروف تسمى كتابة .

سورة المائدة : (5) الآيات 16 إلى 17

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (16) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17)

ما أجهل من قال بهذا القول من أمة عيسى عليه السلام ، فقد فاتهم علم كثير حيث قالوا : ابن مريم وما شعروا ، ولهذا قال الله تعالى في إقامة الحجة على من هذه صفته :« قُلْ سَمُّوهُمْ »فما يسمونهم إلا بما يعرفون به من الأسماء حتى يعقل عنهم ما يريدون ، فإذا سموهم تبيّن في نفس الاسم أنه ليس الذي طلب منهم الرسول المبعوث إليهم أن يعبدوه ، فمن دان بالصليب لحق بأهل القليب ، وادعي في عيسى عليه السلام الألوهية لأنه كان ظاهرا في العالم باسم الدهر في نهاره ، وباسم القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم في ليله ، فكان يصوم الدهر ولا يفطر ، ويقوم الليل فلا ينام ، وما قيل ذلك في نبي قبله فإنه غاية ما قيل في العزيز :

إنه ابن الله ، ما قيل هو الله ، فأثرت هذه الصفة من خلف حجاب الغيب في قلوب المحجوبين حتى قالوا :« إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ »فنسبهم إلى الكفر في ذلك إقامة عذر لهم ، فإنهم ما أشركوا بل قالوا هو الله والمشرك يجعل مع الله إلها آخر ، فهذا كافر لا مشرك ، فوصفهم بالستر فإنهم اتخذوا ناسوت عيسى مجلى ، فتقع الحيرة في العاقل عند النظر الفكري إذا رأى شخصا بشريا من البشر يحيي الموتى ، وهو من الخصائص الإلهية ، إذ يرى الصورة بشرا

ص 13

بالأثر الإلهي ، فأدى بعضهم فيه إلى القول بالحلول ، وأنه هو الله بما أحيا به من الموتى ، ولذلك نسبوا إلى الكفر وهو الستر ، لأنهم ستروا الله الذي أحيا الموتى بصورة بشرية عيسى .

سورة المائدة (5) : آية 18
وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18)

ما كفر من قال إن المسيح ابن الله إلا لاقتصاره ، وكذلك كفر من قال : نحن أبناء الله وأحباؤه لاقتصارهم ، لأنهم ذكروا نسبة تعم كل ما سوى الله إن كانت صحيحة ، فإن لم تكن في نفس الأمر صحيحة فهم والعالم فيها على السواء ، وقالت اليهود والنصارى :
إنهم أبناء الله ، وأرادوا التبني ، فإنهم عالمون بآبائهم ، فإنه لما كان الله تعالى له مطلق الوجود ، ولم يكن له تقييد مانع من تقييد ، بل له التقييدات كلها ، فهو مطلق التقييد ، لا يحكم عليه تقييد ، فله إطلاق النسب ، فليست نسبة به أولى من نسبة ، فقد كفر من كفر بتخصيص النسب ، مثل قول اليهود والنصارى عن أنفسهم دون غيرهم من أهل الملل والنحل« نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ »فإذا وقد انتسبوا إليه كانوا يعمون النسبة وإن كانت خطأ في نفس الأمر ، فقال لهم الله :« فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ »يقول تعالى النسبة واحدة فلم خصصتم نفوسكم بها دون هؤلاء ؟ وإن أخطأتم في نفس الأمر فخطؤكم في عموم النسبة ، أقل من خطئكم في خصوصها ، فإن ذلك تحكم على الله من غير برهان .

سورة المائدة (5) : آية 19
يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (19)
قل يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فتره من الرسل ودرس من السبل

ص 14

" أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ».

سورة المائدة (5) : آية 20
وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (20)

« وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً »فالله تعالى ملك بالحقيقة ، والمخلوق ملك بالجعل ، فأثبت الملوك في الأرض في قوله :« وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً »فإن من أسمائه تعالى الملك ، وما أثبته الله لا يلحقه الانتفاء ، كما أنه إذا نفى شيئا لا يمكن إثباته أصلا ، وإن كان لا ملك إلا الله ، ولكن الله قد أثبت الملوك .

سورة المائدة (5) : الآيات 21 إلى 23
يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (21) قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ (22) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23)
فجعل التوكل علامة على وجود الإيمان في قلب العبد ، ولم يتخذه وكيلا إلا طائفة مخصوصة من المتوكلين المؤمنين الذين امتثلوا أمر الله في ذلك في قوله :« فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا »فاتخذوه وكيلا فيما خلق لهم ليتفرغوا إلى ما خلقوا له ، فلا يتوكل عليه في أمره كلّه إلا مؤمن ، واعلم أنه لما وضع الله الأسباب وظهر العالم مربوطا بعضه ببعضه ، فلم تنبت سنبلة إلا عن زارع وأرض ومطر ، وأمر سبحانه بالاستسقاء إذا عدم المطر تثبيتا منه في قلوب عباده لوجود الأسباب ، لهذا لم يكلف عباده قط الخروج عن السبب ، فإنه لا تقتضيه حقيقته ، وإنما عين له سببا دون سبب ، فقال له : أنا سببك فعلي فاعتمد وتوكل كما ورد« وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »
[الرجل من أثبت الأسباب]
فالرجل من أثبت الأسباب ، فإنه لو نفاها ما عرف الله ولا عرف نفسه ،

ص 15

فإثبات الأسباب أدل دليل على معرفة المثبت لها بربه ، ومن رفعها رفع ما لا يصح رفعه ، وإنما ينبغي له أن يقف مع السبب الأول ، وهو الذي خلق هذه الأسباب ونصبها ، ورافع الأسباب سيئ الأدب مع الله ، ومن عزل من ولاه الله فقد أساء الأدب ، وكذّب في عزل ذلك الوالي ، فانظر ما أجهل من كفر بالأسباب وقال بتركها ، ومن ترك ما قرره الحق فهو منازع لا عبد ، وجاهل لا عالم ، فالأديب العالم من أثبت ما أثبته الله ، في الموضع الذي أثبته الله ، وعلى الوجه الذي أثبته الله ، ومن نفى ما نفاه الله ، في الموضع الذي نفاه الله ، وعلى الوجه الذي نفاه الله ، وما من أحد من رسول ولا نبي ولا ولي ولا مؤمن ولا كافر ولا شقي ولا سعيد خرج قطّ عن رق الأسباب مطلقا ، أدناه التنفس ، فإن التنفس سبب الحياة ، واعلم أن ترك السبب الجالب للرزق عن طريق التوكل سبب جالب للرزق ؛ وأن المتصف به ما خرج عن رق الأسباب .

سورة المائدة (5) : آية 24

قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (24)

فأبوا نصرة نبي الله موسى .

سورة المائدة (5) : الآيات 25 إلى 26

قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (25) قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (26)

وما أخذهم الله إلا بظاهر قولهم : (إنا هاهنا قاعدون) فقال لهم تعالى : إني تارككم تائهين في هذه القعدة أربعين سنة ، لا تستطيعون دخول بيت المقدس ، وما بقي معهم موسى عليه السلام في التيه إلا لكونه رسولا إليهم فبقوا حيارى .

سورة المائدة (5) : آية 27

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27)

القرابين : هو إتلاف أرواح عن تدبير أجسام حيوانية ، ليتغذى بها أجسام إنسانية ، فتنظر أرواحها إليها في حال تفريقها فتدبرها إنسانية بعد ما كانت تدبرها إبلا أو بقرا أو غنما .
فالأرواح المدبرة لها في كل حال لا تتبدل تبدل الصور ، لأنها لا تقبل التبديل لأحديتها ، وإنما يقبل التبديل المركب من أجسام وأجساد حسا وبرزخا.

[إشارة - وقبول قربان هابيل]
إشارة - وإنما قبل قربان الواحد دون أخيه ، لأن الله جعلهما أصلا لبنيه ، -الضمير يعود على آدم - وهما قبضتان ، فلا بد أن يختص أحدهما بالرضى والآخر بالخسران .

سورة المائدة (5) : الآيات 28 إلى 30
لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ (30)
قتل قابيل هابيل ظلما فما زال القتل ظلما في بني آدم إلى يوم القيامة ، وعلى الأول كفل من ذلك.

سورة المائدة (5) : آية 31
فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)
الندم على ما فات ، وميم الندم منقلبة عن باء مثل لازم ولازب ، وهو أثر حزنه على ما فات يسمى ندما ، والندب : الأثر فقلبت ميما وجعلت لأثر الحزن خاصة.

إشارة - لم كان الغراب معلما ؟
إشارة - لم كان الغراب معلما ؟ لأن الحق ألبسه ثوبا من الليل مظلما ، إشارة إلى أن الغيب يعلم الشهادة ، ولذلك كان الليل غيبا والسواد غيبا ، فأعطاه العلم فعلا وحالا ، وكساه من

ص 17

ظلام القبر سربالا ، فأعطاه العلم فعلا ببحثه في الأرض ، وحالا بما تقدم من إشارة السواد ، وهو صفة الغيب المفيد لعالم الشهادة فهذا معنى : وكساه من ظلام القبر سربالا ، أي لمناسبة الظلام إلى السواد .

سورة المائدة (5) : آية 32

مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32)

أخبر الله تعالى أنه أيد الرسل بالبينات ليعذر الإنسان من نفسه ، لذلك قال تعالى :« وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »يعني نبعثه بالآيات البينات على صدق دعواه - إشارة - حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلم بعد موته ، حياة سنته ، ومن أحياه فكأنما أحيا الناس جميعا ، فإنه المجموع الأتم ، والبرنامج الأكمل .

سورة المائدة (5) : آية 33

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (33)

على تلك المحاربة والفساد جزاء لهم فإن الله لما عاقبهم في الدنيا لم يجعل عقوبتهم كفارة مثل ما هي الحدود في حق المؤمنين ، وهذا لا يكون إلا للكفار ، ولذلك قال :« وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ »يعم الظاهر والباطن ، بخلاف عذاب أهل الكبائر من المؤمنين ، فإن الله يميتهم في النار إماتة حتى يعودوا حمما شبه الفحم ، فهؤلاء ما أحسوا بالعذاب لموتهم ، فليس لهم حظ في العذاب العظيم ، فالمصاب في الدنيا ، تكفر عنه مصيبته من الخطايا ما يعلم الله ، ومصيبة الآخرة لا تكفر ، وقد يكون هذا الحكم في الدنيا فيشبه الآخرة مثل ما جاء

ص 18

في حق هؤلاء فما كفر عنهم ما أصابهم في الدنيا من البلاء .

سورة المائدة (5) : الآيات 34 إلى 35
إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (35).

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ »لما كان الإيمان الذي هو نور إلهي واردا على باطن هذه الهيئة الاجتماعية النفسية ، الذي هو القلب الحقيقي المعنوي لا الصوري ، وعلى ظاهرها الذي هو النفس الملهمة ، متمكنا في القلب والنفس ، وصارا قابلين فيهما للإيمان والإسلام أولا ، ولأحكام الحق وشرعه وأمره ونهيه ثانيا ، ومقبلان على قبولهما والعمل بموجباتهما التي هي أداء الواجبات والمندوبات ، والترك والاحتراز عن المحرمات والشبهات والانحرافات ، لكن النشأة الدنيوية الحسية تقتضي أحيانا بالنسبة إلى بعض وغالبا بالنسبة إلى بعض آخر ميل النفس وانحرافها عن هيئتها الاجتماعية إلى جانب الروح الحيوانية الطبيعية العنصرية ، وغفلتها وغيبتها عن ذلك الإقبال والقبول ، فتظهر آثار الأسماء الإلهية فيها بوصف الانحرافات ويقتضي ظهور نتائجها فيها بذلك الوصف الانحرافي الموجب للألم والبعد ، فاقتضى أثر عناية الله تعالى لعباده المؤمنين أن يوقظهم من نومة الغفلة ، ويخاطبهم بقوله عزّ من قائل »:يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ »يعني والله أعلم بعد أن اهتديتم إلى الإيمان بالله ورسوله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، احترزوا بتقواكم بواسطة متابعة أمر الله تعالى ونهيه ، والحضور معهما ومع موجباتهما التي هي أداء الواجبات والمندوبات ، وترك المحرمات والشبهات والانحرافات ، عن ميلها وانحرافها عن وحدتها وجمعيتها إلى جانب كثرة روحها الحيوانية الطبيعية العنصرية ، فتغلبكم الانحرافات .
فاجعلوا نفوسكم بذلك الاحتراز في وقاية وحدة أمر الله ، وحكم نهيه والحضور مع موجباتها المذكورة ، ووقاية وحدة أثرها الروحاني وعدالة جمعيتها ، فتنصبغ آثار أسماء الله تعالى فيها بصبغة الوحدة والاعتدال الموجبين لرضاء الله تعالى وقربه ، فيقيكم ذلك الحكم والوحدة والعدالة والقرب والرضا عن أن تظهر فيكم آثار سخط الله تعالى ، التي هي من نتائج أسماء الله تعالى ، المنصبغة بأحكام انحراف

ص 19

نفوسكم ، وميلها عن وحدة الأثر الروحاني ، وعدالة الجمعية عن الحضور مع الأمر والنهي ، والعمل بموجباتها إلى كثرة الروح الحيوانية الطبيعية العنصرية ، وغلبة الغفلة عن الأمر والنهي وموجباتهما عليها ، فإنكم متى ما دخلتم في هذه الوقاية ولذتم بها ، وصل إليكم تمام أثر الاسم « المؤمن » وآمنكم من غلبة شرور أنفسكم ، التي

استعاذ منها النبي صلّى الله عليه وسلم في قوله : « نعوذ بالله من شرور أنفسنا »
وحصل لكم استعداد السير والسلوك والترقي في مرتبة الإيمان إلى مرتبة الإحسان ،
وتخاطبون حالتئذ بابتغاء الوسيلة بواسطة أداء الحقوق الباطنية المتعلقة بالمباحات
الفعلية منها والتركية ، طلبا للوصول إلى مقام الإحسان والتحقق به بعد أداء حقوق
الواجبات والمندوبات ، وترك المحرمات والشبهات والانحرافات والدخول في وقاية
أمر الله تعالى ونهيه ، طلبا للتحقق بحقيقة مقام الإيمان ، فابتغاء الوسيلة يكون عين
التقرب إلى الله تعالى بالنوافل حتى يحبه الله تعالى ، فيكون سمعه وبصره ولسانه ويده
ورجله ، وذلك هو الدخول في دائرة مقام الإحسان .
فابتغاء الوسيلة إليه يعم حكمه أداء الواجبات والمندوبات ، وترك المحرمات والشبهات
والانحرافات ، قولا وفعلا وخلقا وحالا ، وإتيان المباحات أو تركها مقرونا بالنية
المخلصة عن شوائب حظوظ النفس في الدنيا والآخرة ، وإليه في هذه الآية إشارة إلى
هذا الإخلاص ، إلا أن حكم ابتغاء الوسيلة بإتيان المباحات أخصّ لكونه غير متعين
مفهومه في الأمر بالتقوى التي هي السلوك في سبيل التقرب إلى الله عزّ وجل .
بإتيان الأوامر وأداء الواجبات والمندوبات التي هي مقتضاها ، والانتهاء عن النواهي
وترك المحرمات والشبهات والانحرافات التي هي مقتضياتها ، والدخول بواسطة ذلك
الإتيان والانتهاء في وقاية رضى الله تعالى وهدايته ولطفه تقي المؤمن المسلم تلك
الوقاية من ظهور آثار سخط الله تعالى وإضلاله وقهره وضره فيه ، ثم اعلم أن ابتغاء
الوسيلة هو أن يأكل المؤمن ويشرب لله تعالى ، أو يتركهما لله لا لإرادة النفس
وشهواتها ، ولا لمتابعة خاطر النفس عمل ذلك المباح أو تركه ، وكذا لا يتناول جميع
المباحات ولا يتركها إلا بنية التقرب إلى الله تعالى ، فإن كل شيء مباح هو نعمة من
الله تعالى ، والآلة التي بها يتناول تلك النعمة أيضا نعمة من الله تعالى ، وكذا القدرة
على تركها هي نعمة في حقه ، فلا يتناول ولا يترك شيئا من المباحات ، ولا يقول ولا
يعمل شيئا منها ولا يترك إمضاء خاطرهما إلا بنية أداء شكر نعم الله تعالى ، لا لأجل
شهوة النفس ومتابعة خاطرها وإرادتها ، ولا بغفلة عن ذكر الله تعالى ، وعن نية أداء

ص 20

شكر نعمه - **الوجه الثاني** - يمكن أن يكون قوله :« وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ »

[التوسل برسول الله]
من التوسل فإنه لم يقل منه أي ابتغوا منه الوسيلة ، والتوسل هو طلب - القرب من الله
:
إذا الصادق الداعي أتاك مبيّنا .... فألق إليه السمع إن كنت مؤمنا
وقلت رسول الله أنت وسيلتي .... إلى مسعدي سرا أقول ومعلنا
ولست بإيماني به مترددا .... فإني علمت الأمر علما مبينا
الوجه الثالث - قال تعالى »: وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ »والوسيلة : درجة في الجنة لا ينالها أو لا تنبغي إلا لرجل واحد ، قال صلّى الله عليه وسلم : وأرجو أن أكون أنا ، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة . فلو سأل واحد منا ربه الوسيلة في حق نفسه لما سأل ما لا يستحقه ، فإنها لم تحجر ، ولم ينص على وحدانية الشخص ، هل هو واحد لعينه أو لصفة تطلبها ، ولكن يمنعنا من ذلك الإيثار وحسن الأدب مع الله في حق رسول الله صلّى الله عليه وسلم الذي اهتدينا بهديه ، وقد طلب منا أن نسأل الله له الوسيلة ، فتعين علينا أدبا وإيثارا ومروءة ومكارم خلق أن لو كانت لنا لوهبناها له ، إذ كان هو الأولى بالأفضل من كل شيء لعلو منصبه ، وما عرفناه من منزلته عند الله ، ونرجو بهذا أن يكون لنا في الجنة ما يماثل تلك الدرجة ، فقد ثبت في الشرع أن الإنسان إذا دعا لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك له ولك بمثله ، ولك بمثليه .
فإذا دعونا له صلّى الله عليه وسلم بالوسيلة وهو غائب ، قال الملك : ولك بمثله فهي له والمثل للداعي فينال من درجات مجموعة ما يناله صاحب الوسيلة من الوسيلة ، لأن الوسيلة لا مثل لها ، أي ما ثم درجة واحدة تجمع ما جمعت الوسيلة ، وإن كان ما جمعت متفرقا في درجات متعددة ولكن للوسيلة خاصية الجمع« وَجاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ »اعلم أن الفضيلة ، عند من ابتغى إلى الله الوسيلة ، في التعمل وإن لم يعمل تحصيل ما لديه ، مع كونه ما وصل إليه ، ما تحصل نتيجة العمل لمن لم يعمل ، إلا لمن اجتهد ولم يكسل ، وأما مع الكسل فما وصل ولا توصل ، ابذل المجهود ، وما عليك أن لا تتصف بالوجود .
واعلم أيدك الله أن الإسلام والإيمان والتقوى وابتغاء الوسيلة كلها من آثار اسم الله من حيث أنه هاد ، والكفر والطغيان والعصيان والانهماك في استيفاء اللذات والشهوات وارتكاب المحرمات والشبهات ، والنسيان والغفلة عن ذكر الله وعن التفكر في آلائه ونعمائه ، كلها من آثار اسم الله تعالى ، لكن من حيث صفة إضلاله واسمه المضل ، وأئمة الكفر وشياطين الإنس والجن والكفار والعصاة والطغاة
ص 21

كلهم **مظاهر الاسم المضل** ، ومظهرو أحكامه وآثاره .
كما أن الأنبياء والرسل وأولو العزم منهم والمؤمنون بالله وبهم ، وجبريل من حيث أنه مبلغ الوحي وإظهار الشرع **مظاهر الاسم الهادي** ، ومظهرو أحكامه وآثاره .
لذلك كان بين هذين الاسمين أعني الهادي والمضل مجازات ومغالبات ومقالبات في إظهار أحكامهما وآثارهما .
فكل واحد منهما يريد إظهار مقتضياته لتعلق الكمال المختص بكل واحد منهما بظهور تلك المقتضيات والأحكام والآثار المختصة به ، فلا جرم حيث ظهر أحكام اسم الهادي ، وغلب بظهور آثاره ومقتضياته من الإيمان والإسلام والتقوى وابتغاء الوسيلة من حيث مظاهره ، ومظهرو أحكامه وآثاره من المؤمنين والصالحين والأنبياء والرسل ومالكي سبيل الحق ، لا بد وأن يقوم اسم المضل من حيث مظاهره ومظهرو أحكامه وآثاره من شياطين الإنس والجن والكفار وأئمتهم ورؤسائهم في الدفع والمنع عن ظهور اسم الهادي ومقتضياته ، وعن ظهور غلبة سلطنته ، فتعين الجهاد الصغير والكبير ، مع الشيطان وأعوانه وأنصاره وحزبه من الكفار وأئمتهم ، ورفع شرهم وكسر شهوتهم ، وقمع النفس والهوى ، وأنصارهما من الشهوة والغضب ، وما يتبعهما من القوى في العالمين الكبير التفصيلي ، والصغير الإنساني ، فلهذا رتب تعالى ذكر الأمر بالجهاد على ذكر الأثر بالتقوى وابتغاء الوسيلة فقال تعالى :« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ».
وأما سر كون الجهاد مع النفس والشيطان وأعوانهما في العالم الصغير الإنساني جهادا أكبر ، كما قال صلّى الله عليه وسلم » : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، عند اشتغاله بالصلاة عند مرجعه من جهاد الكفار .
فلأن المطلب الغائي من إيجاد الخلق إنما هو معرفة الحق بجامع كمالاته ، كما قال : « فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف » وهذا المطلب لا يتحقق تماما إلا بالجهاد في العالم الصغير الإنساني ، وغلبة الروح والقلب بالحضور والذكر والفكر والشهود والتوجه الصحيح الوحداني إلى الحق تعالى ، على النفس الأمارة والشيطان وأعوانهما وأنصارهما .
وأن الجهاد في العالم الكبير التفصيلي وسيلة وواسطة إلى ذلك المطلوب ، فإن ذلك المطلوب لا يوصل إليه إلا بالعبادة الخالصة المخلصة لله عزّ وجل ، ولا يتمكن من أداء العبادة إلا بدفع الموانع الظاهرية ، وتلك الموانع هي قصد أعداء الدين ، ومخالفتهم وممانعتهم من إظهار شعائر الشرائع والإيمان والإسلام ومخاصمتهم ومقاتلتهم على ذلك . فكان جهاد النفس في العالم الإنساني مقصودا ومطلوبا
ص 22

لذاته ، والجهاد في العالم التفصيلي وسيلة وآلة ومطلوب لغيره ، والشيء الذي يكون مقصودا ومطلوبا لذاته ، أكبر وأعلى من شيء تكون هي في رتبة الوسيلة والآلة والمطلوبية لغيره .
فالجهاد في سبيل الله يعمّ الجهادين الأصغر والأكبر ، والجهاد في الله حق جهاده يختص بالجهاد الأكبر ، وهو الجهاد مع النفس في منعها عن حظوظها بجميع المراتب والمقامات والأحوال والأخلاق والعلوم ، وفي صرفها عن استيفاء جميع حظوظها ولذاتها ومراداتها ، وفي قطع آمالها وأمانيها وقطع نظرها عن التطلع إلى شيء من الأجر في الأعمال القلبية والقالبية ، وفي سدّ باب رؤيتها شيئا منها مضافة إليها ، وقلع شاماتها باستراق الحظوظ الخفية مما منح القلب والروح والسرّ من مواهب التجليات والعلوم والمكاشفات والمشاهدات وغير ذلك . وأما سرّ استعمال صيغة الترجي عند حصول أسباب الفوز والنجاح بحصول المطلوب وهي التجلي تجلية القرب ، واستقبال حقيقة الحب ، في قوله تعالى :« لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »فهو الإشارة إلى أن الأسباب كلها معدات لا مؤثرات ، والمؤثر إنما هو الحق تعالى بقدرته عند الأسباب ، فإن الفاعل لا يظهر فعله إلا بعد حصول تمام القابلية والاستعداد لقبول ظهور الفعل ، وحصول تمام القابلية والاستعداد لقبول ظهور فعل الحق من حيث قدرته أمر مخفي على العبد ، لاحتمال بقية شرط خفي من شرائط تمام السببية ، ويحصل تمام الاستعداد بصيغة الترجي عائدة إلى حصول تمام القابلية والاستعداد لقبول فعلي الفلاح والإنجاح وإعطاء المطلوب والمقصود ، فكأنه تعالى يقول : تسببوا وحصلوا استعداد قبول فعل تقريبي فيكم ، بالتقوى وابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيلي ، لعلكم تصلون إلى تمام حصول الاستعداد والقابلية وتمام شرائطها ، ويترتب على ذلك فلا حكم وفوزكم بالقرب بظهور فعل تقريبي فيكم ، فكلما جاء في الكتاب العزيز من صيغ الترجي فراجع إلى هذا المعنى فاعلم ذلك .

سورة المائدة (5) : الآيات 36 إلى 37
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (36) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (37)
النار دار انتقال من حال إلى حال ، والحكم في عاقبتها للرحمة ، والنعمة ، وإزالة الكرب

ص 23

والغمة ، فلذلك لم توصف بدار مقامة لعدم هذه العلامة ، فسوقها نفاق ، وعذابها نفاق ، فالصورة عذاب مقيم ، والحس في غاية النعيم ، فإن نعيم الأمشاج فيما يلائم المزاج .

سورة المائدة (5) : آية 38

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38)

النكل القيد فإقامة الحد نكال في حق السارق ، وإن كان الحدّ نكالا فلا بدّ فيه من معقول الطهارة لأنه يسقط عنه في الآخرة بقدر ما أخذ به في الدنيا ، فالنكال وهو القيد ما سقط عن السارق ، فإن السارق قطعت يده وبقي مقيدا بما سرق لأنه مال الغير ، فقطع يده زجر وردع لما يستقبل ، وبقي حق الغير عليه فلذلك جعله نكالا ، والنكل القيد فما زال من القيد مع قطع يده .

سورة المائدة (5) : الآيات 39 إلى 44

فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (39) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (40) يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (41) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (42)

ص 24

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ(44)

التوراة من ورى الزند ، فهو راجع إلى النور .

سورة المائدة (5) : آية 45
وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45)

[جرح العجماء جبار]
اعلم أن الشرع قد جعل جرح العجماء جبار ، وجرح الإنسان مأخوذ به على جهة القصاص ، مع كون العجماء لها اختيار في الجرح وإرادة ، ولكن العجماء ما قصدت أذى المجروح ، وإنما قصدت دفع الأذى عن نفسها ، فوقع الجرح والأذى تبعا ، بخلاف الإنسان فإنه قد يقصد الأذى ، فمن حيوانيته يدفع الأذى ، ومن إنسانيته يقصد الأذى ، فلو لا شرف النفس ما دفع الحيوان الأذى عن نفسه ، وما قصد أذى الغير مع جهله بأنه يلزمه من غيره ما يلزمه نفسه ، وكذلك الإنسان إذا دفع الأذى عن نفسه لم يقع عليه مطالبة من الحق ، فإن تعدى وزاد على القصاص ، أو تعدى ابتداء أخذ به ولكن ما يتعدى إلا من كونه إنسانا فقد تجاوز حيوانيته إلى إنسانيته« فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ »الكفارة تعطي الستر وهو أن يستره عن الانتقام أن ينزل به لما تلبس به من المخالفات ، وتكون الكفارة في حق

ص 25

البعض سترا من المخالفات أن تصيبيه إذا توجهت عليه لتحلّ به لطلب النفس الشهوانية إياها فيكون معصوما بهذا الستر ، فلا يكون للمخالفة عليه حكم .

سورة المائدة (5) : الآيات 46 إلى 48

وَقَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (47) وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48)« وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ »

[لا مفاضلة في كلام الله من حيث ما هو كلامه]

لا مفاضلة في كلام الله من حيث ما هو كلامه ، فالكتب كلها من إل واحد ، والقرآن جامع ، فقد أغنى ، وأنت منه على يقين ، ولست من غيره على يقين ، لما دخله من التبديل والتحريف ، والمهيمن هو الشاهد على الشيء بما له وعليه وكل أمر يتوقف وجوده على وجود أمر آخر فالأمر المتوقف عليه مهيمن على من توقف وجوده عليه ،« لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً »

[سبب إنزال الشرائع]

أنزل الله الشرائع لما تتضمنه من المصالح ، فهي الخير المحض بما فيها من الأمور المؤلمة المنازعة لما تتعلق به الأغراض النفسية التي خلقها الله بالرحمة .

خلق الأدوية الكريهة ، للعلل البغيضة ، للمزاج الخاص ، والمنهاج هو ما اجتمع عليه في الأديان ، وما اختلفوا فيه من الأحكام فهو الشرعة التي جعل الله لكل واحد من الرسل ، وذلك تعيين الأعمال التي ينتهي فيها مدة الحكم المعبر عنه بالنسخ في كلام علماء الشريعة ، فهي أحكام الطريقة وكلها مجعولة

ص 26

بجعل الله ، فمن مشى في غير طريقه التي عين الله له المشي عليها ، فقد حاد عن سواء السبيل التي عين الله له المشي عليها ، كما أن ذلك الآخر لو ترك سبيله التي شرع الله له المشي عليها ، وسلك سبيل هذا سميناه حائدا عن سبيل الله ، والكل بالنسبة إلى واحد واحد على صراط مستقيم فيما شرع له . ولهذا خط رسول الله صلّى الله عليه وسلم خطأ ، وخط عن جنبتي ذلك الخط خطوطا ، فكان ذلك الخط شرعه ومنهاجه الذي بعث به ، وقيل له : قل لأمتك تسلك عليه ولا تعدل عنه . وكانت تلك الخطوط شرائع الأنبياء التي تقدمته ، والنواميس الحكمية الموضوعة ، ثم وضع يده على الخط وتلا« وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ »فأصل وضع الشريعة في العالم وسببها طلب صلاح العالم ، ومعرفة ما جهل من الله مما لا يقبله العقل ، أي لا يستقل به العقل من حيث نظره ، فنزلت بهذه المعرفة الكتب المنزلة ، ونطقت بها ألسنة الرسل والأنبياء عليهم السلام بما هو وراء طور العقل ، فعينت الرسل الأفعال المقربة إلى الله ، وأعلمت بما خلق الله من الممكنات فيما غاب عن الناس ، وما يكون منه سبحانه فيهم في المستقبل ، وجاءوا بالبعث والنشور ، والحشر والجنة والنار ، وتتابعت الرسل على اختلاف الأزمان واختلاف الأحوال ، وكل واحد منهم يصدق صاحبه ، ما اختلفوا قط في الأصول التي استندوا إليها وعبروا عنها ، وإن اختلفت الأحكام ، فتنزلت الشرائع ، ونزلت الأحكام ، وكان الحكم بحسب الزمان والحال ، واتفقت أصولهم من غير خلاف في شيء من ذلك . فالشرائع كلها بالجعل ، ولهذا تجري إلى أمد ، وغايتها حكم الحق بها في القيامة في الفريقين ، وأما اختلاف الشرائع فلاختلاف النسب الإلهية ، لأنه لو كانت النسبة الإلهية لتحليل أمر ما في الشرع ، كالنسبة لتحريم ذلك الأمر عينه في الشرع ، لما صح تغيير الحكم ، وقد ثبت تغيير الحكم ، ولما صح أيضا قوله تعالى :« لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً »وقد صح أن لكل أمة شرعة ومنهاجا ، جاءها بذلك نبيها ورسولها ، فنسخ وأثبت ، فعلمنا بالقطع أن نسبته تعالى فيما شرعه إلى محمد صلّى الله عليه وسلم ، خلاف نسبته إلى نبي آخر ، وإلا لو كانت النسبة واحدة من كل وجه ، وهي الموجبة للتشريع الخاص لكان الشرع واحدا من كل وجه بقوله تعالى :« لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً »وأما اختلاف النسب الإلهية ، فلاختلاف الأحوال ، وهو قوله تعالى :« كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ »لاختلاف الزمان فإن اختلاف أحوال الخلق سببها اختلاف الأزمان عليها ،

ص 27

واختلاف الأزمان لاختلاف الحركات الفلكية ، فإنه باختلاف الحركات الفلكية حدث زمان الليل والنهار ، وتعينت السنون والشهور والفصول ، واختلاف الحركات لاختلاف التوجهات ، وهو توجه الحق عليها بالإيجاد ، وهو تعلق خاص من كونه مريدا . وإنما اختلفت التوجهات لاختلاف المقاصد ، فقصد الرضى غير قصد الغضب ، وقصد التنعيم غير قصد التعذيب ، واختلفت المقاصد ، لاختلاف التجليات ، فلكل قصد تجل خاص ما هو عين التجلي الآخر ، فإن الاتساع الإلهي يعطي أن لا يتكرر شيء في الوجود ، واختلفت التجليات لاختلاف الشرائع ، فإن كل شريعة تعطي طريقا موصلة إليه سبحانه ، وهي مختلفة فلا بد أن تختلف التجليات - نظم في الشريعة .

طلب الجليل من الجليل جلالا .... فأبى الجليل يشاهد الإجلالا

لما رأى عز الإله وجوده .... عبد الإله يصاحب الإدلالا

وقد اطمأن بنفسه متعززا .... متجبرا متكبرا مختالا

أنهى إليه شريعة معصومة .... فأذلة سلطانها إذلالا

نادى العبيد بفاقة وبذلة .... يا من تبارك جده وتعالى

« وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً »فلم تختلف شرائعكم ، كما لم يختلف منها ما أمرتم بالاجتماع فيه وإقامته . والمراد هنا بضمير منكم في قوله :« لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً »ليس إلا الأنبياء عليهم السلام لا الأمم ، لأنه لو كان للأمم ، لم يبعث رسول في أمة قد بعث فيها رسول إلا أن يكون مؤبدا لا يزيد ولا ينقص ، وما وقع الأمر كذلك فإن جعلنا الضمير في قوله : « منكم » للأمم والرسل جميعا ، تكلفنا في التأويل شططا لا نحتاج إليه ، فكون الضمير كناية عن الرسل أقرب إلى الفهم وأوصل إلى العلم

[- إشارة - إلى الشريعة والحقيقة]

-إشارة - الشريعة هي الطرق كما قال تعالى :« لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً »والحقيقة : عين واحدة هي غاية لهذه الطرق وهو قوله »:وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ».

ص 28

سورة المائدة (5) : الآيات 49إلى 51

وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (49) أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(51)

بعضهم أولياء بعض أي ينصر بعضهم بعضا .

سورة المائدة (5) : آية 52

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (52)

« فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ «هو المرض القادح في الإيمان وهي الشبه المضلة ، إما في وجود الحق ، أو في توحيده .

سورة المائدة (5) : الآيات 53 إلى 54

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ (53) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (54)

اعلم أن حب العبد لولا ما أحبه أولا ما رزقه محبته ولا وفّقه إليها ولا استعمله فيها ، وهكذا جميع ما يكون فيه العبد من الأمور المقربة إلى الله عزّ وجل ، قال صلّى الله عليه وسلم عن الله:

ص 29

إن الله تعالى يقول : (ما تقرب المتقربون بأحب إلي من أداء ما افترضته عليهم)
فيحب الله للعبد يوفقه بهذه المحبة لاتباع رسوله فيما جاء به من الواجبات عليه ، وهي الفرائض ، والترغيب في أن يوجبوا على أنفسهم صورة ما أوجبه عليهم ويسمى نافلة ، فيحبهم الله إذ يقول صلّى الله عليه وسلم عن الله تعالى : (ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا) وقد أعلمنا الرسول صلّى الله عليه وسلم أننا إذا اتبعناه فيما جاء به أحبنا الله ، فقال تعالى :« إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ »فالحب الثاني هو عين الحب الأول ، فالأول حب عناية والثاني حب جزاء وكرامة بوافد محبوب بالحب الأول ، فصار حب العبد ربه محفوظا بين حبين إلهيين ، كلما أراد أو همّ أن يخرج عن هذا الوصف بالسلو وجد نفسه محصورا بين حبين إلهيين ، فلم يجد منفذا ، فيبقى محفوظ العين بين حب عناية ما فيها من فطور ، وبين حب كرامة ما فيها استدراج - مسئلة - إن الله أحب أولياءه ، والمحب لا يؤلم محبوبه ، وليس أحد بأشد ألما في الدنيا ولا بلاء من أولياء الله ، رسلهم وأنبيائهم وأتباعهم المحفوظين المعانين على اتباعهم ، فمن أي حقيقة استحقوا هذا البلاء مع كونهم محبين ؟ فنقول : إن الله قال :« يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ »

[من أي حقيقة ابتلي أولياء الله تعالى]
فمن كونهم محبين ابتلاهم ، ومن كونهم محبوبين اجتباهم واصطفاهم ، في هذه الدار وفي القيامة ، وأما في الجنة فليس يعاملهم الحق إلا من كونهم محبوبين خاصة ، والبلاء لا يكون أبدا إلا مع الدعوى ، فمن لم يدع أمرا ما لا يبتلي بإقامة الدليل على صدق دعواه فلو لا الدعوى ما وقع البلاء .
ولما أحب الله من أحب من عباده رزقهم محبته من حيث لا يعلمون ، فوجدوا في نفوسهم حبا لله ، فادعوا أنهم من محبي الله فابتلاهم الله من كونهم محبين .
وأنعم عليهم من كونهم محبوبين ، فإنعامه دليل على محبته فيهم ولله الحجة البالغة ، وابتلاؤه إياهم لما ادعوه من حبهم إياه ، فلهذا ابتلى الله أحبابه من المخلوقين ، والحق تعالى محب محبوب فمن حيث هو محب ينفعل لتأثير الكون ، ومن حيث هو محبوب يبتلي . والعبد أيضا محب لله محبوب لله ، فمن حيث هو محب لله يبتلى لأجل الدعوى فيفتضح صاحب الدعوى الكاذبة ، ويظهر صاحب الدعوى الصادقة ، ومن حيث أنه محبوب يتحكم على محبه ، فيدعوه فيستجيب له ، ويرضيه فيرضى ويسخطه فيعفو ويصفح مع نفوذ قدرته وقوة سلطانه ، إلا أن سلطان الحب أقوى« أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ ».
وقد شرع لنا الود في الله والبغض في الله ، وجعل ذلك من العمل المختص

ص 30

له ليس للعبد فيه حظ إلا ما يعطيه الله من الجزاء عليه ، وهو أن يعادي الله من عادى أولياءه ويوالي من والاهم ، ولكن بالحق المشروع له لله لا لنفسه ، فإن الله لا يقوم لأحد من عباده إلا لمن قام له . ولهذا قال :« يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ »فإن حق الله أحق بالقضاء من حق المخلوق إذا اجتمعا ، فإنه ليس لمخلوق حق إلا بجعل الله فإذا تعين الحقان في وقت ما ، بدأ العبد الموفق بقضاء حق الله الذي هو له ثم أخذ في أداء حق المخلوق الذي أوجبه الله .

سورة المائدة (5) : الآيات 55 إلى 60

إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (56) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57) وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (58) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ (59) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (60)

كان المسخ في بني إسرائيل ظاهرا بالصورة فمسخهم الله قردة وخنازير .

ص 31

سورة المائدة (5) : الآيات 61 إلى 64
وَإِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ (61) وَتَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (62) لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (63) وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)

" وَقالَتِ الْيَهُودُ : يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ " كنّت بذلك عن البخل فأكذبهم الله بقوله :« غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا »أي أبعدوا عن صفة الكرم الإلهي ، فإن أقوالهم أعمالهم فغلت أيديهم فوقع البخل الذي نسبوه إلى الله بهم« بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ »أي يداه مباركتان فيهما الرحمة فلم يقرن بهما شيئا من العذاب .
وهذه عندنا من أرجى آية تقرأ علينا ، فعم الكرم يديه فلا تيأسوا من روح الله فالحكم للمشيئة ، وليست مشيئته غير ذاته فأسماؤه عينه ، وأحكامها حكمه ، فاليدان مبسوطتان ، واليدان مقبوضتان ، قبضت ما أعطاها الخلق وانبسطت بما يجود به الحق ، فمنه بدأ الجود وإليه يعود .
[توحيد]
توحيد : اعلم أن الله تعالى بدليل العقل والشرع أحدي الكثرة بأسمائه الحسنى أو صفاته أو نسبه ، وهو بالشرع خاصة أحدي الكثرة في ذاته بما أخبر به عن نفسه« بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ »« ولما خلقت بيدي » « وتجري بأعيننا » « والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن »« وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ »« وكلتا يدي ربي يمين مباركة » وهذه كلها وأمثالها أخبار عن الذات أخبر الله بها عن نفسه والأدلة العقلية تحيل ذلك ، فإن كان السامع صاحب النظر العقلي مؤمنا ، تكلّف التأويل في ذلك لوقوفه مع عقله ، وإن كان السامع منور الباطن بالإيمان آمن بذلك

ص 32

على علم الله فيه مع معقول المعنى الوارد المتلفظ به من يد وإصبع وعين وغير ذلك ، ولكن يجهل النسبة إلى أن يكشف الله له عن بصيرته فيدرك المراد من تلك العبارة كشفا . فإن الله ما أرسل رسولا إلا بلسان قومه ، أي بما تواطئوا عليه من التعبير عن المعاني التي يريد المتكلم أن يوصل مراده فيما يريد منها إلى السامع ، فالمعنى لا يتغير البتة عن دلالة ذلك اللفظ عليه ، وإن جهل كيف ينسب فلا يقدح ذلك في المعقول من معنى تلك العبارة .

سورة المائدة (5) : الآيات 65 إلى 66
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (66)

"وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا " وهو معالجة الأعمال والاكتساب »التَّوْراةَ »وهم أمة موسى« وَالْإِنْجِيلَ »وهم أمة عيسى« وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ »وهم أهل القرآن وجميع كل من أنزلت عليه صحيفة ، فأقاموا كتاب الله وما أنزل إليهم من ربهم ، فهم المسارعون في الخيرات ، وهم لها سابقون« لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ »يوم القيامة في الحشر يوضع الصراط من الأرض المبدلة علوا على استقامة إلى سطح الفلك المكوكب الذي يرجع في ذلك اليوم ما تحت مقعره جهنم ، فيكون منته الصراط إلى المرج الذي خارج سور الجنة ، وفي ذلك المرج المأدبة ، وهي در مكة بيضاء نقية منها يأكل أهل المأدبة ، وهو قوله تعالى في المؤمنين من بني إسرائيل إذا أقاموا التوراة والإنجيل ، ونحن أمة محمد صلّى الله عليه وسلم نقيم كل ما أنزل إلينا من ربنا بالإيمان به ، ونعمل من ذلك بما أمرنا من العمل به ، وغيرنا من الأمم منهم من آمن كما آمنا ، ومنهم من آمن ببعض وكفر ببعض ، فمن نجا منهم قيل فيه« لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ »وهو ما خرج من فروع أشجار الجنان على السور فظلل على هذا المرج فقطفه السعداء« وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ »هو ما أكلوه من الدرمكة البيضاء التي هم عليها.

تفسير[من باب الإشارة : الوجه الأول - يشير الحق تعالى إلى أنهم لو أقاموا الكتاب]
من باب الإشارة : الوجه الأول - يشير الحق تعالى إلى أنهم لو أقاموا الكتاب من رقدته ، فإن التأويل من العلماء أضجعه بعد ما كان قائما ، فجاء من وفقه الله فأقامه من رقدته أي نزهه عن تأويله والتعمل فيه بفكره ، فقام بعبادة ربه وسأله أن يوقفه على مراده
ص 33

من تلك الألفاظ التي حواها الكتاب ، والتعريف من المعاني المخلصة عن المواد ، فأعطاهم الله العلم غير مشوب قال تعالى :« وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ »يعلمهم الحق ما يؤول إليه هذا اللفظ المنزل المرقوم وما أودع فيه من المعاني من غير فكر فيه إذ الفكر في نفسه غير معصوم من الغلط في حق كل واحد - الوجه الثاني -« لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ »لأعطاهم من العلوم الخارجة عن الكسب ، وهي علم الوهب اللدني« وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ »من العلوم الداخلة تحت الكسب الذي يناله أهل التقوى من هذه الأمة ، فهي معارف مكتسبة لا موهوبة ، من كسبهم واجتهادهم - الوجه الثالث -« لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ »الضمير يعود على الذين أكلوا من فوقهم ، وهم الذين ذكر الله لو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم فأكلوا من فوقهم ، وهو علم الوهب لا من جهة الكسب ، وهو العلم المذكور في الوجه الثاني بقسميه ثم قال« وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ »فمن تحت أرجل هؤلاء أمم منهم أمة مقتصدة ، وهم أهل الكسب ، وهم الذين يتأولون كتاب الله ولا يقيمونه بالعمل الذي نزل إليه ، ولا يتأدبون في أخذه ، وهم على قسمين : القليل منهم المقتصد في ذلك وهو الذي قارب الحق ، وقد يصيب الحق فيما تأوله بحكم الموافقة ، لا بحكم القطع ، فإنه ما يعلم مراد الله فيما أنزله على التعيين إلا بطريق الوهب ، وهو الإخبار الإلهي الذي يخاطب به الحق قلب العبد في سره بينه وبينه . ومن لم يقتصد في ذلك وتعمق في التأويل بحيث أنه لم يترك مناسبة بين اللفظ المنزل والمعنى ، أو قرر اللفظ على طريق التشبيه ، ولم يرد علم ذلك إلى الله فيه ، وهم الذين قال الله فيهم في الآية عينها« وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ »وأي سوء أعظم من هذا ، وهؤلاء هم القسم الثاني . فالتقدير في الآية على التفسير« وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ »أمم« مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ »ولهذا قال لنبيه :« وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ »وقال :« ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ »فأشرف العلوم ما ناله العبد من طريق الوهب - الوجه الرابع »-لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ »يريد استواءه على العرش والسماء بل كل ما علا« وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ »يريد نسبة التحت إلى الله من قوله صلّى الله عليه وسلم « لو دليتم بحبل لهبط على الله » مع أنه ليس كمثله شيء فالنسب إليه على السواء فلله الفوق والتحت.

ص 34

سورة المائدة (5) : آية 67
يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (67)

الوجه الأول : لما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم المنزل عليه القرآن مأمورا بتبليغه إلى المكلفين وتبيينه للناس ما نزل إليهم ، ومن الأشياء ما هي مشهودة لهم وغائبة عنهم ، ولم يؤمر أن يحرف الكلم عن مواضعه بل يحكي عن الله كما حكى الله له قول القائلين ، وقولهم يتضمن الغيبة والحضور ، فما زاد على ما قالوه في حكايته عنهم وقيل له صلّى الله عليه وسلم :« يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ »

[كيفية تبليغ الرسول صلّى الله عليه وسلم للقرآن الكريم]
فلم يعدل عن صورة ما أنزل إليه فقال ما قيل له ، فإنه ما نزلت المعاني على قلبه من غير تركيب هذه الحروف وترتيب هذه الكلمات ونظم هذه الآيات وإنشاء هذه السور المسمى هذا كله قرآنا ، فلما أقام الله نشأة القرآن صورة في نفسها ، أظهرها صلّى الله عليه وسلم كما شاهدها ، فأبصرتها الأبصار في المصاحف ، وسمعتها الآذان من التالين ، وليس غير كلام الله هذا المسموع والمبصر ، وألحق الذم بمن حرّفه بعد ما عقله وهو يعلم أنه كلام الله ، فأبقى صورته كما أنزلت عليه ، فلو بدل من ذلك شيئا وغير النشأة لبلغ إلينا صورة فهم لا صورة ما أنزل عليه ، فإنه لكل عين من الناس المنزل إليهم هذا القرآن نظر فيه ، فلو نقله إلينا على معنى ما فهم ، لما كان قرآنا أعني القرآن الذي أنزل عليه ، فإن فرضنا أنه قد علم جميع معانيه بحيث أنه لم يشذ عنه شيء من معانيه قلنا : فإن علم ذلك وهذه الكلمات تدل على جميع تلك المعاني فلأي شيء يعدل ؟
وإن عدل إلى كلمات تساويها في جميع تلك المعاني فلا بد لتلك الكلمات التي يعدل إليها من حيث ما هي أعيان وجودية ، أعيان غير هذه الأعيان التي عدل عنها التي أنزلت عليه ، فلا بد أن تخالفها بما تعطيه من الزيادة من حيث أعيانها على ما جمعته من المعاني التي جمعتها الكلمات المنزلة ، فيزيد للناظر في القرآن معاني أعيان تلك الكلمات المعدول إليها ، كما أيضا ينقص مما أنزل الله أعيان تلك الكلمات التي عدل عنها ، فكأن الرسول قد نقص في تبليغ ما أنزل إليه أعيان تلك الكلمات وحاشاه من ذلك ، فلم يكن ينبغي له إلا أن يبلغ إلى الناس ما نزل إليهم صورة مكملة من حيث الظاهر حروفها اللفظية والرقمية ، ومن حيث الباطن معانيها ، فالرسول مبلغ ما قيل له قل ، ولو كان مبلغا ما عنده ، أو ما يجده من العلم في نفسه ، لم يكن رسولا ، ولكان
ص 35

معلما . فكل رسول معلم وما كل معلم رسول .
الوجه الثاني : لما كان الرسول صلّى الله عليه وسلم بعث رحمة ، ورأى الكثير لم تصبه هذه الرحمة ، وأن علة ذلك إنما كان تأويلهم بالوجهين من التشبيه ، أو البعد عن مدلول اللفظ بالكلية ، تحيّر في التبليغ ، وتوقف حتى يرى هل يوجب ذلك عليه ربه أم لا ! فأنزل الله تعالى« يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ »فعلم الرسول أن المراد منه التبليغ لا غير ، فبلّغ صلّى الله عليه وسلم وما أخفى مما أمر بتبليغه شيئا أصلا ، فإنه معصوم محفوظ قطعا في التبليغ عن ربه ما أمر بتبليغه ، وما خصّ به فهو على ما يقتضيه نظره . فوظيفة الرسل والورثة من العلماء إنما هو التبليغ بالبيان والإفصاح لا غير ، وجزاؤهم جزاء من أعطى ووهب ، وذلك بالنصيحة والتبليغ ، ليس بيده من الأمر غير هذا فلما بلّغ قيل له : « ما عليك إلا البلاغ »« لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ »« إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ »فإن ذلك خاص بالله تعالى« وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ ». فإن حقيقة الرسالة إبلاغ كلام من متكلم إلى سامع ، وهو علم يوصله إلى المرسل إليه . فأوجب عليه البلاغ »وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم قبل أن يعرف بعصمته من الناس إذا نزل منزلا يقول من يحرسنا الليلة ؟ مع كونه يعلم أن الله على كل شيء حفيظ ، ولا يعلم حافظا سواه ، ويعلم بأن المقدور كائن ، والحارس ليس بمانع ما قدر ولا صائن ، لكن طلب المعبود بذل المجهود وهو يفعل ما يشاء وهذا من الأمور التي شاء ، فإن الله مع الأنبياء بتأييد الدعوى ، لا بالحفظ والعصمة ، إلا إن أخبر بذلك في حق نبي معين فإن الله قد عرفنا أن الأنبياء قتلتهم أممهم وما عصموا ولا حفظوا ، فلما نزلت« وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »أقام العصمة مقام الحرس ، ولم يجنح إلى العسس .

[سورة المائدة (5) : الآيات 68 إلى 69]
قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (68) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(69)

ص 36

الصابئون من صبا أي مال يقال : صبا فلان إلى دين فلان ، إذا مال إليه .

سورة المائدة (5) : الآيات 70 إلى 71
لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَأَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ (70) وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (71)

"وَحَسِبُوا " أي وظنوا "أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ »فكانت الفتنة وما كان ما حسبوا« فَعَمُوا وَصَمُّوا ». . . الآية .

سورة المائدة (5) : آية 72
لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (72)

لما عبدت بنو إسرائيل الله في المسيح حيث ظهر بالاسم الدهر والاسم القيوم فاتخذوا ناسوت عيسى مجلى قال لهم :« إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ »أي حرم الله عليه كنفه الذي يستره والله قد وصفهم بالستر حيث وصفهم بالكفر ، فهي آية يعطي ظاهرها نفس ما يعطي ما هو عليه الأمر في ذلك .

سورة المائدة (5) : آية 73
لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (73)

ما كفر القائل بالثلاثة وإنما كفر بقوله :« إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ »فلو قال : ثالث اثنين ، لأصاب الحق وأزال المين ، ولما كان كافرا ، فإنه سبحانه وتعالى ليس من جنس الممكنات ،

ص 37

فلذلك كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، ولم يكفر من قال إنه رابع ثلاثة وخامس أربعة ، بالغا ما بلغ ولما كان الاسم الأحد لا يكون عنه شيء البتة ، وعن الاسم الفرد ظهر ما ظهر من أعيان الممكنات ، فما وجد ممكن من واحد ، وإنما وجد من جمع ، وأقل الجمع ثلاثة ، وهو أول الأفراد ، فافتقر كل ممكن إلى الاسم الفرد يدل على ذلك أن التكوين الإلهي عن قول كن ، وهو ثلاثة أحرف كاف وواو ونون الواو بين الكاف والنون لا ظهور لها لأمر عارض ، أعطاه سكون النون وسكون الواو ، إلا أنه للنون سكون أمر ، فسرت هذه الحقيقة الفردية . والثلاثة أول الأفراد ، وكان غاية المشرك أن يقول .« إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ »ولم يزد على ذلك وما حكى عن مشرك بالله أنه قال فيه غير ثالث ثلاثة وجاء رابع أربعة ولا ثامن ثمانية ، فلسريان حقيقة التثليث الموجودة في الأصل قال تعالى فيمن قال بالتثليث : إنه كافر وما سماه مشركا ، فإنه ستر ما كان ينبغي له مما بيناه فلما ستر هذا البيان سماه كافرا ، لأنه ما من إله إلا إله واحد ، وإن كانت له أحكام مختلفة فلو لم يستر هذا الكافر وأبان لقال ما هو الأمر عليه . وأما من يدعي أن الآلهة ثلاثة ، فذلك مشرك جاهل وهو من الضلال فإنه ما ثم على الأحدية زائد .

سورة المائدة (5) : الآيات 74 إلى 80

أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75) قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (77) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (78) كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ(80)

ص 38

لكون النار جعلها الله دار من سخط عليه .

سورة المائدة (5) : الآيات 81 إلى 82
وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَلكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (81) لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (82)
المكلف إذا خاف وقامت به الرهبة ، فأدته إلى مراعاة الحدود سمي راهبا ، وسميت الشريعة رهبانية ، ومدح الله الرهبان بذلك في كتابه .

سورة المائدة : (5)آية 83
وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83)
يقول تعالى في حق من سمع من النصارى« وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ »فوصفهم بأنهم يسمعون ، ثم ذكر ما كان منهم حين سمعوا فقال »: تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ «وما أثر فيهم إلا من أثر علمهم القائم بهم لما تدل عليه تلك الآية ، وشهودهم ما تضمنه الأمر الذي أبكاهم ، فلم يكن الأثر لصورة لفظ الآية ، وإنما الأثر لما قام بنفس العالم بها المشاهد ما نزلت له تلك الآية ، لذلك قال تعالى عنهم :« يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ »وأخبر تعالى أنهم آمنوا ، وأخبر أنه تعالى أثابهم على إيمانهم بما ذكر في الآيات ، فالراهب يترك بحكم الحق وما انقطع إليه ، ولم يكفره بل سلم له ما هو عليه ، ما ذاك إلا

ص 39

لانفراده وانتزاحه عن عباده ، فلو دخل مع الجماعة في العمل ، لألحقه في الحكم بمن أسر وقتل ، فلا تتعرضوا لأصحاب الصوامع ، فإن نفوسهم سوامع ، ترى أعينهم عند السمع تفيض من الدمع ، ما لهم علم بما هم عليه الناس من الالتباس ، تجنبوا الحيف ، وتدرعوا الخوف .

- تفسير من باب الإشارة –

يا عين بالنظر الذي .... قد نلت منه تشفعي
واهمي الدموع ببابه .... وتملقي وتصنعي

[في صفة العارفين بالله]

يقول الله عزّ وجل في صفة العارفين بالله :« وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ »ولم يقل علموا فوصفهم بالمعرفة« يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ »ولم يقولوا علمنا .

سورة المائدة (5) : آية 84

وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84)

« وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ »ولم يقل نعلم« وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ »وما قالوا نتحقق« أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ »وهي الدرجة الرابعة« فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا »ولم يقل بما علموا.

سورة المائدة (5) : آية 85

فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (85)

فالعارف دون العالم الصديق ، ولا يسمى عارفا إلا من كان حظه من الأحوال البكاء ، ومن المقامات الإيمان بالسماع لا بالأعيان ، ومن الأعمال الرغبة إليه سبحانه ، والطمع في اللحوق بالصالحين ، وأن يكتب مع الشاهدين ، »فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ »فأخبر تعالى أن سماعهم من الكتاب الكبير لا من أنفسهم ، ثم قال :« فَأَثابَهُمُ »ولا نشك أن الصدّيقية درجة فوق هاتين الصفتين اللتين طلب العارف أن يلحق بهما فهو

ص 40

دونهما ، وقد سمي عارفا وقال تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » فانظر إلى هذه الدرجات ، ثم لتعلم أن الشهداء الذين رغب العارف أن يلحق بهم هم العاملون على الأجرة وتحصيل الثواب ، وأن الله عزّ وجل قد برأ الصديقين من الأعواض وطلب الثواب ، إذ لم يقم بنفوسهم ذلك ، لعلمهم أن أفعالهم ليست لهم أن يطلبوا عوضا ، بل هم العبيد على الحقيقة ، والأجراء مجازا قال عزّ وجل :« وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ »ولم يذكر لهم عوضا على عملهم ، إذ لم يقم لهم به خاطر أصلا ، لتبريهم من الدعوة . ثم قال »: وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ »وهم الرجال الذين رغب العارف أن يلحق بهم ، ويرسم في ديوانهم ، وقد جعلهم تعالى في حضرة الربوبية ، ولم يشترط في إيمان الصديقين السماع ، كما فعل بالعارفين حكمة منه سبحانه .

وانظر أدب رسول الله صلّى الله عليه وسلم أين جعل العارف حيث جعله الحق فقال : « من عرف نفسه عرف ربه » ولم يقل علم فلم ينزله عن حضرة الربوبية ولا عن حضرة نفسه التي هي صاحبة الجنة كما قال : « وفيها ما تشتهي الأنفس » فالعارف صاحب الشهوة المحمودة تربيه بين يدي العالم الصديق .

سورة المائدة (5) : الآيات 86 إلى 88

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (86) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)

ظاهر الشرع يعطي أن العامل في الحال رزقكم ، فإن من هنا في قوله :« مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ »للتبيين لا للتبعيض ، فإنه لا فائدة للتبعيض ، فإن التبعيض محقق مدرك ببديهة العقل لأنه ليس في الوسع العادي أكل الرزق كله ، وإن كانت للتبيين وهي متعلقة بكلوا فبين أن رزق الله هو الحلال الطيب ، فإن أكل ما حرم عليه فما أكل رزق الله ، فإن رزق الله عند بعض العلماء جميع ما يقع به التغذي من حلال وحرام ، فنهانا عن التغذي بالحرام ، فلو كان رزق الله في الحرام ما نهانا عنه ، فإذا ما هو الحرام رزق الله وإنما هو رزق ، ورزق الله هو الحلال.

ص 41

سورة المائدة (5) : آية 89

لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)

لا قسم إلا باللّه ، وما عدا ذلك من الأقسام فهو ساقط ما ينعقد به يمين في المقسوم عليه ، ولهذا قال تعالى :« لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ »واللغو : الساقط فمعناه لا يؤاخذكم الله بالأيمان التي أسقط الكفارة فيها إذا حنثتم ،« وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ »فلما سقط العقد بالقلب عند اليمين ، سقطت الكفارة إذا وقع الحنث ، ولا خلاف بين العلماء أن الكفارة في الأيمان المذكورة في القرآن أنها في اليمين باللّه لا بغيره . وجاء بالأيمان معرفة بالإضافة والألف واللام ، وقد صح عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم النهي عن اليمين بغير اللّه .

[أنواع الأقسام]

أنواع الأقسام : راجع سورة الحاقة آية 38« فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَما لا تُبْصِرُونَ »فكفارته إطعام عشرة مساكين .

إنما عوقب بالكفارة لأنه أمر بمكارم الأخلاق ، واليمين على ترك فعل الخير من مذام الأخلاق ، فعوقب بالكفارة . ومن وجه آخر ، إن المسئ في حقنا الذي خيرنا اللّه بين جزائه بما أساء وبين العفو عنه ، أنه لما أساء إلينا أعطانا من خير الآخرة ما نحن محتاجون إليه ، حتى لو كشف اللّه الغطاء بيننا وبين ما لنا من الخير في الآخرة في تلك المساءة حتى نراه عيانا لقلنا : إنه ما أحسن أحد في حقنا ما أحسن هذا الذي قلنا عنه : إنه أساء في حقنا ، فلا يكون جزاؤه عندنا الحرمان ، فنعفو عنه فلا نجازيه ونحسن إليه مما عندنا من الفضل على قدر ما تسمح به نفوسنا ، فإنه ليس في وسعنا ولا يملك مخلوق في الدنيا ما يجازي به من الخير من أساء إليه ، ولا يجد ذلك الخير ممن أحسن إليه في الدنيا ، ومن كان هذا عقده ونظره كيف يجازي المسئ بالسيئة إذا كان مخيّرا فيها ؟ فلما آلى وحلف من أسيء إليه فما وفي المسئ حقه وإن لم يقصد المسئ إيصال ذلك الخير إليه ، ولكن الإيمان قصده ، فينبغي له أن يدعو له إن كان مشركا بالإسلام ، وإن كان مؤمنا بالتوبة والصلاح . ولو لم يكن ثم إخبار من

ص 42

الله بالخير الأخروي لمن أسيء إليه إذا صبر ولم يجاز ، لكان المقرر في العرف بين الناس كافيا فيما في التجاوز والعفو والصفح عن المسئ ، فإن ذلك من مكارم الأخلاق ، ولولا إساءة هذا المسئ إليّ ما اتصفت أنا ولا ظهرت مني هذه المكارم من الأخلاق ، كما أني لو عاقبته انتفت عني هذه الصفات في حقه ، وكنت إلى الذمّ أقرب مني إلى أن أحمد على العقاب ، فكيف والشرع قد جاء في ذلك ! بأن أجر من يعفو ويتجاوز ولا يجازي أنه على الله فلا تدخل ابتداء في اليمين ، فأهل الله في كل نفس مع ما يكشف لهم ، فلا يدرون حكم النفس الثاني ، فلا يحسن بهم التقيد باليمين على أمر في المستقبل .

سورة المائدة (5) : آية 90

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90)

[كل مسكر حرام]

قال صلّى الله عليه وسلم : كل مسكر حرام ، فالحكم التحريم ، والعلة الإسكار ، فالحكم أعمّ من العلة الموجبة للتحريم ، فإن التحريم قد يكون له سبب آخر غير السكر في أمر آخر . ولا يطرب الشارب إلا إذا شرب خمرا وإذا شرب خمرا فقد جاء شيئا إمرا ، لأنه يخامر العقول فيحول بينها وبين الأفكار ، فيجعل العواقب في الأخبار فيبدي الأسرار برفع الأستار فحرمت في الدنيا لعظيم شأنها ، وقوة سلطانها . الأزلام : قداحة الميسر ، واحده زلمة وقد أمرنا باجتناب عمل الشيطان في قوله : « فإنه رجس من عمل الشيطان » وهو البعيد من رحمة الله « فاجتنبوه » أي كونوا مع الاسم القريب من الرحمة.

سورة المائدة (5) : الآيات 91 إلى 94

إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (92) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا

ص 43

وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (94)

اعلم أن الخوف من الله هو الخوف الأعظم ، فإنه المسلّط وبيده ملكوت كل شيء فأين الأمان ؟ فالإنسان إذا كان في أمان في دنياه وفي ماله وعلى نفسه مما يؤذيه ، فعليه أن يخاف من الله مما في غيبه ، مما لا يعلمه ولا يعلم أوانه ، ولو كان الخائف يخاف الله مطلقا لتعلق خوفه على دينه ، فإن سبيل الشيطان إلى قلبه ليست آمنة ، كما أمنت السبل الظاهرة التي تمر فيها السفار من الناس . وإذا خاف الله شغله خوفه عن ماله ونفسه ، فإنه يخاف على دينه أن يسلبه منه الشيطان ، فالعاقل يجب أن يكون في حال أمنه خائفا من الله تعالى ،

[علم الله في الأشياء سابق لا يحدث له علم]

وأما قوله تعالى :« لِيَعْلَمَ اللَّهُ »فاعلم أن علم الله في الأشياء سابق لا يحدث له علم ، بل يحدث التعلق لا العلم ، ولو حدث العلم لم تقع الثقة بوعده لأنا لا ندري ما يحدث له . فإن قلت فهذا أيضا يلزم في الوعيد ، قلنا : كذا كنا نقول ، ولكن علمنا أنه ما أرسل رسولا إلا بلسان قومه ، وبما تواطئوا عليه في كل ما هو محمود ، فيعاملهم بذلك في شرعهم كذا سبق علمه ، وهذا لسان عربي مبين ومما يتمدح به أهل هذا اللسان ، بل هو مدح في كل أمة ، التجاوز عن إنفاذ الوعيد في حق المسئ ، والعفو عنه ، والوفاء بالوعد الذي هو في الخير . وهو الذي يقول فيه شاعر العرب :

وإني إذا أوعدته أو وعدته .... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فكان إنزال الوعيد بعلم الله الذي سبق بإنزاله ، ولم يكن في حق قوم إنفاذه في علم الله ، ولو كان في علم الله لنفذ فيهم كما ينفذ الوعد الذي هو في الخير ، لأن الإيعاد لا يكون إلا في الشر ، والوعد يكون في الخير وفي الشر معا . يقال : أوعدته في الشر ، ووعدته في الشر والخير .

وقال تعالى :« وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »فمما بين لهم تعالى ، التجاوز عن السيئات في حق من أساء من عباده ، والأخذ بالسيئة من شاء من عباده ،

ص 44

ولم يفعل ذلك في الوعد بالخير فأعلمنا ما في علمه .

سورة المائدة (5) : آية 95
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (95)
هذه الآية محكمة ، فحرم قتل الصيد في الحرم ، وإن كان الإنسان خارج الحرم حرم عليه قتل الصيد ما دام محرما .
فالآية هنا في قتله لا في صيده في الحرم كان أو في الحل ، فالصيد قتل تعديا بغير حق ، والحرم صفة المحرم والبقعة ، فمن تعمّد قتله محرما أو في الحرم فقد تعدّى عليه ، فكلّف المعتدي بجزاء مثل ما قتل من النعم« يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ »فيه رائحة أن الجائر في الحكم يسمى حكما شرعا ، إلا أن الحاكم لما شرع له أن يحكم بغلبة ظنه وليس علما فقد يصادف الحق في الحكم ، وقد لا يصادف وليس بمذموم شرعا ويسمى حكما ، وإن لم يصادف الحق ويمضي حكمه عند اللّه وفي المحكوم عليه وله ، فإنه حكم بما شرع له من إقامة الشهود أو الإقرار . وقد تكون الشهادة زورا ، ويكون الإقرار ليس بحق .
« أَوْ كَفَّارَةٌ »إنما شرعت الكفارات لتكون حجبا بين العبد وبين ما عرض إليه نفسه من حلول البلايا بالمخالفات التي عملها ، مأمورا كان بذلك أو منهيا عنه ، فإذا جاء المنتقم بالبلاء المنزل الذي تطلبه هذه المخالفة ، وجدت هذه الأعمال قد سترته في ظل جناحها واكتنفته ، وصارت عليه جنة ووقاية ، فلم يجد البلاء منفذا ، فلم ينفذ فيه الوعيد لغلبة سلطان هذا العمل المسمّى كفارة ، والكفر : الستر ، ومنه سمى الزارع كافرا لأنه يستر البذر في الأرض ويغطيه بالتراب .« طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً »والكفارة هنا يخير الحكمان الذي عليه الجزاء ، فإن كلمة - أو - تقتضي التخيير ، ولو أراد الحق الترتيب في الكفارة لقال وأبان ، كما فعل في كفارات الترتيب فمن لم يجد ،
[المثل في كفارة قتل المحرم الصيد]
ومذهبنا في المثل المذكور هنا هو أن في كل شيء مثله ، فإن كان نعامة اشترى نعامة صادها حلال في حلّ ، وكذلك

ص 45

كل مسمى صيد مما يحل صيده وأكله من الطير وذوات الأربع . أو كفارة بإطعام ، وحدّ ذلك أن ينظر قيمة ما يساوي ذلك المثل ، فيشتري بقيمته طعاما فيطعمه للمساكين .« أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً »يعني أو مثل ذلك صياما ، إذ العدل : المثل فننظر إلى أقرب الكفارات شبها بهذه الكفارة الجامعة لهدي أو إطعام أو صيام ، فلا نجد إلا من حلق رأسه وهو محرم لأذى نزل به ، ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ، فذكر الثلاثة المذكورة في كفارة قتل الصيد ، فجعل الشارع هنالك في الإطعام ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع ، وجعل الصيام ثلاثة أيام ، فجعل لكل صاع يوما ، فننظر القيمة فإن بلغت صاعا أو أقل فيوم ، فإن الصوم لا يتبعض وإن بلغت القيمة أن نشتري بها صاعين ، أو دون الصاعين أو أكثر من الصاع ، فيومان وهكذا ما بلغت القيمة وأعني بالقيمة قيمة المثل ، يشتري بها طعاما فيطعم ، والصيام محمول على ما حصل من الطعام بالشراء على ما قررناه ، فهو مخيّر بين المثل والإطعام بقيمة المثل والصيام بحسب ما حصل من الطعام من قيمة المثل ، والحكمة في ذلك أن المثل على مذهبنا صيد صاده حلال في حلال ، فيطلقه القاتل عند الكعبة فهو إحياء للمثل من القتل الجائز عليه من الحلال في الحلّ ، والحكمة في المثل على المذاهب الأخرى وهو ما يقدم من النعم الأنسي ، وكذا في الطعام فإن تناوله سبب في بقاء حياة المتغذي به لأنه أتلف نفسا ، وأزال حياة فجبرها وكفر ذلك بما يكون سببا لإبقاء حياة ، فكأنه أحياها زمان بقائها بحصول ذلك الغذاء من المثل أو الطعام ، وأما الصيام فإنه صفة ربانية ، فكلّف أن يأتي بها هذا القاتل إن لم يكفر بالمثل أو الإطعام ، أن يكفر بالصوم ، حتى يكون القاتل غير محجور عليه ، فيتلبس بصفة الحق وهو الصوم ، من قوله تعالى : « الصوم لي » فلا يتصف الحق بالحجر عليه ، فيتلبس القاتل بصفة هي للحق ، فيحصل في الحمى عن الحجر عليه ، فإذا صام كان الصوم للحق والجوع للقاتل ، فبما في الصوم من الجوع في حقه الذي ليس للحق يكون كفارة ، لأن الجوع من الأسباب المزيلة للحياة من الحي ، فأشبه القتل الذي هو سبب مزيل للحياة من الحي ، ولم تزل حياة القاتل لأنه جوع صوم ، والصوم من صفات الحق وهو غير مؤثر في الحياة الأزلية ، فلهذا لم يجع جوع إتلاف فقال تعالى :« لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ »ومن عاد لمثل ذلك الفعل فينتقم الله منه إما بإعادة الجزاء فإنه وبال ، والوبال : الانتقام وإما أن يسقط عنه في الدنيا

ص 46

هذا الوبال المعين ، وينتقم الله منه بمصيبة يبتليه بها ، إما في الدنيا وإما في الآخرة فإنه لم يعيّن .« وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ »أما من قتل صيدا خطأ فلا شيء عليه ، وإذا اشترك جماعة من المحرمين في قتل الصيد ، فإن عرف كل واحد من الشركاء أنه ضربه في مقتل ، كان على كل من ضربه في مقتل جزاء ، ومن جرحه في غير مقتل فلا جزاء عليه ، وهو آثم حيث تعرض بالأذى لما حرم عليه ، ولا يجوز للقاتل أن يكون أحد الحكمين ، وأما عن الإطعام فحيثما أطعم أجزأه لأن الله ما عيّن ، وأما الحالّ يقتل الصيد في الحرم فلا شيء عليه وهو آثم ، والمحرم إذا قتل الصيد وأكله فعليه كفارة واحدة .

سورة المائدة (5) : آية 96
أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96)
اتفقوا على تحريم الصيد برا ، ويغلب على الظن الخبر الصحيح الوارد : أنه إذا لم يكن للمحرم في صيده تعمل وصاده حلال فله أكله ، فإن كلمة « صيد » في الآية تحتمل الفعل وقد يراد به المصيد ، فصيد البر حرام ما داموا حرما في المكان الحلال والحرام ، وسكانا في الحرام وإن كانوا حلالا أو حراما .

[الإشارة والاعتبار في الإحرام]
الإشارة والاعتبار في الإحرام - لما أمر الله تعالى الإنسان أن يدخل في الإحرام فيصير حراما بعد ما كان حلالا ، وصفه بصفة العزة أن يصل إليه شيء من الأشياء التي كانت تصل إليه قبل أن يتصف بهذه المنعة ، إذ الأشياء تطلب الإنسان لأنها خلقت من أجله ، فهي تطلبه بالتسخير الذي خلقها الله عليه ، والإنسان مخلوق على الصورة ، ومن حقيقة الصورة التي خلق عليها العزة أن تدرك أو تنال بأكثر الوجوه ، فجعل لمن حصل الصورة بخلقه عزة وتحجيرا في عبادات من صوم وحج وصلاة ، أن يصل إليه بعض ما خلق من أجله ، فاعتز وامتنع عن بعض الأشياء ، ولم يمتنع عن أن يناله بعضها ، فما حرّمت عليه الأشياء على الحقيقة ، وإنما هو الحرام على الأشياء ، لأنه ما خلق إلا لربه ، والأشياء خلقت له ، فهي تطلبه ، كما أنه يطلب ربه ، فامتناع في وقت كامتناع ، ووصول في وقت كوصول ، فأبان سبحانه لك عن مرتبتك لتعرف موطن ذلتك من موطن عزتك ، وأنت ما اعتززت ولا صرت حراما على الأشياء منك ، بل هو جعلك حراما على الأشياء

ص 47

أن تنالك ، فأمرك أن تحرم ، فدخلت في الإحرام ، فصرت حراما ، وما جعل ذلك لك عن أمره سبحانه إلا ليكون ذلك قربة إليه ، ومزيد مكانة عنده تعالى ، وحتى لا تنسى عبوديتك التي خلقت عليها بكونه تعالى جعلك مأمورا في هذه المنعة ، دواء لك نافعا ، يمنع من علة تطرأ عليك لعظيم مكانتك ، فلا بد أن يؤثر فيك خلقك على صورته عزة في نفسك ، فشرعها لك في طاعته بأمر أمرك فيه أن تكون حراما ، لا احتجارا عليك بل احتجارا لك ، فالإنسان عبد عينا ورتبة ، كما هو سيد عينا لا رتبة ، ولهذا إذا ادّعى الرتبة قصم وحرم ، وإذا ادّعى العين عصم ورحم ، والإنسان واحد في الحقيقة ، غير أنه ما بين معتنى به وغير معتنى به .

سورة المائدة (5) : آية 97
جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97)

[لم سميت الكعبة كعبة ؟]
جعل الله تعالى لبيته أربعة أركان لسر إلهي وهي في الحقيقة ثلاثة أركان ، لأنه شكل مكعب ، الركن الواحد الذي يلي الحجر مكعب الشكل ولأجل ذلك سمي كعبة تشبيها بالكعب ، خرج مسلم عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلا من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه ، فأخبر بذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فركب راحلته فخطب فقال : « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، ألا وإنها لا تحل لأحد قبلي ، ولن تحلّ لأحد بعدي ، ألا وإنها أحلّت لي ساعة من نهار ، ألا وإنها ساعتي هذه ، وهي حرام لا يخبط شوكها ، ولا يعضد شجرها ، ولا يلقط ساقطتها إلا لمنشد ، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، إما أن يعطى - يعني الدية - وإما أن يقاد أهل القتيل - الحديث - ، فهذا هو حمى الله وحرمه ، ولا موجود أعظم من الله ، فلا حمى ولا حرم أعظم من حرم الله ولا حماه في الأماكن ، فإن مكة حرّمها الله ولم يحرمها الناس .

سورة المائدة (5) : الآيات 98 إلى 99
اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98) ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ(99)

ص 48

الداعي إلى الله ما يجب عليه إلا البلاغ ، وما يلزمه خلق القبول والهداية في نفس السامع .

[الفرق بين الرسول والخليفة]
فدرجة الرسالة إنما هي التبليغ خاصة ، فليس للرسول التحكم في المخالف ، إنما له تشريع الحكم عن الله أو بما أراه الله ، فإذا أعطاه الله التحكم فيمن أرسل إليهم فذلك هو الاستخلاف والخلافة ، والرسول الخليفة . فما كل من أرسل حكم ، فإذا أعطي السيف وأمضى الفعل حينئذ يكون له الكمال ، وإن ظهر إنسان بالتحكم من غير نبوة ، فهو ملك وليس بخليفة ، فلا يكون خليفة إلا من استخلفه الحق على عباده ، لا من أقامه الناس وبايعوه وقدموه لأنفسهم وعلى أنفسهم .

سورة المائدة (5) : الآيات 100 إلى 101
قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101)
قال الصحابة نهينا أن نسأل رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا يسألونه عن الأشياء حتى نهوا عن ذلك رحمة بهم وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : اتركوني ما تركتكم ، وقال لو قلت : نعم - للسائل عن الحج في كل عام - لوجبت .
وكانت الأحكام تحدث بحدوث السؤال عن النوازل ، فكان غرض النبي صلّى الله عليه وسلم حين علم ذلك أن يمتنع الناس عن السؤال ، ويجرون مع طبعهم حتى يكون الحق هو الذي يتولى من تنزيل الأحكام ما شاء ، فكانت الواجبات والمحظورات تقل ، وتبقى الكثرة من قبيل المباحات التي لا يتعلق بها أجر ولا وزر ، وما كان ربك نسيا .

سورة المائدة (5) : الآيات 102إلى 105
قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ (102) ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ وَلكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (103) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ (104) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(105)

ص 49

«لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ »بما عرفتكم به مني في كتابي ، وعلى لسان رسولي ، فعرفتموني بما وصفت لكم به نفسي فلم تضلوا ، فكانت لكم هدايتي نورا تمشون به على صراطنا المستقيم .

[سورة المائدة (5) : آية 106]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (106)
قوله تعالى :« ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ »يعني : مؤمنين« أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ »يعني من غير المؤمنين ، وذلك فيمن حضره الموت في السفر .

[سورة المائدة (5) : الآيات 107 إلى 109]
فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَمَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (108) يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(109)

ص 50

[قول الرسل عليهم السلام يوم القيامة "لا علم لنا "]

الوجه الأول : من لا ينطق عن الهوى لا يسأل عما يقول سؤال مناقشة وحساب ، ولكن قد يسأل سؤال استفهام لإظهار علم يستفيده السامعون ، كسؤال الحق رسله وهم لا ينطقون عن الهوى يوم يجمعهم فيقول :« ما ذا أُجِبْتُمْ »فيقولون »: لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »، فيعلم أهل الموقف أصحاب الكشف أنّ الرسل هم أتم العالم كشفا ، ومع هذا فما أطلعهم الله على إجابة القلوب من أممهم ، ولا إجابة من وصلت إليهم دعوتهم ولم يكونوا حاضرين ، ولا من كان حاضرا وأجابه بلسانه ، هل أجابه بقلبه كما أجابه بلسانه ؟

فإن قلت : فقد سمع إجابة من أجابه بلسانه وما أجابه به ، قلنا : لقرائن الأحوال حكم لا يعرفه إلا من شاهدها ، وقد عرفنا من عين جواب الرسل عليهم السلام أنهم فهموا عن الله عند هذا السؤال أنه أراد إجابة القلوب ، فإنهم قالوا :« لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »فلو فهموا من سؤاله تعالى إجابة الألسنة لفصّلوا بين من سمعوا إجابته بإقراره بلسانه ، وبين من لم يسمعوا ذلك منه ، فلما ذكروا في الجواب« الْغُيُوبِ »علمنا أن السؤال كان عن جواب القلوب ، واستفدنا من هذا أنّ الذي يكشف له ما يلزم أن يعم كشفه كل شيء ، لكن عنده استعداد الكشف لا غير ، فما جلى له الحق من أسرار العالم في مرآة قلبه إن كان معنى ، أو في مرآة بصره إن كان صورة كشفه ورآه لا غير . وأما عن سؤال الحق الرسل وطلبه منهم العلم فإنهم أصحاب الكشف الأتم ، ولكنهم لا يعرفون ما آل إليه أمر المبصرات في زمان رفع الكشف هل بقوا على ما كانوا عليه ؟

أو هل انتقلوا عن ذلك فقالوا :« لا عِلْمَ لَنا »والجواب بالظنون لا يليق ، ثم تمموا فقالوا :« إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »فقيدوه بالغيوب فإنه في يوم تبلى فيه السرائر ، والسرائر غيوب العالم بعضهم عن بعض ، فعلمنا الحق بهذه الآية التأدب مع أصحاب الكشف ، وأن نعلم مراتب الكشف لئلا ننزل صاحب

ص 51

الكشف فوق منزلته ، ونطلب منه ما لا يستحقه حاله ، فنتعبه ولا نعذره ونصفه بالجهل في ذلك ولا علم لنا بأنا جهلنا ، فتكون جهالتان.

الوجه الثاني : لما يعلم الرسل عليهم السلام بقرينة الحال أن السؤال سؤال استفهام عن إجابتهم بالقلوب فيقولون« لا عِلْمَ لَنا »أي لم نطلع على القلوب »إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »تأكيد وتأييد بأن الحكم في الآخرة للعلم لا للقول ، وعلمنا نحن من هذه الآية من قول الرسل عليهم الصلاة والسلام أن العلم بالإجابة من علوم الغيوب ، فلا يعلم من أجاب إلا من هويته غيب ، وليس إلا الله .

الوجه الثالث : من هنا علمنا أن الرسل لما وجهوا دعوا إلى الله تعالى أممهم ظاهرا وباطنا بدعوة واحدة ، فلو كلفوا الظواهر لم يكن قولهم« لا عِلْمَ لَنا »جوابا ، ومن هنا لم يصح جميع فروع أحكام الشريعة من المنافق ، لأنه ما أجاب بباطنه لدعوته ، مثل ما أجاب بظاهره ، وصححت فروع أحكام الشريعة من العاصي المؤمن بباطنه ، فعلمنا أن المقصود للشرع الباطن ، ولكن بشرط مخصوص ، وهو أن يعم الإيمان جميع فروع الأحكام وأصولها.

الوجه الرابع : أن الرسل ما تسأل يوم القيامة إلا لأجل إنكار الأمم التبليغ الذين لم يجيبوا في الدنيا إذا رأوا العذاب نازلا بهم ، أو اعترافهم بالإجابة ولم تقع منهم ، لذلك قال تعالى :« يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ »وقد أخبر رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه غير داخل في هذا الجمع بقوله تعالى :« وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ »أي ما عليك سؤال ، هل أجابوك أم لا ؟ فيكون مزيد درجة راحة للنبي عليه السلام يوم القيامة على سائر الرسل .

تحقيق : صدق الرسل عليهم السلام حيث قالوا :« لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »فإنه كذا هو الأمر فلا علم لأحد إلا أن يعلمه الله ، وما عدا الطريقة الإلهية في التعليم وهي قوله :« إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً »فإنما هو غلبة ظن ، أو مصادفة علم ، أو جزم على وهم ، وأما علم فلا ، فإن جميع الطرق الموصلة إلى العلم فيها شبه ، لا تثق النفس الطاهرة التي أوقفها الله على هذه الشبه أن تقطع بحصول علم منها إلا بالطريقة الإلهية المذكورة .

[سورة المائدة (5) : آية 110]

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ(110)

ص 52

"وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي " فخلق عيسى عليه السلام للطير كان بإذن الله ، فكان خلقه له عبادة يتقرب بها إلى الله ، لأنه مأذون في ذلك ، فلا يكون من المصورين الذين يعذبون يوم القيامة بأن يقال لهم : أحيوا ما خلقتم ولا قدرة لهم على ذلك .
فما أضاف خلق عيسى عليه السلام للطائر إلا لإذن الله ، والمأمور عبد ، والعبد لا يكون إلها ، ولما كان يستحيل أن يكون للأسباب أثر في المسببات ،
فإن ذلك لسان الظاهر كما قال في عيسى عليه السلام :« فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي »لا بنفخك ، والنفخ سبب التكوين الظاهر ، وليس في الحقيقة إلا عن الإذن الإلهي ، وهذا وجه لا يطلع عليه من العبيد نبي مرسل ولا ملك مقرب .
وقوله تعالى :« بِإِذْنِي »متعلق بقوله :« فَتَنْفُخُ »فكان عيسى عليه السلام ينفخ في الطائر الذي خلقه روحا فيكون طائرا بالصورة والمعنى وقيل ليس إلا صورة طائر لا طائر ،

ولذلك قال عزّ وجل :« كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ »وما قال طيرا حتى حصل فيه الروح ، وأضاف الحق النفخ إلى عيسى عليه السلام فيما خلقه من الطين ولم يضف نفخا في إعطاء الحياة لغير عيسى بل لنفسه تعالى ، إما بالنون أو بالتاء التي هي ضمير المتكلم عن نفسه ، فالنفخ من عيسى لوجود الروح الحيواني ، إذ كان النفخ أعني الهواء الخارج من عيسى هو عين الروح الحيواني ، فدخل في جسم هذا الطائر وسرى فيه ، إذ كان هذا الطائر على استعداد يقبل الحياة بذلك النفس ، كما قبل العجل الحياة مما رمى فيه السامري ، فطار الطائر بإذن الله ، كما خار عجل السامري بإذن الله ، فكل من أنشأ صورة بغير روح فذلك هو المصور الذي يعذب بما صوره يوم القيامة ، بأن يقال له هنالك : أحي ما خلقت ، وليس بمحيي ،
ويقال له : انفخ فيها روحا ، وليس بنافخ . هذا من حكم الموطن لأن ذلك

ص 53

الموطن أعني موطن الحشر يعطي ظهور عجز العالم عما كان ينسب إليه في موطن الدنيا من الاقتدار عليه . « وتبرئ الأكمه والأبرص وإذ تخرج الموتى بإذني » أي بأمري لما كنت لسانك وبصرك تكونت عنك الأشياء التي ليست بمقدوره لمن لا أقول على لسانه ، فالتكوين في الحالين لي« فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » السحر : مشتق من السحر ، وهو اختلاط الضوء والظلمة ، فلا يتخلص لأحد الجانبين ، فالسحر له وجه إلى الحق فيشبه الحق ، وله وجه إلى غير الحق فيشبه الباطل ، والسحر هو الرئة وهي التي تعطي الهواء الحار الخارج والهواء البارد الداخل وبها ينفث الساحر في العقد .

[سورة المائدة (5) : الآيات 111 إلى 114]
وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (111) إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114)
اللهم : يا الله أقصد فحذفت الهمزة واكتفي بالهاء لقربها من المخرج والمجاورة ومعنى« اللَّهُمَّ »أي يا الله أمنا بالخير أي اقصدنا ، والعيد يوم فرح وزينة وسرور وشغل بأحوال النفوس وحظوظها من أكل وشرب وبعال .

[سورة المائدة (5) : آية 115]
قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (115)

[- إشارة - المائدة]
-إشارة - المائدة إشارة إلى أي حاجة طلبت ، فلا تطلبها حتى تعلم ما الذي يترتب

ص 54

عليك من الحقوق من جانب الله تعالى ، فإن علمت أنك تقوم به فحينئذ ، وإلا فدعه سبحانه يختار لك ما يعلم فيه صلاحك ، وانظر في قوله تعالى في شرط المائدة : « فمن كفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين »وذلك بمنزلة من يطلب الإمارة فيوكل إليها ، وإن جاءته من غير طلب بعث الله إليه ملكا يسدده ، وإلى ذلك أشرنا بقولنا : لا تطلب مائدة حتى تعرف شرطها ، ولا تقصد رفعها وحطها ، حتى تعرف معناها ، وما أراد بها مولاها.

[سورة المائدة (5) : آية 116]

وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116)

هذا القول لا يكون إلا يوم القيامة ، فما وقع ، فعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه ولا بد ، وزوال حكم الإمكان فيه إلى حكم الوجوب ، وكل ما كان بهذه المثابة فحكم الماضي والمستقبل فيه على السواء ، وسياقه بالماضي آكد في الوقوع وتحققه من بقائه على الاستقبال« وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ »

هذا سؤال تقرير واستفهام ، فإن الاستفهام لا يكون إلا مع عدم العلم في نفس الأمر ، أو مع إظهار عدم العلم لتقرير المستفهم من استفهمه على ما استفهمه مع علم المستفهم بذلك ، فعلة الاستفهام عدم العلم ، والباعث على الاستفهام يختلف باختلاف المستفهم ، فإن كان عالما بما استفهم عنه فالمقصود به إعلام الغير ، حيث ظنوا وقالوا خلاف ما هو الأمر عليه .

وأداة الاستفهام هذه لا ينبغي أن تكون إلا من الأعلى في حق الأدنى ، فقوله تعالى لعيسى عليه السلام :« أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ؟ »

قد يكون تقريرا للحجة على من عبد عيسى عليه السلام وأمه وقالوا إنهما إلهان ، فإن من الاستفهام ما يكون إيهاما ، وهو استفهام العالم عما هو به عالم ، وبه يقع من العالم لإقامة الحجة في الجواب فقال تعالى :« أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ »بحضور من نسب إليه ذلك من العابدين له من النصارى ، فتبرأ عيسى بحضورهم من هذه النسبة ، فيقول : « سبحانك » ، فقدّم التنزيه وحدد بالكاف التي

ص 55

تقتضي المواجهة والخطاب« ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ »والمدعي يسمع ذلك ، وقد علم بقرينة الحال والموطن ذلك المدعي أن عيسى عليه السلام ليس من أهل الكذب ، وأن إنكاره لما ادعوه صحيح ، علمنا عند ذلك أنه تعالى أراد توبيخهم وتقريرهم .

فالاستفهام لعيسى عليه السلام ، والتقرير والتوبيخ لمن عبده من أمته وجعله إلها ، وقد وقع في الصورة ، صورة الاستفهام ، وهو في الحقيقة توبيخ فإن الاستفهام لا يصح من الله جملة واحدة ، ويصح منه تعالى التقرير لإقامة الحجة والتوبيخ ، فإن الاستفهام على الحقيقة لا يكون إلا ممن لا يعلم ما استفهم عنه . ومثل هذا في صناعة العربية إذا أعربوه في الاصطلاح يعربونه همزة تقرير وإنكار لا استفهام ، وإن قالوا فيه همزة استفهام والمراد به الإنكار ، فلهم في إعراب مثل هذا طريقتان« إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ »لأنك أنت القائل ، ومن قال أمرا فقد علم ما قال ، وأنت اللسان الذي أتكلم به ، كما أخبرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن ربه في الخبر الإلهي ، فقال : (كنت لسانه الذي يتكلم به) فجعل هويته عين لسان المتكلم ، ونسب الكلام إلى عبده ، ثم تمم العبد الصالح الجواب بقوله »: تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ »

[قول عيسى عليه السلام : « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك «]

الوجه الأول - اعلم أن علم الحق بنا قد يكون معلوما لنا ، وأما علمه بنفسه فلا يعلم لعلو قدسه ، وهو قوله صلّى الله عليه وسلم« وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ »أي نفس الحق -

الوجه الثاني -« وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ »من القضاء والقدر فإنه لا يعلم ما في نفس الله

- الوجه الثالث - أن تكون النفس هنا نفس عيسى عينه ، فإذا جهل العبد ما هي عليه نفسه من حكم الاستعداد ، فهو بما هو عليه في المستأنف أجهل ، فأضاف عيسى عليه السلام نفسه إليه من وجه ما هي له ، وأضافها إلى الله من وجه ما هي لله ، فقال :" تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ »أي نفسي هي نفسك وملكك ، فإنك اشتريتها وما هي ملكي ، فأنت أعلم بما جعلت فيها ، فأضاف نفسه إليه من حيث عينها هي له ، ومن حيث وجودها هي لله لا له ،

فقال: " تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي "من حيث عينها« وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ »من حيث وجودها ، وهو من حيث ما هي لك .

فهذه إضافة تشريف ، كمثل عبد الملك وخديمه وهو أتم في الثناء على الله والتبري مما نسب إليه ثم قال »: إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »أي ما غاب عنا من ذلك تعلمه أنت ولا أعلمه أنا ، فإنه ما يكون فيها إلا ما تجعله أنت ، فكيف يستفهم من له الخلق والأمر ؟ ولما لم يتصور في حق الله غيب ، علمنا أن الغيب أمر

ص 56

إضافي لما غاب عنا ، - الوجه الرابع -« تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي »
[قول عيسى عليه السلام : « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به »]
والمتكلم الحق ، ولا أعلم ما فيها فنفى العلم عن هوية عيسى من حيث هويته لا من حيث أنه قائل وذو أثر« إِنَّكَ أَنْتَ »فجاء بالفصل والعماد تأكيدا للبيان واعتمادا عليه إذ لا يعلم الغيب إلا الله .
- الوجه الخامس - من المتشابه صفة النفس في قوله تعالى :« تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ »لأن النفس في اللغة تستعمل لمعان كلها تتعذر في الظاهر هاهنا ، وقد أوّلها العلماء بتأويلات منها أن النفس عبر بها عن الذات والهوية ، وهذا وإن كان سائغا في اللغة ولكن تعدى الفعل إليها بواسطة « في » المقيدة للظرفية محال ، لأن الظرفية يلزمها التركيب ، والتركيب في ذاته محال . وقد أولها بعضهم بالغيب أي ولا أعلم ما في غيبك وسرك وهذا حسن لقوله« إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »
وإذا كنا قد فسرنا ظلل غمامه وظلة غمام آياته بالصورة التي يأتي فيها ربنا يوم القيامة ، فنفسه هي أم كتابه وهي الآيات المحكمات ، قال تعالى :« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ »والآيات المحكمات هي الآيات الدالة على وحدانيته كما سبق أن أوضحناه ، فقوله تعالى :« تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ »إذا أخرجته على هذا تطلع على أسرار بديعة ، وذلك أن السياق اشتمل على سؤال عيسى عليه السلام عما بلغه لبني إسرائيل ، هل أمرهم بتوحيد ربهم ؟ أو بأن يعبدوا له ولأمه ؟ ومن المعلوم أنه : لم يكن أمرهم إلا بالتوحيد ، فلما أراد أن يخبر بذلك تلطف في الإخبار به إجمالا وتفصيلا ، أما تفصيلا فبقوله :« ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ »- الآية - وأما إجمالا فبقوله :« تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ »فقوله :« وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ »أي أم كتابك المشتمل على سر قدرك ، وأن القلم جرى فيه بكفرهم . وقوله :« تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي »أي ما في أم كتابي ، وهو ما كتبه الله له من بينات التوحيد ، وأيده به من روح القدس ، ومن شأن المحجوبين عن الله تعالى من أرباب الرئاسة موادعة من عبدهم ، وعبد أقاربهم لأجلهم ، وأهل القلوب المؤمنة يبرءون من ذلك بمقتضى قوله تعالى :« لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ- إلى قوله -أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ »ومن المعلوم أن عيسى عليه السلام كتب في قلبه الإيمان وأيد بالروح ، فلهذا قال :« تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي »أي ما كتبته من الإيمان في قلبي ، وأيدتني به من الروح ، وأن ذلك ثمرة كوني لم أوادد هؤلاء الذين عبدوني وعبدوا أمي من دونك.

ص 57

[سورة المائدة (5) : آية 117]

ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(117)

-الوجه الأول -« ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ »ما زدت على ذلك شيئا ، وإذا قال القائل ما أمر به أن يقوله فقد خرج من العهدة بما بلغ . وقول عيسى عليه السلام« ما أَمَرْتَنِي بِهِ »ولم يقل به أمرت مع أن الأمر بالتوحيد لم يختص به بل أمر به جميع الأنبياء ، في ذلك تنبيه لنا على سر القدر وأن الأمر أمران : أمر حقيقة ، وأمر شريعة ، فأمر الحقيقة:

هو المشار إليه بقوله :« إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »وهو متوجه إلى جميع الكائنات ، فما من كفر ولا إيمان إلا وهو مأمور به بهذا الاعتبار لأنه لا يكون إلا بأمره ، وأما أمر الشريعة فهو الذي ربط به الثواب والعقاب وقامت به الحجة« لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ »فمن هذا يفهم السر في قول عيسى عليه السلام :« أَمَرْتَنِي بِهِ »خصصه بالإضافة إليه تنبيها على أمر الشريعة ، ولم يقل أمرت تنبيها على أمر الحقيقة

– الوجه الثاني - تفسير من مقام المحبوبية :« ما قُلْتُ لَهُمْ »فنفى أولا مشيرا إلى أنه ما هو ، ثم أوجب القول أدبا مع المستفهم فقال :« إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ »وأنت المتكلم على لساني ، وأنت لساني ، وأثبت نفسه مأمورا ، وليس سوى عبوديته ، إذ لا يؤمر إلا من يتصور منه الامتثال وإن لم يفعل ، فانظر إلى هذه التنبئة الروحية الإلهية ما ألطفها وأدقها ،« أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ »فجاء بالاسم « الله » لاختلاف العباد في العبادات واختلاف الشرائع ، لم يخص اسما خاصا دون اسم ، بل جاء بالاسم الجامع للكل « ربي وربكم » ومعلوم أن نسبته إلى موجود ما بالربوبية ليست عين نسبته إلى موجود آخر ، فلذلك فصل بقوله : « ربي وربكم » ، كناية المتكلم ، وكناية المخاطب .

« وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً »أي رقيبا ، ولم يقل على نفسي معهم ، كما قال : (ربي وربكم)« ما دُمْتُ فِيهِمْ »لأن الأنبياء شهداء على أممهم ما داموا فيهم« فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي »أي رفعتني إليك وحجبتهم عني وحجبتني عنهم« كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ »في غير مادتي بل في موادهم ، إذ كنت بصرهم الذي يقتضي المراقبة ، فشهود الإنسان نفسه شهود الحق إياه ، وجعله بالاسم الرقيب لأنه جعل الشهود له ، فأراد أن يفصل بينه وبين

ص 58

ربه ، حتى يعلم أنه هو لكونه عبدا ، وأن الحق هو الحق لكونه ربا له ، فجاء لنفسه بأنه شهيد ، وفي الحق بأنه رقيب ، وقدمهم في حق نفسه فقال: " عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ "إيثارا لهم في التقدم وأدبا ، وأخّرهم في جانب الحق عن الحق في قوله :« الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ »لما يستحقه الرب من التقديم بالرتبة .

ثم اعلم أن للحق الرقيب الاسم الذي جعله عيسى لنفسه وهو الشهيد في قوله :« عَلَيْهِمْ شَهِيداً »

فقال :« وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »فجاء بكل " للعموم وبشيء " لكونه أنكر النكرات ، وجاء بالاسم الشهيد ، فهو الشهيد على كل مشهود ، بحسب ما تقتضيه حقيقة ذلك المشهود ،

فنبه على أنه تعالى هو الشهيد على قوم عيسى حين قال :« وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ »فهي شهادة الحق في مادة عيسوية ، كما ثبت أنه لسانه وسمعه وبصره ، ثم قال كلمة عيسوية ومحمدية ، أما كونها عيسوية فإنها قول عيسى بإخبار الله عنه في كتابه ، وأما كونها محمدية فلوقعها من محمد صلّى الله عليه وسلم بالمكان الذي وقعت منه ، فقام بها ليلة كاملة يرددها لم يعدل إلى غيرها حتى مطلع الفجر« إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »و « هم » ضمير الغائب كما أن « هو » ضمير الغائب ،

فقال: " إِنْ تُعَذِّبْهُمْ "بضمير الغائب وهو عين الحجاب الذي هم فيه من الحق ، فذكرهم الله قبل حضورهم حتى إذا حضروا تكون الخميرة قد تحكمت في العجين فصيرته مثلها ،« فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ »فأفرد الخطاب للتوحيد الذي كانوا عليه ، ولا ذلّة أعظم من ذلة العبيد لأنهم لا تصرف لهم في أنفسهم ، فهم بحكم ما يريده بهم سيدهم ، ولا شريك له فيهم ، فإنه قال :« عِبادُكَ »

فأفرد ، والمراد بالعذاب إذلالهم ولا أذل مما هم فيه من كونهم عبيدا« وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ »أي تسترهم عن إيقاع العذاب الذي يستحقونه بمخالفتهم أي تجعل لهم غفرا يسترهم عن ذلك ويمنعهم منه ،« فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ »أي المنيع الحمى ، وجاء بالفصل والعماد أيضا تأكيدا للبيان ،

ولتكون الآية على مساق واحد في قوله :« إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »وقوله »كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ »فجاء أيضا« فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »فكان سؤلا من النبي عليه السلام ، وإلحاحا منه على ربه في المسألة ليلته الكاملة إلى طلوع الفجر ، يرددها طلبا للإجابة ، فلو سمع الإجابة في أول سؤال ما كرر ، فكان الحق يعرض عليه فصول ما استوجبوا به العذاب عرضا مفصلا ، فيقول له في عرض عرض ، وعين عين« إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

ص 59

الْحَكِيمُ »فلو رأى في ذلك العرض ما يوجب تقديم الحق وإيثار جنابه لدعا عليهم لا لهم ، فما عرض عليه إلا ما استحقوا به ما تعطيه هذه الآية من التسليم للّه ،
والتعريض لعفوه ، وقد ورد أن الحق إذا أحب صوت عبده في دعائه إياه أخّر الإجابة عنه حتى يتكرر ذلك منه ، حبا فيه لا إعراضا عنه ، ولذلك جاء بالاسم الحكيم ،
والحكيم هو الذي يضع الأشياء مواضعها ، ولا يعدل بها عما تقتضيه وتطلبه حقائقها بصفاتها ، فكان صلّى اللّه عليه وسلم بترداد هذه الآية على علم عظيم من اللّه تعالى ،
فمن تلا فهكذا يتلو وإلا فالسكوت أولى به .

[سورة المائدة (5) : آية 118]

إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118)

عرض عيسى عليه السلام بالمغفرة لقومه لما عصوا اللّه ولم يتوبوا بقوله هذا ، وذلك لما علم أن رحمته تعالى سبقت غضبه ، وقد قام النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم بهذه الآية ليلة كاملة ما زال يرددها حتى طلع الفجر ، إذ كانت كلمة غيره فكان يكررها حكاية وقصده معلوم في ذلك ،
كما قيل في المثل : إياك أعني فاسمعي يا جارة ، ولما كان في هذا اشتباه على المحجوبين من المعتزلة وغيرهم الذين يقولون : إن كفر العبد منسوب إلى اختراعه ، غير مستند إلى إرادة ربه سبحانه ، وإلا لما جاز أن يعاقبه عليه ، لا جرم بين اللّه تعالى جوابهم على لسان نبيه عيسى عليه السلام في قوله :« إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ »علل جواز تعذيبه لهم بأنهم عباده ، تنبيها على أن التعذيب لا يحتاج في جوازه عقلا إلى معصية ولا كفر ،
ولهذا لم يقل : فإنهم عصوك ، وإنما مجرد كونهم عبادا يجوز للمالك أن يفعل بهم ما يشاء ، حتى وليس عليه حق ،
ومهما قال فالحسن الجميل« وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »
ولم يقل : « إنك أنت الغفور الرحيم » أدبا مع الجناب الإلهي ، فتأدب العبد الصالح مع اللّه في هذا القول لما عصى قومه اللّه ولم يتوبوا - نصيحة - لا تدخل بين اللّه وبين عباده ، ولا تسع عنده في خراب بلاده ، هم على كل حال عباده ، قل كما قال العبد الصالح ، صاحب العقل الراجح ،
« إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »انظر في هذا الأدب النبوي أين هو مما نسب إليه من النعت البنوي ! هو عين روح اللّه وكلمته ، ونفخ روحه وابن أمته ، ما بينه وبين ربه سوى النسب العام ، الموجود لأهل الخصوص من الأنام ، وهو التقوى لا أمر زائد ، في غير واحد - مناجاة - إلهي جلّت عظمتك أن يعصيك عاص أو ينساك

ص 60

ناس ، ولكن أوجبت روح أوامرك في أسرار الكائنات ، فذكرك الناسي بنسيانه ، وأطاعك العاصي بعصيانه ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، إن عصى داعي إيمانه ، فقد أطاع داعي سلطانك ولكن قامت عليه حجتك ، فللّه الحجة البالغة ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

[سورة المائدة (5) : آية 119]

قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) »

قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ »فلا يؤثر فيهم عوارض يوم القيامة ، بل تخاف الناس ولا يخافون ، وتحزن الناس ولا يحزنون . . .

[« رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ »]« رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ »فالرضى منا ومنه - الوجه الأول - رضي الله عنهم : بما أعطوه من بذل المجهود ، وغير بذل المجهود« وَرَضُوا عَنْهُ »بما أعطاهم مما يقتضي الوجود الجود أكثر من ذلك ، لكن العلم والحكمة غالبة - الوجه الثاني -« رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ »: بما أعطاه العبد من نفسه رضي الله به ، ورضي عنه فيه وإن لم يبذل استطاعته ، فرضي الله منك إذا أعطيت ما كلفك حد الاستطاعة التي لا حرج عليك فيها« وَرَضُوا عَنْهُ »رضي العبد من الله بالذي أعطاه من حال الدنيا ورضي عن الله في ذلك ، فإن متعلق الرضى القليل ، فإن الإنعام لا يتناهى بالبرهان الواضح والدليل ، فلا بد من الرضى ، بذا حكم الدليل وقضى ، وبهذا المعنى رضاه سبحانه عنك ، بما أعطيته منك ، وهو يعلم أن الاستطاعة فوق ما أعطيته - الوجه الثالث -« رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ »في يسير العمل« وَرَضُوا عَنْهُ »في يسير الثواب ، لأنه لا يتمكن تحصيل ما لا يتناهى في الوجود ، لأنه لا يتناهى ، فإن كل ما أعطاك الحق في الدنيا والآخرة من الخير والنعم فهو قليل بالنسبة إلى ما عنده ، فإن الذي عنده لا نهاية له ، وكل ما حصل لك من ذلك فهو قليل بالنسبة إلى ما عنده ، فإن الذي عنده لا نهاية له ، وكل ما حصل لك من ذلك فهو متناه بحصوله ، وما قدم الله رضاه عن عبيده ، بما قبله من اليسير من أعمالهم التي كلفهم إلا ليرضوا عنه في يسير الثواب ، لما علموا أن عنده ما هو أكثر من الذي وصل إليهم . - الوجه الرابع - أخبرهم في التوقيع أنه عنهم راض تعالى وتقدس جلاله ، ثم أنه ناب عنهم في الخطاب بأنهم عنه راضون ، فقال تعالى :« رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ .»

وهنا نكتة لمن فهم ما تدل عليه ألفاظ القرآن من الرضى فقطع عليهم بذلك لعلمه بأنه واقع

ص 61

منهم[تحقيق الرضا]
-تحقيق الرضا - اعلم أن الله تعالى قد أمرنا بالرضا قبل القضاء مطلقا ، فعلمنا أنه يريد الإجمال ، فإنه إذا فصّله حال المقضي عليه بالمقضى به انقسم إلى ما يجوز الرضا به وإلى ما لا يجوز ، فلما أطلق الرضا علمنا أنه أراد الإجمال ، والقدر توقيت الحكم ، فكل شيء بقضاء وقدر ، أي بحكم مؤقت ، فمن حيث التوقيت المطلق يجب الإيمان بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، ومن حيث التعيين يجب الإيمان به لا الرضا ببعضه ، وإنما قلنا : يجب الإيمان به أنه شر كما يجب الإيمان بالخير أنه خير ، فنقول : إنه يجب علي الإيمان بالشر أنه شر ، وأنه ليس إلى الله من كونه شرا ، لا من كونه عين وجود إن كان الشر أمرا وجوديا ، فمن حيث وجوده أي وجود عينه هو إلى الله ، ومن كونه شرا ليس إلى الله ، قال صلّى الله عليه وسلم في دعائه : والشر ليس إليك ، فالمؤمن ينفي عن الحق ما نفاه عن نفسه .

[سورة المائدة (5) : آية 120]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)« لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ »هما الدار الدنيا .

(6) سورة الأنعام مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[سورة الأنعام (6) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1)

العدل هنا على وجوه منها عدولهم إلى القول بأن له أمثالا وليس كمثله شيء ، فإن العدل المثل ، ومنها أنهم بربهم عدلوا لأنه لا حول ولا قوة إلا باللّه ، ومنها أن الباء في « بربهم » بمعنى اللام ، فلربهم عدلوا لكون من عدلوا إليه إنما عدلوا إليه لكونه عندهم إلها ، وفي هذه الآية يخاطب الله الذين جعلوا له أمثالا ، مثل المانية الذين يقولون : إن الإله الذي خلق

ص 62

الظلمة ، ما هو الإله الذي خلق النور ، فعدلوا بالواحد الآخر ، وكذلك الذين يقولون بخلق السماوات والأرض ، إنها معلولة لعلة ليست علته الإله ، أي ليست العلة الأولى ، لأن العلة عندهم إنما صدر عنها أمر واحد لحقيقة أحديتها وليس إلا العقل الأول ، فهؤلاء أيضا مما قيل فيهم إنهم بربهم يعدلون ، وسماهم كفارا لأنهم إما ستروا ، أو منهم من ستر عقله عن التصرف فيما ينبغي له بالنظر الصحيح في إثبات الحق ، والأمر في نفسه على ما هو عليه ، فاقتصر على ما بدا له ، ولم يوف الأمر حقه في النظر . وإما إن علم وجحد فستر عن الغير ما هو الأمر عليه في نفسه ، لمنفعة تحصل له من رئاسة أو مال ، فلهذا قيل فيهم : إنهم كفروا أي ستروا .

[سورة الأنعام (6) : آية 2]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2)

-الوجه الأول - الأجل المقضي هو الموت الاختياري ، وهو موت في حياة دنياوية ، ولما كان هذا الأجل المقضي معلوم الوقت عند الله مسمى عنده ، كان حكمه حكم الأجل المسمى ، وهو الموت الاضطراري في العموم والعرف فمن قتل نفسه في الجهاد الأكبر الذي هو جهاد النفس ، رزقه الله حكم الشهادة ، فموته معنوي في حياته الدنيا ، وقتله مخالفة نفسه - الوجه الثاني - [« ثُمَّ قَضى أَجَلًا »]« ثُمَّ قَضى أَجَلًا »وهو نهاية عمر كل حي يقبل الموت« وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ »وهو ميقات حياة كل من كان قبل الموت في حياته الأولى ، وهو المعبر عنه بالبعث ، ولذلك قال تعالى :« ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ »يعني فيه فإنّ الموت لا يمترون فيه ، فإنه مشهود لهم في كل حيوان مع الأنفاس ، وإنما وقعت المرية في البعث وهو الأجل المسمى المذكور .

[سورة الأنعام (6) : آية 3]

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (3)«

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ »بيده ميزان الرفع والخفض« يَعْلَمُ سِرَّكُمْ »من حيث اسمه الباطن ، ويعلم« جَهْرَكُمْ »من حيث اسمه الظاهر ، فهو معكم بكل أسمائه« يَعْلَمُ

ص 63

سِرَّكُمْ »من كونه في الأرض« وَجَهْرَكُمْ »من كونه في السماء ، »يَعْلَمُ سِرَّكُمْ »من كونه في السماء وهو معناكم الذي خفي عن الأبصار عينه ويعلم« جَهْرَكُمْ »من كونه في الأرض وهو ظاهركم الذي ظهر للأبصار عينه من أمراض الأفعال أن يكون أداؤك لذلك الفعل الذي هو عبادة ، كالصلاة مثلا ، في الملأ أحسن من أدائك في السر ، يقول صلّى الله عليه وسلم في مثل هذه الفعلة : [تلك استهانة استهان بها ربه] في رجل حسّن صلاته في الملأ ، وأساءها في الخلوة ، وهذا من أصعب الأمراض النفسية ، ودواؤه(أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى)" يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ"

[والله أحق أن يستحى منه] وأمثال هذه الآيات والأخبار .« وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ »ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وكذلك أكثرهم لا يؤمنون .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 4 إلى 6]

وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (5) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (6)

اختلفوا في القرن ما قدره من الزمان ؟ ومن جملة أقوالهم : إن القرن ثلاثون سنة .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 7 إلى 9]

وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (9)

أي لو كان الرسول للبشر ملكا لنزل في صورة رجل ، حتى لا يعرفوا أنه ملك ، فإن

ص 63

أول ابتلاء ابتلى الله به خلقه بعث الرسل إليهم منهم لا من غيرهم ، وإنما جعل الرسول من الجنس لاستخراج عيب النفس ، وأنزل بلسان قومه لرفع اللبس ، فالرسول من جنس المرسل إليه ، فإن دعا أمر أن يكون من غير الجنس في الحقيقة فلا بد وأن يظهر لهم في صورة الجنس في عالم تمثيل الرقيقة ، مثل تمثل الروح لمريم بشرا سويا .

خليفة القوم من أبناء جنسهم *** لأن ذلك أنكى في نفوسهم
لو لم يكن منهم لصدقوه ولم *** يقم بهم حسد لغير جنسهم
فتنكر الأشخاص للجنسية ، وهي الفتنة الإلهية
وقال تعالى :" لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا "
وقالوا :" ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا "
وقال تعالى :" يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ "
فهم ينظرون ظاهره وينكرونه إنكارا يؤدي إلى الموت .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 10 إلى 12]
وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (10) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (12)
[الرحمة ثلاث رحمات]
الرحمة ثلاث رحمات :
الرحمة الذاتية ، ومنها الرحمة المخلوقة في عباده ليتراحموا بها ،
والرحمة الثانية : هي الرحمة المكتوبة ، وهي منفصلة عن الرحمة الذاتية ،
والرحمة الثالثة : هي الرحمة الامتنانية التي وسعت كل شيء ، فمن كرمه تعالى كتب على نفسه الرحمة ، أي أوجب وفرض على نفسه الرحمة ، لم يوجب ذلك عليه موجب ، بل هو سبحانه الموجب على نفسه منة منه وفضلا علينا ، فإنه لا يجب على الله شيء بإيجاب موجب غير نفسه ، فإن أوجب هو على نفسه أمرا ما ، فهو الموجب والوجوب والموجب عليه لا غير ، ومع أن الحق أوجب على نفسه ،
فإن الحقيقة تعطي أن العبد لا يستحق شيئا على سيده فمن منته سبحانه على عبده أن أوجب له على نفسه ليأنس العبد بما أوجبه الحق عليه من طاعته ليسارع

ص 64

بأداء ما وجب عليه
فقال تعالى :« كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ »ومن رحمة الله أنه قال :« لَيَجْمَعَنَّكُمْ »فما نجتمع إلا فيما نفترق فيه وهو الإقرار بربوبيته سبحانه ، وإذا جمعنا من حيث إقرارنا له بالربوبية ، فهي آية بشرى وذكر خير في حقنا بسعادة الجميع ، وإن دخلنا النار ، فإن الجمعية تمنع من تسرمد الانتقام ، لا إلى نهاية ، لكن يتسرمد العذاب ، وتختلف الحالات فيه ، فإذا انتهت حالة الانتقام ووجدان الآلام ، أعطي من النعيم والاستعذاب بالعذاب ما يليق بمن أقر بربوبيته ، ثم أشرك ثم وحّد في غير موطن التكليف ، والتكليف أمر عرض في الوسط بين الشهادتين لم يثبت ، فبقي الحكم للأصلين الأول والآخر .

[سورة الأنعام (6) : آية 13]

وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(13)

[» وَلَهُ ما سَكَنَ »]« وَلَهُ ما سَكَنَ »

- **الوجه الأول -** أي ما ثبت ، والاعتماد لا نشك أنه سكون إلى من يعتمد عليه لا بد من ذلك ، ولا يعتمد إلا على من له ثبوت الوجود ، ولا يقبل التغيير ولا الانتقال من حال الثبوت ، ومن علم أنه يقبل الانتقال من الثبوت لا يعتمد عليه ، لأنه يخون المعتمد عليه ذلك الاعتماد لارتباطه بمن لا ثبوت له ، فلا يعتمد على محدث إلا عن إعلام إلهي ، فيكون اعتمادنا على من له نعت الثبوت ، كاعتمادنا على الشرائع فيما يجب الإيمان به ، وكالإيمان الذي ثبت بإعلام الله أنه معه السعادة فيعتمد عليه

- **الوجه الثاني -** اعلم أنه لمّا لم يكن في العالم سكون البتة ، وإنما هو متقلب دائما أبدا ، من حال إلى حال ، دنيا وآخرة ، ظاهرا وباطنا ، فإن قوله تعالى :« وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ »أي كل شيء كان ولا زال في علمه لم يخرج منه عدما ووجودا ، فهو ساكن في علم الله ليل نهار ، فدخل في ذلك السكون والحركة

- **الوجه الثالث -**« وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ »والسكون ضد الحركة ، والحركة هي الدعوى في الأعمال ، والسكون هو التبري من الحركة إذا أقيم الإنسان فيها بلا حول ولا قوة إلا بالله ، فعرّى الحق خلقه في هذه الآية عن إضافة ما ادعوه لأنفسهم ، فمن فهم تنبيه الحق بأنه أخلص السكون له ، علم أن الحركة فيها الدعوى ، وأن السكون لا تشوبه دعوى ،

فإنه نفي الحركة ، اختار السكون على الحركة ، وهو الإقامة على الأصل بلا حول ولا قوة إلا بالله ، فالسكون أولى من الحركة ، فإن العبد مأمور بالسكون تحت مجاري الأقدار ، وما يأتي الله إليه في الليل والنهار ، والسكون مع المشاهدة ،

ص 66

والحركة مع الفقد ، إلا الحركة المأمور بها ، فالسكون باللّه مع اللّه أولى لراحة الوقت ، لو لم يكن من شرف السكون إلا ورود الأسماء الإلهية عليك ، ونزول الحق إليك ، لأنك إن تحركت إليه حددته ، وإن سكنت معه عبدته ، فالحركة إليه عن الجهل به ، والسكون معه عين العلم به ، إذا كان الحق جليس الذاكر فإلى أين يرحل ؟« وَهُوَ السَّمِيعُ »يسمع دعواكم في نسبة ما هو له ، وقد نسبتموه إليكم« الْعَلِيمُ »بأن الأمر على خلاف ما ادعيتموه .

-إشارة -« وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ »ما أحسنه في الاعتبار ! لأن ما تحرك فيه مشاركة الأغيار وما ثم سكون ، ولكن حركة ، وفي الحركة الزيادة والبركة ، فللّه ما سكن في الليل والنهار ، وما ثم ساكن في الأغيار ، لا في البصائر ولا في الأبصار ، فللّه ما سكن ، وهو له نعم السكن ، ولنا ما تحرك ، وبه نتملك ، فكما يكون مع الحركة البركة الكونية ، فكذلك مع السكون البركة الإلهية ، السكون ثبوت عند الحق ، والحركة خروج .

[سورة الأنعام (6) : آية 14]

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14)

« فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »الفطر الشق ، فقوله تعالى :« فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »هو قوله تعالى :« كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما »أي فاتق السماوات والأرض لتمييزها ، ففتق السماوات والأرض بعد رتقهما ليتميزا »وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ »لا أحقر ممن يسأل أن يطعم لإقامة نشأته ، وإبقاء الحياة الحيوانية عليه ، وعلى قدر الاحتقار يكون الافتقار ، وأي افتقار أعظم ممن لا يكون له ما يريد إلا بغيره لا بنفسه ؟ فقوله تعالى »: وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ »تنزيه الحق عن حاجته لذلك وإشارة إلى نقصك وعجزك وافتقارك ، فإن الممكن إذا وجد لا بد من حافظ يحفظ عليه وجوده ، وبذلك الحافظ بقاؤه في الوجود كان ذلك الحافظ ما كان من الأكوان ، فالحفظ خلق للّه ، فلذلك نسب الحفظ إليه ، والحق سبحانه غير محفوظ للعبد ، فإنه لا يقبل أن يكون محفوظا . فإنه الصمد الذي لا مثل له ، فقال لنبيه عليه السلام ، ما يقوله لمن عبد غير اللّه ، ينبههم أن كل ما سوى اللّه من معبود ، يطلب بذاته من يحفظ عليه بقاء وجوده ، فقال له : يا محمد« قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ، فاطِرِ السَّماواتِ

ص 67

وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ »

[فاطر السماوات والأرض]
وقد قرئ الثاني في الشاذ بفتح الياء ، فكل موجود له بقاء في وجوده ، فلا بد من حافظ كياني يحفظ عليه وجوده ، وذلك الحافظ خلق الله ، وهو غذاء هذا المحفوظ عليه الوجود ، فلا تزال عينه وإن تغيرت صورته ما دام الله يغذيه بما به بقاؤه من لطيف وكثيف ، ومما يدرك ومما لا يدرك - إشارة - قل لسمائك لا تحجب بلطافتها ، ولأرضك لا تحجب بكثافتها ، فإنه لا بد عند تجليه لسمائك من تخلخلها ، ولأرضك من تزلزلها ، فإياك أن تقع في شرك الإشراك ، لعظيم آفات الاشتراك ، والزم الوحدة ، فيها تحصل رفده ومجده .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 15 إلى 18]
قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)
-الوجه الأول - أي قهر عباده لما صدر منهم من النزاع ، وأظهر النزاع مخالفة أمر الله ، وأدق ما يكون من الخلاف النزاع الإلهي بإنابة العبد ، فإذا زال العبد عن إنايته لم يجد القهار من يقف له فيقهره ، واعلم أن الدعاء لا يقتضي المنازعة حيث أراد ما أراد الله ، فإن الدعاء ذلة وافتقار ، والنزاع رئاسة وسلطنة ومن النزاع الخفي الصبر على البلاء ، إذا لم يرفع إزالته إلى الله ، فمن حبس نفسه عند الضر النازل به عن الشكوى إلى الله في رفع ما نزل به ، وصبر مثل هذا الصبر ، فقد قاوم القهر الإلهي ، فإن الله قاهر هذا العبد ، وإن كان محمودا في الطريق ولكن الشكوى إلى الله أعلى منه وأتمّ والقهر الإلهي يخفى بخفاء النزاع ، ويظهر بظهور النزاع ، ومن غفل عن ربه نازع بباطنه ما يجده من الأثر فيه مما يخالف غرضه ، فيجيء القهر الإلهي فيقهره ، فلولا النزاع القائم بنفوس الرعية الذي لو مكنوا من إرساله لوقع منهم ، ما أضيف إلى الرعية أنهم مقهورون تحت سلطان مليكهم ، ومن لم يخطر له شيء من ذلك ، ولم ينازع فما هو مقهور ، ولا الملك له بقاهر ، بل هو به رؤوف رحيم

ص 68

ـ الوجه الثاني - هو القاهر بالحجة فوق عباده« وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »حيث يظهر على كل صنف بما تقوم به الحجة لله عليهم . واعلم أن صفة الفوقية ونسبتها إلى الله تعالى قد جاء بها الكتاب والسنة ، كقوله تعالى »: يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ »وقوله تعالى :« وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ »وآيات كثيرة وأحاديث ، وهو معدود من المتشابه ، وذلك لأن »فَوْقَ »كلمة موضوعة لإفادة جهة العلو ، والله تعالى منزه عن الجهات ، وإنما المراد منهما حيث أطلقت في حق ربنا سبحانه إفادة العلو الحقيقي ، ومما يدل على عدم اختصاصه بجهة فوق قوله تعالى :« وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ »وقوله تعالى :« وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ »وآيات كثيرة يطول ذكرها ولو كان في جهة العلو ، تعارضت هذه الآيات واختلفت ، وهو مناف لقوله تعالى :« وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً »

وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلّى الله عليه وسلم قال :
[أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد] فنفى تقيده بجهة فوق ، وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، والذي يجمع بين الآيات والأحاديث أن تعلم أن العلو له اعتباران : اعتبار إضافي ، واعتبار حقيقي ، فعلو المخلوقات بعضها على بعض إنما هو علو إضافي ، لأن ما من مخلوق له جهة علو إلا وهو مستقل بالنسبة إلى مخلوق آخر هو فوقه إلّا ما يشاء الله ، وهذا العلو الإضافي قسمان : قسم حسي وهو المفهوم بالنسبة إلى الجهات المكانية المخصوص بالجواهر المفتقرة إلى الحيز ، وقسم معنوي وهو المفهوم بالنسبة إلى درجات الكمال العرفاني لأرباب القلوب أو الكمال الوهمي لأرباب النفوس ،
قال تعالى: " وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ »وقال تعالى :« انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا »هذا كله في العلو الإضافي ، وأما العلو الحقيقي ، فإنما هو لله تعالى« وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ »وعلوه هذا محقق قبل الجهات والأماكن ، مفهوم بدون النسب والإضافات ، عام في جميع تجلياته على مخلوقاته ، بأسمائه وصفاته ، وإنما يعرفه ويشهده أرباب البصائر والقلوب ، لتجلي نور توحيده بعلو فوقيته ، فإذا أردت أن تحقق أن فوقيته ليست فوقية مكان ، وإنما هي الفوقية الحقيقية بقهر الربوبية للعبودية ، فتفكر في أنه تعالى كان ولا شيء معه ، ولم يتجدد له بخلقه السماوات علو ، ولا بخلقه الأرض نزول ، ولا بخلقه العرش استواء ، وإنما عن تجلي أسمائه وصفاته نشأت أعداد مخلوقاته ، غير مماسة له ، ولا منتسبة إليه

ص 69

بفوق ولا تحت ، ولا شيء من الجهات ، قال تعالى :« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى »

[لفظة الشيئية لا تطلق على الحق]
فوصفه بالأعلى حال اتصافه بالخلق فدل على أن علوه محقق قبل الخلق ، وكذا قال :« وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ »الآية .
ووصف نفسه آخر الآية بالعلو والتنزه بعد ذكره قبض الأرض وطيه للسماء ، فدل أن علوه حقيقي لا مكاني ، وتأمل قوله تعالى :« وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ »

مع قول فرعون عن بني إسرائيل :« سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ »فهل يفهم أحد أن فرعون ادعى أنه فوق بني إسرائيل بالمكان أو بالجهة وإنما لما ادعى الربوبية بقوله: " أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى »كان من لازم دعواه ادعاء الفوقية اللائقة بالربوبية ، وهي الفوقية الحقيقية بالقهر
فلذلك قال :« وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ ». وبالجملة فالأحاديث الدالة على عموم إحاطة ربنا سبحانه بجميع الجهات وعدم اختصاصه كثيرة ، والقصد حصل بما ذكرنا ، ولا يلزم من الإيمان القول بالجهة ، فلا يلزم الشبه ، الجهة ما وردت ، والفوقية الإلهية قد ثبتت .

[سورة الأنعام (6) : آية 19]
قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)
لفظة الشيئية لا تنطلق على الحق ، قال عليه السلام « كان الله ولا شيء معه « فهذا وصف ذاتي للحق سلب الشيئية عنه ، وسلب معية الشيئية له تعالى ولو تسمى بالشيء لسميناه الشيء فإنه دليل على ذات غير مركبة لكنه لم يرد في الأسماء الإلهية يا شيء ، ولو كان الحق شيئا لجمعته الشيئية مع الأشياء فيقع التماثل فيها ، وهو يقول :« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »إذا فلا شيئية له فليس هو [شيئا] ، ولا هو لا شيء ، فإن [لا شيء] صفة المعدوم فيماثله المعدوم في أنه لا شيء وهو لا يماثل فليس مثله شيء وليس مثله لا شيء ، ونحن لا نثبت إطلاق لفظة الشيئية على ذات الحق لأنها ما وردت ولا خوطبنا بها والأدب أولى.

ص 70

[سورة الأنعام (6) : آية 20]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20)

وهم الذين قال تعالى عنهم في سورة البقرة :(وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)وقوله): لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)يقول : إن الحق أبلج لا لبس فيه لقوة الدلالة عليه ، ولذلك قال :(ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ)أي لا شك ولا لبس فهم يسترون الحق مع معرفتهم بأنه الحق ، فلا يتمكن أن يستروه عن نفوسهم ، بل يسترونه عن الغير بما يوردونه من الشبه المضلة والتشكيكات الصارفة عن ظهوره ، فهؤلاء جاحدون معاندون .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 21 إلى 22]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22)

فإن موطن يوم الحشر يعطي عجز العالم عما كان ينسب إليه في موطن الدنيا من الاقتدار عليه .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 23 إلى 27]

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(27)

ص 27

يزيد العالم الشقي من أهل الدنيا حسرة إلى حسرته يوم القيامة ، عندما يرى خلعة علمه على المؤمن المقلد ،
وأنه قد أعطي جهله فيقول :« يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »لعلمهم إذا كانوا مؤمنين - وإن كانوا جاهلين - أنهم إذا انتقلوا إلى دار السعادة ، خلعت عنهم ثياب الجهل ، وخلع عليهم خلع العلم ، فلا يبالون بما كانوا عليه من الجهل في الدنيا لحسن العاقبة .
وما علموا أنهم لو ردوا إلى الدنيا في النشأة التي كانوا عليها لعادوا إلى حكمها ، فإن الفعل بالخاصية لا يتبدل ، فما تكلموا بما تكلموا به من هذا التمني إلا بلسان النشأة التي هم فيها ، وتخيلوا أن ذلك العلم يبقى عليهم ، وما جعل الله في هذه النشأة الدنيا النسيان للعلماء بالشيء فيما قد علموه ، ويعلمون أنهم قد كانوا علموا أمرا ، فيطلبون استحضاره ، فلا يجدونه بعد ما كانوا عالمين به ، إلا إعلاما وتنبيها على أنه على كل شيء قدير ، بأن يسلب عنهم العلم بما كانوا به عالمين إذا دخلوا النار .

[سورة الأنعام (6) : آية 28]
بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (28)

« بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ »البدا هو أن يظهر لهم ما لم يكن ظهر ، ولما قدر الله أن يكونوا أهلا للنار ، وأنه ليس لهم في علم الله دار يعمرونها سوى النار ، قال تعالى :« وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ »حتى يدخلوا النار باستحقاق المخالفة ، إلى أن يظهر سبق الرحمة الغضب ، فيمكثون في النار مخلدين لا يخرجون منها أبدا على الحالة التي قد شاءها الله أن يقيمهم عليها ، ومع هذا العلم الذوقي الذي حصل لهم قيل فيهم :« وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ »لأن الله يعلم أن هذه الدار الدنيا جعلها على طبيعة مخصوصة ، وجعل نشأة الإنسان على مزاج يقبل النسيان والغفلة وحب العاجلة ، ويقبل ضد هذا على حسب ما يقام فيه ، فعلم سبحانه أن نشأة هؤلاء الذين عينهم أنهم لو ردوا إلى الدنيا في نشأتهم التي كانوا عليها في الدنيا ، لعادوا إلى نسيان ما كانوا قد علموا ، وجعل على أعينهم غطاء على ما لو شهدوه ، لعلموا الأمر فعملوا له ، فهذا معنى« لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ »لأن النشأة ليست إلا تلك فلو بقي لهم هذا العلم لما عادوا ، ألا ترى النبي صلّى الله عليه وسلم يقول في الصحيح أنه يؤتى

ص 72

في القيامة بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة فيقال له : « هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول :
لا والله ، ومعلوم أنه رأى نعيما ولكن حجبه شاهد الحال عن ذلك النعيم فينسيه ،
وكذلك صاحب البؤس إذا غمس في الجنة غمسة يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا والله ما رأيت بؤسا قط ، فكذلك لو ردوا لكانوا بحسب النشأة والحال التي يردون فيها[- تحقيق - « وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا »]
-تحقيق -« وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا »أعمى الله أبصارهم ، فمن كتبه الله شقيا لا يسعد ، ومن كتبه سعيدا لا يشقى ولا يبعد .

[سورة الأنعام (6) : آية 29]
وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)
لولا حشر الأجسام في الآخرة ، لقامت بنفوس الزهاد والعارفين في الآخرة حسرة الفوت ، ولتعذبوا لو كان الاقتصار على الجنات المعنوية لا الحسية ، فخلق الله في الآخرة جنة حسية ، وجنة معنوية وأباح لهم في الجنة الحسية ما تشتهي أنفسهم ،
ورفع عنهم ألم الحاجات ، فشهواتهم كالإرادة من الحق ، إذا تعلقت بالمراد تكون ، فما أكل أهل السعادة لدفع ألم الجوع ، ولا شربوا لدفع ألم العطش ، فلهم الجنة الحسية لأجسامهم الطبيعية ، وهم وغير العارفين في هذه الصورة الحسية على السواء ويفوز العارفون بما يزيدون عليهم بجنات المعاني .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 30 إلى 31]
وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30)قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (31)

[- نصيحة - ما أثقل الظهر ، سوى الوزر]
-نصيحة - ما أثقل الظهر ، سوى الوزر ، فلا تضف إلى أثقالك أثقالا ، وكن لرحى ما يراد منك ثقالا ، احذر من الابتداع بسبب الاتباع ، ولا تفرح بالأتباع ، وكن مثل

ص 73

صاحب الصواع ، فإنك لا ينفعك توبتك ولا يزول عنك حوبتك ، واقتصر على ما شرع ، واتبع ولا تبتدع ، وكن مع الله في كل حال ، تحمد العاقبة والمآل .

[سورة الأنعام (6) : آية 32]

وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (32)

»وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب » ما أمحن باطن الدنيا ، مساكنها خراب ، وملابسها خرق ، ومناكحها ومراكبها جيف ، ومطاعمها ومشاربها عذرتان ، وليت لو وقف الحال هنا ، ولا يبقى على الإنسان تبعات ذلك في الدار الآخرة ، حين يسأل ، ممن كسبت ؟
وفيم أنفقت ؟ يسأل عن الفتيل والقطمير ، بل في مثقال ذرة ، الحجة علينا في هذا بينة ، لأنه لو كان خبرا كان بعض عذر ، وإنما هو معاين منا لتغير هذه الأحوال مشاهدة ، والداء العضال والطامة الكبرى والداهية العظمى ، أن النفس في أشر ما تكون فيه من هذه الأحوال ، إن قضى لها به ويعطيها الله مرادها كما شاءت ، تسلب عنه وعن هذه الدار بالموت ، وينقل إلى منزل لا يجد فيه شيئا إلا ما قدمته في دنياها بعمل صالح عملته« وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ».

[سورة الأنعام (6 :) الآيات 33 إلى 35]

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34) وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (35)

النفق والنفقاء هو الجحر الذي له بابان .
« فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ »
يقول : إن طلبك الأعداء من جانب خرجت من الجانب الآخر طلبا للسلامة« وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى »فجاء بحرف لو وهو حرف امتناع لامتناع فنكون من أهل باب واحد ،

ص 74

ولكن وقع الأمر الإلهي في العالم بخلاف هذا ، لأن مشيئة الله تعلقت بأن الله لا يجمعهم على الهدى ، للعلم السابق والمشيئة الإلهية ، ليكون الخلاف في الدنيا« فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ »ما ثم صفة ولا عقوبة أقبح من الجهل ، فإن الجهل مفتاح كل شر ،

ولهذا قال تعالى لمحمد صلّى الله عليه وسلم :« فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ »ولا ينتهي إلا عن معلوم محقق ، فإنه إن لم يعلم الجهل فلا يدري ما نهى عنه ، وخاطبه بمثل هذا الخطاب لحداثة سنه وقوة شبابه ، فقابله بخطاب قوي في النهي عن ذلك ، وقال تعالى لنوح عليه السلام لما لم يكن له قوة الشباب ، وكان قد شاخ وحصل في العمر الذي لا يزال فيه محترما مرفوقا به في العرف والعادة : (فإنيأَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ) فرفق في الخطاب حين وعظه ، فإنه لا بد من الفرق بين خطاب الشباب وخطاب الشيوخ –

[إشارة - اعلم أن العلم أشرف حلّة]

إشارة - اعلم أن العلم أشرف حلّة ، وأن الجهل أقبح حلية ، وأن جهنم ليست بدار لشيء من الخير ، كما أن الجنة ليست بدار لشيء من الشر ، وأن الإيمان قد يقوم بقلب من لا علم له بما ينبغي لجلال الله ، وأن العلم بجلال الله وما ينبغي له قد يقوم بمن ليس عنده شيء من الإيمان ، فهذا العالم بعدم الإيمان استحق دار الشقاء ، والجاهل المؤمن استحق دار السعادة ، والدرجات في مقابلة الدركات ، فاعلم أن الله تعالى يسلب العالم المستحق دار الشقاء علمه يوم القيامة كأنه ما علمه ، أو لم يعلم شيئا ، فيتعذب بجهله أشد منه من عذابه بحسّه ، وهو أشده عليه ويخلع علمه على هذا الجاهل المؤمن الذي دخل الجنة بإيمانه ، فنال المؤمن بذلك العلم الذي خلع عن هذا الذي استحق الإقامة بدار الشقاء درجة ما يطلبه ذلك العلم ، فيتنعم به نفسا وجسما وفي الكثيب عند الرؤية ، ويعطى ذلك الكافر جهل هذا المؤمن الجاهل ، فينال بذلك الجهل دركات ذلك من النار ، وتلك أشد حسرة تمر عليه ، فإنه يتذكر ما كان عليه من العلم ولا يعلم ذلك الآن ، ويعلم أنّه سلبه ، ويكشف الله عن بصره حتى يرى مرتبة العلم الذي كان عليه في الجنان ، ويرى حلّة علمه على غيره ممن لم يتعب في تحصيله ، ويطلب شيئا منه في نفسه فلا يقدر عليه ، وينظر هذا المؤمن ويطلع على سواء الجحيم فيرى شر جهله على ذلك العالم الذي ليس بمؤمن فيزيد نعيما وفرحا فتحقق قوله تعالى :« فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ »وقوله تعالى :« إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ »

[إشارة :حسرة العالم الشقي يوم القيامة]

نفعنا الله بالعلم وجعلنا من أهله ولا يجعلنا ممن يسعى بخيره في حق غيره ويشقى آمين بعزته.

ص 75

[سورة الأنعام (6) : آية 36]
إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36)

[نكتة وسر دقيق في قوله تعالى » : إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ «]
فأثنى عليهم لما سمعوا داعيه بالإجابة التي أمرهم بها سبحانه في قوله) : يا قومنا أجيبوا داعي الله) وكرامة عنده سبحانه وتعالى إجابته لهم إذا دعوه ، لارتباط الحكمة في المناسبة ، فلا يجاب إلا من يجيب ، ألا تراه سبحانه وتعالى كيف قال : (أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي)
فإذا صحت لهؤلاء الإجابة لما دعاهم إليه ، وهو حقيقة السماع ، صحّ لهم إجابته إذا دعوه ، والله ذو الفضل العظيم .
وجعل تعالى علة الإجابة السماع ، لا من قال إنه سمع وهو لم يسمع ، كما قال تعالى ينهانا أن نكون مثل هؤلاء فقال »:وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ «فالسمع هنا هو عين العقل لما أدركته الأذن بسمعها من الذي جاء به المترجم عن الله تعالى ، وهو الرسول صلّى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ، فإذا علم ما سمع ، كان بحسب ما علم ، فإن العلم حاكم قاهر في حكمه لا بد من ذلك ، وإن لم يكن كذلك فليس بعلم ، وقد دعانا الله لما خلقنا له من عبادته فسمعنا ولما سمعنا استجبنا ، فأخبر الله عنا بسرعة الإجابة لما ذكرها ببنية الاستفعال ، وهنا نكتة وسر دقيق ، فهذه الآية تشير إلى شمول رحمة الله بخلقه فأخبر أنه ما استجاب إلا من سمع فوجد العذر من لم يسمع ، كما وجد العذر من لم تبلغه الدعوة الإلهية ، فحكمه حكم من لم يبعث الله إليه رسولا ،
وهو تعالى يقول :« وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »وما هو رسول لمن أرسل إليه حتى يؤدي رسالته ، فإذا سمع المرسل إليه أجاب ولا بد ، كما أخبر الله تعالى عنه لما جاء به هذا الرسول في رسالته ، فإذا رأينا من لم يجب علمنا بإخبار الله أنه ما سمع ، فأقام الله له حجة يحتج بها يوم يجمع الله الرسل ، وما أقام الله العذر عن عباده إلا وفي نفسه أن يرحمهم ، فرحم بعض الناس بما أسمعهم فاستجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، ومن لم يستجب اعتذر الله عنه بأنه لم يسمع ، وهذا من حكم الغيرة الإلهية على الألوهة أن يقاومها أحد من عباده بخلاف ما دعت إليه ، إذ لو علم أنهم سمعوا وما استجابوا لعظّمهم في أعين الناس ، وجعلهم في مقام المقاومة له ، فلا تقل فيمن لم يجب إنه سمع فتخالف الله فيما أخبر عنهم ، وقد أخبر الله تعالى عنهم أن بهم صمما وأخبر عنهم أنهم قالوا : في آذاننا وقر ، فطابق قولهم في آذاننا وقر قول الله أنهم صم ، فلم يسمعوا.

ص 76

[سورة الأنعام (6) : الآيات 37 إلى 38]

وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (37) وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)

« وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ »في كل شيء ، أي كما انطلق عليكم اسم الأمة ، كذلك ينطلق اسم الأمة على كل دابة وطائر يطير بجناحيه ، فما من شيء في الوجود إلا وهو أمة من الأمم ، والأمثال هم الذين يشتركون في صفات النفس ، فكلهم حيوان ناطق .

واعلم أن الأمثال معقولة لا موجودة ، فتطلق المثلية من حيث الحقيقة الجامعة المعقولة ، لا الموجودة ، فإن التوسع الإلهي يقتضي أن لا مثل في الأعيان الموجودة ، وأن المثلية أمر معقول متوهم ، فإنه لو كانت المثلية صحيحة ما امتاز شيء عن شيء مما يقال هو مثله ، فإن الأصل الذي نرجع إليه في وجودنا وهو الله تعالى ، ليس كمثله شيء ، فلا يكون ما يوجد عنه إلا على حقيقة أنه لا مثل له ، فكل جوهر فرد في العالم لا يقبل المثل ، فما في الوجود شيء له مثل ، بل كل موجود متميز عن غيره بحقيقة هو عليها في ذاته ، فإن أطلقت المثلية على الأشياء أطلقت عرفا ، ولم تبق المثلية الواردة في القرآن وغيره إلا في الافتقار إلى الله موجد أعيان الأشياء ، ثم قال تعالى في هذه الأمم :« ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ »يعني كما تحشرون أنتم ، قال تعالى :« وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ »فإنها أمم أمثالنا ،

وقال تعالى :« ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ »فهو الجامع لكل شيء ، وهو القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فبالقرآن يكشف جميع ما في الكتب المنزلة من العلوم ، وفيه ما ليس فيها ، فمن أوتي القرآن فقد أوتي الضياء الكامل الذي يتضمن كل علم ، وبه صحّ لمحمد صلّى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، فعلوم الأنبياء والملائكة وكل لسان علم ، فإن القرآن يتضمنه ويوضحه لأهل القرآن ، فمن أعطي القرآن فقد أعطي العلم الكامل وهذا يعني أنه قد حوى جميع المعارف وأحاط بما في العلم الإلهي من المواقف وإن لم تتناه ، فقد أحاط علما بها ، وأنها لا تتناهى ، فالمريد من يجد في القرآن كل ما يريد ، وهذا لا يكون إلا إذا كان ممن ينزل القرآن على قلبه عند تلاوته ، فإن القرآن هو الجامع . واعلم أن الولي

ص 77

لا يتعدى كشفه في العلوم الإلهية فوق ما يعطيه كتاب نبيه ووحيه ، قال الجنيد في هذا المقام :
علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، وقال الآخر : كل فتح لا يشهد له الكتاب والسنة فليس بشيء . فلا يفتح لولي قط إلا في الفهم في الكتاب العزيز ، لهذا قال تعالى :« ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ »

[الولي لا يأمر أبدا بعلم فيه تشريع ناسخ لشرعه]
فلا يخرج علم الولي جملة واحدة عن الكتاب والسنة ، فإن خرج أحد عن ذلك فليس بعلم ، ولا علم ولاية معا ، بل إذا حققته وجدته جهلا ، والجهل عدم ، والعلم وجود محقق ، فالولي لا يأمر أبدا بعلم فيه تشريع ناسخ لشرعه ، ولكن قد يلهم لترتيب صورة لا عين لها في الشرع من حيث مجموعها ، ولكن من حيث تفصيل كل جزء منها وجدته أمرا مشروعا ، فهو تركيب أمور مشروعة ، أضاف بعضها إلى بعض هذا الولي ، أو أضيفت إليه بطريق الإلقاء فظهر بصورة لم تظهر في الشرع بجمعيتها . فهذا القدر له من التشريع ، وما خرج بهذا الفعل من الشرع المكلف به ، فإن الشارع قد شرع له أن يشرع مثل هذا ، فما شرع إلا عن أمر الشارع ، فما خرج عن أمره ، فمثل هذا قد يؤمر به الولي ، وأما خلاف هذا فلا .فإن قلت وأين جعل الله للولي العالم ذلك بلسان الشرع ؟ قلنا :
قال صلّى الله عليه وسلم : « من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا » . فقد سن له أن يسن ، ولكن مما لا يخالف فيه شرعا مشروعا ، ليحلّ به ما حرم أو يحرم به ما حلل.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 39 إلى 40]
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (39) قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (40)
أي إن صدقتم ولا تكتمون ما تجدونه في نفوسكم من قولي إنكم ما تدعون في الشدائد إلا الله ، الذي ما زالت قلوبكم منطوية عليه ، فهم بلا شك مصدقون لعلمهم فهل يصدقون إذا سئلوا أم لا.

ص 78

[سورة الأنعام (6) : آية 41]
بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (41)
-الوجه الأول - وتنسون ما تشركون أي تتركون الشرك . وهذه شهادة من الله تعالى على نفسه لنا في دار التكليف بتوحيده في المهمات ، وهو قوله تعالى »: وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ »وقوله :« أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ »؟ فما دعا أحد من الخلق في حال شدته إلا الله ، ولو لم يكن في علمه في حال الرخاء أن حلّ الشدائد بيد الله خاصة - وهذا هو التوحيد - ما أظهر ذلك الاعتقاد عند الشدائد ، فلم يزل المشرك موحدا بشهادة الله في حال الرخاء والشدة ، غير أن المشرك في حال الرخاء لا يظهر عليه علم من أعلام التوحيد الذي هو معتقده ، فإذا اضطر رجع إلى علمه بتوحيد خالقه ، ولم يظهر عليه علم من أعلام الشرك ، وكل ذلك في دار التكليف ، وأكثر العلماء غائبون عن هذا الفضل الإلهي

- الوجه الثاني -« بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ »هل تدعون الشريك لعينه ؟
لا والله إلا لكونه في اعتقادكم إلها ، فالله دعوتم لا تلك الصورة ، ولهذا أجيب دعاؤكم ، والصورة لا تضر ولا تنفع ، انظر في قوله :« سَمُّوهُمْ »فإن سموهم بهم فهم عينهم ، فلا يقولون في معبودهم حجر ولا شجر ولا كوكب ، ينحته بيده ثم يعبده ، فما عبده وجوهره والصورة من عمله وإنما سموهم بالإله فما عبدوا إلا الله ، وقد أشار إلى ذلك الآية الواردة في القرآن بقوله تعالى :« وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ »وهو عندنا بمعنى حكم ، وعند من لا علم له بالحقائق بمعنى أمر ، فأين يذهب العبد إن أتاه عذاب الله فإن أمره تعالى مسموع .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 42إلى 43]
وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42)
فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (43)
»وزين لهم الشيطان أعمالهم » تنبيه على الأدب ، ويضاف إلى الشيطان إذ جرى عليه لسان الذم من الله تعالى تنزيها لجنابه " فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ".
وهو قول الله تعالى :(لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ).*

ص 79

[سورة الأنعام (6) : الآيات 44 إلى 54]
فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (45)
قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46)
قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47)
وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (49)
قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ (50)
وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51)
وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52)
وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53)
وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(54)

ص 80

[« كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ »]« كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ »اعلم أن من حقيقته أن يكون مقيدا ، لا يصح أن يكون مطلقا بوجه من الوجوه ما دامت عينه ، فإن التقييد صفة نفسية له ، ومن كان حقيقته أن يكون مطلقا فلا يقبل التقييد جملة واحدة ، فإنه صفته النفسية أن يكون مطلقا ، لكن ليس في قوة المقيد أن يقبل الإطلاق لأن صفته العجز ، وأن يستصحبه الحفظ الإلهي لبقاء عينه ، فالافتقار يلزمه . وللمطلق أن يقيد نفسه إن شاء ، وأن لا يقيدها إن شاء ، فإن ذلك من صفة كونه مطلقا إطلاق مشيئة ، ومن هنا أوجب الحق على نفسه ، ودخل تحت العهد لعبده فقال في الوجوب :« كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ »فلا توجب على الله إلا ما أوجبه على نفسه ، وعلى الحقيقة إنما وجب ذلك على النسبة لا على نفسه ، فإنه يتعالى أن يجب عليه من أجل حدّ الواجب الشرعي ، والنسب هي الأسماء الإلهية فإن لكل اسم دلالتين :
دلالة على المسمّى به ، ودلالة على حقيقته التي بها يتميز عن اسم آخر . فلا إله إلا هو ، ولا فاعل سواه ، فيوجب من كونه كذا ، ويجب عليه من كونه كذا ، فالرحمة الواجبة أوجبها تعالى للعالم على نفسه ، وصارت حقا عليه ولكن لا كل العالم بل لعالم مخصوص ، وهو المنعوت في قوله :« أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ »فهم قوم خواصّ نعتهم بعمل خاص فقيدها بالجهالة ، فإن لم يجهل لم يدخل في هذا التقييد ، وبقيت الرحمة مطلقة من عين المنة لا الوجوب فهؤلاء يأخذونها من طريق الوجوب لقيام الأسباب التي جعلها الحق موجبة لها بهم ، وما عدا هؤلاء فينتظرونها من باب المنة ، وقال في آية أخرى :« فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ »وما عدا هؤلاء المنعوتين فإن الله يرحمهم برحمة الامتنان ، فلا وجوب على الله مطلقا ، فمهما رأيت الوجوب فاعلم أن التقييد يصحبه ، وما كتب الله على نفسه ما كتبه إلا لمن قام بحق النيابة عنه فيما استنابه وليس إلا المتقين ، وما عدا هؤلاء فهم أهل المنن ، فنالوا أغراضهم على الاستيفاء ، ثم إن الله امتن عليهم بعد ذلك بالمغفرة والرحمة التي عم حكمها ، وهنا أوجب الحق الرحمة على نفسه لمن تاب وأصلح من العاملين السوء بجهالة.

ص 81

[سورة الأنعام (6) : الآيات 55 إلى 57]
وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55 (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56)
قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (57)
وهو خير الفاصلين بأحكام حكمته فتزول المغالبة والمنازعة .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 58 إلى 59]
قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)
وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (59)

[« وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ »]
« وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ »كل معدوم العين ظاهر الحكم والأثر ، فهو على الحقيقة المعبر عنه بالغيب ، فإنه من غاب في عينه فهو الغيب ، والطبيعة غائبة العين في الوجود فليس لها عين فيه ، وعن الثبوت وليس لها عين فيه ،
فهي عالم الغيب المحقق ، وهي معلومة ، كما أن المحال معلوم ، غير أن الطبيعة وإن كانت مثل المحال في رفع الثبوت عنها والوجود فلها أثر ويظهر عنها صور ،
والمحال ليس كذلك ،
ومفاتيح هذا الغيب هي الأسماء الإلهية التي لا يعلمها إلا الله العالم بكل شيء ،
والأسماء نسب غيبية إذ الغيب لا يكون مفتاحه إلا غيبا .
وهذه الأسماء تعقل منها حقائق مختلفة معلومة الاختلاف كثيرة ،
ولا تضاف إلا إلى الحق فإنه مسماها ولا يتكثر بها ، فلو كانت أمورا وجودية قائمة به لتكثر بها ، فعلمها سبحانه من حيث كونه عالما بكل معلوم ،
وعلمناها نحن باختلاف الآثار منها فينا ، فسميناه كذا من أثر ما وجد فينا ، فتكثرت الآثار فينا ، فكثرت الأسماء والحق مسماها فنسبت إليه

ص 82

ولم يتكثر في نفسه بها ، فعلمنا أنها غائبة العين . ولما فتح الله بها عالم الأجسام الطبيعية باجتماعها بعد ما كانت متفرقة في الغيب ، معلومة الافتراق في العلم ، إذ لو كانت مجتمعة لذاتها لكان وجود عالم الأجسام أزلا لنفسه لا لله ، وما ثم موجود - ليس هو الله - إلا عن الله . وما ثم واجب الوجود لذاته إلا الله ، وما سواه فموجود به لا لذاته ، وبالمشيئة ظهر أثر الطبيعة وهي غيب فالمشيئة مفتاح ذلك الغيب ، والمشيئة نسبة إلهية لا عين لها فالمفتاح غيب ، فالغيب هو النور الساطع العام الذي به ظهر الوجود كله ، وما له في عينه ظهور ، فهو الخزانة العامة التي خازنها منها ، وقد تكون مفاتح الغيب هي استعدادات القوابل ، وهي غير مكتسبة بل منحة إلهية ، فلهذا لا يعلمها إلا الله ولا تعلم إلا بإعلام الله ، وعالم الغيب قد يظهر على غيبه من يرتضيه من رسله ، وهو غيب الوجود أي ما هو في الوجود ، ومغيب عن بعض الأبصار والبصائر ، وهذا الغيب هنا ما ليس بموجود ، فمفتاح ذلك الغيب لا يعلمه إلا الله ، فلا يعلم ما هو مفتاح غيب خاص في مفرد مفرد من الغيوب ، فإذا حصل الاستعداد من الله تعالى حصل المفتاح وبقي الفتح حتى يقع التعليم ، فإنه هو الفتاح العليم فانفرد سبحانه بعلم مفاتح هذا الغيب ، ونفى العلم عن كل ما سواه بها ، فالممكنات كلها وأعني بكلها ميزها عن المحال والواجب ، لا أن أعيانها يحصرها الكل ، ذلك محال هي في ظلمة الغيب ، فلا يعرف لها حالة وجود ، ولكل ممكن منها مفتاح ، لا يعلمه إلا الله ، فلا موجد إلا هو ، خالق كل شيء وموجده ، وما من ممكن يظهره الله إلا وله ظل ممدود في الغيب ، لا يمكن خروجه . فظاهر الإنسان ما امتد من الإنسان فظهر ، وباطنه ما لم يفارق الغيب فلا يعلم باطن الإنسان أبدا ». وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها »وهي ما تسقط إلا من خشية الله كما قال (وإن منها لما يهبط من خشية الله)« وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ »[الطبيعة]

أمهات الطبيعة أربعة : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وقد جعل الله اثنين منها أصلا في وجود الاثنين الآخرين ، فانفعلت اليبوسة عن الحرارة ، والرطوبة عن البرودة ، فالرطوبة واليبوسة موجودتان عن سببين هما الحرارة والبرودة ، ولهذا ذكر الله في قوله تعالى :« وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ »لأن المسبب يلزم من كونه مسببا وجود السبب ، أو منفعلا وجود الفاعل كيف شئت فقل ، ولا يلزم من وجود السبب وجود المسبب فإن المنفعل يطلب الفاعل بذاته ، فإنه منفعل لذاته ولو لم يكن منفعلا لذاته ما قبل الانفعال والأثر

ص 83

وكان مؤثرا فيه ، بخلاف الفاعل فإنه يفعل بالاختيار إن شاء فعل فيسمى فاعلا ، وإن شاء ترك ، وليس ذلك للمنفعل . ولهذه الحقيقة ذكر تعالى« وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ »فذكر المنفعل ولم يذكر ولا حار ولا بارد لما كانت الرطوبة واليبوسة عند العلماء بالطبيعة تطلب الحرارة والبرودة اللتين هما منفعلتان عنهما ، كما تطلب الصنعة الصانع ، لذلك ذكرهما دون الأصل ، وإن كان الكل في« كِتابٍ مُبِينٍ »فهذه الآية من فصاحة القرآن وإعجازه حيث علم أن الذي أتى به - وهو محمد صلّى الله عليه وسلم - لم يكن ممن اشتغل بالعلوم الطبيعية فيعرف هذا القدر ، فعلم قطعا أن ذلك ليس من جهته ، وأنه تنزيل من حكيم حميد ، وأن القائل بهذا عالم ، وهو الله تعالى . فعلم النبي صلّى الله عليه وسلم كل شيء بتعليم الله إياه وإعلامه ، لا بفكره ونظره وبحثه .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 60 إلى 61]

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60) وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (61)

« وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ »لما صدر منهم من النزاع ، فمن أراد أن يزول عنه حكم القهر فليصحب الله بلا غرض ولا تشوف ، بل ينظر كل ما وقع في العالم وفي نفسه يجعله كالمراد له ، فيلتذ به ويتلقاه بالقبول والبشر والرضى ،

فلا يزال من هذه حاله مقيما في النعيم الدائم ، لا يتصف بالذلة ، ولا بأنه مقهور ، فتدركه الآلام لذلك ، وعزيز صاحب هذا المقام ، وما رأيت له ذائقا ، لأنه يجهل الطريق إليه فإن الإنسان لا يخلو نفسا واحدا عن طلب يقوم به لأمر ما .

« وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً »وهو التوكيل أعني هذا الإرسال في حق قوم وحفظا وعصمة في حق آخرين ،

فدخل تحت قوله تعالى :« وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً »فنكر ، فدخل حفظة الوجود وحفظة الأفعال ، ففي حفظ الوجود اجتماع الموحدين والمشركين في الحفظ الإلهي ، وذلك من باب الاعتناء بالخلق وإن جهلوا.

ص 84

[سورة الأنعام (6) : الآيات 62 إلى 68]

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (62) قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64)
قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65)
وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66)
لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67) وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68)

كل ما في العالم آياته تعالى ، فإنها دلائل عليه ، ويدخل في ذلك الخوض في القرآن وهو المراء والجدل فيه بأنه محدث أو قديم ، أو هل هذا المكتوب في المصاحف ، والمتلو المتلفظ به ، عين كلام الله ، أو ما هو عين كلام الله ؟
فالكلام في مثل هذا ، والخوض فيه ، هو الخوض في آيات الله . وقد سماه الله حديثا وليس إلا القرآن« فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ »
فلو أراد غير القرآن لقال فيها بضمير الآية أو الآيات فليس للذكورية هنا دخول إلا إذا أراد آيات القرآن ، والقرآن خبر الله ،
والخبر عين الحديث ، وقد وصانا تعالى وحذرنا في آية أخرى بقوله: " إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ »إذا أقمتم معهم وهم بهذه المثابة وإن لم نخض معهم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 69 إلى 70]

وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ(70)

ص 85

ذمّ الله قوما اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، وهم في هذا الزمان أصحاب السماع ، أهل الدف والمزمار ،
نعوذ بالله من الخذلان :
ما الدين بالدف والمزمار واللعب *** لكنما الدين بالقرآن والأدب

[سورة الأنعام (6) : آية 71]
قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (71)
إن هدى الله هو الهدى ، أي بيان الله هو البيان ، وما لله لسان بيان فينا إلا ما جاءت به الرسل من عند الله فبيان الله هو البيان ، لا ما بينه العقل ببرهانه في زعمه ، وليس البيان إلا ما لا يتطرق إليه الاحتمال.
فمن حكم عقله ونظره وبرهانه على شرعه فما نصح نفسه ، وما أعظم ما تكون حسرته يوم القيامة إذا انكشف الغطاء .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 72 إلى 73]
وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)

ص 86

"وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ »
وقال تعالى :« وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ »

[- بحث في الحق المخلوق به - هو العقل الأول وهو القلم]
-بحث في الحق المخلوق به - هو العقل الأول وهو القلم الأعلى ، فأول ما أوجد الله من العالم العقول المدبرة جوهرا بسيطا ليس بمادة ولا في مادة ، عالم بذاته في ذاته ، علمه ذاته لا صفة له مقامه الفقر والذلة والاحتياج إلى باريه وموجده ومبدعة ، له نسب وإضافات ووجوه كثيرة ، لا يتكثّر في ذاته بتعددها .
فياض بوجهين من الفيض : **فيض ذاتي** ، **وفيض إرادي** .
فما هو بالذات مطلقا لا يتصف بالمنع في ذلك ، وما هو بالإرادة فإنه يوصف فيه بالمنع والعطاء وله افتقار ذاتي لموجده سبحانه الذي استفاد منه وجوده ، وسماه الحق سبحانه وتعالى في القرآن : حقا ، وقلما ، وروحا ، وفي السنة : عقلا وغير ذلك من الأسماء .
وهو أول عالم التدوين والتسطير ، وهو الخازن الحفيظ العليم الأمين على اللطائف الإنسانية التي من أجلها وجد ، ولها قصد ، فهو العقل من حيث العلم بالله ، وهو القلم من حيث التدوين والتسطير ، وهو الروح من حيث التصرف ، وهو العرش من حيث الاستواء ، وهو الإمام المبين من حيث الإحصاء ، ولا يزال هذا العقل مترددا بين الإقبال والإدبار ، يقبل على باريه ، مستفيدا فيتجلى له ، فيكشف في ذاته من بعض ما هو عليه ، فيعلم من باريه قدر ما علم من نفسه ، فعلمه بذاته لا يتناهى وطريقة علمه به التجليات ، وطريقة علمه بربه علمه به ، ويقبل على من دونه مفيدا هكذا أبد الآباد في المزيد فهو الفقير الغني ، العزيز الذليل ، العبد السيد ، ولا يزال الحق يلهمه طلب التجليات لتحصيل المعارف ، واختلفت الاعتبارات فاختلفت الأسماء . فنقول في العقل الأول عقلا لمعنى يخالف المعنى الذي لأجله نسميه قلما ، يخالف المعنى الذي لأجله نسميه روحا ، يخالف المعنى الذي لأجله نسميه قلبا ، فهذه ألقاب كثيرة اختلفت على شيء واحد لظهوره في مراتب متعددة ، قابل بذاته كل مرتبة صالح لها . - وجه آخر - راجع النحل آية 3« وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ »الملك هو الذي يقضي فيه مالكه ومليكه بما شاء ، ولا يمتنع عنه جبرا فيسمى كرها ، أو اختيارا فيسمى طوعا« يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ »قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [أوتيت جوامع الكلام] وقال تعالى :(وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ)وقال:

ص 87

(وصدقت بكلمات ربها وكتابه) ويقال : قطع الأمير يد السارق وضرب الأمير اللص ، فمن ألقي عن أمره شيء فهو ألقاه فكأن الملقي محمد عليه السلام ، ألقى عن الله كلمات العالم بأسره من غير استثناء شيء منه البتة ، فمنه ما ألقاه بنفسه كأرواح الملائكة وأكثر العالم العلوي ، ومنه أيضا ما ألقاه عن أمره فيحدث الشيء عن وسائط فرجع الكل في ذلك إلى من أوتي جوامع الكلم ، فنفخ الحقيقة الإسرافيلية من المحمدية المضافة إلى الحق نفخها كما قال تعالى :« وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ »قرئ ننفخ بالنون وقرئ بالياء وضمها وفتح الفاء والنافخ إنما هو إسرافيل والقبول من الصور وسر الحق بينهما هو المعنى بين النافخ والقابل ، كالرابط من الحرف بين الكلمتين ، وذلك هو سر الفعل الأقدس الأنزه الذي لا يطلع عليه النافخ ولا القابل ، والصور قرن من نور لأنه نقّر ظلام الأجسام بالأجساد وزال عنها بسرعة التقليب في الصور البقاء على الأمر المعتاد ، والصور هنا جمع صورة بالصاد ، وهو الحضرة البرزخية التي ننتقل إليها بعد الموت ، ونشهد نفسنا فيها ، وسميت بالصور والناقور ، فينفخ في الصور وينقر في الناقور وهو هو بعينه واختلفت عليه الأسماء لاختلاف الأحوال والصفات .« عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ »

[العالم مظهر الحق على الكمال]

اعلم أن الغيب ظرف لعالم الشهادة ، وعالم الشهادة كل موجود سوى الله تعالى ، مما وجد ولم يوجد أو وجد ثم ردّ إلى الغيب ، كالصور والأعراض وهو مشهود لله تعالى ، ولهذا قلنا : إنه عالم الشهادة . ولم يزل الحق يخرج العالم من الغيب شيئا بعد شيء إلى ما لا يتناهى عددا من أشخاص الأجناس والأنواع ، ومنها ما يرده إلى غيبه ومنها ما لا يرده أبدا ، فالذي لا يرده أبدا إلى الغيب كل ذات قائمة بنفسها وليس إلا الجواهر خاصة ، وكل ما عدا الجواهر من الأجسام والأعراض الكونية واللونية ترد إلى الغيب ، ويبرز أمثالها والله يخرجها من الغيب إلى شهادتها أنفسها . فهو عالم الغيب والشهادة والأشياء في الغيب لا كمية لها ، إذ الكمية تقتضي الحصر وهي غير متناهية ، فإذا ظهرت أعين الجواهر تبعتها النسب بكم وكيف وأين ، فليس في الوجود المحدث إلا الجوهر والنسب التي تتبعه ، فكان الغيب بما فيه كأنه يحوي على صورة مطابقة لعالمه إذ كان علمه بنفسه علمه بالعالم ، فبرز العالم على صورة العالم من كونه عالما به ، فالعالم مظهر الحق على الكمال فليس في الإمكان أبدع من هذا العالم ، إذ ليس أكمل من الحق تعالى ، فلو كان في الإمكان أكمل من هذا العالم لكان ثم من هو أكمل من موجده ، وما ثم إلا الله ، فليس

ص 88

في الإمكان إلا مثل ما ظهر لا أكمل منه ، ومن ذلك نعلم أن الغيب غيبان : غيب لا يوجد منه شيء فيكون شهادة ولا ينتقل إليه بعد الشهادة ، وما هو محال فيكون عدما محضا ، ولا هو واجب الوجود فيكون وجودا محضا ، ولا هو ممكن يستوي طرفاه بين الوجود والعدم ، وما هو غير معلوم ، بل هو معقول معلوم ، فلا يعرف له حد . وهو الغيب الذي انفرد الحق به سبحانه حيث قال :« عالِمُ الْغَيْبِ »وما قرنه بالشهادة ، والغيب الآخر الغيب الذي قرنه بالشهادة وهو الذي يوجد منه الكائنات ، والغيب الذي ينتقل إليه بعض الكائنات بعد اتصافها بالشهادة ، لذلك قال متمما :« وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »فإن الحق ما هو فعله مع الأغراض التي أوجدها في عباده ، وإنما هو مع ما تطلبه الحكمة ، والذي اقتضته الحكمة هو الواقع في العالم ، فعين ظهوره هو عين الحكمة ، فإن فعل الله لا يعلل بالحكمة ، بل هو عين الحكمة .

[سورة الأنعام (6) : آية 74]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (74)

لأنهم أوقعوا أنفسهم في الحيرة لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم ، وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم من الله شيئا ، فهي شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 75]

وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)

اعلم أن عالم الملكوت هو المحرك لعالم الشهادة ، وهو تحت قهره وتسخيره ، حكمة من الله تعالى لا لنفسه استحق ذلك ، فعالم الشهادة لا تصدر منه حركة ولا سكون ، ولا أكل ولا شرب ، ولا كلام ولا صمت ، إلا عن عالم الغيب .
وذلك أن الحيوان لا يتحرك إلا عن قصد وإرادة وهما من عمل القلب ،
وهو من عالم الغيب ، والحركة وما شاكلها من عالم الشهادة ، وعالم الشهادة ما أدركناه بالحس عادة ، وعالم الغيب ما أدركناه بالخبر الشرعي ،
أو النظر الفكري فيما لا يظهر للحس عادة فنقول : إن عالم الغيب يدرك بعين

ص 89

البصيرة ، كما أن عالم الشهادة يدرك بعين البصر ، وكما أن البصر لا يدرك عالم الشهادة ما لم يرتفع عنه حجاب الظلم أو ما أشبه من الموانع ، فإذا ارتفعت الموانع وانبسطت الأنوار على المحسوسات أدرك البصر المبصرات ، فإدراكها مقرون بنور البصر ونور السراج وأشباهها من الأنوار ، كذلك عين البصيرة حجابها الريون ، والشهوات ، وملاحظة الأغيار ،

[حجاب عين البصيرة]

إلى مثل هذه من الحجب ، فتحول بينها وبين إدراك الملكوت أعني عالم الغيب ، فإذا عمد الإنسان إلى مرآة قلبه وجلاها بأنواع الرياضات والمجاهدات حتى زال عنها كل حجاب ، واجتمع نورها مع النور الذي ينبسط على عالم الغيب ، وهو النور الذي يتراءى به أهل الملكوت ، وهو بمنزلة الشمس في المحسوس ، اجتمع عند ذلك نور عين البصيرة ، مع نور التمييز ، فكشف المغيبات على ما هي عليه ، غير أن بينهما لطيفة معنى ، وذلك أن الحس يحجبه الجدار ، والبعد المفرط ، والقرب المفرط ، والأجسام الكثيفة الحائلة بينه وبين من يريد إدراكه ، وهذا لقصوره عادة ، وقد تنخرق لنبي أو ولي كقول النبي صلّى الله عليه وسلم : إني أراكم من وراء ظهري ، وفي الأولياء ابتداء المكاشفات لهم في أول سلوكهم ، فإن المريد أول ما يكشف له عن المحسوسات فيرى رجلا مقبلا أو على حالة ما وبينهما البعد المفرط والأجسام الكثيفة ، بحيث أن يراه بمكة أو يرى الكعبة وهو بأقصى المغرب ، وهذا كثير عند المريدين في أول أحوالهم ، وأما عالم البصيرة فلا إذ عالم الغيب ليس بينه وبين عين البصيرة مسافة ولا بعد ولا قرب مفرط ، وحجابه إنما هو الران والقفل والكن وقد ارتفعت بالمجاهدات ، فلاحت أعلام الغيوب ، لكن ثم أمر تدركه وهو إن انجلت عين البصيرة كما ذكرناه فإن ثم حجابا آخر إلهيا ، وهو أن النور الذي ينبسط من حضرة الجود على المغيبات في الحضرات الوجودية ليس يعمها إلا على قدر ما يريد الله تعالى أن يكشف لك منها ، مع أنك في غاية الصفاء والجلاء ، وذلك هو مقام الوحي دليلنا على ذلك قوله تعالى : « قلما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ »مع غاية الصفاء النبوي ، فكيف بالولي الذي ما فتح له من الطريق خرت إبرة ؟ فهذا هو قدر ما يكشف له من عالم الغيب ، فيرى تأثيره في عالم الشهادة فيتكلم به على ذلك الحد ، فيقول : يكون كذا ولا يكون كذا وعاقبة أمر ما إلى كذا على قدر الكشف . وهذا الحجاب الإلهي لا يمكن رفعه عقلا ولو بلغ المرء أعلى الغايات ، بدليل أن هذا الحجاب إنما هو العلم الأزلي المتعلق بمعلومات غير

ص 90

متناهية ، وكل ما حصره الوجود فهو متناه ، ولا تكشف عين البصيرة إلا ما دخل في الوجود بوجه ما من أوجه مراتب الوجود ، ومهما ظهر ممن حصل في هذا المقام شيء من ذلك على ظاهره في حق شخص ما ، فتلك الفراسة ، وهي أعلى درجات المكاشفة ، لذلك قال تعالى :« وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ »وذلك عين اليقين لأنه عن رؤية وشهود .

[سورة الأنعام (6) : آية 76]

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76)

فإن الإله لا يكون من الآفلين وإبراهيم الخليل يحب الله بلا شك ، فالله ليس بآفل ، فإن تجليه دائم ، وتدليه لازم ، لذلك لم يجب الخليل الآفل ، لأنه رآه يطلب السفل ، وهمته في العلو لطلب الدنو .

[سورة الأنعام (6 : (الآيات 77 إلى 78]

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78)

كانت هذه الثلاثة أنوار حجة إبراهيم على قومه آتاه الله إياها عناية منه به ولم يقلها إشراكا ، لكن جعلها حبالة صائد يصيد بها ما شرد من عقول قومه ، فلم يكن قوله في الأنوار الثلاثة عن اعتقاد بل عن تعريف لإقامة الحجة على القوم ، ألا ترى إلى ما قال الحق في ذلك .

وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه . - إشارة - غمّض عن الكوكب والقمر ، وإذا رأيت الشمس فلا تقل هذا أكبر ، أي لا تطلب الله تعالى بالدليل ، بل سله يعرفك بنفسك ، قال صلّى الله عليه وسلم : (من عرف نفسه عرف ربه)

[- إشارة - الكوكب والقمر والشمس أنوارها إشارة إلى الروح والعقل والنفس]

-إشارة - الكوكب والقمر والشمس أنوارها إشارة إلى الروح والعقل والنفس ، وأثبت لهم الربوبية لما لحظ لهم القهر على النشأة الترابية .

[سورة الأنعام : (6)آية 79]

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

ص 92

قال :« وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ »لما رأى بعضهم يفضل على بعض وفطر السماوات والأرض هو قوله ففتقناهما ، فصل السماوات بعضها عن بعض ، وهو بحر واسع ما يسعه كتاب ، ففتقهما بعد رتقهما ليتميزا ، فيظهر المؤثر والمؤثر فيه لوجود التكوين .« حَنِيفاً »الحنف : الميل أي مائلا إلى جناب الحق« وَما أَنَا »في هذا الميل« مِنَ الْمُشْرِكِينَ »فنفى عن نفسه الشرك .

[التوجه في الصلاة]

-التوجه في الصلاة - جاء في الحديث بعد التكبير« وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ،إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »

[إشارة : من دعاء التوجه في الصلاة]

والأكمل في التوجه أن يعقب التوجه بقوله : « اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك » - إشارة - أيها الحباب المتقاطر ، والسحاب الماطر ، هذا قد تجلى لكليتك الإله الفاطر ، فقل لسمائك لا تحجب بلطافتها ، ولأرضك لا تحجب بكثافتها ، فإنه لا بد عند تجليه لسمائك من تخلخلها ، ولأرضك من تزلزلها ، فإياك أن تقع في أشراك الإشراك ، لعظيم آفات الاشتراك ، والزم الوحدة فيها تحصل رفده ومجده ، وكن وجها مستديرا ، ولا تجعله عبوسا قمطريرا ، ولا تحجب بالجهة الكعبية ، عن الجهة القلبية ، وألحق الحياة بقدمها ، والموت بعدمه في قدمها ، والصلاة بحضرة ربك ، واجعل النسك قربان قربك ، وأقر بالأمر للآمر ، واعترف بالإسلام حذرا من الحسام الباتر ، وارغب في الانصراف إلى الفضائل وعن الرزائل ، واسند الأمور إليه ، فإن مفاتيحها في يديه ، واستسلم للحكم ، تكن من أهل العلم ، وتدرّع بثوب الاستغفار ، فإنه يحول بينك وبين النار .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 80 إلى 81]

وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَ تُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)

ص 93

[المعلومات أربعة]
اعلم أن المعلومات أربعة : الحق تعالى وهو الموصوف بالوجود المطلق سبحانه ، ليس معلولا لشيء ولا علة بل هو موجودا بذاته ، والعلم به عبارة عن العلم بوجوده ، ووجوده ليس غير ذاته ، مع أنه غير معلوم الذات ، لكن يعلم ما ينسب إليه من الصفات أعني صفات المعاني وهي صفات الكمال ، وأما العلم بحقيقة الذات فممنوع ، لا تعلم بدليل ولا ببرهان عقلي ، ولا يأخذها حد ، فإنه سبحانه لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، فكيف يعرف من يشبه الأشياء من لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئا ؟ وقد ورد المنع من الشرع في التفكر في ذات الله » ومعلوم ثان » وهو الحقيقة الكلية التي هي للحق وللعالم ، ولا تتصف بالوجود ولا بالعدم ، ولا بالحدوث ولا بالقدم ، هي في القديم إذا وصف بها قديمة ، وفي المحدث إذا وصف بها محدثة ، لا تعلم المعلومات قديمها وحديثها حتى تعلم هذه الحقيقة ، ولا توجد هذه الحقيقة حتى توجد الأشياء الموصوفة بها ، فإن وجد شيء عن غير عدم متقدم كوجود الحق وصفاته ، قيل فيها : موجود قديم لاتصاف الحق بها وإن وجد شيء عن عدم كوجود ما سوى الله وهو المحدث الموجود بغيره قيل فيها محدثه وهي في كل موجود بحقيقتها فإنها لا تقبل التجزي ، فما فيها كل ولا بعض ، ولا يتوصل إلى معرفتها مجردة عن الصورة بدليل ولا ببرهان ، فمن هذه الحقيقة وجد العالم بوساطة الحق تعالى ، وليست بموجودة فيكون الحق قد أوجدنا من موجود قديم فيثبت لنا القدم ، وكذلك لتعلم أيضا أن هذه الحقيقة لا تتصف بالتقدم على العالم ولا العالم بالتأخر عنها ، ولكنها أصل الموجودات عموما ، وهي أصل الجوهر ، وفلك الحياة ، والحق المخلوق به ، وغير ذلك ، وهي الفلك المحيط المعقول ، فإن قلت : إنها العالم صدقت ، أو إنها ليست العالم صدقت ، أو إنها الحق أو ليست الحق صدقت ، تقبل هذا كله وتتعدد بتعدد أشخاص العالم وتتنزه بتنزيه الحق ، وهذه الحقيقة الكلية هي الجامعة لحقائق العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر وجميع الأشياء كلها .
»ومعلوم ثالث » وهو العالم كله الأملاك والأفلاك وما تحويه من العوالم والهواء والأرض « ومعلوم ثالث » وهو العالم كله الأملاك والأفلاك وما تحويه من العوالم والهواء والأرض وما فيهما من العالم وهو الملك الأكبر » . ومعلوم رابع » وهو الإنسان الخليفة الذي جعله

ص 94

الله في هذا العالم المقهور تحت تسخيره ، فمن علم هذه المعلومات فما بقي له معلوم أصلا يطلبه ، فمنها ما لا نعلم إلا وجوده وهو الحق تعالى ، ونعلم أفعاله وصفاته بضرب من الأمثلة ، ومنها ما لا يعلم إلا بالمثال كالعلم بالحقيقة الكلية ، ومنها ما يعلم بهذين الوجهين وبالماهية والكيفية وهو العالم والإنسان .

[سورة الأنعام (6) : آية 82]

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82)

أتى سبحانه بلفظة« بِظُلْمٍ »نكرة فشق على الصحابة فقالوا : « وأينا لم يلبس إيمانه بظلم » ؟ وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، ما عرفوا مقصود الحق من الآية ، والذي نظروه سائغ في الكلمة غير منكور ، راجع إلى ما تعطيه الألفاظ من القوة في أصل وضعها ، لا ما هو الأمر عليه في نفسه ، لأن الظلم هنا ظلم خاص ، مع كونه نكرة فهو نكرة عند السامع لا عند المتكلم به ، لهذا فسر لهم النبي صلّى الله عليه وسلم فقال لهم : ليس الأمر كما ظننتم وإنما أراد الله بالظلم هنا ما قاله لقمان لابنه وهو يعظه :« يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »ففسر صلّى الله عليه وسلم الظلم في هذه الآية بالشرك خاصة وعلمنا بهذا التفسير أن الله أراد بالإيمان هنا أنه الإيمان بتوحيد الله لأنّ الشرك لا يقابله إلا التوحيد ، فعلم النبي صلّى الله عليه وسلم ما لم تعلمه الصحابة ، ولهذا ترك التأويل من تركه من العلماء ولم يقل به واعتمد على الظاهر وترك ذلك لله .

[سورة الأنعام (6) : آية 83]

وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)

[حجج الرسل عليهم السلام ليست عن نظر فكري]

الحجة هي إذا كان القول يعجز السامع فهو عين الحجة ، وهذا يدل على أن حجج الرسل عليهم السلام ليست عن نظر فكري ، وإنما هي عن تعليم إلهي . فقوله تعالى :« وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ »أي مثل حجتنا التي نصبناها دليلا على توحيدنا ، وهي قوله :« لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا »فقد استدل إبراهيم الخليل عليه السلام في الأفول فأعطاه النظر أن الأفول يناقض حفظ العالم ، فالإله لا يتصف بالأفول ، أو الأفول حادث لطروه

ص 94

على الآفل بعد أن لم يكن آفلا ، والإله لا يكون محلا للحوادث ،
وهذه الأنوار قد قبلت الأفول فليس واحد منها بإله ، فذكر إبراهيم عليه السلام الحق بالعالم دلالة عليه ،
ولم يقل ذلك إشراكا لكن جعل الأنوار الثلاثة حبالة صائد يصيد بها ما شرد من عقول قومه
فقال تعالى :« وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ »عناية منا به« عَلى قَوْمِهِ »

[تحقيق الحجة]
-تحقيق - من القول ما هو حجة وما ليس بحجة ، فهل الحجة على الخصم عين القول خاصة أو ما يدل عليه القول ؟
أو في موطن يكون القول ، وفي موطن يكون ما يدل عليه القول ؟
إذا كان القول يعجز السامع فهو عين الحجة
« نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ »فإن كل ما يجري هو عن وضع إلهي وترتيب عالم حكيم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 84 إلى 88]
وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (86) وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ(88)
اعلم أن الأسباب محال رفعها ، وكيف يرفع العبد ما أثبته اللّه . ليس له ذلك ، ولكن الجهل عمّ الناس فأعماهم وحيرهم وما هداهم ، فقد أثبت اللّه الهداية بالروح
فقال تعالى :(وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا)
وقال فيه :(نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا)

[الأسباب محال رفعها]
وهذا وضع السبب في العالم ، فالوقوف عند الأسباب لا ينافي الاعتماد على اللّه ،
ولهذا جعل سبحانه الأسباب مسببات لأسباب غيرها ، من الأدنى حتى ينته فيها إلى اللّه سبحانه ، فهو السبب الأول لا عن سبب كان به ، فما دام الموجود ناظرا إلى السبب الذي صدر عنه ، كان أعمى

ص 95

عن شهود الله الذي أوجده ، فإذا أراد الله أن يجعله بصيرا ، ترك النظر إلى السبب الذي أوجده الله عنده ، ونظر من الوجه الخاص الذي من ربه إليه في إيجاده ، جعله الله بصيرا.
فالأسباب كلها ظلمات على عيون المسببات ، وفيها هلك من هلك من الناس ، فالعارفون يثبتونها ولا يشهدونها ، ويعطونها حقها ولا يعبدونها ، وما سوى العارفين يعاملونها بالعكس ، يعبدونها ولا يعطونها حقها ، بل يغصبونها فيما تستحقه من العبودية التي هي حقها ، ويشهدونها ولا يثبتونها .

[سورة الأنعام (6) : آية 89]
أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ(89)
فإن الملك أوسع من أن يضيق عن وجود شيء ، كما قال تعالى :(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ).

[سورة الأنعام (6) : آية 90]
أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ(90)
-الوجه الأول - هدى الأنبياء عليهم السلام هو ما كانوا عليه من الأمور المقربة إلى الله ، وفي الدعاء المأثور سؤاله صلّى الله عليه وسلم هدي الأنبياء ، وعيشة السعداء وبالهدى تعطى التوفيق ، وهو الأخذ والمشي بهدي الأنبياء ، وتعطى البيان وهو شرح ما جاء به الحق ، إذ الهدى هديان : هدى تبياني
وهو قوله تعالى :(وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ)
وهذا الهدى قد يعطي السعادة وقد لا يعطيها ، إلا أنه يعطي العلم ،
كقوله تعالى :(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ)؛ وهدى توفيقي وهو هدى الأنبياء عليهم السلام ، وهو الذي يعطي سعادة العباد(وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)
وإذا كان الرسول سيد البشر يقال له [« أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ

ص 96

اقْتَدِهْ »]
:« أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ »فما ظنك بالتابع
- **الوجه الثاني** - لما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم متبعا اسم مفعول لا اسم فاعل لذلك قال له عند ذكر الأنبياء« فَبِهُداهُمُ
اقْتَدِهْ »لا بهم ، وهداهم ليس سوى شرع اللّه ، فكان الشارع لنا اللّه الذي شرع لهم ، فلو أخذ عنهم لكان تابعا« فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ »فيما ذكرناه ، لا في فروع الأحكام ، وإن ظهر في شرعنا من فروع شرع من قبلنا ، فمن حيث هو شرع لنا ، وقد يقع الاتفاق في بعض الأحكام ، كالتوحيد والإيمان بالآخرة وما فيها ، لا ينكر ذلك
- **الوجه الثالث** - اعلم أن كل شرع بعث به نبي من الأنبياء فهو من شرع محمد صلّى اللّه عليه وسلم من اسمه الباطن ، إذ كان نبيا وآدم بين الماء والطين ، فقوله تعالى له :« أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ »وما قال بهم ، إذ كان هداهم هداك الذي سرى إليهم ، فمعناه من حيث العلم إذا اهتديت بهديهم فهو اهتداؤك بهديك ، لأن الأولية لك باطنا ، والآخرية لك ظاهرا ، والأولية لك في الآخرية ظاهرا وباطنا ، وعلمنا من ذلك أن محمدا صلّى اللّه عليه وسلم مساو لجميع من ذكره من الأنبياء ومن لم يذكره ، فإنه لكل نبي هدى كما ذكر)لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً)فهو سبحانه نصب الشرائع ، وأوضح المناهج ، وجمع ذلك كله في محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فمن رآه فقد رأى جميع المقربين ، ومن اهتدى بهديه فقد اهتدى بهدي جميع النبيين . ومن ذلك أن ما قرره النبي صلّى اللّه عليه وسلم لنا مما كان شرعا للأنبياء عليهم السلام فعلمناه على القطع فهو شرع لنا ، ومن هذه الآية علمنا أنه صلّى اللّه عليه وسلم خص بعلم الشرائع كلها ، فأبان اللّه تعالى له عن شرائع المتقدمين ، وأمره أن يهتدي بهداهم ، وخص بشرع لم يكن لغيره .

[سورة الأنعام (6) : آية 91]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)

قالت اليهود : إن اللّه فرغ من الخلق في يوم العروبة ، واستراح يوم السبت واستلقى على ظهره ، ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، وقال : « أنا الملك . » قال اللّه تعالى في مقابلة هذا الكلام وأمثاله :« وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ »وتزعم اليهود أن هذا مما نزل في

ص 97

التوراة ، فلا نصدقهم في ذلك ولا نكذبهم وقال تعالى ذلك في حقهم لكونهم ليسوا مثله ، فما عرفوه ، ومن جهل أمره لا يقدر قدره ، فهم ليسوا له بمثل ولا هو مثل لهم ، فوصفوه بنفوسهم وبما هم عليه ، ولا يتمكن لهم ذلك ، لأنهم يريدون الوصف الثبوتي ولا يكون إلا بالتشبيه ، ومن جعل مثلا لمن لا يقبل المثل فما قدره حق قدره ، أي ما أنزله المنزلة التي يستحقها ، فذمهم بالجهل حيث تعرضوا لما ليس لهم به علم ، فلو قالوا فيه بما أنزله إليهم لم يتعلق بهم ذم من قبل الحق ، لأن الحاكي لا ينسب إليه ما حكاه ، فلا يتعلق به ذم في ذلك ولا مدح ، فعلم الخلق بالله لا يدرك بقياس ، وإنما يدرك بإلقاء السمع لخطاب الحق ، إما بنفسه وإما بلسان المترجم عنه وهو الرسول ، مع الشهود الذي لا يسعه معه غير ما سمعه من الخطاب ،
كما قال :(إِنَّ فِي ذلِكَ)إشارة لما تقدم(لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ)فأحال على النظر الفكري بتقلب الأحوال عليه (أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) وما عدا هذين الصنفين فلا طريق لهم إلى العلم بما يستحقه الحق أن يضاف إليه ، وما يستحقه الخلق أن يضاف إليهم ، وقدر الله لا يقدر مفصلا ، لأن الزيادة من العلم بالله لا تنقطع دنيا ولا آخرة ، فالأمر في ذلك غير متناه« وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ »فيما كيّف به نفسه مما ذكره في كتابه وعلى لسان رسوله من صفاته ، وقدر الأمر موازنته لمقداره ، وهذا لا يعلم من الأمر حتى يكون له ما يعادله في ذاته ، فيكون ذلك المعادل مقدارا له لأنه يزنه ، وقد جعل الله لنفسه قدرا لكنه مجهول عند أصحاب هذا الضمير ، ولا يعرف قدر الحق إلا من عرف الإنسان الكامل الذي خلقه الله على صورته ، وهي الخلافة ، ثم وصف الحق نفسه في الصورة الظاهرة باليدين والرجلين والأعين ، وشبه ذلك مما وردت به الأخبار مما يقتضيه الدليل العقلي من تنزيه حكم الظاهر من ذلك في المحدثات عن جناب الله ، فحق قدره إضافة ما أضافه إلى نفسه مما ينكر الدليل إضافته إليه تعالى ، إذ لو انفرد دون الشرع لم يضف شيئا من ذلك إليه ، فمن أضاف مثل هذا إليه ، عقلا فذلك هو الذي ما قدر الله حق قدره ، وما قال أخطأ المضيف ، ومن أضافه شرعا وشهودا ، وكان على بينة من ربه ، فذلك الذي قدر الله حق قدره . فالإنسان الكامل الذي هو الخليفة قدر الحق ظاهرا وباطنا ، صورة ومنزلة ومعنى لأنه على صورة الحق ، والعالم قدر الحق وجودا ، وأما في الثبوت فهو أظهر لحكم الأزل الذي هو للممكنات في ثبوتها لأن الإمكان للممكن نعت ذاتي نفسي ، وما ظفر بالأمر

ص 98

على ما هو عليه إلا من جمع بين التشبيه والتنزيه ، فقال بالتنزيه من وجه عقلا وشرعا ، وقال بالتشبيه من وجه شرعا لا عقلا ، والشهود يقضي بما جاءت به الرسل إلى أممها في الله ، وأما في سياق الآية فقوله تعالى »: وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ «

[حكمة : قدرك عند الله موازن لقدره عندك]

مع إقرارهم أن التوراة نزلت على موسى عليه السلام من عند الله ، فكذبوا على الله ، فاسودت وجوههم أي ذواتهم ، فلا نور لهم يكشفون به الأشياء ، بل هم عمي لا يبصرون ، لذلك قال تعالى :« قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً ، وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ ، قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ »ما أمرنا الله إلا أن نقول « الله » ثم أمرنا أن نتركهم في خوضهم يلعبون ، فإنه لما جهل قدره ، عصي نهيه وأمره - حكمة - كل من أنزلته منزلته فقد قدرته حق قدره ، وما بعد ذلك مرمى لرام ، وقدرك عند الله موازن لقدره عندك ، وأنت أعرف بنفسك مع ربك .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 92 إلى 93]

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (92) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً »

[من الافتراء على الله أن ينسب الإنسان ما سنّه إلى الله تعالى 99]

بالكذب على الله ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم :

[من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار] ويدخل في هذه الآية من يجري إلى الافتراء على الله ، وينسب الذي سنّه إلى الله تعالى ، ويتأول أنه لا فاعل إلا الله ، وأنه تعالى المنطق عباده ، فإذا كان مع الناس يريهم أن ما سنه ولو كان حسنا أن ذلك جاءه من عند الله ،

ص 99

كما يجيء لأولياء الله ، فإذا أخطر له الملك هذه الآية يقول : ما أنا مخاطب بها ، وإنما خوطب بها أهل الدعوى الذين ينسبون الفعل إلى أنفسهم ،

فإنه قال : افترى ، فنسب الافتراء إلى هذا القائل ، وأنا أقول إن الأفعال كلها لله تعالى لا إليّ ، فهو الذي قال على لساني ،

ثم إنه قال :« أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ »فأضاف القول إليه ، وكذلك قوله : « إلي » ومن أنا حتى أقول إليّ ، إذ الله هو المتكلم وهو السميع ،

ثم قال :« سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ »وما أقول أنا ذلك ، بل الإنزال كله من الله ، فإذا تفقه في نفسه في هذا كله افترى على الله كذبا ، وزيّن له سوء عمله فرآه حسنا .

[سورة الأنعام (6) : آية 94]

وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ(94)

" لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ "بالرفع يعني الوصل فالبين في اللسان من الأضداد .

[سورة الأنعام (6) : آية 95]

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95)

« إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى »بما يظهر منهما ، فيعلم من ذلك اختزان البذرة والنواة والحبة ما يظهر منها إذا بذرت في الأرض ،

وكيف تدل على خروج العالم من الغيب إلى الشهادة ، لأن البذرة لا تعطي ما اختزن الحق فيها إلا بعد دفنها في الأرض ، فتنفلق عما اختزنته من ساق وأوراق وبذور أمثالها ، من النواة نوى ، ومن الحبة حبوب ، ومن البذرة بذور ، فتظهر عينها في كثير مما خرج عنها .

فتعلم من هذا ما الحبة التي خرج منها العالم ! ففلق الحب عن أمثاله ، فلم يظهر سوى أشكاله.

ص 100

[سورة الأنعام (6) : آية 96]

فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)

« فالِقُ الْإِصْباحِ »إن كان الحق فما فلقه إلا بشمسه ، وإن كان الشمس فالحق على عزته في قدسه ، ومن قدسه أن يكون فالقا ، كما كان لأرضه وسماواته فاتقا ، فانفلاق الصباح من فالق الإصباح في الليل ، ليكون لليل على النور ولادة ، فتقع المناسبة بين نور الصباح وبين روح الإنسان ، فلذلك يأنس به ويستفيد منه« ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »فيجري حكم الله في الخلق بما قدره العزيز العليم .

[سورة الأنعام (6) : آية 97]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97)

-من باب الإشارة لا التفسير - لما كان القرب إلى الله بالسلوك والسفر إليه ، لذلك كان من صفته النور لنهتدي به في الطريق ،

فقال تعالى :« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ »

[إشارة : وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها]

وهو السلوك الظاهر بالأعمال البدنية« وَالْبَحْرِ »وهو السلوك الباطن المعنوي بالأعمال النفسية ، والشرع هو النور الذي يهتدى به في ظلمات بر الأسباب وبحرها ، فمن عمل كذا فجزاؤه كذا .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 98 إلى 99]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98)وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(99)

ص 101

أعطى الرزاق النبات رزقه المعين وهو ما به غذاؤه وحياته ، فأعطاه الماء له ولكل حي في العالم ، وجعله رزقا له ، ثم جعل النبات رزقا لغيره من الحيوان ، فهو والحيوان رزق ومرزوق ، فالكل رزق ومرزوق .

[سورة الأنعام (6 : (الآيات 100 إلى 101]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)

الابتداع إظهار أمر على غير مثال ، هذا أصله ، ولهذا قال الحق تعالى عن نفسه« بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »أي موجدها على غير مثال سبق ، فالأول في كل صورة مبدع والثاني ليس بمبدع ، فإنه على مثاله ، ولكنه مخلوق ، فهو بالخلق الأول بديع ، وبالخلق الثاني المماثل للخلق الأول خالق .

[سورة الأنعام (6) : آية 102]

ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)

[توحيد الرب بالاسم الخالق ، وهو توحيد الهوية]

هذا توحيد الرب بالاسم الخالق ، وهو توحيد الهوية ، وهذا توحيد الوجود لا توحيد التقدير ، فإنه أمر بالعبادة ، ولا يأمر بالعبادة إلا من هو موصوف بالوجود ، وجعل الوجود للرب ، فجعل ذلك الاسم بين الله وبين التهليل ، وجعله مضافا إلينا إضافة خاصة إلى الرب ، فهي إضافة خصوص ، لنوحده في سيادته ومجده في وجوب وجوده ، فلا يقبل العدم كما يقبله الممكن ، فإنه الثابت وجوده لنفسه ، ويوحد أيضا في ملكه بإقرارنا بالرق له ، ولنوحده توحيد المنعم لما أنعم به علينا ، من تغذيته إيانا في ظلم الأرحام وفي الحياة الدنيا ، ونوحده أيضا فيما أوجده من المصالح التي بها قوامنا ، من إقامة النواميس ووضع الموازين ومبايعة الأئمة القائمين بالدين ، وهذه الفصول كلها أعطاها الاسم الرب ، فوحدناه ونفينا ربوبية من سواه ، قال يوسف عليه السلام لصاحبي السجن : (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد

ص 102

القهار) وفي توحيد الربوبية هنا عمّ إضافة جميعنا إليه ، فقال »: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ »كل موجود سوى الله تعالى مركّب ، وهو الموجب لاستصحاب الافتقار له ، فإنه وصف ذاتي ، والذي نسمعه من البسائط إنما هي أمور معقولة لا وجود لها في أعيانها ، وقال تعالى :« خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ »لنعلم أن الوجود مقسم بين عابد ومعبود ، فالعابد كل ما سوى الله تعالى ، وهو العالم المعبر عنه والمسمى عبدا ، والمعبود هو المسمى الله ، فكل ما سوى الله عبد لله ، ما خلق ويخلق .

[سورة الأنعام (6) : آية 103]

لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)

[« لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ »]« لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ »الضمير يعود على الوجه ، ووجه الشيء ذاته وحقيقته ،

التي قال فيها الحق : [لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره] ، ولكن البصر يدركه من حيث التجلي الصوري في الأسماء من قوله تعالى :(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ)

وقوله صلّى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : [ترون ربكم]« لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ »لأنه نور ، والنور لا يدرك إلا بالنور ، فلا يدرك النور إلا به« وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ »لأنه نور« وَهُوَ اللَّطِيفُ »لأنه يلطف ويخفى في عين ظهوره فلا يعرف ولا يشهد كما يعرف نفسه ، ويشهدها ،« الْخَبِيرُ »علم ذوق ،« لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ »يعني في الدنيا مع ثبوت الرؤيا في الآخرة ،« لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ »ولم يخص دارا من دار ، بل أرسلها آية مطلقة ، ومسئلة معينة ، فلا يدركه سواه ، قيل للنبي صلّى الله عليه وسلم : أرأيت ربك ؟

فقال : نور أنّى أراه ، فلا يزال حجاب العزة مسدلا ، لا يرفع أبدا ، جلّ أن تحكم عليه الأبصار عند مشاهدتها إياه ، لأنها في الحيرة والعجز ، فرؤيتها لا رؤيتها ، كما قال الصديق : العجز عن درك الإدراك إدراك .

والمعنى الآخر أنه ما رآه مني إلا هويته ، فإنه صلّى الله عليه وسلم يقول : واجعلني نورا ، وظلمتي لا تدركه .

« لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ »فإن البصر جاء ليدرك به لا أنه يدرك ، ولذا جاء في قوله« لا تُدْرِكُهُ »بضمير الغائب ، والغيب غير مدرك بالبصر والشهود ، وهو الباطن تعالى ، فإنه لو أدرك لم يكن غيبا ولا بطن ، ولكن« يُدْرِكُ الْأَبْصارَ »فإنه لا يلزم الغيبة من الطرفين ، ما يلزم من هو غائب عنك أن تكون غائبا عنه ، قد يكون ذلك وقد لا يكون ، وأنت ظاهر ولا بد ،« لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ »فكثّر وجمع ، فإنها أبصار الكون ، والحقيقة المنفية في هذه
ص 103

الآية أن الأبصار هنا معان يدرك بها المبصرات ، ما هي تدرك المبصرات ، ولم يقل : لا يدركه البصر ، فإنه إذا كان عين الحق عين بصرك ، فيصح أن يقال مثل هذا يدركه البصر ، فينسب الإدراك إليه مع صحة كونه بصرا للعبد ، »لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ »على وجهين :

الوجه الواحد ، أنه نفى أن تدركه الأبصار على طريق التنبيه على الحقائق ، وإنما يدركه المبصرون بالأبصار لا الأبصار .

- **الوجه الثاني** - لا تدركه الأبصار المقيدة بالجارحة ، فإذا لم تتقيد أدركته ، كأن يكون الحق بصره ، »لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ »يعني في كل عين من أعين الوجوه للقرب المفرط ، فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد ، ومن أعين القلوب فإن القلوب ما ترى إلا بالبصر ، وأعين الوجوه لا ترى إلا بالبصر ، فالبصر حيث كان ، به يقع الاشتراك ، فيسمى البصر في العقل عين البصيرة ، ويسمى في الظاهر بصر العين ، والعين في الظاهر محل للبصر ، والبصيرة في الباطن محل للعين الذي هو بصر في عين الوجه ، فاختلف الاسم عليه وما اختلف هو في نفسه ، فكما لا تدركه العيون بأبصارها ، كذلك لا تدركه البصائر بأعينها ،

فإن الحق تعالى احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار ، لذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [إن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم]

فكما لا تدركه الأبصار لا تدركه البصائر وهي العقول ، لا تدركه بأفكارها ، فتعجز عن الوصول إلى مطلوبها والظفر به ، مع أنه سبحانه لم ينف عن إدراكه قوة من القوى التي خلقها إلا البصر ، فمنع ذلك شرعا ،

وما قال : لا يدركه السمع ولا العقل ولا غيرهما من القوى الموصوف بها الإنسان ، كما لم يقل أيضا : إن غير البصر يدركه ، بل ترك الأمر مبهما ، فمن زعم أنه يدركه عقلا ولا يدركه بصرا ، فمتلاعب لا علم له بالعقل ولا بالبصر ، ولا بالحقائق على ما هي عليه في أنفسها ، كالمعتزلي فإن هذه رتبته ، فللأبصار إدراك وللبصائر إدراك ، وكلاهما محدث ، فإن صح أن يدرك بالعقل وهو محدث ، صح أو جاز أن يدرك بالبصر ، لأنه لا فضل لمحدث على محدث في الحدوث ، وإن اختلفت الاستعدادات فجائز على كل قابل للاستعدادات أن يقبل استعداد الذي قيل فيه : إنه أدرك الحق بنظره الفكري ، فإما أن ينفوا ذلك جملة واحدة ، وإما أن يجوزه جملة واحدة ، وإما أن يقفوا في الحكم فلا يحكمون فيه بإحالة ولا جواز ، حتى يأتيهم تعريف الحق نصا لا يشكون فيه ، أو يشهدونه في نفوسهم ،

قال عزّ وجل لموسى عليه السلام : (لن تراني)

104

وكل مرئي لا يرى الرائي - إذا رآه - منه إلا قدر منزلته ورتبته فما رآه ، وما رأى إلا نفسه ، ولولا ذلك ما تفاضلت الرؤية في الرائين ، إذ لو كان هو المرئي ما اختلفوا ، لكن لما كان هو مجلى رؤيتهم أنفسهم ، لذلك وصفوه بأن يتجلى ، وأنه يرى ، ولكن شغل الرائي برؤية نفسه في مجلى الحق حجبه عن رؤية الحق ، فإن الله لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، قال صلّى الله عليه وسلم في حديث الدجال ودعواه أنه إله : إن أحدنا لا يرى ربه حتى يموت ، لأن الغطاء لا ينكشف عن البصر إلا بالموت ، والبصر من العبد هوية الحق ، فعينك غطاء على بصر الحق ، فبصر الحق أدرك الحق ورآه لا أنت ، فإن الله لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، ففي مدلول هذه الآية أنه يدرك تعالى نفسه بنفسه ، لأنه إذا كان بهويته بصر العبد ، ولا يقع الإدراك البصري إلا بالبصر ، وهو عين البصر المضاف إلى العبد ، وقال : إنه يدرك الأبصار ، وهو عين الأبصار ، فقد أدرك نفسه ،
لذلك قال :« وَهُوَ اللَّطِيفُ »ولا ألطف من هوية تكون عين بصر العبد ، وبصر العبد لا يدرك الله ، وليس في القوة أن يفصل بين البصرين ،« اللَّطِيفُ »من حيث أنه لا تدركه الأبصار ، و »اللَّطِيفُ »المعنى من حيث أنه يدرك الأبصار ، أي دركه للأبصار دركه لنفسه ، وهذا غاية اللطف والرقة ، فما لطفه ولا أخفاه إلا شدة ظهوره ، فإنه البصر لكل عين تبصر ، فمن نظر بعين الإيمان رأى قوة نفوذه في الكثيف ، حتى سرى إلى اللطيف « الخبير » فيحصل له المعرفة بالأمر على ما هو عليه « ، »اللطيف » إذ كانت اللطافة مما ينبو الحس عن إدراكها ، فتعقل ولا تشهد ، فتسمى في وصفه الذي تنزه أن يدرك فيه باللطيف ، أي تلطف عن إدراك المحدثات ، ومع هذا فإنه يعلم ويعقل أن ثمّ أمرا يستند إليه ، فأتى بالاسم »الْخَبِيرُ »على وزن فعيل ، وفعيل يرد بمعنى المفعول ، كقتيل بمعنى مقتول ، وجريح بمعنى مجروح ، وهو المراد هنا والأوجه ، وقد يرد بمعنى الفاعل كعليم بمعنى عالم ، وقد يكون أيضا هو المراد هنا ، ولكنه يبعد ، فإن دلالة مساق الآية لا تعطي ذلك ، فإن مساقها في إدراك الأبصار لا إدراك البصائر فإن الله قد ندبنا إلى التوصل بالعلم به فقال : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) ولا يعلم حتى ينظر في الأدلة ، فيؤدينا النظر فيها إلى العلم به على قدر ما تعطينا القوة في ذلك ، فلهذا رجحنا خبير هنا بمعنى المفعول ، أي أن الله يعلم ويعقل ، ولا تدركه الأبصار . ومن وجه آخر« الْخَبِيرُ »يشير إلى علم ذلك ذوقا ، فهو العليم خبرة أنه بصر العبد في بصر العبد ، وكذا

ص 105

هو الأمر في نفسه ، وإن كان حيا ، فقد استوى الميت والحي في كون الحق تعالى بصرهما ، وما عندهما شيء ، فإن اللّه لا يحلّ في شيء ولا يحل فيه شيء ، إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ،
ويشير إلى هذه الآية قوله صلّى اللّه عليه وسلم في الإحسان : [فإن لم تكن تراه فإنه يراك]
فيتجلى اللّه تعالى للعارفين على قلوبهم ، وهو المرئي في الدنيا بالقلوب والأبصار ، ومع أنه سبحانه منبئ عن عجز العباد عن درك كنهه ، فقال :« لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »لطيف بعباده بتجليه لهم على قدر طاقتهم ، خبير بضعفهم عن حمل تجليه الأقدس على ما تعطيه الألوهة ، إذ لا طاقة للمحدث على حمل جمال القديم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 104 إلى 106]
قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104)وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)
[التوحيد الإيماني]
هذا خطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم خص به باعتباره الداعي ، لمجيئه بالتوحيد الإيماني لا التوحيد العقلي ، وهو توحيد الأنبياء والرسل ، لأنها ما وحدت عن نظر ، وإنما وحدت عن ضرورة علم وجدته في نفسها لم تقدر على دفعه ، فترك المشركين وآلهتهم وانفرد بغار حراء يتحنث فيه من غير معلم إلا ما يجده في نفسه حتى فجأه الحق ،
وهو قوله :« اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ »أي أنه لا يقبل الشريك« وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ »فأعرض عنهم حتى يستحكم الإيمان ، وأقمه بنفس الرحمن فأجعل له أنصارا ، وآمرك بقتال المشركين لا الإعراض عنهم ، وهذا هو التوحيد الثامن في القرآن ، وهو من توحيد الاسم الرب ،
وقد عمم بإضافة جميعنا إليه في التوحيد السابع فقال : (ذلكم اللّه ربكم لا إله إلا هو) وهنا خصص به الداعي ، وهو توحيد الاتباع ، وهو من توحيد الهوية ، فهو توحيد تقليد في علم ،
لأنه نصب الأسباب وأزال عنها حكم الأرباب لما قالوا : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى)
فأمر صلّى اللّه عليه وسلم أن يعرض عن الشرك لا عن السبب ، فإنه قال في مصالح الدنيا:

ص 106

(ولكم في القصاص حياة) فعلل ولام العلة في القرآن كثير ، فكأنه توحيد في مجلس محاكمة ، فيدخل فيه توحيد القسط لإقامة الوزن في الحكم بين الخصماء ، بيّن ذلك قوله :« وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ »وخص به الداعي لمجيئه بالتوحيد الإيماني .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 107 إلى 112]

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107) وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (108) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (109) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)

وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ(112)

"وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ »
الشيطان الحسي على قسمين : **إنسي وجني** ،
وشياطين الإنس لهم سلطان على ظاهر الإنسان وباطنه ،
وشياطين الجن هم نواب شياطين الإنس في بواطن الناس ،
وشياطين الجن هم الذين يدخلون الآراء على شياطين الإنس ويدبرون دولتهم ،
فيفصّلون لهم ما يظهرون فيها من الأحكام ،
ولذلك قال تعالى :(مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)« يُوحى

ص 107

بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً »
هو قدحهم في أهل الإيمان من حيث إيمانهم ، وتزيين ما هم عليه من الباطل ، ومداخل الشيطان إلى نفوس العالم كثيرة ، وهو يستدرج كل طائفة من حيث ما هو الغالب عليها ،
فإنه عالم بمواقع المكر والاستدراج ، وقد أعطاك الله في العامة ميزان الشريعة ، وميّز لك بين فرائضه ومندوباته ومباحه ومحظوره ومكروهه ، ونص على ذلك في كتابه وعلى لسان رسوله ، فإذا خطر لك خاطر من محظور أو مكروه فتعلم أنه من الشيطان بلا شك ،
فوحي الشيطان هو ما يزينه من الأعمال وإن كان لها وجه إلى الحق ، فالمعدن خبيث ، يروى أن إبليس جاء إلى عيسى عليه السلام فقال له : قل لا إله إلا الله ، فهذه كلمة حق من معدن خبيث ، فقال له عيسى عليه السلام : يا ملعون أقولها لا لقولك وأمرك .« وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ »اعلم أن المهانة حقيقة العالم التي هو عليها ، لأنه بالذات ممكن فقير ، فهو ممنوع من نيل جميع أغراضه وإرادته منعا ذاتيا ، ولا يحجبنك وقوع بعض مراداته ، ونيل بعض أغراضه ، عما قلناه في حقه ، فإن ذلك ما وقع له إلا بإرادة الحق لا بإرادته ، فذلك المراد وإرادة العبد معا إنما هما واقعان بإرادة الحق ، فهو ممتنع بالذات أن يكون شيء في الوجود موجودا عن إرادة العبد ، ولو كان لإرادة العبد نفوذ في أمر خاص لعم نفوذها في كل شيء ، لو كان ذلك المراد وقع لعين إرادة الممكن ، فتعين أن ذلك الواقع وقع بإرادة الله عزّ وجل ، فالعالم ممنوع لذاته كما هو ممكن مهان لذاته ، وإنما كان مهانا لذاته لأن العبودية له ذاتية ، وهي الذلة ، وكل ذليل مهان ، وكل مهان محتقر ، وكل محتقر مغلوب« فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ »فجعلهم أهل افتراء على الله .

[سورة الأنعام (6) : آية 113]
وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113)
فالسامع إذا كان سريع الانفعال لما يسمع فيجب عليه عقلا أن لا يصغي لقائل شر .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 114 إلى 117]
أَ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(117)

ص 108

[تعريف العلم]
فإن العلم إنما يتعلق بالمعلوم على ما هو المعلوم عليه ، لذلك كانت وظيفة الرسل والورثة من العلماء إنما هي التبليغ بالبيان والإفصاح لا غير ذلك.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 118 إلى 119]
فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَما لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ(119)

[تغير الأحوال يغير الأحكام]
اعلم أن تغير الأحوال يغير الأحكام ، فالشخص الواحد الذي لم يكن حاله الاضطرار ، أكل الميتة عليه حرام ، فإذا اضطر ذلك الشخص عينه فأكل الميتة له حلال ، فاختلف الحكم لاختلاف الحال ، والعين واحدة .
ومن هذه الآية علمنا أن الحكم بالمنع وغيره مبناه على حال المكلّف ، فإن المنع في حق من منع منه لا في عين الممنوع ، فإن ذلك الممنوع بعينه قد أبيح لغيره ، لكون ذلك الغير على صفة ليست فيمن منع منه ، أباحته تلك الصفة بإباحة الشارع ، فلهذا قلنا : لا في عين الممنوع ، فإنه ما حرم شيء لعينه جملة واحدة ، وفي مواضع على اسم الممنوع ، فإن تغير الاسم لتغير قام بالمحرم تغير الحكم على المكلف في تناوله ، إما بجهة الإباحة أو الوجوب ، وكذلك إن تغير حال المكلف الذي خوطب بالمنع من ذلك الشيء واجتنابه لأجل تلك الحال ، فإنه يرتفع عنه هذا الحكم ولا بد ، وإن كان الأمر على هذا الحد ، فما ثمّ عين محرمة لعينها ، وعلق الذم بفعل المكلف لا بالعين التي حجر عليه تناولها ،
فقال: " وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ »فإن المضطر لا تحجير عليه ،
وقوله :« إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ »هو الرزق الذي به بقاء الحياة ، وما به حياتك لا يصح فيه تحجير.

109

[سورة الأنعام (6) : الآيات 120 إلى 121]
وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121)
المجادل الذي هو ولي الشيطان يظن أن ذلك من نفسه ومن نظره وعلمه ، وهو من وحي الشيطان إليه
[- إشارة - أهل السماع والوجد بالأشعار التي أهلت لغير اللّه ، هم أبعد الخلق عن الحق]
-إشارة - أهل السماع والوجد بالأشعار التي أهلت لغير اللّه ، هم أبعد الخلق عن الحق ، فإنهم أكلوا مما لم يذكر اسم اللّه عليه ، ولما كان الوجد يستدعي التنزل جاء في الآية« وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ »في مقابلة الوحي الحق فتفطن ، فلا ينبغي أن ينشد في حق اللّه شعرا قصد به قائله في أول وضعه غير اللّه ، نسيبا كان أو مديحا ، فإنه بمنزلة من يتوضأ بالنجاسة قربة إلى اللّه ، فإن القول في المحدث حدث بلا شك ، وقد نبه اللّه في كتابه على هذه المنزلة بقوله :(وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ)
وقوله »: وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ »وقال :(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)والشعر في غير اللّه مما أهل لغير اللّه به ، فإن للنية أثرا في الأشياء ،
واللّه يقول :(وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)والإخلاص النية ، وهذا الشاعر ما نوى في شعره إلا التغزل في محبوبه ، والمديح فيمن ليس له بأهل لما شهد به فيه ، وكل ما كان قربة إلى اللّه شرعا فهو مما ذكر اسم اللّه عليه وأهل به للّه ، وإن كان بلفظ التغزل وذكر الأماكن والبساتين والجوار ، وكان القصد بهذا كله ما يناسبها من الاعتبار في المعارف الإلهية والعلوم الربانية فلا بأس ، وإن أنكر ذلك المنكر فإن لنا أصلا نرجع إليه فيه ، وهو أن اللّه تعالى يتجلى يوم القيامة لعباده في صورة ينكر فيها ، حتى يتعوذ منها ، فيقولون : نعوذ باللّه منك لست بربنا ،
وهو يقول : أنا ربكم وهو هو تعالى .

[سورة الأنعام (6) : آية 122]
أَ وَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ(122)
110

هذا ضرب مثل في الكفر والإيمان ، والعلم والجهل ، فالجهل موت والعلم حياة لذلك قال تعالى :« أَ وَمَنْ كانَ مَيْتاً »أراد بالموت الجهل »فَأَحْيَيْناهُ »بالعلم وهي الحياة العلمية التي تحيى بها القلوب فحياة العلم يقابلها موت الجهل ، وبالنور يقع حصوله كما بالظلمة يكون الجهل »كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ »وهي الضلال« لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها »أي لا يهتدي أبدا .

واعلم أن الموت عبارة عن مفارقة الروح الجسد الذي كانت به حياته الحسية ، وهو طارئ عليها بعد ما كانا موصوفين بالاجتماع الذي هو علة الحياة ، فكذلك موت النفس بعدم العلم ، فان قلت إن العلم بالله طارئ الذي هو حياة النفوس ، والجهل ثابت لها قبل وجود العلم ، فكيف يوصف الجاهل بالموت وما تقدمه علم ؟

قلنا إن العلم بالله سبق إلى نفس كل إنسان في الأخذ الميثاقي حين أشهدهم على أنفسهم ، فلما عمرت الأنفس الأجسام الطبيعية في الدنيا فارقها العلم بتوحيد الله ، فبقيت النفوس ميتة بالجهل بتوحيد الله ، ثم بعد ذلك أحيا الله بعض النفوس بالعلم بتوحيد الله ، وأحياها كلها ، بالعلم بوجود الله ، إذ كان من ضرورة العقل العلم بوجود الله ، فلهذا سميناه ميتا ،

فقال تعالى :« أَ وَمَنْ كانَ مَيْتاً »يعني بما كان الله قد قبض منه روح العلم بالله ، فقال تعالى في معرض الامتنان »: فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ »فرد إليه علمه فحيي به ، كما ترد الأرواح إلى أجسامها في الدار الآخرة يوم البعث« كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها »يريد مقابلة النور الذي يمشي به في الناس ، وما هو عين الحياة ، فالحياة الإقرار بالوجود ، أي بوجود الله لا بتوحيده ، ما تعرض للتوحيد في الإشهاد ،

ولهذا أردف الله في الآية حين قال :« فَأَحْيَيْناهُ »فلم يكتف حتى قال »: وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ »يريد العلم بتوحيد الله لا غيره ، فإنه العلم الذي يقع به الشرف له والسعادة ، وما عدا هذا لا يقوم مقامه في هذه المنزلة ، ونور العلم ينفر ظلمة الجهل .

وقد يكون قوله تعالى :« وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً »به يشهد ، وهو نور الإيمان ، والكشف الذي أوحى الله به إليه ، أو امتن به عليه ، فليس مثله« كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ »وإن كان حيا - وجه آخر -« وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ »هو قوله تعالى :(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ)ويعني بالنور المجعول هنا الشرع الموحى به (وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا)ولا حكم إلا للنور المجعول وهو الظاهر ، وهذا حكم نور الشرع على نور العقل من قوله تعالى :(نُورٌ عَلى نُورٍ)شعر:

ص 111

فليس له سوى التسليم فيه *** وليس له سوى ما يصطفيه
فإن أوّلته لم تحظ منه *** بعلم في القيامة ترتضيه
فتحشر في ظلمة جهلك ، ما لك نور تمشي به ، ولا يسعى بين يديك . فترى أين تضع قدمك ، وإذا بلغ العبد مقام المحبة الإلهية كما قال : إذا أحب عبدا كان سمعه الذي يسمع به ، إلى أن قال ورجله التي يسعى بها ، فهو يمشي بهذا النور في الناس من حيث كون الله تسمى بالاسم النور(اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ)
فهو نور ذاتي من قوله صلّى الله عليه وسلم : [واجعلني كلي نورا] فهو يمشي في الناس بربه وهم لا يشعرون ، ثم لنعلم أن الأنوار وإن اجتمعت في الإضاءة والتنفير ، فإن لها درجات في الفضيلة ، كما أن لها أعيانا محسوسة ، كنور الشمس والقمر والنجوم والسراج والنار والبرق ، وكل نور محسوس أو منور ، وأعيانا معقولة ، كنور العلم ونور الكشف ، وهذه أنوار البصائر والأبصار ، وهذه الأنوار المحسوسة والمعقولة ، على طبقات يفضل بعضها بعضا ، فنقول عالم وأعلم ، ومدرك وأدرك ، كما تقول في المحسوس نير وأنور ، أين نور الشمس من نور السراج ؟ .

[سورة الأنعام (6) : آية 123]
وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ(123)
» وَما ذيَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ »أي عين ما اعتقدوه أنه مكرهم هو مكري بهم« وَما يَشْعُرُونَ »فكان مكر الله بهؤلاء هو عين مكرهم الذي اتصفوا به وهم لا يشعرون .

[سورة الأنعام (6) : آية 124]
وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (124)
[قراءة : رسل الله الله - الوقف على الجلالة الثانية]
-قراءة - إذا قرأت رسل الله الله ، فإن انقطع نفسك على الجلالة الثانية كان ، وإلا

ص 112

فاقصد ذلك ، ثم ابتدئ« اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ »قال تعالى في الذين يبايعون الرسول إنما يبايعون الله ، فأنزله منزلته ، ف« اللَّهُ أَعْلَمُ »
موجه ، له وجه بالخبرية إلى« رُسُلُ اللَّهِ »، وله وجه بالابتداء إلى« أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ »، وكلا الوجهين حقيقة فيه .

[سورة الأنعام (6) : آية 125]
فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (125)
« وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ »كأنما يخرج عن طبعه ، والشيء لا يخرج عن حقيقته .

[سورة الأنعام (6) : آية 126]
وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126)
« وَهذا »إشارة إلى ما تقدم ذكره« صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً »وما ذكر إلا إرادته للشرح والضيق ، فلا بد منهما في العالم ، لأنه ما يكون إلا ما يريد ، وأضاف الصراط إلى الاسم الرب لاستدعائه المربوب ، وجعله مستقيما ، فمن خرج عنه فقد انحرف وخرج عن الاستقامة ، وصراط الرب لا يكون إلا مع التكليف ، فإذا ارتفع التكليف لم يبق لهذا الصراط عين وجودية .

[سورة الأنعام (6) : آية 127]
لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (127)
« لَهُمْ دارُ السَّلامِ »هي دار لا يمسهم فيها نصب ، فهم فيها سالمون .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 128 إلى 130]
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ

ص 113

مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (129) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (130)

خلق الله الجان شقيا وسعيدا ، وكذلك الإنس ، وخلق الله الملك سعيدا ، لاحظ له في الشقاء ، فسمي شقي الإنس والجان كافرا ، وسمي السعيد من الجن والإنس مؤمنا ، وأخسر الأخسرين شاهد يشهد على نفسه ، فهم الذين أشقوا أنفسهم بشهادتهم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 131 إلى 133]

ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ (131) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133)

- **رقيقة -** قال تعالى :« إِنْ يَشَأْ »فهل يشاء أم لا ؟ هذا لا يكون ، فمشيئة الحق أحدية التعلق ، وهي نسبة تابعة للعلم ، والعلم نسبة تابعة للمعلوم ، والمعلوم أنت وأحوالك ، فليس للعلم أثر في المعلوم ، بل للمعلوم أثر في العلم ، فيعطيه ما هو عليه في عينه ، وإنما ورد الخطاب الإلهي بحسب ما تواطأ عليه المخاطبون ، وما أعطاه النظر العقلي ، ما ورد الخطاب على ما يعطيه الكشف ، ولذلك كثر المؤمنون ، وقل العارفون أصحاب الكشف .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 134 إلى 145]

إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ

ص 114

الظَّالِمُونَ (135) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (136)
وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (137)
وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (138)
وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139)
قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (140) و
هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141)
وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142)
ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ

ص 115

[كل محرم نجس]
الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (143)
وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(144)
قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145).

اتفق العلماء على تحريم الدم المسفوح من الحيوان المذكى ، واختلفوا في غير المسفوح منه ، والسفح الذي يشترط إنما هو الدم السائل من التزكية في الحيوان الحلال الأكل ، إذ الدم السائل من الحي فهو حرام بلا خلاف ، قليله وكثيره ، وكذلك ما سال من دم الحيوان المحرم الأكل وإن ذكي فقليله وكثيره حرام بغير خلاف ، وأما اختلافهم في دم الحوت فمن حرمه فبعموم اللفظ ، ومن أحله فليس له دليل ، إلا أنه رأى أن الدم تابع في الحرمة والحل لميتة الحيوان ، فمن كان ميتته حرام قدمه حرام ، ومن كان ميتته حلالا فدمه حلال فالتحريم ينسحب على كل دم مسفوح من أي حيوان كان ، ويحرم أكله ، وأما كونه نجاسة ،
فلا أحكم بنجاسة المحرمات إلا أن ينص الشارع على نجاستها على الإطلاق ، أو يقف على القدر الذي نص على نجاسته ،
وليس النصّ بالاجتناب نصا في كل حال ، فيفتقر إلى قرينة ولا بد ، فما كل محرم نجس ، وإن اجتنبناه فما اجتنبناه لنجاسته ، فإن كونه نجس حكم شرعي ، وقد يكون غير مستقذر عقلا ولا مستخبث .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 146 إلى 149]
وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا

ص 116

لَصادِقُونَ (146) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (149) .

[العلم تابع للمعلوم في الحادث والقديم]
اعلم أن لله الحجة البالغة ، لأنه لا يجري عليك من الأقدار إلا ما كنت عليه ، فإنه يقول كذا علمتك ، وما علمتك إلا منك ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فإن العلم تابع للمعلوم ، فإن قال المعلوم شيئا كان لله الحجة البالغة عليه بأن يقول : ما علمت هذا منك إلا بكونك عليه - في حال عدمه - وما أبرزتك في الوجود إلا على قدر ما أعطيتني من ذاتك بقبولك ، فيعرف العبد أنه الحق فتندحض حجة الخلق ، فيأخذ الناس ذلك إيمانا ، وأما أرباب الشهود فيأخذونه عيانا ، فيعلمون موقعها ومن أين جاء بها الحق ، فإن من المحال أن يتعلق العلم إلا بما هو المعلوم عليه في نفسه ، ولذلك وصف الحق نفسه بأن له الحجة البالغة لو نوزع ، فلو احتج أحد على الله بأن يقول له : علمك سبق فيّ بأن أكون على كذا ، فلم تؤاخذني ؟
يقول له الحق : هل علمتك إلا بما أنت عليه ؟
فلو كنت غير ذلك لعلمتك على ما تكون عليه ، فارجع إلى نفسك وأنصف في كلامك ، فإذا رجع العبد على نفسه ونظر في الأمر كما ذكرنا علم أنه محجوج وأن الحجة لله تعالى عليه ،
أما سمعته تعالى يقول : (وما ظلمهم الله)) وما ظلمناهم) وقال :(وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) *
كما قال :(وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ)يعني أنفسهم ، فإنهم ما ظهروا لنا حتى علمناهم وهم معدومون إلا بما ظهروا به في الوجود من الأحوال ، فالعلم تابع للمعلوم ، ما هو المعلوم تابع للعلم فافهمه . ومن وجه آخر : ما حكم الله في العباد إلا بهم ، وهو قوله :(جَزاءً وِفاقاً)(وجزاء بما كنتم تعملون) (وجزاء بما كنتم تكسبون) فأعمالهم عذبتهم وأعمالهم نعمتهم فما حكم فيهم غيرهم ، فللّه الحجة البالغة ولا حجة لأحد على الله فمدح الله نفسه

ص 117

بأن له الحجة البالغة وليس إلا العلم فإنه أعلى ما يطلب وأفضل ما يكتسب وأعظم ما به يفتخر ، وأسد آلة تعد وتدخر « فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ »ولو حرف امتناع لامتناع ، فما شاء إلا ما هو الأمر عليه ، ولكن عين الممكن قابل للشيء ونقيضه في حكم دليل العقل ، وأي الحكمين المعقولين وقع ، ذلك هو الذي كان عليه الممكن في حال ثبوته ، ومعنى لهداكم أي لبيين لكم ، وما كل ممكن في العالم فتح الله عين بصيرته لإدراك الأمر في نفسه على ما هو عليه ، فمنهم العالم والجاهل ، فما هداهم أجمعين ولا يشاء .

[سورة الأنعام (6) : آية 150]

قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)« بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ »أي يجعلون له مشابها ومماثلا .[سورة الأنعام (6) : الآيات 151 إلى 152]

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152)

اليتيم من لا أب له بالحياة ، وهو غير بالغ أي لم يبلغ الحلم بالسن أو الإنبات أو رؤية الماء ، وقد أمر النبي صلّى الله عليه وسلم بالتجارة في مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة ، فإن الزكاة واجبة

ص 118

في مال اليتيم ، يخرجها وليه .« وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا »اعلم أن العدل هو الميل ، يقال عدل عن الطريق إذا مال عنه ، وعدل إليه إذا مال إليه ، وسمي الميل إلى الحق عدلا كما سمي الميل عن الحق جورا .

[سورة الأنعام (6) : آية 153]

وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

قال تعالى :(لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً »

[الشريعة هي المحجة البيضاء ، محجة السعداء]

وهي أحكام الطريقة ، ولهذا خط رسول الله صلّى الله عليه وسلم خطا ، وخط عن جنبتي ذلك الخط خطوطا ، فكان ذلك الخط شرعه ومنهاجه الذي بعث به ، وقيل له قل لأمتك تسلك عليه ، ولا تعدل عنه ، وكانت تلك الخطوط شرائع الأنبياء التي تقدمته ، والنواميس الحكمية الموضوعة ، ثم وضع يده على الخط وتلا »: وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً »فأضافه إليه ، ولم يقل صراط الله ، ووصفه بالاستقامة ، وما تعرض لنعت تلك الخطوط بل سكت عنها ، فهو شرع خاص ،
ثم قال :« فَاتَّبِعُوهُ »الضمير يعود على صراطه« وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ »يعني شرائع من تقدمه ومناهجهم ، فإنه أشار إلى تلك الخطوط التي خطها على يمين الخط ويساره من حيث ما هي شرائع لهم ، إلا إن وجد حكم منها في شرعي فاتبعوه من حيث ما هو شرع لنا لا من حيث ما كان شرعا لهم »فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ »يعني تلك الشرائع عن سبيله التي لكم فيها السعادة ، وهي الطريق الذي جاء به محمد صلّى الله عليه وسلم ، وإلا فالسبل كلها إليه ، لأن الله منته كل سبيل ، فإليه يرجع الأمر كله ، ولكن ما كل من رجع إليه سعد ، فسبيل السعادة هي المشروعة ، ولذلك لم يقل عن سبيل الله ، لأن الكل سبيل الله ، إذ كان الله غايتها .« ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ »فجعل هذا التعريف وصية ليعمل بها« لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » *أي تتخذون تلك السبيل وقاية ، تحول بينكم وبين المشي على غيره من السبل ، فهذا يدلك أن الشريعة هي المحجة البيضاء ، محجة السعداء ، وطريق السعادة ، من مشى عليها نجا ، ومن تركها هلك ، فإن السبل المشروعة ، الحكم فيها مجموعة ، فمن احترمها وأقامها أعطته ما فيها ، وأتحفته بمعانيها ، فكان علّامة الزمان ، مجهولا في الأكوان ، معلوما للواحد الرحمن ، على أن الرسل لما طرقت السبل وسهلت حزنها ، وذللت صعبها ، وأزالت غمها وحزنها ، أخبرت أن دين الله في

ص 119

يسر ، فلا تجعلوه في عسر ، فما كلف الله نفسا إلا ما آتاها ، وما شرع لها إلا ما واتاها ، فإنه العالم بالمصالح والمنافع ، والدواء الناجع ، فمن استعمل ما شرع ، اندفع عنه الضر وانتفع ، فذهب الله بالشرائع كل مذهب ، لمن عرف كيف يذهب .
فما من قالة إلا وللشرع فيها مقالة ، إما بتقرير أو إزالة ، فما فرط في الكتاب من شيء حين أنزله ، ولا كتم رسول ما به الحق عزّ وجل أرسله .

[سورة الأنعام (6) : آية 154]
ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154)« وَهُدىً »
أي بيانا ورحمة بما يحصل لهم من العلم من ذلك البيان .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 155 إلى 158]
وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (157) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158)
« يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً »- الوجه الأول - ذلك عند مفارقة الروح لهذه النشأة ، لأن زمان التكليف

ص 120

ذهب وانقضى في حقها ، ولهذا ينقطع عمل الإنسان بالموت - الوجه الثاني - هو عند خروج الشمس من مغربها فيسد باب التوبة ويغلق ، فلا ينفع نفسا إيمانها ولا ما تكتسبه من خير بذلك الإيمان ، فغلق باب التوبة بخروج الشمس من مغربها رحمة بالمؤمن فلا يرتد مؤمن بعد ذلك ، فإنه ليس له باب يخرج منه ، ووبال بالكافر لعدم قبول توبته ولا ينفعه عمل مع كونه في الدنيا ، فإنه لا بد لهذه الشمس أن تطلع من مغربها ولها بهتة ، ولهذا تطلع من المغرب بغتة ، مع كونها ما سكنت عن حركتها ، ولكن حيل بينها وبين بركتها ، فلم ينفع بطلوعها إيمان ولا عمل ، ولحق أهل الاجتهاد بأهل الكسل .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 159 إلى 160]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (159) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (160)

إذا أدخل الحق صورة العمل الصالح الميزان ووزنه بصورة الجزاء ، رجحت عليه صورة الجزاء أضعافا مضاعفة ، وخرجت عن الحد والمقدار ، منة من الله وفضلا ، وهو قوله :(مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها)وقال) : ويضاعف الله لمن يشاء والله واسع عليم) وإذا اتفق أن يدخل الحق صورة العمل المنهي عنه في الميزان بالجزاء ، فإنه لا يزيد عليها في المقدار وزن ذرة أصلا إذا أقام الوزن عليه بالجزاء ، وكان عذابه في النار جزاء على قدر عمله ، لا يزيد ولا ينقص ، لا في العمل ولا في مقدار الزمان ، وهو قوله تعالى »:وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ».

[سورة الأنعام (6) : الآيات 161 إلى 162]

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ(162)

"قُلْ إِنَّ صَلاتِي »الصلاة المعهودة« وَنُسُكِي »
هنا معناه عبادتي ، أي : إن صلاتي وعبادتي ، يقول ذلتي« وَمَحْيايَ وَمَماتِي »أي وحالة حياتي وحالة مماتي« لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ "

ص 121

أي لله إيجاد ذلك كله ، أي ظهور ذلك فيّ من أجل الله ، لا من أجل ما يعود عليّ في ذلك من الخير ، فإن الله يقول :(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)فالعالم من عبد الله لله ، وغير العالم يعبده لما يرجوه من الله ، من حظوظ نفسه في تلك العبادة ، لذلك قال »:لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ »أي سيد العالمين ومالكهم ومصلحهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 163]
لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)
أي لا إله في هذا الموضع مقصود بالعبادة إلا الله ، الذي خلقني من أجلها ، أي لا أشرك فيها نفسي ، بما يخطر له من الثواب الذي وعده الله لمن هذه صفته« وَبِذلِكَ أُمِرْتُ »يعود على الجملة كلها وعلى كل جزء جزء منها »وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »أي من المنقادين لأوامره في قوله »: وَبِذلِكَ أُمِرْتُ »حيث ورد في الحديث [وأنا من المسلمين] .

[سورة الأنعام (6) : آية 164]
قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164)
« وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى »قال تعالى: (لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً) * وقال :(كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ).

[سورة الأنعام (6) : آية 165]
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165)
« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ »

[رتبة الخلافة متوارثة ، والخليفة واحد أبدا]
هي رتبة الخلافة التي كانت لآدم عليه السلام ، فالخلفاء نواب الحق في عباده ، وقوله تعالى :« خَلائِفَ »بالجمع ، والخليفة واحد أبدا ، فإن سر الخلافة واحد ، وهو متوارث تتوارثه هذه الأشباح ، فإن ظهرت في شخص ما ، ما دام ذلك الشخص متصفا به ، من المحال شرعا أن يوجد لذلك القبيل في ذلك الزمان بعينه في شخص آخر ، وإن ادعاه أحد فهو باطل ، ودعواه مردودة ، وهو دجال ذلك الزمان ،

ص 122

فإذا فقد ذلك الشخص انتقل ذلك السر إلى شخص آخر ، فانتقل معه اسم الخليفة ، فلهذا قيل خلائف الأرض ، أي يخلف بعضنا بعضا فيها ، في مرتبة الخلافة ،
فإن آدم كانت خلافته في الأرض ، وهكذا هو كل خليفة فيها ، مع وجود التفاضل بين الخلفاء فيها ، وذلك لاختلاف الأزمان واختلاف الأحوال ، فيعطي هذا الحال والزمان من الأمر ما لا يعطيه الزمان والحال الذي كان قبله والذي يكون بعده ،
ولهذا اختلفت آيات الأنبياء باختلاف الأعصار ، فآية كل خليفة ورسول من نسبة ما هو الظاهر والغالب على ذلك الزمان وأحوال علمائه ، أي شيء كان ، من طب أو سحر أو فصاحة ، وما شاكل هذا وهو قوله :« وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ »
[وزن الأعمال يوم القيامة بالعامل]
ففضل بعضهم على بعض بالمراتب والزيادات التي لها شرف في العرف والعقل ، ثم يقول للخلفاء« لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »وهاتان الصفتان لا تكونان إلا لمن بيده الحكم والأمر والنهي ، فهذا النسق يقوي أنه أراد خلافة السلطنة والملك ،
ومن حقيقة قوله تعالى :« إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »قال صلّى الله عليه وسلم :
[أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك] .

(7) سورة الأعراف مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[سورة الأعراف (7) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (1) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (3) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (4) فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (5) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ (7) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(8)

ص 123

هي موازين الأعمال ، فإن رجح عمله به ثقل ميزان عمله به وارتفعت الكفة فيه ، فأخذ إلى عليين ، وإن رجح هو بعمله نزل بكفته في سجين ، لذلك قال تعالى .

[سورة الأعراف (7) : آية 9]

وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9)

الوزن يوم القيامة وزنان : وزن الأعمال بعضها ببعض ، ويعتبر في ذلك كفة الحسنات ، ووزن الأعمال بعاملها ، ويعتبر فيها كفة العمل ، لما كان الحشر يوم القيامة والنشور في الأجسام الطبيعية ظهر الميزان بصورة نشأتهم من الثقل ، فإذا ثقلت موازينهم ، وهم الذين أسعدهم الله ، فأرادوا حسنا وفعلوا في ظاهرهم حسنا فثقلت موازينهم ، فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى مائة ألف مما دون ذلك وما فوقه ، وأما القبيح السيئ ، فواحدة بواحدة ، فيخف ميزانه ، أعني ميزان الشقي بالنسبة إلى ثقل السعيد ،

واعلم أن الحق تعالى ما اعتبر في الوزن إلا كفة الخير لا كفة الشر ، فهي الثقيلة في حق السعيد ، الخفيفة في حق الشقي ، مع كون السيئة غير مضاعفة ، ومع هذا فقد خفت كفة خيره ، فانظر ما أشقاه ، فالكفة الثقيلة للسعيد هي بعينها الخفيفة للشقي ، لقلة ما فيها من الخير ، أو لعدمه بالجملة ، مثل الذي يخرجه سبحانه من النار وما عمل خيرا قط ، فميزان مثل هذا ما في كفة اليمين منه شيء أصلا ، وليس عنده إلا ما في قلبه من العلم الضروري بتوحيد الله ،

وليس له في ذلك تعمل مثل سائر الضروريات ، فلو اعتبر الحق بالثقل والخفة الكفتين ، كفة الخير والشر ، لكان يزيد بيانا في ذلك ، فإن إحدى الكفتين إذا ثقلت خفت الأخرى بلا شك ، خيرا كان أو شرا ، وأما إذا وقع الوزن به ، فيكون هو في إحدى الكفتين وعمله في الأخرى ،

فذلك وزن آخر ، فمن ثقل ميزانه نزل عمله إلى أسفل ، فإن الأعمال في الدنيا من مشاق النفوس ، والمشاق محلها النار ، فتنزل كفة عمله تطلب النار ، وترتفع الكفة التي هو فيها لخفتها فيدخل الجنة لأن لها العلو ، والشقي تثقل كفة الميزان الذي هو فيها وتخف كفة عمله ، فيهوي في النار ،

ص 124

وهو قوله :(فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ)فكفة ميزان العمل هي المعتبرة في هذا النوع من الوزن ، الموصوفة بالثقل في السعيد لرفعة صاحبها ، والموصوفة بالخفة في حق الشقي لثقل صاحبها ، وهو قوله تعالى :(يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ)وليس إلا ما يعطيهم من الثقل الذي يهوي به في نار جهنم .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 10 إلى 11]

وَلَقَدْ مَكَّنّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (10) وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11)

قيل لإبليس : اسجد لآدم ، فغاب عن لام الخفض التي هي إشارة إلى لام الإضافة ، واحتجب العلم عنه بذكر آدم ، فلو رأى اللام من قوله لآدم لرأى نور محيا الذات المطلوبة لقلوب الرجال ، فما كانت تتصور منه الإباية عما دعاه إليه ، فاحتجب إبليس واستكبر بنظره إلى عنصره الأعلى عن عنصر آدم الترابي ، فلما رأى الشرف له امتنع عن النزول للأخس ، وما عرف ما أبطن اللّه له فيه من سبحات الأسماء الإلهية والإحاطة .

[سورة الأعراف (7) : آية 12]

قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)

لما اجتمع النار مع النور في الإحراق وقوة الفعل في بقية العناصر ، نظر إبليس في أصل نشأته وعرف أن عنصره الأعظم النار ، وهو أرفع الأركان مكانا ، وله سلطان على إحالة الأشياء التي تقتضيها الطبيعة ، فإن النار لا تقبل التبريد بخلاف بقية الأركان ، فالهواء يسخن وكذلك الماء وكذلك التراب ، فللنار في نفس الأركان أثر وليس لواحد منها في النار أثر ، وجهل إبليس ما فطر اللّه آدم عليه من كمال الصورة ، فتكبر ، وأدّاه تأويله أن يفتخر على آدم ويقول :« أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ »أي أقرب إليك من هذا الذي خلقته من طين ، ثم علل فقال :« خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ »فالنار أقرب في الإضاءة النورية إلى النور ، والنور اسم

ص 125

من أسماء الله ، والطين ظلمة محضة ، فجمع إبليس بين الجهل والكذب ، فإنه ما هو خير منه لا عند الله ولا في النشأة ، وفضل بين الأركان ولا فضل بينها في الحقائق ، وما علم أن سلطان الماء الذي خلق منه آدم أقوى منه فإنه يذهبه ، وأن التراب أثبت منه للبرد واليبس ، فلآدم القوة والثبوت لغلبة الركنين اللذين أوجده الله منهما ، وإن كان فيه بقية الأركان ولكن ليس لها ذلك السلطان ، وهو الهواء والنار ، وإبليس بحكم أصل نشأته بخلقه من لهب النار له عدم الثبوت وعدم البقاء على حالة واحدة ، فهو سريع الحركة بحكم أصل خلقه من لهب النار ، والإنسان له الثبوت فإنه من التراب ، فله البرد واليبس فهو ثابت في شغله .

[سورة الأعراف (7) : آية 13]

قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13)

أهبط إبليس للأرض عقوبة لما وقع منه فسأل الله الإغواء أن يدوم له في ذرية آدم لما عاقبه الله بما يكرهه من إنزاله إلى الأرض فقال تعالى مخبرا عنه .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 14 إلى 17]

قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17)

إن الأعمال هنا في التكليف مقسمة على أربع جهات ، قرن الله السعادة والشقاء بها ، وهي اليمين والشمال والخلف والأمام ، لأن الفوقية لا يمشي الجسم فيها بطبعه ، والتحتية لا يمشي فيها الروح بطبعه ، فما جعلت سعادة الإنسان وشقاوته إلا فيما يقبله طبعه في روحه وجسمه ، وهن الجهات الأربع ، وبها خوطب ، ومنها دخل عليه إبليس ، فهي جهات الأهواء ، ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم لأنه لم يقترن بها عمل ، فإنها للتنزل الإلهي والوهب الرباني الرحماني الذي له العزة والمنع والسلطان ، فلما علم إبليس بهذه الجهات قال »:ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ »فما جاء إبليس إلا من الجهات التي تؤثر في سعادة الإنسان إن سمع منه وقبل ما يدعوه إليه ، وفي شقاوته إن لم يسمع منه ولم يقبل ما دعاه

ص 126

إليه ، فإن هذه الطرق الأربع هي طرق الشيطان ، قال ذلك لما سمع أمر الله)وَاسْتَفْزِزْ
)قال :« لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ »ولما قال له :(وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ)
قال :« وَمِنْ خَلْفِهِمْ »ولما قال له الله :(وَشارِكْهُمْ)
قال الشيطان :« وَعَنْ أَيْمانِهِمْ »ولما قال له: (وَعِدْهُمْ)
قال الشيطان :« وَعَنْ شَمائِلِهِمْ »
فهي صورة حرب لما كان القلب هو موضع الإمام ، وهو الذي اصطفاه الله من نشأة عبده حين قال : [وسعني قلب عبدي المؤمن] وليس لعدو الله غرض إلا هذا القلب ، فلم يبق للعدو الذي نصبه الله إلا أن يأتي من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا يبتغي الاستيلاء على القلب ، فهي حرب سجال بين جند الله وبين جند الشيطان ، والذي أراد الشيطان هنا ليس هو يمين الجارحة ، فإنه لا يلقي على الجوارح ، وكذلك ما هو شمال الجوارح ولا أمام الإنسان ولا خلفه ، فإن محل إلقائه إنما هو القلب ما يقدح في أفعال ما يتعلق بيمينه أو شماله أو من خلفه أو من بين يديه ، ويستعين على الإنسان بالطبع ، فإنه المساعد له فيما يدعوه إليه من اتباع الشهوات ، فقال :« ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ »بظاهر القول الذي يؤدي إلى التجسيم والتشبيه والتشكيك في الحواس ، ويدفعه المؤمن بالعلم فيمنعه أن يصل إليه فبنور علم البرهان يرد به الشبه المضلة القادحة في وجود الحق وتوحيده وأسمائه وأفعاله ، فبالبرهان يرد على المعطلة ويدل على إثبات وجود الإله ، وبه يرد على أهل الشرك الذين يجعلون مع الله إلها آخر ، ويدل على توحيد الإله من كونه إلها ، وبه يرد على من ينفي أحكام الأسماء الإلهية وصحة آثارها في الكون ، ويدل على إثباتها بالبرهان السمعي من طريق الإطلاق ، وبالبرهان العقلي من طريق المعاني ، وبه يرد على نفاة الأفعال من الفلاسفة ، ويدل على أنه سبحانه فاعل وأن المفعولات مرادة للحق سمعا وعقلا ،« وَمِنْ خَلْفِهِمْ »بشبه وأمور من الخيالات الفاسدة ، وهو ما يدعوك إليه أن تقول على الله ما لا تعلم ، وتدعي النبوة والرسالة وأن الله قد أوحى إليك ، فيقوم التفكر فيدفعه ، فإنك إن لم تتفكر وتبحث حتى تعثر على أن تلك الأشياء شبهات هلكت ، وإن طردته من خلفك لاحت لك علوم الصدق ومنازله وأين ينتهي بصاحبه ،
كما قال تعالى :(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)
فإن القوة لما كانت صفة الصادق حيث قوي على نفسه ، فلم يتزين بما ليس له ، والتزم الحق في أقواله وأحواله وأفعاله ، وصدق فيها ، أقعده الحق عند مليك مقتدر » وَعَنْ أَيْمانِهِمْ »وهذه الجهة هي الموصوفة بالقوة فإنه يأتي منها ليضعف إيمانك ويقينك ، ويلقي عليك شبها في أدلتك

ص 127

ومكاشفاتك ، أو يأتيك بالجنة العاجلة وهي الشهوات واللذات ، فيزينها ويحببها للعبد ، ولكن الخوف يعرض له فيدرأه عنها ، ولولاه لوقع فيها ، وبوقوعه يكون الهلاك«
وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ »
بشبهات التعطيل أو وجود الشريك لله تعالى في ألوهيته ، فتطرده بدلائل التوحيد وعلم النظر الذي يعلم به وجود الباري ، أو يأتي الشيطان عن الشمال بالقنوط واليأس وسوء الظن بالله وغلبة المقت ، ولكن الرجاء وحسن الظن بالله عزّ وجل يدفعه ويقمعه ، فلتجعل الخوف عن يمينك والرجاء عن شمالك ، والعلم بين يديك والتفكر من خلفك ، فهذه الجهات الأربع التي يدخل عليك الخلل منها ، ومن جهة أخرى فإن الخلف للتعطيل ، والشمال للشرك ، واليمين للضعف ، ومن بين أيديهم التشكيك في الحواس
- الوجه الثاني - الشيطان يأتي للمشرك من بين يديه ، فإنه رأى إذ كان بين يديه جهة عينيه ، فأثبت وجود الله ولم يقدر على إنكاره ، فجعله إبليس يشرك مع الله في ألوهيته ، ويأتي للمعطل من خلفه ، فإن الخلف ما هو محل النظر ،
فقال له : ما ثمّ شيء ، أي ما في الوجود إله ، ويأتي إلى المتكبر عن يمينه ، لأن اليمين محل القوة ، فتكبر بقوته التي أحسها من نفسه ، فادعى الربوبية لنفسه ونفاها عن الله ، ويأتي المنافق عن شماله ، فإنه أضعف الطوائف ، كما أن الشمال أضعف من اليمين
- الوجه الثالث - لما سكت إبليس في إتيانه العبد للإغواء عن الفوقية سكت عن التحت ، لأنه على خط استواء مع الفوق ، لأنه لعنه الله رأى نزول الأنوار على العبد من فوقه ، فخاف من الاحتراق ، فلم يتعرض في إتيانه من الفوق ، ورأى التحت على خط استواء من فوق ، فإن ذلك النور يتصل بالتحت للاستواء لم يأت من التحت
[- إشارة - فإن قلت : لم أتى إبليس ابن آدم من جميع جهاته إلا من أعلاه ؟]
-إشارة - فإن قلت : لم أتى إبليس ابن آدم من جميع جهاته إلا من أعلاه ؟
قلنا : لئلا يحترق بنور تنزل الأمر من مولاه ، فإن قلت : فهلا أتاه من أسفله فيغويه ؟
قلنا : إليه يدعوه فلا فائدة فيه ، أي السفل مقام الذل والعبودية .

اعلم أن لك ست جهات ، أربعة منها للشيطان ، وواحدة لك وواحدة لله ، فأنت فيما منها لله معصوم فمن ثمّ خذ التلقي ، واحذر من الباقي وهو الخمسة ، ولذا جاء الشرع بخمسة أحكام ، منها جهتك وجهات الشيطان منك ، وأما جهته منك فلا حكم فيها للشرع ، وهي جهة معصومة لا يتنزل على القلب منها إلا العلوم الإلهية المحفوظة من الشوب.

ص 128

[سورة الأعراف (7) : آية 18]

قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

لا سبيل لخروج إبليس من جهنم لأنه وأتباعه من المشركين الذين هم أهل النار يملأ الله بهم جهنم ولا نقص فيها بعد ملئها فلا خروج .

[سورة الأعراف (7) : آية 19]

وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ(19)

» فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما »كلا هو العامل في قوله :« مِنْ حَيْثُ شِئْتُما »، أول نهي ظهر في الوجود قوله تعالى لآدم وحواء :« لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ »وكذلك أول أمر قوله تعالى للملائكة ولإبليس(اسْجُدُوا لِآدَمَ)فكان أول أمر ظهر في الوجود ، ولما كان هذا أول أمر ونهي لذلك وقعت العقوبة عند المخالفة ، والنهي ليس بتكليف عملي ، فإنه يتضمن أمرا عدميا ، وهو لا تفعل ، ومن حقيقة الممكن أنه لا يفعل ، فكأنه قيل له : لا تفارق أصلك ، والأمر ليس كذلك ، فإنه يتضمن أمرا وجوديا ، وهو أن يفعل ، فكأنه قيل له :

اخرج عن أصلك ، فالأمر أشق على النفس من النهي ، إذ كلف الخروج عن أصله ، فلو أن إبليس لمّا عصى ولم يسجد لم يقل ما قال « * » من التكبر والفضلية التي نسبها إلى نفسه على غيره ، فخرج عن عبوديته بقدر ذلك ، فحلت به عقوبة الله ، وكانت العقوبة لآدم وحواء لما تكلفا الخروج عن أصلهما وهو الترك ، ومن هذه الحقيقة قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [إذا أمرتكم بأمر فافعلوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم فانتهوا]

- **إشارة** - ما وقع التحجير على آدم إلا في الشجرة ، أي لا تقرب التشاجر ، والزم طريق إنسانيتك وما تستحقه ، ولا تزاحم أحدا في حقيقته ، فإن المزاحمة تشاجر وخلاف ، ولهذا لما قرب من الشجرة خالف نهي ربه ، فكان مشاجرا فذهب عنه في تلك الحال السعادة العاجلة في الوقت.

(*)جواب لو إما أن يكون محذوفا يفهم من السياق ، أو ساقطا من الأصل ، والمعنى : لو أن إبليس لما عصى ولم يسجد لم يقل ما قال ، ما عوقب ، لأنه لم يخرج عن أصله ، ولكنه لما قال ما قال من التكبر والفضلية . . . إلخ.

ص 129*

[سورة الأعراف (7) : الآيات 20 إلى 22]
فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (20) وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)

[إشارة : سر ظهور سوأة آدم وحواء]
تقدم الأمر لآدم عليه السلام بسكن الجنة والأكل منها حيث شاء ، ثم نهاه عن قرب شجرة مشار إليها أن يقربها ، فوقع التحجير والنهي في قوله :« حَيْثُ شِئْتُما »لا في الأكل فما حجر عليه الأكل وإنما حجر عليه القرب منها الذي كان قد أطلقه في(حَيْثُ شِئْتُما)فما أكلا منها حتى قربا ؛ فتناولا منها ، فأخذا بالقرب لا بالأكل - إشارة - سر ظهور سوءاتهما ، معاينة مكمنات غاياتهما ، ونظيرهما في الوجود ، القلم واللوح المشهود ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، ليكون لهما عن ملاحظة الأغيار جنة .

[سورة الأعراف : (7) آية 23]
قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)
« قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا »حيث لم نتفطن لإشارتك بالتحجير والمنع في موطن التسريح والإباحة ، فظلمنا أنفسنا بما اكتسبت من الخطايا ، حيث عرضوها إلى التلف ، وكان حقا عليهم أن يسعوا في نجاتها بامتثال نهي سيدهم« وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا »أي وإن لم تسترنا عن وارد المخالفة حتى لا يحكم بسلطانه علينا ، فإنه لا يقدر على سترها إلا أنت« وَتَرْحَمْنا »بذلك الستر« لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ »ما ربحت تجارتنا ، وهذه هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه أعطاه إياها لما اجتباه من قوله :(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ)وما زاد آدم عليه السلام على الاعتراف والدعاء ، فلم ير أكمل من آدم معرفة ، حيث اعترف ودعا ، وما عهد مع الله توبة عزم فيها أنه لا يعود.

ص 130

[سورة الأعراف (7) : آية 24]
قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (24)
قيل لإبليس وحواء وآدم« اهْبِطُوا »
[إشارة : اهبطوا بعضكم لبعض عدو]
بضمير الجماعة في ضمير واحد ، وهو كان أشد عقوبة على آدم ، ولم يكن الهبوط عقوبة لآدم وحواء ، وإنما كان عقوبة لإبليس ، فإن آدم أهبط لصدق الوعد بأن يجعل في الأرض خليفة ، بعد ما تاب عليه واجتباه ، وتلقى الكلمات من ربه بالاعتراف ، فاعترافه عليه السلام في مقابلة كلام إبليس(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)فعرفنا الحق بمقام الاعتراف عند الله وما ينتجه من السعادة ، لنتخذه طريقا في مخالفاتنا ، وعرفنا بدعوى إبليس ومقالته لنحذر من مثلها عند مخالفتنا ، وأهبطت حواء للتناسل ، وأهبط إبليس للإغواء ، فكان هبوط آدم وحواء هبوط كرامة ، وهبوط إبليس هبوط خذلان وعقوبة واكتساب أوزار - إشارة - جعل بعضهم لبعض عدوا في هذه الدار ، ليستعينا بتأييد الله ، فيصح منهما الافتقار ، وينفرد جلاله بالعزيز الغفار .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 25 إلى 26]
قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ (25) يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26)
« يا بَنِي آدَمَ »
[- إشارة - رحم آدم عليه السلام رحم مقطوعة عند أكثر الناس]
-إشارة - رحم آدم عليه السلام رحم مقطوعة عند أكثر الناس من أهل الله ، فكيف حال العامة في ذلك ؟
فما تفطن الناس لقول الله تعالى في غير موضع » يا بني آدم يا بني آدم » يذكّر ، ولا أحد ينتبه لهذه الأبوة والبنوة ، ولا يتذكر إلا أولو الألباب ، جعلنا الله وإياكم ممن بر أباه« قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ »وليس إلا ما يسوءكم ما ينظر إليه منكم ، لما نسب إليها من المذام ،

[- إشارة - فقد سميت السوءة عورة لميلها]
-إشارة - فقد سميت السوءة عورة لميلها ، فإن لها درجة السر في الإيجاد الإلهي ، وأنزلها الحق منزلة القلم الإلهي كما أنزل المرأة منزلة اللوح لرقم هذا القلم ، فلما مالت عن هذه المرتبة العظمى والمكانة الزلفى إلى أن تكون محلا لوجود الروائح الكريهة الخارجة منهما ، عن أذى الغائط والبول ، وجعلت نفسها طريقا لما تخرجه القوة الدافعة من البدن ، سميت عورة ، وأمر بستر هذه الحقيقة ، واللباس هو ما

ص 131

يواري ويستر ويمنع من الضرر ، وهو ما زاد على الريش« يُوارِي سَوْآتِكُمْ
»فيسترها غيرة« وَرِيشاً »هو لباس الظاهر" وَلِباسُ التَّقْوى "
هو لباس الباطن« ذلِكَ خَيْرٌ »
[« وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ « الآية]
أي هو خير لباس ، فالتقوى لباس ، لأن الوقاية ستر يتقى به ما ينبغي أن يتقى منه ،
فجعل التقوى لباسا ، والبدن هنا هو القلب ، ولذلك قال :« ذلِكَ خَيْرٌ »أي هو خير
لباس ، والتقوى في اللباس هنا ما يقي به الإنسان كشف عورته ، ويكون سترا لعورته
التي هي مذام الأخلاق ، وما يقى به الإنسان برد الهواء وحره ، فهو خير لباس من
الريش . اعلم أن لباس الباطن الغذا ولباس الظاهر ما يدفع به الأذى ، فالجوع ألم
يدفعه بالطعام ، والعطش ألم يدفعه بالشراب ، والحر والبرد ألم يدفعهما باللباس ،
وسائر الآلام يدفعها بالأدوية التي جعلها الله لدفع الآلام ، وما عدا الدفع إما زينة أو
اتباع شهوة .

[سورة الأعراف (7) : آية 27]
يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27)
« يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ »فالتحق النساء بالرجال في الأبوة«
إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ « مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ »فوصفهم باللطافة ، ويرانا هو وقبيله
شهودا عينا ، فإن الاسم اللطيف أورث الجان الاستتار عن أعين الناس ، فلا تدركهم
الأبصار إلا إذا تجسدوا .

[سورة الأعراف (7) : آية 28]
وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (28)
الأمر من أقسام الكلام ، فما أمر الله بالذنوب وإنما أمر بالمسابقة والإسراع إلى الخير
وفيه وإلى المغفرة ،
[أنه تعالى لم يأمر بالفحشاء ، كذلك لا يريدها]
وكما أنه تعالى لم يأمر بالفحشاء ، كذلك لا يريدها ، لكن قضاها وقدرها ،

ص 132

وبيان كونه لا يريدها ، لأن كونها فاحشة ليس عينها ، بل هو حكم اللّه فيها ، وحكم اللّه في الأشياء غير مخلوق ، لأنه عين علمه بها في هذه الحالة ، فلا يكون مرادا فلا يكون الحكم مأمورا به ، وما لم يجر عليه الخلق لا يكون مرادا ، فإن ألزمناه في الطاعة التزمناه ، وقلنا الإرادة للطاعة ثبتت سمعا لا عقلا ، فاثبتوها في الفحشاء ، ونحن قبلناها إيمانا كما قبلنا وزن الأعمال وصورها مع كونها أعراضا ، فلا يقدح ذلك فيما ذهبنا إليه لما اقتضاه الدليل .

[سورة الأعراف (7) : آية 29]
قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29)
اختلف في الإعادة ، هل تكون على صورة ما أوجدنا في الدنيا من التناسل شخصا عن شخص بجماع وحمل وولادة في آن واحد للجميع ؟ وهو مذهب أبي القاسم بن قسي ، فإن إحياء الموتى يوم القيامة يكون في الزمان القليل على صورة ما جاءوا عليها في الزمان الكثير ، فإن الإعادة إن لم تكن على صورة الابتداء وإلا ليست بإعادة ، أو يعودون روحا إلى جسم ؟ وهو مذهب الجماعة ، فقوله تعالى »: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »يعني في النشأة الآخرة أنها تشبه النشأة الدنياوية في عدم المثال ، فإن اللّه أنشأنا على غير مثال سبق ، وكذلك ينشئنا على غير مثال سبق ، فقوله :« كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »يعني في النشأة الآخرة أنها تشبه النشأة الدنياوية في عدم المثال ، فإن اللّه أنشأنا على غير مثال سبق ، وكذلك ينشئنا على غير مثال سبق ، فقوله :« كَما بَدَأَكُمْ »يعني على غير مثال« تَعُودُونَ »على غير مثال ، يعني في النشأة الآخرة ، فإن الصورة لا تشبه الصورة ، ولا المزاج المزاج ، وقد وردت الأخبار الإلهية بذلك على ألسنة الأنبياء عليهم السلام وهم الرسل ، فالنشأة الآخرة ليست من مولدات العناصر بل هي من مولدات الطبيعة ، فلذلك لا تنام ولا تقبل النوم ، فلا ينام أهل الجنة في الجنة ، ولا يعيب عنهم شيء من العالم ، بل كل عالم من حس ومعنى وبرزخ مشهود لهم ، مع كونهم غير متصفين بالنوم ، فإن قيل : فما فائدة قوله :« تَعُودُونَ »؟ قلنا : يخاطب الأرواح الإنسانية أنها تعود إلى تدبير الأجسام في الآخرة كما كانت في الدنيا ، على المزاج الذي خلق تلك النشأة عليه ، ويخرجها من قبرها فيها ، ومن النار حين ينبتون كما تنبت الحبة تكون في حميل السيل ، مع القدرة منه على إعادة ذلك المزاج ، لكن ما شاء ، ولهذا علق المشيئة به فقال تعالى :« إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ »يعني المزاج الذي كان

ص 133

عليه ، فلو كان هو بعينه لقال (ثم ينشره) فكان قوله تعالى :« كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »
[« كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »]
هو قوله تعالى :« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ »وقوله :« كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا »
وقد علمنا أن النشأة الأولى أوجدها الله على غير مثال سبق ، فهكذا النشأة الآخرة يوجدها الله تعالى على غير مثال سبق ، مع كونها محسوسة بلا شك ، وقد ذكر صلّى الله عليه وسلم في صفة نشأة أهل الجنة والنار ما يخالف ما هي عليه هذه النشأة الدنيا ، فعلمنا أن ذلك راجع إلى عدم مثال سابق ينشئها عليه ، وهو أعظم في القدرة ، فينشئ الله النشأة الأخرى على عجب الذنب الذي يبقى من هذه النشأة الدنيا ، وهو أصلها ، فعليه تركيب النشأة الآخرة ، وهو لا يبلى ولا يقبل البلى ، فإذا أنشأ الله النشأة الآخرة وسواها وعدلها ، ينفخ إسرافيل نفخة واحدة ، فتمر تلك النفخة على الصور البرزخية فتطفئها ، وتمر النفخة التالية وهي الأخرى إلى الصور المستعدة للاشتعال وهي النشأة الأخرى فتشتعل بأرواحها ، فإذا هم قيام ينظرون ، فتقوم الصور أحياء ناطقة بما ينطقها الله به ، فمن ناطق بالحمد لله ،
ومن ناطق يقول : من بعثنا من مرقدنا ؟
ومن ناطق يقول : سبحان من أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، وكل ناطق ينطق بحسب علمه وما كان عليه ، ونسي حاله في البرزخ ، ويتخيل أن ذلك الذي كان فيه منام ، كما تخيله المستيقظ ، وقد كان حين مات وانتقل إلى البرزخ كأن المستيقظ هناك وأن الحياة الدنيا كانت له كالمنام ، وفي الآخرة يعتقد في أمر الدنيا والبرزخ أنه منام في منام ، وأن اليقظة الصحيحة هي التي هو عليها في الدار الآخرة ، وهي يقظة لا نوم فيها ، ولا نوم بعدها لأهل السعادة ،
لكن لأهل النار وفيها راحتهم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا]
فالدنيا بالنسبة إلى البرزخ نوم ومنام ، فإن البرزخ أقرب إلى الأمر الحق ، فهو أولى باليقظة ، والبرزخ بالنظر إلى النشأة الأخرى يوم القيامة منام ، واعلم أن الإنسان مقلوب النشأة ، فآخرته في باطنه ودنياه في ظاهره ، ففي نشأة الآخرة باطنه في الدنيا صورة ظاهره في النشأة الآخرة وظاهره في الدنيا باطنه في النشأة الآخرة ، لهذا جاء« كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »فالآخرة مقلوب نشأة الدنيا ، والدنيا مقلوب نشأة الآخرة ، والإنسان هو الإنسان عينه ، فاجهد أن تكون خواطرك هنا محمودة شرعا ، فتجمل صورتك في الآخرة وبالعكس ، فلا يعلم« كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »
إلا من علم(وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ)وهو عودة الحق إلى الخلق وإن اختلفت الصور ، ففيه إثبات الغير ، فإثبات الإعادة
ص 134

الإيمان بها يعطي السعادة ، فلا تكرار في الوجود وإن خفي في الشهود ، فذلك لوجود الأمثال ، ولا يعرفه إلا الرجال ، لو تكرر لضاق النطاق ، ولم يصح الاسم الواسع بالاتفاق ، وبطل كون الممكنات لا تتناهى ، ولم يثبت ما كان به يتباهى - وجه آخر - « كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »اعلم أن الإنسان خلق من ضعف ، صورة ومعنى ، وإلى الضعف يعود ، وإنما يترقى إلى ظهوره في الصور بالعوارض ، فقوته في التوسط بجعل اللّه تعالى ، كما قال سبحانه): خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً)فجاء بالجعل لأجل الشيبة ، فأما الضعف فهو أصله عاد إليه ، لذلك قال تعالى :« كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »وقال :(مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ)وقال) : ثم يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا) وذلك أوان رجوعه إلى المهد ، قال سبحانه وتعالى : (وجعلنا الأرض مهادا) .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 30 إلى 31]

فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30)

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31)

« يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ »هذا أمر من الحق بالتجمل للّه ، وهو عبادة مستقلة ، ولا سيما في عبادة الصلاة ، فالزينة مأمور بها ، والزينة هو اللباس الحسن ، ومنها لباس التقوى فإنه خير لباس ، فأمرنا اللّه بالزينة عند كل مسجد يريد مناجاته ، وهي قرة عين محمد صلّى اللّه عليه وسلم وكل مؤمن ، لما فيها من الشهود ، فإن اللّه في قبلة المصلي ،

وقد قال : [اعبد اللّه كأنك تراه] ولا شك أن الجمال محبوب لذاته ، وفي الحديث أن رجلا قال للنبي عليه السلام : أحب أن يكون نعلي حسنا وثوبي حسنا ، فقال عليه السلام : اللّه أولى من تجمّل له . وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : [إن اللّه جميل يحب الجمال] قال الصاحب لما نزلت هذه الآية :[إشارة إلى النعلين]

أمرنا فيها بالصلاة في النعلين - إشارة لا تفسير - إن النعلين إشارة في الاستعانة بالسير إلى اللّه والسفر إليه بالكتاب والسنة ، وهي زينة كل مسجد ، فتزين وتجمل تارة بنعتك من

ص 135

ذلة وافتقار وخشوع وخضوع وسجود وركوع ، وتارة بنعته عزّ وجل من كرم ولطف ورأفة وتجاوز وعفو وصفح ومغفرة وغير ذلك مما هو لله ، ومن زينة الله التي ما حرمها الله على عباده ، فإذا كنت بهذه المثابة أحبك الله لما جملك به من هذه النعوت ، فزينة الله غير محرمة علينا ، والذي وقع عليه الذم زينة الحياة الدنيا ، أي الزينة القريبة الزوال ، أي لا تلبسوا من الملابس إلا ما يكون دائما ، كملابس العلوم والمعارف ، فإنها لا تخلق

ولهذا قال :(وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ)يعني العلم الذي ألبسك التقوى من قوله :(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »

قال علماء الطبيعة : ما قال أحد في أصل هذا العلم أجمع ولا أبدع من قول رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذ قال :

[المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وأصل كل داء البردة]

وأمر في الأكل إن كثر ولا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس ، وقال صلّى الله عليه وسلم : [بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه] هذا في تدبير هذا البيت الذي هو هذه الأجسام الطبيعية التي خلقها وسواها وعدلها بالبناء لسكنى النفوس الإنسانية المدبرة لها . واعلم وفقك الله أن النفس العدوة الكافرة الأمارة بالسوء ، لها على الإنسان قوة كبيرة وسلطان عظيم بسيفين ماضيين ، تقطع بهما رقاب صناديد الرجال وعظمائهم ، وهما شهوة البطن والفرج ، اللتان قد تعبدتا جميع الخلائق وأسرتاهم ، فقد سلط الله تعالى على هذا العبد الضعيف المسكين المسمى بالإنسان ، شهوتين عظيمتين وآفتين كبيرتين ، هلك بهما أكثر الناس ، وهما شهوة البطن والفرج ، غير أن شهوة الفرج وإن كانت عظيمة قوية السلطان ، فهي دون شهوة البطن ، فإنها ليس لها تأييد إلا من شهوة البطن ، فإن غلب هذا العدو البطني يقل التعب مع الفرج ، بل ربما تذهب ذهابا كليا ، فهذه الشهوة البطنية تجعل صاحبها أولا يمتلئ من الطعام ، مع علمها أن أصل كل داء البردة ، دينيا كان أو طبيعيا ، فالداء الطبيعي الذي تنتجه هذه البردة ، هو فساد الأعضاء من أبخرة فاسدة ، تتولد عنه آلام وأمراض مؤدية إلى الهلاك ، وأما الداء الديني فإنه يؤدي إلى هلاك الأبد ، فكونه يؤديك إلى فضول النظر والكلام والمشي والجماع وغير ذلك من أنواع الحركات المردية ، وإن كان الأمر على هذا الحد ، فواجب على كل عاقل أن لا يملأ بطنه من طعام ولا شراب أصلا ، فإن كان صاحب شريعة طالبا سبيل النجاة ، فيتوجه عليه وجوبا تجنب الحرام ، والورع في الشبهات المظنونة ، وأما المحققة فواجب عليه تجنبها

ص 136

كالحرام ، على كل حال من الأحوال ، فإنه ما أتي على أحد إلا من بطنه ، منه تقع الرغبة وقلة الورع في الكسب والتعدي لحدود الله تعالى ، فالله الله يا بني ، التقليل في الغذاء الطيب في اللباس والطعام ، فإن اللباس أيضا غذاء الجسم كالطعام ، به ينعم ، حيث يحفظه من الهواء البارد والحار ، الذي هو بمنزلة الجوع والامتلاء والظمأ والري المتفاوت ، فكل واشرب والبس لبقاء جسمك في عبادتك لا لنفسك ، فإن الجسم لا يطلب منك إلا سد جوعة بما كان ، ووقاية من الهواء الحار والبارد بما كان ، وأما النفس فلا تطلب منك إلا الطيب من الطعام الحسن الطعم والمنظر ،

وكذلك المشرب والمركب والمسكن والملبس ، إنما تريد من كل شيء أحسنه وأعلاه منزلة وأغلاه ثمنا ، ولو استطاعت أن تنفرد بالأحسن من هذا كله دون النفوس كلها لم تقصر في ذلك ، والذي يؤديها إلى ذلك طلب التقدم والترأس ،

وأن ينظر إليها ويشار ، وأن لا يلتفت إلى غيرها ، ولا تبالي حراما كان ذلك أو حلالا ، والجسم ليس كذلك ، إنما مراده الوقاية مما ذكرناه ، فصار الجسم من هذه طالبا لما يصونه خاصة ،

من أكل وشرب وملبس ومسكن وأشباه ذلك مما يصلح به ، وصارت النفس أو العقل الشرعي الكاسبة والمطعمة له ، فإن كانت النفس المغذية له والناظرة في صونه خاض في الشبهات وتورط في المحرمات ،

لأنها أمارة بالسوء ومطمئنة بالهوى ، فهلكت وأهلكته في الدارين ، لأنها ربما لا تبلغ هنا مناها وطلبتها ، لأن الأمر الإلهي رزق مقسوم ، وأجل مسمى محدود ، وإن كان العقل الشرعي المغذي له ، تقيّد وأخذ الشيء من حله ووضعه في حقه ،

وترك الشهي من الطعام وإن كان حلالا ، فغذاؤه ما تيسر ، وهمته فيما عند مولاه من رؤيته إلى ما دون ذلك مما يبقى بخلاف النفس ، فإن همتها وإن تعلقت بما هو حسن في الحال ، فمآله عذر نتن ، نسأل الله العافية ، والحجة علينا في هذا بيّنة ، لأنه لو كان هذا خبرا لكان بعض عذر وإنما هذا كله معاينة منّا ،

وليت لو وقفت الحال هنا ، ولا تبقى عليه تبعات ذلك في الدار الآخرة ، حين يسأل مم كسبت ؟ وفيما أنفقت ؟

ويسأل عن الفتيل والقطمير ، بل في مثقال ذرة ، فالحجة قائمة للعاقل على نفسه إن طلبت منه هذا ، فما يجب عليك في الطعام من اجتناب المحظور فيه والمتشابه ، يتوجه عليك في اللباس ،

والتقليل من هذا كالتقليل من هذا ، وما ملئ وعاء شر من بطن ملئ بالحلال ، وينبغي أن لا تأكل إلا مما تعرف إذا كنت موكلا لنفسك ، فإن رأس الدين الورع ، والزهد قائد الفوائد ، وكل عمل لا يصحبه

ص 137

ورع فصاحبه مخدوع ، فاسع جهدك في أن تأكل من عمل يدك إن كنت صانعا ، وإلا فاحفظ البساتين والفدادين ، والزم الاستقامة فيما تحاوله على الطريقة المشروعة ، والورع الشافي الذي لا يبقي في القلب أثر تهمة ، إن أردت أن تكون من المفلحين ، وهذا لا يحصل إلا بعد تحصيل العلم المشروع بالمكاسب والحلال والحرام ، لا بد لك منه هذا إذا كنت موكلا لنفسك ، واعلم آن الحلال عزيز المنال على جهة الورع ، قليل جدا ، لا يحتمل الإسراف والتبذير ، بل إذا تورعت على ما لزمه أهل الورع في الورع ، فبالحري أن يسلم لك قوتك على التقتير ، كيف أن تصل به إلى نيل شهوة من شهوات النفس ؟

فالله يا بني ، حافظ على نفسك أن لا تصاحبها في شهوتها لهذه المطاعم الغالية الأثمان ، فإنك إن صاحبتها عليها وتقوى في خاطرك أن لو نلتها لعذوبتها وأن تأخذها على وجه الاعتبار ، أعمت بصيرتك ودلتك بغرور ، وأدخلت عليك ضربا من التأويلات في مكسبك ، ليكثر درهمك بما تلحق تلك الشهوة ، حتى تؤديك إلى التوريط في الشبهات ، وهي تريد الحرام ، فإن الراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، فسد عليها هذا الباب ، ولا تطعمها إلا ما تقوى به على أداء ما كلّفته وتكلفته ، على الشرط الذي ذكرت لك من التقليل ، وهكذا في اللباس ، وإياك والإسراف في النفقة وإن كانت حلالا صافيا ، فإنه مذموم وصاحبه مبذر ملوم ،

قال تعالى :(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ)

وقال تعالى :« يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »فهذا قد عم اللباس والطعام والشراب ، فالبطن يا بني أكبر الأعداء بعد الهوى ، والفرج بعدهما ، عصمنا الله من الشهوات ، وحال بيننا وبين الآفات .

[سورة الأعراف (7) : آية 32]

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)

[« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ »] »قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ »فإن الله أضاف الزينة إليه ، وما أضافها إلى الدنيا ولا إلى الشيطان ، وأكثر من هذا البيان في مثل هذا القرآن فلا يكون ، فعليك بتحرير النية في

ص 138

استخدام زينة الله للتجمل لله ، لأنه لا فرق بين زينة الله وزينة الحياة الدنيا إلا بالقصد والنية ، وإنما عين الزينة هي هي ، ما هي أمر آخر ، فالنية روح الأمور ، وإنما لامرئ ما نوى ، ورد في صحيح مسلم أن رجلا قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، إني أحب أن يكون نعلي حسنا وثوبي حسنا ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلم : إن الله جميل يحب الجمال ،
وقال : إن الله أولى من تجمل له ، هذا المقصود بالتجمل لله ، لا للزينة والفخر بعرض الدنيا ، والزهو والعجب والبطر على غيره ، واجهد نفسك يا ولي أن تتحلى بحلية قوم بكى رسول الله صلّى الله عليه وسلم شوقا إليهم ، لا يؤثر فيك كلام المغرورين من الفقهاء علماء السوء ، الذين لبسوا رقاق الثياب ، وتناولوا لذيذ المطاعم ، فإن قلت لهم في ذلك تلوا عليك
« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ »فقد أخبر النبي صلّى الله عليه وسلم أنهم سيقولون هذا إذا قلت لهم في ذلك ، فمن حديث سعيد بن زيد بن نفيل ،
قال : سمعت النبي صلّى الله عليه وسلم وأقبل على أسامة بن زيد ، فقال : يا أسامة عليك بطريق الجنة ، وإياك أن تختلج دونها ،
فقال : يا رسول الله ، وما شيء أسرع ما يقطع به ذلك الطريق ، قال : الظمأ في الهواجر وكسر النفس عن لذة الدنيا ، يا أسامة وعليك عند ذلك بالصوم ، فإنه يقرب إلى الله عزّ وجل ، إنه ليس من شيء أحب إلى الله عزّ وجل من ريح فم الصائم ، ترك الطعام والشراب لله عزّ وجل ، وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل ، فإنك تدرك شرف المنازل في الآخرة ، وتحمل مع النبيين صلوات الله عليهم أجمعين ، تفرح بقدوم روحك عليهم ، ويصلي عليك الجبار تبارك وتعالى ، وإياك يا أسامة وكل كبد جائع يخاصمك إلى الله عزّ وجل يوم القيامة ، وإياك يا أسامة ودعاء عباد قد أذابوا اللحوم ، وأحرقوا الجلود بالريح والسمائم ، وأظمئوا الأكباد ، حتى غشيت أبصارهم ، فإن الله عزّ وجل قد نظر إليهم وباهى بهم الملائكة عليهم السلام ، بهم تصرف الزلازل والفتن ، ثم بكى النبي صلّى الله عليه وسلم حتى اشتد نحيبه ، وهاب الناس أن يكلموه ، حتى ظنوا أن أمرا قد حدث بهم من السماء ، ثم تكلم فقال : ويح هذه الأمة ، ما يلقى منهم من أطاع الله ربه عزّ وجل فيهم ! !
كيف يقتلونه ويكذبونه من أجل أنه أطاع الله تعالى ؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :
يا رسول الله ، والناس يومئذ على الإسلام ؟ قال : نعم ، قال : ففيم إذن يقتلون من أطاع الله وأمرهم بطاعة الله ؟ فقال : يا عمر ترك الناس الطريق ، وركبوا الدواب ، ولبسوا ليّن

ص 139

الثياب ، وخدمتهم أبناء فارس ، يتزين الرجل منهم تزين المرأة لزوجها ، ويتبرج
النساء ، زيهم زي الملوك الجبابرة ، ودينهم دين كسرى وهرمز ، يتسمون بالجشاء ،
فإذا تكلم أولياء الله عزّ وجل ، عليهم العباءة ، منحنية أصلابهم ، قد ذبحوا أنفسهم من
العطش ، فإذا تكلم منهم متكلم ، كذّب وقيل له :أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة ،
تحرم زينة الله والطيبات من الرزق ، ويتلون كتاب الله عزّ وجل على غير علم ،
استذلوا أولياء الله عزّ وجل ، اعلم يا أسامة ، أن أقرب الناس إلى الله عزّ وجل يوم
القيامة من أطال حزنه وعطشه وجوعه في الدنيا ، الأخفياء الأبرياء الذين إذا شهدوا
لم يقربوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا ، تعرفهم بقاع الأرض يعرفون في أهل السماء
ويخفون على أهل الأرض ، وتحف بهم الملائكة ، تنعم الناس بالشهوات ، وتنعموا هم
بالجوع والعطش ، لبس الناس ليّن الثياب ، ولبسوا هم خشن الثياب ، وافترش الناس
الفراش ، وافترشوا الجباه والركب ، ضحك الناس وبكوا ، يا أسامة لا يجمع الله عزّ
وجل عليهم الشدة في الدنيا والآخرة ،
لهم الجنة ، فيا ليتني قد رأيتهم ، يا أسامة ، لهم الشرف في الآخرة ، ويا ليتني قد
رأيتهم ، الأرض بهم رحبة ، والجبار عنهم راض ، ضيّع الناس فعل النبيين وأخلاقهم
، وحفظوا ، الراغب من رغب إلى الله مثل رغبتهم ، والخاسر من خالفهم ، تبكي
الأرض إذا فقدتهم ، ويسخط الله على كل بلدة ليس فيها مثلهم ، يا أسامة إذا رأيتهم في
قرية فاعلم أنهم أمان لأهل تلك القرية ، لا يعذب الله عزّ وجل قوما هم فيهم ، اتخذهم
لنفسك عسى أن تنجو بهم ، وإياك أن تدع ما هم عليه ، فتزل قدمك ، فتهوي في النار
، طلبوا الفضل في الآخرة ، تركوا الطعام والشراب على قدرة ، لم يتكالبوا على الدنيا
تكالب الكلاب على الجيفة ، شغل الناس بالدنيا وشغلوا أنفسهم بطاعة الله عزّ وجل ،
لبسوا الخلق ، وأكلوا الفلق ، تراهم شعثا غبرا ، يظن الناس أن بهم داء وما ذاك بهم ،
ويظن الناس أنهم خولطوا وما خولطوا ، ولكن خالط القوم حزن ، وتظن أنهم ذهبت
عقولهم وما ذهبت عقولهم ، ولكن نظروا بقلوبهم إلى أمر ذهب بعقولهم عن الدنيا ،
فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول ، يا أسامة عقلوا حين ذهبت عقول الناس ، لهم
الشرف في الآخرة - انته الحديث - فانظر يا ولي وصف حبيب الله ورسوله لأولياء
الله ، وكيف نعتهم ، فإن قلت إن زينة الله هي الحلال التي ما فيها حرام ، فما حكم
المتنعم في الدنيا المباح له التنعم في الحلال ؟
قلنا : لا نمنع ذلك في حق غير العارف ، ولكن العارف تحت سلطان

ص 140

التكليف ، فما من نعمة ينعم الله بها عليه باطنة كانت أو ظاهرة ، إلا والتكليف من الله بالشكر عليها يصحبها ، فذلك التكليف ينغص على العارف التنعم بتلك النعمة ، لاشتغاله بموازنة الشكر عليها ، وإذا وفي الشكر عليها ، فالوفاء به نعمة من الله عليه يجب عليه الشكر عليها ، فلا يزال متعوب الخاطر في إقامة الوزن بالقسط ، أن لا يخسر الميزان ، ومن هذه حالته كيف ينعم ؟

فظاهرها نعمة وباطنها غصص ، وهو لا يبرح يتقلب في نعم الله ظاهرا وباطنا ، ولا تؤثر عنده إلا ألما وتنغيصا ، والعامة تفرح بتلك النعم وتتصرف فيها أشرا وبطرا ، والعارف مسدود عليه في الدنيا باب الراحة في قلبه ، وإن استراح في ظاهره ، فهو يموت في كل نفس ألف موتة ولا يشعر به ،

يقول عمر بن الخطاب : ما ابتلاني الله بمصيبة إلا رأيت لله عليّ فيها ثلاث نعم ، إحداها أن لم تكن في ديني ، الثانية حيث لم تكن أكبر منها ،

الثالثة ما وعد الله عليها من الثواب ، ومن كان في مصيبة واحدة يرى ثلاث نعم ، فقد انتقل إلى مصيبة أعظم من تلك المصيبة ، فإنه يتعين عليه إقامة ميزان الشكر على ثلاث نعم ، فابتلاه الله بمصيبة واحدة ليصبر عليها ، وابتلته معرفته في تلك المصيبة بثلاث مصائب كلفه الله الشكر عليها ، حيث أعلمه بتلك النعم في تلك المصيبة الواحدة ، فانظر إلى معرفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كيف أوجب على نفسه مثل هذا ، وانظر إلى ما فيها من الأدب ، حيث عدل عن النظر من كونها مصيبة إلى رؤية النعم ، فتلقاها بالقبول ، لأن النعمة محبوبة لذاتها ، فرضي فكان له مقام الرضا والاستسلام والتفويض والصبر والاعتماد على الله ، وأين الناس من هذا الذوق الشريف« قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ »

[تحقيق : زينة الله]

الطيب من الرزق ليس في أكله تنغيص بل لذة ونعيم في الدنيا والآخرة ، ولذلك قال تعالى :« خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ »فلو كان مناقشة حساب لم تكن خالصة ، ولا وقعت للمؤمن بها لذة ، قال تعالى :(يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً) فاعلم أن ذلك في مجرد الأكل الحلال ، والحساب إنما يقع والسؤال في كسبه والوصول إليه ، لا في أكله إذا كان حلالا ، فإنه يغمض هذا المعنى على أكثر الناس - تحقيق - زينة الله أسماؤه ، فمن تخلق بأسماء الله وصفاته على الحد المشروع ، فقد تحلى بزينة الله التي أخرج لعباده في كتابه وعلى ألسنة رسله ، جاء في الحديث [ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به] فمن كان الحق سمعه وبصره وجمع قواه

ص 141

سمعها وبصرها ، وهذه القوى قد أخبر الحق أنه لما أحبك كان سمعك وبصرك ، فهو قواك ، فبه سلكت في طاعته التي أمرك أن تعمل نفسك فيها ، وتحلي ذاتك بها ، وهي زينة الله ، وهو سبحانه الجميل والزينة جمال ، فهو جمال هذا السالك ، فزينته ربه ، فبه يسمع ، وبه يبصر ، وبه يسلك ، ولا مانع من ذلك ، ولهذا قال :« مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ »لما أحبهم حين تقربوا إليه بنوافل الخيرات ، زينهم به ، فكان قواهم التي سلكوا بها ما كلفهم من الأعمال .

[سورة الأعراف (7) : آية 33]

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33)

قوله تعالى :« وَالْإِثْمَ »قد يكون هنا الإثم اسم الخمر ، فإن العرب تسمي الخمر الإثم ، قال الشاعر :شربت الإثم حتى ضل عقلي * كذلك الإثم يذهب بالعقولوثبت بهذه الآية أن الفاحشة هي فاحشة لعينها ، ولهذا حرمها الله ، فقيل لمحمد عليه السلام :« قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ »أي ما علم وما لم يعلم إلا بالتوقيف ، لغموض إدراك الفحش ، فكل محرم حرمه الله على عباده فهو فحش ، وما هو عين ما أحله في زمان آخر ولا في شرع آخر ، فهذا هو الذي بطن علمه ،

قال النبي صلّى الله عليه وسلم :

[إن سعدا لغيور ، وأنا أغير من سعد ، والله أغير مني ، ومن غيرته حرم الفواحش]

فجعل الفواحش حراما محرما ، كما حرم مكة وغيرها ، فتخيل من لا علم له أن ذلك إهانة ، وهو تعظيم ، إذ هو من شعائر الله وحرماته ،

والله يقول :(مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

فالتحريم دليل على التعظيم ، فما أمرك الله إلا بما هو خير لك وهو عند الله عظيم ، وما نهاك إلا عما هو تركه خير لك لعظيم حرمته عنده ، فمن غيرته حرم الفواحش ليفتضح المحبون في دعواهم محبته ، فغار أن يدعي الكاذب دعوى الصادق ، ولا يكون ثم ميزان يفصل بين الدعوتين ، فحرم الفواحش ، فمن ادعى محبته وقف عند حدوده ، فتبين الصادق من

ص 142

الكاذب ، وليس الفحش إلا ما ظهر ، وأما فحش ما بطن فهو لمن ظهر له . واعلم أن أعظم فاحشة باطنة هو اعتقاد العبد الربوبية لنفسه ، ولما حرّم الله ذلك ، ختم على كل قلب أن تدخله ربوبية الحق فتكون نعتا له ، فما من أحد يجد في قلبه أنه رب إله ، بل يعلم كل أحد من نفسه أنه فقير محتاج ذليل ، فجعل البواطن كلها في كل فرد فرد مختوما عليه أن لا يدخلها تأله ، ولم يعصم الألسنة أن تتلفظ بالدعوى بالألوهية ، ولا عصم النفوس أن تعتقد الألوهية في غيرها ، بل هي معصومة أن تعتقدها في نفسها لا في أمثالها ، لأنه ما كل أحد عالم بالأمور على ما هي عليه ، ولا يعلم كل أحد أن الأمثال حكمها في الماهية واحد .

[سورة الأعراف (7) : آية 34]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (34)

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ »وهو الموت الاضطراري في العموم والعرف« لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ »على تلك الساعة فهي الآجال في الأشياء.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 35 إلى 37]

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (36) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ(37)

ص 143

[سورة الأعراف (7) : الآيات 38 إلى 39]
قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ (38) وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39)
« وَقالَتْ أُولاهُمْ »وهم رؤساؤهم الذين أضلوهم وجعلوهم يشركون باللّه ، وهو قوله تعالى :(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا)
أي من الذين اتبعوهم وهو قوله :« لِأُخْراهُمْ » « فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ »حتى تنظروا وتبحثوا عن وجه الحق بل كنتم مجرمين« فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ »فما حكم فيهم إلا بهم فأعمالهم عذبتهم ، وما حكم فيهم غيرهم .

[سورة الأعراف (7) : آية 40]
إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40)
هذه أرجى آية في كتاب الله في حق أهل الشقاء ، في إسبال النعيم عليهم وشمول الرحمة ، وهذا جزاء المجرمين على التعيين ، فليس في القدرة عجز ، فإن دخول الجمل في سم الخياط ليس من قبيل المحال ، لأن الصغر والكبر العارضين في الشخص لا يبطلان حقيقته ، ولا يخرجانه عنها ، والقدرة صالحة أن تخلق جملا يكون من الصغر بحيث لا يضيق عنه سم الخياط ، فكان في ذلك رجاء لهم أن يدخلوا جنة النعيم .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 41 إلى 42]
لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (42)
[- إشارة - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها]
-إشارة - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، تقسمت العوالم فتقسمت التكاليف وطمست المعالم فجهلت التصاريف ، فعالم كلفتهم في أداء العبادة ، وعالم كلفتهم في حيرتهم

ص 144

في موافقة الأمر والإرادة ، وعالم كلفتهم في توجيه الخطاب الإلهي ، على هذا العالم الكياني ، مع رد الأفعال إليه ، واستحالة التكليف إليه ، فتاهت الألباب في هذا الباب ، واستوى فيه البصير والأعمى ، وزادهم في ذلك حيرة وعمى ،
قوله تعالى :(وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى) لكن ثم رقيقة ، وهي لعمر التصوف دقيقة ، أنه ما وجد شيء إلا وفيه منه حقيقة ، اسمع يا مربوب ربّ القدم ، امتنع المحدث أن تقوم به حقائق القدم ، وامتنع القديم أن تقوم به حقائق الحدوث لئلا يتقدم على وجوده العدم ، لكن تبلى جميع الصفات ، وإلا فمن أين ظهرت المتضادات والمتماثلات والمختلفات ، وليس القدم بصفة إثبات عين ، ولا الحدوث بوصف إثبات كون ، لكن لما تعذرت الأسباب في الوجودين ، ولم يكن للمعلوم الواحد تحصيل المعرفتين ، وأراد تمام الوجود ليعلم من الطريقين ، فظهر في الإيجاد تكليف محقق ، وعناء لا يتحقق ، فظهرت بينهما ، برازخ التكليف ، في مشهد التخيير والتوقيف ، ولهذا جاء الخبر بالعماء ، ما فوقه هواء وما تحته هواء ،
فقال :(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)
قال ابن عباس : (ليعرفون) فلو عرف نفسه بمعرفتهم دونهم ، ما أوجد عيونهم ، فصح التكليف في القدم ، والخلق في حال العدم ، ومن هذه الحقيقة تكليف العباد ، وإن لم يكن لهم مدخل في الإيجاد ، عصمنا الله وإياكم من العناد ، وأمننا وإياكم من الفزع يوم التناد ، بكرمه .

[سورة الأعراف (7) : آية 43]

وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

« وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ »فإن أهل الدنيا كانوا أهل بغي وحسد وتدابر وتقاطع وغل وشحناء ، فأبدلهم الله بأهل الآخرة التي ينقلب المؤمنون إليها بمن وصفهم الله تعالى ،" وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ "
إخوانا على سرر متقابلين ، فإن الجنة ليست بمحل تعن ولا تعد .
" وتودوا أن تكلم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون " اعلم أيدنا الله وإياك أن الجنة جنتان جنة محسوسة ، وجنة معنوية ، والعقل يعقلهما معا ، فالنفس الناطقة المخاطبة المكلفة

ص 145

لها نعيم بما تحمله من العلوم والمعارف ، من طريق نظرها وفكرها وما وصلت إليه من ذلك بالأدلة العقلية ، ونعيم بما تحمله من اللذات والشهوات مما يناله بالنفس الحيوانية من طريق قواها الحسية ، من أكل وشرب ونكاح ولباس وروائح ونغمات طيبة تتعلق بها الأسماع ، وجمال حسي في صورة حسنة معشوقة يعطيها البصر ، في نساء كاعبات ووجوه حسان وألوان متنوعة وأشجار وأنهار ، كل ذلك تنقله الحواس إلى النفس الناطقة ، فتلتذ به من جهة طبيعتها ، وهذه الجنات ثلاث جنان : جنة اختصاص إلهي وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حد العمل ، وحدهم من أول ما يولد إلى أن يستهل صارخا إلى انقضاء ست أعوام ، ويعطي الله من شاء من عباده من جنات الاختصاص ما شاء ، ومن أهلها المجانين الذين ما عقلوا ، ومن أهلها أهل التوحيد العملي ، ومن أهلها أهل الفترات ومن لم تصل إليهم دعوة رسول ، والجنة الثانية جنة ميراث ، ينالها كل من دخل الجنة ممن ذكرنا ومن المؤمنين ، وهي الأماكن التي كانت معينة لأهل النار لو دخلوها ، والجنة الثالثة جنة الأعمال ، وهي التي ينزل الناس فيها بأعمالهم ، فمن كان أفضل من غيره في وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر ، وسواء كان الفاضل دون المفضول أو لم يكن ، غير أنه فضله في هذا المقام بهذه الحالة ، فما من عمل من الأعمال إلا وله جنة ، ويقع التفاضل فيها بين أصحابها بحسب ما يقتضي أحوالهم ،

ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال لبلال : [يا بلال بم سبقتني إلى الجنة ، فما وطئت منها موضعا إلا سمعت خشخشتك أمامي ؟

فقال : يا رسول الله ما أحدثت قط إلا توضأت ، ولا توضأت إلا صليت ركعتين ،

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : بهما]

فعلمنا أنها كانت جنة مخصوصة بهذا العمل ،

فكأن رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول لبلال : بم نلت أن تكون مطرّقا بين يدي تحجبني ؟

من أين لك هذه المسابقة إلى هذه المرتبة ؟

فلما ذكر له ذلك ، قال صلّى الله عليه وسلم : بهما ، فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير ولا ترك محرم ومكروه إلا وله جنة مخصوصة ونعيم خاص يناله من دخلها ، والتفاضل على مراتب ، فمنها بالسن ولكن في الطاعة والإسلام ، فيفضل الكبير السن على الصغير السن إذا كانا على مرتبة واحدة من العمل بالسن فإنه أقدم منه فيه ، ويفضل أيضا بالزمان فإن العمل في رمضان وفي يوم الجمعة وفي ليلة القدر وفي عشر ذي الحجة وفي عاشوراء أعظم من سائر الأزمان ، وكل زمان عيّنه الشارع ، وتقع المفاضلة بالمكان ، كالمصلي في المسجد الحرام أفضل من صلاة

ص 146

المصلي في مسجد المدينة ، وكذلك الصلاة في مسجد المدينة أفضل من الصلاة في المسجد الأقصى ، وهكذا فضل الصلاة في المسجد الأقصى على سائر المساجد ، ويتفاضلون أيضا بالأحوال ، فإن الصلاة في الجماعة في الفريضة أفضل من صلاة الشخص وحده ، وأشباه هذا ، ويتفاضلون بالأعمال ، فإن الصلاة أفضل من إماطة الأذى ، وقد فضل الله الأعمال بعضها على بعض ، ويتفاضلون أيضا في نفس العمل الواحد ، كالمتصدق على رحمه ، فيكون صاحب صلة رحم وصدقة ، والمتصدق على غير رحمه دونه في الأجر ، وكذلك من أهدى هدية لشريف من أهل البيت أفضل ممن أهدى لغير شريف أو بره أو أحسن إليه ، ووجوه المفاضلة كثيرة في الشرع ، والرسل عليهم السلام إنما ظهر فضلها في الجنة على غيرها بجنة الاختصاص ، وأما بالعمل فهم في جنات الأعمال بحسب الأحوال كما ذكرنا ، وكل من فضل غيره ممن ليس في مقامه فمن جنات الاختصاص لا من جنات الأعمال ، ومن الناس من يجمع في الزمن الواحد أعمالا كثيرة ، فيصرف سمعه فيما ينبغي في زمان تصريفه بصره ، في زمان تصريفه يده ، في زمان صومه ، في زمان صدقته ، في زمان صلاته ، في زمان ذكره ، في زمان نيّته من فعل وترك ، فيؤجر في الزمن الواحد من وجوه كثيرة ، فيفضل غيره ممن ليس له ذلك ، ولذلك لما ذكر رسول الله صلّى الله عليه وسلم الثمانية الأبواب من الجنة أن يدخل من أيها شاء ، قال أبو بكر : يا رسول الله وما على الإنسان أن يدخل من الأبواب كلها ؟

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : أرجو أن تكون منهم يا أبا بكر . فأراد أبو بكر بذلك القول ما ذكرنا ، أن يكون الإنسان في زمان واحد في أعمال كثيرة تعم أبواب الجنة ، واعلم أن جنة الأعمال مائة درجة لا غير ، كما أن النار مائة درك ، غير أن كل درجة تنقسم إلى منازل .

-إشارة - من تسلل لواذا ، واعتصم عياذا ، واتخذ لا مقام ملاذا ، وصير الأصنام جذاذا ، وأمطر وابلا ورذاذا ، وجب أن يقول :« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا »- شرح هذه الإشارة - قوله : « من تسلل لواذا » أي من انتزع عن نفسه انتزاعا خفيا لا يشعر به في العامة ولا في الخاصة ، ولاذ بالله تعالى ، كالمتصدق بيمينه لا تعرف بها شماله ، قوله :

»واعتصم عياذا » أي اتخذ الله من حيث جمعية هذا الاسم أمرا يتعوذ به ، كما قال : « وأعوذ بك منك » لأنه لم ير في مقابلة الحق إلا الحق « واتخذ لا مقام ملاذا » أراد ميراثا محمديا « 1 » ،

---

(1)راجع معنى « لا مقام » في كتابنا شرح كلمات الصوفية ص 160 عند شرح كلمة أبي يزيد البسطامي « لا صباح لي ولا مساء. «

»وصير الأصنام جذاذا » أي كل من قال له : أنا الله ، قال له : أنت بالله ، قوله : « وأمطر وابلا ورذاذا » يريد أصناف العلوم ، يلقيها على قلوب المتعلمين على قدر قواهم ، فالرذاذ منه هو الرش ، وهو الخفيف من المطر ،
والوابل هو كل علم يرد على قلب مريض ذي علة فيبريه من تلك العلة ، فكأنه علم مختص بإزالة الشبهات ،
يقال : بل المريض وأبلّ واستبلّ ، إذا صح من مرضه .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 44 إلى 46]
وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (45) وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46)
الأعراف سور بين الجنة والنار ، باطنه فيه الرحمة وهو ما يلي الجنة منه ، وظاهره من قبله العذاب وهو ما يلي النار منه ، فجعل النار من قبله أي يقابله ، والمقابل ضد ، فلم يجعل السور محلا للعذاب ،
وجعله محلا للرحمة بقوله باطنه فيه الرحمة ، فأهل الأعراف في محل رحمة الله ، وذلك هو الذي أطمعهم في الجنة وإن كانوا بعد ما دخلوها ، والأعراف يكون عليه رجال تساوت كفتا ميزانهم ، فهم ينظرون إلى النار وينظرون إلى الجنة ، وما لهم رجحان بما يدخلهم أحد الدارين ،
لأنه لم ترجح في الوزن كفة حسناتهم على كفة سيئاتهم ، فلم تثقل موازينهم ولا خفت ، فإنه ما وضع الله لأحد منهم في ميزانه تلفظه بلا إله إلا الله ، فإنه ما ثمّ سيئة تعادلها إلا الشرك ، ولما لم يجتمع الشرك والتوحيد في قلب شخص واحد ،
كذلك لا يدخل في الميزان إلا لصاحب السجلات ، ويرى أصحاب الأعراف أن موطن

ص 148

القيامة قد سجد فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلم عندما طلب من ربه فتح باب الشفاعة تعظيما لله وهيبة وإجلالا ، فعلموا أنه موطن سجود ، فلما دعوا إلى السجود هناك وهو الذي يبقى يوم القيامة من التكليف سجد أصحاب الأعراف امتثالا لأمر الله ، فرجحت كفة حسناتهم بهذه السجدة وثقلت ، فسعدوا ، لأنها سجدة تكليف مشروعة في ذلك الموطن عن أمر الله ، فيدخلون الجنة ، وكانوا ينظرون إلى النار بما لهم من السيئات وينظرون إلى الجنة بما لهم من الحسنات ، ولذلك أشار الحق تعالى بأن ختم سورة الأعراف بسجدة للتالي عند ذكر سجود الملأ الأعلى ، وهي سجدة اقتداء بهدي الملائكة« يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ »فذكر الحق عن أصحاب الأعراف أن لهم المعرفة بمقام الخلق ، فقال :« يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ »أي بما جعلنا فيهم من العلامة ، فإن الآخرة دار تمييز ، فأهل الجنة مميزون وأهل النار مميزون ، فبالسمات يفرق بين الأشخاص يوم التنادي ، ولات حين مناص« وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ »فإنهم في مقام الكشف للأشياء ، فلو دخلوا الجنة استتر عنهم بدخولهم فيها وسترتهم ، لأنها جنّة ، عن كشف ما هم له كاشفون« أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ »
تحية إقبال عليهم لمعرفتهم بهم ، وتحية لانصرافهم عنهم إلى جناتهم« لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ »
فإنهم يرون رحمة الله ، فيطمعون ، وسبب طمعهم أيضا أنهم من أهل لا إله إلا الله ، ولا يرونها في ميزانهم ، ويعلمون أن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ولو جاءت ذرة لإحدى الكفتين لرجحت بها ، لأنهما في غاية الاعتدال ، فيطعمون في كرم الله وعدله ، وأنه لا بد أن يكون لكلمة لا إله إلا الله عناية بصاحبها ، يظهر لها أثر عليهم كما نادوا أيضا .

[سورة الأعراف (7) : آية 47]
وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47)
والظلم هنا الشرك لا غير .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 48 إلى 51]
وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49)وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ(51)

ص 149

ذم الله قوما اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، وهم في هذا الزمان أصحاب السماع ، أهل الدف والمزمار ، نعوذ بالله من الخذلان .
[ما الدين بالدف والمزمار واللعب]
ما الدين بالدف والمزمار واللعب * لكنما الدين بالقرآن والأدب

[سورة الأعراف (7) : آية 52]
وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)
ليس من نعوت الكمال أن يكون في علم الله إجمال ، والإجمال في المعاني محال ، ومحل الإجمال الألفاظ والأقوال ، فإذا جعل قول عبده قوله اتصف عند ذلك بالإجمال ، وكان من نعوت الكمال ، فالعلوم في اللوح مفصلة ، وقد كانت في العلم مجملة ، وما فصلها القلم ولا كان ممن علم ، وإنما اليمين حركته لتفصيل المجمل ، وفتح الباب المقفل ، فكمال العارف ، علمه بتفصيل المعارف .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 53 إلى 54]
هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (53) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ(54)

ص 150

قال بعض المفسرين إن السماوات والأرض وما بينهما خلقهما الله في ستة أيام مقدرة لا موجودة ، على تقدير لو كانت ثمّ أيام كان هذا المقدار ، وهذا خطأ ، فإن السماوات والأرض وما بينهما إنما خلقهم الله في هذه الستة الأيام الموجودة المعلومة عندنا ، وإنها كانت موجودة قبل خلق السماء والأرض ، فإن السماوات السبع والأرضين ليست الأيام لها ، وإنما لفلك النجوم الثوابت ، وقد كان قبل السماوات دائرا ، فاليوم دورته ، غير أن النهار والليل أمر آخر معلوم في اليوم ، لا نفس اليوم ، فحدث النهار والليل بحدوث السماوات والأرض لا الأيام ، والله ما قال في ستة أنهار ولا في ست ليال ، وإنما ذكر الأيام ، ووقع ابتداء الخلق في يوم الأحد ، وانته الخلق في يوم الجمعة ،

وقال في يوم السبت وقد وضع إحدى الرجلين على الأخرى : أنا الملك« ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ »راجع البقرة آية رقم (29) وطه آية رقم (5)

واعلم أن الله أوجد العرش إظهارا لقدرته ، لا محلا لذاته ، وأوجد الوجود لا حاجة إليه ، إنما هو إظهار لأسمائه وصفاته ، فهو تعالى مقدس في وجوده عن ملامسة ما أوجده ، ومجانبته ومواصلته ومفاصلته ، لأنه كان ولا كون ، وهو الآن كما كان لا يتصل بكون ، ولا ينفصل عن كون ، لأن الوصل والفصل من صفات الحدوث لا من صفات القدم ، لأن الاتصال والانفصال يلزم منه الانتقال والارتحال ، ويلزم من الانتقال والارتحال التحول والزوال والتغيير والاستبدال ،

هذا كله من صفات النقص لا من صفات الكمال ، فسبحانه سبحانه ، وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ،

ولكن اقتضت مرتبة من لا يقبل المكان أن يخلق سماء جعله عرشا ، ثم ذكر أنه استوى عليه حتى يقصد بالدعاء وطلب الحوائج ، فلا يبقى العبد حائرا لا يدري أين يتوجه ، لأن العبد خلقه الله ذا جهة« يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ »

أي يغطيه وهو النكاح والإيلاج ، لظهور أعيان المولدات وما يحدث الله في الليل والنهار من المخلوقات عن هذا الإيلاج والغشيان ، لإيجاد ما سبق في علمه أن يظهر فيه ، من الأحكام والأعيان في العالم العنصري ،

فنحن أولاد الليل والنهار ، فما حدث في النهار ، فالنهار أمه والليل أبوه ، لأن لهما عليه ولادة ، وما ولد في الليل فالليل أمه والنهار أبوه ، فإن لهما عليه ولادة ، فلا يزال الحال في الدنيا ما دام الليل والنهار يغشي أحدهما الآخر ،

فنحن أبناء أم وأب لمن ولد معنا في يومنا أو في ليلتنا خاصة ، وما ولد في الليلة الثانية والنهار الثاني فأمثالنا ، ما هم إخواننا ، لأن الليل والنهار جديدان »يَطْلُبُهُ

ص 151

حَثِيثاً «هذا الطلب منهما لإبراز أعيان الحوادث« وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ »فكانت منافع الحيوانات بها وعن أحكامها بما أودع الله فيها . واعلم أن الفلك عندنا متحرك تحرك الإنسان في الجهات ، لأنه يعقل ويكلّف ويؤمر ، كما قال عليه السلام في ناقته إنها مأمورة ، وقال عليه السلام في الشمس إنها تستأذن في الطلوع ، فالفلك متحرك بالإرادة ليعطي ما في سمائه من الأمر الإلهيّ الذي يحدث الأشياء في الأركان والمولدات بما أودع الله فيها من العقل والروح والعلم ، فتعطي أشخاص كل نوع من المولدات على التعيين من معدن ونبات وحيوان وجن وملك مخلوق من عمل أو نفس بقول من تسبيح وذكر أو تلاوة ، وذلك لعلمها بما أودع الله لديها ، وهو قوله تعالى :(وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها)فمن لا كشف له يرى أن ذلك كله الكائن من سريانها أنها مسخرات في حركاتها لإيجاد هذه الأمور ، كتحريك الصانع للآلات لإيجاد صورة ما يريد إيجادها ، كالصورة في الخشب وغيره ، ولا تعرف الآلات شيئا من ذلك ولا ما صدر عنها ، وعندنا كل جزء من الكون عالم بما يراد منه ، فهو على بصيرة ، حتى أجزاء بدن الإنسان ، فما يجهل منه إلا لطيفته المكلفة الموكلة إلى استعمال فكرها ، أو تنظر بنور الإيمان حتى يظهر ذلك النور على بصرها ، فيكشف ما كان خبرا عندها ، فما من متحرك في العالم إلا وهو عالم بما إليه يتحرك إلا الثقلين ، فقد يجهلون ما يتحركون إليه ، بل يجهلون« وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ »بما في حركة كل كوكب ، وما له من اقترانات مع الكواكب بما يحدث عنها من الأمور المختلفة ، بحسب الأقاليم وأمزجة القوابل ومساقط نطفه في أشخاص الحيوان ، فيكون القران واحدا ويكون أثره في العالم العنصري مختلفا بحسب الأقاليم وما يعطيه طبيعته ، فهي حوادث أمّن الله عليها هذه الكواكب المسخرة

[« أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ »]

« أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ »

الخلق خلقان :

خلق تقدير ، وهو الذي يتقدم الأمر الإلهي ، كما قدمه الحق ، وأخّر عنه الأمر ، فقال تعالى :« أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ »

والخلق الآخر بمعنى الإيجاد ، وهو الذي يساوق الأمر الإلهي ، وإن تقدمه الأمر الإلهي بالرتبة ، فالأمر الإلهي بالتكوين بين خلقين ، خلق تقدير وخلق إيجاد ، فمتعلق الأمر خلق الإيجاد ، ومتعلق خلق التقدير تعيين الوقت لإظهار عين الممكن ، فيتوقف الأمر عليه ،

فالأمر الإلهي يساوق الخلق الإيجادي في الوجود ، فعين قول كن ، عين قبول الكائن للتكوين فيكون ، فالفاء في قوله فيكون جواب أمره كن ، وهي فاء التعقيب ، وليس الجواب

ص 152

والتعقيب إلا في الرتبة ، وما من ممكن من عالم الخلق إلا وله وجهان : وجه إلى سببه ، ووجه إلى الله تعالى ، فكل حجاب وظلمة تطرأ عليه فمن سببه ، وكل نور وكشف فمن جانب حقه ، وكل ممكن من الأمر فلا يتصور فيه حجاب ، لأنه ليس له إلا وجه واحد ، فهو النور المحض ، فعالم الخلق طبيعي ، وعالم الأمر أنوار ، والوجه الخاص الإلهي الخارج عن الخلق هو الأمر الإلهي ، فما كان من الوجه الخاص الذي لله تعالى في كل موجود يلقي إليه منه ما يشاء ، مما لا يكون لغيره من الوجوه ، فذلك الأمر ، وما كان من غير ذلك الوجه فهو الخلق ، فإن الله سبحانه يعطي بسبب وهو الذي كتبه القلم من علم الله في خلقه ، ويعطي بغير سبب ، وهو ما يعطيه من الوجه الخاص ، فلا تعرف به الأسباب ولا الخلق ، فعالم الأمر هو الوجه الخاص الذي في عالم الخلق - وجه آخر - كل موجود عند سبب حادث مخلوق مما سوى الله هو عالم الخلق ، فالغيب فيه مستور ، وكل ما لم يوجد عند سبب حادث مخلوق فهو عالم الأمر ، والكل على الحقيقة عالم الأمر ، إلا أنا لا يمكننا رفع الأسباب من العالم ، فإن الله قد وضعها ولا سبيل إلى رفع ما وضعه الله ، فقوله تعالى :« أَلا لَهُ الْخَلْقُ »هو كل ما يوجده عند سبب ، أو بسبب ، كيف شئت قل ، من غير مشافهة الأمر التي هي الكلمة ، وقوله« وَالْأَمْرُ »ما لا يوجده بسبب ، أي كل من صدر عن الله بلا واسطة إلا بمشافهة الأمر العزيز مثل الروح ، فالله قادر من حيث الأمر ، مقتدر من حيث الخلق ، وعالم الخلق وعالم الأمر ، خص بالاسم الرب دون غيره من قوله تعالى :« تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ »إشارة إلى أنه سيد العالم وخالقه ومربيه . واعلم أن الأمور التي يكرهها الإنسان طبعا وشرعا هي أمور مخصوصة بعالم الخلق والتركيب الطبيعي لا بعالم الأمر ، فكان عالم الخلق والتركيب يقتضي الشر لذاته لتركيبه من طبائع متنافرة ، والتنافر هو عين التنازع ، والنزاع أمر مؤد إلى الفساد ، وعالم الأمر هو الخير الذي لا شر فيه ، فما ظهر من عالم التركيب من الشرور فمن طبيعته ، وما ظهر منه من خير فمن روحه الإلهي ، فالشرور كلها مضافة إلى عالم الخلق ، والخير كله مضاف إلى عالم الأمر ، ولما كان عالم الخلق الموجود من الطبيعة موجودا فيه الفساد والتغيير ، ولولا هذا النور الذي من عالم الأمر هلك عالم الخلق جملة واحدة ، أمر الله سبحانه أن يلجأ إليه بالدعاء في دفع هذه المكاره ، فيؤيد الله الروح بما يعطيه من النور من الاسم الرب ليدفع به ما تقع به المضرة من جانب ظلمة الطبع

- إشارة - قال

ص 153

تعالى :(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)
فجعل العبادة المقصود منه بخلقهم
وقال تعالى :(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)
هذا أمر بالعبادة ، فإن كان العبد مطيعا طائعا فقد فاز بوقوع ما قصد له في الخلق والأمر ، فإن لله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، وأما العاصي فهو مخالف لأمر الله ، فلم يقم بما قصد له من الخلق والأمر .

[سورة الأعراف (7) : آية 55]
ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55)
تضرعا ذلة وفقرا وانكسارا .

[سورة الأعراف (7) : آية 56]
وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56)
اعلم أن المؤمن من استوى خوفه ورجاؤه ، فهو يدعو ربه خوفا من زوال النعمة ، وطمعا في بقائها ، فلا يزال بين شكر وفقر ، فإنه بين نعمة وبلاء ، وشدة ورخاء .

[سورة الأعراف (7) : آية 57]
وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57)
[- من باب الإشارة لا التفسير - « هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً "]
-من باب الإشارة لا التفسير –" هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً "وهو بشائر التوفيق«
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ »وهي العناية بعبده« حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا »
وهو ترادف التوفيق« سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ »وهو العبد المعتنى به« فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها »وهو ما يظهر عليه من أنوار القبول والعمل الصالح والتعشق به ،
ثم مثّل فقال :« كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »
يشير بذلك إلى خبر ورد من النبي صلّى الله عليه وسلم في البعث ، أعني حشر الأجسام ، من أن الله يجعل السماء تمطر مثل منّي الرجال - الحديث. -

ص 154

[سورة الأعراف (7) : آية 58]
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)
« وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ »وليس سوى الموافقة والسمع والطاعة ، لطهارة المحل« وَالَّذِي خَبُثَ »وهو الذي غلبت عليه نفسه والطبع ، وهو معتنى به في نفس الأمر« لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً »مثل قوله : إن للّه عبادا يقادون إلى الجنة بالسلاسل ، وقوله تعالى :وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً »فالبلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه ، هو النفس التي تسارع إلى إجابة الداعي ، وهي من النفوس الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ، وأما الذي خبث فلا يخرج إلا نكدا ، فهي النفس التي تجيب مضطرة مثل من قال فيه تعالى :(وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ).

[سورة الأعراف (7) : الآيات 59 إلى 62]
لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (60) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (62)
الرسالة موهوبة غير مكسوبة ، وطالبة غير مطلوبة ، وليس لها بدايات ، فتوجد عند الغايات .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 63 إلى 64]
أَ وَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63)فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ(64)

ص 155

[- إشارة - الرجل من جعل نفسه سفينة نوح]
-**إشارة -** الرجل من جعل نفسه سفينة نوح .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 65 إلى 72]
وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (65)
قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (66)
قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (67)
أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (68) أَ وَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69)
قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70)
قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71)
فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ (72)
وها قد حلت بكم المثلات ، وما توعدناكم به عند مخالفتكم آت .

[سورة الأعراف (7) : آية 73]
وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ(73)

ص 156

فلا تتعرضوا بالمخالفة لسطوتنا ، ولا تستبطئوا عند اعتدائكم نقمتنا .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 74 إلى 87]

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (78)

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ(79)

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (80)

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81)

وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82)

فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (83)

وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84)

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85)

وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ(87)

ص 157

"وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ »فإن له الحكم الأعم ، يحكم على كل حكم وعلى كل حاكم بكل حكم .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 88 إلى 89]
قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَ وَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (89)
" وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ " لمغاليق غيوبه .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 90 إلى 96]
وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90)
فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (93)
وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94)
ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (95)
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ(96)

ص 158

- **فائدة** - لما كان الرسول من الجنس ، ومن عادة الجنس الحسد إذا ظهر التفوق ، وقد ارتفع عن المتشرعين المنكسرة قلوبهم الحسد ، وهم ناظرون إلى الرسول دائما بعين حق مع شهود بشريته ، فتح الله لهم البركات من السماء والأرض.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 97 إلى 99]
أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ (97) أَ وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (99)

[الطريق إلى العصمة من المكر الإلهي]
من أراد الطريق إلى العصمة من المكر الإلهي فليلزم عبوديته في كل حال ولوازمها ، فتلك علامة على عصمته من مكر الله ،
وذلك بأن لا يضع ميزان الشرع من يده وشهود حاله ، وهذه حالة المعصوم ، ويبقى كونه لا يأمنه في المستقبل بمعنى أنه ما هو على أمن أن تبقى له هذه الحالة في المستقبل إلا بالتعريف الإلهي الذي لا يدخله تأويل ،
ولا يحكم عليه إجمال« فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ »فلا يأمن أحد مكر الله حتى الخاصة وخاصة الخاصة ،
فينبغي للعاقل أن لا يأمن مكر الله في إنعامه ، فإن المكر فيه أخفى منه

ص 159

في البلاء ، وأدنى المكر فيه أن يرى نفسه مستحقا لتلك النعمة ، وأنها من أجله خلقت ، فإن الله ليس بمحتاج إليها ، فهي له بحكم الاستحقاق ، ويغيب عن أن الأشياء إنما خلقت له تعالى ، لتسبح بحمده ، وكان انتفاعنا بها بحكم التبعية لا بالقصد الأول ، فمكر العموم الإلهي هو إرداف النعم على إثر المخالفات ، وزوالها عند الموافقات ، وقد يكون المكر الإلهي في حق بعض الناس من الممكور بهم يعطي الشقاء وهو في العامة ، وقد يكون يعطي نقصان الحظ وهو المكر بالخاصة وخاصة الخاصة ، فالمؤمن ما هو في أمان إلا في دار الحيوان ، وأما في هذه الدار فهو في محل الاختبار ، فإما إلى دار القرار وإما إلى دار البوار ، مما روينا أن جبريل وميكائيل عليهما السلام بكيا ، فأوحى الله إليهما ما شأنكما تبكيان ؟ فقالا : لا نأمن مكرك ، قال : كذلك فكونا لا تأمنا مكري .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 100 إلى 102]

أَ وَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100) تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (101) وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (102)

« وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ »أي عن الوفاء بالعهد ، قال تعالى :« أَوْفُوا بِعَهْدِي »وقال تعالى :« وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ ».

[سورة الأعراف (7) : الآيات 103 إلى 105]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103)وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ(105)

ص 160

" حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ " فإنه باللّه يسمع ويبصر وينطق .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 106 إلى 122]

قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (110)

قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (112) وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (113) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115)

قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (120)

قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (122)

قالت السحرة ذلك ، أي الذي يدعوان إليه رب موسى وهارون ، فجاءت بذلك لرفع الارتياب .

161

[سورة الأعراف (7) : الآيات 123 إلى 127]

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (125) وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (126) وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (127)

». . .وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ »والمعبودين الذين نعبدهم ، وقد قرئ « ويذرك وألهتك » والألهة العبادة ، أي وعبادتك« قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ »هذه الصفة في المخلوقين لا تكون قط عن حقيقة ، بل يعلمون عجزهم وقصورهم ، وإنما ذلك صورة ظاهرة كبرق الخلب ، وعلى قدر ما يظهر من هذه الصفة يتوجه القهر الإلهي والبطش الشديد .[سورة الأعراف (7) : آية 128]

قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)

قال موسى لقومه :« اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ »فشرّك الحق نفسه مع العبد في الفعل ، وأمر الحق بالاستعانة باللّه تقريرا للدعوى ، حتى يكون ذلك عن أمره ، وأمثالنا نقول :(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)ومثل هذا كله ، تعبدا ، ونثابر عليه بخلاف من لا يعلم ، وما قرر الحق لعباده هذا إلا غيرة ، فيتخذون ذلك عبادة ، ويقولون إذا رجعوا إليه وكان الملك للّه الواحد القهار في موطن الجمع ، وسئلوا عن مثل هذا الشرك الخفي ، يقولون : أنت أمرتنا بالاستعانة بك ، فأنت قررت لنا أن لنا قوة ننفرد بها ، وإن كان أصلها منك ، ولكن ما لها النفوذ إلا بمعونتك ،

ص 162

فطلبنا القوة منك ، فإنك ذو القوة المتين ، فيصدقهم الله في كونهم جعلوا القوة منه التي فيهم ، وأنهم رأوا فيها القصور لخاصية المحل ، فما لها نفوذ الاقتدار الإلهي إلا بمساعدة الاقتدار الإلهي ، فشرع لهم سبحانه قول [لا حول ولا قوة إلا باللّه] رحمة بهم« وَاصْبِرُوا »على حمل المشاقات والتكاليف بلا حول ولا قوة إلا باللّه« إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ »فأنت وارث والحق موروث منه ، فإن الحق ما خلق الأشياء لنفسه ، وإنما خلقها بعضها لبعض من هذا الوجه ، فخلق الخلق للخلق لا لنفسه ، فإن المنافع تعود من الخلق على الخلق ، واللّه هو النافع الموجد للمنافع .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 129 إلى 135]
قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (131) وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (133)
وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ(135)

ص 163

كشف ما نزل بالخلق بيد الحق .

[سورة الأعراف (7) : آية 136]
فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (136)
[انتقام إلهي يقع بالعالم لا يكون إلا بعد إغضاب ،]
كل انتقام إلهي يقع بالعالم لا يكون إلا بعد إغضاب ، لأن الله خلق العالم بالرحمة وليس من شأنها الانتقام ، كما أن الغضب من شأنه الانتقام ، ويظهر الانتقام على ميزانه من غير زيادة ولا نقصان ، ولا يقع الانتقام أبدا إلا تطهيرا لمن كان منه الإغضاب ، فلذلك لا يكون الانتقام إلى غير نهاية بل ينتهي الحكم به إلى أجل مسمى عند الله ، وتعقبه الرحمة به ، لأنّ لها الحكم الأبدي الذي لا يتناهى .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 137 إلى 142]
وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ (137) وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (139) قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (140) وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)
وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ(142)

ص 164

"وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً »وهو الميقات الموسوي الأول ، إلا أنه طرأ أمر أخل به ، فزاد عشرا جبرا لذلك الخلل ، فقال تعالى »: وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

" [- إشارة - ضرب الحق لموسى الميقات ليعلم أنه تحت رق الأوقات]

-إشارة - ضرب الحق لموسى الميقات ليعلم أنه تحت رق الأوقات ، وجاء العدد بالليل ولم يجئ بالنهار لاحتجاب الحق عن الأبصار ، ومقامات الخلفاء ، ومصابيح الظلماء ثمانية وعشرون ، وحضراتهم اثنتا عشرة لتتميم الأربعين ، وهي منازل السالكين فجعله يسلك أربعين مقاما من مغيبات الأسرار ، فصح له الاتصال عند الأسحار ، وانتظم بها في شمل أمة محمد الداعي من مقام الأرواح ، في تخلقهم بالأربعين صباح ، وهو ميقات الوارثين ، فشرف بذلك كليم رب العالمين ، ولذلك كان منه مع محمد عليهما السلام في أمر الصلاة ما شهر ، لأنه في أمته يطلب الرفق بإخوته كما ذكر ،

وذلك لما وقع هنالك في حدسه ، أن محمدا عليه السلام سيقول : لا يكمل عبد الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، ألا تراه صلّى اللہ عليه وسلم قال في موسى : لو كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني ،

فأوضح لنا المعنى ، وبيّن لنا حقيقة أنه منا

[إشارة - اترك الحق خليفتك على أهلك كما قال عليه السلام : اللهم أنت الخليفة في الأهل]

-إشارة - اترك الحق خليفتك على أهلك كما قال عليه السلام : اللهم أنت الخليفة في الأهل ، فاستخلف الحق في الحقيقة ، ولا تبال حينئذ بمن يختاره من عالم الحس ، فإنك إذا توكلت على الحق واستخلفته ، وفق خليفتك الذي هو في عالم التكليف ، وهي سنة اللہ تعالى .

[سورة الأعراف (7) : آية 143]

وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)

اعلم أن المناجاة كلام لا مشاهدة فيها ، فإن الحجاب يصحبها ، فإن اللہ يقول :(وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ)

وكذلك كلم اللہ موسى ، ولذلك طلب الرؤية ، وموسى عليه السلام من العلماء باللہ ، وقد سأل اللہ الرؤية ، فما سألها عليه

ص 165

السلام إلا من كونها واجبة وجوبا عقليا ، والمعلوم إذا شوهد تعطي مشاهدته أمرا لا يمكن أن يحصل من غير مشاهدة ، كما قيل .ولكن للعيان لطيف معنى * لذا سأل المعاينة الكليمفإنه ليس حكم من شاهد الأمور حكم من لم يشاهدها إلا بالإعلام ، فللعيان حال لا يمكن أن يعرفه إلا صاحب العيان ، كما أن للعلم حالا لا يعرفه إلا أولو العلم ، ليس لغيرهم فيه ذوق ، وما أسمع الرحمن كلامه بارتفاع الوسائط إلا ليتمكن الاشتياق في السامع إلى رؤية المتكلم ، لما سمعه من حسن الكلام ، فتكون رؤية المتكلم أشد ، ولا سيما ورسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : إن الله جميل يحب الجمال ، والجمال محبوب لذاته ، وقد وصف الحق نفسه به ، فشوق النفوس إلى رؤيته ، وما شوق الله عباده إلى رؤيته بكلامه سدى ، ولولا أن موسى عليه السلام فهم من الأمر إذ كلمه الله بارتفاع الوسائط ما جرأه على طلب الرؤية ما فعل ، فإن سماع كلام الله تعالى بارتفاع الوسائط عين الفهم عنه ، فلا يفتقر إلى تأويل وفكر في ذلك ، وإنما يفتقر من كلمة الله بالوسائط من رسول أو كتاب ، فلما كان عين السمع في هذا المقام عين الفهم ، سأل الرؤية ، ليعلم التابع ومن ليست له هذه المنزلة عند الله ، أن رؤية الله ليست بمحال ، وقد شهد الله لموسى أنه اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه ، فهل رآه في وقت سؤاله بالشرط الذي أقامه له كما ورد في نص القرآن(انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي)أو لم يره ؟ والآية محتملة المأخذ ، فإنه ما نفى زمان الحال عن تعلق الرؤية ، وإنما نفى الاستقبال بأداة سوف ، ولا شك أن الله تجلى للجبل وهو محدث ، وتدكدك الجبل لتجليه ، فحصل لنا من هذا رؤية الجبل ربه التي أوجبت له التدكدك ، فقد رآه محدث ، فما المانع أن رآه موسى عليه السلام في حال التدكدك ووقع النفي على الاستقبال ؟ ما لذلك مانع لمن عقل ، ولا سيما وقد قام الصعق لموسى عليه السلام مقام التدكدك للجبل ، قال تعالى :« وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ »لما كلم موسى عليه السلام ربه أدركه الطمع فقال :« رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ »فسأله ما يجوز له السؤال فيه ، إذ كانت الرسل أعلم الناس بالله ، وأنه ذو إدراك يدركه به ، وأنه المدرك بالإدراك لا الإدراك ، فإنه عالم بأن الأبصار لا تدركه ، وإنما هي آلة يدرك بها ، فقال :« رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ »بعيني ، فإن الرؤية بأداة إلى رؤية العين ، فقال له الحق :« لَنْ تَرانِي »بعينك ،

ص 166

لان المقصود من الرؤية حصول العلم بالمرئي ، ولم يكن ذاك موطنه ومقامه ، ولا تزال ترى في كل رؤية خلاف ما تراه في الرؤية التي تقدمت ، فلا يحصل لك علم برؤية أصلا في المرئي ، فقال :« لَنْ تَرانِي »فإني لا أقبل من حيث أنا التنوع ، فإن رؤية المرئي تعطي العلم به ، ويعلم الرائي أنه راء أمرا ما ، وقد أحاط علما بما رآه ، والحق لا تنضبط رؤيته ، وما لا ينضبط لا يقال فيه إن الذي رآه عرف أنه رآه ، ولا تتعجب من طلب موسى عليه السلام رؤية ربه ، فإنه ثمّ مقام يقتضي طلب الرؤية ، والإنسان بحكم الوقت ، ويحتمل أن موسى عليه السلام منع من الرؤية بقوله تعالى :« لَنْ تَرانِي »لكونه سألها عن غير أمر إلهي ، فقيل له :« لَنْ تَرانِي »ثم استدرك استدراك لطيف بعبده ، لما انته فيه حد عقوبة فوت الأدب بالسؤال ابتداء ، الذي حمله عليه شوقه ، فلما علم أن اليأس قد قام به فيما طلبه ، استدرك بالإحالة على الجبل في استقراره ، عند التجلي ، فقال :« وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي »والجبل من الممكنات« فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا »اعلم أنه لا يثبت لتجلي الحق ، فلا بد من تغير الحال ، فإن التجلي الإلهي يورث الخشوع ،
قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [إن الله إذا تجلى لشيء خشع له] فلما تجلى الحق للجبل نقله من حال الشموخ إلى حال الخشوع والاندكاك ، فإن للتجلي النقيضين ، يمحو ويثبت ، ويوجد ويعدم ، فقال تعالى :« فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ »ذلك التجلي« دَكًّا »فما أعدمه ، ولكنه أزال حاله ونعته ، ولم يزل عينه ، ولكن أزال شموخه وعلوه ، فكان أول جبل أنزله الله عن قهره وجبروته ، فإن الجبال ظهرت بصورة القهر حيث سكّنت ميد الأرض ، فلا تعرف التواضع ، فإنها ما كانت أرضا ثم صارت جبالا ، فصار جبل موسى بالتدكدك أرضا بعد ما كان جبلا ، ولولا العظمة التي في نفس الجبل من ربه لما تدكدك لتجلي الرب له ، فإن الذوات لا تؤثر في أمثالها ، وإنما يؤثر في الأشياء قدرها ومنزلتها في نفس المؤثر فيه ، فعلمه بقدر ذلك المتجلي أثر فيه ، ما أثر فيه ما ظهر له ، فإنا نرى الملك إذ دخل في صورة العامة ومشى في السوق بين الناس وهم لا يعرفون أنه الملك لم يقم له وزن في نفوسهم ، فإذا لقيه في تلك الحالة من يعرفه قامت بنفسه عظمته وقدره ، فأثر فيه علمه به ، وكان نظر موسى عليه السلام للجبل في حال شموخه ، وكان التجلي له من الجانب الذي لا يلي موسى ، فلما صار دكا ظهر لموسى ما صير الجبل دكا ، فخر موسى صعقا ، فإنه لما كان الجبل حجابا

ص 167

للتجلي ، لم يثبت التجلي ما دام الجبل باقيا ، الذي هو الحجاب ، فلما تدكدك الجبل الذي هو الحجاب بقي التجلي بلا حجاب ، فرآه موسى فصعق كما صعق الجبل ، وقامت فيه علامة الرؤية التي قامت في الجبل ، وذلك قوله تعالى :« وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً »فكان الدك للجبل كالصعق لموسى ،

والذي دك الجبل أصعق موسى ، وما أصعقه إلا ما عنده ، أي ما شاهده ، فعلم عند ذلك ما لم يكن يعلم من صورة الحق مع العالم ، ولا أدري اندك الجبل عن رؤية أو عن مقدمة رؤية ، لا بل عن مقدمة رؤية ، وصعق موسى عن تلك المقدمة ، وكان موسى عليه السلام ناظرا إلى الجبل طاعة لأمر الله ، فلاح له عند تدكدكه الأمر الذي جعل الجبل دكا ، فخر موسى صعقا ، وكان هذا من ضروب الوحي لموسى عليه السلام ،

فإنه ورد في الخبر : أن الله إذا تكلم بالوحي كأنه سلسلة على صفوان صعقت الملائكة ، ويحتمل أن يكون قوله تعالى :« وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً »أي ميتا ،

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [إن أحدكم لا يرى ربه حتى يموت]

فلذلك لما سأله موسى الرؤية أجابه فخر صعقا ، فرآه تعالى في صعقته ، وقد شك رسول الله صلّى الله عليه وسلم في أمر موسى إذا وجده يوم البعث ، فلا يدري أجوزي بصعقة الطور فلم يصعق في نفخة الصعق ؟ فإن نفخة الصعق ما تعم ، وقد صعق بالطور ،

فما رآه تعالى حتى مات ، ثم أفاق فعلم من رأى . واعلم أن الحق إذا تجلى في صفة الجبروت لمن تجلى من عباده ، فإن كان المتجلّى له ليس له مدبر غير الله ، كجبل موسى ، تدكدك لتجليه ، فإنه ما فيه غير نفسه ، وإن كان له مدبر قد جعله الله له كتدبير النفوس الناطقة أبدانها ، لم تتدكدك أجسامها ،

لكن أرواحها حكم فيها ذلك التجلي حكمه في الجبل ، فبعد أن كان قائما بتدبير الجسد ، زال عن قيامه ، فظهر حكم الصعق ، في جسد موسى ، وما هو إلا إزالة قيام المدبر خاصة ، كما زال الجبل عن وتديته ، فزال حكمه إذ زالت جبليته ، كما زال تدبير الروح لجسد صاحب الصعق ،

إذ زال قيامه به ، لأن موسى ذو روح له حكم في مسك الصورة على ما هي عليه ، وما عدا الحيوان فروحه عين حياته ، لا أمر آخر ، فكان الصعق لموسى مثل الدك للجبل لاختلاف الاستعداد ، إذ ليس للجبل روح يمسك عليه صورته ، فزال عن الجبل اسم الجبل ، ولم يزل عن موسى بالصعق اسم موسى ولا اسم الإنسان ، فأفاق موسى ولم يرجع الجبل جبلا بعد دكه ، لأنه ليس له روح يقيمه ، فإن حكم الأرواح في الأشياء ما هو مثل حكم الحياة لها ، فالحياة دائمة في كل شيء ، والأرواح

ص 168

كالولاة ، وقتا يتصفون بالعزل ، ووقتا يتصفون بالولاية ، ووقتا بالغيبة عنها ، مع بقاء الولاية ، فالولاية ما دام مدبرا لهذا الجسد الحيواني ، والموت عزله ، والنوم غيبته عنه مع بقاء الولاية عليه ، وأفاق موسى بعد صعقته ولم يرجع الجبل إلى وتديته لوجود العوض ، وهو غيره من الجبال ، وهذا الجسد الخاص ما له مدبر مخلوق سوى هذا الروح ، فطلب الجسم من الله بالحال مدبره ، فرده الله إليه ، فهذا سبب علة إفاقة موسى وعدم رجوع الوتدية للجبل ، لأن الأرض استغنت عنه بأمثاله ، وفي تدكدك الجبل وصعق موسى عليه السلام إشارة لقول العارف : إن المحدث إذا ظهر له القديم يمحو أثره ، إذ لا طاقة للمحدث على رؤية القديم ، ولهذا جاء الخبر الصحيح الإلهي بأن الحق قد يكون بصر العبد وسمعه ، حتى يثبت لظهور الحق في التجلي أو في الكلام ، ألا ترى إلى موسى عليه السلام لما كان الحق سمعه ثبت لكلام الله فكلمه ، فلما وقع التجلي ولم يكن الحق عند ذلك بصر موسى كما كان سمعه صعق ولم يثبت ، فلو كان بصره لثبت ، وكان اندكاك الجبل عن تجلي الحق لكون روحه ما أوجده الله لحفظ الصورة على الجبل مثل الأرواح المدبرة ، وإنما أوجده ليكون مسبحا له ، فلذلك لم تحفظ عليه صورة الجبلية ، وأثر فيه التجلي جعله دكا ، وحفظ روح موسى عليه السلام على موسى في صعقته عند رؤية ما رآه الجبل الذي كان حجابا عليه صورة نشأته« فَلَمَّا أَفاقَ »

رجع موسى موسى وما رجع الجبل جبلا ، فعلم موسى أنه قد وقع منه ما كان ينبغي له أن لا يقع إلا بأمر إلهي« قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ »لما علم أن الله يحب التوابين ، قال : رجعت إليك ، أو رجعت إلى الحالة التي لم أكن سألتك فيها الرؤية ، فلا أطلب رؤيتك على الوجه الذي كنت طلبتها به أولا ، فإني قد عرفت ما لم أكن أعلمه منك « وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ »على وجهين :

- **الوجه الأول** - أول المؤمنين بوقوع هذا الجائز ، إذ ما تقدم لأحد من هذا النوع الإنساني أنه سأل ربه رؤيته ، ولا أنه رآه ، فلذلك ادعى موسى أنه أول المؤمنين ، فما انحجب موسى عن ربه ، واستصحبته رؤيته إلى أبد الأبد ، ثم إن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أعلمنا أنه ما من أحد إلا سيرى ربه ويكلمه كفاحا ، وأبان صلّى الله عليه وسلم لأمته عن صورة تجلي الحق لعباده ، ونحن نعلم قطعا أن ذوق الرسل فوق ذوق الأتباع بما لا يتقارب ، فلا تظن أن سؤال موسى رؤية ربه أنه فاقد للرؤية التي كانت حالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في قوله : ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله ، هذه الرؤية ما هي الرؤية التي طلبها موسى من ربه ، فإنها رؤية

ص 169

حاصلة له لعلو مرتبته ، فإن ذوق الصادق ما هو ذوق الصديق ، فالرؤية ثابتة بلا شك ذوقا ونقلا لا عقلا ، فإن رؤية الله تعالى من محارات العقول ، ومما يوقف عندها ولا يقطع عليها بحكم من أحكامها الثلاثة ، إذ ليس للأنبياء ولا للأولياء علم بالله يكون عن فكر ، قد طهرهم الله عن ذلك - الوجه الثاني «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ »أي المصدقين بقولك« لَنْ تَرانِي »فإنه ما نزل هذا القول ابتداء إلا عليّ ، فأنا أول المؤمنين به ، ثم يتبعني في الإيمان به من سمعه إلى يوم القيامة ، فإنك ما قلت ذلك إلا لي ، وهو خبر ، فلذلك ألحقه بالإيمان لا بالعلم ، ولولا ما أراد الإيمان بقوله« لَنْ تَرانِي »ما صحت الأولية ، فإن المؤمنين كانوا قبله ، ولكن بهذه الكلمة لم يكن ، فما ظهر الحق لطالب الرؤية ولا للجبل ، لأنه لو رآه الجبل أو موسى لثبت ، ولم يندك ولا صعق ، فإنه تعالى الوجود ، فلا يعطي إلا الوجود ، لأن الخير كله بيديه ، والوجود هو الخير كله ، فلما لم يكن مرئيا أثر الصعق والاندكاك ، ولذلك قلنا إن الصعق والاندكاك كانا عن مقدمة الرؤية ، ومن هذه الآية نفرق بين الرؤية والمشاهدة ، فالمشاهدة في حضرة التمثل كالتجلي الإلهي في الدار الآخرة الذي ينكرونه ، فإذا تحول لهم في علامة يعرفونه بها أقروا به وعرفوه ، وهو عين الأول المنكور ، وهو هذا الآخر المعروف ، فما أقروا إلا بالعلامة لا به ، فالمشاهدة شهود الشاهد الذي في القلب من الحق ، وهو الذي قيد بالعلامة ، والرؤية ليست كذلك ، ولهذا قال موسى :« رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ »وما قال أشهدني ، فإنه مشهود له ما غاب عنه ، وكيف يغيب عن الأنبياء وليس يغيب عن الأولياء العارفين به ؟ فقال له »: لَنْ تَرانِي »ولم يكن الجبل بأكرم على الله تعالى من موسى ، وإنما أحاله على الجبل لما قد ذكر سبحانه في قوله :(لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)والجبل من الأرض وموسى من الناس فخلق الجبل أكبر من خلق موسى من طريق المعنى ، أي نسبة الأرض والسماء إلى جانب الحق أكبر من خلق الناس من حيث ما فيهم من سماء وأرض ، فإنها في السماء والأرض معنى وصورة ، وهما في الناس معنى لا صورة ، والجامع بين المعنى والصورة أكبر في الدلالة ممن انفرد بأحدهما ، فجمع الجبل بين الصورة والمعنى ، فهو أكبر من جبل موسى المعنوي ، فإذا كان الجامع بين الأمرين وهو الأقوى والأحق باسم الجبل صار دكا عند التجلي ، فكيف يكون موسى حيث جبليته التي هي فيه معنى لا صورة ؟ ولما كانت الرؤية لا تصح إلا لمن يثبت

ص 170

لها إذا وقعت ، والجبل موصوف بالثبوت في نفسه وبالإثبات لغيره ، إذ كان الجبل هو الذي يسكّن ميد الأرض ، ويقال فلان جبل من الجبال إذا كان يثبت عند الشدائد والأمور العظام ، فلهذا أحاله على الجبل الذي من صفاته الثبوت ، فإن ثبت الجبل إذا تجليت له ، فإنك ستراني من حيث ما فيك من ثبوت الجبل .فرؤية الله لا تطاق * فإنها كلها محاقفلو أطاق الشهود خلق * أطاقه الأرض والطباقلهذا قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلم : أرأيت ربك ؟ قال نور أنّي أراه - تحقيق - فإن قلت :

إنك تزعم أن أهل الله الذين هم أهله لم يزالوا ولا يزالون دنيا وآخرة في مشاهدة عينية وإن اختلفت الصور ، فلا يقدح ذلك عندهم ، فموسى أحق بهذه الصفة من الولي ، وقد سأل الرؤية ، قلنا : قد ثبت عندك إن كنت مؤمنا - وإن لم تكن من أهل الكشف - أن النبي صلّى الله عليه وسلم قد أخبر أن الله يتجلى في صورة ويتحول إلى صورة ، وأنه يعرف وينكر ، إن كنت مؤمنا لا تشك في هذا ، وأنه قد بيّن أن التجلي في الصور بحسب قدر المتجلى له ، فإذا علمت هذا ، تعلم أن موسى قد رأى الحق بما هو متجل للأولياء ، إذ علم أنه يتجلى للأولياء في صور مختلفة ، لأن موسى ولي لله ، وقد علم ذلك ، ومثل هذا فلا يخفى ، وإنما سأل التجلي في الصورة التي لا يدركها إلا الأنبياء ، ومن الأنبياء من خصه الله بمقام لم ينله غيره ، كالكلام بارتفاع الوسائط لموسى عليه السلام ، فطلب موسى عليه السلام من ربه أن يراه في تلك الصورة التي يطلبها مقامه ، وأما رؤيته إياه في الصورة التي يراها الأولياء فذلك خبره وديدنه ، فإن قلت : قال تعالى :« لَنْ تَرانِي »ولن تنفي الأفعال المستقبلة ، قلنا : إن الحق ما يتجلى لمخلوق إلا في صورة المخلوق ، إما التي هو عليها في الحال فيعرفه ، أو ما يكون عليها بعد ذلك فينكره ، حتى يرى تلك الصورة قد دخل فيها فحينئذ يعرفه ، فإن الله علمه وعلم ما يؤول إليه ، والمخلوق لا يعلم من أحواله إلا ما هو عليه في الوقت ، فالصورة صورتك ، فصدق« لَنْ تَرانِي »واعلم أنه ليس هناك منع بل فيض دائم وعطاء غير محظور ، ولو لم يكن المتجلى له على استعداد أظهر له ذلك الاستعداد هذا المسمى تجليا ، ما صح أن يكون له هذا التجلي ، فالحق متجل دائما ، والقابل لإدراك هذا التجلي لا يكون إلا باستعداد خاص ، وقد صح له ذلك الاستعداد فوقع التجلي في حقه ، ولا يخلو أن يكون له أيضا

ص 171

استعداد البقاء عند التجلي أو لا يكون له ذلك ، فإن كان له ذلك فلا بد أن يبقى ، وإن لم يكن له ، فكان له استعداد قبول التجلي ولم يكن له استعداد البقاء ، ولا يصح أن يكون له ، فإنه لا بد من اندكاك أو صعق أو فناء أو غيبة أو غشية ، فإنه لا يبقى له مع الشهود غير ما شهد ، فلا تطمع في غير مطمع ، قال بعضهم : شهود الحق فناء ما فيه لذة لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فليس التفاضل ولا الفضل في التجلي ، وإنما التفاضل والفضل فيما يعطي الله لهذا المتجلى له من الاستعداد ، وعين حصول التجلي عين حصول العلم ، لا يعقل بينهما بون ، وأما التجلي الذي يكون معه البقاء والعقل والالتذاذ والخطاب والقبول فذلك التجلي الصوري ، ومن لم ير غيره ربما حكم على التجلي بذلك مطلقا من غير تقييد

[- إشارة - لم سأل موسى عليه السلام الرؤية وهو يعجز عن النظر ؟]

-إشارة - لم سأل موسى عليه السلام الرؤية وهو يعجز عن النظر ؟ حتى لا يبقى له من الميراث أثر ، فإن الرؤية للنبي محمد صلّى الله عليه وسلم ، وانظر إلى كثرة سواد موسى عليه السلام في الآخرة لقرب نسبته من الرسول عليهما السلام .

[سورة الأعراف (7) : آية 144]

قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144)

فشهد الله لموسى أنه اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه ثم قال له »: فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ »ولا شك أن موسى قد شكر الله على نعمة الاصطفاء ونعمة الكلام شكرا واجبا مأمورا به ، فيزيده الله لشكره نعمة رؤيته إياه - إشارة - أمره أن يكون من الشاكرين ليزيد في القرب والتمكين .

[سورة الأعراف (7) : آية 145]

وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ »(145)

وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ »ألواح موسى« مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »وهو اللوح المحفوظ« مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ »ففصلت الكتب المنزلة مجمل اللوح المحفوظ ، وأبانت عن موعظته

ص 172

فاللوح المحفوظ هو المعبر عنه بكل شيء في الكتاب العزيز من باب الإشارة والتنبيه ، تسمية إلهية ، ومنه كتب الله كتبه وصحفه المنزلة على رسله - إشارة - كان في ألواح موسى عليه السلام تفصيل كل شيء علم ، ولمحمد صلّى الله عليه وسلم جوامع الكلم .

[سورة الأعراف (7) : آية 146]

سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (146)

اعلم أن الله ما صرف أحدا عن الآيات إلا وقد صرفه عن العلم بالأمر على ما هو عليه الأمر والشأن ، والآيات التي صرف العبد عنها هي الآيات التي أراها لمن أراها في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، فلا تكن من الذين صرفوا عن الآيات ، فإن الذين صرفوا عنها حجبوا بنفوسهم ، فنسبوا إليها ما ليس لها ، فعموا عن الآيات ، فحلّت بهم الآفات

- **الوجه الثاني** - الآية هنا من حيث كونها معجزة لا من حيث كونها آية فقط ، فإن المعجزة إذا كانت مقدورة للبشر ادعي الصرف عنها مطلقا ، فلا تظهر إلا على يدي من هو رسول إلى يوم القيامة ، فإن المعجزات نصبت للخصم الألد الفاقد نور الإيمان ، لذلك قال تعالى :« الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ »فمن تكبر من الخلق بغير الحق فما هو كبير في نفس الأمر ، وإنما هي دعوى حال لا وجود له في عين المدعي ، والحق هو الذي له الكبرياء ، فما سمي متكبرا إلا لكون الدعوى ما ظهرت إلا في محل ما له الكبرياء ، فالمتكبر في الأرض بغير الحق أجهل الجاهلين ، لأنه وضع الكبرياء في غير موضعه ،

إذ من شرطه أمران:

الواحد : الحق الذي يقبله المخلوق ،

والثاني : العلو ، ومن تكبر في الأرض بالحق ، فالحق له العلو بالذات والسمو ، لم يصرف الله عنه الآيات ، فيريه إياها تشريفا ، فإذا رآها تبيّن له عين الحق ، فإنه ما رآها إلا بالحق ، والموفقون هم الذين إذا رأوا سبيل الرشد اتخذوه سبيلا ، فيمشي بهم إلى السعادة الأبدية ، فإنهم نسبوا تكوين الآيات إلى الحق ،

وأن قوى سلطان الطبيعة إنما هو في قبولها لما يكونه الحق فيها ،

وأما الذين نسبوا التكوين إلى الطبيعة وأضافوه إليها ونسوا الحق بها فأنساهم أنفسهم إذ صرفهم عن آيات أنفسهم« وَكانُوا عَنْها»

ص 173

" غافِلِينَ " فللطبيعة القبول ، وللحق الوهب والتأثير .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 147 إلى 148]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (147) وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ (148)

لما علم السامري أنّ حب المال يلصق بالقلوب صاغ لهم العجل بمرأى منهم من حليهم ، لعلمه أن قلوبهم تابعة لأموالهم ، فسارعوا إلى عبادته حين دعاهم إلى ذلك ،

وإنما كان عجلا ، لأن السامري لما مشى مع موسى عليه السلام في السبعين الذين مشوا معه ، كشف الله عنه غطاء بصره ،

فما وقعت عيناه إلا على الملك الذي على صورة الثور ، وهو من حملة العرش ، لأنهم أربعة ،

واحد على صورة أسد ،

وآخر على صورة نسر ،

وآخر على صورة ثور ،

ورابع على صورة إنسان ،

فلما أبصر السامري الثور تخيل أنه إله موسى الذي يكلمه ، فصور لهم العجل وقال :« هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى »وصاغه من حليهم ليتبع قلوبهم أموالهم ، لعلمه أن المال حبه منوط بالقلب ، وعلم أن حب المال يحجبهم أن ينظروا فيه ، هل يضر أو ينفع أو يرد عليهم قولا إذا سألوه ؟

وقال لهم هارون :(يا قوم إنما فتنتم به) أي اختبرتم به لتقوم الحجة للّه عليكم إذا سئلتم (وإن ربكم الرحمن) ومن رحمته بكم أن أمهلكم ورزقكم مع كونكم اتخذتم إلها تعبدونه غيره سبحانه ،

ثم قال لهم :(فَاتَّبِعُونِي) *لما علم أن في اتباعهم إياه الخير(وَأَطِيعُوا أَمْرِي)لكون موسى عليه السلام أقامه فيهم نائبا عنه ،

فقالوا :(لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ)يريدون عبادة العجل) عاكفين) أي ملازمين(حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى) الذي بعث إلينا وأمرنا بالإيمان به ، فحجبهم هذا النظر أن ينظروا فيما أمرهم به هارون عليه السلام ،

وأما الخوار فإنه من الأثر المقبوض من وطء الروح ، فقبض السامري من أثر جبريل لما علم أن الروح تصحبه الحياة حيث حلّ ، فرمى ما قبضه في العجل فخار العجل بذلك الأثر المقبوض ، ولو رماه في شكل فرس لصهل ، أو شكل إنسان نطق ، فإن الاستعداد لما ظهر بالحياة إنما كان للقابل.

ص 174

[سورة الأعراف (7) : الآيات 149 إلى 150]
وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (149) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150)

« وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ «وجدهم قد فعلوا ما فعلوا« غَضْبانَ »على قومه« أَسِفاً »عليهم لما فعلوه من اتخاذهم العجل إلها« قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي »لما ترك موسى قومه خلفه وسار إلى ربه سماهم خلفاء ، وما استخلفهم ولكنه تركهم خلفه « أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْواحَ " من يده" وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ "عقوبة له بتأنيه في قومه ، ولو لم يلق موسى الألواح ما أخذ برأس أخيه ، فإن في نسختها الهدى والرحمة تذكرة لموسى ، فكان يرحم أخاه بالرحمة ، وتتبين مسألته مع قومه بالهدى ، فناداه هارون عليه السلام بأمه ، فإنها محل الشفقة والحنان« قالَ ابْنَ أُمَّ »لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي« إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي »
كما قال له أيضا (إِنِّي خَشِيتُ) لما وقع ما وقع من قومك ، أن تلومني على ذلك ، وتقول :(فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ) أي تلزم (قَوْلِي) الذي أوصيتك به " فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "فهذا هارون الخليفة العلي ، المنيع السني ، سقاه كأس الذل ، من أوى إلى الظل ، فناداه بذات الرحم ، وقد علم أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، فسوى بينهما في النور والضياء ، وتبرزا في صدر الخلفاء
[- إشارة - أتعرف ما جزاء من استخلف في مقام الإحسان ؟]
-إشارة - أتعرف ما جزاء من استخلف في مقام الإحسان ؟
أن يأخذ بلحيته كليم الرحمن ، أي أن العبد ما دام في عبوديته ، كانت السلامة له مصاحبة ، فإذا قبل النيابة في الخلافة فقد تلبسها وظهر بأوصافها ، وأبطن عبوديته ، فحينئذ يبتلى بمن يأخذ بلحيته للاختبار
- إشارة - لا شك أن هارون عليه السلام أعلى رتبة ممن قال من العارفين : إن

ص 175

[في ان الوجود ينعدم في حقهم]
الوجود ينعدم في حقهم ، فلا يرون إلا الله ولا يبقى للعالم عندهم ما يلتفتون به إليه في جنب الله ، ومع ذلك فقد أخبرنا الحق عنه أنه قال لأخيه موسى في وقت غضبه« فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ »فجعل لهم قدرا ، وهذا هو الواقع ، لأن العالم ما زال عند من زال عندهم في نفس الأمر ، فنقصهم من العلم بما هو الأمر عليه على قدر ما فاتهم ، فعندهم عدم العالم ، فنقصهم من الحق على قدر ما انحجب عنهم من العالم ، فإن العالم كله هو عين تجلي الحق لمن عرف الحق ، ثم رد موسى عليه السلام وجهه إلى السامري فقال له :(فَما خَطْبُكَ)أي ما حديثك(يا سامِرِيُّ)فقال له السامري ما رآه من صورة الثور الذي هو أحد حملة العرش ، فظن أنه إله موسى الذي يكلمه ، فلذلك صنعت لهم العجل ، وعلمت أن جبريل ما يمر بموضع إلا حيي به ، لأنه روح ، فلذلك قبضت من أثره ، لعلمه بتلك القبضة ، فنبذتها في العجل فخار ، فما فعله السامري إلا عن تأويل فضلّ وأضلّ ، وقبل موسى عليه السلام عذر أخيه ، وأما الذين عبدوا العجل فما أعطوا النظر الفكري حقه للاحتمال الداخل في القصة ، فما عذرهم الحق ، ولا وفّى عابدوه النظر في ذلك .

[سورة الأعراف (7) : آية 151]

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151)

« وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »بعباده .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 152 إلى 154]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَفِي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)

لما سكن عن موسى الغضب أخذ الألواح ، فما وقعت عيناه مما كتب فيها إلا على الهدى والرحمة ، فإنه بالضدّ يزول الضد ،
فقال :« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ

ص 176

أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »ومن لم يلزم الأدب الشرعي لم يغضب لله ، والغضب لله أسلم وأنجى وأحسن بالإنسان ، فإن فيه لزوم الأدب المشروع ، ولما كان الغضب في أصل جبلة الإنسان ، كالجبن والحرص والشره ، بيّن الحق له مصارف إذا وقع من العبد واتصف به ، وللتسليم محال ومواضع قد شرعت ، التزم بها الأدباء ، حالا وغاب عنها أصحاب الأحوال ، ولعدم التسليم محال ومواضع قد شرعت ، فالأديب هو الواقف من غير حكم حتى يحكم الشارع الحق ، وهو خير الحاكمين ، فإذا وقف الأديب حيث حكم لا يزيد ولا ينقص ، والغضب صفة باطنة في الإنسان قد يكون لها أثر في الظاهر وقد لا يكون ، فإن الحال أغلب ، والأحوال يعلو بعضها على بعض في القهر والغلبة على من قامت بهم ، وأما الغضب لغير الله ، فالطبع البشري يقتضي الغضب والرضى ،
يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر وأرضى كما يرضى البشر]
– الحديث

[سورة الأعراف (7) : آية 155]
وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (155)
جزى الله عنا موسى عليه السلام خيرا ، إذ ترجم عنا بقوله :« إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ »أي اختبارك ، اختبرت بها عبادك« تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ »أي تحيره« وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ »أي تبين له طريق نجاته فيها »أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ »بستر جلاله ، وأي غفر أشد من حيرة العقول ، وما خاطب الحق إلا العقول ، ونصب أدلتها متقابلة ، فما أثبته دليل نفاه الآخر ، فاختبرت عبادك بالأدلة ، وما ثم دليل يوصل إليك .

[سورة الأعراف (7) : آية 156]
وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ(156)

ص 177

"وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ »رجعنا عما كنا عليه من مخالفتك ، من حال البطر والأشر وكفران النعم ، إلى حال التوبة والافتقار"

قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ »ثم قال تعالى مبالغة في الرحمة الواجبة والامتنانية [« وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ «]
»:وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »وهي رحمة الامتنان ، وهي الرحمة العامة التي يرحم الله بها العالم من عين المنة ، لا الرحمة الواجبة المخصوصة ، فإن الرحمة جعلها الله لخلقه ، فمنا من تفيض عليه الرحمة من خزائن الوجوب ، ومنا من تفيض عليه الرحمة من خزائن المنن ، فالكل طامع ، والمطموع فيه واسع(إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ)أترى هذه السعة الربانية تضيق عن شيء وهي لم تضق عن الممكنات إذ كانت في الشر المحض وهو العدم ؟ فكيف تضيق عن الممكنات إذ هي في الشر المشوب ؟ فقوله تعالى »: وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »وجد ويوجد إلى غير نهاية ، فبرحمة الله يحيا ويرزق كل موجود سوى الله ، فالرحمة شاملة ، وهي في كل موطن بحسب ذلك الموطن ، فأثرها في النار بخلاف أثرها في الجنة ، فوسعت كل شيء من مكروه وغيره ، وغضب وغيره ، فما في العالم عين قائمة ولا حال إلا ورحمة الله تشمله وتحيط به ، وهي محل له ، ولا ظهور له إلا فيها ، والرحمة حكم لا عين ، فإنها لو كانت عينا وجودية لانتهت وضاقت عن حصول ما لا يتناهى فيها وإنما هي حكم يحدث في الموجودات بحدوث أعيان الموجودات ، وغضبه تعالى شيء ، فقد وسعته الرحمة وحصرته وحكمت عليه ، فلا يتصرف إلا بحكمها ، فترسله إذا شاءت ، وتمسكه إذا شاءت ، ومن ذلك أن ملائكة العذاب قد وسعتهم الرحمة كسائر الأشياء ، فيمنعهم ما وسعهم منها عن مقاومة الرحمة ، فيجدون في نفوسهم رحمة بأهل النار ، لأنهم يرون الله قد تجلى في غير صورة الغضب الذي كان قد حرضهم على الانتقام من الأعداء ، فيشفعون عند الله في حق أهل النار الذين لا يخرجون منها ، فيكونون لهم بعد ما كانوا عليهم ، فيقبل الله شفاعتهم فيهم ، وقد حقت الكلمة الإلهية أنهم عمار تلك الدار ، فيجعل الحكم فيهم للرحمة التي وسعت كل شيء ، فأعطاهم في جهنم نعيم المقرور والمحرور ، لأن نعيم المقرور بوجود النار ، ونعيم المحرور بوجود الزمهرير ، فتبقى جهنم على صورتها ذات حر وزمهرير ، ويبقى أهلها متنعمين فيها بحرها وزمهريرها ، فمآل

ص 178

الكل إلى الرحمة وإن تخلل الأمر آلام وعذاب وعلل وأمراض مع حكم الاسم الرحمن ، فإنما هي أعراض عرضت في الأكوان دنيا وآخرة ، فانقسمت رحمته تعالى بعباده إلى واجبة وامتنان ، فبرحمة الامتنان ظهر العالم ، وبها كان مآل أهل الشقاء إلى النعيم في الدار التي يعمرونها ، وابتداء الأعمال الموجبة لتحصيل الرحمة الواجبة ، وهي الرحمة التي قال الله فيها ، لنبيه صلّى الله عليه وسلم على طريق الامتنان
(فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)
(وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ)
رحمة امتنان ، وبها رزق العالم كله فعمت ،
والرحمة الواجبة لها متعلق خاص بالنعت والصفات التي ذكرها الله في كتابه فقال :« فَسَأَكْتُبُها »يعني الرحمة الواسعة ، فأدخلها تحت التقييد بعد الإطلاق من أجل الوجوب ، فهي الرحمة التي أوجبها على نفسه« لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ »
وهذه كلها واجبات ، فأوجب الرحمة لهم بلا شك ، واستوجب هؤلاء هذه الرحمة على ربهم في موطن ، بكونهم يتقون ويؤتون الزكاة على مفهوم الزكاة لغة وشرعا« وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ »فما كتب الله على نفسه ما كتب إلا لمن قام بحق النيابة عنه فيما استنابه ، وليس إلا المتقين ، وهم الذين جعلوا الله وقاية لهم منه ، ومن كل شيء يكون منه ، كما جعلهم الله وقاية بينه وبين ما ذمّه من الأمور مما هو خلق لله ، فينسب ذلك إلى الآلة التي وقع بها الفعل ، فلما وقّاه وقاه ، وصح له ما كتب على نفسه ، وما عدا هؤلاء فهم أهل المنن ، فنالوا أغراضهم على الاستيفاء ، ثم إن الله امتن عليهم بعد ذلك بالمغفرة والرحمة التي عم حكمها ، ومنهم من لم يتق فيخصه بالحرمة المطلقة ، وهي رحمة الامتنان ولا تتقيد بحصر
- تحقيق - قوله تعالى :« وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »فيها علم دقيق خفي لا يشعر به لخفائه مع ظهوره ، فإن العلماء بالله قد علموا شمول الرحمة ، والمؤمنون قد علموا اتساعها ، ثم يرونها مع الشمول والاتساع ، ما لها صورة في بعض المواطن ، ومع كونها ما لها صورة ظاهرة في بعض المواطن فإن الحكم لها في ذلك الموطن الذي ما لها فيه صورة ، ولا يكون لها حكم إلا بوجودها ، ولكن هو خفي لبطونها ، جلي لظهور حكمها ، وأكثر ما يظهر ذلك في صنعة الطب وإقامة الحدود ، فالله يقول في إقامة الحدود في حد الزاني والزانية
(وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)
فهذا عين انتزاع الرحمة بهم ، وإقامة الحدود من حكم الرحمة وما لها عين ظاهرة ، وكالطب إذا قطع الطبيب رجل صاحب الأكلة ، فإن رحمه في هذا الموطن ولم يقطع رجله هلك ، فحكم الرحمة حكم
179

بقطع رجله ولا عين لها ، فللرحمة موطن تظهر فيه بصورتها ، ولها موطن تظهر فيه بحكمها ، فيتخيل أنها قد انتزعت من ذلك المحل ، وليس كذلك ، وفي الأحكام الشرعية في هذه المسألة خفاء إلا لمن نور الله بصيرته ، فإن القاتل ظلما قد نزع الله الرحمة من قلبه في حق المقتول ، وهو تحت حكم الرحمة في قتله ظلما ،
وبقي حكمها في القاتل ، فإما أن يقاد منه ، وإما أن يموت فيكون في المشيئة ، وإن كان القاتل كافرا فإما أن يسلم فتظهر فيه الرحمة بصورتها ، وحيثما كانت الرحمة بالصورة كانت بالحكم ، وقد تكون بالحكم ولا تكون بالصورة .
واعلم أن الرحمة الإلهية التي أوجدها الله في عباده ليتراحموا بها مخلوقة من الرحمة الذاتية التي أوجد الله بها العالم حين أحب أن يعرف ، وبها كتب على نفسه الرحمة ، وهذه الرحمة المكتوبة منفعلة عن الرحمة الذاتية ،
والرحمة الامتنانية هي التي وسعت كل شيء ، فرحمة الشيء لنفسه تمدها الرحمة الذاتية وتنظر إليها ، وفيها يقع الشهود من كل رحيم بنفسه ،
وأما رحمة الراحم بمن أساء إليه وما يقتضيه شمول الإنعام الإلهي والاتساع الجودي ، فلا مشهد لها إلا رحمة الامتنان ، وهي الرحمة التي يترجاها إبليس فمن دونه ، لا مشهد لهؤلاء في الرحمة المكتوبة ولا في الرحمة الذاتية ،
وبهذا كان الله والرحمن دون غير الرحمن من الأسماء له الأسماء الحسنى ، فجميع الأسماء دلائل على الاسم الرحمن وعلى الاسم الله ،
ولكن أكثر الناس لا يشعرون ، فإن الرحمة الإلهية وسعت كل شيء ، فما ثم شيء لا يكون في هذه الرحمة ، إن ربك واسع المغفرة ، فلا تحجروا واسعا ، فإنه لا يقبل التحجير ، قال بعض الأعراب : يا رب ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا .
والنبي صلّى الله عليه وسلم يسمعه .
فقال النبي صلّى الله عليه وسلم : يا هذا لقد حجّرت واسعا ، يعني حجّرته قولا وطلبة،
قال سهل بن عبد الله : لقيت إبليس فعرفته وعرف مني أني عرفته ، فوقعت بيننا مناظرة ، فقال لي وقلت له ، وعلا بيننا الكلام وطال النزاع ، بحيث أن وقفت ووقف ، وحرت وحار ،
فكان من آخر ما قال لي : يا سهل الله عزّ وجل
يقول :« وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » فعمّ ، ولا يخفى عليك أني شيء بلا شك ، لأن لفظة كل تقتضي الإحاطة والعموم ، وشيء أنكر النكرات ، فقد وسعتني رحمته ،
قال سهل : فو الله لقد أخرسني وحيّرني بلطافة سياقه ، وظفره بمثل هذه الآية ، وفهم منها ما لم نفهم ، وعلم منها ما لم نعلم ، فبقيت حائرا متفكرا وأخذت أتلو الآية في نفسي ، فلما جئت إلى قوله تعالى :« فَسَأَكْتُبُها »الآية ،
سررت وتخيلت أني قد ظفرت بحجة وظهرت عليه بما يقصم

ص 180

ظهره ، وقلت له : يا ملعون إن الله قد قيدها بنعوت مخصوصة يخرجها من ذلك العموم ، فقال :« فَسَأَكْتُبُها »فتبسم إبليس
وقال : يا سهل ما كنت أظن أن يبلغ بك الجهل هذا المبلغ ، ولا ظننت أنك هاهنا ، ألست تعلم يا سهل أن التقييد صفتك لا صفته ؟
قال سهل : فرجعت إلى نفسي وغصصت بريقي ، وأقام الماء في حلقي ، وو الله ما وجدت جوابا ، ولا سددت في وجهه بابا ، وعلمت أنه طمع في مطمع ، وانصرف وانصرفت ، وو الله ما أدري بعد هذا ما يكون ، فإن الله سبحانه ما نص بما يرفع هذا الإشكال ، فبقي الأمر عندي على المشيئة منه في خلقه ، لا أحكم عليه في ذلك بأمد ينتهي أو بأمد لا ينتهي ، فهذا إبليس ينتظر رحمة الله أن تناله من عين المنة والجود المطلق ، الذي به أوجب على نفسه سبحانه ما أوجب ، وبه تاب على من تاب وأصلح ، فالحكم لله العلي الكبير عن التقييد في التقييد ، فلا يجب على الله إلا ما أوجبه على نفسه ، وبقيت الرحمة مطلقة ينتظرها من ينتظرها من عين المنة التي كان منها وجوده ، فمهما رأيت الوجوب فاعلم أن التقييد يصحبه ، فإن الله تعالى رحمن بعموم رحمته التي وسعت كل شيء ، رحيم بما أوجب على نفسه لعباده ، فهو رحمن في العموم ، رحيم في الخصوص ، وهو رحمن برحمة الامتنان ، رحيم بالرحمة الخاصة ، وهي الواجبة في قوله »: فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ »الآيات ، وقوله :(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)وأما رحمة الامتنان فهي التي تنال من غير استحقاق بعمل ، وبرحمة الامتنان رحم الله من وفقه للعمل الصالح الذي أوجب له الرحمة الواجبة ، وبها نال العاصي وأهل النار إزالة العذاب وإن كان مسكنهم ودارهم جهنم . ومن صفة من وجبت لهم الرحمة : -

[سورة الأعراف (7) : آية 157]

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)

الضمير في« يَجِدُونَهُ »و« يَأْمُرُهُمْ »يعود على أهل الكتاب ، بأنه نبي مبعوث إليهم

ص 181

أيضا في كتبهم ، فمن إيمانهم بكتبهم إيمانهم به صلّى الله عليه وسلم ، فما آمن أهل الكتاب بكل ما أتى به موسى وعيسى عليهما السلام ، ولو آمنوا بكل ما أتى به موسى وعيسى عليهما السلام لآمنوا بمحمد صلّى الله عليه وسلم وبكتابه« وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ »وهي الأعباء الثقال ، وهؤلاء المذكورون طائفة مخصوصة من أهل الكتاب ، فخرج من ليس بأهل الكتاب من هذا التقييد الوجوبي ، وبقي الحق رحمانا على الإطلاق ، فمن عباد الله من يبسط رحمة الله على عباده طائعهم وعاصيهم ، ومن عباد الله من يريد إزالة رحمة الله عن بعض عباده ، وهو الذي يحجّر رحمة الله التي وسعت كل شيء ، ولا يحجرها على نفسه ، وصاحب هذه الصفة لولا أن الله سبقت رحمته غضبه ، لكان هذا الشخص ممن لا يناله رحمة الله أبدا ، فإن إبليس لما رأى منة الله قد سرت في العالم ، طمع في رحمة الله من عين المنة لا من عين الوجوب الإلهي ، فعمّ كل الأشياء اتساع رحمته تعالى ، فمن حجّر رحمة الله فما حجرها إلا على نفسه ، ولولا أن الأمر على خلاف ذلك ، لم ينل رحمة الله من حجرها وقصرها ، ولكن والله ما يستوى حكم رحمة الله فيمن حجرها بمن لم يحجرها وأطلقها من عين المنة ، فما من شيء إلا وهو طامع في رحمة الله ، فمنهم من تناله بالوجوب ، ومنهم من تناله بحكم المنة .

[سورة الأعراف (7) : آية 158]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)

أرسل رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ودعا إلى الله عزّ وجل على بصيرة ، وقال له تعالى :« قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ »

[هو توحيد الملك]

وهذا هو التوحيد التاسع ، توحيد الهوية في الاسم المرسل ، وهو توحيد الملك ، ولهذا نعته بأنه يحيي ويميت ، فمن أعطى أحيا ونفع ، ومن منع أضر وأمات ، ومن منع لا عن بخل

ص 182

كان منعه حماية وعناية وجودا من حيث لا يشعر الممنوع ، وكان الضرر في حقه حيث لم يبلغ إلى نيل غرضه لجهله بالمصلحة فيما حماه عنه النافع ، ومات هذا الممنوع لكونه لم تنفذ إرادته كما لا تنفذ إرادة الميت ، فهذا منع الله وضرره وإماتته ، فإنه المنعم المحسان ، فأرسل الرسل بالتوحيد تنبيها لإقرارهم في الميثاق الأول« لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ »فهو سبحانه المحيي الذي يعطي الحياة لكل شيء ، فما ثمّ إلا حي ، لأنه ما ثمّ إلا من يسبح الله بحمده ، ولا يسبحه إلا حي ، سواء كان ميتا أو غير ميت ، فإنه حي ، لأن الحياة للأشياء فيض من حياة الحق عليها ، فهي حية في حال ثبوتها ، ولولا حياتها ما سمعت قوله (كن) بالكلام الذي يليق بجلاله فكانت ، وإنما كان محييا لكون حياة الأشياء من فيض اسم الحي كنور الشمس من الشمس المنبسط على الأماكن ، ولم تغب الأشياء عنه لا في حال ثبوتها ولا في حال وجودها ، فالحياة لها في الحالتين مستصحبة ، فهو يحيي ويميت ، وليس الموت بإزالة الحياة في نفس الأمر وعند أهل الكشف ، ولكن الموت عزل الوالي وتولية وال ، لأنه لا يمكن أن يبقى العالم بلا وال يحفظ عليه مصالحه لئلا يفسد ، ألا ترى إلى الميت يسأل ويجيب إيمانا وكشفا ، وأنت تحكم في هذه الحالة أنه ميت ، وما أزال عنه اسم الموت السؤال ، فإن الانتقال موجود ، فلو لا أنه حي في حال موته ما سئل ، فليس الموت بضد الحياة إن عقلت ، فالموت عبارة عن انتقال من منزل الدنيا إلى منزل الآخرة ، ما هو عبارة عن إزالة الحياة منه في نفس الأمر ، وإنما الله أخذ بأبصارنا ، فلا ندرك حياته ، فالميت عندنا ينتقل وحياته باقية عليه لا تزول ، وإنما يزول الوالي ، وهو الروح عن هذا الملك ، الذي وكله الله بتدبيره أيام ولايته عليه ، والميت عندنا يعلم من نفسه أنه حي ، وإنما تحكم عليه بأنه ليس بحي لوقوفك مع بصرك ، ومع حكمك في حاله قبل اتصافه بالموت من حركة ونطق وتصرف ، وقد أصبح متصرفا فيه لا متصرفا ، وهو تنبيه من الله لنا أن الأمر كذا هو ، التصرف فيه للحق لا لك ، في حال دعواك التصرف ، فالموت انتقال خاص على وجه مخصوص ،

لذلك قال تعالى متمما« فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ »فمن وحّده بلسان رسوله لا من لسانه جازاه الله على توحيده جزاء رسوله ، فإن وحده لا بلسان رسوله بل بلسان رسالته جازاه مجازاة إلهية لا تعرف ، تدخل تحت قوله : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ص 183

[سورة الأعراف (7) : الآيات 159 إلى 160]

وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)

[عصا موسى]

-إشارة - ضرب موسى عليه السلام بعصاه الحجر فانفجر ، والبحر المغلق فانفلق ، لأن سر الحياة في العصا ، فلذلك انفجر الحجر ماء ، وسر القيومية فيها فلذلك أظهرت في البحر يبسا ، فسر الحياة في النبات ، والقيومية تعطي التفرقة فانفرق البحر .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 161 إلى 163]

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (162) وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (163)

السبت الراحة والسبت السير السريع في اللسان ، وللراحة تسمى يوم السبت سبتا ، فيوم السبت يوم الراحة ، فإنه سبحانه نظر إلى ما خلق في يوم السبت ، فاستلقى ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، وقال أنا الملك ، لظهور الملك ، ولهذا سمي يوم السبت ، والسبت

ص 184

الراحة ، ولهذا أخبر تعالى أنه ما مسه من لغوب فيما خلقه ، واللغوب الإعياء ، فهي راحة لا عن إعياء كما هي في حقنا - من باب الإشارة لا التفسير -« إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ »يتجاوزون بالراحة حدّها .

[سورة الأعراف (7 :) الآيات 164 إلى 167]

وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (166) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (167

ومن هذه الحقيقة قال صلّى الله عليه وسلم : أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك .

[سورة الأعراف (7) : آية 168]

وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168)

« لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »إلى الله ، فالراجع إلى الله إنما يرجع من المخالفة إلى الموافقة ، ومن المعصية إلى الطاعة.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 169 إلى 172]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (169) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (172)

ص 185

هذا هو الميثاق الثاني بعد وجود آدم ، قبض الحق على ظهره واستخرج منه بنيه ، وأشهدهم على أنفسهم ، وهو العهد الخالص ، أي الدين الخالص ،
والميثاق الأول كان قبل وجود جسد آدم ، وهو ميثاق النبيين ،
وكما ذكرنا في تفسير قوله تعالى :(وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها)
وأن لهذه النشأة الإنسانية صورا مبثوثة في العناصر والأفلاك والسماوات والكرسي والعرش واللوح والقلم ، حتى في العدم ،
كذلك لولا ما كان لنا وجود في صورة آدم العنصرية ، معينين مرئيين متميزين عند الله في علمه ورؤيته وعندنا ما قلنا « بلى » أنت ربنا ، ف
إن آدم عليه السلام لما أوجده الله وسواه كما سوى الأفلاك جعل لنا في صورته صورا ، مثل ما فعل فيما تقدم من المخلوقات ،
ثم قبض على تلك الصور المعينة في ظهر آدم ، وآدم لا يعرف ما يحوي عليه ، كما أنّ كل صورة لنا في كل فلك ومقام لا يعرف بها ذلك الفلك ولا ذلك المقام ، وأنه للحق في كل صورة لنا وجه خاص إليه ، من ذلك الوجه يخاطبنا ،
ومن ذلك الوجه نرد عليه ، ومن ذلك الوجه نقر بربوبيته ، فلو أخذنا من بين يدي آدم لعلمنا ، فكان الأخذ من ظهره غيبا له ، وأخذه أيضا معنا في هذا الميثاق من ظهره ، فإن له معنا صورة في صورته ،
فشهد كما شهدنا ، ولا يعلم أنه أخذ منه ، أو ربما علم ، فإنه ما نحن على يقين من أنه لم يعلم بأنه أخذ منه ولا بأنا أخذنا منه ، فقد ورد في الخبر المشهور الحسن الغريب
[أن الله تجلى لآدم عليه السلام ويداه مقبوضتان
فقال له : يا آدم اختر أيتهما شئت ،
فقال : اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ،
قال : فبسطها ، فإذا آدم

ص 186

وذريته ، فنظر إلى شخص من أضوئهم أو أضوئهم ، فقال : من هذا يا رب ؟
فقال الله له : هذا ابنك داود ، فقال يا رب كم كتبت له ؟
فقال أربعين سنة ، فقال : يا رب وكم كتبت لي ؟
فقال الله : ألف سنة ، فقال : يا رب فقد أعطيته من عمري ستين سنة :
فقال الله له : أنت وذاك ، فما زال يعد لنفسه حتى بلغ تسعمائة وأربعين سنة ، فجاء ملك الموت ليقبض روحه ،
فقال له آدم : إنه بقي لي ستون سنة ، فأوحى الله إلى آدم : أي آدم إنك وهبتها لابنك داود ، فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ،
فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : فمن ذلك اليوم أمر بالكتاب والشهود [فهذا آدم وذريته صورا قائمة في يمين الحق ، وهذا آدم خارج عن تلك اليد ، وهو يبصر صورته وصور ذريته ، في يد الحق ، فأخذ الله الصور من ظهر آدم وآدم فيهم ، وأشهدهم على أنفسهم بمحضر من الملأ الأعلى والصور التي لهم في كل مجلى « أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى »فشهد على نطقهم من حضر ممن ذكرنا بالإقرار بربوبيته عليهم وعبوديتهم له ،
وهو قوله تعالى :« شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ »
فلو كان له شريك فيهم لما أقروا بالملك له مطلقا ، فإن ذلك موضع حق من أجل الشهادة ، فنفس إقرارهم بالملك له بأنه ربهم هو عين نفي الشريك ،
وإنما قلنا ذلك لأنه لم يجر للتوحيد هنا لفظ أصلا ، ولكن المعنى يعطيه ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم في هذه الآية : إن الله لما خلق آدم قبض على ظهره فاستخرج منه كأمثال الذر فأشهدهم على أنفسهم ، ومن رحمة الله بخلقه في أخذ العهد على الناس لما أخذهم الله من ظهور آبائهم ، وأشهدهم على أنفسهم بربوبيته
قالوا :" بلى " أنت ربنا ، ولم يشهدهم بتوحيده ، إبقاء عليهم ، لعلمه أن فيهم من يشرك به إذا خرج إلى الدنيا ، وتبريه من الشريك في العقبى يوم العرض الأكبر ، فإنه لم يذكر الله في هذه الآية عنا في الأخذ الميثاقي إلا الإقرار بوجود الله لا بتوحيده ، ما تعرض للتوحيد فيها ، فقال :« أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ »ولم يقل لهم (ألست بواحد ؟)
لعلمه تعالى بأنه إذا أوجدهم أشرك بعضهم ووحد بعضهم« قالُوا بَلى »
فاجتمعوا في الإقرار له بالربوبية ، أي أنه سيدهم ، وزاد المشرك الشريك ،
وقد يكون العبد مملوكا لاثنين بحكم الشركة ، فأي سيد قال له (ألست بربك ؟)
فلا بد أن يقول العبد بلى ، ويصدق ، فلهذا قلنا إن الإقرار إنما كان بوجود الله ربا له ، أي مالكا وسيدا ، فما كان التصديق إلا بالوجود والملك ، لا بالتوحيد ، وإن كان فيه توحيد فغايته توحيد الملك ،

ص 187

فكانت الفطرة إنما هي بوجود الحق والملك لا بالتوحيد ، وبعد هذا الميثاق يولد كل بني آدم على الفطرة وهو قوله صلّى الله عليه وسلم : [كل مولود يولد على الفطرة] وهو الميثاق الخالص لنفسه ، فقولهم « بلى » هي الفطرة التي ولد الناس عليها ، وإليها ينتهون ، ومن هنا نعلم أن الإيمان في حق الرضيع أثبت ، فإنه ولد على الفطرة ، فطرة الإيمان ، وهو إقراره بالربوبية لله تعالى على خلقه ، حين الأخذ من الظهر والإشهاد ، وما نقل إلينا أنه طرأ أمر أخرج الذرية عن هذا الإقرار وصحته قبل أن يولد ، فلما ولد ولد على تلك الفطرة الأولى ، فإن الروح الإنساني لما خلقه الله خلقه كاملا بالغا عاقلا عارفا مؤمنا بتوحيد الله ، مقرا بربوبيته ، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ولولا ما هو عاقل بذاته ، وهو عقل لنفسه ، ما أقر بربوبية خالقه عند أخذ الميثاق منه بذلك ، إذ لا يخاطب الحق إلا من يعقل عنه خطابه ، ومن هذا الجمع قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : الأرواح أجناد مجندة ، فإنه لما جمعهم جمعهم في حضرة التمثيل ، فما كان وجها لوجه هناك تعارفوا هنا ، وما وقع ظهرا لظهر هناك تناكر هنا ، وما بينهما من وجه إلى ظهر وجانب وغير ذلك ، وبهذا الإقرار كل أحد يقر بهذه الشهادة في الآخرة ، ولا ينكر ولا يدعي لنفسه ربوبية ، وثبت بهذا الإقرار الاسترقاق لله على بني آدم ، فطولبوا بالوفاء بحق العبودية لهذا الإقرار ، ولذلك فإن العبد إذا اشتراه الإنسان من غيره فمن شرطه أن يقر العبد لبائعه بالملك ، ولا يسمع مجرد دعواه في أنه مالك له ، ولا يقوم على العبد حجة بقول سيده ما لم يعترف هو بالملك له ، ويغفل عن هذا القدر كثير من الناس ، فإن الأصل الحرية ، واستصحاب الأصل مرعي ، وبعد الاعتراف بالملك صار الاسترقاق في هذه الرقبة أصلا يستصحب ، حتى تثبت الحرية إن ادعاها ، هكذا هو الأمر ، ولما أخذ الله تعالى الميثاق والعهد في قوله تعالى :« أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ »ألقمه الحجر الأسود ، وأمر بتقبيله تذكرة ، وأخبر بلسان الرسول صلّى الله عليه وسلم أن الحجر يمينه ، ولا تصح المعصية إلا بعد العقد ، ولذلك كان الابتلاء أصله الدعوى ، فمن لا دعوى له لا ابتلاء يتوجه عليه ، ولهذا ما كلفنا الله حتى قال لنا :« أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ »فقلنا :« بَلى »فإقرارنا بربوبيته علينا عين إقرارنا بعبوديتنا له ، والعبودية بذاتها تطلب طاعة السيد ، فلما ادعينا ذلك ، حينئذ كلفنا ليبتلي صدقنا فيما ادعيناه ، وأوجدنا في هذه الدنيا على تلك الفطرة ، فادعى المؤمن الإيمان وهو التصديق بوجود الله وأحديته وأنه لا إله إلا هو إلى غير ذلك ، فلما ادعى بلسانه أن هذا مما انطوى

ص 188

عليه جنانه ، وربط عليه قلبه ، احتمل أن يكون صادقا فيما ادعاه أنه صفة له ، ويحتمل أن يكون كاذبا في أن ذلك صفة له ، فاختبره الله لإقامة الحجة له أو عليه ، بما كلفه من عبادته على الاختصاص ، لا العبادة السارية بسريان الألوهية ، ونصب له وبين عينيه الأسباب ، وأوقف ما تمسّ حاجة هذا المدعي على هذه الأسباب ، فلم يقض له بشيء إلا منها وعلى يديها ،

فإن رزقه الله نورا يكشف به ويخترق سدف هذه الأسباب ، فيرى الحق تعالى من ورائها مسببا اسم فاعل ، أو يراه فيها خالقا وموجدا لحوائجه التي اضطره إليها ، فذلك المؤمن الذي هو على نور من ربه وبينة من أمره ، الصادق في دعواه ، الموفي حق المقام الذي ادعاه ، بالعناية الإلهية التي أعطاه ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ،

قال بألوهية الأسباب التي رزقه الله منها وجعلها حجبا بينه وبين الله ، فأضاف الألوهة إلى غير مستحقها ، فكذب في دعواه لكثرة الأسباب ، وإقراره في شركه بأن ذلك قربة منه إلى الله خالق الأسباب ، فلم يصدق ،

والذي لم يقل بنسبة الألوهة للأسباب ، لكنه لم ير إلا الأسباب وما حصل له من الكشف ما يخرجه عنها ، مع توحيد الألوهة ،

كان ذلك شركا خفيا لا يشعر به صاحبه أنه شرك يحجبه عن الأمر العالي الذي طلب به ، فلم يوجد صاحب هذه الدعوى في توحيد الله وتوحيده في أفعاله - مع الاضطراب عند فقد السبب وسكونه عند وجوده - صادقا ، فنقصه على قدر ما فاته من ذلك ، هذا ولم يجعل الأسباب آلهة ، فاختبر الله العباد بما شرع لهم بإرسال الرسل ، واختبر الله المؤمنين بالأسباب ، فكل صنف اختبره بحسب دعواه ، ولما وضع الله الأسباب لم يرفعها في حق أحد ،

وإنما أعطى بعض عباده من النور ما اهتدى به في المشي في ظلمات الأسباب ، غير ذلك ما فعل ، فعاينوا من ذلك على قدر أنوارهم ، فحجب الأسباب مسدلة لا ترفع أبدا ، فلا تطمع ، وإن نقلك الحق من سبب ، فإنما ينقلك بسبب آخر ،

فلا يفقدك السبب جملة واحدة ، فإنه حبل الله الذي أمرك بالاعتصام به ، وهو الشرع المنزل ، وهو أقوى الأسباب وأصدقها ، وبيده النور الذي يهتدى به في ظلمات بر هذه الأسباب وبحرها ، فمن عمل كذا وهو السبب ، فجزاؤه كذا ،

فلا تطمع فيما لا مطمع فيه ، ولكن سل الله رشة من ذلك النور على ذاتك« شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ »

- **نصيحة** - اعلم أن الإنسان يغفل ويسهو وينسى ، ويرى لنفسه مرتبة سيادة في وقت غفلته على غيره من العباد ، فإذ ولا بد من هذا فليجتهد

ص 189

أن يكون عند الموت عبدا محضا ، ليس فيه شيء من السيادة على أحد من المخلوقين ، ويرى نفسه فقيرة إلى كلّ شيء من العالم من حيث فقره إلى اللّه[قولهم » : بَلى «]

-تحقيق - اعلم أنه إذا انقطعت الأعمال من العبيد التي كانت عن تكليف مشروع لم تنقطع العبادة ، فإذا تناهى حد العمل الحسن والقبيح في أهل الجنة وأهل النار ، بقي جزاؤهم جزاء العبادة في السعداء ، وجزاء العبودية في أهل النار ، وهو جزاء لا ينقطع أبدا ، فهذا أعطاهم اتساع الرحمة وشمولها ، فإن المجرمين لم يزل عنهم شهود عبوديتهم وإن ادعوا ربانية ، فيعلمون من نفوسهم أنهم كاذبون ، بما يجدونه ، فتزول الدعوى بزوال أوانها ، وتبقى عليهم نسبة العبودية التي كانوا عليها في حال الدعوى وقبل الدعوى ، ويجنون ثمرة قولهم :" بَلى "
فكانوا بمنزلة من أسلم بعد ارتداده ، فحكم على الكل سلطان« بَلى »فأعقبهم سعادة بعد ما مسهم من الشقاء بقدر ما كانوا عليه في زمان الدعوى ، فما زال حكم« بَلى »يصحبهم من وقته إلى ما لا يتناهى دنيا وبرزخا وآخره ، وعرضت عوارض لبعض الناس أخرجتهم في الظاهر عن حكم توحيدهم ، بما ادعوه من الألوهة في الشركاء ، فأثبتوه وزادوا ، وكل عارض زائل ، وحكمه يزول بزواله ، ويرجع الحكم إلى الأصل ، والأصل يقتضي السعادة ، فمآل الكل إن شاء اللّه إليها مع عمارة الدارين ، ولكل واحدة ملؤها ، والرحمة تصحبها كما صحبت هنا العبودية لكل أحد ممن بقي عليها أو ادعى الربوبية ، فإنه ادعى أمرا يعلم من نفسه خلافه ، فيرجع الأمر في الآخرة إلى حكم أخذ الميثاق بالرحمة التي وسعت كل شيء - إشارة - إنما كان الأخذ من ورائك ، ولو كان من أمامك ما ضل أحد ، التفسير حمل الظهور على الظهر ، والإشارة حمله على الظهور الذي هو ضد الخفا ، فكأنه يقول : أخذهم من ظهورهم لهم إلى ظهورهم له ، فأقروا ، أما قوله : (لو كان من أمامك ما ضل أحد) أي لو شهدتني من كوني قادرا ولا سبيل إلى ذلك ، ولما وقع حينئذ إنكار قط ، والأخذ إشارة إلى القهر .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 173 إلى 175]

أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173)وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ(175)

ص 190

وهو ابن باعورا ، وكان قد آتاه الله العلم بخاصية آية من آياته ، فدعا بها على موسى عليه السلام وقومه ، فأجابه الله فيما دعا فيه ، وشقي هو في نفسه وسلب الله عنه علم ذلك ، وجعل مثله كمثل الكلب ، وهنا نكتة أحب بيانها وإن قليلا ما يقع التنبيه عليها ، وربما غلط فيها قوم من حيث الجواز الإمكاني ، والوجود قد ثبت على أحد طرفي الممكن ، فلا سبيل إلى انقلابه ، وهو أن الحق سبحانه ما تجلى لشيء قط واحتجب عنه ، ولا كتب في قلبه إيمانا فمحاه ، وكل من قال استتر عني بعد التجلي ، فما تجلى له قط ، ولكن جلّي له فقال : هو هو ، ولا ثبات للكون على حال ، فتغير عليه ، فكذلك كتبه الإيمان وإتيان الآيات والبينات ، إذا أعطيت في القلوب وقامت شواهدها منها فلا تزال أبدا ، فإذا أزيل عن شخص مثل هذا ، فاعلم أنه ما كتب قط في لوح قلبه ، ولا كان رداء عليها ، لكن كانت رداء عليه ، وأعطي عبارتها ولسانها ، لا أعيانها ووجودها ، فمثل هذا العطاء يسترد ويزال ، ولذلك قال :« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها »فقوله »: فَانْسَلَخَ مِنْها »كما يسلخ الرجل من ثوبه ، والحية من جلدها ، فكانت عليه رداء كما ذكرنا ، لم يكن عنده سوى النطق ، فإذا نطق ظهر مكنون الاسم وأثره بالخاصية ، ولا يشترط في الخواص المفردة تطهير ولا تقديس ولا حضور ولا جمعية ولا كفر ولا إيمان ، إلا بمجرد ما يكون النطق بتلك الحروف المعينة ظهر الأثر ، ولو كان القائل غافلا عن نطقه ، فدل على أن الآيات كانت على بلعام ابن باعورا في الظاهر كالثوب ، فإنه أعطي الحروف ، فكان يفعل بالخاصية لا بالصدق ، فعمل بها في غير طاعة الله فأشقاه الله ، ولو كان في باطنه لمنعه الحياء والمقام من الدعاء على نبي من الأنبياء ، وأجيب لخاص الاسم ، وعوقب وجعل مثل الكلب ، ونسي حروف ذلك الاسم .

[سورة الأعراف : (7) الآيات 176 إلى 179]

وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (177) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (178)
وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (179)

ص 191

»لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها »فهم المحجوبون لا يعلمون ولا يشهدون ، فالعين طريق ، والعلم تحقيق ، فما تنظر إلا لتعلم ، ولا تخاطب إلا لتفهم ، والتلبيس يدخل على البصر ، ومن استعمله العلم كان بحكم الفهم ، فالشهادة على الخبر أقوى في الحكم من شهادة البصر ، فإذا أنصف الإنسان ، فرق بين الإيمان والعيان ، فالتصديق بالخبر فوق الحكم بما يشهده البصر ، فإذا أنصف الإنسان ، فرق بين الإيمان والعيان ، فالتصديق بالخبر فوق الحكم بما يشهده البصر ، إلا إذا نظر واعتبر« أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »الإنسان الحيوان حكمه حكم سائر الحيوان ، إلا أنه يتميز عن غيره من الحيوان بالفصل المقوم له ، كما يتميز الحيوان بعضه عن بعض الفصول المقومة لكل واحد من الحيوان ، فالإنسان الحيواني من جملة الحشرات ، فقال تعالى في أهل الضلال :« أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ »فإن لهم قلوبا يعقلون بها ، وإن لهم أعينا يبصرون بها ، وإن لهم آذانا يسمعون بها ، فأنزلوا أنفسهم منزلة الأنعام« بَلْ هُمْ أَضَلُّ »لأن الأنعام ما جعل الله لهم هذه القوى التي توجب لصاحب البصر أن يعتبر ، ولصاحب الأذن أن يعي ما يسمع ، ولصاحب القلب أن يعقل ، فرتبة خلق الإنسان الحيواني من الإنسان الكامل رتبة خلق النسناس من الإنسان الحيواني .

[سورة الأعراف (7) : آية 180]

وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (180)

[مراتب الأسماء الإلهية]

مراتب الأسماء الإلهية : الأسماء الإلهية على ثلاث مراتب ، أسماء تدل على الذات لا تدل

ص 192

على أمر آخر ، وأسماء تدل على صفات تنزيه ، وأسماء تدل على صفات أفعال ، وما ثم مرتبة رابعة ، وكل هذه الأسماء قد ظهرت في العالم ، فأسماء الذات يتعلق بها ولا يتخلق وأسماء صفات التنزيه يقدس بها جناب الحق تعالى ويتخلق بها العبد بحسب ما تعطيه مما يليق به ، فكما أن العبد يقدس جلال الله أن تقوم به صفات الحدوث ، كذلك يقدّس العبد بهذه الأسماء في التخلق بها أن تقوم به صفات القدم والغنى المطلق ، وأسماء صفات الأفعال يوحد العبد بها ربه فلا يشرك في فعله تعالى أحدا من خلقه .

شرح الأسماء الحسنى وتعلقها : نسب الحق تعالى إلى نفسه الأسماء الحسنى دون غيرها من الأسماء ، وإن كانت أسماء له في الحقيقة ، إلا أنه عرّاها عن النعت بالحسنى فهو عزّ وجل « الله » من حيث هويته وذاته . « الرحمن » بعموم رحمته التي وسعت كل شيء . « الرحيم » بما أوجب على نفسه للتائبين من عباده » .الرب » بما أوجده من المصالح لخلقه . « الملك » بنسبة ملك السماوات والأرض إليه ، فإنه رب كل شيء ومليكه . « القدوس » بقوله وما قدروا الله حق قدره ، وتنزيهه عن كل ما وصف به . « السلام » بسلامته من كل ما نسب إليه مما كره من عباده أن ينسبوه إليه . « المؤمن » بما صدق عباده ، وبما أعطاهم من الأمان إذا وفوا بعهده .

« المهيمن » على عباده بما هم فيه من جميع أحوالهم مما لهم وعليهم .

»العزيز » لغلبه من غالبه إذ هو الذي لا يغالب ، وامتناعه في علو قدسه أن يقاوم .

»الجبار » بما جبر عليه عباده في اضطرارهم واختيارهم ، فهم في قبضته » .

المتكبر » لما حصل في النفوس الضعيفة من نزوله إليهم في خفي ألطافه لمن تقرب بالحد والمقدار ، من شبر وذراع وباع وهرولة وتبشيش وفرح وتعجب وضحك وأمثال ذلك . « الخالق » بالتقدير والإيجاد .

« الباري » بما أوجده من مولدات الأركان .

« المصور » بما فتح في الهباء من الصور ، وفي أعين المتجلى لهم من صور التجلي المنسوبة إليه ما نكر منها وما عرف وما أحيط بها وما لم يدخل تحت إحاطة.

« الغفار » بمن ستر من عباده المؤمنين .

" الغافر " بنسبة اليسير إليه .

« الغفور » بما أسدل من الستور من أكوان وغير أكوان .

"القهار " من نازعه من عباده بجهالة ولم يتب .

« الوهاب » بما أنعم به من العطاء لينعم ، لا جزاء ولا ليشكر به ويذكر .

« الكريم » المعطي عباده ما سألوه منه .

« الجواد » المعطي قبل السؤال ليشكروه فيزيدهم ويذكروه فيثيبهم .

" السخي " بإعطاء كل شيء خلقه ،

ص 193

وتوفيته حقه .
« الرزاق » بما أعطى من الأرزاق لكل متغذ من معدن ونبات وحيوان وإنسان من غير اشتراط كفر ولا إيمان .
« الفتاح » بما فتح من أبواب النعم والعقاب والعذاب .
"العليم " بكثرة معلوماته . « العالم » بأحدية نفسه .
« العلام » بالغيب فهو تعلق خاص ، والغيب لا يتناهى ، والشهادة متناهية إذا كان الوجود سبب الشهود والرؤية كما يراه بعض النظار ، وعلى كل حال فالشهادة خصوص .
" القابض " بكون الأشياء في قبضته ، والأرض جميعا قبضته ، وكون الصدقة تقع بيد الرحمن فيقبضها .
« الباسط » بما بسطه من الرزق الذي لا يعطي البغي بسطه ، وهو القدر المعلوم ، وأنه تعالى يقبض ما شاء من ذلك لما فيه من الابتلاء والمصلحة ، ويبسط ما شاء من ذلك لما فيه من الابتلاء والمصلحة .
" الرافع " من كونه تعالى بيده الميزان ، يخفض القسط ويرفعه ، فيرفع ليؤتي الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ويغني من يشاء .
« الخافض » لينزع الملك ممن يشاء ، ويذل من يشاء ، ويفقر من يشاء ، بيده الخير وهو الميزان فيوفي الحقوق من يستحقها ، وفي هذه الحال لا يكون معاملة الامتنان فإن استيفاء الحقوق من بعض الامتنان أعم في التعلق .
« المعز » « المذل » فأعز بطاعته ، وأذل بمخالفته ، وفي الدنيا أعز بما آتى من المال من أتاه ، وبما أعطى من اليقين لأهله ، وبما أنعم به من الرئاسة والولاية والتحكم في العالم بإمضاء الكلمة والقهر ، وبما أذل به الجبارين والمتكبرين ، وبما أذل به في الدنيا بعض المؤمنين ، ليعزهم في الآخرة ، ويذل من أورثهم الذلة في الدنيا لإيمانهم وطاعتهم .
« السميع » دعاء عباده إذا دعوه في مهماتهم فأجابهم من اسمه السميع ، فإنه تعالى ذكر في حد السمع فقال : ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، ومعلوم أنهم سمعوا دعوة الحق بآذانهم ، ولكن ما أجابوا ما دعوا إليه وهكذا يعامل الحق عباده من كونه سميعا . « البصير » بأمور عباده كما قال لموسى وهارون إنني معكما أسمع وأرى ، فقال لهما : لا تخافا فإذا أعطى بصره الأمان ، فذلك معنى البصير ، لا أنه يشهده ويراه فقط ، فإنه يراه حقيقة سواء نصره أو خذله أو اعتنى به أو أهمله . « الحكم » بما يفصل به من الحكم يوم القيامة بين عباده ، وبما أنزل في الدنيا من الأحكام المشروعة ، والنواميس الوضعية الحكمية ، كل ذلك من الاسم الحكم . « العدل « بحكمه بالحق ، وإقامة الملة الحنيفية ، قل رب احكم بالحق ، فهو ميل إليه إذ قد جعل للهوى حكما من اتبعه ضل عن سبيل الله . « اللطيف » بعباده فإنه يوصل

ص 194

إليهم العافية مندرجة في الأدوية الكريهة ، فأخفى من ضرب المثل في الأدوية المؤلمة المتضمنة الشفاء والراحة لا يكون ، فإنه لا أثر لها في وقت الاستعمال مع علمنا بأنها في نفس استعمال ذلك الدواء ، ولا نحسّ بها للطافتها . ومن باب لطفه سريانه في أفعال الموجودات وهو قوله :« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ »ولا نرى الأعمال إلا من المخلوقين ، ونعلم أن العامل لتلك الأعمال إنما هو الله ، فلو لا لطفه لشوهد .

« الخبير » بما اختبر به عباده ومن اختباره قوله :

»حتى نعلم » فيرى هل ننسب إليه حدوث العلم أم لا ، فانظر أيضا هذا اللطف ، ولذلك قرن الخبير باللطيف فقال اللطيف الخبير . « الحليم » هو الذي أمهل وما أهمل ، ولم يسارع بالمؤاخذة لمن عمل سوءا بجهالة ، مع تمكنه أن لا يجهل وأن يسأل وينظر حتى يعلم .

»العظيم » في قلوب العارفين به . « الشكور » لطلب الزيادة من عباده مما شكرهم عليه ، وذكرهم به من عملهم بطاعته ، والوقوف عند حدوده ورسومه وأوامره ونواهيه ،

وهو يقول :« لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ »فبذلك يعامل عباده ، فطلب منهم بكونه شكورا أن يبالغوا فيما شكرهم عليه . « العلي »في شأنه وذاته عما يليق بسمات الحدوث ، وصفات المحدثات .

« الكبير » بما نصبه المشركون من الآلهة ، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام :« بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ »وهنا الوقف ويبتدئ« هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ »فلو نطقوا لاعترفوا بأنهم عبيد ، وأن الله هو الكبير العلي العظيم . « الحفيظ » بكونه بكل شيء محيط ، فاحتاط بالأشياء ليحفظ عليها وجودها ، فإنها قابلة للعدم كما هي قابلة للوجود ، فمن شاء سبحانه أن يوجده فأوجده حفظ عليه وجوده ، ومن لم يشأ أن يوجد وشاء أن يبقيه في العدم حفظ عليه العدم ، فلا يوجد ما دام يحفظ عليه العدم ، فإما أن يحفظه دائما أو إلى أجل مسمى .

»المقيت » بما قدر في الأرض من الأقوات وبما أوحى في السماء من الأمور فهو سبحانه يعطى قوت كل متقوت على مقدار معلوم . « الحسيب » إذا عدد عليك نعمه ، ليريك منته عليك ، لمّا كفرت بها فلم يؤاخذك لحلمه وكرمه وبما هو كافيك عن كل شيء ، لا إله إلا هو العليم الحكيم .

« الجليل » لكونه عز فلم تدركه الأبصار ولا البصائر ، فعلا ونزل بحيث أنه مع عباده أينما كانوا كما يليق بجلاله ، إلى أن بلغ في نزوله أن قال لعبده مرضت فلم تعدني ، وجعت فلم تطعمني ، وظمئت فلم تسقني ، فأنزل نفسه من عباده منزلة عباده من عباده ، فهذا من حكم هذا الاسم الإلهي .

« الرقيب » لما هو عليه من لزوم الحفظ لخلقه ، فإن

ص 195

ذلك لا يثقله وليعلم عباده أنه إذا راقبهم يستحون منه ، فلا يراهم حيث نهاهم ، ولا يفقدهم حيث أمرهم . « المجيب » من دعاه لقربه وسماعه دعاء عباده كما أخبر عن نفسه« وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ »فوصف نفسه بأنه متكلم إذ المجيب من كان ذا إجابة وهي التلبية . « الواسع » العطاء بما بسط من الرحمة التي وسعت كل شيء ، وهي مخلوقة فرحم بها كل شيء ، وبها أزال غضبه عن عباده . « الحكيم « بإنزال كل شيء منزلته ، وجعله في مرتبته ، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، وقد قال عن نفسه : إن بيده الخير وقال صلّى الله عليه وسلم : والخير كله بيديك فلم يبق منه شيئا والشر ليس إليك .

« الودود » الثابت حبه في عباده ، فلا يؤثر فيما سبق لهم من المحبة معاصيهم ، فإنها ما نزلت بهم إلا بحكم القضاء والقدر السابق ، لا للطرد والبعد« لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ »فسبقت المغفرة للمحبين اسم مفعول . « المجيد » لما له من الشرف على كل موصوف بالشرف فإن شرف العالم بما هو منسوب إلى الله أنه خلقه وفعله فما هو شرفه بنفسه فالشريف على الحقيقة من شرفه بذاته وليس إلا الله . « الباعث » عموما وخصوصا ، فالعموم بما بعث من الممكنات إلى الوجود من العدم ، وهو بعث لم يشعر به كل أحد إلا من قال بأن للممكنات أعيانا ثبوتية ، وإن لم يعثر على ما أشرنا إليه القائل بهذا ، ولما كان الوجود عين الحق فما بعثهم إلا الله بهذا الاسم خاصة ، ثم خصوص البعث في الأحوال كبعث الرسل ، والبعث من الدنيا إلى البرزخ نوما وموتا ، ومن البرزخ إلى القيامة ، وكل بعث في العالم في حال وعين ، فمن الاسم الباعث فهو من أعجب اسم تسمى الحق به تعريفا لعباده .

" الشهيد " لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، ولعباده بما فيه الخير والسعادة لهم بما جاءوا به من طاعة الله وطاعة رسوله ، وبما كانوا عليه من مكارم الأخلاق ، وشهيد عليهم بما كانوا فيه من المخالفات والمعاصي وسفساف الأخلاق ، ليريهم منة الله وكرمه بهم حيث غفر لهم وعفا عنهم ، وكان مآلهم عنده إلى شمول الرحمة ، ودخولهم في سعتها إذ كانوا من جملة الأشياء وأنّ تلك الأشياء المسماة مخالفة لم يبرزها الله من العدم إلى الوجود إلا برحمته ، فهي مخلوقة من الرحمة ، وكان المحل الذي قامت به سببا لوجودها ، لأنها لا تقوم بنفسها وإنما تقوم بنفس المخالف ، وقد علمت أنها مخلوقة من الرحمة ، ومسبحة بحمد خالقها ، فهي تستغفر للمحل الذي قامت به حتى ظهر وجود عينها لعلمها بأنها لا تقوم بنفسها . « الحق » الوجود الذي لا يأتيه

ص 196

الباطل ، وهو العدم من بين يديه ولا من خلفه ، فمن بين يديه من قوله لما خلقت بيدي ، ومن خلفه لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلم : ليس وراء الله مرمى ، فنسب إليه الوراء وهو الخلف ، فهو وجود حق لا عن عدم ، ولا يعقبه عدم ، بخلاف الخلق فإنه عن عدم ويعقبه العدم من حيث لا يشعر به ، فإن الوجود والإيجاد لا ينقطع ، فما ثم في العالم من العالم إلا وجود وشهود ، دنيا وآخرة من غير انتهاء ولا انقطاع ، فأعيان تظهر فتبصر . « الوكيل « الذي وكله عباده على النظر في مصالحهم ، فكان من النظر في مصالحهم أن أمرهم بالإنفاق على حد معين ، فاستخلفهم فيه بعد ما اتخذوه وكيلا ، فالأموال له بوجه ، فاستخلفهم فيها .

والأموال لهم بوجه فوكلوه في النظر فيها ، فهي لهم بما لهم فيها من المنفعة ، وهي له بما هي عليه من تسبيحها بحمده ، فمن اعتبر التسبيح قال : إن الله ما خلق العالم إلا لعبادته ، ومن راعى المنفعة قال : إن الله ما خلق العالم إلا لينفع بعضه بعضا .

« القوي المتين » هو ذو القوة لما في بعض الممكنات أو فيها مطلقا من العزة ، وهي عدم القبول للأضداد ، فكان من القوة خلق عالم الخيال ، ليظهر فيه الجمع بين الأضداد ، لأن الحس والعقل يمتنع عندهما الجمع بين الضدين ، والخيال لا يمتنع عنده ذلك ، فما ظهر سلطان القوي ، ولا قوته إلا في خلق القوة المتخيلة وعالم الخيال ، فإنه أقرب في الدلالة على الحق ، فإن الحق هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، فما حاز الصورة على الحقيقة إلا الخيال ، وهذا ما لا يسع أحدا إنكاره ، فإنه يجده في نفسه ويبصره في منامه ، فيرى ما هو محال الوجود موجودا ، فتنبه لقوله : إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . « الولي » هو الناصر من نصره ، فنصرته مجازاة ، ومن آمن به فقد نصره ، فالمؤمن يأخذ نصر الله من طريق الوجوب ، فإنه قال : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » مثل وجوب الرحمة عليه سواء . قال تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح » وأين هذا من اتساعها ؟ فنصرة الله تشبه رحمة الوجوب ، وتفارق رحمة الامتنان الواسعة ، فإنه ما رأينا فيما أخبرنا به تعالى نصرة مطلقة ، وإنما رأيناها مقيدة إما بالإيمان وإما بقوله : « إن تنصروا الله ينصركم . »

»الحميد » بما هو حامد بلسان كل حامد وبنفسه ، وبما هو محمود بكل ما هو مثنى عليه وعلى نفسه ، فإن عواقب الثناء عليه تعود . « المحصي » كل شيء عددا ، من حروف وأعيان وجودية ، إذ كان التناهي لا يدخل إلا في الموجودات ، فيأخذه الإحصاء فهذه الشيئية شيئية

ص 197

الوجود وفي قوله وأحصى كل شيء عددا . « المبدى » هو الذي ابتدأ الخلق بالإيجاد في الرتبة الثانية ، وكل ما ظهر من العالم ويظهر فهو فيها ، وما ثم مرتبة ثالثة فهي الآخر والأولى للحق ، فهو الأول ، فالخلق من حيث وجوده لا يكون في الأول أبدا ، وإنما له الآخر ، والحق معه في الآخر ، فإنه مع العالم أينما كانوا ، وقد تسمى بالآخر فاعلم .

« المعيد » عين الفعل من حيث ما هو خالق وفاعل وجاعل وعامل ، فهو إذا خلق شيئا وفرغ خلقه ، عاد إلى خلق آخر ، لأنه ليس في العالم شيء يتكرر ، وإنما هي أمثال تحدث ، وهي الخلق الجديد ، وأعيان توجد .

« المحيي » بالوجود كل عين ثابتة لها حكم قبول الإيجاد ، فأوجدها الحق في وجوده.

« المميت » في الزمان الثاني فما زاد من زمان وجودها فمفارقتها وانتقالها لحال الوجود الذي كان لها موت ، وقد يرجع إلى حكمها من الثبوت الذي كان لها فمن المحال وجودها بعد ذلك حتى تفرغ ، وهي لا تفرغ لعدم التناهي فيها فافهم . « الحي » لنفسه لتحقيق ما نسب إليه مما لا يتصف به إلا من من شرطه أن يكون حيا .

« القيوم » لقيامه على كلّ نفس بما كسبت .

« الواجد » بالجيم لما طلب فلحق ، فلا يفوته هارب ، كما لا يلحقه في الحقيقة طالب معرفته .

« الواحد » من حيث ألوهته فلا إله إلا هو .

" الصمد " الذي يلجأ إليه في الأمور ولهذا اتخذناه وكيلا .

« القادر » هو النافذ الاقتدار في القوابل الذي يريد فيها ظهور الاقتدار لا غير .

" المقتدر " بما عملت أيدينا فالاقتدار له ، والعمل يظهر من أيدينا ، فكل يد في العالم لها عمل فهي يد الله ، فإن الاقتدار لله فهو تعالى قادر بنفسه ، مقتدر بنا .

« المقدم » « المؤخر » من شاء لما شاء ومن شاء عما شاء .

« الأول » « الآخر » بالوجوب وبرجوع الأمر كله إليه .

« الظاهر » « الباطن » لنفسه ظهر فما زال ظاهرا وعن خلقه بطن ، فما يزال باطنا فلا يعرف أبدا .

" البر " بإحسانه ونعمه وآلائه التي أنعم بها على عباده .

« التواب » لرجوعه على عباده ليتوبوا ، ورجوعه بالجزاء على توبتهم .

« المنتقم » ممن عصاه تطهيرا له من ذلك في الدنيا بإقامة الحدود ، وما يقوم بالعالم من الآلام ، فإنها كلها انتقام وجزاء خفي لا يشعر به كل أحد ، حتى إيلام الرضيع جزاء .

" العفو " لما في العطاء من التفاضل في القلة والكثرة وأنواع الأعطيات على اختلافها لا بد أن يدخلها القلة والكثرة ، فلا بد أن يعمها العفو ، فإنه لا بد من الأضداد كالجليل.

"الرؤوف " بما ظهر في العباد من الصلاح والأصلح ، لأنه من المقلوب وهو ضرب من

ص 198

الشفقة » .الوالي » لنفسه على كل من ولي عليه ، فولي على الأعيان الثابتة فأثر فيها الإيجاد ، وولي على الموجودات فقدم من شاء ، وأخر من شاء ، وحكم فعدل ، وأعطى فأفضل .
»المتعالي » على من أراد علوا في الأرض ، وادعى له ما ليس له بحق » . المقسط » هو ما أعطى بحكم التقسيط ، وهو قوله « وما ننزله إلا بقدر معلوم « وهو التقسيط . « الجامع » بوجوده لكل موجود فيه . « الغني » عن العالمين بهم .
« المغني » من أعطاه صفة الغنى بأن أوقفه على أن علمه بالعالم تابع للمعلوم ، فما أعطاه من نفسه شيئا فاستغنى عن الأثر منه فيه لعلمه بأنه لا يوجد فيه إلا ما كان عليه . « البديع » الذي لم يزل في خلقه على الدوام بديعا لأنه يخلق الأمثال وغير الأمثال ، ولا بد من وجه به يتميز المثل عن مثله ، فهو البديع من ذلك الوجه .
« الضار » « النافع » بما لا يوافق الغرض وبما يوافقه .
« النور » لما ظهر من أعيان العالم ، وإزالة ظلمة نسبة الأفعال إلى العالم .
« الهادي » بما أبانه للعلماء به مما هو الأمر عليه في نفسه .
« المانع » لإمكان إرسال ما مسكه ، وما وقع الإمساك إلا لحكمة اقتضاها علمه في خلقه .
« الباقي » حيث لا يقبل الزوال ، كما قبلته أعيان الموجودات بعد وجودها ، فله دوام الوجود ، ودوام الإيجاد .
« الوارث » لما خلفناه عند انتقالنا إلى البرزخ خاصة .
« الرشيد » بما أرشد إليه عباده في تعريفه إياهم بأنه تعالى على صراط مستقيم في أخذه بناصية كل دابة ، فما ثم إلا من هو على ذلك الصراط ، والاستقامة مآلها إلى الرحمة ، فما أنعم الله على عباده بنعمة أعظم من كونه آخذا بناصية كل دابة ، فما ثم إلا من مشي به على الصراط المستقيم . « الصبور » على ما أوذى به في قوله : « إن الذين يؤذون الله ورسوله » فما عجل لهم في العقوبة مع اقتداره على ذلك ، وإنما أخر ذلك ليكون منه ما يكون على أيدينا من رفع ذلك عنه بالانتقام منهم ، فيحمدنا على ذلك ، فإنه ما عرفنا به مع اتصافه بالصبور إلا لندفع ذلك عنه ونكشفه ، هذا فيما ورد عن الأسماء أما الكنايات فإذا جاءت في كلام الرسول عن الله تعالى أو في كتاب الله فلننظر القصة والضمير ونحكم على تلك الكناية بما يعطيه الحال في القصة المذكورة لا يزاد في ذلك ولا ينقص منه .
واعلم أنه لما كانت الأسماء الإلهية نسبا تطلبها الآثار لذلك لا يلزم ما تعطل حكمه منها ما لم يتعطل وإنما يقدح ذلك لو اتفق أن تكون أمرا وجوديا ، فالله إله سواء وجد العالم أو لم يوجد ، فإن بعض المتوهمين تخيل أن الأسماء تدل على أعيان وجودية قائمة بذات الحق

ص 199

فإن لم يكن حكمها يعم وإلا بقي منها ما لا أثر له معطلا . فلما خلق الله العالم رأيناه ذا مراتب وحقائق مختلفة ، تطلب كل حقيقة منه من الحق نسبة خاصة ، فلما أرسل تعالى رسله كان مما أرسلهم به لأجل تلك النسب أسماء تسمى بها لخلقه ، يفهم منها دلالتها على ذاته تعالى ، وعلى أمر معقول لا عين له في الوجود ، له حكم هذا الأثر والحقيقة الظاهرة في العالم من خلق ورزق ، ونفع وضر ، وإيجاد واختصاص ، وأحكام وغلبة وقهر ولطف ، وتنزل واستجلاب ومحبة ، وبغض وقرب ، وبعد وتعظيم وتحقير ، وكل صفة ظاهرة في العالم تستدعي نسبة خاصة لها اسم معلوم عندنا من الشرع ، فمنها مشتركة وإن كان لكل واحد من المشتركة معنى إذا تبين ظهر أنها متباينة فالأصل في الأسماء التباين والاشتراك فيه لفظي ، ومنها متباينة ومنها مترادفة ، ومع ترادفها فلا بد أن يفهم من كل واحد معنى لا يكون في الآخر ، فعلمنا ما سمى به نفسه واقتصرنا عليها .

[« بحث في الأسماء الإلهية »]

»بحث في الأسماء الإلهية » تنقسم الأسماء الإلهية إلى أسماء إلهية تطلب العالم ، ويطلبها العالم ، كالاسم الرب والقادر والخالق والنافع والضار والمحيي والمميت والقاهر والمعز والمذل إلى أمثال هذه الأسماء .

وثم أسماء إلهية لا تطلب العالم ، ولكن يستروح منها نفس من أنفاس العالم من غير تفصيل ، كما يفصل بين هذه الأسماء التي ذكرناها آنفا فأسماء الاسترواح كالغني والعزيز والقدوس وأمثال هذه الأسماء ، وما وجدنا لله أسماء تدل على ذاته خاصة من غير تعقل معنى زائد على الذات فإنه ما ثم اسم **إلا على أحد أمرين:**

إما ما يدل على فعل وهو الذي يستدعي العالم ولا بد ، فإنه من المحال أن يكون في العالم شيء ليس له مستند إلى أمر إلهي يكون نعتا للحق كان ما كان ،

وإما ما يدل على تنزيه وهو الذي يستروح منه صفات نقص كوني تنزه الحق عنها ، غير ذلك ما أعطانا الله .

فما ثم اسم علم ما فيه سوى العلمية لله أصلا إلا إن كان ذلك في علمه أو ما استأثر الله به في غيبه مما لم يبده لنا ، وسبب ذلك لأنه تعالى ما أظهر أسماءه لنا إلا للثناء بها عليه ، فمن المحال أن يكون فيها اسم علمي أصلا ، لأن الأسماء الأعلام لا يقع بها ثناء على المسمى ، لكنها أسماء أعلام للمعاني التي تدل عليها ،

وتلك المعاني هي التي يثنى بها على من ظهر عندنا حكمه بها فينا ، وهو المسمى بمعانيها ، والمعاني هي المسماة بهذه الأسماء اللفظية ، كالعالم والقادر وباقي الأسماء.

فلله الأسماء الحسنى وليست إلا المعاني ، لا هذه الألفاظ ، فإن الألفاظ لا تتصف بالحسن والقبح إلا

ص 200

بحكم التبعية لمعانيها الدالة عليها ، فلا اعتبار لها من حيث ذاتها ، فإنها ليست بزائدة على حروف مركبة ونظم خاص يسمى اصطلاحا . واعلم أن أسماء الله منها معارف كالأسماء المعروفة وهي الظواهر ، ومنها مضمرات مثل كاف الخطاب ، وتائه ، وتاء المتكلم ، ويائه ، وضمير الغائب ، وضمير التثنية من ذلك ، وضمير الجمع مثل نحن نزلنا ، ونون الضمير في الجمع مثل إنا نحن ، وكلمة أنا ، وأنت ، وهو ، ومنها أسماء تدل عليها الأفعال ولم يبن منها أسماء مثل سخر الله منهم ، ومثل الله يستهزئ بهم ، ومنها أسماء النيابة هي لله ، ولكن نابوا عن الله منابه ، مثل قوله : « سرابيل تقيكم الحر » وكل فعل منسوب إلى كون ما من الممكنات إنما ذلك المسمى نائب فيه عن الله ، لأن الأفعال كلها لله ، سواء تعلق بذلك الفعل ذم أو حمد ، فلا حكم لذلك التعلق بالتأثير فيما يعطيه العلم الصحيح ، فكل ما ينسب إلى المخلوق من الأفعال فهو فيه نائب عن الله ، فإن وقع محمودا نسب إلى الله لأجل المدح ، فإن الله يحب أن يمدح ، كذا ورد في الصحيح عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم .وإن تعلق به ذم لم ننسبه إلى الله ، أو لحق به عيب . مثل المحمود قول الخليل عليه السلام : فهو يشفين ، وقال في المرض : إذا مرضت ، ولم يقل : أمرضني ، وما أمرضه إلا الله فمرض ، كما أنه شفاه ، فإذا كنى الحق عن نفسه بضمير الجمع فلأسمائه لما في ذلك المذكور من حكم أسماء متعددة ، وإذا ثنّى فلذاته ونسبة اسم خاص ، وإذا أفرد فلاسم خاص أو ذات وهي المسمى ، وإذا كنى بتنزيه فليس إلا الذات ، وإذا كنى بفعل فليس إلا الاسم على ما قررناه . وانحصر فيما ذكرناه جميع أسماء الله لا بطريق التعيين ، فإنه فيها ما ينبغي أن يعين ، وما ينبغي أن لا يعين ، وقد جاء من المعين مثل الفالق والجاعل ، ولم يجئ المستهزئ والساخر ، وهو الذي يستهزئ بمن شاء من عباده ، ويكيد ويسخر ممن شاء من عباده حيث ذكره ، ولا يسمى بشيء من ذلك ، ولا بأسماء النواب ، ونوابه لا يأخذهم حصر ، فلله الأسماء ما له الصفات ، فهو المعروف بالاسم لا بالصفة ، ولذلك ما ورد بالصفة كتاب ولا سنة ،

وورد قرآنا« وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها »وورد« سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ »فتنزه عن الصفة لا عن الاسم ، فانظر حكمة الله في كونه لم يجعل له صفة في كتبه ،

بل نزه نفسه عن الوصف فقال :« وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى »

فجعلها أسماء وما جعلها نعوتا ولا صفات ،

وقال : « فادعوه بها » وبها كان الثناء ،

والاسم ما يعطي الثناء ، وإنما يعطيه النعت والصفة ، وما شعر أكثر

ص 201

الناس لكون الحق ما ذكر له نعتا في خلقه ، وإنما جعل ذلك أسماء كأسماء الاعلام التي ما جاءت للثناء ، وإنما جاءت للدلالة ، وتلك الأسماء الإلهية الحسنى هي لنا نعوت يثنى علينا بها ، وأثنينا علينا بها ، وأثنى الله على نفسه بها ، لأن نزول الشرائع في العالم من الله إنما تنزل بحكم ما تواطأ عليه أهل ذلك اللسان ، سواء صادف أهل ذلك اللسان الحق في ذلك أو لا ، وقد تواطأ الناس على أن هذه الأسماء التي سمى الحق بها نفسه مما يثنى بها في المحدثات إذا قامت بمن تقوم به نعتا أو صفة ، فأثنى الله على نفسه بها ، ونبه على أنها أسماء لا نعوت ، ليفهم السامع الفهم الفطن أن ذلك من حكم التواطؤ ، لا حكم الأمر في نفسه كما دل دليل الشرع بليس كمثله شيء من جميع الوجوه ، فلا يقبل الأينية . فالثناء على الله بصفات الإثبات التي جعلها أسماء ، وجعلها الخلق نعوتا ، كما هي لهم نعوت إذا وقع هذا الثناء من العبد صورة لا يكون روح تلك الصورة تسبيحا بليس كمثله شيء كان جهلا بما يستحقه المثنى عليه ، فإنه أدخله تحت الحد والحصر ، بخلاف كون ذلك أسماء لا نعوتا ، فيا ولي لا يفارق التسبيح ثناؤك على الله جملة واحدة ، فإنك إن كنت بهذه المثابة نفخت روحا في صورة ثنائك التي أنشأتها« وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى »

وإن كان له جميع الأسماء التي يفتقر كل فقير إلى مسماها ، ولا فقر إلا إلى الله ، ومع هذا فلا يطلق عليه من الأسماء إلا ما يعطي الحسن عرفا وشرعا ، وكذلك نعت أسماءه بالحسنى والحق هو الذي نصبه الشرع للعباد ، وبما سمى به نفسه نسميه ، وبما وصف به ذاته نصفه ، لا نزيد على ما أوصل إلينا ولا نخترع له اسما من عندنا ،

وقال لنا :« فَادْعُوهُ بِها »فإذا دعوته باسم منها تجلى مجيبا لك في عين ذلك الاسم ، فإن الاسم الله وإن كان جامعا للنقيضين ، فهو وإن ظهر في اللفظ فليس المقصود إلا اسما خاصا منه ، تطلبه قرينة الحال ،

فإذا قال طالب الرزق المحتاج إليه : يا الله ارزقني ، والله هو المانع أيضا ، فما يطلب بحاله إلا الاسم الرزاق ، فما قال بالمعنى إلا يا رزاق ارزقني ، فمن أراد الإجابة من الله فلا يسأله إلا بالاسم الخاص بذلك الأمر ، ولا يسأل باسم يتضمن ما يريده وغيره ، ولا يسأل بالاسم من حيث دلالته على ذات المسمى ،

ولكن يسأل من حيث المعنى الذي هو عليه ، الذي لأجله جاء ، وتميز به عن غيره من الأسماء تميز معنى لا تميز لفظ« وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ »أي يميلون في أسمائه إلى ما ليس بحسن ، وإن كان في المعنى من أسمائه ، لكن منع أن يطلق عليه لما ناط به عرفا أو شرعا

ص 202

بأنه ليس بحسن - الوجه الثاني –
[إشارة : حكمة الله تعالى في تعدد أسمائه]
هم يميلون عن أسمائه ، لا بل يميلون في أسمائه إلى غير الوجه الذي قصد بها ، ثم قال :« سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ »من ذلك ، فكل يجزى بما مال إليه - إشارة - من حكمة الله في وحدانيته سبحانه أن جعل له أسماء كثيرة ندعوه بها في عموم أحوالنا ، فننتقل من اسم إلى اسم ، لتتنوع علينا الأدعية والأذكار ، مع أحدية المدعو والمذكور ، كل ذلك للملل الذي في جبلتنا ، فسبحان اللطيف بعباده ، وهذا من خفايا ألطافه التي لا يعرفها إلا القليل من عباده .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 181 إلى 182]
وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (182)
ما سمى الله المكر استدراجا إلا لتنقله في المراتب من درج إلى درج ، فإنه بانتقاله يعمّ المقامات والمراتب ، وهو بين محمود ومذموم ، ولولا ذلك ما وصف الله نفسه بالمكر والاستدراج ، وأخفى الله الاستدراج فيمن أشقاه الله ، فهم كما قال تعالى فيهم :(وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً).

[سورة الأعراف (7) : آية 183]
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183)
وهي تحف الله مع المخالفات ، فهو مكر واستدراج من حيث لا يعلم .

[سورة الأعراف (7) : آية 184]
أَ وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (184)
« أَ وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ »أي أنه يوصل إلى معرفة الرسول بالدليل ، وبهذه الآية يستدل على أنه لا بد من أن ينصب الله تعالى على يد هذا الرسول دليلا يصدقه في دعواه ، ولو لم يكن كذلك ما صدق قوله :« أَ وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا »ولا تكون الفكرة إلا في دليل على صدقه أنه رسول من عند الله.

ص 203

[سورة الأعراف (7) : آية 185]

أَ وَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185)

« أَ وَلَمْ يَنْظُرُوا »يعني يتفكروا ، فإنه سبحانه لما أراد النظر الذي هو الفكر ، قرنه بحرف في ، ولم يصحبه لفظ كيف ، فهو أمر بالنظر العقلي« فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »فيعلموا أنها لم تقم بأنفسها ، وإنما أقامها غيرها ،

وهذا النظر لا يلزم منه وجود الأعيان مثل النظر في الكيفية ، وإنما الإنسان كلف أن ينظر بفكره في ذلك لا بعينه ، ومن الملكوت ما هو غيب وما هو شهادة ، فما أمرنا قط بحرف في إلا في المخلوقات لا في الله ، لنستدل بذلك عليه وأنه لا يشبهها ، فاعتبر الشرع حكم النظر العقلي في إثبات وجود الله وتوحيده ، وما يجب له من الأحكام ، وبالنظر العقلي في صدق آيات رسوله التي نصبها دليلا على صدقه ، وفي القرآن مثل هذا كثير ، وهذه الآيات وأمثالها لأهل النظر والاستدلال الذين نصب الله لهم الأدلة والآيات .

[سورة الأعراف (7) : آية 186]

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)

« فَلا هادِيَ لَهُ »معناه لا موفق .

[سورة الأعراف (7) : آية 187]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (187)

« يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها »يعني يوم القيامة ، إذا جاء الوقت يعطيها الله خلقها ، هو الذي أعطى كل شيء خلقه ، لذلك قال :« إِلَّا هُوَ » « ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »فإن الغيب إذا ثقل عليه الأمر وضاق

ص 204

عنه ولم يتسع له استراح على عالم الشهادة ، فتنفس الغيب تنفس الحامل المثقل ، فأبرز في عالم الشهادة ما كان ثقل عليه ، ومن وجه آخر : ثقلت من كونها أمانة مكلفة بحفظها وأدائها في وقتها ، فهو ثقل معنوي ، فإنه في طبع كل شيء القلق مما يثقل عليه حتى يخرجه عنه« لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ »لجهلهم .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 188 إلى 189]

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189)

[« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ »[« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ »هذا يدل على أن النفوس خلقت من معدن واحد« وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها »حنين الرجل حنين الكل إلى جزئه ، كاستيحاش المنازل لساكنيها ، ولأن المكان الذي في الرجل الذي استخرجت منه المرأة عمره الله بالميل إليها ، فحنينه إلى المرأة حنين الكبير ، وحنوه على الصغير ، فمن عرف قدر النساء وسرّهن لم يزهد في حبهن ، بل من كمال العارف حبهن ، فإنه ميراث نبوي وحب إلهي ، فإنه صلّى الله عليه وسلم قال : [حبب إلي] فلم ينسب حبه فيهن إلا إلى الله تعالى« فَلَمَّا تَغَشَّاها »الغشيان نكاح وهو ستر ، فهو سر ، أي غطاها بذاته وسترته بنفسها ، فكان لها لباسا وكانت له لباسا .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 190 إلى 196]

فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (193) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (194)

أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ(196)

ص 205

" إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ " الولاية نصر الولي ، أي نصر الناصر ،
ونعت الولاية لا ينسبها الله لنفسه إلا بتعلق خاص للمؤمنين خاصة والصالحين من عباده ، ولما كان نعتا إلهيا هذا النصر المعبر عنه بالولاية تسمى سبحانه به وهو اسمه الولي ، ولما أنزل الله تعالى على عبده محمد صلّى الله عليه وسلم هذه الآية ليعرف الناس بها ، فكأن الله حكى عن نبيه صلّى الله عليه وسلم ما لا بد له أن يقوله ويتلفظ به ، فجعله قرآنا يتلى ، إذ كان الصلاح من خصائص العبيد في نفس الأمر ، فقال تعالى :« إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ »فشهد له بالصلاح إذا كان الحق حاكيا في هذه الآية ، وإن كان آمرا فيكون النبي صلّى الله عليه وسلم أخبر بذلك لقوله تعالى :(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)وهو من المؤمنين« وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ »فيكون من المشهود لهم بالصلاح ، فعرفنا أن الله تولاه ، وأخبرنا أن الله يتولى الصالحين ، فشهد لنفسه بالصلاح بالوجه الذي ذكرناه ، ولم ينقل ذلك عن غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ولهذا القطع بأن الله يتولى الصالحين كان الصلاح مطلوبا لكل نبي مكمل ، وشهد الله به لمن شاء من عباده على التعيين تشريفا له بذلك ، كعيسى ويحيى عليهما السلام ، فإن الاسم الصالح من خصائص العبودية ، ونعت عبودي لا يكون إلا للعبيد الكمل ، فمنهم من شهد له بها الحق عزّ وجل بشرى من الله ، مثل يحيى وعيسى وإبراهيم ومحمد عليهم السلام ، ومنهم من سألها لنفسه كسليمان عليه السلام.

ص 206

[سورة الأعراف (7) : الآيات 197 إلى 199]
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (198) خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (199)
" خُذِ الْعَفْوَ "أي القليل .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 200 إلى 201]
وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (201)
[" إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا »]« إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا »فهم أصحاب اللمات الملكية« فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ »وهؤلاء هم الذين تولاهم الله بالإبصار ، وهو من صفات خصائص المتقين ، فهم علماء أهل تقوى ، طرأ عليهم خاطر حسن أصله شيطاني . فوجدوا له ذوقا خاصا لا يجدونه إلا إذا كان من الشيطان ، فيذكرهم ذلك الذوق بأن ذلك الخاطر من الشيطان« فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ »أي مشاهدون له بالذوق ، فإن اقتضى العلم أخذه وقلب عينه ليحزن بذلك الشيطان أخذه ، ولم يلتفت منه وكان من المبصرين ، فعلم كيف يأخذ ما يجب أخذه من ذلك ، ففرق بينه وبين ما يجب تركه ، كما قال عيسى عليه السلام لما قال له إبليس حين تصور له على أنه لا يعرفه ، فقال له : يا روح الله قل لا إله إلا الله ، رجاء منه أن يقول ذلك ، فيكون قد أطاعه بوجه ما ، وذلك هو الإيمان ، فقال له عيسى عليه السلام : أقولها لا لقولك لا إله إلا الله ، فجمع بين القول ومخالفة غرض الشيطان ، لا امتثالا لأمر الشيطان ، وإن اقتضى العلم رد ذلك في وجهه رده ، فهذا معنى قوله« تَذَكَّرُوا »ولا يكون التذكر إلا لمعلوم قد نسي« فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ »أي رجع إليهم نظرهم الذي غاب عنهم ، رجع بالتذكر ، واعلم أن الله تعالى أن يحيط به بصر أو عقل ، ولكن الوهم السخيف يقدره ويحده ، والخيال الضعيف يمثله ويصوره ، هذا في حق بعض العقلاء الذين قد نزهوه عما

ص 207

تخيلوه وتوهموه ، ثم بعد التنزيه يتسلط عليهم سلطان الوهم والخيال فيحكم عليه بالتقدير ، وهو قوله تعالى :« إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ »وهو رجوعهم إلى ما أعطاهم العقل بالبرهان الصحيح من التنزيه عن ذلك ، فالقوة المذكرة من خاصيتها أن تعمي إبليس عن ملاحظة كيده في الحال وتدهشه ، فلا يلحق يرجع إليه بصره إلا والمؤمن على إحدى حالتين إما في غفلة فيمسه مرة أخرى ، وإما في حضور فيحترق إن دنا منه ، واعلم أن الأنبياء والرسل ما لهم إلا ثلاثة خواطر ، وهي الخاطر الإلهي والخاطر الملكي والخاطر النفسي ، فهم معصومون من الشيطان وخواطره ، ليميز الله رسله وأنبياءه من سائر المؤمنين بالعصمة التي أعطاهم وألبسهم إياها ، والمؤمنون لهم الخواطر الأربعة ، فمنهم من ظهر عليه حكم الخاطر الشيطاني في الظاهر ، وهم عامة الخلق ، ومنهم من يخطر له ولا يؤثر في ظاهره ، وهم المحفوظون من أولياء الله تعالى ، فالشيطان يلقي في قلوب الأولياء وليس له على الأنبياء سبيل .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 202 إلى 204]

وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (202) وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203) وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)

روينا أن هذه الآية نزلت في القراءة في الصلاة ، ففي الصلاة يقرأ المأموم أم الكتاب وغيرها مع الإمام فيما أسر ، وفيما جهر أم الكتاب فقط ، والذي أذهب إليه بعد وجوب قراءة الفاتحة على كل مصل من إمام وغير إمام ، أنه إن قرأ في نفسه كان أفضل ، إلا أن يكون بحيث يسمع الإمام ، فالإنصات والاستماع لقراءة الإمام واجب لأمر الله الوارد في هذه الآية ، وما خص حال صلاة من غيرها ، والقرآن مقطوع به عند الجميع ، وليس للمأموم أن يشرع في قراءة الفاتحة إذا جهر بها الإمام حتى يفرغ منها ، أو يتبع سكتات الإمام فيها فيقرأ ما فرغ الإمام منها في سكتة الإمام ، وفي صلاة السر يقرؤها بحسب ما يغلب على ظنه ،

ص 208

إلا في الصلاة بعد الجلسة الوسطى فإنه يقرؤها ابتداء ، وقد وعد الله من استمع القرآن وأنصت بالرحمة ، فإن أفعال الترجي من الله حكمها حكم الواجب ، ومع هذا فإن الله أوقع الترجي مع صفة الاستماع والإنصات ، وما قطع بالرحمة ، فكيف حال من خاصم ورفع صوته وداخل التالي ؟
وأرجو أن يكون الترجي الإلهي واجبا كما يراه العلماء ، فالأجر العظيم بالإصغاء إلى القارئ إذا قرأ القرآن ، أو بإصغاء الإنسان إلى نفسه إذا تلاه ، فإذا قرئ القرآن المبين فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ، فإنه ما جاء بالكلام إلا للإفهام ، فإذا خالج السامع القارئ في قراءته ، فقد شهد من الفهم ببراءته ، وأساء الأدب ، فأسخط الله فغضب ، يقول صلّى الله عليه وسلم : [أيكم خالجنيها وما لي أنازع القرآن] وأي برهان أعظم من هذا البرهان ، الرسول حاز الآداب ، وجاء بالكتاب وخاطب أولي الألباب ، وما خص أعداء من أحباب ، بل عم الخطاب ، فمنا من أصاب ، ومنا المصاب ،« لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »بالفهم ، فإنك إن خالجته فيها ، حرمت معانيها ، وإذا كنا نهينا وتحبط أعمالنا برفع أصواتنا على صوت رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذا تكلم ، وهو المبلغ عن الله ، فغضّ أصواتنا عندما نسمع تلاوة القرآن آكد .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 205إلى 206]

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (205) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)

« إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ »وهم الملائكة المقربون« لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ »يقول : يذلون ويخضعون له« وَيُسَبِّحُونَهُ »أي ينزهونه عن الصفات التي لا تليق به وهي التي تقربوا بها إليه من الذل والخضوع وصدقهم الله في هذه الآية في قولهم :(وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)فأخبر الله عنهم بما أخبروه عن نفوسهم« وَلَهُ يَسْجُدُونَ »وصفهم بالسجود له عزّ وجل مع هذه الأحوال المذكورة ، وهنا يسجد التالي للقرآن في هذه السجدة اقتداء بسجود الملأ الأعلى وبهديهم ، قال الله تعالى لما ذكر النبيين عليهم السلام لمحمد صلّى الله عليه وسلم ، وذكر أنه تعالى آتاهم الكتاب والحكمة والنبوة قال له :(أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ)وهم بشر مثله ، فما ظنك بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأي هدي

ص 209

أعظم مما هدى الله تعالى به الملائكة ، فمن سجد فيها ولم يحصل له نفحة مما حصل للملائكة في سجودها من حيث ملكيته الخاصة به فما سجدها ، وهكذا في كل سجدة ترد .

(8) سورة الأنفال مدنيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[سورة الأنفال (8) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)

[لم سميت المغانم أنفالا ؟]

الأنفال هي المغانم ، أما لم سميت المغانم أنفالا ؟ فإنه لا شك ولا خفاء عند كل مؤمن عالم بالشرع ، أن الله ما جعل القتال للمؤمن إلا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، لتتميز الكلمتان ، وعرّفنا التراجمة عن الله وهم رسل الله ، أن الله تعالى من وقت شرع الجهاد والقتال والسبي ، أعطى المغانم للنار طعمة أطعمها إياها وأوجبها لها ، وكان من طاعتها لربها أنها لا تتناول إلا ما أحل الله لها تناوله ، وكان قد حرم الله عليها أكل المغنم ، إذا وقع فيه غلول من المجاهدين ، فكانت لا تأكل المغنم إذا غلّ فيه حتى يرد إليه ما كان أخذ منه ، ليخلص العمل للمجاهد ، فإذا جاء الشرع المحمدي زاد الله المغانم لأمة محمد صلّى الله عليه وسلم طعمة على ما أطعمهم من غير ذلك ، فكانت تلك الطعمة التي أخذناها من النار نافلة لهذه الأمة ، وما أعطاها إياهم لكونهم جاهدوا ، إذ لو كان حقا لهم على الجهاد ما وقعت لأحد لم يجاهد معهم فيها الشركة ، فما هي فريضة للمجاهدين ، وإنما هي طعمة أطعمها الله من ذكر ، وجعل لنفسه نصيبا لكونه نصرهم ، ولما كانت هذه الطعمة للنار ونفلها الله لهذه الأمة قال »: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ »جاء في الخبر أن الله يصلح بين عباده يوم القيامة ، هكذا جاء في الخبر النبوي في الرجلين ، يكون لأحدهما حق على الآخر ، فيوقف الظالم والمظلوم بين يدي الله تعالى للحكومة والإنصاف ، فيقول : ربّ خذ لي

ص 210

مظلمتي من هذا ، فيقول له : ارفع رأسك ، فيرى خيرا كثيرا ، فيقول المظلوم : لمن هذا يا رب ؟ فيقول : لمن أعطاني الثمن ، فيقول : يا رب ومن يقدر على ثمن هذا ؟ فيقول له :
أنت بعفوك عن أخيك هذا ، فيقول المظلوم : يا رب قد عفوت عنه ، فيقول الله له : خذ بيد أخيك فادخلا الجنة ، فيأخذ بيده فيدخلان الجنة ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم عند إيراده هذا الخبر « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ »فإن الله يصلح بين عباده يوم القيامة ، فالكريم إذا كان من شأنه أن يصلح بين عباده بمثل هذا الصلح حتى يسقط المظلوم حقه ويعفو عن أخيه ، فالله أولى بهذه الصفة من العبد في ترك المؤاخذة بحقوقه من عباده ، فيعاقب من شاء بظلم الغير لا بحقه المختص به ، ولهذا الأخذ بالشرك من ظلم الغير ، فإن الله ما ينتصر لنفسه ، وإنما ينتصر لغيره ، والذي شاء سبحانه ينتصر له .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 2 إلى 3]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (3)

« يُنْفِقُونَ »مما استخلفهم فيه أداء أمانة لمن شاء من عبيده .

[سورة الأنفال (8) : آية 4]

أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

اعلم أن الإيمان نور شعشعاني ، ظهر عن صفة مطلقة لا تقبل التقييد ، فإذا خالط هذا النور بشاشة القلوب صدق المخبر بكل أمر لم يعلمه إلا من الذي أخبره به عند إخباره ، ولم يتوقف في تصديقه عند سماعه الخبر منه ، ولا يتردد فيما صدقه فيه إن قدح فيه نظره عند التفكر فيما كان أخبره به المخبر ،
[من المؤمن ؟]
والمؤمنون في الإيمان على قسمين :
مؤمن عن نظر واستدلال وبرهان ، فهذا لا يوثق بإيمانه ، ولا يخالط نوره بشاشة القلوب ، فإن صاحبه لا ينظر إلا من خلف حجاب دليله ، وما من دليل لأصحاب النظر إلا وهو معرض للدخل فيه والقدح ولو بعد حين ، فلا يمكن لصاحب البرهان أن يخالط الإيمان بشاشة قلبه وهذا

ص 211

الحجاب بينه وبينه ، والمؤمن الآخر الذي كان برهانه عين حصول الإيمان في قلبه ، لا لأمر آخر ، وهذا هو الإيمان الذي يخالط بشاشة القلوب ، فلا يتصور في صاحبه شك ، لأن الشك لا يجد محلا يعمره ، فإن محله الدليل ولا دليل ، فما ثمّ على ما يرد الدخل ولا الشك ، بل هو في مزيد ، ثم إن المؤمن على نوعين:

مؤمن له عين فيه نور ، بذلك العين إذا اجتمع بنور الإيمان أدرك المغيبات التي متعلقها الإيمان ،

ومؤمن ما لعينه نور سوى نور الإيمان ، فنظر إليه به ونظر إلى غيره به ، فالأول يمكن أن يقوم بعينه أمر يزيل عنه النور الذي إذا اجتمع بنور الإيمان أدرك الأمور التي ألزمه الإيمان القول بها ،

وهو المؤمن الذي لا دليل له وينظر الأشياء بذاته فيدخله الشك ممن يشككه ، فإن فطرته تعطي النظر في الأدلة ، إلا أنه لم ينظر ، فإذا نبّه تنبه ، فمثل هذا إن لم يسرع إليه الذوق وإلا خيف عليه ،

والمؤمن الآخر هو بمنزلة الجسد الذي قد تسوت بنيته ، واستوت آلات قواه وتركبت طبقات عينه ، غير أنه ما نفخ فيه الروح ، فلا نور لعينه ، فإذا كان الإنسان بهذه المثابة من الطمس ، فنفخ فيه روح الإيمان فأبصرت عينه بنور الإيمان ، فلا يتمكن له إدخال الشكوك عليه جملة ورأسا ، فإنه ما لعينه سوى نور الإيمان ، والضد لا يقبل الضد ، فما له نور في عينه يقبل به الشك والقدح فيما يراه ، ومتى لم يكن الإيمان بهذه المثابة وإلا فقليل أن يجيء منه ما جاء من الأنبياء والأولياء من الصدق بالإلهيات ، فالفطر الذكية التي تقبل النظر في المعقولات من أكبر الموانع لحصول ما ينبغي أن يحصل من العلم الإلهي ، والفطر المطموسة هي القابلة التي لا نور لعينها من ذاتها إلا من نور الإيمان ، فلا تعطي فطرته النظر في الأمور على اختلافها ، ومنزلة الأنبياء فيما يأخذونه من الغيب بطريق الإيمان من الملائكة منزلة المؤمنين مع ما يأخذونه من الأنبياء ، فالأنبياء مؤمنون بما يلقي إليهم الروح ، والروح مؤمن بمن يلقي إليه من يلقي إليه ، قال بعض الصحابة لرسول الله صلّى الله عليه وسلم : أنا مؤمن حقا ، فادعى حق الإيمان ، وهو من نعوت الباطن ، فإنه تصديق ، والتصديق محله القلب ، وآثاره في الجوارح إذا كان تصديقا له أثر ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلم : فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : كأني انظر إلى عرش ربي بارزا ، وقد كان صدّق رسول الله في قوله : إن عرش ربه يبرز يوم القيامة ، فجعله هذا السامع مشهود الوقوع في خياله ، فقال : كأني انظر إليه ، أي هو عندي بمنزلة من أشاهده ببصري ، فالمؤمن ينبغي أن يعامل الموطن بما يعامله صاحب العيان وإلا فليس بمؤمن حقا فإن لكل حق حقيقة وليست

ص 212

الحقيقة التي لكل حق إلا إنزاله منزلة الشهود المدرك للبصر ،
لذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم للصحابي : عرفت فالزم ، ففسر الحقيقة بالنظر والرؤية ، وجعلها بكأن لأن يوم القيامة ما وقع حسا ، ولكن وقع في حقه ممثلا فأدركه في التمثيل كالواقع في الحس .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 5 إلى 11]
كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (5) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10)إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (11)
« إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ »الأمنة هي السكينة لا غيرها ، وقد تورث الأسباب الحسية المطهرة طهارة معنوية ،
ومنها قوله تعالى :« وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ »
وسبب هذه الطهارة المعنوية كلها إنما هو نزول هذا الماء من السماء ، وأعاد الضمير من« بِهِ الْأَقْدامَ »على المطر ، والرجز بالسين القذر عند القراء ، وهو هنا القذر المعنوي ، لأنه مضاف إلى الشيطان ، فلا يدل إلا على ما يلقيه من الشبه والجهالات والأمور التشكيكية ، ليقذر بها محل

ص 213

هذا القلب ، فيذهب الله ذلك بما في الماء المنزل من الحياة العلمية بالبراهين والكشف ، فإذا زال ذلك القذر الشبهي بهذا المنزل من عند الله ، زال الوسخ الجهلي وارتفع الغطاء عن القلب ، فنظر بعينه في ملكوت السماوات والأرض ،
وذلك بما أعطاه العلم المنزل الذي طهره به في ذلك الماء ، الذي جعل نزوله في الظاهر علامة على فعله في الباطن ، فكان من مواطنه مقابلة الأعداء ،
فأداه ما عاينه وربط قلبه به أن تثبت قدمه يوم الزحف عند لقاء الأعداء ، فما ولوا مدبرين ، وأنزل الله نصره وهو تثبيت الأقدام ، فهذا ما أعطاه الله في الماء من القوة ، حيث أنزله منزلة الملائكة بل أتم من الملائكة ، وإنما قلنا بل أتم ، فإن الله جعل الماء سبب تثبيت الأقدام فأنزله منزلة المعين على ما يريد .

[سورة الأنفال (8) : آية 12]
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (12)
قال تعالى ذلك للملائكة لما علم من ضعفهم ، أعلمهم أن الله معهم من حيث إنيته ، ليتقوى جأشهم فيما يلقونه في قلوب المؤمنين المجاهدين ، أن يثبتوا ويصابروا العدو ولا ينهزموا ، وهذه من لمات الملائكة ، فقال لهم »: فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا »أي اجعلوا في قلوبهم أن يثبتوا ، ثم أعانهم فقال :« سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ »أخبرهم بذلك ليلقوا في نفوس المجاهدين هذا الكلام ، فإنه من الوحي ، فيجد المجاهد في نفسه ذلك الإلقاء ، وهو وحي الملك في لمته ، وهذه الملائكة التي تقوي قلوب المجاهدين وتثبتهم وتوحي إليهم قوله :« سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ »هم الملائكة الذي يدخلون البيت المعمور الذي في السماء السابعة المخلوقون من قطرات ماء نهر الحياة ، في انتفاض الروح الأمين من انغماسه ، ولهذا قرن الملائكة بالمجاهدين في التثبيت مع الماء المنزل »وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ »فانظر كم بين مرتبة الماء ومرتبة هؤلاء الملائكة ، وقد أبان الله في هذه عن مرتبة الماء من مراتب الملائكة ، ليعقلها العالمون من عباد الله ، فجعل الله من الماء كل شيء حي .

[سورة الأنفال (8) : آية 13]
ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ(13)

ص 214

ومن مشاققة الله الاعتراض والتعليل لأفعال الله في عباده ، لأي شيء كان كذا ؟ ولو كان كذا كان أحسن وأليق ، فهي منازعة للربوبية ، فالأشقياء ليس لهم عذاب إلا منهم.

[سورة الأنفال (8) : آية 14]
ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (14)
المؤمن لا يولي الدبر ويتقدم ويثبت حتى يظفر أو يقتل ، ولهذا ما انهزم نبي قط لقوة إيمانه بالحق ، وقد توعد الله المؤمن إذا ولى دبره في القتال لغير قتال أو انحياز إلى فئة تعضده فقال تعالى :

[سورة الأنفال (8) : آية 15]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (15)
فخاطب أهل الإيمان ، وبقرائن الأحوال علمنا أنه تعالى أراد المؤمنين بالحق ، وما أرسلها الله مطلقة إلا ليقيم الحجة على الذين آمنوا بالباطل إذا هزمهم الكافرون بالطاغوت ، لما دخلهم من الخلل في إيمانهم بالباطل ، وما عدا حال المسايفة استعداد للجهاد والقتال ، ما هو عين الجهاد ولا عين القتال ، فإذا وقعت المسايفة ذلك هو عين الجهاد والقتال الذي أمر الله عباده بالثبات فيه والاستعانة بالصبر والصلاة ، ثم توعد من لم يثبت فقال:

[سورة الأنفال (8) : آية 16]
وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16)
من انحاز إلى فئة أو كان متحرفا لقتال ، فإنه من أبطال الرجال ، ومن أهل المكر المشروع والاحتيال ، والحرب خدعة ، وإن أساء في الحال السمعة ، فإن العاقبة تسفر عن مراده ، بما قصده من جهاده« وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ »
يعني إن قتل في تلك الحال« وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »
وقال تعالى في تلك الحالة: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ)
وهو حبس النفس عن الفرار في تلك الحال والصلاة .
[جواز صلاة الفرض عند المسايفة ولو على غير طهارة]
فأمر بالصلاة وأنها من الأمور المعينة له على خذلان العدو ، فجعلها من أفعال الجهاد ، فوجبت الصلاة ، والفرار في تلك الحال من الكبائر ، فأمره الله بالصبر وهو الثبات

ص 215

في تلك الحال والصلاة ، فوجبت عليه كما وجب الصبر ، فيصليها على قدر الإمكان ، أي على قدر ما يمكنه أن يفعله منها ، فالله يقول :(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) وقال :(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها) وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يوتر على الراحلة يومي إيماء مع الأمان ، فأحرى إيقاع الفرض مع الخوف ووجود البشرى أنها من أسباب النصر ، فيصلي على قدر استطاعته في ذلك الوقت وعلى تلك الحال بحيث أن لا يترك القتال ولا يتوانى فيه ، فذلك استطاعة الوقت ، فإن المكلّف بحكم وقته ، وسواء كان على طهارة أو على غير طهارة ، والمخالف لهذا ما حقق النظر في أمر الله ، ولا ما أراده الله برفع الحرج عن المكلف في دين الله في قوله تعالى :(وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)فالمجتهد لا كلام معه ، فإنه يعمل بحسب ما يقتضيه دليله ويحرم عليه مخالفة دليله ، وأما المقلد فالأولى به عندنا تقليد من يقول بجواز الصلاة في حال المسايفة وعلى غير طهارة فيها ، فإن القرآن يعضده ، ولا حجة للمقلد في التخلف عن تقليد من يقول بالصلاة ، فإنه أبرأ لذمته وأولى في حقه ، ويكون ممن ذكر الله على كل أحيانه اقتداء برسول الله صلّى الله عليه وسلم .

[سورة الأنفال (8) : آية 17]

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17)

[« وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى » الآية]

جاء المدد الملكي فأقدم حيزوم « 1 » لنصرة دين الحي القيوم ، ولتقوية القلوب عند أهل الإيمان بالغيوب ، وما كان عند أهل الغيب إيمانا كان لأهل الشرك عيانا ، وذلك الشهود خذلهم فقال :« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ »قتلهم بالملك ، للأمر الذي أوحاه في السماء وأودعه حركة الفلك ، فما انحجب عن المؤمن لإهانته ، كما أنه ما كشفه المشرك لمكانته ، لكن ليثبت ارتياعه ، ويتحقق انصداعه واندفاعه ، فخذله الله بالكشف ، وهو من النصر الإلهي الصرف ، نصر به عباده المؤمنين على التعيين ، فإنه أوجب سبحانه على نفسه نصرتهم ، فرد عليهم لهم كرتهم ، فانهزموا أجمعين ،(وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

---

(1)حيزوم اسم الفرس الذي كان يركبه جبريل عليه السلام.

ص 216

والمؤمن الإله الحق ، وقد نصره الخلق ، وهو القائل(وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)
فأظهر آمرا وأمرا ومأمورا في هذا الخطاب التكليفي ، فلما وقع الامتثال لله ، وظهر
القتل بالفعل من أعيان المحدثات ،
قال : ما هم أنتم الذين قتلتموهم ، بل أنا قاتلهم ، فأنتم لنا بمنزلة السيف لكم ، أو أي آلة
كانت للقتل ، فالقتل وقع في المقتول بالآلة ولم يقل فيه إنه القاتل ، وقيل في الضارب
به القاتل ، كذلك الضارب به بالنسبة إلينا مثل السيف له عنده ، فلا يقال في المكلّف
إنه القاتل بل الله هو القاتل بالمكلّف وبالسيف ، فقام له المكلّف مقام اليد الضاربة
بالسيف ، وفي حضرة الأفعال ينسب الفعل بالعوائد إلى المخلوق والحق مبطون فيه ،
وينسب الفعل بخرق العادة إلى الله لا إلى المخلوق ، لأنه خارج عن قدرة المخلوق ،
فيظهر الحق وإن كان لا يظهر إلا في الخلق ، ومن هنا يتبين أن ما قام فيه الإنسان
عين ما قام فيه الحق ، بين ظاهر وباطن ،
فإذا ظهر من ظهر بطن الآخر ، وذلك قوله تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلم في رميه
التراب في أعين المشركين« وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ »
فالرمي وقع منه صلّى الله عليه وسلم بقول الله ، وإيصال الرمي إلى أعين الكفار حتى
ما بقيت عين لمشرك خاص إلا وقع من التراب في عينه فهذا ليس لمخلوق ،
فقال تعالى :« وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى »إثباتا للنفي في أول الآية ، فإن الله محا رسول الله
صلّى الله عليه وسلم في حكم رميه مع وجود الرمي عنه ، فقال :« وَما رَمَيْتَ
»فمحاه« إِذْ رَمَيْتَ »فأثبت السبب« وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى »وما رمى إلا بيد رسول الله
صلّى الله عليه وسلم ،
فقوله تعالى :« وَما رَمَيْتَ »نفي« إِذْ رَمَيْتَ »إثبات عين ما نفى« وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى
»نفى عين ما أثبته ، فصار إثبات الرمي وسطا بين طرفي نفي ، فالنفي الأول عين
النفي الآخر ،
فمن المحال أن يثبت عين الوسط بين النفيين ، لأنه محصور ، فيحكم عليه الحصر ،
ولا سيما أن النفي الآخر زاد على النفي الأول بإثبات الرمي له لا للوسط ، فثبت
الرمي في الشهود الحسي لمحمد صلّى الله عليه وسلم بثبوت محمد صلّى الله عليه
وسلم ، فمحمد صلّى الله عليه وسلم رام لا رام ، وهذا لا يدرك إلا بعين البصيرة ،
فالبصيرة بها تدرك الأمر على ما هو عليه ، لأنه علم محقق ، وإذا أدرك به عين نسبة
ما ظهر في الحس سمي بصرا ، فاختلفت الألقاب باختلاف المواطن ، كما اختلف حكم
عين الأداة ، وإن كانت بصورة واحدة حيث كانت ، تختلف باختلاف المواطن ، مثل
أداة ما ، لا شك أنها عين واحدة ،
ففي موطن تكون نافية ، وفي موطن تكون تعجبا ، وفي موطن تكون مهيئة ، وفي
موطن تكون اسما ، وقد تكون مصدرية ، وتأتي للاستفهام ، وتأتي زائدة ، وغير ذلك
من
ص 217

مواطنها ، فهذه عين واحدة حكمت عليها المواطن بأحكام مختلفة ، كذلك صور التجلي بمنزلة الأحكام لمن يعقل ما يرى ، فأبان الله لنا فيما ذكره في هذه الآية الذي كنا نظنه حقيقة محسوسة ، انما هي متخيلة ، يراها رأي العين ، والأمر في نفسه على خلاف ما تشهده العين ، وهذا سار في جميع القوى الجسمانية والروحانية ، ولولا الاسم الباطن ما عرفنا أن الرامي هو الله في صورة محمدية ، فإنه ما رمى إلا محمد صلّى الله عليه وسلم ، وما وقع الحس إلا على رميه ، وما رمى إلا الله ، فأين محمد صلّى الله عليه وسلم وسلم ؟ محاه وأثبته ، ثم محاه ، فهو مثبت بين محوين ، كما ورد في الخبر [كنت سمعه وبصره] فأين الإنسانية هنا ؟ فإنه نفى عين ما أثبته لك وأثبته لنفسه ، فقال :« وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى »وما رمى إلا العبد ، فأعطاه اسمه وسماه به ، وبقي الكلام في أنه هل حلّاه به كما سماه به أم لا ؟ فإنا لا نشك أن العبد رمى ، ولا نشك أن الله تعالى قال :« وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى »وقد نفى الرمي عنه أولا ، فنفى عنه اسم العبودة وسماه باسمه ، إذ لا بد من مسمى ، وليس إلا وجود عين العبد ، لا من حيث هو عبد ، لكن من حيث هو عين ، فإن العبد لا يقبل اسم السيادة ، والعين كما تقبل العبودة تقبل السيادة ، فانتقل عنها الاسم الذي خلقت له وخلع عليها الاسم الذي يكون عنه التكوين ، وهو قوله تعالى :« وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى »والحق لا يباهت خلقه ، فما يقول إلا ما هو الأمر عليه في نفسه ، فقوله :« وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ »أثبت لك ما رأيت ، ودل قوله :« وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى »على أمر يستوي فيه البصير والأعمى ، فيد الله يد الأكوان ، وإن اختلفت الأعيان ، وهذا عهد من الله تعالى إلينا أن الفعل الذي يشهد به الحس أنه للعبد هو لله تعالى لا للعبد ، فإن أضفته لنفسي فإنما أضيفه بإضافة الله لا بإضافتي ، فأنا أحكي وأترجم عن الله به وهو قوله :(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ)
فرد الفعل الذي أضافه إلى نفسه وهو حقه الذي له قبلي بهذه الإضافة ، ولكن لا بد من ميزان إلهي نرده به إليه ،
وهو قوله صلّى الله عليه وسلم : اعبد الله كأنك تراه ، فإن الوزن نعت إلهي لا ينبغي لعبد من عباد الله أن يغفل عنه في كل فعل ظاهر في الكون من موجود ما من الموجودات ، فلا يزال مراقبا له في غيره ، فيحكم عليه بالميزان الموضوع عنده ، وليس إلا الشرع ، وهذه الآية تشير إلى نفي الركون إلى الأسباب لا الأسباب ، فإن الله لا يعطل حكم الحكمة في الأشياء ، والأسباب حجب إلهية موضوعة لا ترفع ، فمن الحكمة إبقاء الأسباب ، مع محو العبد من الركون إليها على حكم نفي أثرها في المسببات ، فالأسباب ستور

ص 218

وحجب ، وفي هذه الآية علم إضافة الأفعال ، هل تضاف إلى الله أو إلى العبد أو إلى الله وإلى العبد ؟ فإن وجودها محقق ، ونسبتها غير محققة ، وهذا موضوع اختلف الناس فيه ، والخلاف لا يرتفع من العالم بقولي ، فمن الناس من نسب الأفعال إلى الخلق ، ومنهم من نسب الأفعال إلى الله ، ومنهم من نسب الفعل إلى الله بوجه وإلى العباد بوجه ، فعلق المحامد والحسن بما ينسب من الأفعال للحق ، وعلق المذام والقبح بما ينسب من الأفعال للعباد لحكم الاشتراك العقلي ، وكمال الوجود توقف على وجودهما ،
قال تعالى :« وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى »فنفى الرمي عمن أثبته له ، فأثبت بهذه الآية أعيان العالم ، والفعل كله إنما يظهر صدوره من الصورة ، وهو القائل« وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى »فكان الحق عين الصورة التي تشاهد الأعمال منها ، وهذا مقام الحيرة ، فصدّق الله الخواص في حيرتهم بقوله هذا لأخص خلقه علما ومعرفة ، فنفى عين ما أثبت فما أثبت ؟ وما نفى ؟
فأين العامة من هذا الخطاب ، فالعلم بالله حيرة ، والعلم بالخلق حيرة ، وقد حجر النظر في ذاته وأطلقه في خلقه ، فالهداة في النظر في خلقه لأنه الهادي وقد هدى ، والعمى في النظر في الحق فإنه قد حجر وجعله سبيل الردى ، وهذا خطاب خاطب به العقلاء ، فما زادهم إلا إيمانا بالحيرة وتسليما لحكمها ،
ولذلك قال تعالى في هذه الآية :« وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً »
فجاء بالخبرة بقوله تعالى :« وَلِيُبْلِيَ »أي قلنا هذا اختبارا للمؤمنين في إيمانهم لنا في ذلك من تناقض الأمور ، الذي يزلزل إيمان من في إيمانه نقص عما يستحقه الإيمان من مرتبة الكمال ، فإن الله حيّر المؤمنين ، وهو ابتلاؤه بما ذكر من نفي الرمي وإثباته ، وجعله بلاء حسنا ، أي إن نفاه العبد عنه أصاب ، وإن أثبته له أصاب ، وما بقي إلا أي الإصابتين أولى بالعبد وإن كان كله حسنا ؟
وهذا موضع الحيرة ، ولذلك سماه بلاء أي موضع اختبار ، فمن أصاب الحق وهو مراد الله أي الإصابتين أو أي الحكمين أراد ، حكم النفي أو حكم الإثبات كان أعظم عند الله من الذي لا يصيب ، لذلك قال »:إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ».

[سورة الأنفال (8) : الآيات 18 إلى 19]
ذلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (18) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19)

ص 219

" إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ "إن تستنصروا فقد جاءكم النصر .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 20 إلى 21]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (21)
قال اللّه تعالى ناهيا« وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا »أي فهمنا ، فأكذبهم اللّه في قولهم سمعنا ، فقال :(إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ)فلو سمعوا استجابوا ، فإن اللّه أعز وأجل من أن يقاومه مخلوق« وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ »أي لا يفهمون ، فنفى اللّه عنهم الفهم عن اللّه ، فهو ذم - وجه آخر - حكم اللّه عليهم بعدم السماع مع سماعهم ، فمع كونهم سمعوا نفى عنهم السمع ، فإنهم سمعوا حقيقة وفهموا ، فإنه خاطبهم بلسانهم ، ثم قال تعالى :« وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ »أي حكمهم حكم من لم يسمع عندنا ، مع كونهم سمعوا ، وما قال تعالى بما ذا يحكم فيهم ؟ وإن كان غالب الأمر من قرائن الأحوال العقوبة ، ولكن الإمكان لا يرتفع في نفس الأمر ، لما يعرف من فضل اللّه وتجاوزه عن سيئات أمثال هؤلاء ، فإن كان حكمه حكم من لم يسمع ، فيكون اللّه قد تفضل عليه ، وإن كان حكمه حكم من علم فلم يعمل فعاقبه اللّه ، فيكون اللّه قد عدل فيه ، واعلم أنه قد دل الكتاب والسنة على أن السمع والبصر قسمان : عادي وحقيقي ، فالعادي سمع القلب بالأذن وإبصاره بالعين ، وهو عام في المؤمن والكافر ، والحقيقي بصر العين بالقلب وسمع الأذن به ، وقد نفاه اللّه تعالى عن الكافر في غير ما آية ، منها قوله تعالى :« وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ »وفي قوله تعالى :(وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ)
فأثبت لهم السمع والبصر العاديين ونفى عنهم الحقيقي .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 22 إلى 23]
إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ(23)

ص 220

اعلم أن قوله تعالى« وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ »
(وَلَوْ شاءَ اللَّهُ) *يقتضي نفي العلم بكذا ، ونفي المشيئة عن الحق ، وما ورد الكلام إلا بنفي العلم بأمر ما والإرادة ، وما انتفى إلا التعلق الخاص بأمر يحدث ، فلا يتوجه النفي والإثبات إلا على حادث ، أي على ممكن ،
سواء كان ذلك الحكم موصوفا بالوجود أو العدم ، فناب العلم هنا مناب التعلق حين نفيته بأداة لو« وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ »والوجود هو الخير ، فيتصفون بالوجود« وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ »إذ أوجدهم« لَتَوَلَّوْا »إلى ذواتهم« وَهُمْ مُعْرِضُونَ »لأن استعدادهم لا يعطي القبول ،
فلا تقل فيمن لم يجب إنه سمع ، فتخالف الله فيما أخبر به عنهم ، وقد أخبر الله تعالى أن بهم صمما .

[سورة الأنفال (8) : آية 24]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)
« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا »أي صدقوا بما قلنا« اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ »فوحد الداعي بعد ذكر الاثنين ، فإن من يطع الرسول فقد أطاع الله ، فإن الرسول داع بأمر الله ، فالله هو المجاب ، وما في القرآن دليل أدل على أن الإنسان الكامل مخلوق على الصورة الإلهية من هذه الآية ،
لدخول اللام في قوله« وَلِلرَّسُولِ »وفي أمره تعالى لمن أيّه به من المؤمنين بالإجابة لدعوة الله تعالى ولدعوة الرسول ، فعلمنا أن الأمر واحد ، وما سمعنا متكلما إلا الرسول بالسماع الحسي ، وسمعنا كلام الحق بالسمع المعنوي ، فالله والرسول اسمان للمتكلم ، فإن الكلام لله كما قال الله ،
والمتكلم المشهود عين لسان محمد صلّى الله عليه وسلم« لِما يُحْيِيكُمْ »فإن الله ورسوله ما يدعونا إلا لما يحيينا به ، والداعي في الحالتين إيانا هو رسول الله صلّى الله عليه وسلم ،
فإذا دعانا بالقرآن كان مبلغا وترجمانا ، وكان الدعاء دعاء الله ، فلتكن إجابتنا لله والاستماع للرسول ، وإذا دعانا بغير القرآن كان الدعاء دعاء الرسول صلّى الله عليه وسلم ،
فلتكن إجابتنا للرسول صلّى الله عليه وسلم ، ولا فرق بين الدعاءين في إجابتنا وإن تميز كل دعاء عن الآخر بتميز الداعي ،
فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول في الحديث : [لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الخبر عني فيقول : أتل عليّ به قرآنا ، إنه والله لمثل القرآن أو أكثر]
وقوله في الحديث : (أو أكثر)
ص 221

فإن كلام الله سواء سمعناه من الله أو من الرسول هو كلام الله ، فإذا قال الله على لسان عبده ما يبلغه الرسول - فإنه لا ينطق عن الهوى - فإنه أكثر بلا شك ، لأنا ما سمعناه إلا من الرسول ، ولينظر المدعو فيما دعي به ، فإن وجد حياة علمية زائدة على ما عنده يحيا بها في نفس الدعاء ، وجبت الإجابة لمن دعاه الله أو دعاه الرسول ، فإنه ما أمر بالإجابة إلا إذا دعاه لما يحييه ، وما يدعوه الله ورسوله لشيء إلا لما يحييه ، فلو لم يدر طعم الحياة الغريبة الزائدة لم يدر من دعاه ، وليس المطلوب لنا إلا حصول ما يحيا به ، ولهذا سمعنا وأطعنا ، فلا بد من الإحساس لهذا المدعو بهذا الأثر الذي تتعين الإجابة له به ، فإذا أجاب من هذه صفته حصلت له فيما يسمعه حياة أخرى يحيا بها قلب هذا السامع ، فإن اقتضى ما سمعه منه عملا وعمل به ، كانت له حياة ثالثة ، فانظر ما يحرم العبد إذا لم يسمع دعاء الله ولا دعاء الرسول ، ففي الفرائض إجابة الله ، وفي السنن إجابة رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

[تفسير من باب الإشارة : استجيبوا لله وللرسول]

-تفسير من باب الإشارة - اقتصر علماء الرسوم على كلام الله المعين المسمى فرقانا وقرآنا وعلى الرسول المعين المسمى محمدا صلّى الله عليه وسلم ، والعارفون عمموا السمع في كل كلام ، فسمعوا القرآن قرآنا لا فرقانا ، وعمموا الرسالة ، فالألف واللام التي في قوله :« وَلِلرَّسُولِ »عندهم للجنس والشمول ، لا للعهد ، فكل داع في العالم فهو رسول من الله باطنا ، ويفترقون في الظاهر ، فيسعد العارف بتلقي رسالة الشيطان ويعرف كيف يتلقاها ، ويشقى بها آخرون ، وهم القوم الذين ما لهم هذه المعرفة ، ويسعد المؤمنون كلهم والعارفون معهم بتلقي رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ويكون العامل بما جاء في تلك الرسالة أسعد من المؤمن الذي يؤمن بها عقدا وقولا ويعصي فعلا وقولا ، فكل متحرك في العالم منتقل فهو رسول إلهي ، كان المتحرك ما كان ، فإنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه سبحانه ، فالعارف ينظر إلى ما جاءت به في تحركها ، فيستفيد بذلك علما لم يكن عنده ، ولكن يختلف الأخذ من العارفين من هؤلاء الرسل لاختلاف الرسل ، فليس أخذهم من الرسل أصحاب الدلالات سلام الله عليهم كأخذهم من الرسل الذين هم عن الإذن من حيث لا يشعرون ، ومن شعر منهم وعلم ما يدعو إليه كإبليس إذ قال لصاحبه : (اكفر) فيتلقاه منه العارف تلقيا إلهيا ، فينظر إلى ما أمره الحق به من الستر فيستره ، ويكون هذا الرسول الشيطان المطرود عن الله منبها عن الله ، فيسعد هذا العارف بما يستره وهو غير مقصود الشيطان الذي أوحى إليه ،

ص 222

فالعالم كله عند العارف رسول من الله إليه ، وهو ورسالته - أعني العالم - في حق هذا العارف رحمة ، لأن الرسل ما بعثوا إلا رحمة ، ولو بعثوا بالبلاء لكان في طيه رحمة إلهية ، لأن الرحمة الإلهية وسعت كل شيء ، فما ثم شيء لا يكون في هذه الرحمة .

[سورة الأنفال (8) : آية 25]

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (25)

[" وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً "]

" وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »بل تعم المحق والظالم ، وتختلف أحوالهم في القيامة ، فيحشر المحق سعيدا والظالم شقيا ، كالجيش الذي يخسف به بين مكة والمدينة ، وفيه من غصب على نفسه في المجيء ، فقالت عائشة في ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلم فقال يحشرون على نياتهم وإن عمهم الخسف .

انظر إلى الأرض وخيراتها *** وما بها الرحمن قد أظهر

الا بد أن يصبح عمرانها *** كمثل ما أصبح وادي القرى

عروشها خاوية حين لم *** يغير الناس بها المنكرا

عم بلاء الله سكانها *** فأهلك المقبل والمدبرا

بذا أتانا النص من عنده *** في محكم الذكر كذا

سطرافقال فيه واتقوا فتنة *** وتمم القول به منظرا

سبحان من أخبرنا أنه *** كان على الأخذ بنا أقدرا

هذا الذي جئت به واضح *** في سورة الأنفال قد حررا

وهذه الفتنة العامة والعقوبة الشاملة والحدود المتداخلة من صفة قوله :(فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ) *فإن ظاهرها لا يقتضي العدل ، وباطنها يقتضي الفضل الإلهي ،

ففي الآخرة لا تزر وازرة وزر أخرى ، وهنا ليس كذلك في عموم صورة العقوبة« وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ »وأي عقوبة أشد من عقوبة تعم المستحق وغير المستحق ، والظالم وغير الظالم ، والبريء والفاعل ،

وهذا من شأن الحدود الدنيوية ، لأنها دار امتزاج ، وحدود الآخرة ليست

ص 223

كذلك ، فإنها دار تمييز ، فلا تصيب العقوبة إلا أهلها ، وأما في الدنيا فما هي في البريء عقوبة ، وإنما هي فتنة ، وفي الظالم عقوبة لأنها جاءت عقيب ظلمه ، فكن في كل حال ذاتية حميدة مع الله يرضاها الله منك ، وعلى عمل صالح ، ولا سيما إذا كثر الفساد في العامة ، فما تدري لعل الله يرسل عليهم عذابا فيعم الصالح والطالح ، فتكون ممن يحشر على عمل خير كما قبضت عليه ، فإن الأنبياء مع طاعتهم لله والحضور معه لا يأمنون أن يصيب الله عامة عباده بشيء فيعم الصالح والطالح ، ولذلك كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول في دعائه : أعوذ بالله من أن أغتال من تحتي .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 26 إلى 27]

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27)

[" يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ "]

ما أيّه الله في هذه الخيانات إلا بالمؤمنين ، فإن كنت مؤمنا فأنت المخاطب« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ »وأما خيانة الله ، فاعلم أن الله قد أعطاك أمانة لتردها إليه ، كما أعطاك أمانة لتوصلها إلى غيرك لا تردها إليه ، كالرسالة ، فإن الله يقول :(يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ)وقال :(ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ)وأما ما يرد إليه عزّ وجل من الأمانات ، فهو كل علم آمنك عليه من العلوم التي إذا ظهرت بها في العموم ضلّ به من لا يسمعه منك بسمع الحق ، فإذا حصل لك مثل هذا العلم ورأيت من كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه ، وليس له هذا العلم ، فأده إليه ، فإنه ما يسمعه منك إلا بسمع الحق ، فالحق على الحقيقة هو الذي سمع ، فرددت الأمانة إليه تعالى ، وهو الذي أعطاكها ، وحصلت لهذا الشخص الذي الحق سمعه فائدة لم يكن يعلمها ، ولكن حامل هذه الأمانة إن لم يكن عالما بأن هذا ممن يكون صفته أن يكون الحق سمعه ، وإلا فهو ممن خان الله ، وقد نهاه الله أن يخون الله ، وكذلك من خيانة الله التعدي في حد من حدود الله ، مع العلم بأنه متعد فيه ، فقد خان الله في تصرفه باعتقاده التعدي(وَمَنْ يَتَعَدَّ

ص 224

حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)
وكذلك من خان الله في أهل الله ، فقد خان الله ، وكل أمر بيدك أمرك الله فيه أن ترده إليه فلم تفعل فذلك من خيانة الله ،
والله يقول :(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)" والرسول " وأما خيانة من خان رسول الله صلّى الله عليه وسلم فهي فيما أعطاك الله من الآداب أن تعامل به رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وهذه المعاملة هي عين أدائها إليه صلّى الله عليه وسلم ، فإذا لم تتأدب معه فما أديت أمانته إليه ،
فقد خنت رسول الله صلّى الله عليه وسلم فيما أمنك الله عليه من ذلك ، ومن خيانتك رسول الله صلّى الله عليه وسلم ما سألك فيه من المودة في قرابته وأهل بيته ، فإنه وأهل بيته على السواء في مودتنا فيهم ، فمن كره أهل بيته فقد كرهه ، فإنه صلّى الله عليه وسلم واحد من أهل البيت ، ولا يتبعض حب أهل البيت ،
فإن الحب ما تعلق إلا بالأهل لا بواحد بعينه ، فاجعل بالك واعرف قدر أهل البيت ، فمن خان أهل البيت فقد خان رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ومن خان ما سنه رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقد خانه صلّى الله عليه وسلم في سنته ، ومن خيانتك رسول الله صلّى الله عليه وسلم المفاضلة بين الأنبياء والرسل سلام الله عليهم ، مع علمنا بأن الله فضل بعضهم على بعض ،
كما قال تعالى :(وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ)وقال :(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ)فله سبحانه أن يفضل بين عباده بما شاء وليس لنا ذلك ، فإنا لا نعلم ذلك إلا بإعلامه ، فإن ذلك راجع إلى ما في نفس الحق سبحانه منهم ، ولا يعلم أحد ما في نفس الحق ، ولا دخول هنا للمراتب الظاهرة والتحكم ، وقد نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن نفضل بين الأنبياء وأن نفضله صلّى الله عليه وسلم عليهم إلا بإعلامه أيضا ، وعيّن يونس عليه السلام ، فمن فضل من غير إعلام الله فقد خان رسول الله صلّى الله عليه وسلم وتعدى ما حده له رسول الله صلّى الله عليه وسلم« وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ »وأما خيانة الأمانات فهي كل أمانة مشروعة ، قال تعالى): إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها (ومنها قوله صلّى الله عليه وسلم : [لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم]
والخيانة ظلم ، فالحكمة أمانة وخيانتها أن تعطيها غير أهلها وأنت تعلم أنه غير أهلها« وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »فرفع الله الحرج عمن لا يعلم » إلا أنه أمره بأن يتعرض لتحصيل العلم بالأمور ، فلا عذر له في التخلف عن ذلك .

[سورة الأنفال (8) : آية 28]
وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28)
الفتنة الاختبار ، يقال : فتنت الفضة بالنار إذا اختبرتها ، فيقول تعالى :« وَاعْلَمُوا أَنَّما
ص 225

أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ »أي اختبرناكم بهما ، هل تحجبكم عنا وعما حددنا لكم أن تقفوا عنده ؟ فهما اختبار لإقامة الحجة في صدق الدعوى أو كذبها ، يتمنى الشخص أن لو كان له مال لعمل به برا ، فيكتب الله له أجر من عمل ، فإن نيته خير من عمله ، ويكتب له على أوفى حظ ، وهو في ذمة الغير ليس بيده منه شيء ، فإذا حصل له ما تمناه من المال أو مما تمناه مما يتمكن له به الوصول إلى عمل ذلك البر ، وجب عليه أن يعمل ذلك البر الذي نواه ، فإن لم يفعل لم يكتب له أجر ما نواه ، وهنا الفتنة والاختبار ، ويتخيل من لا علم له بأن إضافة الأموال في قوله تعالى :« أَمْوالُكُمْ » إضافة ملك ، وما علم أن تلك الإضافة إضافة استحقاق ، كسرج الدابة وباب الدار ، لا إضافة ملك ،

فإن الله تعالى قال :(وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ)

فما هو لنا ، وجعل الله المال والولد فتنة يختبر بهما عباده لأن لهما بالقلب لصوقا ، وهما محبوبان طبعا ، ويتوصل بهما ولا سيما بالمال إلى ما لا يتوصل بغير المال من أمور الخير والشر ، فإن غلب على العبد الطبع لم يقف في التصرف بماله عند حد ، بل ينال به جميع أغراضه ، وما سمي المال مالا إلا لكون القلب مال إليه ، لما فيه من بلوغ العبد إذا كان صالحا إلى جميع الخيرات التي يجدها عند ربه في المنقلب ، وإذا لم يكن تام الصلاح فلما فيه من بلوغ أغراضه به ، وأما الولد فلما كان لأبويه عليه ولادة أحباه ، ومالا إليه ميل الفاعل إلى ما انفعل عنه ، وميل الصانع إلى مصنوعه ، فميله لحب الولد ميل ذاتي ،

فإن كرهه فبأمر عارض لأخلاق ذميمة وصفات شريرة تقوم بالولد ، فبغضه عرضي وقدم المال على الولد في الذكر لأن المال محبوب للإنسان حب الولد« وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ »إذا رزأكم في شيء منهما .

[سورة الأنفال (8) : آية 29]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

[« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً » الآية]« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا »ما أيّه الحق إلا بالمؤمن والناس والمؤتين ، ما أيّه بأصحاب العين« إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ »وهو العمل على تقليد ما جاء به الإيمان فينتج ذلك العمل العلم بالله ، فيفرق بين الحق والباطل عن بصيرة صحيحة لا تقليد فيها ، فالمتقي يتولى الله تعليمه ، فلا يدخل

ص 226

علمه شك ولا شبهة« يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً »يخاطب مؤمنا وإيمانا أي يفهمكم الله معاني القرآن ، فتعلموا مقاصد المتكلم به ، لأن فهم كلام المتكلم ما هو ، بأن يعلم وجوه ما تتضمنه تلك الكلمة بطريق الحصر مما تحوي عليه مما تواطأ عليه أهل اللسان ، وإنما الفهم أن يفهم ما قصده المتكلم بذلك الكلام ، هل قصد جميع الوجوه التي يتضمنها ذلك الكلام أو بعضها ؟ فينبغي لك أن تفرق بين الفهم للكلام أو الفهم عن المتكلم وهو المطلوب ، فكل من فهم عن المتكلم فقد فهم الكلام ، وما كل من فهم الكلام فهم عن المتكلم ما أراد به على التعيين ، إما كل الوجوه أو بعضها ، وقوله تعالى :« يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً »هو علم الكشف ، وهو قوله تعالى :(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)

وقال صلّى الله عليه وسلم : [من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يكن يعلم] وهو علم مكتسب بالتقوى لا علم وهبي ، فإن التقوى جعلها الله طريقا إلى حصول هذا العلم ، والعلم الوهبي لا يحصل عن سبب بل من لدنه سبحانه ، فيجعل الله له فرقانا من العلوم الإلهية المغيبة عن أكثر الخلق ، فرقانا تفرقون به بين الله وبين الآلهة التي عبدها المشركون ، فرقانا تفرقون به بين ما أدركتموه من الله بالعلم الخبري وبالعلم النظري وبالعلم الحاصل عن التقوى » فرقانا تميزون به ، ومن ذلك تفرقون بين ما ينبغي له وما ينبغي لكم ، فيعطى كل ذي حق حقه ، فالعلم باللّه عن التقوى أعلى المراتب في الأخذ ، فإن له الحكم الأعم على كل حكم وعلى كل حاكم بكل حكم ، ومن ادعى التقوى ولم يحصل له هذا الفرقان فما صدق في دعواه . واعلم أيدك الله بروح القدس أن المتقي بمجرد تقواه قد حصل في الفرقان ، إذ لو لم يفرق ما اتقى ، وهذا الفرقان الذي أنتجته التقوى لا يكون إلا بتعليم الله ليس للنظر الفكري فيه طريق غيره ، فإنه ما تقدم لنبي قط قبل نبوته نظر عقلي في العلم باللّه ، ولا ينبغي له ذلك ، وكذلك كل ولي مصطفى لا يتقدم له نظر عقلي في العلم باللّه ، وكل من تقدمه من الأولياء علم باللّه من جهة نظر فكري فهو وإن كان وليا فما هو مصطفى ولا هو ممن أورثه الله الكتاب الإلهي ، وسبب ذلك أن النظر يقيده في الله بأمر ما يميزه به عن سائر الأمور ، ولا يقدر على نسبة عموم الوجود لله ، فما عنده سوى تنزيه مجرد ، فإذا عقد عليه فكل ما أتاه من ربه مخالف عقده ، فإنه يرده ويقدح في الأدلة التي تعضد ما جاءه من عند ربه ، فمن اعتنى الله به عصمه قبل اصطفائه من علوم النظر ، واصطنعه لنفسه وحال بينه وبين طلب العلوم النظرية ، ورزقه الإيمان باللّه

ص 227

وبما جاء من عند الله على لسان رسول الله ، هذا في هذه الأمة التي عمت دعوة رسولها ، وأما في النبوة الأولى ممن كان في فترة من الرسل ، فإنه يرزق ويحبب إليه الشغل بطلب الرزق أو بالصنائع العملية أو الاشتغال بالعلوم الرياضية من حساب وهندسة وهيئة وطب وشبه ذلك ، من كل علم لا يتعلق بالإله ، فإن كان مصطفى ويكون نبيا في زمان النبوة في علم الله ، فيأتيه الوحي وهو طاهر القلب من التقييد بإله محصور في إحاطة عقله ، وإن لم يكن نبيا وجاء رسول إلى أمة هو منها قبل ما جاءه به نبيه ، ذلك لسذاجة محله ، ثم عمل على إيمانه واتقى ربه رزقه الله عند ذلك فرقانا في قلبه وليس لغيره ذلك ، هكذا أجرى الله عادته في خلقه ، وإن سعد صاحب النظر العقلي فإنه لا يكون أبدا في مرتبة الساذج الذي لم يكن عنده علم بالله إلا من حيث إيمانه وتقواه ، وهذا هو وارث الأنبياء في هذه الصفة ، فهو معهم وفي درجتهم هذه ، وهذا الفرقان الذي تعطيه التقوى ، لا بد أن يكون فرقانا خاصا ، وليس سوى الفرقان الذي يكون في عين القرآن ، فإن القرآن يتضمن الفرقان بذاته ، وهذا الفرقان نتيجة العامل بالقرآن العظيم ، وتختلف نتائج القرآن باختلاف نعوته ، فالقرآن المطلق يعطي ما لا يعطيه القرآن المقيد ، وقد قيد الله قرآنه بالعظمة والمجد والكريم ، وإنما نسب الجعل إلى هذا الفرقان« يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً »لأن التقوى أنتجته ، فإما أن يكون جعله ظهوره لمن اتقاه مع كونه لم يزل موجود العين قبل ظهوره ، أو يكون جعله خلقه فيه بعد أن لم يكن ، وما هو إلا الظهور دون الخلق ،

فإنه أعقبه بقوله :« وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ » أي يستر ، والستر ضد الظهور ، فلا يخلو العبد في تقواه ربه ، أن يجعل نفسه وقاية له عن كل مذموم ، وينسب إليه ، أو يجعل ربه وقاية عن كل شدة لا يطيق حملها إلا به ، وهو لا حول ولا قوة إلا بالله ،

وهو قوله : (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

فيتلقى به شدائد الأمور ، ومن وجه آخر »وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ »أي يستر عنكم ما يسوءكم فلا ينالكم ألم من مشاهدته ، فإن رؤية السوء إذا رآه من يمكن أن يكون محلا له - وإن لم يحل به - فإنه تسوءه رؤيته ، وذلك لحكم الوهم الذي عنده والإمكان العقلي »وَيَغْفِرْ لَكُمْ »أي ويستر من أجلكم ممن لكم به عناية في دعاء عام أو خاص معين ، فالدعاء الخاص ما تعين به شخصا بعينه أو نوعا بعينه ، والعام ما ترسله مطلقا على عباد الله ممن يمكن أن يحل بهم سوء« وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » بما أوجب على نفسه من الرحمة وبما امتن به منها على من استحق العذاب كالعصاة

ص 228

في الأصول والفروع .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 30 إلى 32]
وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (30) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (32)
« وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ »أي الله نقصد ، وأصلها بالله أمّنا أي اقصدنا« إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ »فما قالوا هذا القول إلا لعمى قلوبهم ، فإنهم يعلمون بأن ذلك ممكن ، ولكن لم يوفقهم الله أن يقولوا : تب علينا ، أو أسعدنا ، وما قالوه إلا مبالغة في التكذيب ، إذ لو احتمل عندهم صدق الرسول ما قالوا مثل هذا القول ، فإن النفوس جبلت على جلب المنافع لها ودفع المضار عنها .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 33 إلى 34]
وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) وَما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (34)
ما اتخذ الله وليا جاهلا ، والولاية من شرطها العلم وليس من شرطها الإيمان ، فإن الإيمان مستنده الخبر ، فالموحدون بأي وجه كان أولياء الله تعالى ، فإنهم حازوا أشرف المراتب ، فإنه يدخل تحت فلك الولاية كل موحد لله بأي طريق كان ، ومن كان حاله التقوى والاتقاء كيف يفرح أو يلتذ ؟
من يتقي فإن تقواه وحذره وخوفه أن لا يوفي مقام التكليف حقه ، وعلمه بأنه مسؤول عنه ، لا يتركه يفرح ولا يسر بعزة المقام ،
قال صلّى الله عليه وسلم : [أنا أتقاكم لله وأعلمكم بما أتقي] حين قالت له الصحابة في اجتهاده : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك

ص 229

وما تأخر ، فكانت أحوال الأنبياء والرسل في الدنيا البكاء والنوح ، فإنه موضع تتقى فتنته .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 35 إلى 37]

وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (37)

« لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ »فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وقد جعل الله العالم في الدنيا ممتزجا ، مزج القبضتين في العجنة ، ثم فصل الأشخاص منها ، فدخل من هذه في هذه ، من كل قبضة في أختها ، فجهلت الأحوال ، وغاية التخليص من هذه المزجة وتمييز القبضتين ، حتى تنفرد هذه بعالمها وهذه بعالمها كما قال تعالى :« لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ »فمن بقي فيه شيء من المزجة حتى مات عليها لم يحشر يوم القيامة من الآمنين ، ولكنه منهم من يخلص من المزجة في الحساب ، ومنهم من لا يتخلص منها إلا في جهنم ، فإذا تخلص أخرج ، فهؤلاء هم أهل الشفاعة ، وأما من تميز هنا في إحدى القبضتين انقلب إلى الدار الآخرة بحقيقته من قبره إلى نعيم أو إلى عذاب وجحيم ، فإنه قد تخلص .

[سورة الأنفال (8) : آية 38]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38)

الكافر هنا المشرك ليس الموحد.

230

[سورة الأنفال (8) : الآيات 39 إلى 41]
وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)
وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41)

« وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ »
[تقسيم الغنائم]
لله الخمس من المغنم ، وما بقي وهو أربعة أخماس تقسم على خمسة ، وجعل الله لنفسه نصيبا لكونه نصر المجاهدين ، فله نصيب في الجهاد ، ولما كان السبب لكون الله جعل لنفسه في المغانم نصيبا لنصرته دين الله اندرج في نصيب الله كل من نصر دين الله وهم الغزاة ، فليس لهم إذا اعتبرت الآية إلا الخمس من المغنم ، ثم تبقى أربعة أخماس ، فتقسم مخمسة أيضا :
واحد الخمسة لرسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وهو قوله تعالى: " وَلِلرَّسُولِ "وبعد الرسول إذا فقد لخليفة الزمان ، والخمس الثاني لأهل البيت قرابة الرسول صلّى الله عليه وسلم ،
وهو قوله تعالى :« وَلِذِي الْقُرْبى »وليسوا إلا المؤمنين من القرابة ، فجاء بلفظ القربى دون لفظ القرابة ، فإن القرابة إذا لم يكن لهم قربى الإيمان لاحظ لهم في ذلك ،
والخمس الثالث لليتامى
وهو قوله تعالى :« وَالْيَتامى » اليتيم في تدبير وليه ، والولي الله ، لأنه ولي المؤمنين ، وغير اليتيم في تدبير أبيه ، فلا ينظر إليه مع وجود أبيه ، واليتيم قد علم أن أباه قد اندرج فانكسر قلبه ، ولم يكن له أصل يدل عليه ، فعرفه العلماء بالله أنه ليس له إلا من كان لأبيه وهو الله ، فيرجع إلى الله في أموره ، فلما كان اليتيم مع الله في نفسه بهذه المثابة ، جعل الله له حظا في المغنم ، وفي الحديث
[أن من يمسح على رأس اليتيم كان له بكل شعرة حسنة]
وليس ذلك لغير اليتيم ، والخمس الرابع للمساكين وهو قوله تعالى :« وَالْمَساكِينِ »حكم المسكين حكم اليتيم من عدم الناصر ، _*والمسكين صاحب ضعفين :*_
ضعف الأصل ، وضعف الفقر ،
فلا يقدر يرفع رأسه لهذا الضعف ، بخلاف رب المال ،

ص 231

فالمسكين من سكن تحت مجاري الأقدار ، ونظر إلى ما يأتي به حكم الله في الليل والنهار ، واطمأن بما أجرى الله به وعليه ، وعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وأنه الفعال لما يريد ، وتحقق بأن قسمه من الله ما هو عليه في الحال ، فجعل الله له حظا في المغنم وإن لم يكن له فيه تعمل ، فخدمه غيره ، ونال هو الراحة بما أوصل الله إليه من ذلك مما جهد فيه الغير وتعب ، والخمس الخامس لابن السبيل ، وهو قوله تعالى :« وَابْنِ السَّبِيلِ »فهو المسافر ، والمسافر لا بد له من زاد ، فجعل الله له نصيبا من المغنم ، فالحق يغذيه بما ليس له فيه تعمل ، وقد يكون ابن السبيل في هذه الآية عين المجاهد ، ويكون السبيل من أجل الألف واللام اللتين للعهد والتعريف سبيل الله ، التي قال الله فيها :(وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)يعنى الشهداء الذين قتلوا في الجهاد ، فيكون أيضا حظ المجاهد من المغنم القدر الذي عيّن الله لابن السبيل ، وهو معروف سوى ما له في الصدقات ، فإن غلب على ظن الإمام أن المذكورين في قوله تعالى »: وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ »الآية ، والتي في سورة الحشر التي فيها ذكر الأصناف ، حظهم من المغنم الخمس خاصة ، يقسم فيهم هكذا ، وما بقي فلبيت مال المسلمين يتصرف فيه الإمام بما يراه ، فإن شاء أعطاه المجاهدين على ما يريده من العدل والسواء في القسمة ، أو بالمفاضلة ، وإن غلب على ظن الإمام أن الخمس الأصلي لله وحده وما بقي فلمن سمى الله تعالى ، وقد جعل الله للمجاهدين في سبيل الله نصيبا في الصدقات وما جعل لهم في المغنم إلا ما نفله به الإمام قبل القسمة أو ما أعطاه بقوله : من قتل قتيلا فله سلبه ، وقد ورد عن بعض العلماء وأظنه ابن أبي ليلى أن الحظ الذي هو الخمس في الأصل كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقبضه ويخرجه للكعبة ويقول : هذا لله ، ثم يقسم ما بقي .

[سورة الأنفال (8) : آية 42]

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42)

« إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا »يريد القريبة« وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى »يعني البعيدة - من باب الإشارة لا التفسير -« إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ »أي ما

ص 232

أنزل الله على عبده يوم الفرقان ، ففرق بما أعلمه الله بين القبضتين ، وهم أبناء الآخرة وأبناء الدنيا« إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا »إلى الله ، أي أبناء الآخرة بمحصل القربة والمكانة الزلفى إلى الله« وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى »عن الله أي أبناء الدنيا« وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ »فجعل السفل لهم إذ كانت كلمة الذين كفروا السفلى ، ومن كان أسفل منك فأنت أعلى منه ، لأنكم أهل الله الذين لهم السعادة ، إذ كانت كلمة الله هي العليا .

ألا إن أهل الله بالعدوة الدنيا *** كما أن أهل الشرك بالعدوة القصوى
فإن الذي أقصاه يمتاز بالسفلى *** وإن الذي أدناه قد فاز بالعليا
ألا تلحظن الركب أسفل منهم *** فكل فريق من مكانته أدنى

[سورة الأنفال : (8)الآيات 43 إلى 44]

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)

[عين الحسّ وعين الخيال]

إن الله إذا قلل الكثير وهو كثير في نفس الأمر ، أو كثر القليل وهو قليل في نفس الأمر ، فما تراه إلا بعين الخيال لا بعين الحس ، وهو البصر نفسه في الحالين ، كما قال تعالى :« وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ »وقال): يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ)وما كانوا مثليهم في الحس ، فلو لم ترهم بعين الخيال لكان ما رأيت من العدد كذبا ، ولكان الذي يريه غير صادق فيما أراه إياك ، وإذا كان الذي أراك ذلك أراكه بعين الخيال كانت الكثرة في القليل حقا والقلة في الكثرة حقا ، لأنه حق في الخيال وليس بحق في الحس ، كما أراك اللبن في الخيال فشربته ولم يكن ذلك اللبن سوى عين العلم ، فما رأيته بعين الخيال في حال يقظتك وإن كنت لا تشعر بذلك ، فكذلك هو في نفس الأمر ، لأن الله صادق فيما يعلمه ، وهو في الخيال صدق كما رأيته .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 45 إلى 49]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (48) إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(49)

ص 233

المنافق هو الذي أسلم تقية حتى يعصم ظاهره في الدنيا .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 50 إلى 60]

وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (50) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (51)
كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (52)
ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53)
كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (54)
إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (55)
الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (56)
فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57)
وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ(58)
وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (59)
وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ(60)

ص 234

[الفرق بين العلم والمعرفة]
ما اعتنى الله بشيء من آلة الحرب ما اعتنى بعلم الرمي بالقوس ، قال تعالى »:
وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ »
فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي]
وهو الرمي بالقوس« لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ »لا تعرفونهم ، فالعلم هنا بمعنى المعرفة ، وإنما جاءت هنا بلفظة العلم حتى لا يكون لإطلاق المعرفة على الحق تعالى حكم في الظاهر ، فالعلم صفته والمعرفة ليست صفته ، وإن كان العلم والمعرفة والفقه كله بمعنى واحد ، لكن يعقل بينهما تميز في الدلالة كما تميزوا في اللفظ ، فيقال في الحق إنه عالم ، ولا يقال فيه عارف ولا فقيه ، وتقال هذه الثلاثة الألقاب في الإنسان ، وذكر النحاة أن العلم ينوب عن المعرفة في اللسان بالعمل ، فعدوا العلم إلى مفعول واحد للنيابة ، وذهلوا عما نعلمه نحن من أن المعرفة قد تكون من أسماء العلم ، لأن العلم هو الأصل ، فإنه صفة الحق ليست المعرفة صفته ، ولا له منها اسم عندنا في الشرع ، وإن جمعها والعلم حد واحد ، لكن المعرفة من أسماء العلم ، ومعنى أن العلم إنما هو موضوع للأحدية مثل المعرفة ، ولهذا سمينا العلم معرفة ، لأنا إذا قلنا علمت زيدا قائما ، فلم يكن مطلوبنا زيدا لنفسه ، ولا مطلوبنا القيام لعينه ، وإنما مطلوبنا نسبة قيام زيد ، وهو مطلوب واحد ، فإنها نسبة واحدة معينة ، وعلمنا زيدا وحده بالمعرفة ، والقيام وحده بالمعرفة ، فنقول : عرفت زيدا ، وعرفت

ص 235

القيام ، وهذا القدر غاب عن النحاة ، وتخيلوا أن تعلق العلم بنسبة القيام إلى زيد هو عين تعلقه بزيد والقيام ، وهذا غلط ، فإنه لو لم يكن زيد معلوما له والقيام أيضا معلوما له قبل ذلك ، لما صح أن ينسب ما لا يعلمه إلى ما لا يعلمه ، لأنه لا يدري هل تصح تلك النسبة أم لا ؟ .

[سورة الأنفال (8) : آية 61]

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61)

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ «وهو الصلح« فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ »ولهذا يتعين على السلطان أن يدعو عدوه الكافر إلى الإسلام قبل قتاله ، فإن أجاب وإلا دعاه إلى الجزية إن كان من أهل الكتاب ، فإن أجاب إلى الصلح بما شرط عليه قبل منه ، يقول الله« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ »فيبقي على المسلمين إن كانت المنفعة للمسلمين في ذلك ، فإن أبوا إلا القتال قاتلهم وأمر المسلمين بقتالهم على أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 62 إلى 63]

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)

" وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ »يريد عليك« وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ »يريد على مودتك وإجابتك وتصديقك ، فإنه تعالى لم يقل بين قلوبهم ولا بينها ، فالمراد أنه سبحانه ألف بين قلوب المؤمنين وبينه تعالى ، لأنهم ما اجتمعوا على محمد صلّى الله عليه وسلم إلا بالله ولله ، فبه تألفوا لتألف محمد صلّى الله عليه وسلم به ، فكان هذا مما امتن الله به على نبيه محمد صلّى الله عليه وسلم .

[سورة الأنفال (8) : آية 64]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(64)

ص 236

اعلم أن النبوة في حق ذات النبي أعم وأشرف من الرسالة ، فإنه يدخل فيها ما اختص به في نفسه وما أمر بتبليغه لأمته الذي هو منه رسول .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 65 إلى 66]
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)
قوة المؤمن تعدل من قوى الكفار كثيرين ، ولهذا شرع لهم أن لا يفروا في قتال عدوهم ، وشرع الله لبعض المؤمنين قوة واحد لعشرة ، ثم خفف عنهم مع إبقاء القوة عليهم ، فشرع لهم لكل قوة مؤمن رجلين من الكفار .

[سورة الأنفال (8 : (آية 67]
ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67)
[النبوة في حق ذات النبي أعم وأشرف من الرسالة]
" ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا »يعني فداء أسارى بدر ، وأرسل تعالى الخطاب عاما في عرض الدنيا« وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ».

[سورة الأنفال (8) : آية 68]
لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (68)
فإسباغ النعم عليهم فضلا منه منة لحكم كتاب سبق ، وهذه الآية وأمثالها مثل قوله تعالى :(لَوْ أَرادَ اللَّهُ)رد على من يقول إن الإله لذاته أوجد الممكن لا لنسبة إرادة ولا سبق

ص 237

علم ، والصحيح ما قاله الشارع ، وإن لم تكن تلك النسبة أمرا وجوديا زائدا ، والسابقة عين الخاتمة ، وذلك في الحكم على المحكوم عليه ، وبالمحكوم عليه تبينت الخاتمة من السابقة ، فإن بينهما تميزا معقولا به يقال عن الواحدة سابقة وعن الأخرى خاتمة .

- **إشارة لغوية** - أداة لو امتناع لامتناع ، فهي دليل عدم لعدم ، فإذا أدخلت عليها لا ، وهي أداة نفي ، عاد الأمر امتناعا لوجود ، وهذا من أعجب ما يسمع ، فإن الأولى أن يكون الحكم في الامتناع ، والعدم أبلغ ، لكون الداخل أداة نفي ، والنفي عدم ، فأعطى الوجود ، وأزال عن أداة لو وجها واحدا من أحكامها ، وهو قولهم لامتناع ، وما العجب في دخول هذه الأدوات على المحدثات ، وإنما العجب في دخولها في كلام الله ، ونفوذ حكمها ودلالتها في الله ، هذا هو العجب العجاب ، وقد ثبتت نسبة الكلام إلى الله ، وقد ثبت أن الذي سمعناه في تركيب هذه الحروف هذا التركيب الخاص والنسبة الخاصة أنه كلام الله ، فقد حصل فيه هذه الأدوات ، فجرى عليه حكمها ، فهل ذلك من جهتنا أو ما هو الأمر إلا كذلك ؟

[- تحقيق - « لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ «]

- **تحقيق** -« لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ »الكتاب الذي سبق هو أنت ، فإن للأعيان الثابتة في حال عدمها أحكاما ثابتة ، مهما ظهر عين تلك العين في الوجود تبعه الحكم في الظهور ، وعلى هذا تعلق علم الحق به ، فالشيء حكم على نفسه ، أعني المعلوم ما حكم غيره عليه ، وإنما يظهر لك ما بطن فيك عنك .

[سورة الأنفال (8) : آية 69]

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69)

[مما اختص به النبي صلّى الله عليه وسلم أنه أحلت له الغنائم]

مما اختص به النبي صلّى الله عليه وسلم أنه أحلت له الغنائم ولم تحل لأحد قبله ، فأعطي ما يوافق شهوة أمته ، والشهوة نار في باطن الإنسان تطلب مشتهاها ، ولا سيما في الغنائم ، لأن النفوس لها التذاذ بها ، لكونها حصلت لهم عن قهر منهم وغلبة وتعمل ، فلا يريدون أن يفوتهم التنعم بها في مقابلة ما قاسوا من الشدة والتعب في تحصيلها ، فهي أعظم مشته لهم ، وقد كانت الغنائم في حق غيره من الأنبياء إذا انصرف من قتال العدو جمع المغانم كلها ، فإذا لم يبق منها شيء نزلت نار من الجو فأحرقتها كلها ، فإن وقع فيها غلول لم تنزل تلك النار حتى يرد ويلقى فيها ذلك الذي أخذ منها ، فكان نزول النار علامة على القبول الإلهي لفعلهم ،

ص 238

فأحلها الله لمحمد صلّى الله عليه وسلم فقسمها في أصحابه ، فتناولتها نار شهواتهم عناية من الله بهم لكرامة هذا الرسول عليه ، فأكرمه بأمر لم يكرم به غيره من الرسل ، وأكرم من آمن به بما لم يكرم به مؤمنا قبله بغيره.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 70 إلى 71]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71)

الاسم الحكيم له وجه إلى العالم ووجه إلى المدبر ، فإن للاسم الحكيم حكمين : حكما على مواضع الأمور ، وحكم وضعها في مواضعها بالفعل ، فكم من عالم لا يضع الشيء في موضعه ، وكم واضع للأشياء في مواضعها بحكم الاتفاق لا عن علم ، فالحكيم هو العالم بمواضع الأمور ووضعها في أماكنها .

[سورة الأنفال (8 : (آية 72]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72)

المجاهدون هم أهل الجهد والمشقة والمكابدة ، والمجاهدة مشقة وتعب ، وبها سمي الجهاد جهادا ، لأن إتلاف المهج أعظم المشاق على النفوس ، وهو الجهاد في سبيل الله الذي وصف الله قتلاه بأنهم أحياء يرزقون .

[سورة الأنفال (8 : (آية 73]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ (73)

ص 239

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ »قال تعالى في اليهود والنصارى :(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ)أي ينصر بعضهم بعضا ، وذلك من أثر الرحمة التي خلقها الله ، فجعل منها في الدنيا رحمة واحدة بها رزق عباده ، كافرهم ومؤمنهم ، وعاصيهم ومطيعهم ، وبها يعطف جميع الحيوان على أولاده ، وبها يرحم الناس بعضهم بعضا . ويتعاطفون ، كما قال الله : إن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والظالمين بعضهم أولياء بعض ، والمنافقين بعضهم أولياء بعض ، كل هذا ثمرة هذه الرحمة .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 74 إلى 75]
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75)
« وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ »فأمر بصلة الأرحام - من باب الإشارة - أمر سبحانه بصلة الأرحام ، وهو تعالى أولى بهذه الصفة منا ، فلا بد أن يكون للرحم وصولا ، فإنها شجنة من الرحمن ، وقد وصلنا الله بلا شك من حيث أنه رحم لنا ، فهو الرزاق ذو القوة المتين ، المنعم على أي حالة كنا ، من طاعة أمره أو معصيته ، وموافقة أو مخالفة ، فإنه لا يقطع صلة الرحم من جانبه وإن انقطعت عنه من جانبنا لجهلنا ، فأينما كان الخلق فالحق يصحبه من حيث اسمه الرحمن ، لأن الرحم شجنة من الرحمن ، وجميع الناس رحم ،
والقرابة قرابتان :
قرابة الدين وقرابة الطين ،
فمن جمع بين القرابتين فهو أولى بالصلة ، وإن انفرد أحدهما بالدين والآخر بالطين فتقدم قرابة الدين على قرابة الطين ، وأفضل الصلات في الأرحام صلة الأقرب فالأقرب ، وتنقطع الأرحام بالموت ولا ينقطع الرحم المنسوبة إلى الحق ، فإنه معنا حيثما كنا .

ص 240

(9) سورة التوبة مدنيّة

اختلف الناس في سورة التوبة ، هل هي سورة مستقلة كسائر سور القرآن ؟
أو هل هي وسورة الأنفال سورة واحدة ؟
فإنهم كانوا لا يعرفون كمال السورة إلا بالفصل بالبسملة ، ولم يجئ هنا ، فدل أنها من سورة الأنفال وهو الأوجه

. وإن كان لترك البسملة وجه ، وهو عدم المناسبة بين الرحمة والتبري ، فإن بسملة سورة براءة هي التي في النمل ، والحق تعالى إذا وهب شيئا لم يرجع فيه ولا يرده إلى العدم ، فلما خرجت رحمة براءة وهي البسملة ، حكم التبري من أهلها برفع الرحمة عنهم ، وأعطيت هذه البسملة للبهائم التي آمنت بسليمان عليه السلام ، وهي لا يلزمها إيمان إلا برسولها ، فلما عرفت قدر سليمان وآمنت به أعطيت من الرحمة الإنسانية حظا ، وهي بسم الله الرحمن الرحيم الذي سلب عن المشركين . ولكن ما لهذا الوجه تلك القوة بل هو وجه ضعيف ، وسبب ضعفه أنه في الاسم الله المنعوت بجميع الأسماء ما هو اسم خاص يقتضي المؤاخذة ، والبراءة إنما هي من الشريك ، وإذا تبرأ من المشرك فلكونه مشركا ، لأن متعلقه العدم ، فإن الخالق لا يتبرأ من المخلوق ، ولو تبرأ منه من كان يحفظ عليه وجوده ، ولا وجود للشريك ، فالشريك معدوم ، فلا شركة في نفس الأمر ، فإذا صحت البراءة من الشريك فهي صفة تنزيه وتبرئة لله من الشريك ، وللرسول من اعتقاد الجهل .

ووجه آخر في ضعف هذا التأويل الذي ذكرناه وهو عدم المناسبة بين الرحمة والتبري ، وهو أن البسملة موجودة في كل سورة أولها(وَيْلٌ) *وأين الرحمة من الويل ؟

ولهذا كان للقراء في مثل هذه السورة مذهب مستحسن فيمن يثبت البسملة من القراء ، وفيمن يتركها كقراءة حمزة ، وفيمن يخير فيها كقراءة ورش ، والبسملة إثباتها عنده أرجح ، فأثبتناها عند قراءتنا بحرف حمزة في هذين الموضعين لما فيهما من قبيح الوصل بالقراءة ،

وهو أن يقول(وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِويل) فبسملوا هنا ، وأما مذهبنا فيه فهو أن يقف على آخر السورة ويقف على آخر البسملة ، ويبتدئ بالسورة من غير وصل .

والخلاف في سورة التوبة أنها والأنفال سورة واحدة حيث لم يفصل بينهما بالبسملة خلاف منقول بين علماء هذا الشأن من الصحابة ، ولما علم الله ما يجري من الخلاف في هذه الأمة في حذف البسملة في سورة براءة ، فمن ذهب إلى أنها سورة مستقلة وكان القرآن عنده مائة وثلاث

ص 241

عشرة سورة فيحتاج إلى مائة وثلاث عشرة بسملة ، أظهر لهم في سورة النمل بسملة ليكمل العدد ، وجاء بها كما جاء بها في أوائل السور بعينها ، فإن لغة سليمان عليه السلام لم تكن عربية ،

وإنما كانت أخرى في كتب لغة هذا اللفظ في كتابه ، وإنما كتب لفظة بلغته يقتضي معناها باللسان العربي إذا عبر عنها بسم الله الرحمن الرحيم ، وأتى بها محذوفة الألف كما جاءت في أوائل السور ، ليعلم أن المقصود بها هو المقصود بها في أوائل السور ، ولم يعمل ذلك في(بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا)و(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) فأثبت الألف هناك ليفرق بين اسم البسملة وغيرها ، ولهذا تتضمن سورة التوبة من صفات الرحمة والتنزل الإلهي كثيرا ، فإن فيها شراء الله نفوس المؤمنين منهم بأن لهم الجنة وأي تنزل أعظم من أن يشتري السيد ملكه من عبده ؟

وهل يكون في الرحمة أبلغ من هذا ؟ فلا بد أن تكون التوبة والأنفال سورة واحدة ، أو تكون بسملة النمل السليمانية لسورة التوبة ، ثم انظر في اسمها ، فإن من يجعلها سورة على حدة منفصلة عن سورة الأنفال سماها سورة التوبة ،

وهو الرجعة الإلهية على العباد بالرحمة والعطف ، فإن الرجعة الإلهية لا تكون إلا بالرحمة ، لا يرجع على عباده بغيرها ، فإن كانت الرجعة في الدنيا ردّهم بها إليه ، وإن كانت في الآخرة فتكون رجعتهم مقدمة على رجعته ،

لأن الموطن يقتضي ذلك ، فإن كل من حضر من الخلق في ذلك المشهد سقط ورجع بالضرورة إلى ربه ، فيرجع الله إليهم وعليهم ، فمنهم من يرجع الله عليه بالرحمة في القيامة ومنازلها ، ومنهم من يرجع عليه بالرحمة بعد دخول النار ،

وذلك بحسب ما تعطيه الأحوال ، فالتوبة تطلب الرحمة ما تطلب التبري ، وإن ابتدأ عزّ وجل بالتبري فقد ختم بآية لم يأت بها ولا وجدت إلا عند من جعل الله شهادته شهادة رجلين ،

فإن كنت تعقل علمت ما في هذه السورة من الرحمة المدرجة ، ولا سيما في قوله تعالى : (ومنهم) ومنهم ، وذلك كله رحمة بنا لنحذر الوقوع فيه ، والاتصاف بتلك الصفات ، فإن القرآن علينا نزل ، فلم تتضمن سورة من القرآن في حقنا رحمة أعظم من هذه السورة ، لأنه كثر من الأمور التي ينبغي أن يتقيها المؤمن ويجتنبها ، فلو لم يعرفنا الحق تعالى بها ، وقعنا فيها ولا نشعر ، فهي سورة رحمة للمؤمنين .

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه نائب محمد صلّى الله عليه وسلم في تلاوة سورة براءة على أهل مكة ، وقد كان بعث بها أبا بكر ثم رجع عن ذلك فقال : لا يبلغ عني القرآن إلا رجل

ص 242

من أهل بيتي ، فدعا بعلي فأمره فلحق أبا بكر ، فلما وصل إلى مكة حج أبو بكر بالناس وبلغ عليّ إلى الناس سورة براءة ، وتلاها عليهم نيابة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وهذا مما يدلك على صحة خلافة أبي بكر ومنزلة علي رضي الله عنهما .

[سورة التوبة (9) : آية 1]

بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1)

فهو يتبرأ من الشريك لأن الشريك ليس ثم فهو عدم .

[سورة التوبة (9) : الآيات 2 إلى 3]

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ (2) وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (3)

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه نائب محمد صلّى الله عليه وسلم في تلاوة سورة براءة على أهل مكة« وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ »هو يوم النحر بمنى ، وإنما سمي يوم الحج الأكبر لأنه كان مجمع الحاج بجملته ، إذ كان من الناس من يقف بعرفة ، وكانت الحمس تقف بالمزدلفة ، فكانوا متفرقين فلما كان يوم منى اجتمعوا فيه ، أهل الموقف بالمزدلفة وبعرفة ، فكان يوم الحج الأكبر لاجتماع الكل فيه ، وسنّ طواف الإفاضة في هذا اليوم ، فأحل الحاج في هذا اليوم من إحرامه مع كونه متلبسا بالحج حتى يفرغ من أيام منى ، فلما أحل من إحرامه في هذا اليوم ، زال عن التحجير الذي كان تلبس به في هذه العبادة ، وأبيح له ما كان حرّم عليه ، وأحلّ الحل كله في هذا اليوم ، وكان إحلاله عبادة ، كما كان إحرامه عبادة ، وما زال عنه اسم الحج لما بقي عليه من الرمي ، فكان يوم الحج الأكبر لهذا السراح والإحلال ، فكانت أيام منى أيام أكل وشرب وبعال ، فمن أراد فضل هذا اليوم فليطف فيه طواف الإفاضة ، ويحل الحل كله .(أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)لا

ص 243

تصح البراءة من الأعداء إلا لله ولرسله عليهم السلام ومن كوشف على الخواتم ، ومن سواهم فما لهم التبري ، وإنما لهم أن لا يتخذوهم أولياء يلقون إليهم بالمودة لا غير ،(فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ).

[سورة التوبة (9) : الآيات 4 إلى 6]

إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (6)

نزل القرآن على قلب رسول الله صلّى الله عليه وسلم أحدي العين ، فتلاه رسول الله صلّى الله عليه وسلم بلسانه أصواتا وحروفا سمعها الأعرابي بسمع أذنه في حال ترجمته ، فالكلام لله بلا شك والترجمة للمتكلم به ،

وأضاف الكلام إلى الله تعالى لا إلى نبيه صلّى الله عليه وسلم ، وجعله مسموعا للعربي المخاطب بحاسة سمعه ، فما أدركه إلا متقطعا متقدما متأخرا ومن لم ينسب ذلك الكلام المسمى قرآنا إلى الله فقد جحد ما أنزل الله ، فإن كلام الله في هذه الآية هو ما أنزله خاصة ،

وإنما سمي الكلام كلاما لما له من الأثر في النفس ، من الكلم الذي هو الجرح في الحس ،

وهذا الكلام هو النوع الثالث من كلام الله للبشر في قوله :(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ)فقد يكون الرسول بشرا ، فأضاف الكلام إلى الله ، وما سمعته الصحابة ولا هذا الأعرابي إلا من لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلم هو الذي تلا عليه القرآن ،

والقرآن كلام الله تعالى فناب رسول الله صلّى الله عليه وسلم مناب الحق هنا من الاسم الظاهر ، فكأن الحق ظهر في عالم الشهادة بصورة التالي كلامه ، فإن الأعرابي ما سمع إلا الأصوات والحروف من فم

ص 244

النبي صلّى الله عليه وسلم ،
وقال الله : إن ذلك كلامي وأضافه إلى نفسه ، ومن وجه آخر كان الحجاب للأعرابي على كلام الله محمدا صلّى الله عليه وسلم . واعلم أن من المتشابه صفة الكلام ، ومنه نسبة الصوت والحرف إلى كلام الله سبحانه ، وقد وردت آيات وأحاديث توهم ذلك ، وهي مسألة مهمة بعيدة الغور تزلزلت فيها أقدام المتكلمين ، ومذهب أهل الحق أن لله تعالى كلاما قديما قائما بذاته واحدا في حقيقته ، مخالفا لصفة علمه وإرادته ، منزها عن الظروف المرتبة والأصوات المحدثة ، منزلا على نبيه مقروءا بالألسنة مكتوبا في المصاحف ، مسموعا لموسى صلّى الله عليه وسلم حقيقة ، ولمن يريد الله تعالى إسماعه ، غير مخلوق في الشجرة ، ولا قائم بالحوادث . وكلام الله سبحانه صفته ، وصفة القديم قديمة تتقدس عن الحدوث ، والحروف في إفادة الكلام يلزمها الترتيب وتقدم بعضها على بعض ،
وذلك مستحيل على القديم ، ولما كان الحق تعالى لصفاته مظهران علم أن لكلامه مظهرين ، مظهر علوي روحاني ، وهو روح القدس ، وكلمة العلي ، والحروف والأصوات من لوازم المظهرين ، وكلامه منزه عنها كتنزه القلب في كلامه عن الحروف اللسانية والأصوات الهوائية وإن كانت مظاهر له ، فقوله تعالى :(فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ)
أي بواسطة مظاهره الجسمانية ، وهي أصوات العباد وحروفهم ، وإطلاق كونه سامعا لكلام الله بذلك مجاز لما قدمناه أن المظاهر الجسمانية ليست منسوبة إلى الله تعالى لغة ، ولا شرعا ، وروي عن عائشة رضي الله عنها في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما ، أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟
قال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ، قال : وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول .
وهذا يحقق لك أن لكلام الله تعالى في الروحانيات مظهرين ، مظهر جلي يتشكل بالمظاهر الجسمانية وأصواتها وحروفها ، ومظهر آخر له حروف وأصوات خفي روحاني ، لأن الجرس في أصله هو الصوت الخفي ، والصلصلة صوت اليابس الصلب إذا حرك ، ويصح نسبة المسموع حينئذ إلى الله تعالى بالتأويل الذي ذكرته لك ، وإفادة الشجرة لإسماع كلام الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، كإفادة ألسنة القراء ، وكلاهما في ذلك بمثابة القلم في إفادة المكتوب ، وكما أن المكتوب لا يحل بالقلم ، ولا يكون صفة له ، ولا ينتقل به عمن هو صفته ، كذلك الكلام المسموع لا يحل بالألسنة ولا بالمصاحف ولا بالأقلام ، ولا يكون صفة للقارئ ولا ينتقل بالقراءة

ص 245

والكتابة عن موصوفه تبارك وتعالى . واعلم أن من مقام هذه الآية قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم :
إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده ، فقولوا : ربنا ولك الحمد ، فإن الله قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده . واعلم أن من سمع كلام الله من الله استفاد ، ومن سمعه من المحدث ربما عاند وربما قبل بحسب ما يوفق له .
- **إشارة -** لا تقل نحن إياه ، لقوله فأجره حتى يسمع كلام الله ، أنت الترجمان ، والمتكلم الرحمن ، تقيد كلام الله بالأمكنة ، بكونه في المصاحف والألسنة . الحروف ظروف ، والصفة عين الموصوف ، فإذا نطقت فاعلم بمن تنطق ، فعليك بالصدق .
- **تحقيق -** لما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم هو المتكلم بالقرآن ، فليس أحد من خلق الله يجوز أن يخبر عن نفسه ولا عن غيره ، وإنما إخبار الجميع عن الله ، فإنه سبحانه هو الذي يخلق فيهم بكن ما يخبرون به ، فالعارف يقبل كل كلام ، وينزله في المنزلة التي عينها الله على لسان الشرع .

[سورة التوبة (9) : الآيات 7 إلى 8]
كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (8)
« لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً »الإل بكسر الهمزة هو الله تعالى ، والإل أيضا العهد بكسر الهمزة ، فالإل اسم من أسماء الله ،« وَلا ذِمَّةً »الذمة العهد والعقد.

[سورة التوبة (9) : الآيات 9 إلى 14]
اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (9) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10) فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12)أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14)

اعلم أنه ليس في الوجود فاعل إلا الله تعالى ، وأفعال العباد بجملتها عند أهل السنة والجماعة منسوبة الوجود والاختراع إلى الله تعالى ، بلا شريك ولا معين ، فهي على الحقيقة فعله وله بها عليهم الحجة ، لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .
ومن المعلوم أن أفعال العباد لا بد فيها من توسط الآلات والجوارح ، مع أنها منسوبة إليه ،
وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى في تجلياته لعباده مظهرين :
مظهر عبادي سفلي منسوب لعباده ، وهو الصور والجوارح الجسمانية ،
ومظهر حقيقي علوي منسوب إليه ، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لأفهامهم ، والتأنيس لقلوبهم ، ونبه تعالى في كتابه العزيز على التنبيهين ، وأنه منزه عن الجوارح في الحالين ،
ونبه على الأول بقوله :« قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ »
وذلك يفهم أن كل ما يظهر على أيدي العباد فهو منسوب إليه وفعل له ، وأن جوارحنا مظهر له وواسطة فيه ، فهو على الحقيقة الفاعل بجوارحنا ، مع القطع الضروري لكل عاقل أن جوارح العبد ليست بجوارح لربنا تعالى ولا صفات له ، ونبه على الثاني بقوله تعالى فيما أخبر عنه نبيه صلّى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » - الحديث –
وقد حقق الله تعالى لنبينا صلّى الله عليه وسلم ذلك بقوله تعالى :(أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ)
بعد قوله :(خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها)
وبقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)
فنزل يد نبيه منزلة يده في المبايعة ، وأخذ الصدقات ،
والرمي في قوله تعالى :(وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى)، ذلك كله يفهم أن العبد إذا صار

ص 247

محمودا صارت أفعاله ناشئة عن أنوار علوية روحانية من عند ربه سبحانه ، تكون له بمثابة الجوارح ،
وأن الله سبحانه يكون له بواسطتها سمعا وبصرا ويدا ورجلا ، مع القطع الضروري أن الله تعالى لا يكون جارحة لعبده ،
فإن ذاته المتقدسة متعالية عن الاتصاف بها ، لأن الجوارح يلزمها الحدوث ، وذاته واجبة القدم ، وكل ما كان واجب القدم استحال عليه القدم .

[سورة التوبة (9) : آية 15]
وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15)
لما كان العذاب فيه ضرب من اللذة ومنه في صفة الماء عذب فرات ، وكان في إيلام الكفار بالله ورسوله سرور المؤمنين قال :« وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ »
بالانتقام من الكفار في مقابلة ما ضيقوا به صدور المؤمنين ، وسمي العذاب عذابا للعذوبة التي تحصل منه للمؤمن .

[سورة التوبة (9) : الآيات 16 إلى 21]
أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (16) ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ (17) إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18)
أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19)
الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (20)
يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ(21)

" يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ »
[سبب دوام التنعم في الجنة وانتفاء الملل]
البشرى مختصة بالمؤمن ، والكافر لاحظ له في البشرى الإلهية برفع الوسائط ، وكانت البشرى من الحق في مقابلة إجابتهم داعي الحق بالعبادات ، وكذلك في قوله تعالى :« لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ »
"وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ " النعيم والتنعم له أسباب ظاهرة وهي نيل الأغراض كانت ما كانت ، فإن صاحبها يتنعم بوجودها فهو صاحب تنعم في مقام تنعيم ، وتسمى أسباب وجود اللذة في الملتذ نعيما ، وليس النعيم في الحقيقة إلا اللذة الموجودة في النفس ، وهي لذات حسية ونفسية.
وفي الجنان في كل حين خلق جديد ، ونعيم جديد ، حتى لا يقع الملل ، فإن كل شيء طبيعي إذا توالى عليه أمر ما من غير تبدل لا بد أن يصحب الإنسان فيه ملل ، فإن الملل نعت ذاتي له ، فإن لم يغذه الله بالتجديد في كل وقت ليدوم له النعيم بذلك ، وإلا كان يدركهم الملل .

فأهل الجنان يدركون في كل نظرة ينظرونها إلى ملكهم أمرا وصورة لم يكونوا رأوها قبل ذلك ، فينعمون بحدوثها ، وكذلك في كل أكلة وشربة يجدون طعما جديدا لذيذا لم يكونوا يجدونه في الأكلة الأولى ، فينعمون بذلك وتعظم شهواتهم .

[سورة التوبة (9) : الآيات 22إلى 23]
خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23)
ثم قال تعالى فيمن تربص في أهله ولم يفر إليه.

ص 249

[سورة التوبة (9) : آية 24]

قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (24)

« قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ »وهو كل من له عليك ولادة« وَأَبْناؤُكُمْ »
كل من لك عليه ولادة« وَإِخْوانُكُمْ » كل ما قابلك من الأمثال ، وداخلك من الأشباه ، ومازجك أو قارب من الأنداد« وَأَزْواجُكُمْ » وهو كل ثنّاك وجوده ، وانفعل لك فيما تريده ، وكنت فيه خلاقا ، وإليه إذا غاب عنك مشتاقا ، وجمعتكما الرحمة والمودة الثابتة ، وسكنت إليه ، وسكن إليك ، وأعطاك من نفسه التحكم فيه ، وظهر فيه اقتدارك ، فهو زوجك ، تحبه طبعا وتتحد به ، ويكون ملكا لك شرعا« وَعَشِيرَتُكُمْ ».

العشائر : الأصحاب ، وكل ما تعتضد به في أمورك" وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها "
وهو كل ما تميل إليه فيميل إليك ، ويحضره ديوان نيلك ، ويقف عند فعلك فيه وقولك ، ويتحكم فيه سلطان طولك ، وتصل في اقتنائه نهارك بليلك ، من ثابت كالعقار ، ومن غير ثابت كالعروض والدرهم والدينار ، وكل منقول لا يقر به قرار ، وكله مال ، لأنه مال ، وإليه المآل بعد الرحلة عنه والانتقال ،
« وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها » وهو كل أمر تطلب الخروج عنه ، ليكون ذلك الخروج سببا لتحصيل ما يكون عندك أنفس منه ، فتطلب به النفاق في الأسواق ، تخشى كسادها وتخاف فسادها« وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها »وهو كل ما اتخذته محلا ، وكنت به محلى ، وجعلته لك حرما وحلا ، فذلك مسكنك الذي ترضاه ، ومنزلك الذي تقصده وتتوخاه ،
كل ذلك قاله لك الحق فيما أنزله إليك ، ووفد به رسوله الأمين عليك ، إذا لم تر وجه الحق في كل ما ذكرته وتعشقت به لعينه ، وتعرف أنه من عنده ما هو عينه ، وآثرته مع هذا الحجاب على ما دعاك الحق إليه من الزهد فيه إذا فقدت فيه وجه الحق فتعلم أن الله ما أراد منك إلا أن تعرفه فيما أمرك بالزهد فيه ، والرغبة عنه ، وأحببته حب عين ، وصورة كون ، وكان أحب إليك من الله

ص 250

الجامع للرغبة فيه ، والرغبة عنه ، فإنه المعطي المانع ، والضار النافع ، وأحب إليك
من رسوله الوافد عليك المعرف بما هو حجاب عن المقصود ، وستر بين العابد
والمعبود ، مع علمك بما أعلمك أنه ما خلقك إلا لتعبده ، وتؤثره على ما تراه وتقصده
، وأحب إليك من جهادك في سبيل الله الذي يجمع لك بين الحياتين فلا تعرف للموت
طعما ، ولا للحصر حكما« فَتَرَبَّصُوا »
كلمة تهديد ووعيد ، والتربص :
نقيض الفرار المأمور به وهو قوله تعالى :« فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ »« حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ
»فتعرف عند ذلك خيره من شره ، وحلوه من مره ، وتذوق شهده من صبره

- تفسير من باب الإشارة -

اعلم أن قوله تعالى :« فَتَرَبَّصُوا »عقيب ما تعدد من الأعيان إذن وأمر بالتربص إن
كان الله مشهودا لكم في كل ما ذكرناه ، فإن ذلك الشهود هو المطلوب بالفرار إلى الله
، لأن الله أمرنا بالفرار إلى الله ،
وقوله: " أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ " أي من أجل الله أي شهودكم الله في هذه الأعيان أحب
إليكم من شهودكم إياه في أعيان غيرها ، للمناسبة القريبة بينكم وبين هذه الأشياء
المذكورة ، وإن كان الكامل يشهده في كل عين ، ولكن بعض الأعيان قد يكون لبعض
الأشخاص أحب من أعيان أخر ، وقوله :" وَرَسُولِهِ "
مثل قوله :« مِنَ اللَّهِ »أي ومن أجل رسوله حيث أمركم ببر هؤلاء ، وجعل لهم حقوقا
عليكم فحقوق الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشائر معلومة ، منصوص عليها
لا تخفى على من وقف على العلم المشروع ،
وكذلك حقوق الأموال ، نعم المال الصالح للرجل الصالح ، وحقوق التجارة معلومة ،
فإن صدق التجارة لا يكون لغيرها ، والتاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع النبيين
والشهداء كذا قال صلّى الله عليه وسلم وقوله :« تَخْشَوْنَ كَسادَها »يقول تخافون أن
تتركوها لأجل الكساد طلبا للأرباح ، وأي ربح أعظم من ربح صدق التاجر وقوله »:
وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ »أي ومن أجل أيضا شهودكم إياه تعالى في الجهاد في سبيله لأنه
أمركم بهذا ، وعلمتم أن مشهودكم في كل ما ذكرناه ولما ذكرناه منزلة شريفة عندكم«
فَتَرَبَّصُوا »أي لا تفروا فإنه ما أمرنا بالفرار إلّا لكوننا ليست لنا هذه المشاهدة . وقوله
:« حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » وهو قيام الساعة ، أو الموت الذي يخرجكم عن مشاهدة
هؤلاء وقوله :" وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ "
يقول الخارجين عن حكم هذه المشاهدة التي أنتم فيها ، والتي دعيتم إليها ، فما هي في
حق أصحاب هذا النظر آية وعيد ، وإنما هي آية وعد وبشرى ، وتقرير حال وسكون
أي تربصوا إذا كان هذا

ص 251

مشهدكم ، فقد حصل المطلوب ، فإن انتقلتم بعد هذا فهو انتقال من خير إلى خير ، أو من خير أدنى إلى خير أعلى .

[سورة التوبة (9) : آية 25]

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) .

المؤمن الكامل منصور أبدا ، ولهذا ما انهزم نبي قط ، ولا ولي ، ألا ترى يوم حنين لما ادعت الصحابة رضي الله عنهم توحيد الله ، ثم رأوا كثرتهم فأعجبتهم كثرتهم فنسوا الله عند ذلك ، فلم تغن عنهم كثرتهم شيئا ، مع كون الصحابة مؤمنين بلا شك ، ولكن دخلهم الخلل باعتمادهم على الكثرة ، ونسوا قول الله :« كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ».

[سورة التوبة (9) : آية 26]

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (26)

السكينة هي مطالعة الأمر بطريق الإحاطة من كل وجه ، وما لم يكن ذلك فالسكينة لا تصح ، فالسكينة هي الأمر الذي تسكن له النفس لما وعدت به ، أو لما حصل في نفسه من طلب أمر ما ، وسميت سكينة لأنها إذا حصلت قطعت عنه وجود الهبوب إلى غير ما سكنت إليه النفس ، ومنه سمي السكين سكينا .

[سورة التوبة (9) : الآيات 27 إلى 28]

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(28)

ص 252

العالم كله طاهر ، فإن عرض له عارض إلهي يقال له نجاسة حكمنا بنجاسة ذلك المحل على الحد المقدر شرعا خاصة في عين تلك النسبة الخاصة ، فالنجاسة في الأشياء عوارض نسب وأعظم النجاسات الشرك باللّه ، فالمشرك نجس العين ، فإذا آمن فهو طاهر العين ،

أي عين الشرك وعين الإيمان ، وهذا يدل على أن النجاسة عوارض ونسب ، وهذه الآية نص في المسجد الحرام الذي بمكة بأن لا يقربه مشرك ، وأنه نجس ، فمن علل المنع بالنجاسة وجعل النجاسة لكفره ، وعلل المسجد لكونه مسجدا . منع الكفار كيفما كانوا من جميع المساجد ،

ومن رأى أن ذلك خاص بالمسجد الحرام ولهذا خص بالذكر وأن ما عدا المشرك وإن كان كافرا ، لا يتنزل منزلته منع دخول المشرك المسجد الحرام وكل مسجد ،

لقوله تعالى :« فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ »

وجوز الدخول فيه لمن ليس بمشرك ، ومن أخذ بالظاهر ولم يعلل منع المشرك خاصة من المسجد الحرام خاصة ، فإن النبي صلّى اللّه عليه وسلم حبس في المسجد في المدينة ثمامة بن أثال حين أسر وهو مشرك وهو الأوجه ، ولم يمنع غير المشرك من المسجد الحرام ومن المساجد ، ومنع المشرك من سائر المساجد أولى إلا أن يقترن بذلك أمر أو حالة فلا بأس .

[سورة التوبة (9) : آية 29]

قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ (29)

لم تضرب الجزية على المشرك ، وفرق بينه وبين الكفار من أهل الكتب المنزلة ، فإن المشرك قادح في الحق وفي الكون بشركه ، فلم يكن له مستند يعصمه من القتل ، لأنه قدح في التوحيد وفي الرسل ، والكفار من أهل الكتاب لم يقدحوا في التوحيد ولا في الكون ، أعني الرسل ، لكن قدحوا في رسول معين لهوى ، أو شبهة قائمة بنفوسهم ، أداهم ما قام بهم إلى جحود الحق ظلما وعلوا مع اليقين به ، وإما لشبهة قامت بهم لم يثبت صدق صاحب الدعوى عندهم ، فلهذا كان لهم في الجملة مستند صحيح عندهم لا في نفس الأمر ،

ص 243

يعصمهم من القتل ، فضربت عليهم الجزية ، وهذا من رحمة الله ، إبقاء عليهم وتركوا على دينهم ليقيموه أو يقيموا بعضه على قدر ما يوفقون إليه .
وهنا نكتة لمن فهم أن دينهم مشروع لهم بشرعنا حيث قررهم عليه ،
ولهذا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذا سمع أن الروم قد ظهرت على فارس يظهر السرور في وجهه ، مع كون الروم كافرين به صلّى الله عليه وسلم ، ولكن الرسول لعلمه صلّى الله عليه وسلم كان منصفا ،
لأنه علم أن مستند الروم لمن استند إليه أهل الحق ، لأنهم أهل كتاب ، مؤمنون به لكنهم طرأت عليهم شبهة ، من تحريف أئمتهم ، ما أنزل عليهم ، حالت بينهم وبين الإيمان والإقرار بنبوة محمد صلّى الله عليه وسلم أو بعمومها ،
فعذرهم الشرع لهذا القدر الذي علمه منهم ،
وراعى فيه جناب الحق تعالى حيث وحدوده ، وما أشركوا به حين أشرك به فارس وعبدة الأوثان ، وقدحت في توحيد الإله وما يستحقه من الأحدية . واعلم أن كل مشرك كافر ، فإن المشرك باتباع هواه فيمن أشرك واتخذه إلها ، وعدوله عن أحدية الإله ، يستر نفسه عن النظر في الأدلة ، والآيات المؤدية إلى التوحيد ، فسمي كافرا لذلك الستر ظاهرا وباطنا ، وسمي مشركا لكونه نسب الألوهية إلى غير الله مع الله ، فجعل لها نسبتين ، فأشرك فهذا الفرق بين المشرك والكافر ،
وأما الكافر الذي ليس بمشرك فهو موحد غير أنه كافر بالرسول ، وببعض كتابه ، وكفره على وجهين :
الوجه الواحد أن يكون كفره بما جاء من عند الله ، مثل كفر المشرك في توحيد الله ،
والوجه الآخر : أن يكون عالما برسول الله ، وبما جاء من عند الله أنه من عند الله ، **ويستر ذلك عن العامة والمقلدة من أتباعه ، رغبة في الرئاسة** ،
وهو الذي أراد عليه السلام بقوله في كتابه إلى قيصر : « فإن توليت فعليك إثم اليريسيين » يعني الأتباع ».
حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ »فيتعذبون عذابين عذابا بإخراج المال من أيديهم ، وعذاب الصغار والقهر الذي هو عذاب نفوسهم مما يجدون في ذلك من الحرج ، ومما جاء في الشروط التي اشترطها أمير المؤمنين ،
وإمام المتقين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه على أهل الذمة ، أن لا يحدثوا في مدينتهم ، ولا ما حولها كنيسة ، ولا ديرا ولا قلة ولا صومعة راهب ،
ولا يجددوا ما خرب منها ، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزل بها أحد من المسلمين ثلاث ليال ، يطعموهم ، ولا يؤووا جاسوسا ،
ولا يكتموا غشا للمسلمين ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا يظهروا شركا ، ولا يمنعوا ذوي قرابتهم من الإسلام إن أرادوه ، وأن يوقروا المسلمين وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس ،
ص 254

ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم ، في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ،
ولا فرق شعر ، ولا يتسموا بأسماء المسلمين ، ولا يتكنوا بكناهم ، ولا يركبوا سرجا ،
ولا يتقلدوا سيفا ، ولا يتخذوا شيئا من السلاح ،
ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية ، ولا يبيعوا الخمور ، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم ، وأن يلزموا زيهم حيث ما كانوا ، وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم ، ولا يظهروا صليبا ،
ولا شيئا من كتبهم في طرق المسلمين ،
ولا يجاوروا موتى المسلمين بموتاهم ، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضربا خفيفا ، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من حضرة المسلمين ،
ولا يخرجوا شعانين ، ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم ، ولا يظهروا النيران معهم ،
ولا يشتروا من الرقيق ما جرت عليهم سهام المسلمين ،
فإن خالفوا في شيء مما شورطوا عليه ، فلا ذمة لهم ، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

[سورة التوبة (9) : آية 30]

وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(30)

" وَقالَتِ الْيَهُودُ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ "أي بالتبني"
وَقالَتِ النَّصارى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ »يعنون بنوّة الصلب ، إذ لم يعرفوا له أبا ولا تكون عن أب لجهلهم بما قال الله ، من تمثل الملك لمريم بشرا سويا ، وجعله الحق روحا إذ كان جبريل روحا ، فما تكون عيسى إلا عن اثنين ، فجبريل وهب لها عيسى في النفخ ، فلم يشعروا بذلك كما ينفخ الروح في الصورة عند تسويتها ، فما عرفوا روح عيسى ولا صورته ، وأنّ صورة عيسى مثل تجسد الروح ، لأنه عن تمثل ، فلو تفطنت لخلق عيسى لرأيت علما عظيما ، تقصر عنه أفهام العقلاء .

[سورة التوبة (9) : آية 31]

اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(31)

ص 255

إن من حمل العبادة هنا على الأعمال ، لا معرفة له باللسان ، فالعمل صورة ، والعبادة روح تلك الصورة العملية التي أنشأها المكلف ، فحظ المؤمن المخاطب بهذه الآية توحيد الأمر بالعبادة من حيث أحدية العين مع كثرة الأسماء الإلهية ، فإن حقيقة الطالب للرزق إنما تعبد الرزاق ، وحقيقة الطالب للعافية إنما تعبد الشافي ،
فقيل لهم : لا تعبدوا إلا إلها واحدا ، وهو أن كل اسم إلهي وإن كان يدل على معنى يخالف الآخر فهو أيضا يدل على عين واحدة تطلبها هذه النسب المختلفة ، وأما غير المؤمنين وهم المشركون فهم الذين نسبوا الألوهة إلى غير من يستحقها ، ووضعوا اسمها على غير مسماها ، وادعوا الكثرة فيها ،
ولذلك تعجبوا من توحيدها فقالوا :« أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً ؟ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ »فأمرهم الله أن لا يعبدوا إلا إلها واحدا لا إله إلا هو » في نفس الأمر« سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ »

[توحيد الأمر بالعبادة]
أي هو بعيد أن يشرك في ألوهته ، وهذا هو التوحيد العاشر في القرآن وهو توحيد الأمر بالعبادة وهو من أعجب الأمر كيف يكون الأمر فيما هو ذاتي للمأمور ؟ فإن العبادة ذاتية للمخلوقين ، فكانت في حق المؤمنين والمشركين ما أوضحناه .

[سورة التوبة (9) : الآيات 32 إلى 34]
يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (34)
اعلم أن ذلك كان قبل فرض الزكاة التي فرض الله على عباده في أموالهم ، فلما فرض الله الزكاة على عباده المؤمنين ، طهر الله بها أموالهم ، وزال بأدائها اسم البخل من مؤديها ، فإنه قد أدى ما أوجب الله عليه في ماله ، ثم فسر العذاب الأليم بما هو الحال عليه فقال تعالى:

ص 256

[سورة التوبة (9) : آية 35]

يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35)

[عقوبة مانع الزكاة]

ما يراد المال للاكتناز ، وإنما خلقه الله للإنفاق فمن اكتنزه ولم يعط حق الله منه الذي عينه له حمي عليه في نار جهنم ، فيكوى به جبينه ، فإنه أول ما يقابل به السائل فيتغير منه إذا رآه مقبلا إليه ، فإن السائل إذا رآه صاحب المال مقبلا إليه انقبضت أسارير جبينه ، لعلمه أنه يسأله من ماله ، فتكوى جبهته ، فإن السائل يعرف ذلك في وجهه ثم إن المسؤول يتغافل عن السائل ، ويعطيه جانبه إعراضا عنه ، كأنه ما رآه ، وكأنه ما عنده خبر منه ، فيكوى بها جنبه ، فإذا علم من السائل أنه يقصده ولا بد أعطاه ظهره ، وانصرف حتى لا يقابله بالسؤال .

فأخبر الله أنه تكوى بها ظهورهم ، فهذا حكم مانعي الزكاة ، أعني زكاة الذهب والفضة ، فصار بالكي عين المكان الذي اختزنه فيه فهو خزانته ، وأما زكاة الغنم والبقر والإبل فأمر آخر ، كما ورد في النص أنه يبطح لها بقاع قرقر ، فتنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، وتعضه بأفواهها ، فلهذا خص الجباه والجنوب والظهور في الكي وأنزل الله الزكاة طهارة للأموال .

[سورة التوبة (9) : الآيات 36 إلى 37]

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ(37)

ص 257

كانت العرب تنسأ في الشهور ، فترد المحرم منها - وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر - حلالا ، والحلال منها حراما ، فجاء محمد صلّى اللّه عليه وسلم فرد الزمان إلى أصله الذي حكم اللّه به عند خلقه ، فعين المحرم من الشهور على حد ما خلقها اللّه عليه ، ولهذا قال :
إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلقه اللّه .

[سورة التوبة (9) : آية 38]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (38)
متاع الدنيا قليل ، فما من قبيل ولا جيل ، إلا وهو مملوك للقطمير والنقير والفتيل ، فالكل تائه ، ولهذا قنعوا بالتافه ، فلا يرضى بالحقير إلا من لا يعرف قبيلا من دبير .

[سورة التوبة (9) : الآيات 39 إلى 40]
إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)

« إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا »حكاية اللفظ بعينه ، والمعية هنا معية اختصاص ، لا معية عامة ، مثل قوله تعالى للعموم : وهو معكم أينما كنتم ، ومن هنا تعرف مرتبة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وعلوها على رتبة غيره من الرسل ، فإن اللّه أخبر عن محمد صلّى اللّه عليه وسلم في حال خوف الصديق عليه وعلى نفسه فقال لصاحبه يؤمنه ويفرحه ، إذ هما في الغار ، وهو كنف الحق عليهما« لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا »فقام النبي صلّى اللّه عليه وسلم في هذا الإخبار مقام الحق في معيته لموسى

ص 258

وهارون ، وناب منابه في قوله تعالى لهما :« إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى »
وقال صلّى الله عليه وسلم لصاحبه :
»ما ظنك باثنين الله ثالثهما » يريد أن الله عزّ وجل حافظهما ، يعني في الغار ، زمان هجرة الدار .
- **وجه آخر** - المقالة عندنا إنما كانت لأبي بكر رضي الله عنه ، ويؤيدنا قول النبي صلّى الله عليه وسلم : لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، فالنبي صلّى الله عليه وسلم ليس بمصاحب ، وبعضهم أصحاب بعض ، وهم له أنصار وأعوان ، فإن النبي لا يصحب إلا نبوته ، فإنه لا يتمكن للنبي أن يكون من صاحبه بحيث ما يريد صاحبه منه ، وإنما هو مع ما يوحى إليه به ، لا يفعل إلا بحسبه ، فالصاحب من يترك إرادته لإرادة صاحبه ، فالنبي يصحب ولا يصحب ، فإن الناس مع الرسول بحكم ما يشرع لهم ، ما هم بحكم إرادتهم ،
برهانه قوله تعالى :« فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ».
فلذلك صحبوه وما صحبهم ، فالصحبة لا تصح إلا من الطرف الواحد ، وهو الأدنى ، ولهذا ليست الصحبة فعل فاعلين .
فكان أبو بكر رضي الله عنه واقفا مع صدقه ، ومحمد عليه السلام واقفا مع الحق في الحال الذي هو عليه في ذلك الوقت ، فهو الحكيم ، كفعله يوم بدر في الدعاء والإلحاح ، وأبو بكر عن ذلك صاح ، فإن الحكيم يوفي المواطن حقها ، فهو صلّى الله عليه وسلم صادق ذلك الوقت وحكيمه ، وما سواه تحت حكمه ، ولما لم يصح اجتماع صادقين معا ، لذلك لم يقم أبو بكر في حال النبي صلّى الله عليه وسلم ، وثبت مع صدقه به ، فلما نظر أبو بكر رضي الله عنه إلى الطالبين ، أسف على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فأظهر الشدة ، وغلّب الصدق
وقال :« لا تَحْزَنْ »لأثر ذلك الأسف الذي رآه صلّى الله عليه وسلم على أبي بكر« إِنَّ اللَّهَ مَعَنا »كما أخبرتنا . وإن جعل المنازع أن محمدا صلّى الله عليه وسلم القائل لم نبال ، لما كان مقامه صلّى الله عليه وسلم الجمع والتفرقة ، وعلم من أبي بكر الأسف ، وعلم أن أمره مستمر .
[- تحقيق - أشرف مقام ينته إليه]
-تحقيق - أشرف مقام ينته إليه تقدم الله عليك يقول الصديق : « ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله » شهود بكري وراثة محمدية« لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى »الكافر هنا : هو المشرك من جهة الشريك خاصة« وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا »راجع سورة 8 آية رقم 61« وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.»

ص 259

[سورة التوبة (9) : آية 41]
انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41)

اعلم أن الشيطان إذا رأى عزم العبد في الجهاد أخطر له أنه يقاتل ليقال ، رغبة منه وحرصا أن يحبط عمل هذا العبد ، وكان قد أخلص النية أولا عند شروعه في القتال أنه يقاتل ذابا عن دين الله ، فلا يبالي العبد بهذا الخاطر ، فإن الأصل الذي بني عليه صحيح ، والأساس قوي ، وهو النية في أول الشروع.

[سورة التوبة (9) : آية 42]
لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (42)

العرض المال وسمي السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال لما فيه من المشقة والجهد لأهل الثروة واليسار ، فكيف حال الضعفاء ؟ ! .

[سورة التوبة (9) : آية 43]
عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (43)

[عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ - الآية]
قدم الله البشرى لمحمد صلّى الله عليه وسلم قبل العتاب ، وهذه الآية عندنا خاصة ما فيها عتاب ، بل هو استفهام لمن أنصف ، وأعطى أهل العلم حقهم ، فإن مقام رسول الله صلّى الله عليه وسلم يعطي أن ذلك استفهام لا إنكار ، فإنما استفهم العالم ليتميز به من في قلبه ريب ممن ليس في قلبه ريب ، فيعلم العالم من غير العالم لإقامة الحجة ، فالسؤال هنا عن العلة ، لا سؤال عن توبيخ ، لأن العفو تقدمه ، فإن العفو لا سيما إذا تقدم والتوبيخ لا يجتمعان ، لأنه من وبّخ فما عفا مطلقا ، فإن التوبيخ مؤاخذة وهو قد عفا ، ولما كان هذا اللفظ قد يفهم منه في اللسان التوبيخ ،

ص 260

لهذا جاء بالعفو ابتداء ، ليتنبه العالم بالله أنه ما أراد التوبيخ الذي يظنه من لا علم له ، ولذلك قال :« حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ »فهو استفهام كأنه يقول : أفعلت ذلك حتى يتبين لك« الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ »؟ فهو عند ذلك إما أن يقول : نعم أو لا ، فهو استفهام كقوله تعالى لعيسى عليه السلام :« أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ »لإقامة الحجة ، فهنا قدم الحق العفو عن السؤال عندنا ، وعلى العتاب عند غيرنا ، لتعرف العناية الإلهية بأحبابه قال تعالى :« لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ »فلا ذنب لمحبوب ولا حسنة لمحبّ عند نفسه .

[سورة التوبة (9) : الآيات 44 إلى 46]

لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (46)

« وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ »لأنهم الأشقياء أبصروا سوء الغاية بعين المخالفة والغواية .

[سورة التوبة : (9)الآيات 47 إلى 60]

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاَّ خَبالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كارِهُونَ (48) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (49) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاَّ ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51)

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (53) وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسالى وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارِهُونَ (54) فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (55) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56)

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (59) إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(60)

ص 261

جعل الله في مال الإنسان الزكاة حقا لأصناف مذكورين ، فأوجب على أصحاب الأموال على وجه مخصوص إخراجها ، وأوجب على الإمام أخذها ، ولم يوجب على الأصناف أخذها ، فهم مخيرون في أخذ حقهم وفي تركه كسائر الحقوق فمن أخذها منهم

ص 262

أخذ حقه ، ومن ترك أخذها ترك حقه وله ذلك . والذي أذهب إليه أنه من وجد من هؤلاء الأصناف قسمت عليهم الصدقة بحسب ما يوجد منهم ، لكن على الأصناف ، لا على الأشخاص ولو لم يوجد من صنف منهم إلا شخص واحد دفع إليه قسم ذلك الصنف ، وإن وجد من الصنف أكثر من شخص واحد قسم على الموجودين منه ما تعين لذلك الصنف ، قل الأشخاص أو كثروا ، وكذلك العامل عليها قسّمه في ذلك البلد بحسب ما يوجد من الأصناف ، فإن وجد الكل ، فلكل صنف ثمن الصدقة ، إلى سبع وسدس وخمس وربع وثلث ونصف والكل ثم إنا نقدم من قدم الله بالذكر في العطاء ، والزكاة وإن كانت لهؤلاء الأصناف ، فإنها حق الله في هذه الأموال ، فواجب على من أعطيها أن يأخذها ، فإن للعبد أن يأكل من مال سيده ، فإنه حقه ، وإنما حرمت على أهل البيت تخصيصا لإضافة الأموال إلى الخلق في قوله :« خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ »أي إضافة الزكاة إلى الخلق لا إلى الله ، وما قدم الحق الفقراء بالذكر وفوقهم من هو أشد حاجة منهم ، لا مسكين ولا غيره ، فإن الفقير هو الذي انكسر فقار ظهره ، فلا يقدر على أن يقيم ظهره وصلبه ، فلا يزال منكسرا ، وهو الذي يجب إعطاء الصدقة له ، وواجب عليه أخذها إذا أعطيها ، ولا يسألها أصلا ، فإن الفقير هو الذي يفتقر إلى كل شيء ، ولا يفتقر إليه شيء ، والمسكين هو من يدبره غيره ، فهو من السكون ، وهو ضد الحركة ، فهو المسلم المفوض أمره إلى الله . والعاملين عليها ، وهم الجامعون لها ممن تجب عليهم ، والمؤلفة قلوبهم : هم الذين يتألفهم الإحسان على حب المحسن ، وفي الرقاب : وهم الذين يطلبون الحرية من الرق ، والغارمين : وهم الذين أقرضوا الله قرضا حسنا ومنهم أصحاب الديون ، وفي سبيل الله : يمكن أن يريد المجاهدين ، والإنفاق منها في الجهاد ، فإن العرف في سبيل الله عند الشرع هو الجهاد والأظهر ، وفي هذه الآية مع أنه يمنك أن يريد بسبيل الله سبل الخير كلها ، المقربة إلى الله ، وهو ما تقتضيه المصلحة العامة لكل إنسان ، بل لكل حيوان ونبات ، حتى الشجرة يراها تموت عطشا فيكون عنده بما يشتري لها ما يسقيها به من مال الزكاة فيسقيها بذلك ، فإنه من سبيل الله ولا قائل بهذا ، ويدخل في المجاهدين المجاهدون أنفسهم أيضا في سبيل الله ، فيعاونون بذلك على جهاد أنفسهم ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : رجعتم من الجهاد الأصغر ، إلى الجهاد الأكبر يريد جهاد النفوس ومخالفتها في أغراضها الصارفة عن طريق الله تعالى ، وابن السبيل : وهم

263

معلومون »فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ » *أي فرضها الله لهؤلاء المذكورين فلا يجوز أن تعطى إلى سواهم« وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » *

- إشارة واعتبار - إذا قابلنا الأصناف التي تجب لهم الزكاة ، بالأعضاء المكلفة من الإنسان ، نجد أن الفقراء يوازنهم من الأعضاء : الفرج ، والمساكين يوازنهم : البطن ، ويوازن العاملين : القلب ، ويوازن المؤلفة قلوبهم : السمع ، ويوازن الرقاب : بالبصر ، ويوازن الغارمين : باليد ، ويوازن المجاهدين : باللسان ، ويوازن ابن السبيل : الرجل ، فالفقر في الفرج واضح ، وكذلك المسكنة في الباطن ظاهر ، والعامل بالقلب صريح ، والمؤلفة قلوبهم بالسمع بيّن ، والرقاب بالبصر واقع ، والغارم باليد إفصاح ، والمجاهد باللسان صحيح ، وابن السبيل بالرجل أوضح من الكل .

[سورة التوبة (9) : الآيات 61 إلى 67]

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (61) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (62) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (65)

لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (66) الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ(67)

ص 264

[« نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »]
« نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »- الوجه الأول - النسيان : نعت إلهي فنسيهم كما يليق بجلاله .
-الوجه الثاني -« نَسُوا اللَّهَ »: أي أخروا أمر الله فلم يعملوا به »فَنَسِيَهُمْ »فأخرهم الله في النار حين أخرج منها من أدخله فيها من غيرهم -الوجه الثالث -« فَنَسِيَهُمْ »أي أنه تعالى لما عذبهم عذاب الأبد ، ولم تنلهم رحمته تعالى صاروا كأنهم منسيون ، عنده ، وهو كأنه ناس لهم ، أي هذا فعل الناسي ، ومن لا يتذكر ما هم فيه من أليم العذاب ، وذلك لأنهم في حياتهم الدنيا نسوا الله ، فجازاهم بفعلهم ففعلهم أعاده عليهم للمناسبة - . الوجه الرابع - من باب الإشارة لا التفسير -« نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »أي تركوا حق الله ، فترك الله الحق الذي يستحقونه ، فلم يؤاخذهم ولا آخذهم أخذ الأبد ، فغفر لهم ورحمهم ، وهذا يخالف ما فهمه علماء الرسوم ، لأن الناسي هنا إذا لم ينس إلا حق الله الذي أمره الله بإتيانه شرعا فقد نسي الله ، فإنه ما شرعه إلا الله فترك حق الله ، فأظهر الله كرمه فيه ، فترك حقه ولم يكن حق مثل هذا إلا ما يستحقه وهو العقاب ، فعفا عنه تركا بترك ، مقولا بلفظ النسيان ، فأفضل الله عليهم منة منه ابتداء ، ألا ترى الله يقول في تمام هذه الآية :« إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ »ولم يقل إنهم هم الفاسقون فقوله تعالى :« إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ »ابتداء كلام آخر ما فيه ضمير يعود على هؤلاء المذكورين ، وكل منافق فاسق ، لأنه خارج من كل باب ، فيخرج للمؤمنين بصورة ما هم عليه ، ويخرج للكافرين بصورة ما هم عليه .

[سورة التوبة (9) : الآيات 68 إلى 69]
وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (68) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (69)
قال تعالى فيمن يموت وهو كافر" حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ".

ص 265

[سورة التوبة (9) : الآيات 70 إلى 72]

أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)

جنة عدن أشرف الجنان لأنها قصب الجنة ، والقصبة حيث تكون دار الملك ، وهي دار تورث من قصدها الإمداد والفتح في العلم الإلهي ، الذي يعطي المشاهدة ، فإن بها كثيب المسك الأبيض ، وهو موطن الزور الأعظم ، والرؤية العامة ، والكثيب أشرف مكان في جنة عدن التي خلقها الله تعالى بيده ، دون سائر الجنات ، وجعلها له كالقلعة للملك ، وجعل فيها الكثيب الأبيض من المسك ، التي يتجلى فيها الرب لعباده عند الرؤية ، كالمسك بفتح الميم من الحيوان وهو الجلد وهو الغشاء الظاهر للأبصار من الحيوان ، وأدار الحق تعالى بجنة عدن سائر الجنات ، وبين كل جنة وجنة سور يميزها عن صاحبتها ، وسمى كل جنة باسم معناه سار في كل جنة ، وإن اختصت هي بذلك الاسم فإن ذلك الاسم الذي اختصت به أمكن ما هي عليه من معناه وأفضله ، والجنات هي جنة عدن ، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة السلام ، وجنة المقامة والوسيلة ، وهي أعلى جنة في الجنات ، فإنها في كل جنة من جنة عدن ، إلى آخر جنة فلها في كل جنة صورة ، وهي مخصوصة برسول الله صلّى الله عليه وسلم وحده ، نالها بدعاء أمته حكمة من الله ، حيث نال الناس السعادة ببركة بعثته ودعائه إياهم إلى الله ، وتبيينه ما نزّل الله إلى الناس من أحكامه جزاء وفاقا ، وجعل

ص 266

في كل جنة مائة درجة بعدد الأسماء الحسنى ، والاسم الأعظم المسكوت عنه لوترية الأسماء ، وهو الاسم الذي يتميز به الحق عن العالم هو الناظر إلى درجة الوسيلة خاصة ، وله في كل جنة حكم ، كما له حكم اسم إلهي . ومنازل الجنة على عدد آي القرآن ، ما بلغ إلينا منه نلنا تلك المنزلة بالقراءة ، وما لم يبلغ إلينا نلناه بالاختصاص في جنات الاختصاص ، كما نلنا بالميراث جنات أهل النار الذين هم أهلها ، وأبواب الجنة ثمانية على عدد أعضاء التكليف ، وهي العين والأذن واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب ، وقد يقوم الإنسان في زمن واحد بأعمال هذه الأعضاء كلها ، فيدخل من أبواب الجنة الثمانية ، في حال دخوله من كل باب منها ، فإن نشأة الآخرة تشبه البرزخ ، وباطن الإنسان من حيث ما هو ذو خيال ، وأمّا خوخات الجنة فتسع وسبعون خوخة ، وهي شعب الإيمان بضع وسبعون شعبة ، ولكل شعبة من الإيمان ، طريق إلى الجنة« وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .»راجع سورة 75 آية 23 حديث أبي بكر النقاش .

[سورة التوبة (9) : آية 73]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73)

وذلك لإظهار عزة الإيمان بعز المؤمن ، ثبت أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال في غزوة وقد تراءى الجمعان : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟
فأخذه أبو دجانة ، فمشى به بين الصفين خيلاء ، مظهرا الإعجاب والتبختر ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : هذه مشية يبغضها الله ورسوله ، إلا في هذا الموطن ، وما أظهر صلّى الله عليه وسلم غلظة على أحد إلا عن أمر إلهي حين قيل له :« جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » فأمر به لما لم يقتض طبعه ذلك ، وإن كان بشرا يغضب كما يغضب البشر ، ويرضى لنفسه ، فقد قدم ذلك دواء نافعا يكون في ذلك الغضب رحمة من حيث لا يشعر بها في حال الغضب ، فكان يدل بغضبه مثل دالته برضاه .

[سورة التوبة (9) : الآيات 74 إلى 75]

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (74) وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

ص 267

وهو قول ثعلبة بن حاطب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وما أخبر اللّه تعالى عنه أنه قال إن شاء اللّه ، فلو قال : إن شاء اللّه لفعل ، ثم ، قال تعالى في حقه :

[سورة التوبة (9) : آية 76]

فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76)

نزلت في حق ثعلبة لما فرض اللّه الزكاة جاءه مصدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يطلب منه زكاة غنمه ، فاشتد عليه ذلك بعد ما كان عاهد اللّه كما أخبر اللّه ، في قوله :« وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ »الآية فلما رزقه اللّه مالا ، وفرض اللّه الصدقة عليه قال ما أخبر اللّه به عنه ، وقوله تعالى :« بَخِلُوا بِهِ »هي صفة النفس التي جبلت عليه ، فقال : هذه أخية الجزية وامتنع ولم يقبل حكم اللّه ، فأطلق عليهم صفة البخل لمنعهم ما أوجب اللّه عليهم في أموالهم ، وأخبر اللّه فيه بما قال .

[سورة التوبة (9) : آية 77]

فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ (77)

فلما بلغه ما أنزل اللّه فيه جاء بزكاته إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فامتنع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن يأخذها منه ولم يقبل صدقته إلى أن مات صلّى اللّه عليه وسلم ، وسبب امتناعه صلّى اللّه عليه وسلم من قبول صدقته أن اللّه أخبر عنه أنه يلقاه منافقا ، والصدقة إذا أخذها النبي صلّى اللّه عليه وسلم طهره بها وزكاه ، وصلى عليه

ص 268

كما أمره الله وأخبر الله أن صلاته سكن للمتصدق ، يسكن إليها ، وهذه صفات تناقض النفاق وما يجده المنافق عند الله ، فلم يتمكن لهذه الشروط أن يأخذ منه رسول الله صلّى الله عليه وسلم الصدقة لما جاءه بها بعد قوله ، وامتنع أيضا بعد موت رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن أخذها منه أبو بكر وعمر ، لما جاء بها إليهما في زمان خلافتهما ،

[اخذ عثمان الزكاة من ثعلبة]

فلما ولي عثمان بن عفان الخلافة جاء بها فأخذها منه ، متأولا أنها حق الأصناف الذين أوجب الله لهم هذا القدر في عين هذا المال ، وهذا الفعل من عثمان من جملة ما انتقد عليه ، وينبغي أن لا ينتقد على المجتهد حكم ما أداه إليه اجتهاده ، فإن الشرع قد قرر حكم المجتهد ، ورسول الله صلّى الله عليه وسلم ما نهى أحدا من أمرائه أن يأخذ من هذا الشخص صدقته ، وقد ورد الأمر الإلهي بإيتاء الزكاة ، وحكم رسول الله صلّى الله عليه وسلم في مثل هذا قد يفارق حكم غيره ، فإنه قد يختص رسول الله صلّى الله عليه وسلم بأمور لا تكون لغيره لخصوص وصف ، إما تقتضيه النبوة مطلقا أو نبوته صلّى الله عليه وسلم ، فإن الله قال لنبيه صلّى الله عليه وسلم في أخذ الصدقة« تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها »وما قال : « يتطهرون » ولا » يتزكون بها » فقد يكون هذا من خصوص وصفه ، وهو رؤوف رحيم بأمته ، فلو لا ما علم أن أخذه يطهره ويزكيه بها وقد أخبره الله أن ثعلبة بن حاطب يلقاه منافقا ، فامتنع أدبا مع الله ، فمن شاء وقف لوقوفه صلّى الله عليه وسلم كأبي بكر وعمر ، ومن شاء لم يقف كعثمان لأمر الله بها العام ، وما يلزم غير النبي صلّى الله عليه وسلم أن يطهر ويزكي مؤدي الزكاة بها ، والخليفة فيها إنما هو وكيل من عينت له هذه الزكاة أعني الأصناف الذين يستحقونها ، إذ كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم ما نهى أحدا ولا أمره فيما توقف فيه واجتنبه ، فساغ الاجتهاد وراعى كل مجتهد الدليل الذي أداه إليه اجتهاده ، فمن خطأ مجتهدا فما وفاه حقه ، وإن المخطئ والمصيب منهم واحد لا بعينه .

[سورة التوبة (9) : آية 78]

أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (78)

اعلم أن العلم بالأمر لا يتضمن شهوده فدل أن نسبة رؤيتك الأشياء غير نسبة علمك بها ، فالنسبة العلمية تتعلق بالشهادة والغيب ، فكل مشهود معلوم ما شهد منه ، وما كل معلوم مشهود ، وما ورد في الشرع قط أن الله يشهد الغيوب ، وإنما ورد يعلم الغيوب ، ولهذا وصف نفسه بالرؤية فقال :(أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى)ووصف نفسه بالبصر وبالعلم ،

ص 269

ففرق بين النسب وميز بعضها عن بعض ليعلم ما بينها ، فالغيب أمر إضافي لما غاب عنا ، وما يلزم من شهود الشيء العلم بحده وحقيقته ، ويلزم من العلم بالشيء العلم بحده وحقيقته ، عدما كان أو وجودا ، والأشياء كلها مشهودة للحق في حال عدمها ، ولو لم تكن كذلك لما خصص بعضها بالإيجاد عن بعض ، فما هي معدومة لله الحق من حيث علمه بها .

[سورة التوبة (9) : الآيات 79 إلى 80]

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (79) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (80)

من رحمة محمد صلّى الله عليه وسلم التي أرسل بها أنه قال عند نزول هذه الآية : لأزيدنّ على السبعين أو قال لو علمت أن الله يغفر لهم لزدت على السبعين .

[سورة التوبة (9) : الآيات 81 إلى 86]

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (83) وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ (84) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (85)

وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ(86)

ص 270

السورة بالسين هي المنزلة ، وسور القرآن منازله ، وكما أن لكل سورة آيات كذلك لكل منزلة .

[سورة التوبة (9) : الآيات 87 إلى 88]

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (87) لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88)

الخيرات : جمع خيرة وهي الفاضلة من كل شيء ، والفضل يقتضي الزيادة .

[سورة التوبة (9) : الآيات 89 إلى 91]

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89) وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (90) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(91)

ص 271

هذه الآية نص على أن القتال فرض على الأصحاء الذي يجدون ما ينفقون ، فالصحة شرط من شروط الجهاد . - إشارة - من وقف مع إلحاق المتمني بالمتصدق الغني ، عرف الأمر ، فلم يطلب الكثر ، فالاستكثار من المال هو الداء العضال ، ويبلغ المتمني بتمنيه مبلغ صاحب المال فيما يفعل فيه من الخير من غير كد ولا نصب ولا سؤال ولا حساب ، وهم في الأجر على السواء مع ما يزيد عليه من أجر الفقر والحسرة ، وأنّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وتمنيه من عمله.

[سورة التوبة (9) : الآيات 92 إلى 93]

وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (92) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (93)

الطبع النقش الذي يكون في الختم ، والختم هو القفل .

[سورة التوبة (9) : الآيات 94 إلى 100]

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (96) الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97)
وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98)
وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99)
وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)

[الرضا]
اختار الحق من الأحوال الرضى فإنه آخر ما يكون من الحق لأهل السعادة من البشرى ، فلا بشرى بعدها ، فإنها بشرى تصحب الأبد ، كما ورد في الخبر ، وهي بشرى بعد رجوع الناس من الرؤية ، بل هي من اللّه لهم في الكثيب عند الرؤية في الزور الأعظم ، وجناب اللّه أوسع من أن أرضى منه باليسير ، فإن متعلق الرضى اليسير ولكن أرضى عنه لا منه ، لأن الرضى منه يقطع همم الرجال ، فإن اللّه لا يعظم عليه شيء طلب منه ، فإن المطلوب منه لا يتناهى ، فليس له طرف نقف عنده ، فوسّع في طلب المزيد إن كنت من العلماء باللّه ، وإذا كان اتساع الممكنات لا يقبل التناهي ، فما ظنك بالاتساع الإلهي فيما يجب له ؟
فالرضى عنه لا منه ، لأن الرضى منه جهل به ، ونقص ، ويكون الرضى بقضاء اللّه ، لا بكل مقضي ، فإنه لا ينبغي الرضى بكل مقضي .

[سورة التوبة (9) : الآيات 101 إلى 102]
وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ (101) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102)

ص 273

اعلم أن الشرط المصحح لقبول جميع الفرائض فرض الإيمان ، فما من مؤمن يرتكب معصية ظاهرة أو باطنة إلا وله فيها قربة إلى الله ، من حيث إيمانه بها بأنها معصية ، فلا يخلص لمؤمن عمل سيئ دون أن يخالطه عمل صالح ، ولا تخلص له معصية غير مشوبة بطاعة أصلا ، وهي طاعة الإيمان بكونها معصية ، فيؤجر على الإيمان بها أنها معصية ، فهو في مخالفته طائع عاص ،

[« وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً »]

قال تعالى :« وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً »فهذا معنى المخالطة فالعمل الصالح هنا الإيمان بالعمل الآخر السيّئ أنه سيّئ . واعلم أنه من المحال أن يأتي مؤمن بمعصية توعد الله عليها فيفزع منها ، إلا ويجد في نفسه الندم على ما وقع منه ، وقد قال صلّى الله عليه وسلم ، الندم توبة ، وقد قام به الندم فهو تائب فسقط حكم الوعيد ، على عكس قول المعتزلي القائل بإنفاذ الوعيد فيمن مات عن غير توبة ، لحصول الندم فإنه لا بد للمؤمن أن يكره المخالفة ولا يرضى بها ، وهو في حال عمله إياها ، فهو من كونه كارها لها مؤمن بأنها معصية ذو عمل صالح ، وهو من كونه فاعلا لها ذو عمل سيّئ ، فغايته أن يكون من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فقال تعالى عقيب هذا القول :« عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ »وهو سبحانه يعلم ما يجريه في عباده ومع هذا جاء بلفظ الترجي ، وقال العلماء :

إن عسى من الله واجبة فإنه لا مانع له والتوبة الرجوع فمعناه أن يرجع عليهم بالرحمة وبالمغفرة ، وتبديل السيئات والقبول ، فيغفر لهم تلك المعصية بالإيمان الذي خلطها به ، فإنه وقع الترجي للعبد من الله في القبول ، ويرزقهم الندم عليها ، والندم توبة ، فإذا ندموا حصلت توبة الله عليهم ، فالمؤمن هنا ذو عمل صالح من ثلاثة أوجه ، الإيمان بكونها معصية ، وكراهته لوقوعها منه ، والندم عليها ، وهو ذو عمل سيّئ من وجه واحد ، وهو ارتكابه إياها ، ومع هذا الندم فإن الرهبة تحكم عليه ، سواء كان عالما بما قلناه أو غير عالم ، فإنه يخاف وقوع مكروه آخر منه ، ولو مات على تلك الرهبة فإن الرهبة لا تفارقه ، وينتقل تعلقها من نفوذ الوعيد إلى العتاب الإلهي والتقرير عند السؤال على ما وقع منه . واعلم أن متعلق عسى هنا رجوعه عليهم بالرحمة ، لا رجوعهم إليه ، فإنه ما ذكر لهم توبة ، وما ذكر لهم قربة ، فما تاب هنا في هذه الآية عليهم ليتوبوا كما قال في موضع آخر :« ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ

ص 274

لِيَتُوبُوا «وإنما هو رجوع بالعفو والتجاوز ، فجاء هنا بحكم آخر ما فيه ذكر توبتهم ، بل فيه توبة الله تعالى عليهم فإنه تعالى تمم الآية بقوله : « إن الله غفور رحيم » .
فمن هذه الآية نعلم أن الإيمان أصل ، والعمل فرع لهذا الأصل بلا شك ، ولهذا لا يخلص للمؤمن معصية أصلا من غير أن يخالطها طاعة ، فالمخلط هو المؤمن العاصي ، فإن المؤمن إذا عصى في أمر ما ، فهو مؤمن بأن ذلك معصية ، والإيمان واجب فقد أدى واجبا ، فالمؤمن مأجور في عين عصيانه والإيمان أقوى .

[سورة التوبة (9) : آية 103]
خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)
سمي المال مالا لأنه يميل بالنفوس إليه ، وإنما مالت النفوس إليه لما جعل الله عنده من قضاء الحاجات به ، وجبل الإنسان على الحاجة ، لأنه فقير بالذات ، فمال إليه بالطبع الذي لا ينفك عنه ، فقال تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلم :« خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ »أي : المال الذي في أموالهم مما ليس لهم ، بل هو« صَدَقَةً »مني على من ذكرتهم في كتابي ، فأمر الله تعالى رسوله ونوابه أن يأخذوا من هذه الأموال مقدارا معلوما ، سماه زكاة ، يعود خيرها علينا ، وسميت صدقة أي ما يشتد عليهم في نفوسهم إعطاؤها ، لأن البخل والشح صفة النفوس التي جبلت عليه .
ولما كان معنى الزكاة التطهير ، أي طهارة الأموال ، فإنها طهرت أربابها ، قال تعالى :« تُطَهِّرُهُمْ »من صفة البخل« وَتُزَكِّيهِمْ بِها »أي تكثر الخير لهم بها« وَصَلِّ عَلَيْهِمْ »أمر الحق نبيه بالصلاة علينا جزاء ، كما أمرنا به تعالى من الصلاة على النبي في قوله :« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً »ثم قال :« إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ »فما أعجب القرآن لمن تدبر آياته وتذكر ! فصلاته صلّى الله عليه وسلم سكن للمتصدق يسكن إليها .

[- إشارة - من كلمة " ما لك "]
-إشارة -« ما لَكَ » *نفي من باب الإشارة واسم من باب الدلالة ، وأصليته من اسم المالية - تحقيق - راجع سورة الأحزاب آية 56 .

[سورة التوبة (9 :) آية 104]
أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(104)

ص 275

العبد إذا رجع إلى الحق بالتوبة ، رجع الحق إليه بالقبول ،« أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ »وهو رجوعه على عباده بالقبول ، فإن اللّه لا يقبل المعاصي ويقبل التوبة والطاعات ، وهذا من رحمته بعباده ، فإنه لو قبل المعاصي لكانت عنده في حضرة المشاهدة ، كما هي الطاعات ، فلا يشهد الحق من عباده إلا ما قبله ، ولا يقبل إلا الطاعات ، فلا يرى من عباده إلا ما هو حسن محبوب عنده ، ويعرض عن السيئات فلا يقبلها« وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ »يأخذ الحق الصدقات بحكم الوكالة ، فيربيها ويثمرها ، فهو وكيل في حق قوم تبرعا من نفسه رحمة بهم ، وهو قوله صلّى اللّه عليه وسلم : إن الصدقة تقع بيد الرحمن قبل أن تقع بيد السائل - الحديث ، لذلك قال تعالى :« وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ »بقبوله التوبة والطاعة« الرَّحِيمُ »بعدم مؤاخذته على الذنب .

[سورة التوبة (9) : آية 105]

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

[فسيرى اللّه أعمالهم]

لكل راء عين تليق به ، فيدرك من المرئي بحسب ما تعطيه قوة ذلك العين ، فثم عين تعطي الإحاطة بالمرئي ، وليس ذلك إلا اللّه وأما ما يراه الرسول والمؤمنون فليس إلا رؤية خاصة ، ليس فيها إحاطة . فيراه الرسول بحسب ما أرسل به ، وكذلك المؤمن يراه بقدر ما علم من هذا الرسول ، فليست عين المؤمن تبلغ في الرتبة إدراك عين الرسول ، فإن المجتهد مخطئ ومصيب ، والرسول حق كله ، فإن له التشريع ، وهو العين المطلوبة لطالب الدلالة ، فإذا قامت صورة العمل نشأة كاملة - كان العمل ما كان من المكلف - يراها اللّه من حيث أراها الرسول والمؤمنين ، ومن حيث لا يرونها ، ويرى المؤمنون ذلك العمل من حيث يرونها ، لا من حيث يراها الرسول ، ولكل موطن في القيامة يحكم به اللّه فيه« وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ »العالم عالمان ما ثم ثالث : عالم يدركه الحس ، وهو المعبر عنه

ص 276

بالشهادة ، وعالم لا يدركه الحس ، وهو المعبر عنه بعالم الغيب ، فإن كان مغيبا في وقت وظهر في وقت للحس فلا يسمى ذلك غيبا ، وإنما الغيب ما لا يمكن أن يدركه الحس ، لكن يعلم بالعقل ، إما بالدليل القاطع ، وإما بالخبر الصادق وهو إدراك الإيمان ، فالشهادة مدركها الحس ، وهو طريق إلى العلم ما هو عين العلم ، وذلك يختص بكل ما سوى الله ممن له إدراك حسي ، والعلم مدركه العلم عينه .

[سورة التوبة (9) : الآيات 106 إلى 108]

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (107) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ(108)

[المطهرون]

المطهرون هم الذين طهروا غيرهم كما طهروا نفوسهم ، فتعدت طهارتهم إلى غيرهم ، فمن منع ذاته وذات غيره أن يقوم بها ما هو مذموم في حقها عند الله فقد عصمها وحفظها ووقاها وسترها عن قيام الصفات المذمومة شرعا بها ، فهو مطهر لها بما علمها من علم ما ينبغي ، لينفر عنه بنور العلم وحياته ظلمة الجهالة وموتها ، فهو محبوب عند الله مخصوص بعناية ولاية إلهية واستخلاف ، وكل إنسان وال على جوارحه فما فوق ذلك ، وقد أعلمه الله بما هي الطهارة التي يطهر بها رعاياه .

[سورة التوبة (9) : آية 109]

أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(109)

ص 277

أفمن أسس بنيانه فقوى أركانه ، وأوثق قواعد بنيانه ، أمن من الهدم والسقوط ، والبيت بيت الإيمان وقد قام على خمسة ، سقف وأربعة جدر ، وهو قوله صلّى الله عليه وسلم : بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . والساكن المؤمن ، وحشمه وخوله مكارم الأخلاق ونوافل الخيرات .

[سورة التوبة (9) : الآيات 110 إلى 111]

لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110) إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111)

لما علم الله من العباد أنه يكبر عليهم الجهاد بأموالهم وأنفسهم ، لدعواهم أن أنفسهم وأموالهم لهم ، كما أثبتها الحق لهم ، والله لا يقول إلا حقا ، فقدم شراء الأموال والأنفس منهم ، حتى يرفع يدهم عنها ، فبقي المشتري يتصرف في سلعته كيف شاء ، والبائع وإن أحب سلعته فالعوض الذي أعطاه فيها وهو الثمن أحب إليه مما باعه ، [« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ »]

فقال تعالى :« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ »وبعد هذا الشراء أمر أن يجاهدوا بها في سبيل الله ، ليهون ذلك عليهم ، فهم يجاهدون بنفوس مستعارة أعني النفوس الحيوانية القائمة بالأجسام ، والأموال المستعارة . فهم كمن سافر على دابة معارة ، ومال غيره ، وقد رفع عنه الحرج مالكها عندما أعاره ، إن نفقت الدابة ، وهلك المال ، فهو مستريح القلب ، فما بقي عليه مشقة نفسية إن كان مؤمنا ، إلا ما يقاسي هذا المركب الحيواني من المشقة ، من طول الشقة ، وتعب الطريق . وإن كان في قتال العدو فما ينال من الكر والفر والطعن بالأرماح والرشق بالسهام والضرب بالسيوف ، والإنسان مجبول على الشفقة الطبيعية ، فهو يشفق على مركوبه

ص 278

من حيث أنه حيوان ، لا من جهة مالكه ، فإن مالكه قد علم منه هذا المعار إليه 1 »
«أنه يريد إتلافه ، فذلك محبوب له فلم يبق له عليه شفقة إلا الشفقة الطبيعية ،
فالنفوس التي اشتراها الحق في هذه الآية إنما هي النفوس الحيوانية ، اشتراها من
النفوس الناطقة المؤمنة المكلفة بالإيمان ، فنفوس المؤمنين الناطقة هي البائعة المالكة
لهذه النفوس الحيوانية التي اشتراها الحق منها ، لأنها التي يحل بها القتل ، وليست
هذه النفوس بمحل للإيمان ، وإنما الموصوف بالإيمان النفوس الناطقة ،
ومنها اشترى الحق نفوس الأجسام فقال :« اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »وهي النفوس
الناطقة الموصوفة بالإيمان« أَنْفُسَهُمْ »التي هي مراكبهم الحسية ، وهي الخارجة
للقتال بهم والجهاد ، وهي التي تدعي الملك ، فبقي المؤمن لا نفس له كسائر الحيوان ،
فلم يبق من يدعي ملكا ، فصار الملك لله الواحد القهار ، وزال الاشتراك ، فالمؤمن لا
نفس له ، فلا دعوى له في الملك ، فكل مؤمن ادعى ملكا حقيقة فليس بمؤمن ، فإن
المؤمن باع نفسه ، فما بقي له من يدعي ، لأن نفسه كانت صاحبة الدعوى ، لكونها
على صورة من له الدعوى بالملك حقيقة ، وهو الله تعالى ، فاحفظ نفسك يا أخي من
دعوى تسلب عنك الإيمان .

فالمؤمن لا نفس له ، فليس له في الشفقة عليها إلا الشفقة الذاتية التي في النفس الناطقة
على كل حيوان .

« وَأَمْوالَهُمْ »فأفلسهم لأنه حال بينهم وبينها ، فلم يبق لهم ما يصلون به إلى المنعة ،
ببقاء الحياة لبقاء الغذاء الحاصل بالمال .

« بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ »وهو الثمن فإن المؤمن ممدوح في القرآن بالتجارة
وهو قوله تعالى :« هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ »والبيع فيما ملك بيعه
، وهو قوله تعالى :" إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ "
وجعلها الثمن للحديث الوارد في الخصمين من الظالم والمظلوم ، إذا أصلح الله بين
خلقه يوم القيامة ، فيأمر الله المظلوم أن يرفع رأسه ، فينظر إلى عليين فيرى ما يبهره
حسنه ، فيقول : يا رب لأي نبي هذا لأي شهيد هذا ؟
فيقول الله تعالى لمن أعطاني الثمن ، قال : ومن يملك ثمن هذا ؟
قال : أنت بعفوك عن أخيك هذا فيقول : يا رب قد عفوت عنه ، فيقول : خذ بيد أخيك
فادخل الجنة .

ولما أورد رسول الله صلّى الله عليه وسلم هذا الحديث تلا« فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ
بَيْنِكُمْ »فإن الله يصلح بين عباده يوم القيامة .« يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ
»وجه آخر في هذه المبايعة : وقع البيع بين الله وبين المؤمن

ص 279

من كونه ذا نفس حيوانية ، فهي التي تدعي الملك ، وهي البائعة ، فباعت النفس الناطقة من الله وما كان لها مما لها به نعيم من مالها بعوض وهو الجنة ، فالبيع والشراء معاوضة ، والسوق المعترك ، فاستشهدت فأخذها المشتري إلى منزله وأبقى عليها حياتها حتى يقبض ثمنها الذي هو الجنة ،

فلهذا قال في الشهداء : إنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين ببيعهم لما رأوا فيه من الربح ، حيث انتقلوا إلى الآخرة من غير موت ، فالإنسان المؤمن يتنعم من حيث نفسه الحيوانية ، بما تعطي الجنة من النعيم ، ويتنعم بما يرى مما صارت إليه من النعيم نفسه الناطقة ، التي باعها بمشاهدة سيدها ، فحصل للمؤمن النعيمان .

فإن الذي باع كان محبوبا له ، وما باعه إلا ليصل إلى هذا الخير الذي وصل إليه ، وكانت له الحظوة عند الله حيث باعه هذه النفس الناطقة العاقلة . وسبب شراء الحق إياها أنها كانت له بحكم الأصل بقوله: " وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي " *

فطرأت الفتن والبلايا ، وادعى المؤمن فيها ، فتكرم الحق وتقدس ، ولم يجعل نفسه خصما لهذا المؤمن ، فتلطف له في أن يبيعها منه ، وأراه العوض ، ولا علم له بلذة المشاهدة ، لأنها ليست له ، فأجاب إلى البيع فاشتراها الله منه ، فلما حصلت بيد المشتري ، وحصل الثمن تصدق الحق بها عليه امتنانا ، لكونه حصل في منزل لا يقتضي له الدعوى فيما لا يملك وهو الآخرة .

وقد مثل هذا الذي قلناه رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، حين اشترى من جابر بن عبد الله بعيره في السفر بثمن معلوم ، واشترط عليه البائع جابر بن عبد الله ظهره إلى المدينة ، فقبل الشرط المشتري ، فلما وصل المدينة ، وزن له الثمن ، فلما قبضه وحصل عنده وأراد الانصراف أعطاه بعيره والثمن جميعا ، فهذا بيع وشرط ، وهكذا فعل الله سواء ، اشترى من المؤمن نفسه بثمن معلوم وهو الجنة ، واشترط عليه ظهره إلى المدينة ، وهو خروجه إلى الجهاد ، فلما حصل هناك واستشهد ، قبضه الثمن ، ورد عليه نفسه ، ليكون المؤمن بجميعه متنعما ، بما تقبله النفس الناطقة من نعيم العلوم والمعارف ، وبما تعمله الحيوانية من المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمركب وكل نعيم محسوس ، ففرحت بالمكانة والمكان والمنزلة والمنزل - . إشارة

- إن من الرحمة التي تتضمنها سورة التوبة ومن التنزل الإلهي أن فيها شراء نفوس المؤمنين منهم ، بأن لهم الجنة ، وأي تنزل أعظم من أن يشتري السيد ملكه من عبده ؟ وهل يكون في الرحمة أبلغ من هذا ؟

« وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا »يعني الجنة« فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ »من الناس عبيد ، ومنهم أجراء ، ولأجل الإجارة نزلت الكتب

ص 280

الإلهية بها بين الأجير والمستأجر ، فلو كانوا عبيدا ما كتب الحق كتابا لهم على نفسه ، فإن العبد لا يوقت على سيده ، إنما هو عامل في ملكه ، ومتناول ما يحتاج إليه ، فالأجراء هم الذين اشترى الحق منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة ، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن« وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ »قال صلّى الله عليه وسلم في الصلوات الخمس : فمن أتى بهن لم يضيع من حقهن شيئا كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم .

[سورة التوبة (9) : آية 112]

التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(112)

[« التَّائِبُونَ » الآية]

« التَّائِبُونَ »جمع تائب من رجال ونساء ، وهو الراجع إلى الله من عين المخالفة ، ولو رجع ألف مرة في كل يوم ، فما يرجع إلا من المخالفة . والله قابل التوب خاصة .« الْعابِدُونَ »هم أهل الفرائض خاصة ، منهم صاحب سبب ، ومنهم تارك سبب ، وهم صلحاء الظاهر والباطن ، قد عصموا من الغل والحسد والحرص والشره المذموم ، وصرفوا كل هذه الأوصاف إلى الجهات المحمودة . الثواب لهم مشهود ، والقيامة وأهوالها والجنة والنار مشهودتان ، دموعهم في محاريبهم ، شغلهم هول المعاد عن الرقاد ، ضمروا بطونهم بالصيام ، للسباق في حلبة النجاة .« الْحامِدُونَ »من الرجال والنساء ، تولاهم الله بعواقب ما تعطيه صفات الحمد ، فهم أهل عاقبة الأمور ، فالحمد إنما هو لله خاصة ، بأي وجه كان ، فالحامدون الذين أثنى الله عليهم في القرآن ، هم الذين طالعوا نهايات الأمور في ابتدائها ، وهم أهل السوابق ، فشرعوا في حمده ابتداء بما يرجع إليه سبحانه وتعالى جل جلاله من حمد المحجوبين انتهاء ، فهم الحامدون على الشهود بلسان الحق ، ثبت في الصحيح عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم : لا شيء أحب إلى الله تعالى من أن يمدح ، والله تعالى قد وصف عباده المؤمنين بالحامدين ، وذم ولعن من ذم جناب الله ، ونسب إليه ما لا يليق به« السَّائِحُونَ »وهم المجاهدون في سبيل الله ، من رجال ونساء ، قال صلّى الله عليه وسلم : سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ، فالسياحة في هذه الأمة الجهاد ، والسياحة المشي في الأرض للاعتبار برؤية آثار القرون

ص 281

الماضية ، ومن هلك من الأمم السالفة ، ولما كان المقصود من الجهاد إعلاء كلمة الله ، في الأماكن التي يعلو فيها ذكر غير الله ، ممن يعبد من دون الله ، جعل النبي صلّى الله عليه وسلم سياحة هذه الأمة الجهاد ، فإن الأرض وإن لم يكفر عليها ولا ذكر الله فيها أحد من البشر ، فهي أقل حزنا وهما من الأرض التي عبد غير الله فيها وكفر عليها ، وهي أرض المشركين والكفار ، فكانت السياحة بالجهاد أفضل من السياحة بغير الجهاد ، ولكن بشرط أن يذكر الله عليها ولا بد ، فإن ذكر الله في الجهاد أفضل من لقاء العدو ، فيضرب المؤمنون رقابهم ، ويضرب الكفار رقاب المؤمنين . وأما السياحة بالجولان في الأرض على طريق الاعتبار والقربة إلى الله ، لما في الأنس بالخلق من الوحشة ، فالسائحون من عباد الله يشاهدون من آيات الله ، ومن خرق العوائد ما يزيدهم قوة في إيمانهم ونفسهم ومعرفتهم بالله ، وأنسا به ورحمة بخلقه ، وشفقة عليهم ، فيفتح لهم في بواطنهم في علوم إلهية لا ينالونها إلا في هذه المشاهدة ، وما يحصل لهم من خرق العوائد والاعتبار ، فهم يرون في الأرض من الآيات والعجائب والاعتبارات ما دعاهم إلى النظر فيما ينبغي لمالك الأرض ، فأنار الله قلوبهم بأنوار العلوم ، وفتح لهم في النظر في الآيات ، وهي العلامات الدالة على عظمة من انقطعوا إليه وهو الله تعالى ». الرَّاكِعُونَ »من رجال ونساء ، هم الذين وصفهم الله بالركوع ، وهو الخضوع والتواضع لله تعالى من حيث هويته سبحانه ، ولعزته وكبريائه حيث ظهر من العالم ، لعلمهم بأنها صفة الحق ، لا صفة من تلبس بها ، فركعوا للصفة لا للعين ، ومن هنا تواضع العارفون للجبارين والمتكبرين من العالم للصفة لا لعينهم إذ كان الحق هو مشهودهم في كل شيء .« السَّاجِدُونَ »من الرجال والنساء ، تولاهم الله بسجود القلوب ، فهم لا يرفعون رؤوسهم ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وهو حال القربة وصفة المقربين قال تعالى »: وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ »وقال تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلم »: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ »يريد الذين لا يرفعون رؤوسهم ، ولا يكون ذلك إلا في سجود القلب .« الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ »من رجال ونساء ، هم الذين تولاهم الله بالأمر بالله ، إذ كان هو المعروف ، فلا فرق أن تقول الآمرون بالله أو الآمرون بالمعروف ، فهو المعروف الذي لا ينكر بلا خلاف في جميع الملل والنحل والعقول ، فالآمرون بالمعروف هم الآمرون على الحقيقة بالله ، فإنه سبحانه إذا أحب عبده كان لسانه الذي يتكلم به ، والأمر من أقسام الكلام ، فهم الآمرون به لأنه لسانهم ،

ص 282

فهؤلاء هم الطبقة العليا في الأمر بالمعروف ، وكل آمر بمعروف فهو تحت حيطة هذا الأمر« وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ »وأعلاهم طبقة الناهون عن المنكر بالمعروف ، والمنكر الشريك الذي أثبته المشركون بجعلهم ، فلم يقبله التوحيد ، وأنكره فصار منكرا من القول وزورا .« وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ »اعلم أن قوله تعالى :« الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ »إطلاق في حقهم وهم على طبقتين : فمنهم من عرف الحدود الذاتية فوقف عندها ، وذلك العالم الحكيم المشاهد صاحب العين السليمة ، ومنهم من عرف الحدود الرسمية ، ولم يعلم الحدود الذاتية ، وهم أرباب الإيمان ، ومنهم من عرف الحدود الرسمية والذاتية وهم الأنبياء والرسل ومن دعا إلى اللّه على بصيرة من أتباع الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، فهؤلاء هم الأولى بأن يطلق عليهم الحافظون لحدود اللّه الذاتية والرسمية معا .« وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ »الصابرين على ذلك ، وهم الذين حبسوا نفوسهم عند الحدود ولم يتعدوها مطلقا .

[سورة التوبة (9) : آية 113]

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (113)

لأنه قبل التبيين يعذر في استغفاره ، وليس بأصحاب الجحيم إلا أعداء اللّه تعالى الذين هم أهل الجحيم .

[سورة التوبة (9) : آية 114]

وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114)

إن الرسول إذا تبين له أن شخصا ما عدو للّه تبرأ منه ، قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام وأبيه آزر ، بعد ما وعظه وأظهر الشفقة عليه لكونه كان عنده في حد الإمكان أن يرجع إلى اللّه وتوحيده من شركه ، فلما بين اللّه له في وحيه ، وكشف له عن أمر أبيه ، وتبين إبراهيم عليه السلام أن أباه آزر عدو للّه ، تبرأ منه مع كونه أباه ، فأثنى اللّه عليه فقال:

ص 283

" فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ »وقد كان إبراهيم في حق أبيه أواها حليما ، لا الآن ، وقد ورد في الخبر أن إبراهيم يجد أباه بين رجليه في صورة ذيخ ، فيأخذه بيده فيرمي به في النار ، فانظر ما أثر عند الخليل إيثاره لجناب الحق من عداوة أبيه في الله تعالى ، فالله يجعلنا ممن آثر الحق على هواه ، وأن يجعل ذلك مناه ، فإن هذا هو ما فعله إبراهيم الخليل عليه السلام في حق أبيه آزر ، عندما تحقق أنه عدو لله« إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »الأواه هو الذي يكثر التأوه لما يشاهده من جلال الله ، وكونه ما في قوته مما ينبغي أن يعامل به ذلك الجلال الإلهي ، والتأوه من نعت المحبين ، فيتأوه غيرة على الله ، وشفقة على المحجوبين ، فيتأسف على من حرمه الله الشهود ، ويتأوه لحبه في محبوبه من أجل ما يراه من عمى الخلق عنه ، فإن من شأن المحبة الشفقة على المحبوب «.حَلِيمٌ »ببنية المبالغة ، وهي فعيل ، والحلم لا يكون إلا مع القدرة على من يحلم عنه ، فالحلم هو الإمهال من القادر على الأخذ ، فيؤخر الأمر ويمهل ولا يهمل ، فإن صاحب العجز عن إنفاذ اقتداره لا يكون حليما ، ولا يكون ذلك حلما ، فلا حليم إلا أن يكون ذا اقتدار ، فإن العجلة بالأخذ عقيب الجريمة دليل على الضجر ، فالحليم هو الذي لا يعجل مع القدرة وارتفاع المانع ، وحلم العبد من العلم الإلهي السابق ولا يشعر به العبد ، حتى تقوم به صفة الحلم ، فحينئذ يعلم ما أعطاه حكم علم الله في حكمه ، ولهذا إن تقدمه العلم بذلك لا يسمى حليما على جهة التشريف ، فالحق يوصف بالحلم لعدم الأخذ ، لا على طريق التشريف ، والعبد ينعت بالحلم لعدم الأخذ أيضا ولكن على طريق التشريف ، لجهله بما في علم الله من ذلك ، قبل اتصافه بعدم المؤاخذة والإمهال من غير إهمال ، فشرف الحق بالعلم لا بالحلم ، وشرف العبد بالحلم لا بالعلم ، لجهله ذلك . فإن علم قبل قيام صفة الحلم به لم يكن الحلم به تشريفا ، ولما كانت المخالفة تقتضي المؤاخذة أفسد الحلم حكمها في بعض المذاهب ، ولذلك يقال : حلم الأديم إذا فسد وتشقق ، وكذلك حلم النوم أفسد المعنى عن صورته ، لأنه ألحقه بالحس وليس بمحسوس ، حتى يراه من لا علم له بأصله ، فيحكم عليه بما رآه من الصورة التي رآها عليها ، ويجيء العارف بذلك فيعبر تلك الصورة إلى المعنى الذي جاءت له ، وظهر بها ، فيردها إلى أصلها ، كما أفسد الحلم العلم ، فأظهره في صورة اللبن ، وليس بلبن ، فرده رسول الله صلّى الله عليه وسلم بتأويل رؤياه إلى أصله وهو العلم فجرد عنه تلك الصورة.

ص 284

[سورة التوبة (9) : آية 115]
وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115)

الذي على الله إنما هو البيان خاصة ، قال تعالى :« وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ »يضل أي ليحير« قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ »في أخذ الميثاق والفطرة التي ولدوا عليها ،« حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ«

[الهدى التبياني والهدى التوفيقي]

فإذا أبان لهم حيرهم ، فمنهم من حيره بالواسطة فشك في النبوة ، وحار فيها ، وما تحقق أن هذا نبي ، فتوقف في الأخذ عنه ، ومنهم من حيره في أصل النبوة هل لها وجود أم لا ؟
ومنهم من حيره فيما جاء به هذا النبي ، مما تحيله الأدلة النظرية ، فأورثهم البيان الإلهي هذه الحيرة ، وذلك لعدم الإيمان ، فلم يكن لهم نور إيمان يكشف لهم عن حقيقة ما قاله الله ، وأبان عنه ، فلما أبان الحق ما أبانه لعباده فمنهم من رزقه العلم فعمل به ، ومنهم من حرمه الله العلم فضل وحار وشك وارتاب وتوقف ، فلا ضلال إلا بعد هداية ، فالهدى في هذه الآية يحتمل أن يكون الهدى التبياني ، وهو ابتلاء ، لا الهدى التوفيقي ،
ومن الهدى التبياني قوله صلّى الله عليه وسلم : ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، وقوله تعالى :« وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ »والهدى بمعنى البيان ، قد يعطي السعادة ، وقد لا يعطيها ، إلا أنه يعطي العلم ولا بد ، أما الهدى التوفيقي فهو الذي يعطي السعادة لمن قام به ، وهو قوله تعالى :« إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ »وقوله تعالى :« لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ »وهذا هو هدى الأنبياء . فالهدى التوفيقي هدى الأنبياء عليهم السلام« فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ »وهو الذي يعطي سعادة العباد وما توفيقي إلا بالله .

[سورة التوبة (9) : الآيات 116 إلى 117]
إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (116) لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (117)

ص 285

" لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ »قد لا تكون التوبة من ذنب ، بل يرجع إلى الله في كل حال في كل طاعة ، فيرجع بالتائب إلى ربه من طاعة إلى طاعة ؛« وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ »قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : إني لأجد نفس الرحمن يأتيني من قبل اليمن ، فنفس الله عنه بالأنصار ، فكانت الأنصار كلمات الله ، نصر الله بهم دينه وأظهره .

[سورة التوبة : (9) آية 118]

وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)

« وَظَنُّوا »أي علموا وتيقنوا ، قال أهل اللسان في ذلك ، فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج ، أي تيقنوا واعلموا ، فإن الظن لما كانت مرتبته برزخية ، لها وجه إلى العلم ونقيضه ، ثم دلت قرائن الأحوال على وجه العلم فيه ، حكمنا عليه بحكم العلم ، وأنزلناه منزلة اليقين ، مع بقاء اسم الظن عليه لا حكمه ، فإن الظن لا يكون إلا بنوع من الترجيح يتميز به عن الشك ، فإن الشك لا ترجيح فيه ، والظن فيه نوع من الترجيح إلى جانب العلم :« أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا »اعلم أن توبة الله ابتداء مقرونة بعلى ، وتوبة الخلق مقرونة بإلى ، لأنه المطلوب بالتوبة ، فهو غايتها ، فرجوع الحق عليهم رجوع عناية محبة أزلية ليتوبوا ، فإذا تابوا أحبهم حب من رجع إليه ، فهو حب جزاء .

قال تعالى :« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ »فهذا الحب ما هو الأول ، وللعبد حب آخر زائد على قوله :« وَيُحِبُّونَهُ »فالأول حب عناية منه ابتداء ، فالتوبة عن محبة منتجة لمحبة أخرى منه ، فهي بين محبتين متعلقتين بهم من الله ، وتاب عليهم فكان هو التائب على الحقيقة ، والعبد محل ظهور الصفة ، فكانت رجعته عليهم في الدنيا ردهم بها إليه ، ولذلك قال »: لِيَتُوبُوا »فما رجع إليهم إلا ليرجعوا ، وكل معلل علّه الحق فإنه واقع ، كما أنه كل ترج من الله واقع ،

ص 286

فالرجعة الأولى من الله على العبد هي التي يعطيه الحق بها الإنابة إليه ، فإذا رجع العبد إليه بالتوبة رجع الحق إليه غير الرجوع الأول ، وهو الرجوع بالقبول ، ثم قال :« أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ » وهو لفظ المبالغة إذ كانت له التوبة الأولى من قوله :« ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ »

والثانية من قوله :" لِيَتُوبُوا " فالتوبتان له من كل عبد ، فهو التواب لا هم ، ووصف الله تعالى نفسه بأنه التواب ، فما تاب من تاب ولكن الله تاب « الرَّحِيمُ » الذي يرجع على عبده في كل مخالفة بالرحمة له ، فيرزقه الندم عليها ،

وقد قال صلّى الله عليه وسلم : [الندم توبة] فيتوب العبد بتوبة الله عليه ، فلو لا توبة الله عليهم ما تابوا ، والتوبة الرجوع ، فالله أكثر رجوعا إلى العباد من العباد إليه ، لأن برجوعه تعالى إلى العباد يبقي عليهم الوجود بالحفظ الإلهي ، وهو التواب بالرجوع عليهم بقبول التوبة ، الرحيم بعدم المؤاخذة على الذنب - راجع البقرة آية 37 –

- **نصيحة** - عليك بالالتجاء إلى من تعرف أنه لا يقاوم فإنه يحميك .

[سورة التوبة (9) : الآيات 119 إلى 120]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120)

[موعظة - نصب الأبدان]

« وَلا نَصَبٌ »- موعظة - نصب الأبدان من همم النفوس في المعقول والمحسوس .

[سورة التوبة (9) : الآيات 121 إلى 122]

وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (121) وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)

[الجهاد من فروض الكفاية]

الجهاد من فروض الكفاية إذا قام به من يقع به الغناء سقط عن الباقي ، لقوله تعالى :« وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً »وإن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ما خرج قط إلى غزو عدو إلا وترك بعض الناس في المدينة« فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ »الفقه في الدين هو استخراج الحكم في مسئلة من نص ورد في الكتاب أو السنة ، يدخل الحكم في هذه المسألة في مجمل ذلك الكلام ، ولا يحتاج إلى قياس في ذلك ، فإن الدين قد كمل ولا تجوز الزيادة فيه كما لم يجز النقص ، فالفقه على الحقيقة هو الفهم الذي أعطاه الله عبده في القرآن ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما هو إلا فهم يؤتيه الله من شاء من عباده في هذا القرآن ، لذلك قال تعالى :« وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ »فأقامهم مقام الرسول صلّى الله عليه وسلم في التفقه في الدين والإنذار ، وهو الذي يدعو إلى الله على بصيرة كما يدعو رسول الله صلّى الله عليه وسلم على بصيرة ، لا على غلبة ظن ، كما يحكم عالم الرسوم ، فشتان بين من هو فيما يفتي به ويقوله على بصيرة منه في دعائه إلى الله وعلى بينة من ربه ، وبين من يفتي في دين الله بغلبة الظن .

[سورة التوبة (9) : آية 123]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)

هذا هو الجهاد الذي فرضه الله تعالى المعين ويعصي الإنسان بتركه لا بد من ذلك ، ويؤخذ من هذه الآية إشارة إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد الهوى ، فإنه أكبر الأعداء إليك الذين يلونك ، فإنه بين جنبيك ، ولا أكفر من النفوس بنعم الله ، فإنها في كل نفس تكفر نعمة الله عليها من بعد ما جاءتها ، ولا يلي الإنسان أقرب إليه من نفسه ، وجهاد النفس أعظم من جهاد العدو ،

لذلك قال عليه السلام : [إن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر] لأن الإنسان لا يخرج إلى جهاد العدو إلا بعد جهاد نفسه ، وجهاد العدو قد يقع من العبد للرياء والسمعة والحمية ، وجهاد النفس أمر باطن لا يطلع عليه إلا الله ، فحظ كل موفق من هذه

ص 288

الآية أن ينظر إلى نفسه الأمارة بالسوء ، التي تحمله على كل محظور ومكروه وتعدل به عن كل واجب ومندوب ، للمخالفة التي جبلها الله عليها ، وهي أقرب الكفار والأعداء إليه ، فإذا جاهدها وقتلها أو أسرها حينئذ يصح له أن ينظر في الأغيار على حسب ما يقتضيه مقامه ، فإنك إذا جاهدت نفسك هذا الجهاد خلص لك الجهاد الآخر في الأعداء ، الذي إن قتلت فيه كنت من الشهداء الأحياء ، فالهوى هو أقرب الكفار إليك ، فاشتغل به وإلا اشتغل بك فيهدم دينك .

[سورة التوبة (9) : آية 124]

وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124)

« وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ »وهي واحدة ولكن الأمزجة مختلفة« فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »بورود العافية عليهم ، والإيمان عين واحدة وزيادته أو كثرته إنما هي في ظهوره في المواطن المختلفة ، مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج إلخ . وهو في نفسه لا يتكثر ، ولهذا قال تعالى فيمن قال :(نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ)أولئك هم الكافرون حقا فنفى عنهم الإيمان كله .

[سورة التوبة (9) : آية 125]

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ (125)

[مرض القلوب]

« وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »وهو الشبه المضلة القادحة في الأدلة وفي الإيمان ، تحول بين العقل من العاقل وبين صحة الإيمان الذي له تعلق بوجود الحق وتعلق بتوحيد الحق ، فالذي حال مرضه العقلي بينه وبين صحة الإيمان بوجود الحق فقد حال بينه وبين العلم لضروري ، فإن العلم بوجود الصانع عند ظهور الصنعة للناظر ضروري ، وإن لم يعلم حقيقة الصانع ولا ماهيته ولا ما يجب أن يكون عليه ويجوز ويستحيل إلا بعد نظر فكري وإخبار إلهي نبوي ، فهذا مرض لا طب فيه ، ومن فقد العلم الضروري كان بمنزلة المريض الذي قد استفرغ المرض نفسه بحيث لا يعلم أنه مريض ولا ما هو فيه لأنه لا عقل له ، وأما

ص 289

الذي معه الإيمان أو العلم الضروري بوجود الحق الخالق فمرضه عدم اعتقاد صحة التوحيد وعدم القبول من الشارع ما جاء به من صفات الحق ، فإن توحيد الحق يدرك بالإيمان ويدرك بالنظر« فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ »لأنهم على مزاج لا يصلح إلا للنار »فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ »أي الصفقة من قوله تعالى واشتروا الضلالة بالهدى ، وهي السورة المنزلة فلا بد من الزوائد في الفريقين.

[سورة التوبة (9) : الآيات 126 إلى 128]

أَ وَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (127) لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (128)

[« لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ »]

حفظ الله علينا« لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ »إلى آخر السورة بشهادة خزيمة ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أقامه في شهادته مقام رجلين ، فحكم بشهادته وحده ، إذ لم يقبل الجامع للقرآن آية منه إلا بشهادة رجلين فصاعدا إلا هذه الآية ،

فإنها ثبتت بشهادة خزيمة وحده رضي الله عنه ، وشهد الله تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلم بحرصه على نجاة أمته فقال :« عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ »

أي عنادكم يعز عليه للحق المبين« حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ »في أن تسلموا وتنقادوا إلى ما فيه سعادتكم وهو الإيمان بالله وما جاء من عند الله ،

فمدح الله تعالى رسوله صلّى الله عليه وسلم بالحرص على ما تسعد به أمته ،

فالأوصاف الجبلية في الإنس والجان مثل الحسد والغضب والحرص والجبن والبخل ، وما كان في الجبلة فمن المحال عدمه إلا أن تنعدم العين الموصوف بها ،

ولما علم الحق أن إزالتها من هذين الصنفين من الخلق لا يصح زوالها عيّن لها مصارف يصرفها فيها فتكون محمودة إذا صرفت في الوجه الذي أمر الشارع أن تصرف فيه وجوبا أو ندبا ، وتكون مذمومة إذا صرفت في خلاف المشروع ،

فقال تعالى :" حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ".

ومن ذلك حرصه على إسلام عمه أبي طالب إلى أن قال له : قلها في أذني حتى أشهد لك بها ،

ص 290

لعلمه بأن شهادته مقبولة وكلامه مسموع« بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ »فوصف النبي صلّى الله عليه وسلم بالرحمة ، وهي رحمة فطر عليها زائدة على الرحمة التي بعث بها ، وهي قوله تعالى :(وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ)
وما من أحد من الأمة إلا وهو مؤمن بالله ، ومن وجه آخر قيده بالإيمان ولم يقيد الإيمان فهذا تقييد في إطلاق ، فإنه قال في الإيمان إنه مؤمن صاحبه بالحق والباطل ، ومن كونه صلّى الله عليه وسلم بالمؤمنين رؤوفا رحيما أن أبان لأمته عن صورة تجلي الحق لعباده بقول ما قاله نبي لأمته قبله ، كما جاء في حديث الدجال
- **مسئلة** - الاتصاف بأوصاف الحق تعالى التي بها يكون إلها واجب شرعا وعقلا اجتناب هذه الأسماء الإلهية معنى وإن أطلقت لفظا ينبغي أن لا تطلق لفظا على أحد إلا تلاوة ،
فيكون الذي يطلقها تاليا حاكيا كما قال تعالى :« لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ »فسماه عزيزا رؤوفا رحيما فنسميه بتسمية الله إياه ونعتقد أنه صلّى الله عليه وسلم في نفسه مع ربه عبد ذليل خاشع أواه منيب ، فإطلاق الألفاظ التي تطلق على الحق من الوجه الصحيح الذي يليق بالجناب الإلهي لا ينبغي أن تطلق على أحد من خلق الله إلا من حيث أطلقها الحق لا غير وإن أباح ذلك ،
فإن أطلقها العبد على من أطلقها عليه الحق أو الرسول صلّى الله عليه وسلم ، فيكون هذا المطلق تاليا أو مترجما ناقلا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم في ذلك الإطلاق ، ومن الورع أن لا يطلق على أحد ممن ليس بنبي ولا رسول اللفظ الذي اختصوا به ، فيطلق على الرسل الذين ليسوا برسل الله لفظة الورثة والمترجمين ، فيقال من السلطان الفلاني إلى السلطان الفلاني ترجمان يقول كذا .
وكذا ، فلا يطلق على المرسل ولا المرسل إليه اسم الملك ورعا وأدبا مع الله ، ويطلق عليه اسم السلطان ، فإن الملك من أسماء الله ، فيجتنب هذا اللفظ أدبا وحرمة وورعا ، ويقال السلطان ، إذ كان هذا اللفظ لم يرد في أسماء الله ، ويطلق على الرسول الذي جاء من عنده اسم الترجمان ولم يطلق عليه اسم الرسول ، لأنه أطلق على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فيجعل من خصائص النبوة والرسالة أدبا مع رسل الله عليهم السلام ، وإن كان هذا اللفظ أبيح ولم ينه عنه فلزوم الأدب أولى
- **إشارة** - التوحيد في الإله ، من حيث ما هو إله ، لا من حيث الأسماء فإنها للعبيد والإماء ، بها يكون التحقق ، وهي المراد بالتخلق ، قد قال في الكتاب الحكيم عن رسوله الكريم ، إنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وقال سبحانه عن نفسه في كلامه القديم ، إن الله بكم لرؤف رحيم ، فقد عرفنا ، بأنه وصف

ص 291

نفسه بما وصفنا ، فلو لا صحة القبول منا ، ما أخبر بذلك عنا ، وخبره صدق ، وقوله حق ، فالمشاركة في الصفات ، دليل على تباين الذوات ، فالحق تعالى يرى صورته في مرآة الإنسان الكامل ، ومعنى يرى صورة الحق فيه إطلاق جميع الأسماء الإلهية عليه ، كما جاء في الخبر فبهم تنصرون واللّه الناصر ، وبهم ترزقون واللّه الرازق ، وبهم ترحمون واللّه الراحم ، وقد ورد في القرآن فيمن علمنا كماله واعتقدنا ذلك فيه أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فالتخلق بالأسماء ، يقول به جميع العلماء .

[سورة التوبة (9) : آية 129]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا »عما دعوتموهم إليه« فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ »أي في الله الكفاية يكفيني أمرهم

[توحيد الاستكفاء]

« لا إِلهَ إِلَّا هُوَ »وهذا هو التوحيد الحادي عشر ، وهو توحيد الاستكفاء ، وهو من توحيد الهوية لما قال تعالى »: وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى »فأحالنا علينا بأمره فبادرنا لامتثال أمره ، فمنا من قال التعاون على البر والتقوى أن يرد كل واحد صاحبه إلى ربه في ذلك ، ويستكفي به فيما كلفه ،

وهو قوله : (واستعينوا باللّه) خطاب تحقيق « عليه توكلت » التوكل اعتماد القلب على الله تعالى مع عدم الاضطراب عند فقد الأسباب الموضوعة في العالم ، التي من شأن النفوس أن تركن إليها ، فإن اضطرب فليس بمتوكل ، وهو من صفات المؤمنين« وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ »

فإذا كان رب العرش والعرش محيط بعالم الأجسام وأنت من حيث جسميتك أقل الأجسام فاستكف باللّه ، الذي هو رب مثل هذا العرش ، ومن كان الله حسبه انقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسه سوء ، وجاء في ذلك بما يرضي الله ، واللّه ذو فضل عظيم على من جعله حسبه .

ص 292

(10) سورة يونس مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[سورة يونس (10) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (1) أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (2)

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا »وهم أهل السعادة[قدم صدق]« أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ »أي سابق عناية عند ربهم في علم اللہ ، وصحت لهم هذه القدم قبل كونهم حيث لا قبل في علم اللہ ، خصوصية منه جل علاه لهم ، وهي الرحمة التي كتبها على نفسه ، وقدم الصدق هذه تعطي ثبوت أهل الجنات في جناتهم ، ولهذا قال في أهل الجنان عطاء غير مجذوذ ، فما وصفه بالانقطاع ، فقال تعالى »: أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ »أي سابقة بأمر قد أعلمهم به قبل أن يعطيهم ذلك ، ثم أعطاهم فصدق فيما وعدهم به ، واعلم أن من المتشابه صفة القدم ، فإنه ثبت في الصحيح من حديث أنس رضي اللہ عنه ، قال :

قال رسول اللہ صلّى اللہ عليه وسلم : [لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة قدمه ، فتقول قط قط وعزتك]

وقد مهدنا أن الصورة المنسوبة إلى اللہ تعالى هي ظلل غمام الشريعة ، وأن وجهه منها هو بارق نور التوحيد ، ومظهره الإخلاص ، وعلى هذا فالقدم هي نور الإيمان ، ومظهره الصدق ، وهذا هو القدم الذي تستغيث النار من نوره كما جاء في حديث أبي سمية ،

قال : سألت جابر بن عبد اللہ رضي اللہ عنه عن الورود ،

قال : سمعت رسول اللہ صلّى اللہ عليه وسلم يقول :

[الورود الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما ، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجا من بردهم]

وفي حديث يعلى رضي اللہ عنه ، قال : قال رسول اللہ صلّى اللہ عليه وسلم

[إن النار لتنادي جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي] أخرجهما

ص 293

أبو عبد الله محمد الترمذي الحكيم ، وذكر القرطبي حديث يعلى عن أبي بكر النخاد ، وهذا يحقق أن القدم فيما ذكرناه أمران : أحدهما أن نور الإيمان يكفر جميع أسباب الكفر والمعاصي ، وهي أسباب ، فكما يطفئ أسبابها في الدنيا ، فكذلك حقيقته تطفئ حقيقتها في الآخرة ، والثاني نسبته إلى رب العزة ، وهو صاحب العزة ومالكها ، والعزة إن كانت جميعا لله تعالى بمقتضى

قوله تعالى :(فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً)لكنه قد نسبها لرسوله وللمؤمنين

في قوله تعالى :(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) فما من مؤمن إلا وهو صاحب العزة ، فإذا وضع قدمه حق للنار أن تضج منه وتنزوي وتنطفئ نارها بما له من نور العزة ،

وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم [فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله فتقول : قط قط ، فهناك تمتلئ وتنزوي بعضها إلى بعض ، فلا يظلم الله من خلقه أحدا]

وذكر الحديث ، وهو غير مناف لما ذكرناه ، ومرجعه للحديث الصحيح [ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به - إلى قوله - ورجله التي يمشي بها]

فإنه يقتضي تحقق رجل المؤمن بنور التوحيد ، حتى تكون منسوبة إلى الله تعالى ، وحينئذ فهو موافق لما تقدم من القدم ، وانزواؤها بعضها إلى بعض فيه حكمتان : إحداهما أنها عندما تضج بسبب نور العزة من أقدام المؤمنين ، فيخرجون منها ، لخلو مواضعهم ، فلو بقيت كذلك لما كانت مملوءة ، وهو مناف لقوله تعالى): لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ) *الآية ،

وأيضا ربما كان في ذلك تخفيف على أهلها ، فاقتضت الحكمة أنها حينئذ تنضم وتجتمع على أهلها المتكبرين وتمتلئ بهم ، تحقيقا للوعيد وزيادة في العذاب ، والحكمة الثانية أنها لو بقيت مواضع المؤمنين خالية من النار ، لم يتم لهم سرورهم بالأمن منها ، لعلمهم بأن الله وعدها أنه يملؤها ، فربما توقعوا الإعادة ، فكان في انزوائها وانضمامها على أهلها وامتلائها بهم تأمين للمؤمنين ، كما ذبح الموت بين الفريقين تحقيقا للخلود - إشارة - اعلم أن نعلي قدم الصدق هما الخوف والرجاء [راجع قوله تعالى لموسى عليه السلام (اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس) سورة طه آية رقم (12)] .

[سورة يونس (10) : آية 3]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ(3)

ص 294

راجع الأعراف آية 54« ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ »العرش له الإحاطة بالأجسام ، وله الأولية في الأفلاك فما تحتها ، فهو الأول المحيط ، فاختاره الحق للاستواء لما بين الصفتين ، وإن كان العرش هو الملك ، فكل شيء ما سوى الله ملكه ، والسماوات والأرض في جوف الكرسي كحلقة في فلاة ، والكرسي في جوف العرش كحلقة في فلاة« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ »اعلم أن حكم المدبر في الأمور إحكامها في موضع الجمع والشهود ، وإعطاؤها ما تستحقه ، وهذا كله قبل وجودها في أعيانها ، فالتدبير هو التقدير ، فقوله تعالى« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ »يعني أن الحق على الحقيقة هو مدبر العالم ، وما وصف نفسه بذلك إلا ليعرفنا أنه ما عمل شيئا إلا ما تقتضيه حكمة الوجود ، وأنه أنزله موضعه الذي لو لم ينزله فيه لم يوف الحكمة حقها ، فلم يزل الحق في أزله مدبرا ، ولا بد أن يكون تدبيره في مدبّر معيّن له ، وليس إلا أعيان الممكنات ، فهي مشهودة له في حال عدمها ، فإنها ثابتة ، فيدبر فيها ما يكون من تقدم بعضها على بعض ، وتأخرها في تكوين أعيانها وصور ما توجد فيها ، وهنالك هو سر القدر الذي أخفى الله تعالى علمه عن خلقه ، حتى يظهر الحكم به في الصور الموجودة في رأي العين« ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ »الأنبياء والمؤمنون يشفعون في أهل الإيمان ، وأهل الإيمان طائفتان : منهم المؤمن عن نظر وتحصيل دليل ، وهم الذين علموا الآيات والدلالات والمعجزات ، وهؤلاء هم الذين يشفع فيهم النبيون ، ومنهم المؤمن تقليدا بما أعطاه أبواه إذ ربياه أو أهل الدار التي نشأ فيها ، فهذا النوع يشفع فيهم المؤمنون كما أنهم أعطوهم الإيمان في الدنيا بالتربية ، وأما الملائكة فتشفع فيمن كان على مكارم الأخلاق في الدنيا وإن لم يكن مؤمنا ، وما ثم شافع رابع ، وبقي من يخرجه أرحم الراحمين من النار ، وهم الذين ما عملوا خيرا قط ، لا من جهة الإيمان ولا بإتيان مكارم الأخلاق ، غير أن العناية سبقت لهم أن يكونوا من أهل الجنة« ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ ».

ص 295

[سورة يونس (10) : آية 4]
إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (4)

[« إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ »]

« إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ »ما سمي الخلق خلقا إلا بما يخلق منه ، فالخلق جديد ، وفيه حقيقة اختلاق ، لأنك تنظر إليه من وجه فتقول :هو حق ، وتنظر إليه من وجه فتقول : هو خلق ، وهو في نفسه لا حق ولا غير حق ، فإطلاق الحق عليه والخلق كأنه اختلاق ، فغلب عليه هذا الحكم فسمي خلقا ، وانفرد الحق باسم الحق« ثُمَّ يُعِيدُهُ »الإعادة تكرار الأمثال أو العين في الوجود ، وذلك جائز وليس بواقع ، أعني تكرار العين ، للاتساع الإلهي ، ولكن الإنسان في لبس من خلق جديد ، فهي أمثال يعسر الفصل فيها لقوة الشبه ، فالإعادة إنما هي في الحكم ، مثل السلطان يولي واليا ثم يعزله ، ثم يوليه بعد عزله ، فالإعادة في الولاية ، والولاية نسبة لا عين وجودي ، ألا ترى الإعادة يوم القيامة إنما هي في التدبير ، فإن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قد ميّز بين نشأة الدنيا والنشأة الآخرة ، والروح المدبّر لنشأة الدنيا عاد إلى تدبير نشأة الآخرة ، فهي إعادة حكم ونسبة لا إعادة عين فقدت ثم وجدت ، فالأعيان التي هي الجواهر ما فقدت من الوجود حتى تعاد إليه ، بل لم تزل موجودة العين ، ولا إعادة لموجود في الوجود فإنه موجود ، وإنما هي هيئات وامتزاجات نسبية ، فلا إعادة في الكون ، وإنما الإعادة في نشء الآخرة إعادة حكم إلهي في حق أمر مخصوص ، بمنزلة من خرج من دار ثم عاد إليها ، فالدار الدار والخارج الداخل ، وما ثمّ إلا انتقال في أحوال لا ظهور أعيان ، مع صحة إطلاقها أن الخارج من الدار عاد إلى داره .

[سورة يونس (10) : آية 5]
هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(5)

ص 296

"هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً »تضيء كل ما أشرقت عليه ، فهي ضياء لوجود روح الحياة في العالم كله ، وجعلها الله ضياء يكشف به كل ما تنبسط عليه لمن كان له بصر ، فإن الكشف إنما يكون بضياء النور لا بالنور ، فإن النور ما له سوى تنفير الظلمة ، وبالضياء يقع الكشف ، فالضوء لا يكون معه حجاب عما يكشفه ، فجعل الله تعالى الشمس ضياء ، فهي ضياء بالجعل نور بالذات ، كما جعل « الْقَمَرَ نُوراً »فهو نور بالجعل وهو بالذات محو»

وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ »« والقمر » ولم يسمه بدرا ولا هلالا ، فإنه في هاتين الحالتين ما له سوى منزلة واحدة ، بل اثنتين ، فلا يصدق قوله« مَنازِلَ »إلا في القمر ، فللقمر درج التداني والتدلي ، وله الأخذ بالزيادة والنقص ، فهو يتغير في أحواله نورا« وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ »

مقادير التقسيم التي في فلك البروج عيّنها الحق تعالى لنا ، إذ لم يميزه البصر بهذه المنازل المعينة في الفلك المكوكب ، واسمه فلك المنازل ،

وهو من تقدير العزيز العليم ، وجعلها ثماني وعشرين منزلة ، مقسمة على اثني عشر برجا ، فكل برج منزلتان وثلث ،

والقمر أحد السبعة ، الجواري السبع التي في السماوات السبع ، والتي تقطع في فلك البروج بين سريع وبطيء ، ويوم كل كوكب منها بقدر قطعه فلك البروج ،

وأسرعها قطعا القمر ، فإن يومه ثمانية وعشرون يوما من أيام الدورة الكبرى التي تقدر بها هذه الأيام ، وهي الأيام المعهودة عند الناس ، فأقصر أيام الكواكب يوم القمر ،

ومقداره ثمانية وعشرون يوما مما تعدون ، واعلم أن أصغر الأيام هي التي نعدها حركة الفلك المحيط ، الذي يظهر في يومه الليل والنهار ، فأقصر يوم عند العرب وهو هذا ، لأكبر فلك ، وذلك لحكمه على ما في جوفه من الأفلاك ، إذ كانت حركة ما دونه في الليل والنهار حركة قسرية له ، قهر بها سائر الأفلاك التي يحيط بها ، ولكل فلك حركة طبيعية تكون له مع الحركة القسرية ، فكل فلك دونه ذو حركتين في وقت واحد ، حركة طبيعية وحركة قسرية ، ولكل حركة طبيعية في كل فلك يوم مخصوص ، يعدّ مقداره بالأيام الحادثة عن الفلك المحيط ، المعبر عنه بقوله تعالى :(مِمَّا تَعُدُّونَ) *وكلها تقطع في الفلك المحيط ، فكلما قطعته على الكمال كان يوما لها ، ويدور الدور ، فأصغر الأيام منها هو ثمانية وعشرون يوما مما تعدون ، وهو مقدار قطع حركة القمر في الفلك المحيط ،

ونصب الله هذه الكواكب السبعة في السماوات ليدرك البصر قطع فلكها في الفلك المحيط لنعلم عدد السنين والحساب ، فلكل كوكب منها يوم

ص 297

مقدّر ، يفضل بعضها على بعض ، على قدر سرعة حركاتها الطبيعية أو صغر أفلاكها »لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِساب »بسير القمر في منازله والشمس فيها - فلك المنازل - راجع سورة يس آية - 39 –
« ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ».

[سورة يونس : (10) آية 6]
إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)
المتقي يتولى الله تعليمه فلا يدخل علمه شك ولا شبهة ، فهو صاحب بصيرة ، والمتفكر بين البصر والبصيرة ، لم يبق مع البصر ولا يخلص للبصيرة ، فهو ناظر إلى قوة مخلوقة ، فيصيب ويخطئ ، وإذا أصاب يقبل دخول الشبهة عليه بالقوة التي أفادته الإصابة .

[سورة يونس (10) : الآيات 7 إلى 10]
إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (7) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (10)
[الحمد لله هو آخر دعوى السعداء]
الحمد لله هو آخر دعوى السعداء ، ويرجع الأمر على الابتداء ، وهكذا تكون الدرجات في الجنان ، والأحوال على ترتيب ما كان عليه الإنسان ، فالحمد لله تملأ الميزان ، وهي آخر موضوع ، ولا إله إلا الله تثبت الإيمان ، وهي أول مسموع ، فالحمد لله رب العالمين ، ونعمت العاقبة للمتقين ، فإن الحمد لله هو أول ما تكلم به أول إنسان في نشئه ، وهو آخر دعواهم ، فبدأ العالم بالثناء وختم بالثناء ، وذلك عند قول الله لأهل الجنة : رضائي عنكم

ص 298

فلا أسخط عليكم أبدا ، فالحمد للّه له التأخير في الأمور ، فهي تملأ الميزان ، فإن آخر ما يجعل في الميزان سبحان اللّه وبحمده ، فبها يمتلئ ، فالتحميد يأتي عقيب الأمور ،
ففي السراء يقال : (الحمد للّه المنعم المفضل)
وفي الضراء يقال : (الحمد للّه على كل حال) .

[سورة يونس (10) : الآيات 11 إلى 12]
وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (12)
فإن الإنسان لو نشأ على الخير والنعم طول عمره لم يعرف قدر ما هو فيه حتى يبتلى ، فإذا مسه الضر عرف قدر ما هو فيه من النعم والخيرات ، عند ذلك عرف قدر المنعم .

[سورة يونس (10) : آية 13]
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13)
اعلم أن اللّه ما ذكر أخبار القرون الماضية إلا لنكون على حذر من الأسباب التي أخذهم بها أخذته الرابية ، وبطش بهم البطش الشديد ، وأما الموت فأنفاس معدودة ، وآجال محدودة ، وليس الخوف إلا من أخذه وبطشه لا من لقائه ، فإن لقاءه يسر الولي ، والموت سبب اللقاء ، فهو أسنا تحفة يتحفها المؤمن ، فكيف به إذا كان عالما ، بخ على بخ

[سورة يونس (10) : الآيات 14 إلى 16]
ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ(16)

ص 299

" قُلْ "أمر من الحق تعالى إلى نبيه صلّى الله عليه وسلم ، فقال ،« لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ »ولكنه شاء فتلوته عليكم وأدراكم به ، يقول : فهمكم إياه فعلمتم أنه الحق .

[سورة يونس : (10)الآيات 17 إلى 18]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18)

[للمشرك ضرب من التوحيد]

إن للمشرك ضربا من التوحيد ، أعني توحيد المرتبة الإلهية العظمى ، فإن المشرك جعل الشريك شفيعا عند الله ، فوحد هذا المشرك الله في عظمته ، ليست للشريك عنده هذه الرتبة ، إذ لو كانت له ما اتخذه شفيعا ، والشفيع لا يكون حاكما ، فلهم رائحة من التوحيد ، وإن لم يخرجوا من النار لا يبعد أن يجعل الله لهم فيها نوعا من النعيم في الأسباب المقرون بها الآلام .

[سورة يونس (10) : الآيات 19 إلى 22]

وَما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) وَيَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20) وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (21) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(22)

ص 300

ما قدم تعالى البر على البحر وتهمم بتقديمه إلا ليعلم أنه من قدر على البر لا يسافر في البحر إلا من ضرورة ، فلو لا أن للّه فيه سرا ما قدمه وما أخر البحر ، إلا إذا لم يجد المسافر سبيلا إلى البر ، فإنه من التزم تقديم ما قدم اللّه رأى خيرا في حركاته ، وكان عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يقول : لولا هذه الآية ثم يتلو« هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »لضربت بالدرة من سافر في البحر .

ولو لم يكن في الإشارة إلى ترك السفر إلا قوله في ذلك (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) *

لكانت هذه الآية كافية« حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ "بالأخذ ، من أحاط بهم العدو ، فلا يجدون مفلتا ولا منفذا"

دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »عندما رأوا آيات اللّه غير المعتادة تنبهوا من غفلتهم ، فدعوا اللّه مخلصين له الدين« لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ »الآية ، وهو ما وقع بهم من العذاب والهلاك »لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ».

[سورة يونس (10) : آية 23]

فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)

« فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ »فعادوا إلى شركهم وبغيهم بعد إخلاصهم للّه »يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا »وهكذا يقولون في

ص 301

النار(يا لَيْتَنا نُرَدُّ) يقول تعالى(وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا) كما عاد أصحاب الفلك إلى شركهم وبغيهم بعد إخلاصهم لله« ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ».

[سورة يونس (10) : آية 24]
إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)
« كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »فيما أخفاه الله من غامض حكمته في أحكامه ، واعلم أن الله تعالى أعطانا قوة الفكر لننظر بها فيما يعرفنا بأنفسنا وبه ، ولننظر بها في الآيات في الآفاق وفي أنفسنا ليتبين لنا بذلك أنه الحق ، واختلفت الأمزجة والأمشاج ، فاختلفت المقالات في الله اختلافا كثيرا من قوة واحدة وهي الفكر ، وما جعل الله تعالى الفكر إلا ليعلم أنه لا يعلم أمر من الأمور إلا بالله ، لا ليعلم العقل الله تعالى به ، فيكون طلسما على العقول .

[سورة يونس (10) : آية 25]
وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (25)
« وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ »فإن الله تعالى الهادي إليها ، والسلام اسمه تعالى ، والعارفون لا يزالون يسمعون دعاء الحق في قلوبهم مع أنفاسهم ؛ فهم ينتقلون من حال إلى حال بحسب ما يدعوهم إليه الحق ، وهكذا المؤمنون الصادقون في الدنيا ، بما دعاهم الشرع إليه في جميع أفعالهم ، وإجابتهم هي العاصمة لهم من وقوعهم في محظور ، فهم ينتقلون من حال إلى حال لدعاء ربهم إياهم ، فهو داع أبدا ، والعارف غير محجوب السمع فهو مجيب أبدا ، جعلنا الله ممن شق سمعه دعاء ربه ، وشق بصره لمشاهدة تجليه ، فالتجلي لا ينقطع ، فشهود الحق ما لا يرتفع ، فدوام لدوام ، واهتمام لاهتمام.

ص 302

[سورة يونس (10) : آية 26]
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ(26)

" لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا »بالأعمال« الْحُسْنى »بما لهم من الأجور ، بل بما للأعمال من الأجور ، فمعيّن لمعيّن ، وهو الحد ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف " فللذين أحسنوا الحسنى » جزاء ، وزاد غير معيّن فقال: " وَزِيادَةٌ "
وهو قوله تعالى :(وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) وهو ما جاوز الحد ، فزيادة الإحسان بعد العدل ، وهو الفضل ما زاد على المثل ، وهو ما لم يخطر بالبال ،
قال صلّى الله عليه وسلم : [إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر] فلا بد أن يكون غير معلوم للبشر.

[سورة يونس (10) : الآيات 27 إلى 32]
وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (27) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (29) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (30) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (31)
فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(32)

ص 303

" فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ »فهذا توحيد أشار به الحق ، يدل عليه إما العقل السليم أو الشرع المعصوم ، فإذا لم يكن حقا« فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ »وليس إلا الخلق ، والضلال حيرة ، فالحق الوجود والضلال الحيرة ، وبالخلق ظهر حكم الضلال ، ففي الخلق تاه الخلق ، »فَأَنَّى تُصْرَفُونَ »أي كيف تصرفون عن معرفة هذه الحقائق ، ومن صرف عن الحق أين يذهب ؟ فما عدا هذين القرينين العقل والشرع ، يقول بخلاف ذلك ويصرف الألوهية إلى ما يراه .

[سورة يونس (10) : آية 33]
كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (33)
فمن حقت عليه كلمة الله بأمر فإنه يعمل في غير معمل ، ويطمع في غير مطمع .

[سورة يونس (10) : آية 34]
قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(34)
[قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ]
البدء افتتاح وجود الممكنات على التتالي والتتابع ، لكون الذات الموجدة له اقتضت ذلك من غير تقييد بزمان ، إذ الزمان من جملة الممكنات الجسمانية ، فكان في مقابلة وجود الحق أعيان ثابتة موصوفة بالعدم أزلا ، وهو الكون الذي لا شيء مع الله فيه ، إلا أن وجوده أفاض على هذه الأعيان على حسب ما اقتضته استعداداتها ، فتكونت لأعيانها لا له من غير بينية تعقل أو تتوهّم ، وسبب عزة ذلك ، الجهل بذات الحق ، وكان البدء عن نسبة أمر فيه رائحة جبر ، إذ الخطاب لا يقع إلا على عين ثابتة معدومة ، عاقلة سميعة عالمة بما تسمع ، بسمع ما هو سمع وجود ولا عقل وجود ولا علم وجود ، فالبدء حالة مستصحبة قائمة لا تنقطع ، فإن معطي الوجود لا يقيده ترتيب الممكنات ، فالنسبة منه واحدة ، فالبدء ما زال ولا يزال ، فكل شيء من الممكنات له عين الأولية في البدء ، ثم إذا نسبت الممكنات بعضها إلى بعض ، تعيّن التقدم والتأخر ، لا بالنسبة إليه سبحانه.

ص 304

[سورة يونس (10) : الآيات 35 إلى 36]

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (36)

اعلم أنه من أقام في نفسه معبودا يعبده على الظن لا على القطع ، خانه ذلك الظن وما أغنى عنه من اللّه شيئا .

[سورة يونس (10) : الآيات 37 إلى 42]

وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39)وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (42).

حقيقة السمع الفهم عن اللّه فيما يتلوه عليك سبحانه وتعالى ، لتعقل عنه إن كنت عالما ، والصمم آفة تمنع من إدراك تلاوة الحق عليك من القرآن ومن خارج.

ص 305

[سورة يونس (10) : الآيات 43 إلى 44]
وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

« إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً »كلمة تحقيق ، فإن الناس لا يملكون شيئا حتى يكون من يأخذ منهم بغير وجه حق غاصبا ، فكل ما يقال فيه إنه ملك لهم فهو ملك الله ، ومن ذلك أعمالهم« وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »فكنى سبحانه عن نفسه « بأنفسهم » لما وقع الظلم في العالم ، فلو كان ما عند الناس ملكا لهم ما حجر الله عليهم التصرف فيه ، ولا حدّ لهم فيه حدودا متنوعة ، فهذا يدلك على أن أفعال المكلّف ما هي له إنما هي لله ، فالظلم على الحقيقة في الناس دعواهم فيما ليس لهم أنه لهم ، فما عاقبهم الله إلا على دعواهم الكاذبة .

[سورة يونس (10) : الآيات 45 إلى 47]
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (45) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (46) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (47)
قال تعالى :« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ »وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم في الكلاب : إنها أمة من الأمم ، فما من شيء في الوجود إلا وهو أمة من الأمم ، فالطفل الرضيع وجميع الحيوان لهم تكليف إلهي برسول منهم في ذواتهم ، لا يشعر به ، وإن الصغير إذا كبر وكلف لا يشعر ولا يتذكر تكليفه في حال صغره ، لما يقوم به من الآلام وبالحيوان ، فإنه تعالى لا يعذب ابتداء ، ولكن يعذب جزاء ، فإن الرحمة لا تقتضي في العذاب إلا الجزاء للتطهير ، ولولا التطهير ما وقع العذاب ، فعمّت الرسالة الإلهية جميع الأمم صغيرهم وكبيرهم ، فما من أمة إلا وهي تحت خطاب إلهي على لسان نذير بعث إليها منها ، ليعلمها ما هو الأمر عليه الذي

ص 306

خلقوا له ، ويعلمهم بما للحق عليهم أن يفعلوه ، وما لهم إذا فعلوا ذلك من الخير عند الله في الدار الآخرة ، وما ذا عليهم إذا لم يفعلوا من العقوبة عند الله في الدار الدنيا إذا علم ولاة أمورهم بذلك وفي الآخرة .

[سورة يونس : (10) الآيات 48 إلى 49]
وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (49)

[جميع أنواع المخلوقات]
جميع أنواع المخلوقات في الدنيا أمم لها أجل بين بدء وختام « فإذا جاء أجلهم » وهو انتهاء مدة الأجل« فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ».

[سورة يونس (10) : الآيات 50 إلى 56]
قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (54) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56)

ص 307

[الموت والحياة]
سمي الحق محييا لكون حياة الأشياء من فيض اسم الحي كنور الشمس من الشمس المنبسط على الأماكن ، ولم تغب الأشياء عنه لا في حال ثبوتها ولا في حال وجودها ، فالحياة لها في الحالتين مستصحبة ، فهو يحيي ويميت ، وليس الموت بإزالة الحياة منه في نفس الأمر ، ولكن الموت عزل الوالي وتولية وال ، لأنه لا يمكن أن يبقى العالم بلا وال يحفظ عليه مصالحه لئلا يفسد ، فالموت عبارة عن انتقال وعزل ، ألا ترى إلى الميت يسأل ويجيب إيمانا وحقيقة ، وأنت تحكم عليه في هذه الحال عينا أنه ميت ، وما أزال عنه اسم الموت السؤال ، فلو لا أنه حي في حال موته ما سئل ، فليس الموت بضد للحياة ، فبالحياة يسبح كل شيء ، والميت مسبح حيث أنه شيء ، فالموت عبارة عن الانتقال من منزل الدنيا إلى منزل الآخرة ، ما هو عبارة عن إزالة الحياة منه في نفس الأمر ، وإنما الله أخذ بأبصارنا فلا ندرك حياته ، فالميت ينتقل وحياته باقية عليه لا تزول ، وإنما يزول الوالي وهو الروح عن هذا الملك الذي وكّله الله بتدبيره أيام ولايته عليه ، والميت عندنا يعلم من نفسه أنه حي ، وإنما تحكم عليه بأنه ليس بحي لوقوفك مع بصرك ومع حكمك في حاله قبل اتصافه بالموت ، من حركة ونطق وتصرف وقد أصبح متصرفا فيه ، فالموت انتقال خاص على وجه مخصوص .

[سورة يونس (10) : آية 57]
يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57)
الشفاء زوال العلة ووجود الراحة بانتقالها .

[سورة يونس (10) : آية 58]
قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)
« قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ »وفضل الله لا انقطاع له لأنه خارج عن الجزاء الوفاق« وَبِرَحْمَتِهِ »ورحمة الله لا تخص محلا من محل ، ولا دارا من دار ، بل وسعت كل شيء ، فدار الرحمة هي دار الوجود« فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا »أعني بفضل الله ورحمته ، لأن المآل رحمة مطلقة عامة ، فإنه خير مما يجمعون فيفرحون به ، ولا يفرح عاقل إلا بثابت لا بزائل ، فأمر الله عباده أن يفرحوا بفضله وبرحمته لا بما يجمعه من المال ، فإنه يتركه بالموت في الدنيا ولا يقدمه ، فأمرك بالفرح بالفضل ، والفضل ما زاد ، فاحمد الله حيث جعلك محلا لفضله ورحمته ، فافرح

ص 308

لأمره إياك بالفرح تجن ثمرة أداء الواجب في الفرح

[- تحقيق حزن القلب]

- تحقيق - ومن تحقق هذه الآية تراه أبدا حزين القلب ما دام في الدنيا إلى الموت ، وإن فتح له ما يقع له به الفرح فإنه يرى ما عليه من الشكر للّه فيما فتح له فيه ، فيعظم حزنه أشد مما كان فيه قبل الفتح ، ومن كان في مقام يريد أن يوفيه حقه لا يمكن أن يفرح إلا بعد أن لا يبقى عليه من حقه شيء ، ولا يزال هذا الحق المعيّن على المكلف المبشر بفضل الله ورحمته عليه إلى آخر نفس يكون عليه في الدنيا ، فإنه لا يفرح إلا عند خروجه ، فإنه لا يسقط عنه التكليف إلا بعد رحلته من دار التكليف ، وهي الدار الدنيا .

[سورة يونس : (10)الآيات 59 إلى 61]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (60) وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (61)

« وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ »والشأن ليس لي ، فإن الشأن الظاهر في وجودي إنما هو للّه ، وهو قوله :(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)« وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ »فالله شهيد على ما يخلق منا وفينا« وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ »فإنه يعلمها ويراها« إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ »فمن تحقق بهذه الآية كان رقيبا على نفسه وعلى آثار ربه فيما يورده على قلبه ، وعلى موازنة الحق المشروع في عباد الله ، فالعالم الناصح نفسه لا ينسى الله في شؤونه ، ويكون مراقبا له تعالى عند شهوده ، فإن العالم بإنزال الشرائع يعرف ما خاطب الحق منه

ص 309

في نظره إليه ، فإن الأحوال تطلب الأحكام المنزلة في الدنيا ، لهذا نزلت الشرائع على الأحوال والمخاطبون أصحابها .

[سورة يونس (10) : آية 62]
أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

"لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ » مطلقا ، فإن الله تعالى لم يقل في الآخرة ، فالولي من كان على بينة من ربه في حاله ، فعرف مآله بإخبار الحق إياه على الوجه الذي يقع به التصديق عنده ، وبشارته حق وقوله صدق وحكمه ، فالقطع حاصل ، فالمراد بالولي من حصلت له البشرى من الله كما قال تعالى ، وأي خوف وحزن يبقى مع البشرى بالخبر الذي لا يدخله تأويل ، فهذا هو الذي أريد بالولي في هذه الآية ، واعلم أن النبوة اختصاص من الله يختص بها من يشاء من عباده ، وقد أغلق ذلك الباب وختم برسول الله محمد صلّى الله عليه وسلم ، والولاية مكتسبة إلى يوم القيامة ، فمن تعمل في تحصيلها حصلت له ، والتعمل في تحصيلها اختصاص من الله ، يختص برحمته من يشاء ، فالأولياء هم ولاة الحق على عباده ، والخواص منهم الأكابر يقال لهم رسل وأنبياء ، ومن نزل عنهم بقي عليه اسم الولاية ، فالولاية الفلك المحيط الجامع للكل ، وأما صفتهم فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم وقد قيل له : يا رسول الله من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ فقال : الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، واهتموا بآجل الدنيا حين اهتم الناس بعاجلها ، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم ، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم ، فما عرضهم من نائلها عارض إلا رفضوه ، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه ، خلقت الدنيا عندهم فما يجددونها ، وخربت بيوتهم فما يعمرونها ، وماتت في صدورهم فما يحيونها ، بل يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ، ويبيعونها فيشترون بها ما بقي لهم ، ونظروا إلى أهلها صرعى قد حلّت بهم المثلات ، فما يرون أمانا دون ما يرجون ، ولا خوفا دون ما يحذرون - رقيقة - اعلم أنه على قدر ما يخرج به العبد من عبوديته ينقصه من تقريبه من سيده ، لأنه يزاحمه في أسمائه ، وأقل المزاحمة الاسمية ، والولي من أسمائه سبحانه ، فالذي ينبغي للعبد أن لا يزيد على هذا الاسم غيره ، فإن أطلق الله ألسنة الخلق عليه بأنه ولي لله ورأى أن الله قد أطلق عليه اسما أطلقه تعالى على نفسه فلا يسمعه ممن يسميه به إلا على أنه بمعنى المفعول لا معنى الفاعل ، حتى يشم فيه

ص 310

رائحة العبودية ، فإن بنية فعيل قد تكون بمعنى الفاعل ، والاسم الولي الذي قد تسمى به الله بمعنى الفاعل ، فينبغي أن لا ينطلق ذلك الاسم على العبد ، وإن أطلقه الحق عليه فذلك إليه تعالى ، ويلزم الإنسان عبوديته وما يختص به من الأسماء التي لا تنطلق قط على الحق لفظا .

[سورة يونس (10) : آية 63]
الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (63)
الإيمان لا يكون إلا بعد سماع الخبر وعقله ، وقلنا إن الولاية مكتسبة والتعمل في تحصيلها اختصاص ، فمنهم من تحصل له الولاية بالصدقة والقرض الحسن وصلة الرحم ، ومن الناس من تحصل له بمراقبة الله والمبادرة لأوامره التي ندب إليها لا التي افترضها عليه ، وهو قوله :
]ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا [
ومن الناس من تحصل له بالمسارعة إلى ما أوجب الله عليه من الطاعات وافترضها عليه ، فأخذ أوامره على الوجوب ولم يتأول عليه كلامه ولا أمره .

[سورة يونس (10) : آية 64]
لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64)
[البشرى في الحياة الدنيا]
« الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرى »جعل الله تعالى البشرى للمؤمنين العاملين بما آمنوا به ، فإن النبي صلّى الله عليه وسلم سئل عن الإيمان فقال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن يؤدوا الخمس من المغنم ، ونهاهم عن الدّباء والحنتم ، والمزفت والنقير ،
وقال : احفظوه وأخبروا به من وراءكم - ففسر الإيمان بالأفعال ، وهو الذي أراد بالمؤمنين هنا ، زيادة على التصديق ، لأن البشرى الواردة في القرآن للمؤمنين مقرونة بالأعمال الصالحة ،
قال تعالى :(الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ)فما بشر إلا العاملين بما آمنوا به ، فقوله تعالى :(لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ) جزاء ، مؤكدا لبشراهم بإجابة داعي الحق بالعبادات ، وقوله تعالى :« لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا »هذا عموم الدنيا ، فما ينقلب أحد من أهل السعادة إلى الآخرة حتى يبشر في الدنيا

ص 311

ولو بنفس واحد ، فيحصل المقصود ، وقد علمنا في الدنيا بإعلام الله أن الرسل والأنبياء ومن عينته الرسل بالبشرى أنه سعيد ، فبشارة الحق لا يدخلها نسخ ، فيؤمن بوجودها المكر إذا كانت نصا ، وقد بشّر النبي صلّى الله عليه وسلم جماعة بالجنة وعاشوا بعد ذلك زمانا طويلا ، فهذه صورة للبشرى بخلاف بشرى المحتضر ، ومثل قوله تعالى :(ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) فكان تعريف الحق إيّانا بما قاله رسوله بشرى من الله لنا في الحياة الدنيا ، وللعارفين مقام الآخرة في الدنيا فلهم الكشف والمشاهدة ، وهما أمران يعطيهما عين اليقين ، وهو أتم مدارك العلم ، فالعلم الحاصل عن العين له أعظم اللذات في المعلومات المستلذة ، فهم في الآخرة حكما وفي الدنيا حسا ، وهم في الآخرة مكانة وفي الدنيا مكانا « وَفِي الْآخِرَةِ »من القبر إلى الجنة ، وما بينهما منازل الآخرة ، فهو نعيم متصل ، ولما كانت البشرى من كلمات الله قال تعالى :« لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ »
هو قوله تعالى :(ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) أي قولنا واحد لا يقبل التبديل .

[سورة يونس : (10) آية 65]
وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65)
فعزته تعالى مانعة من الوصول إلى علم الأمر على ما هو عليه في نفسه .

[سورة يونس (10) : الآيات 66 إلى 67]
أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (66) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)
« إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ »وهم أهل الفهم عن الله ، وقد حصرت الآيات في السمع والبصر ، فإما شهود وإما خبر ، وعلامة السامعين المحققين في سماعهم ، انقيادهم إلى كل عمل مقرب إلى الله تعالى من جهة سماعه ، أعني من التكليفات المتوجهة على الأذن من أمر ونهي ، كسماعه العلم والذكر والثناء على الحق تعالى والموعظة الحسنة والقول

ص 312

الحسن ، ومن علامته أيضا التصامم عن الغيبة والنميمة والبهتان والسوء من القول كالخوض في آيات الله تعالى .

[سورة يونس (10) : الآيات 68 إلى 72]

قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (69) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72)

[سؤال الرسل الأجر من الله]

الرسل قاطبة وهم الكمل بلا خلاف ، تقول :« إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ »فإن المقام يعطي الأجر ولا بد ، فإن مقام الدعوة إلى الله يقتضي الأجرة ، فما من نبي دعا قومه إلا قيل له : « قل ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على الله » فأثبت الأجرة على دعائه ، وسألها من الله لا من المدعو ، حتى إن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ما سأل منا في الأجر على تبليغ الدعاء إلا المودة في القربى ، وهو حب أهل البيت وقرابته صلّى الله عليه وسلم ، وأن يكرموا من أجله ، كانوا ما كانوا ،

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله] في حديث الذي رقى اللديغ بفاتحة الكتاب واستراح ،

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [اضربوا لي فيها بسهم] يعني في الغنم التي أخذوها أجرا على ذلك ، فالإنسان الداعي بوعظه وتذكيره عباد الله إن

ص 313

أخذ أجرا فله ذلك ، فإنه في عمل يقتضي الأجر بشهادة كل رسول ، وإن ترك أخذه من الناس وسأله من الله فله ذلك ، وسبب ترك الرسل لذلك وسؤالهم من الله الأجر ، كون الله هو الذي استعملهم في التبليغ ، فكان الأجر عليه تعالى لا على المدعو ، وإنما أخذ الراقي الأجر من اللديغ لأن اللديغ استعمله في ذلك ، ولذلك قال النبي صلّى الله عليه وسلم : [اضربوا لي بسهم] لأن الرسول عليه السلام هو الذي أفاد الراقي ما رقى به ذلك اللديغ ، واعلم أن هذا الأجر أجر تفضل إلهي ، عيّنه السيد لعبده ، فإن العبد لا ينبغي له استحقاق الأجر على سيده فيما يستعمله فيه ، فإنه ملكه وعين ماله ، ولكن تفضل سيده عليه بأن عيّن له على عمله أجرا ، فأنت العبد في صورة الأجير ، وما هو أجر الأجير ، فإن الأجير من استؤجر ، فهذا أجنبي ، والسيد لا يستأجر عبده ، لكن العمل يقتضي الأجرة ولا يأخذها ، وإنما يأخذها العامل ، والعامل العبد ، فهو قابض الأجرة من الله ، فأشبه الأجير في قبض الأجرة وفارقه بالاستئجار - راجع سورة هود آية 29 .

[سورة يونس (10) : الآيات 73 إلى 90]

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قالَ مُوسى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (78) وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82) فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) وَقالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (86) وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (88) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (89) وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(90)

ص 314

[إيمان فرعون]
لما علم فرعون الحق ، وأثبت في كلامه بأن موسى عليه السلام مرسل بقوله): إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)فإنه ما جاء من نفسه ، لأنه دعا إلى غيره ، فبقيت

315

تلك الخميرة عند فرعون تختمر بها عجين طينته ، وما ظهر حكمها ولا اختمر عجينه إلا في الوقت الذي قال فيه :« آمَنْتُ »فتلفظ باعتقاده الذي معه« أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ »وما سمى الله ، ليرفع اللبس والشك ، إذ قد علم الحاضرون أن بني إسرائيل ما آمنت إلا بالإله الذي جاء موسى وهارون من عنده إليهم ،
فلو قال : « آمنت بالله » وهو قد قرر أنه ما علم لقومه من إله غيره ،
لقالوا : لنفسه شهد لا للذي أرسل موسى إلينا ، كما شهد الله لنفسه ، فرفع هذا اللبس بما قاله ، عند ذلك أخذ جبريل حال البحر فألقمه في فم فرعون حتى لا يتلفظ بالتوحيد ، ويسابقه مسابقة غيره على جناب الحق ، مع علمه بأنه علم أنه لا إله إلا الله ، وغلبه فرعون ،
فإنه قال كلمة التوحيد بلسانه كما أخبر الله تعالى عنه في كتابه العزيز ، فجاء فرعون باسم الصلة وهو« الَّذِي »ليرفع اللبس عند السامعين ولرفع الإشكال عند الأشكال ،
وهذا هو التوحيد الثاني عشر في القرآن ، وهو توحيد الاستغاثة ، وهو توحيد الصلة ، فإنه جاء بالذي في هذا التوحيد ، وهو من الأسماء الموصولة ، وقدم الهوية في قوله : أنه » ليعيد ضمير به » عليه ، ليلحق بتوحيد الهوية ،
ثم تمم وقال :« وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » خطاب منه للحق ، لعلمه بأنه تعالى يسمعه ويراه قال ذلك لما علم أن الإله هو الذي ينقاد إليه ولا ينقاد هو لأحد ، أعلم بذلك فرعون ، ليعلم قومه برجوعه عما كان ادعاه فيهم من أنه ربهم الأعلى ، فأمره إلى الله ، فإنه آمن عند رؤية البأس ، وما نفع مثل ذلك الإيمان فرفع عنه عذاب الدنيا ، إلا قوم يونس ، ولم يتعرض للآخرة ، ثم إن الله صدّقه في إيمانه بقوله :

[سورة يونس (10) : آية 91]
آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)

قال تعالى لفرعون :« آلْآنَ »قلت ذلك ، فأثبت الله بقوله :« آلْآنَ »أنه آمن عن علم محقق والله أعلم وإن كان الأمر فيه احتمال ، فدل على إخلاصه في إيمانه ، ولو لم يكن مخلصا لقال فيه تعالى كما قال في الأعراب الذين قالوا :(آمَنَّا) (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ)فشهد الله لفرعون بالإيمان ، وما كان الله ليشهد لأحد بالصدق في توحيده إلا ويجازيه به ، وبعد إيمانه فما عصى ، فقبله الله إن كان قبله طاهرا ، والكافر إذا أسلم وجب عليه أن يغتسل ، فكان غرقه غسلا له وتطهيرا ، حيث

ص 316

أخذه الله في تلك الحال نكال الآخرة والأولى ، وجعل ذلك عبرة لمن يخشى ، وما أشبه إيمانه إيمان من غرغر ، فإن المغرغر موقن بأنه مفارق ، قاطع بذلك ، وهذا الغرق هنا لم يكن كذلك ، لأنه رأى البحر يبسا في حق المؤمنين ، فعلم أن ذلك لهم بإيمانهم ، فما أيقن بالموت ، بل غلب على ظنه الحياة ، فليس منزلته منزلة من حضره الموت فقال :(إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)ولا هو من الذين يموتون وهم كفار فأمره إلى الله تعالى .

[سورة يونس (10) : آية 92]
فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (92)
[كان حكم آل فرعون في نفس الأمر خلاف حكم فرعون في نفسه]
كان حكم آل فرعون في نفس الأمر خلاف حكم فرعون في نفسه ، فإنه علم صدق موسى عليه السلام ، وعلم حكم الله في ظاهره بما صدر منه ، وحكم الله في باطنه بما كان يعتقده من صدق موسى فيما دعاهم إليه ، وكان ظهور إيمانه المقرر في باطنه عند الله مخصوصا بزمان مؤقت ، لا يكون إلا فيه ، وبحالة خاصة ، فظهر بالإيمان لما جاء زمانه وحاله ، فغرق قومه آية ، ونجاة فرعون ببدنه دون قومه عند ظهور إيمانه آية ، فمن رحمة الله بعباده أن قال« فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ »
يعني دون قومك" لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً "
أي علامة لمن آمن بالله أي ينجيه الله ببدنه أي بظاهره ، فإن باطنه لم يزل محفوظا بالنجاة من الشرك ، لأن العلم أقوى الموانع ، فسوّى الله في الغرق بينهم ، وتفرقا في الحكم ، فجعلهم سلفا ومثلا للآخرين ، يعني الأمم الذين يأتون بعدهم ، وخص فرعون بأن تكون نجاته آية لمن رجع إلى الله بالنجاة ، فإن الحق خاطب فرعون بلسان العتب وأسمعه
(آلْآنَ »أظهرت ما قد كنت تعلمه(وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)
فهي كلمة بشرى لفرعون عرفنا الحق بها لنرجو رحمته مع إسرافنا وإجرامنا ، ثم قال: " فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ " فبشره قبل قبض روحه « بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً »
يعني لتكون النجاة لمن يأتي بعدك« آيَةً » علامة ،
إذا قال ما قلته تكون له النجاة مثل ما كانت لك ، وما في الآية أن بأس الآخرة لا يرتفع ولا أن إيمانه لم يقبل ، وإنما في الآية أن بأس الدنيا لا يرتفع عمن نزل به إذا آمن في حال رؤيته إلا قوم يونس ،
فقوله :« فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ »إذ العذاب لا يتعلق إلا بظاهرك ، وقد أريت الخلق نجاته من العذاب ، فكان

ص 317

ابتداء الغرق عذابا ، فصار الموت فيه شهادة خالصة بريئة لم تتخللها معصية ، فقبضت على أفضل عمل ، وهو التلفظ بالإيمان ، كل ذلك حتى لا يقنط أحد من رحمة الله ، والأعمال بالخواتيم ، فلم يزل الإيمان بالله يجول في باطن فرعون ، وجاء طوعا في إيمانه ، وما عاش بعد ذلك ، فقبض فرعون ولم يؤخر في أجله في حال إيمانه ، لئلا يرجع إلى ما كان عليه من الدعوى ، ثم قوله تعالى في تتميم قصته هذه« وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ »وقد أظهرت نجاتك آية أي علامة على حصول النجاة ، فغفل أكثر الناس عن هذه الآية وقضوا على المؤمن بالشقاء ، وأما قوله تعالى :(فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) فما فيه نص أنه يدخلها معهم ،
بل قال الله :(أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ)ولم يقل (أدخلوا فرعون وآله) ورحمة الله أوسع من حيث أن لا يقبل إيمان المضطر ، وأي اضطرار أعظم من اضطرار فرعون في حال الغرق ، والله يقول :(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)
فقرن للمضطر إذا دعاه الإجابة وكشف السوء عنه ، وهذا آمن لله خالصا ، وما دعاه في البقاء في الحياة الدنيا خوفا من العوارض ، أو يحال بينه وبين هذا الإخلاص الذي جاءه في هذه الحال ، فرجح جانب لقاء الله على البقاء بالتلفظ بالإيمان ، وجعل ذلك الغرق(نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى)فلم يكن عذابه أكثر من غم الماء الأجاج ، وقبضه على أحسن صفة هذا ما يعطي ظاهر اللفظ ، وهذا معنى قوله :(إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى)يعني في أخذه نكال الآخرة والأولى ، وقدم ذكر الآخرة وأخر الأولى ليعلم أن العذاب - أعني عذاب الغرق - هو نكال الآخرة ، فلذلك قدمها في الذكر على الأولى ، وهذا هو الفضل العظيم .

[سورة يونس (10) : الآيات 93 إلى 94]

وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93) فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(94)

ص 318

معلوم أنه صلّى اللّه عليه وسلم ليس في شك ، فالمقصود من هو في شك من الأمة ، فهو المخاطب والقصد أمته ، مثل قولهم : إياك أعني فاسمعي يا جارة .

[سورة يونس (10) : الآيات 95 إلى 98]

وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (95) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (97) فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (98)

إن الإنسان ولد على الفطرة ، وهي العلم بوجود الرب أنه ربنا ، ونحن عبيد له ، والإنسان لا يقبض حين يقبض إلا بعد كشف الغطاء ، فلا يقبض إلا مؤمنا ولا يحشر إلا مؤمنا ، غير أن اللّه تعالى لما قال :« فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا »فما آمنوا إلا ليندفع عنهم ذلك البأس ، فما اندفع عنهم ، وأخذهم اللّه بذلك البأس ، وما ذكر أنه لا ينفعهم في الآخرة ، ويؤيد ذلك قوله :« فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا »حين رأوا البأس« كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا »فهذا معنى قولنا :« فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ »في رفع البأس عنهم في الحياة الدنيا كما نفع قوم يونس ، فما تعرض إلى الآخرة ومع هذا فإن اللّه يقيم حدوده على عباده حيث شاء ومتى شاء ، فثبت أن انتقال الناس في الدارين في أحوالهم من نعيم إلى نعيم ، ومن عذاب إلى عذاب ، ومن عذاب إلى نعيم ، من غير مدة معلومة لنا ، فإن اللّه ما عرفنا ، إلا أنا استروحنا من قوله): فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)أن هذا القدر مدة إقامة الحدود ، ودلت هذه الآية على أن يونس عليه السلام كان محبوبا للّه ، حيث خص قومه من أجله بما لم يخص به أمة قبلها ، وعرفنا بذلك ، فعامل قوم يونس بما عاملهم به من كونه كشف عنهم العذاب بعد ما رأوه نازلا بهم ، فآمنوا ، أرضاه اللّه في أمته فنفعها إيمانها ، ولم يفعل ذلك مع أمة قبلها ، ومتعهم إلى حين فأمدّ لهم في التمتع في مقابلة ما نالوه من الألم عند رؤية العذاب ، فلما اشتد البلاء

ص 319

على قوم يونس وكانت اللحظة الزمانية عندهم في وقت رؤية العذاب كالسنة أو أطول ، ذكر أنه تعالى في مقابلة هذا الطول الذي وجدوه في نفوسهم أنه متعهم إلى حين ، فبقوا في نعيم الحياة الدنيا زمنا طويلا ، لم يكن يحصل لهم ذلك لولا هذا البلاء وقد قيل إن الحين الذي جعله غاية تمتعهم أنه القيامة والله أعلم .

[سورة يونس (10) : الآيات 99 إلى 109]

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (100) قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (101) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (106) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108)

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ(109)

ص 320

(11) سورة هود مكيّة

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : شيبتني هود وأخواتها من كل سورة فيها ذكر الاستقامة ، فإنه والمؤمنين مأمور بها والحكم للعلم الإلهي لا للأمر ، ولم يكن شيب رسول الله صلّى الله عليه وسلم بالكثير ، وإنما كان شعرات معدودة ، لم تبلغ العشرين متفرقة لعلمه بالأمر على ما هو عليه .

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[سورة هود (11) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1)

وقال تعالى : (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قرآنا عربيا لقوم يعقلون)

[إحكام الآيات]

إحكام الآيات فيه وتفصيلها ، لا يعرفه إلا من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وصورة الحكمة التي أعطاها الحكيم الخبير لأهل العناية على مراتب الأمور ، وما تستحقه الموجودات والمعلومات من الحق الذي هو لها ، وهو إعطاء كل شيء خلقه إعطاء إلهيا ليعطي كل خلق حقه إعطاء كونيا ، بما آتانا الله فنعلم بالقوة ما يستحقه كل موجود في الحدود ، ونفصله بعد ذلك آيات بالفعل لمن يعقل كما أعطاه الخبير الحكيم ، فننزل الأمور منازلها ، ونعطيها حقها ولا نتعدى بها مراتبها ، فتفصيل الآيات والدلالات من المفصّل إذا جعلها في أماكنها بهذا الشرط (لأنه ما كل مفصّل حكيم) دليل على أنّه قد أوتي الحكمة ، وعلم إحكام الآيات ورحمته بالآيات والموجودات التي هي الكتاب الإلهي ، وليس إلا العالم الذي هو كتاب مسطور في رق منشور ، وهو الوجود ، دليل على علمه بمن أنزله ، وليس إلا الرحمن الرحيم .

وخاتمة الأمر ليست سوى عين سوابقها ، وسوابقها الرحمن الرحيم ، فمن هنا تعلم مراتب العالم ومآله ، أنه إلى الرحمة المطلقة وإن تعب في الطريق ، وأدركه العناء والمشقة ، فمن

ص 321

الناس من ينال الرحمة والراحة بنفس ما يدخل المنزل الذي وصل إليه ، وهم أهل الجنة ومنهم من يبقى معه تعب الطريق ومشقته ونصبه بحسب مزاجه ، وربما مرض واعتل زمانا ثم انتقل من دائه ، واستراح وهم أهل النار الذين هم أهلها ، ما هم الذين خرجوا منها إلى الجنة فمستهم النار بقدر خطاياهم ، مع كونهم أماتهم الله فيها إماتة فإن أولئك ليست النار منزلا لهم يعمرونه ، ويقيمون فيه مع أهليهم ، وإنما النار لهؤلاء منهل من المناهل التي ينزلها المسافر في طريقه حتى يصل منزله الذي فيه أهله ، فهذا معنى الحكمة والتفصيل من لدن حكيم خبير لمن أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وليس إلا الرسل والورثة خاصة .

[سورة هود (11) : الآيات 2 إلى 3]
أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3)
قال الله تعالى لمحمد صلّى الله عليه وسلم ولكل رسول : أن يقول لنا »فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ «ولا خوف علينا إلا منا ، فإن أعمالنا ترد علينا .

[سورة هود (11) : آية 4]
إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4)
« إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ »جميعا يعني مرجع اليوم« وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ».

[سورة هود (11) : الآيات 5 إلى 6]
أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (5) وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ(6)

ص 322

فأعلم سبحانه الإنسان أنه يرزقه ولا بد سواء كان كافرا أو مؤمنا لكونه حيوانا ، ولكن ما قال له : متى ولا من أين ؟ فما عيّن الزمان ولا السبب ، بل أعلمه أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، لذلك اضطرب من اضطرب لبشريته وإحساسه بألم الفقد وعدم الصبر ، فإنه ما يدري عند فقد السبب المعتاد لحصول الرزق وعند وجوده ، هل فرغ وجاء أجله أم لا ، فيكون فزعه واضطرابه من الموت ، وإن كان لم يفرغ رزقه في علم الله ، فيكون اضطرابه لجهله بوقت حصول الرزق بانقطاع السبب ، لأنه علم أنّ الله بحكمته ربط المسببات بالأسباب ، فيخاف من طول المدة وألم الجوع المتوقع ، وهذا كله لضعف نفسه واضطراب إيمانه وركونه إلى الأسباب والاعتماد عليها ، كما يضطرب في صدق وعده تبارك وتعالى في الرزق مع قسمه سبحانه عليه لعباده فقال :(فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ).

[سورة هود : (11) آية 7]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ(7)

[» وَكانَ عَرْشُهُ «]

قال تعالى :« وَكانَ عَرْشُهُ »هذا العرش عرش الهوية ، فإنه تعالى أضافه إلى الهوية وهو عرش الحياة ، فأظهر الحياة فيكم ، ففلك الحياة اسم الأسماء ومقدمها وبه كانت« عَلَى الْماءِ »- الوجه الأول - على هنا بمعنى في ، أي : كان العرش في الماء كما أن الإنسان في الماء أي منه تكون ، فإن الماء أصل الموجودات كلها ، وهو عرش الحياة الإلهية ، ومن الماء خلق الله كل شيء حي ، وكل ما سوى الله حي ، فإن كل ما سوى الله مسبح بحمد الله ، ولا يكون التسبيح إلا من حي ، فالعرش هنا عبارة عن الملك ، وكان حرف وجودي فمعناه أن الملك موجود في الماء ، أي الماء أصل ظهور عينه ، فهو للملك كالهيولى ظهر فيه صور العالم الذي هو ملك الله - الوجه الثاني - كان أول اسم كتبه القلم الأسمى في اللوح المحفوظ المصون دون غيره من الأسماء إني أريد أن أخلق من أجلك يا محمد العالم الذي هو ملكك ،

ص 323

فأخلق جوهرة الماء ، فخلقتها دون حجاب العزة الأحمى ، وأنا على ما كنت عليه ولا شيء معي في عما ، فخلق الماء سبحانه بردة جامدة كالجوهرة في الاستدارة والبياض ، وأودع فيها بالقوة ذوات الأجسام وذوات الأعراض ، ثم خلق العرش واستوى عليه اسمه الرحمن ، ونصب الكرسي وتدلت إليه القدمان ، فنظر بعين الجلال إلى تلك الجوهرة فذابت حياء وتحلّلت أجزاؤها فسالت ماء ، وكان عرشه على ذلك الماء ، قبل وجود الأرض والسماء ، وليس في الوجود إذ ذاك إلا حقائق المستوى عليه والمستوي والاستواء ، فأرسل النفس فتموج الماء من زعزعه وأزبد ، وصوّت بحمد الحمد المحمود الحق عندما ضرب بساحل العرش ، فاهتز الساق وقال له : أنا أحمد ، فخجل الماء ورجع القهقرى يريد ثبجه ، وترك زبده بالساحل الذي أنتجه ، فهو مخضة ذلك الماء ، الحاوي على أكثر الأشياء ، فأنشأ سبحانه من ذلك الزبد الأرض ، مستديرة النشء مدحية الطول والعرض ، ثم أنشأ الدخان من نار احتكاك الأرض عند فتقها ، ففتق فيه السماوات العلى ، وجعلها محلّ الأنوار ومنازل الملأ الأعلى ، وقابل بنجومها المزينة لها النيرات ، ما زيّن به الأرض من أزهار ونبات« لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »لما كان العرش على الماء قبل الحياة بذاته فإن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي ، ولما كان الماء أصل الحياة وكل شيء حي ، قرن بين العرش المجعول على الماء وبين خلقه الموت والحياة في الابتلاء ، فقال :« وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ »أي يختبركم ، وقال :(خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ)فالحياة للأعيان ، والموت للنسب ، فظهور الروح للجسم حياة ذلك الجسم ، وغيبة الروح عن الجسم زوال الحياة من ذلك الجسم ، وهو الموت ، والابتلاء فتنة . فإبليس ما له نظر إلا في الأوضاع الإلهية الحقيقية ، فيقيم في الخيال أمثلتها ليقال : هي عينها فيغتر بها من نظر إليها ، وما ثمّ شيء كما فعل بابن صياد حيث وضع إبليس عرشه على الماء ، لما علم أن العرش الرحماني على الماء ، يلبّس بذلك على الناس أنه الله ،

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم لابن صياد : [ما ترى ؟ قال : أرى عرشا على البحر فقال : ذلك عرش إبليس]

فإن الله قد أعطى إبليس السلطنة على خيال الإنسان ، فيخيل إليه ما يشاء ، فإذا وضع عرشه على الماء ، بعث سراياه شرقا وغربا وجنوبا وشمالا إلى قلوب بني آدم ، إلى الكافر ليثبت على كفره وإلى المؤمن ليرجع عن إيمانه ، وأدناهم من إبليس منزلة أعظمهم فتنة ، فنعوذ بالله من الخذلان فقوله تعالى :" لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا "

ص 324

بالتكليف ، وجعل الحق الاختبار تمحيص عباده ، فكان ابتلاء مدرجا في نعمة ، أو نعمة مدرجة في ابتلاء ، مثل خلق الحياة والموت ، فأحسن المؤمنون فربحوا ، ولم يحسن الكفار فخسروا .

[- إشارة - بالماء حياة الأحياء]

-إشارة - بالماء حياة الأحياء ، لما فيه من سرّ الإحياء ، جعل اللّه من الماء كل شيء حي فكان عرشه على الماء ، قبل الاستواء ، ثم استوى عليه ، وأضاف ما أحاط به إليه ، فهو بكل شيء محيط من مركب وبسيط ، وعلم وجيز وبسيط ووسيط ، استوى عليه اسم الرحمن ، وعمّ حكمه الإنس والجان« وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ».

[سورة هود (11) : الآيات 8 إلى 13]

وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (8) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11) فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (13)

للقرآن سور هي منازله ، وله آيات هي دلائله ، وفيه كلمات هي صوره ، وله حروف هي جواهره ودرره ، فالحرف ظرف لمن هي منعوتة بقاصرة الطرف ، والكلمات في الكلام كالمقصورات في الخيام ، فلا تعجز لمفهوم الإشارات ، ولا تعجز عن مدلول العبارات ، فما وقع الإعجاز ، إلا بتقديسه عن المجاز ، فكلّه صدق ، ومدلول كلمه حق ، والأمر ما

ص 325

به خفاء ، وإن كان في نسبة المناسبة للطلب بالإتيان بسور مثله جفاء ، فما أرسل رسول إلا بلسان قومه فتأمل ، فللمنزل الأين ، وللمنزلة العين ، فالأمر والشان ، في المكانة والمكان ، والنازل من معناه في منزلته ، وفي منزله من حيث صورته .

[سورة هود (11) : آية 14]

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)

" فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا »يعني المدعوين« لَكُمْ »يعني الداعين »فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ »فالضمير في فاعلموا يعود على الداعين ، وهم عالمون بأنه انما أنزل بعلم الله ، ولو أراد المدعين لقال : فليعلموا بالياء كما قال : يستجيبوا بياء الغيبة ، ثم قال :« وَأَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ »أي واعلموا أنه لا إله إلا هو كما علمتم ، أنه أنّما أنزل بعلم الله ، ثم قال« فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »وقد كانوا مسلمين ، وهذا كله خطاب للداعين إن كانت هل على بابها ، وإن كانت مثل ما هي في قوله (هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ) اعتمادا على قرينة الحال فأخرجت عن الاستفهام ، وإلا فما هذا خطاب الداعين ، إلا أن يكون مثل قولهم : إياك أعني فاسمعي يا جارة .

وحكمة ذلك مقابلة الإعراض بالإعراض ، لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الداعين ، فأعرض الله عنهم ، بالخطاب ، والمراد به هم فأسمعهم في غيرهم ، وأما فائدة العلم في ذلك فهي أن تقول لما علم الله أن قوما لا يؤمنون ارتفعت الفائدة في خطابهم ، وكان خطابهم عبثا ، فأخبرهم الله تعالى أن نزول الخطاب بالدعوة لمن ليس يقبله في علم الله ، أنما نزل بعلم الله أي سبق في علم الله إنزاله فلا بد من إنزاله ، فكما هو واحد في ألوهيته ، هو واحد في أمره ، فما أنزل إلا بعلم الله سواء نفذ أو لم ينفذ .

[سورة هود (11) : آية 15]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (15)

اعلم أن الحياة الدنيا ليست غير نعيمها ، فمن فاته من نعيمها شيء فما وفيت له ، وقوله تعالى :« نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها »فوصف الله نفسه بأنّه يوفي كل أحد عمله أي أجرة عمله في الزمان الذي يريدها فيه ، وما ذكر الله إلا توفية العمل ، فهو نعيم العمل« وَهُمْ فِيها لا»

ص 326

يُبْخَسُونَ «لا يبخسه من ذلك شيئا ، فقد حبط عمله إن كانت إرادته الحياة الدنيا ، فلا حظّ له في الآخرة التي هي الجنة ، أو النعيم الذي ينتجه العمل لأنه قد استوفاه في الدنيا ، فإن كان العبد ممن يريد الحياة الدنيا ، ونقصه من ذلك نفس واحد ، لم ينعم به فليس هو ممن وفّى الله له فيها عمله ، لأنه ما مكنه من كل ما تعلقت به إرادته في الحياة الدنيا ، وهل يتصور وجود هذا مع قرصة البرغوث والعثرة المؤلمة في الطريق أو لا ؟ فالآية تتضمن الأمرين ، وهي في الواحد المحال وقوعه في الوجود أظهر ، فإنه بعيد أن لا يتألم أحد في الدنيا ، فمن أراد الحياة الدنيا فقد أراد المحال ، فلو صحّ أن يقع هذا المراد ، لكان إرادة ما يلائم طبعه ويحصل غرضه ، وهي الإرادة الطبيعية الأصلية ، فإن الله تعالى وصف نفسه بأنه لا يبخس أحدا في مراده ، كان المراد ما كان لكنه ليس بواقع ، وأما الأمر الآخر فإنه إذا تألم مثلا بقرصة البرغوث إلى ما فوق ذلك من أكبر أو أصغر ، فإن كان مؤمنا ، فله عليه ثواب في الآخرة ، فيكون لهذا المريد الحياة الدنيا ، يعطيه الله ذلك الثواب في الدنيا معجلا فينعم به ، وإن لم يكن مؤمنا بالدار الآخرة وفّاه الله ما يطلبه ذلك العمل في الحياة الدنيا ، وأما المؤمن فيعطيه نعيم العمل وصبره الذي ذكرناه على العثرة في محلّ التكليف وقرصة البرغوث ، فما أعطى الله أحدا الحياة الدنيا مخلصة قط ، ولا هو واقع ، ولو وقع له كل مراد ، لكان أسعد الخلق ، فإنه من إرادته النجاة والبشرى من الله تعالى له بها ، وإن لم يكن مؤمنا فما وقع المشروط وقوع عموم الشرط .

[سورة هود (11) : الآيات 16 إلى 17]

أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (16) أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ(17)

ص 327

اعلم أن بينة الله في عباده على قسمين : القسم الواحد هو البينة الحقيقية ،
[« أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ »]
وهو قوله تعالى :« أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ »يعني في نفسه ، والبينة هنا الهدى ، وأما من تقام له البينة في غيره فقد يمكن أن يقبلها ، ويمكن أن لا يقبلها والذي يقبلها إن قبلها تقليدا ، لم تكن في حقّه آية بينة ولا تنفعه ، وإنما يكون التقليد فيما يجيء به الرسول من الأحكام لا من البينات والشواهد على صدقه ، وإن لم يقبلها تقليدا ، فما قبلها إلا أن يكون هو على بينة من ربه في أن تلك آية بينة على صدق دعوى من ظهرت على يديه فيما ادعاه . واعلم أن الأمر الذي كنى عنه الحق ، بأنه بينة لك من عنده هو سفير من الله إلى قلبك من خفي غيوبه مختص بك من حضرة الخطاب الإلهي والتعريف من الله أنه من عنده ، ومن كان على بينة من ربه فقد سعد وارتفع الإشكال ، ولا بد للبينة التي يكون عليها أن تكون بينة له" وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ "
الشاهد حصول صورة المشهود في النفس عند الشهود ، فيعطي خلاف ما تعطيه الرؤية فإن الرؤية لا يتقدمها علم بالمرئي ، والشهود يتقدمه علم بالمشهود ، وهو المسمى بالعقائد ، ولهذا يقع الإقرار والإنكار في الشهود ، ولا يكون في الرؤية إلا الإقرار وليس فيها إنكار ، وإنما سمي شاهدا لأنه يشهد له ما رآه بصحة ما اعتقده ، فكل مشاهدة رؤية ، وما كل رؤية مشاهدة ، وفي هذه الآية وجوه كلها مقصودة لله ، فيكون العبد على كشف من الله لما يريده به أو منه ، وذلك لا يكون إلا بإخبار إلهي وإعلام بالشيء قبل وقوعه ،
وقد يكون الشاهد الذي يتلوه منه هو ما يوافقه على ذلك من النفوس التي كشف الله لها عن ذلك ، وقد يكون أي شاهد يشهد له بصدق البينة التي هو عليها ، فإنه مهما تخلّق العبد باسم ما من الأسماء ، فشاهد حاله يشهد بتصحيح أو بفساد شواهد الأحوال ، فإن من قام به توفيق في أمر من الأمور المطلوبة بالسعادة وغيرها فشاهده يصدّق دعواه أو يكذبها ، وشواهد الأحوال على ضربين :
ضرب يقوم بذات صاحب الدعوى ، وضرب يقوم بذات غيره مقارنا لدعواه ،
فالمنوط به كصفرة الوجل وحمرة الخجل وترك الاعتراض على الله تعالى في أحكامه ، والصبر إذا نالته المصائب في حق من ادعى أنه في مقام الرضا بالقضا والتسليم لمجاري القدرة على الإطلاق ،
والضرب الثاني ينبئ عن ذاته القائم بذات غيره ، كتحدثه بانفصال كون ما معيّن عنه بهيئته وهو ساكت ، ويكون ذلك على نوعين :
إما بأن يجوز أن يوصل إليه بحيلة ما حتى يقع ذلك ولم تعلم هذه الحيلة من هذا المدّعي لقرينة

ص 328

حال صحت عند المشاهدة المتقدمة به ، وإما أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، فهذه شواهد الأحوال محصورة وقد يكون الشاهد منه بصدق اتباعه ، وهو اتباعه سنة الرسول صلّى الله عليه وسلم وما شرع لنا ، لم يخل بشيء منها ولا ارتكب مخالفة بتحليل ما حرم الله أو تحريم ما حلّل ، فإن لله عبادا عملوا على إيمانهم ، وصدقوا الله في أحوالهم ، ففتح الله أعين بصائرهم ، وتجلّى لهم في سرائرهم فعرفوه على الشهود ، وكانوا في معرفتهم تلك على بصيرة وبينة وشاهد منهم ، وهو الرسول المبعوث إليهم ، فإنّ الله جعل الرسل شهداء على أممهم ولأممهم ، فمع كون هذا المؤمن على بينة من ربه حين تجلى له ، تلاه في تلك الحال شاهد منه وهو الرسول ، فأقامه له في الشهود مرآة فقال له : هذا الذي جئتك من عنده ، فلما أبصره ما أنكره بعد ذلك مع اختلاف صور التجلي

- **إشارة** - " أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ »ما يراه أهل الله من التجلي في الأسماء الإلهية ، هل يقف مع رؤيته أو يتوقف حتى يقوم له شاهد من كتاب أو سنة ؟ فقوله تعالى« أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ »وهو صاحب الرؤية« وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ »هو ما ذكرناه من العمل على الخبر إما كتاب أو سنة ، وهو الشاهد الواحد ، والشاهدان الكتاب والسنة ، وإنما احتجنا إلى العمل عليهما دون العثور على النقل الذي يشهد لصاحب هذا المقام ، لأن ذلك يتعذر إلا بخرق العادة ، وهو أن يعرّف من هناك بآية الدليل أو الخبر .

[سورة هود (11) : الآيات 18 إلى 29]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (19) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (21) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (23) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (24) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (27)

قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (28) وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ(29)

ص 329

العمل يقتضي الأجرة لذاته ، وهي العوض في مقابلة ما أعطى من نفسه ، وما بقي إلا ممن يؤخذ فما من نبي ولا رسول إلا قد قال إذ قيل له : قل : فأمر فقال « لا أسألكم عليه من أجر » من مال يعني في التبليغ« إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ »

*فما خرجوا عن الأجرة ، والتبليغ عن الله أفضل القرب إلى الله ، وإن الله استخدمه في التبليغ من كونه عبدا ، فتعينت عليه الأجرة سبحانه بتعيينه عوضا مما أعطاه من نفسه ، فيما استخدمه فيه وترك مباحه الذي هو له وتخييره –

[تحقيق - اعلم أن الإنسان مع الحق على حالين : حالة عبودية ، وحالة إجارة]

تحقيق - اعلم أن الإنسان مع الحق على حالين : حالة عبودية ، وحالة إجارة ، فمن كونه عبدا يكون مكلفا بالفرض كالصلاة المفروضة ، والزكاة وجميع الفرائض ، لا اجر له عليها جملة واحدة في أداء فرضه ، فإن العبد فرض عليه طاعة سيده

ص 230

بل له ما يمتنّ به عليه سيده من النعم التي هي أفضل من الأجور لا على جهة الأجر ، ثم انّ الله تعالى ندبه إلى عبادته في أمور ليست عليه فرضا ، فعلى تلك الأعمال المندوب إليها فرضت الأجور ، فإن تقرب العبد بها إلى سيده أعطاه إجارته عليها ، وإن لم يتقرب لم يطلب بها ، ولا عوتب عليها فمن هنا كان العبد حكمه حكم الأجنبي في الإجارة ، فالفرض له الجزاء الذي يقابله ، فإنه العهد الذي بين الله وعباده ، والنوافل لها الأجور ، والعلة في ذلك أن المتنفل عبد اختيار كالأجير ، فإذا اختار الإنسان أن يكون عبدا لله ، لا عبد هواه فقد آثر الله على هواه ، وهو في الفرائض عبد اضطرار ، لا عبد اختيار فتلك العبودية أوجبت عليه خدمة سيده ، فيما افترضه عليه ، فبين الإنسان في عبوديته الاضطرارية ، وبين عبوديته الاختيارية ما بين الأجير والعبد المملوك ، فالعبد الأصلي ما له على سيده استحقاق إلا ما لا بد منه ، يأكل من سيده ، ويلبس من سيده ، ويقوم بواجبات مقامه ، فلا يزال في دار سيده ليلا ونهارا لا يبرح إلا إذا وجهه في شغله ، فهو في الدنيا مع الله وفي القيامة مع الله وفي الجنة مع الله ، فإنها جميعها ملك سيده ، فيتصرف فيها تصرف الملّاك ، والأجير ما له سوى ما عيّن له من الأجرة ، منها نفقته وكسوته ، وما له دخول على حرم سيده ومؤجره ولا الاطلاع على أسراره ، ولا تصرف في ملكه إلا بقدر ما استؤجر عليه ، فإذا انقضت مدة إجارته ، وأخذ أجرته فارق مؤجره ، واشتغل بأهله وليس له من هذا الوجه حقيقة ولا نسبة تطلب من استأجره ، إلا أنّ يمنّ عليه رب المال بأن يبعث خلفه ، ويجالسه ويخلع عليه ، فذلك من باب المنة ، وقد ارتفعت عنه في الدار الآخرة عبودية الاختيار ، فمن أي مقام قالت الأنبياء - مع كونهم عبيدا مخلصين له لم يملكهم هوى أنفسهم ولا أحد من خلق الله ومع هذا قالوا -« إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ » *؟ فيعلم أن ذلك راجع إلى دخولهم تحت حكم الأسماء الإلهية ، فمن هناك وقعت الإجارة ، فهم في الاضطرار والحقيقة عبيد الذات ، وهم لها ملك ، وصارت الأسماء الإلهية تطلبهم لظهور آثارها فيهم ، فلهم الاختيار في الدخول تحت أي اسم إلهي شاءوا ، وقد علمت الأسماء الإلهية ذلك ، فعينت لهم الأسماء الإلهية الأجور ، يطلب كل اسم إلهي من هذا العبد الذاتي أن يؤثره على غيره من الأسماء الإلهية بخدمته ، فيقول له : ادخل تحت أمري ، وأنا أعطيك كذا وكذا ، فلا يزال في خدمة ذلك الاسم حتى يناديه السيد من حيث عبودية الذات ، فيترك كل اسم إلهي ، ويقوم لدعوة

ص 331

سيده ، فإذا فعل ما أمره به حينئذ ، رجع إلى أي اسم شاء ، فإذا رأى العبد ملهوفا ، فأغاثه فيعلم أنه تحت تسخير الاسم المغيث ، فيكون له من المغيث ما عيّن له في ذلك من الأجر ، وإذا رأى ضعيفا في نفسه ، فتلطف به كان تحت تسخير الاسم اللطيف ، وكذلك ما بقي من الأسماء ، فتحقق يا ولي كيف تخدم ربك وسيدك ولكن على علم صحيح في نفسك وفي سيدك ، تكن من العلماء الراسخين في العلم الحكماء الإلهيين ، وتفز بالدرجة القصوى والمكانة العليا مع الرسل والأنبياء .

[سورة هود (11) : الآيات 30 إلى 39]

وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (30) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) (37وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ(39)

ص 332

فهذا استهزاء جزاء وقد خلّصه بالاستقبال بقوله :« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ »وهو يوم القيامة

[سورة هود (11) : الآيات 40 إلى 42]
حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40) وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (42)

جمع لنوح عليه السلام في الهلاك بين الماءين ماء الأرض وماء السماء ، ولم تزل تجري بهم السفينة في موج كالجبال ، ونوح عليه السلام ينادي ابنه ، وكان في معزل يا بني : اركب معنا ولا تكن مع الكافرين .

[سورة هود (11) : آية 43]
قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)

والابن ينادي قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال نوح عليه السلام :« لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ »وهم أهل السفينة فإن دعاءه « لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً » سبقت وأجيبت ، فغرق من آوى إلى الجبل وكل من لم يكن في السفينة وحال بينهما الموج فكان من المغرقين

- **إشارة** – " سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ. . . وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ"
- **إشارة** - « سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ. . . وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ »هذا حال ومآل من اتخذ غير الله مستندا .

[سورة هود (11) : آية 44]
وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(44)

ص 333

" وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »وهم الذين سخروا - إشارة »- وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ «فارتفعت الأنواء« وَقُضِيَ الْأَمْرُ »وظهر في النجاة السر« وَاسْتَوَتْ «سفينة نوح عندما أقلعت السماء وأشرقت يوح« عَلَى الْجُودِيِّ »على جودي الجود ، لتتم كلمة الوجود بوالد ومولود إلى اليوم الموعود ، فإنه لو انقطع الأصل ، لانقطع النسل « وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ."-

[إشارة - من اعتصم بغير الحق هلك]

- .إشارة - من اعتصم بغير الحق هلك ، ولم تنفعه شفاعة الشافعين ، قال العمل غير الصالح« سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ »فأصبح من المغرقين ، ثم جاء النداء من الغيب من الهواء فإنه لم يذكر المنادي نفسه فيه وجاء بالقول دون النداء للقرب« وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي »فبلعت الأرض ماءها وأقلعت السماء« وَغِيضَ الْماءُ «وانتقص الماء« وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ »سفينة النجاة« عَلَى الْجُودِيِّ »إشارة إلى الجود الإلهي .

[سورة هود (11) : آية 45]

وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (45)

« وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ »بفصل قضائه .

[سورة هود (11) : آية 46]

قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (46)

فعلّمه سبحانه الأدب ، وأن من الأدب أن لا تسأل عن علم ما لا يعلم ، فإذا علم فإن كان من أهل الشفاعة والسؤال فيه ، سأل فيه وإن لم يكن لم يسأل فيه ، ولكن غلبت عليه رحمة الأبوة ، وهي شفقة طبيعية عنصرية فصرفها في غير موطنها ، فأعلمه اللّه أن ذلك من صفات الجاهلين ، وفي هذه الآية تعليم لنا وأدب إلهي في مخاطبة الشيوخ ،

قال تعالى لنوح عليه السلام :« إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ »وكان قد شاخ وحصل في العمر

ص 334

الذي لا يزال فيه محترما مرفوقا به في العرف والعادة ، فرفق به في قوله »: أَعِظُكَ »لشيخوخته وكبر سنه ، ومخاطبة الشيوخ ، لها حد ووصف معلوم ، ومخاطبات الشباب لها حد معلوم ،
قال تعالى في حق محمد صلّى الله عليه وسلم :(فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ) فأين ذلك اللطف من هذا القهر ؟
فذلك لضعف الشيخوخة وذا لقوة الشباب ، وأين مرتبة الخمسين سنة من رتبة خمسمائة وأزيد ؟ فوقع الخطاب ، على الحالات في أول الرسل ، وهو نوح عليه السلام وفي آخرهم وهو محمد صلّى الله عليه وسلم

[- إشارة - الجهل لا يكون معه خير]
-إشارة - الجهل لا يكون معه خير ، كما أن العلم لا يكون معه شر ، وأعظم المعاصي ما يميت القلوب ، ولا تموت إلا بعدم العلم بالله ، وهو المسمى بالجهل ، لأن القلب هو البيت الذي اصطفاه الله من هذه النشأة الإنسانية لنفسه ، فغصبه فيه هذا الغاصب ، وحال بينه وبين مالكه ، فكان أظلم الناس لنفسه ، لأنه حرمها الخير الذي يعود عليها من صاحب هذا البيت لو تركه له ، فهذا حرمان الجهل .

[سورة هود (11) : الآيات 47 إلى 54]
قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (47) قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49) وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (50) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَ فَلا تَعْقِلُونَ (51)
وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(54)

ص 335

قال ذلك هود عليه السلام لقومه المكذبين به وبرسالته ، فأشهد عليه السلام قومه مع كونهم مكذبين به على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والإقرار بأحديته ، لما علم عليه السلام أن الله سبحانه سيوقف عباده بين يديه ويسألهم عما هو عالم به ، لإقامة الحجة لهم أو عليهم ، حتى يؤدي كل شاهد شهادته ، فقال عليه السلام« وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ »فسأل هود عليه السلام قومه الشهادة مع شركهم لعلمه بأنهم لا بد أن يسألهم الله عنه .

[سورة هود (11) : الآيات 55 إلى 56]
مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (56)

فأتى بالصراط نكرة لأنه على كل صراط شهيد ، وجاء في فاتحة الكتاب في(اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ)بالتعريف لأنه صراط مخصوص ، وهو المؤدي إلى السعادة ، ومع هذا فإن هذا القول من الكلام القديم ، والقرآن الحكيم ، جاء به الرؤوف الرحيم ، الخبير بما هناك العليم ، فمع الحق مشى من مشى ، وما تشاءون إلا أن يشاء ، فالسعادة كاملة ، والرحمة شاملة ، فإن أهل الاستقامة في الاستقامة هم أهل السلامة في القيامة ، وأما الماشي في الاستقامة بغير استقامة ، فهو المنحاز عن دار الكرامة ، وكما أنه سبحانه في قبلة المصلي ، فهو تعالى من ورائه محيط فهو السائق والهادي ، فهو سبحانه الذي نواصي الكل بيده الهادي إلى صراط مستقيم ، والذي يسوق المجرمين إلى جهنم وردا ، وإليه يرجع الأمر كله ، وإن كان الصراط المستقيم الذي عليه الرب الكريم يتضمن الخير والشر ، والنفع والضر ، والفاجر والبر ، [إن ربي على صراط مستقيم]« ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ »وهو البر الرحيم ،

ص 336

فلا ينفع الاحتجاج بما سبق وإن كان حقا ، فهي حجة لا تنفع قائلها ولا تعصم حاملها لما يؤدي إليه من درس الطريق الأمم ، الذي أجمع على صحته الأمم« ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها »دخل في حكم هذه الآية جميع ما دبّ علوا وسفلا دخول ذلة وعبودية ، لأنها أعطته بحقيقتها وقبولها التمكن من الأخذ بناصيتها إذلالا ، لأنها عبد ، وكل من أخذ بناصيته فإنه ذليل ، والكل عبيد الله تعالى ، فالكل أذلاء بالذات ، وهو العزيز الحكيم ، وإنما جعل يده بناصيتك ابتغاء عافيتك ، فأثبت أمرا هو عليه ، وما سواه ، فانظر من يصل إليه ، وهذا من كرمه وسابقة قدمه ، فما ثمّ إلا مستقيم وعلى منهج قويم ، لأنه بيد الكريم ، وتدل هذه الآية على أنه ما ثمّ إلا من الحق آخذ بناصيته ، ولا يمكن إزالة ناصيته من يد سيده ، ونكّر لفظ دابة فعمّ ، فهو مسلوك به ، سالك بحكم الجبر ، هكذا قال هود عليه السلام ، فلهذا كان المآل إلى الرحمة وإذا أدركه في الطريق النصب ، فتلك أعراض عرضت له ، فإنه أخبر بأنه تعالى على صراط مستقيم ، فما ثمّ إلا من هو مستقيم على صراط الرب ، فهذه الآية دليل لمن قال بالجبر ، ويحتمل أن يكون قوله عليه السلام« إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ »فيما شرع ، مع كونه تعالى آخذ بنواصي عباده إلى ما أراد وقوعه منهم وعقوبته إياهم مع هذا الجبر ، فاجعل بالك ، وتأدب واسلك سواء السبيل ، فهذه آية بشرى لنا ، فما في العالم إلا مستقيم لأن الآخذ بناصيته هو الماشي به ، وهو على صراط مستقيم ، فكل حركة وسكون في الوجود فهي إلهية ، لأنها بيد حق ، وصادرة عن حق موصوف بأنه على صراط مستقيم بإخبار الصادق ، فإن الرسل لا تقول على الله إلا ما تعلمه منه ، فهم أعلم الخلق بالله ، وليس للكون معذرة أقوى من هذه ، فمن رحمة الرسل بالخلق تنبيه الخلق على مثل هذا ، فإن الله أخبر عن نبيه ورسوله هود عليه السلام قوله هذا ، وما خطّأ هذا الرسول في هذا القول ، ومعلوم أن تصرف كل دابة قد يتعلق به لسان حمد أو ذم لأمور عرضية في الطريق ، عينتها الأحوال وأحكام الأسماء ، والأصل محفوظ في نفس الأمر ، تشهده الرسل عليهم السلام والخاصة من عباد الله ، ومع هذا التحقيق فإن قوله« إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ »من حيث ما يقود الماشي عليه إلى سعادته ، وعلى هذا الصراط كل دابة عموما ما عدا الإنس والجن ، فإنه ما دخل من الثقلين إلا الصالحون منهم خاصة ، ولو دخل جميع الثقلين لكان جميعهم على طريق مستقيم - نصيحة - لا تجعل زمامك إلا بيد ربك ، فإن له كما قال يدين كما

ص 337

أنه قد أخبرك أن يده بناصيتك اضطرارا ، فاجعل زمامك بيده اختيارا فتجن ثمرة الاختيار والاضطرار بجمعك بين اليدين ، واعلم أن العباد في قبضة الحق ، قال تعالى :« ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها »لما هي مصرفة فيه ، فالكل في قبضته من قضائه في قضائه ، ومع ذلك عليك بأمر الحق فاتبعه ، ولا تغتر بكونك لا ترى شيئا إلا تحت تصريفه وحكم إرادته ، هذا لا ينجيك والأخذ بأمر الحق ينجيك ، لكن انظر ذلك عقدا وتصرّف بالأمر .

[سورة هود : (11) آية 57]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57)

اعلم أن النبي لا بد له من النظر إلى نفسه ، فإن الجلوس مع الله لا تقتضي البشرية دوامه ، وإذا لم يدم فما ثم إلا النفس ، وكذا ورد ما من نبي إلا وقد قال« فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ »فأضاف التبليغ إلى نفسه ولم يقل في هذه الحال ، قد بلّغ الله إليكم بلساني ما قد أسمعكم ، لذلك ابتلى الله الأنبياء بمخالفة أممهم ، فاختلفوا عليه ، واختلفوا فيما بينهم وإن اجتمعوا عليه ، فإن النبي في تلك الحالة صاحب دعوى ، أنه بلغ رسالة ربه ، وفي هذا لله حكم خفي ليعلم العبد أنه محلّ للتوفيق ونقيضه ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله على ما أمر به ونهى عنه

[إن ربي على كل شيء حفيظ]

« وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ »إذا أخليت العالم عن حفظ الله ، لم يكن للعالم وجود وفني ، وإذا سرى حفظ الله في العالم بقي العالم موجودا ، فبظهوره وتجليه يكون العالم باقيا ، وبهذا يصح افتقار العالم إلى الله في بقائه في كل نفس ، واجتمع الموحدون والمشركون في الحفظ الإلهي عناية من الله بالخلق ، فإن الممكن إذا وجد لا بد من حافظ يحفظ عليه وجوده ، وبذلك الحافظ بقاؤه في الوجود كان ذلك الحافظ ما كان من الأكوان ، فالحفظ خلق الله ، فلذلك نسب الحفظ إليه ، لأن الأعيان القائمة بأنفسها قابلة للحفظ بخلاف ما لا يقوم بنفسه من الممكنات ، فإنه لا يقبل الحفظ ويقبل الوجود ولا يقبل البقاء ، فليس له من الوجود غير زمان وجوده ، ثم ينعدم ، ومتعلق الحفظ إنما هو الزمان الثاني الذي يلي زمان وجوده فما زاد ، فالله حفيظ رقيب ، فكل موجود له بقاء في وجوده ، فلا بد من حافظ كياني يحفظ عليه وجوده ، وذلك

ص 338

الحافظ خلق لله مثل قوله تعالى :(وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) فنكّر فدخل تحت هذا اللفظ حفظة الوجود وحفظة الأفعال ، والاسم الحفيظ خزانة سعي الأعمال من حيث نسبتها إلى العاملين .

[سورة هود (11) : الآيات 58 إلى 60]

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

هم عاد الأولى أرسل إليهم هود عليه السلام فكذبوه فأهلكهم الله ، بعث عليهم طيرا أسود فنقلهم إلى البحر ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، وكانت مساكنهم الشمر بين عمان وحضر موت .

[سورة هود (11) : الآيات 61 إلى 65]

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63) وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65)

ص 339

كانت مساكن ثمود الحجر من وادي القرى والشام ، وكانت آية ثمود ناقة أخرجها الله من هضبة من الأرض ، يتبعها فصيل لها ، فيحلبون منها ريهم ، وتشرب في ذلك اليوم جميع مياههم ، ويشربون هم اليوم الثاني الماء ولا تأتيهم ، فلما طال ذلك عليهم ملّوها ، فاجتمعوا تسعة من شرار قومه على عقرها وخرجوا لها ، فعقرها رجل منهم ، فوعدهم الله بالعذاب بعد ثلاث ، فأتتهم صيحة من السماء فماتوا كلهم ، ولحق صالح ومن معه من قومه بمكة ، وأول يوم اصفرت وجوه القوم ، وفي الثاني احمرت ، وفي الثالث اسودت .

[سورة هود (11) : الآيات 66 إلى 70]

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (68) وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (70)

[تجسد الملائكة في صورة محسوسة] " فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ " يعني إلى العجل الحنيذ ، أي لا يأكلون منه« نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » خاف فإن الملائكة ولو تجسدت في صورة محسوسة ، لا يكون غذاؤها الطعام الطبيعي ، وهنا مسألة هل الأعيان التي من حقيقتها أن لا تكون على صورة طبيعية جسمية في نفسها إذا ظهرت لمن ظهرت له في صورة طبيعية جسدية في عالم التمثيل ، كالملك يتمثل بشرا سويا وكالتجلي الإلهي في الصور ، هل تقبل تلك الصورة الظاهرة في عين الرائي حكم ما لتلك الصورة في التي هي له حقيقة كصورة الإنسان والحيوان ؟ فتحكم عليه

ص 340

بالتفكر وقيام الآلام واللذات به ؟
فهل تلك الصورة التي ظهرت تشبه الحيوان أو الإنسان أو ما كان ، تقبل هذا الحكم في نفس الأمر ؟
أو الرائي إذا لم يعلم أنها إنسان أو حيوان ما له أن يحكم عليها بما يحكم على من في تلك الصورة عينه ، كيف الأمر في ذلك ؟
فاعلم أن الملك على صورة تخالف البشر في نفسه وعينه ، وكما تخالف البشر فقد خالفه أيضا البشر ، مثل جبريل ظهر بصورة أعرابي بكلامه وحركته المعتادة من تلك الصورة في الإنسان ، هي في الصورة الممثلة كما هي في الإنسان ، أو هي من الصورة كما هي الصورة متخيلة أيضا ، ويتبع تلك الصورة جميع أحكامها من القوى القائمة بها في الإنسان ، كما قام بها الكلام والحركة والكيفيات الظاهرة ، فهو في الحقيقة إنسان خيالي ، أعني الملك في ذلك الزمان ، وله حكم تلك الصورة في نفس الأمر أيضا ، على حدّ الصورة من كونها إنسانا خياليا ، فإذا ذهبت تلك الصورة ، ذهبت أحكامها لذهابها ، وسبب ذلك أن جوهر العالم في الأصل واحد ، لا يتغير عن حقيقته ، وأن كل صورة تظهر فيه ، فهي عارضة تستحيل في نفس الأمر في كل زمان فرد ، والحق يوجد الأمثال على الدوام ، لأنه خالق على الدوام والممكنات في حال عدمها مهيأة لقبول الوجود ، فمهما ظهرت صورة في ذلك الجوهر ، ظهرت بجميع أحكامها سواء كانت تلك الصورة محسوسة أو متخيلة ، فإن أحكامها تتبعها كما قال الأعرابي ، لما سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلم يصف الحق جل جلاله بالضحك ، قال : لا نعدم خيرا من رب يضحك ، إذ من شأن من يضحك أن يتوقع منه وجود الخير ، فكما أتبع الصورة الضحك ، أتبعها وجود الخير منها ، وهذا في الجناب الإلهي فكيف في جوهر العالم ؟ .

[سورة هود (11) : الآيات 71 إلى 73]

وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (71) قالَتْ يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ(73)

ص 341

"رَحْمَتُ اللَّهِ " أضيفت الرحمة إلى الله لشمولها الامتنان والوجوب »وَبَرَكاتُهُ »والبركات هي الزيادة « عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ »المجد هو الشرف ، وأعظم المجد هو ما اعترف به العبد لربه بأن شهد له بأنه الملك يوم الدين ، فله المجد والشرف على العالم في الدنيا والآخرة ، لأنه يجازي العالم على أعمالهم في الدنيا والآخرة ، فقد ورد أن المصلي إذا قال(مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)يقول الحق مجدني عبدي ، أي جعل لي الشرف عليه كما هو الأمر في نفسه .

[سورة هود (11) : الآيات 74 إلى 75]

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75)

الحلم هو ترك الأخذ بالجريمة في الحال مع القدرة ، فالحليم لا يعجل مع القدرة وارتفاع المانع ، ووصف الحق إبراهيم عليه السلام بالتأوه مما يجده في صدره من رده ، فتأوه لما رأى من عبادة قومه ما نحتوه ، وحلم فلم يعجل بأخذهم على ذلك مع قدرته عليهم بالدعاء عليهم ، ولهذا سمي حليما فلو لم يقدر ولا مكّنه الله من أخذهم ، ما سماه سبحانه حليما ولكنه عليه السلام علم أنه في دار الامتزاج والتحول من حال إلى حال ، فكان يرجو لهم الإيمان فيما بعد ، فهذا سبب حلمه ، ولو علم من قومه ما علم نوح عليه السلام حيث قال :(وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً) ما حلم عليهم ، فالأواه هو الذي يكثر التأوه لبلواه ، ولما يقاسيه ويعانيه مما يشاهده ويراه ، وهو من باب الغيرة والحيرة« مُنِيبٌ » المنيبون هم الذين رجعوا إلى الله من كل شيء أمرهم الله بالرجوع عنه ، مع شهودهم في حالهم أنهم نواب عن الله في رجوعهم ، إذ كانت نواصي الخلق بيده ، يصرفهم كيف يشاء ، فمن شاهد نفسه في إنابته إلى ربه نائبا عن الله ، كما ينوب المصلي عن الله في قوله : سمع الله لمن حمده ، وفي تلاوته ، كذلك رجوعه إلى الله في كل حال ، يسمى منيبا ، فلهم خصوص هذا الوصف .

[سورة هود (11) : الآيات 76 إلى 80]

يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76) وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (79) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ(80)

ص 342

[لو أن لي بكم قوة]

يقول لوط عليه السلام لقومه :« لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً »أي همة فعالة ، فمن كان الحق قواه فلا همة تفعل فعل من هذه صفته ، لكن الأمر لا يكون إلا ما سبق به الكتاب ، وهو عليه السلام من أعلم الناس بالله ، ويعلم أنه ما يكون إلا ما سبق به الكتاب ، ولا كتب تعالى إلا ما علم ، وما علم إلا ما هو المعلوم عليه ، فلا تبديل لكلمات الله ، وما يبدل القول لديه ، وما هو بظلام للعبيد ، فلا يقع إلا ما هو الأمر عليه ، ولو حرف امتناع لامتناع ، فأراد بالقوة إظهار الأثر الذي جاء به ، وهو شريعته فيهم ، ثم قال« أَوْ »وهي أداة أعطته ما عليه الإمكان ، فقال« أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ »فأراد بالركن الشديد - إذ لم يتمكن الأثر فيهم - أن يحمي نفسه عنهم حتى لا يؤثروا فيه ، فلهذا صلّى الله عليه وسلم ذكر الأمرين القوة والإيواء ، ولا شك أن الرسل عليهم السلام أعلم الناس بالله ، فلا يأوون إلا إلى الله ، فآوى إلى من يفعل ما يريد ولا اختيار في إرادته ولا رجوع عن علمه ، فآوى إلى من لا تبديل لديه ،

وهو قوله صلّى الله عليه وسلم : [يرحم الله أخي لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد] يعني بذلك إيواءه إلى الله ، والاستناد إلى القوي حمى لا ينتهك ، فيرجع طالب انتهاكه خاسرا ، لذلك اشتدت العقوبة على قوم لوط ، وإن كان يحتمل من قول لوط عليه السلام »أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ »يريد القبيلة ، لأني لا أستطيع الانتقال من الركن الإلهي إلى الركن الكوني ،

وقد شهد له رسول الله صلّى الله عليه وسلم بذلك فقال : [يرحم الله أخي لوطا ، فقد كان يأوي إلى ركن شديد] ، أتراه صلّى الله عليه وسلم أكذبه ؟ حاشى لله ، وإن كان الركن الشديد الذي أراده لوط ، هو القبيلة ،

ص 343

والركن الشديد الذي ذكره رسول الله صلّى الله عليه وسلم هو الله ، فنعم الشاهد والمشهود له ، ويحتمل أن قوله صلّى الله عليه وسلم يريد ضعف المعرفة ، فالركن الشديد هو الحق مدبره ومربيه.

- **إشارة** - اعلم أن اسم لوط أعني هذه اللفظة اسم شريف جليل القدر ، لأنه يعطي اللصوق بالحضرة الإلهية ، فلاستناده إليه ولصوقه به في علم الله سمي لوطا ، لم يضف إلى غيره .

[سورة هود (11) : آية 81]

قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81)

أول اليوم طلوع الشمس ، والصبح آخر اليوم ، وما بينهما ليل ونهار ، ولذلك ما أخذ الله من أخذه من الأمم إلا في آخر اليوم ، وذلك لاستيفاء الحركة ، فإذا انتهت دورة اليوم ، ولم يكن لهم رجوع إلى الله وقع الأخذ الإلهي في آخره .

[سورة هود (11) : الآيات 82 إلى 86]

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83) وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ(86)

ص 344

الأصل أن الله خلق لنا ما في الأرض جميعا ، ثم حجّر وأبقى ، فما أبقاه سماه بقية الله ، وما حجر سماه حراما ، أي المكلّف ممنوع من التصرف فيه حالا أو زمانا أو مكانا مع التحجير ، فإن الأصل التوقف عن إطلاق الحكم فيه بشيء ، فإذا جاء حكم الله فيه ، كنا بحسب الحكم الإلهي الذي ورد به الشرع إلينا ، وليس مسمى رزق الله في حق المؤمنين إلا بقية الله ، وكل رزق في الكون من بقية الله ، وما بقي إلا أن يفرق بينهما ، وذلك أن جميع ما في العالم من الأموال ، لا يخلو إما أن يكون لها مالك معيّن أو لا يكون لها مالك ، فإن كان لها مالك معيّن ،

فهي من بقية الله لهذا الشخص ، وإن لم يكن لها مالك معيّن ، فهي لجميع المسلمين ، فمال زيد بقية الله لزيد ، لما حجّر الله عليه التصرف في مال عمرو بغير إذنه ، ومال عمرو بقية الله لعمرو لما حجر عليه التصرف في مال زيد بغير إذنه ، فبقية الله ، هو ما أحل لك تناوله من الشيء الذي يقوم به أودك ، لتقوم به في طاعة ربك ، وإنما سماه بقية لأنه بالأصالة خلق لك ما في الأرض جميعا ،

فكنت مطلق التصرف في ذلك تأخذ ما تريد وتترك ما تريد ، ثم في ثاني حال ، حجّر عليك بعض ما كان أطلق فيه تصرفك ، وأبقى لك من ذلك ما شاء أن يبقيه لك ، فذلك بقية الله" خَيْرٌ لَكُمْ "

وإنما جعلها خيرا لك ، لأنه علم من بعض عباده أن نفوسهم تعمى عن هذه البقية بما يعطيهم الأصل ، فيتصرفون بحكم الأصل

فقال لهم : البقية التي أبقى الله خير لكم« إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »أي مصدقين بأني خلقت لكم ما في الأرض جميعا ، فإن صدقتموني في هذا ، صدقتموني فيما أبقيت لكم من ذلكم ، وإن فصلتم بين الأمرين فآمنتم ببعض وكفرتم ببعض لم تكونوا مؤمنين ، فمن اعتنى به الله تعالى ، أوصل إليه من البقية لا من غيرها ، واعلم أن الرزق على نوعين في الميزان الموضوع في العالم لإقامة العدل وهو الشرع : النوع الأول يسمى حراما ، والنوع الآخر يسمى حلالا ، وهو بقية الله التي جاء نصها في القرآن« بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فهذه هي التي بقيت للمؤمنين من قوله :« خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً »والإيمان لا يقع إلا بالشرع ، وجاء هذا القول في قصة شعيب عليه السلام صاحب الميزان والمكيال ، فرزق الله عند بعض العلماء جميع ما يقع به التغذي من حلال وحرام ،

فإن الله يقول :(وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها) وهو ظاهر لا نص ، وقال: (فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ)(وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) *

[الفرق بين رزق الله وبين الرزق]

وقد نهانا عن التغذي بالحرام ، فلو كان رزق الله

ص 345

في الحرام ما نهانا عنه ، فإذا ما هو الحرام رزق الله ؟ وإنما هو رزق ، ورزق الله هو الحلال ، وهو بقية الله التي أبقاها لنا بعد وقوع التحجير وتحريم بعض الأرزاق علينا ، ولتعلم من جهة الحقيقة أن الخطاب ليس متعلقه إلا فعل المكلف لا عين الشيء الممنوع التصرف فيه ، فالكل رزق الله ، والمتناول هو المحجور عليه لا المتناول بفتح الواو ، فإن الرزاق لا يعطيك إلا رزقك ، وما يعطي الرزاق لا يطعن فيه ، فلهذا علّق الذم بفعل المكلف لا بالعين التي حجّر عليه تناولها ، فإن المالك لها لم يحجر عليه تناولها والحرام لا يملك ، وهذه مسألة طال الخبط فيها بين العلماء ، وأما قوله) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً) من العامل في الحال ؟ فظاهر الشرع يعطي أن العامل رزقكم ،

فإن من هنا في قوله (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً) للتبيين لا للتبعيض ، فإنه لا فائدة للتبعيض ، فإن التبعيض محقق مدرك ببديهة العقل ، لأنه ليس في الوسع العادي أكل الرزق كله ، وإذا كانت للتبيين وهي متعلقة بكلوا ، فبيّن أن رزق الله هو الحلال الطيب ، فإن أكل ما حرّم عليه فما أكل رزق الله ، فتدبر وانظر ما به حياتك ، فذلك رزقك ولا بد ، ولا يصح فيه تحجير ، وسواء كان في ملك الغير أو لم يكن ، فإن المضطر لا حجر عليه ، وما عدا المضطر فما تناول الرزق لبقاء الحياة عليه ، وإنما تناوله للنعيم به ، وليس الرزق إلا ما تبقى به حياته عليه ، وهذا لا يمكن ردّه من أحد من علماء الشريعة ،

فإن الله يقول :(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ) *بعد التحجير ،

وقال :(إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ)

وذلك هو الرزق الذي نحن بصدده ، وهو الذي يعطيه الرزاق .

[سورة هود (11) : الآيات 87 إلى 88]

قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(88)

ص 346

من هنا نعلم أن عطاء الله كله فضل ، لأن التوفيق منه فالحاصل عن العمل بالموازنة ، وإن كان جزاء فهو فضل بالأصالة قال من جلّ ثناؤه وتقدست أسماؤه

[التوفيق - كماله وعمومه وخصوصه]

« وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ »فأسنده سبحانه إلى الاسم الجامع الذي هو للتعلق لا للتخلق ، وفي إسناده إليه سر شريف ، فإن التوفيق مفتاح السعادة الأبدية ، والهادي بالعبد إلى سلوك الآثار النبوية ، والقائد له إلى التخلق بالأخلاق الإلهية ، من قام به غنم ومن فقده حرم ، وهو خارج عن كسب العبد ، وإنما هو نور يضعه الله في قلب من اصطنعه لنفسه ، واختصه لحضرته ، به تحصل النجاة ، وبه تنال الدرجات ، ومع أنه سر موهوب ، ونور في قلب العبد موضوع ، فإن إرادة العبد من جهة العلم بخصائصه وحقائقه متعلقة بجود الله سبحانه وتعالى في تحصيله منة ، والاتصاف به ، فقد يحصل للعبد بتلك الإرادة ، فيتخيل أنه كسبي وأن دعاءه الله فيه وإرادته إياه سبب في حصوله ، وما علم أن تلك الإرادة التي حركته لطلب التوفيق من التوفيق ، فإنها من آثاره ولولاه لم يكن ذلك فإن إرادة التوفيق من التوفيق ، ولكن لا يشعر لذلك أكثر الناس ، فإذا تقرر هذا فيكون الإنسان إنما يطلب على الحقيقة كمال التوفيق من الموفق الواهب الحكيم ، ومعنى كمال التوفيق استصحابه للعبد في جميع أحواله من اعتقاداته وخواطره وأسراره ومطالع أنواره ومكاشفاته ومشاهداته ومسامراته وأفعاله كلها ، لا أنه يتجزى ويتبعض فإنه معنى من المعاني القائمة بالنفس ، فنقصه الذي يطلق عليه إنما هو أن يقوم بالعبد في فعل ما من الأفعال ، ويحرمه في فعل آخر وكذلك زيادته استصحابه لجميع أفعال العبد ، وقد بان علة سؤاله في التوفيق من الله سبحانه وتعالى ، وتبين أن التوفيق لم يكن عنده معدوما عند سؤاله لله سبحانه فيه ، والتوفيق تفعيل من الموافقة ، وهو معنى يقوم بالنفس عند طروّ فعل من أفعاله الصادرة عنه على اختلافها ، يمنعه من المخالفة للحدّ المشروع له في ذلك الفعل لا غير ، فكل معنى كان حكمه هذا يسمى التوفيق وقد يقوم بالعبد التوفيق في فعل ما ، والمخالفة في فعل آخر في زمن واحد كالمصلي في الدار المغصوبة ، أو كمن يتصدق وهو يغتاب ، أو يضرب أحدا في حال واحد وأشباهه ، فلهذا ما سأل العبد من مولاه إلا كمال التوفيق ، يريد استصحابه له في جميع أحواله كلها حتى لا تكون منه مخالفة أصلا ، فإذا كمل التوفيق للعبد على ما ذكرناه فهو المعبر عنه بالعصمة والحفظ الإلهي ، حفظ الله علينا الأوقات ، وعصمنا من نتائج الغفلات ، إنه جواد بالخيرات ، فالتوفيق هو العناية التي للعبد عند الله

ص 347

قبل كونه المتفضل به عليه عند إيجاده إياه وتعلق خطابه به ، فالموفقون لما أوجدهم الحق تعالى في أعيانهم بصفة الجود وأبرزهم في الوجود ، تولاهم بلطفه فحققهم بحقائق التوفيق ، وبيّن لهم الطريق الموصل إليه كما بيّنه لأنبيائه بواسطة ملائكته ولأوليائه بواسطة أنبيائه ولملائكته بالجبلة التي أوجدهم عليها ، فاهتدوا على أوضح منهاج ، وعرجوا على أنجح معراج ، فما زال التوفيق يصحبهم في كل حال ، ويقودهم إلى كل عمل مقرب إلى الله تعالى من أعمال القلوب والنفوس والمعاملات المتوجهة على الحواس ، حتى انته بهم فوق الهمم وأنزلهم في حضرة الجود والكرم ، فغرقوا في بحار المنن والآلاء ، من نعيم جنان ومضاهاة استواء ، على قدر ما أراد تعالى أن يمنحهم من نعماه ، وأن يهبهم من رحماه ، فعاينوا عند ذلك تولي الحق لهم في ذلك ، ولم يكونوا شيئا مذكورا ، ثم استصحاب التولي لهم في محال الدعاوى بتقديسهم عنها ، فالتوفيق قائد إلى كل فضيلة وهاد إلى كل صفة منجية وجالب كل خلق رضي ، يجلو البصائر ويصلح السرائر ويخلص الضمائر ، ويفتح أقفال القلوب ويزيل ريونها ، ويخرجها عن أكنتها ويهبها أسرار وجودها ويعرفها بما تجهله من جلال معبودها ، هو الباعث المحرك لطلب الاستقامة والهادي إلى طريق السلامة ، ما اتصف به عبد إلا اهتدى وهدى ، ولا فقده شخص إلا تردى وأردى ، فنعوذ بالله من الخلاف ، والتوفيق له مبدأ وموسط وغاية ، فمبدؤه يعطيك الإسلام وموسطه يعطيك الإيمان وغايته تعطيك الإحسان ، فالإسلام يحفظ الدماء والأموال ، والإيمان يحفظ النفوس من ظلم الضلال والإضلال ، والإحسان يحفظ الأرواح من رؤية الأغيار ، ويهبها المراقبة والحياء على الكمال ، فمن دعا لك بالتوفيق في جميع الأحوال فما ترك شيئا من الخير إلا أعطاك إياه ، والتوفيق مبدؤه يعطيك العلم والعمل ، ووسطه يطهر ذاتك من دنس الأغراض والعلل ، وغايته تمنحك أسرار الوجود والأزل ، وليس وراء الله مؤمل يؤمل .

والتوفيق على قسمين في أصله : **عام وخاص** ،

فالعام هو الذي يشترك فيه جميع الناس كافة من المسلمين وغيرهم

وهو على ضربين :

منه ما يوافق الحكمة بما هي حكمة ،

ومنه ما يوافق الأغراض ،

والخاص هو الذي يخرجك من الظلمات إلى النور ، وينتهي بك إلى السعادة الأبدية على مراتبها ، وإن دخل النار ،

وهذا أيضا عام وخاص :

فالعام كالإيمان بالله ورسوله وما جاء به ، والخاص كالعمل بالعلم المشروع ،

وهو أيضا عام وخاص : فالعام كأداء الفرائض ، والخاص هو الذي يؤديك

ص 348

إلى تصفية القلب وتفريغه والرياضات والمجاهدات ، وهذا الضرب أيضا من التوفيق فيه عام وخاص : فالعام هو الذي يثمر لك جميع الأخلاق العلوية والأوصاف الربانية القدسية ، والخاص هو الذي يثمر لك أسرار الخلق ومعاني التحقيق ،
وكلاهما على ضربين : **عام وخاص** ،
فالعام ما أعطاك جميع ما تتخلق به وأسراره ، والخاص ما أعطاك الفناء عن ملاحظة الفناء ، فكل توفيق يستصحب العبد في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة هو توفيق العارفين الوارثين العالمين ، وكل توفيق يصحب العبد في بعضها فهو منسوب لذلك البعض ، ومضاف لما يعطيه المقام في مراتب الوجود ،
فيقال : هذا توفيق العارفين والزاهدين والعابدين وغيرهم من أصحاب المقامات وأرباب السلوك ،
والتوفيق عند المحققين على نوعين :
توفيق أوجده الحق سبحانه فيك منك ، وتوفيق أوجده فيك على يد غيرك ، فالتوفيق الذي فيك من غيرك كالإسلام الذي أبقاه عليك أبواك وربياك عليه ، فكل مولود يولد على الفطرة وأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما جاء في الحديث ، أو كشخص قيّضه الله لك على مدرجتك من غير قصد منك إليه فوعظك بموعظة زجرك بها فانتبهت من سنة الغفلة ، فقذف الله سبحانه لك عند انتباهك نور التوفيق في قلبك فقبلتها ونظرت في تخليص نفسك فقادك إلى الانتظام في شمل السعداء ،
والتوفيق الذي فيك منك هو أن ترزق النظر ابتداء في عيوبك وذم ما أنت عليه من الأفعال القبيحة وتمقيتك نفسك وتبغيض حالك لك ، فإذا تقوى عليك هذا الخاطر وتأيد ، نهض بك في طريق النجاة وسارع بك إلى الخيرات على قدر ما قدر لك أزلا وقسم لك في شربك ،
وأول مقامات التوفيق الاختصاصي اشتغالك بالعلم المشروع الذي ندبك الشارع صلّى الله عليه وسلم إلى الاشتغال بتحصيله ، وآخرها حيث يقف بك فإن تممت لك المقامات حصلت في التوحيد الموحد نفسه بنفسه الذي لا يصح معه معقول فلا حياة مع الجهل ولا مقام ، فالتوفيق إذا صح ، وتصحيحه بتحصيل العلم ،
فإذا حصل له وصح توفيقه أنتج الإنابة والإنابة منتجة للتوبة ، والتوبة تنتج الحزن والحزن ينتج الخوف ، والخوف ينتج الاستيحاش من الخلق ، والاستيحاش ينتج الخلوة ، والخلوة تنتج الفكرة ، والفكرة تنتج الحضور ، والحضور ينتج المراقبة ، والمراقبة تنتج الحياء ، والحياء ينتج الأدب ، والأدب ينتج مراعاة الحدود ، ومراعاة الحدود تنتج القرب ، والقرب ينتج الوصال ، والوصال ينتج الأنس ، والأنس ينتج الإدلال ، والإدلال ينتج السؤال ، والسؤال ينتج الإجابة ، ولا يصح

ص 349

شيء من هذه المقامات إلا بعد تحصيل العلم الرسمي والذوقي ، فالرسمي كعلوم النظر وهو ما يتعلق بإصلاح العقائد ، وكعلوم الخبر وهو ما يتعلق بك من الأحكام الشرعية ، ولا يؤخذ منها إلا قدر الحاجة ، والذوقي علم نتائج المعاملات والأسرار ، وهو نور يقذفه الله تعالى في قلبك ، تقف به على حقائق المعاني الوجودية ، وأسرار الحق في عباده ، والحكم المودعة في الأشياء .

واعلم أن المشي في الظلمة بغير سراج وضوء في طريق كثيرة المهالك والحفر والأوحال والمهاوي والحشرات المؤذية التي لا يتقى شيء من هذا كله إلا أن يكون الماشي فيها بضوء يرى به حيث يجعل قدمه ، ويجتنب به ما ينبغي أن يجتنب مما يضره ، من مهواة يهوي فيها أو مهلك يحصل فيه أو حية تلدغه ، وليس له ضوء سوى نور الشرع الذي قال فيه تعالى(نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا)(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ)وقال :(نُورٌ عَلى نُورٍ)فإذا اجتمع نور الشرع مع نور بصر التوفيق والهداية بان الطريق بالنورين ، فلو كان نورا واحدا لما ظهر له ضوء ، ولا شك أن نور الشرع قد ظهر كظهور نور الشمس ، ولكن الأعمى لا يبصره ، كذلك من أعمى الله بصيرته لم يدركه فلم يؤمن به ، ولو كان نور عين البصيرة موجودا ، ولم يظهر للشرع نور بحيث أن يجتمع النوران فيحدث الضوء في الطريق لما رأى صاحب نور البصيرة كيف يسلك ؛ لأنه في طريق مجهولة لا يعرف ما فيها ولا أين ينتهي به من غير دليل وموقّف ؟

فهذا الشخص الماشي في هذه الطريق إن لم يحفظ سراجه من الأهواء ، أن تطفئه بهبوبها ، وإلا هبت عليه رياح زعازع ، فأطفأت سراجه ، وذهب نوره ، وهو كل ريح يؤثر في نور توحيده وإيمانه ، فإن هبت ريح لينة تميل لسان سراجه وتحيره ، حتى يتحير عليه الضوء في مشاهدة الطريق ،

فتلك الريح كمتابعة الهوى في فروع الشريعة ، وهي المعاصي التي لا يكفر بها الإنسان ولا تقدح في توحيده وإيمانه ، فلقد خلقنا لأمر عظيم ، ولكن إذا اقتحمنا هذه الشدائد ، وقاسينا هذه المكاره ، حصلنا على أمر عظيم ، وهو سعادة الأبد التي لا شقاء فيها ،

فإنه لما تبينت طرق السعادة بالرسل قال تعالى (إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) وما بقي بعد هذا إلا أن يوفق الله عباده للعمل بما أمرهم به من اتباع رسوله صلّى الله عليه وسلم فيما أمر ونهى ، والوقوف عند حدوده ومراسمه ؛ فإن الحق خصّ بعض عباده بالتوفيق ، ولم يعمّ كما عمّ في الرزق ، فيا ربنا خاطبتنا

ص 350

فسمعنا وفهمتنا ففهمنا ، فيا ربنا وفقنا واستعملنا فيما طلبته منا من عبادتك وتقواك ، إذ لا حول لنا ولا قوة إلا بك ، فالله هو الموفق وبيده الهداية ، وليس لنا من الأمر شيء ، ولقد صدق الكذوب إبليس رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، حين اجتمع به فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلم : ما عندك ؟ فقال إبليس : لتعلم يا رسول الله أن الله خلقك للهداية ، وما بيدك من الهداية شيء ، وأن الله خلقني للغواية ، وما بيدي من الغواية شيء ، لم يزده على ذلك وانصرف ، وحالت الملائكة بينه وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فإن التوفيق من رحمة الامتنان للعمل الصالح الموجب لرحمة الاختصاص - مناجاة - يا حنان يا منان ، يا رؤوف يا قديم الإحسان ، يا من جعل معدن النبوة أشرف المعادن ، وموطن الأحكام أرفع المواطن ، أنت الذي سويت فعدلت ، وفي أي صورة ما شئت ركبت ما سويت ، يا واهب إذ لا واهب ، ويا مانح المثوبات أهل المكاسب ، أنت الذي وهبت التوفيق ، وأخذت بناصية عبدك ومشيت به على الطريق ، وخلقت فيه الأعمال الرضية ، والأقوال الزكية ، وأنطقته بالتوحيد والشهادة ، ويسرت له أسباب السعادة ، ثم أدخلته دارك ، ومنحته جوارك ، وقلت له : هذا لعملك بعلمك ، ولك ما انته إليه خاطر أملك.

[سورة هود (11) : الآيات 89 إلى 90]

وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90)

من البشرى ورود اسم الودود لله تعالى ، فإن المودة هي الثبوت على المحبة ، ولا معنى لثبوتها ، إلا حصول أثرها بالفعل في الدار الآخرة ، وفي النار لكل طائفة بما تقتضيه حكمة الله فيهم .

[سورة هود (11) : الآيات 91 إلى 98]

قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (91) قالَ يا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (96) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ(98)

ص 351

كان حكم آل فرعون في نفس الأمر خلاف حكم فرعون في نفسه ، فسوى الله في الغرق بينهم ، وتفرقا في الحكم ، فجعلهم سلفا ومثلا للآخرين ، وأما قوله تعالى »: فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ »فما فيه نص أنه يدخلها معهم ، بل قال الله): أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ)ولم يقل : أدخلوا فرعون وآله ، فخص فرعون بأن تكون نجاته آية لمن رجع إلى الله بالنجاة ، هذا ما يعطي ظاهر اللفظ - راجع سورة يونس آية 92 .

[سورة هود (11) : الآيات 99 إلى 101]

وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ(101)

ص 352

يدخل المشركون النار مع بعض آلهتهم ليتحققوا مشاهدة أن تلك الآلهة لا تغني عنهم من الله شيئا .

[سورة هود (11) : آية 102]
وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102)
ويكون الأخذ الإلهي بالأسباب الكونية ، وكل مأخوذ به جند من جنود اللّه .

[سورة هود (11) : آية 103]
إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103)
« إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً »أي علامة« لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ »فإنهم مطلوبون للفصل والقضاء« وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ».

[سورة هود (11) : آية 104]
وَما نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104)
« وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ »فإنه ما انقضى أجله المحدود .

[سورة هود (11) : آية 105]
يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105)
لما كان للإنسان المباح من الأحكام المشروعة ، وفعل الواجب والمندوب والمحظور والمكروه من الململات الغريبة في وجوده ، وذلك مما قرن به من الأرواح الطاهرة الملكية وغير الطاهرة الشيطانية ، فهو يتردد بين ثلاثة أحكام : حكم ذاتي له منه عليه ، وحكمين قرنا

ص 353

به ، وله القبول والردّ بحسب ما سبق به الكتاب ، وقضى به الخطاب ، فمنهم شقي وسعيد ، كما كان من القرناء مقرّب وطريد ، فهو لمن أجاب وعلى الله تبيان الخطأ من الصواب ، والحق وصف نفسه بالرضى والغضب فقال :« يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ »بالغضب ، والغضب زائل« وَسَعِيدٌ »بالرضى ، والرضى دائم.

[سورة هود (11) : آية 106]

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106)

جعلت دار جهنم دار كل شقي ، وسمي هؤلاء أشقياء لأنهم أقيموا فيما يشق عليهم ، وهو المخالفة« لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ »فرط التولع علة في وجود الزفرة ، ولهذا جاء في وصف جهنم ، أن لها زفيرا وشهيقا لفرط تولّعها بمن يحصل فيها من الكفار ، لأنها عاشقة في الانتقام من أعادي محبوبها ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

[سورة هود (11) : آية 107]

خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (107)

[خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض]

« خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ »يريد المدة التي كانت الأرض عليها من يوم خلقها الله إلى يوم التبديل ، وكانت العرب التي نزل القرآن بلسانها ، تطلق هذه اللفظة وتريد بها التأبيد ، وهي منقطعة بالخبر الإلهي ، وتعريف النبي صلّى الله عليه وسلم« إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ »بما يرزقون في النار من اللذة والنعيم« إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ »فيقع الاستثناء في قوله« إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ »من زوال صورتهما ، إذ كانت السماء سماء والأرض أرضا ، فإنا نعلم أن جوهر السماء ، هو جوهر الدخان وتبدلت عليه الصور ، فالجوهر الذي قبل صورة الدخان هو الذي قبل صورة السماء ، كما قبل جوهر الطين والحجر صورة البيت ، فإذا انهدم البيت ويبس الطين ، ذهبت صورة البيت والطين ، وبقي عين الجوهر وكذلك العالم كله بالجوهر واحد ، وبالصور يختلف ، فاعلم ذلك ، فيكون الاستثناء في حق أهل النار لمدة عذابهم ، واعلم أنه من سبق رحمته تعالى غضبه أن النار ينزل فيها أهلها بالعدل من غير زيادة ، والجنة ينزل فيها أهلها بالفضل فيرون ما لا تقتضيه أعمالهم من النعيم ، ولا يرى أهل النار من العذاب إلا قدر أعمالهم من غير زيادة ولا رجحان إلى أن يفعل الله بهم ما يريد بعد ذلك ، ولذلك

ص 354

قال في عذابهم« إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ »وما يعلم أحد من خلق الله حكم إرادة الله في خلقه إلا بتعريفه ، ألا تراه في حق السعداء يقول ؟« عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »والصورة واحدة والمدة واحدة ولم يقل في العذاب ، إنه غير مجذوذ ، لكن يقطع بأنهم غير خارجين من النار ، ولا نعرف حالتهم فيها في حال الاستثناء ما يفعل الله فيهم ، فلا يقضى في ذلك بشيء مع علمنا بأن رحمته سبقت غضبه ، وعلمنا بأن الله يجزي كل نفس بما عملت ، ولكن يستروح من العبارة أنه إذا استوفيت الحدود ، عمت الرحمة من خزانة الجود ،

وهو قوله تعالى :" فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ "

وهذا هو الحد الزمني ، لأن التبديل لا بد أن يقع بالسماوات والأرض ، فتنتهي المدة عند ذلك ، وهو في حق كل إنسان من وقت تكليفه إلى يوم التبديل ، لأنه غير مخاطب ببقاء السماوات والأرض قبل التكليف ، وهذا في حق السعيد والشقي ، فهما في نتائج أعمالهما هذه المدة المعينة ، فإذا انتهت انته نعيم الجزاء الوفاق وعذاب الجزاء ، وانتقل هؤلاء إلى نعيم المنن الإلهية التي لم يربطها الله بالأعمال ولا خصّها بقوم دون قوم ،

وهو قوله :« عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »ما له مدة ينتهي بانتهائها ، كما انته الكفر والإيمان هنا بانتهاء عمر المكلف ، وانتهت إقامة الحدود في الأشقياء والنعيم الجزائي في السعداء بانتهاء مدة السماوات والأرض ؛« إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ » في حق الأشقياء « إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ »

وكذا وقع الأمر بحسب ما تعلقت به المشيئة الإلهية ، وما قال إن الحال التي هم فيها لا تنقطع ، كما قال في السعداء ، فعلمنا بذكر مدة السماء والأرض وحكم الإرادة في الأشقياء والإعراض عن ذكر العذاب ، أن للشقاء مدة ينتهي إليها حكمه وينقطع عن الأشقياء بانقطاعها والذي منع أن يقول تعالى في الأشقياء عذابا غير مجذوذ قوله« وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »

وقوله [إن رحمتي سبقت غضبي] في هذه النشأة ، وعلمنا أن جزاء السعيد على مثل ذلك ثم تعم المنن والرضى الإلهي على الجميع في أي منزل كانوا ، فإن النعيم ليس سوى ما يقبله المزاج وغرض النفوس لا أثر للأمكنة في ذلك ، فحيثما وجد ملاءمة الطبع ونيل الغرض كان ذلك نعيما لصاحبه فإن الوجود رحمة في حق كل موجود وإن تعذّب بعضهم ببعض ، فتخليدهم في حال النعيم غير منقطع وتخليدهم في حال الانتقام موقوف على إرادة ، فقد يعود الانتقام منهم عذابا عليهم لا غير ويزول الانتقام ، ولهذا فسره في مواضع بالألم المؤلم ، وقال : عذاب أليم ، والعذاب الأليم.

ص 355

وفي مواضع لم يقيد العذاب بالأليم وأطلقه فقال :(لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ) *يعني وإن زال الألم فإن السكنى لأهل النار في النار لا يخرجون منها كما قال تعالى« خالِدِينَ فِيها » *يعني في النار ،
وقال في أهل السعادة« خالِدِينَ فِيها » *يعني في الجنة ، ولم يقل فيه فيريد العذاب ، فلو قال عند ذكر العذاب خالدين فيه ، أشكل الأمر ، ولما أعاد الضمير على الدار ، لم يلزم العذاب ،
فإن قال قائل : فكذلك لا يلزم النعيم كما لم يلزم العذاب ، قلنا : وكذلك كنا نقول : ولكن لما قال الله تعالى : في نعيم الجنة إنه عطاء غير مجذوذ ، أي عطاء غير مقطوع ،
وقال : لا مقطوعة ولا ممنوعة ، لهذا قلنا بالخلود في النعيم والدار ، ولم يرد مثل هذا قط في عذاب النار ، فلهذا لم نقل به وما ورد في العذاب شيء يدل على الخلود فيه ، كما ورد في الخلود في النار ، ولكن العذاب لا بد منه في النار وقد غيب عنا الأجل في ذلك ، وما نحن من جهة النصوص على يقين ، إلا أن الظواهر تعطي الأجل في ذلك ، ولكن كميّته مجهولة ، لم يرد بها نص ، ولا نص يعارض ونبقى نحن مع قوله تعالى :« إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ »
وأي شيء أراد ، فهو ذلك ، ولا يلزم أهل الإيمان أكثر من ذلك ، إلا أن يأتي نص بالتعيين متواتر يفيد العلم ، فحينئذ يقطع المؤمن وإلا فلا ،
قام رسول الله صلّى الله عليه وسلم عندما رأى جنازة يهودي فقيل له : إنها جنازة يهودي فقال : أليست نفسا ؟
وهذا أرجى ما يتمسك به أهل الله في شرف النفس الناطقة ، وأن صاحبها وإن شقي بدخول النار فهو كمن يشقى هنا بأمراض النفس ، من هلاك ما له وخراب منزله وفقد ما يعز عليه ألما روحانيا لا حسيا ؛ فإن ذلك حظ الروح الحيواني ، وهذا كله غير مؤثر في شرفها فإنها منفوخة من الروح المضاف إلى الله بطريق التشريف ، فالأصل شريف ، ولما كانت من العالم الأشرف ، قام لها رسول الله صلّى الله عليه وسلم لعينها ، وهذا إعلام بتساوي النفوس في أصلها ، وهذه من أعظم المسائل تؤذن بشمول الرحمة وعمومها لكل نفس ، وإن عمرت النفوس الدارين ، ولا بد من عمارة الدارين كما ورد ، وأن الله سيعامل النفوس بما يقتضيه شرفها بسر لا يعلمه إلا أهل الله ، فإنه من الأسرار المخصوصة بهم ، فكما أن الحد يجمعهم كذلك المقام يجمعهم لذاتهم إن شاء الله تعالى كما قال في الذين شقوا« إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ »ولم يقل عذابا غير مجذوذ كما قال في السعداء ، فإن رحمة الله سبقت غضبه ، ورحمته تعالى وسعت كل شيء منّة واستحقاقا ، وبالأصل فكل ذلك منة منه سبحانه ، فإنه الذي كتب على نفسه الرحمة للمتقي ، والمتقي بمنته سبحانه اتقاه ، وجعله محلا للعمل الصالح.
ص 356

[سورة هود (11) : آية 108]

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ(108)

[أقسام الجنة ومراتب التفاضل]

« وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها »جعلت الجنة دار السعداء ، فهي دار كل سعيد ، وسمّي هؤلاء سعداء لأنهم أقيموا فيما يسهل عليهم ، وهو المساعدة والموافقة »ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ »من حيث جوهرهما لا من حيث صورتهما »إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ »والاستثناء هنا في حق أهل الجنة على معنى إلا أن يشاء ربك ، وقد شاء أن لا يخرجهم ، فهم لا يخرجون فإن الله ما شاء ذلك بقوله« عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »أي غير منقطع لأن اللذة بالجديد الطارئ أعظم في النفس من ملازمة الصحبة .

واعلم أن الجنة جنتان محسوسة ومعنوية ، والجنات ثلاث جنات :

جنة اختصاص إلهي وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حد العمل ، وحدهم من أول ما يولد إلى أن يستهل صارخا إلى انقضاء ستة أعوام ؛ ويعطي الله من شاء من عباده من جنات الاختصاص ما شاء ، ومن أهلها المجانين الذي ما عقلوا ، ومن أهلها أهل التوحيد العلمي ، ومن أهلها أهل الفترات ومن لم تصل إليهم دعوة رسول ، **والجنة الثانية جنة ميراث ينالها كل من دخل الجنة ممن ذكرنا ومن المؤمنين** ، وهي الأماكن التي كانت معينة لأهل النار لو دخلوها ، **والجنة الثالثة جنة الأعمال وهي التي ينزل الناس فيها بأعمالهم** ، فمن كان أفضل من غيره في وجود التفاضل ، كان له في الجنة أكثر ، وسواء كان الفاضل دون المفضول أو لم يكن ، غير أنه فضله في هذا المقام بهذه الحالة ، فما من عمل من الأعمال إلا وله جنة ويقع التفاضل فيها بين أصحابها بحسب ما تقتضي أحوالهم ، فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير ولا ترك محرم ومكروه إلا وله جنة مخصوصة ونعيم خاص يناله من دخلها ،

والتفاضل على مراتب :

فمنها بالسن ولكن في الطاعة والإسلام ، فيفضل كبير السن على الصغير السن إذا كانا على مرتبة واحدة من العمل بالسن ، فإنه أقدم منه فيه ،
ويفضل أيضا بالزمان فإن العمل في رمضان وفي يوم الجمعة وفي ليلة القدر وفي عشر ذي الحجة وفي عاشوراء أعظم من سائر الأزمان وكل زمان عينه الشارع ؛ وتقع المفاضلة بالمكان كالمصلي في المسجد الحرام أفضل من صلاة المصلي في مسجد المدينة ،

ص 357

وكذلك الصلاة في مسجد المدينة أفضل من الصلاة في المسجد الأقصى ، وهكذا فضل الصلاة في المسجد الأقصى على سائر المساجد ، ويتفاضلون أيضا بالأحوال فإن الصلاة في الجماعة في الفريضة أفضل من صلاة الشخص وحده ، وأشباه هذا ، ويتفاضلون بالأعمال فإن الصلاة أفضل من إماطة الأذى ، وقد فضل الله الأعمال بعضها على بعض ، ويتفاضلون أيضا في نفس العمل الواحد ، كالمتصدق على رحمه ، فيكون صاحب صلة رحم وصدقة ،

والمتصدق على غير رحمه دونه في الأجر ، وكذلك من أهدى لشريف من أهل البيت أفضل ممن أهدى لغير شريف أو بره أو أحسن إليه ،

ووجوه المفاضلة كثيرة في الشرع والرسل عليهم السلام إنما ظهر فضلها في الجنة على غيرها بجنة الاختصاص ، وأما بالعمل فهم في جنات الأعمال بحسب الأحوال ، ونشأة الإنسان في الآخرة لا تشبه نشأة الدنيا وإن اجتمعتا في الأسماء والصورة الشخصية ،

فإن الروحانية على نشأة الآخرة أغلب من الحسية فيكون الإنسان بعينه في أماكن كثيرة واعلم أن جنة الأعمال مائة درجة لا غير ،

كما أن النار مائة درك ، غير أن كل درجة تنقسم إلى منازل ،

وهذه المائة درجة في كل جنة من الثماني جنات ، وصورتها جنة في جنة وأعلاها جنة عدن ،

وهي قصبة الجنة فيها الكثيب الذي يكون اجتماع الناس فيه لرؤية الحق تعالى ،

وهي أعلى جنة في الجنات والتي تلي جنة عدن ، إنما هي جنة الفردوس وهي أوسط الجنات التي دون جنة عدن وأفضلها ، ثم جند الخلد ثم جنة النعيم ثم جنة المأوى ثم دار السلام ثم دار المقامة ،

وأما الوسيلة فهي أعلى درجة في جنة عدن وهي لرسول الله صلّى الله عليه وسلم حصلت له بدعاء أمته ، فعل ذلك الحق سبحانه حكمة أخفاها ، فإنا بسببه نلنا السعادة من الله ، وبه كنا خير أمة أخرجت للناس ، وبه ختم الله بنا الأمم كما ختم به النبيين ، وهو صلّى الله عليه وسلم بشر كما أمر أن يقول ، فأمرنا عن أمر الله أن ندعو له بالوسيلة حتى ينزل فيها وينالها بدعاء أمته ، وهذا من باب الغيرة الإلهية ، وأهل الجنة أربعة أصناف الرسل وهم الأنبياء ، والأولياء وهم أتباع الرسل على بصيرة وبينة من ربهم ، والمؤمنون وهم المصدقون بهم عليهم السلام والعلماء بتوحيد الله أنه لا إله إلا الله من حيث الأدلة العقلية ،

وهؤلاء الأربع طوائف يتميزون في جنات عدن عند رؤية الحق في الكثيب الأبيض ، وهم فيه على أربع مقامات :

طائفة منهم أصحاب المنابر وهي الطبقة العليا الرسل والأنبياء ، والطائفة الثانية هم الأولياء ورثة الأنبياء قولا وعملا وحالا وهم على بينة من ربهم ، وهم أصحاب الأسرة

ص 358

والعرش ، والطبقة الثالثة العلماء بالله من طريق النظر والبرهان العقلي ، وهم أصحاب الكراسي ، والطبقة الرابعة وهم المؤمنون المقلدون في توحيدهم ، ولهم المراتب وهم في الحشر مقدمون على أصحاب النظر العقلي ، وهم في الكثيب عند النظر يتقدمون على المقلدين ، فإذا أراد الله أن يتجلى لعباده في الزور العام نادى مناد الحق في الجنات كلها يا أهل الجنان :

حيّ على المنة العظمى والمكانة الزلفى والمنظر الأعلى ، هلموا إلى زيارة ربكم في جنة عدن ، فيبادرون إلى جنة عدن فيدخلونها ، وكل طائفة قد عرفت مرتبتها ومنزلتها فيجلسون ، ثم يؤمر بالموائد فتنصب بين أيديهم ، موائد اختصاص ، ما رأوا مثلها ولا تخيلوه في حياتهم ولا في جناتهم ، جنات الأعمال ، وكذلك الطعام ما ذاقوا مثله في منازلهم ، وكذلك ما تناولوه من الشراب ، فإذا فرغوا من ذلك خلعت عليهم من الخلع ما لم يلبسوا مثلها فيما تقدم ، ومصداق ذلك قوله صلّى الله عليه وسلم في الجنة : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فإذا فرغوا قاموا إلى كثيب المسك الأبيض ، فأخذوا منازلهم فيه على قدر علمهم بالله لا على قدر عملهم ، فإن العمل مخصوص بنعيم الجنان لا بمشاهدة الرحمن فبيناهم على ذلك إذا بنور قد بهرهم فيخرون سجدا فيسري ذلك النور في أبصارهم ظاهرا وفي بصائرهم باطنا وفي أجزاء أبدانهم كلها وفي لطائف نفوسهم ، فيرجع كل شخص منهم عينا كله وسمعا كله ، فيرى بذاته لا تقيده الجهات ويسمع بذاته كلها ، فهذا يعطيهم ذلك النور فبه يطيقون المشاهدة والرؤية ، وهي أتم من المشاهدة ،

فيأتيهم رسول من الله يقول لهم :

تأهبوا لرؤية ربكم جلّ جلاله ، فها هو يتجلى لكم فيتأهبون ، فيتجلى الحق جل جلاله وبينه وبين خلقه ثلاث حجب : حجاب العزة ، وحجاب الكبرياء ، وحجاب العظمة فلا يستطيعون النظر إلى تلك الحجب ، فيقول الله جل جلاله لأعظم الحجبة عنده : ارفعوا الحجب بيني وبين عبادي حتى يروني ، فترفع الحجب فيتجلى لهم الحق جل جلاله خلف حجاب واحد في اسمه الجميل اللطيف إلى أبصارهم ، وكلهم بصر واحد فينفهق عليهم نور يسري في ذواتهم ، فيكونون به سمعا كلهم ، وقد أبهتهم جمال الرب وأشرقت ذواتهم بنور ذلك الجمال الأقدس ،

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم كما جاء في حديث النقاش في مواقف القيامة وهذا تمامه - راجع البقرة آية 210 –

فيقول الله جل جلاله : سلام عليكم عبادي ومرحبا بكم ، حياكم الله ، سلام عليكم من الرحمن الرحيم ، الحي القيوم ، طبتم فادخلوها خالدين ،

ص 359

طابت لكم الجنة ، فطيبوا أنفسكم بالنعيم المقيم والثواب من الكريم ، والخلود الدائم ، أنتم المؤمنون الآمنون وأنا الله المؤمن المهيمن ، شققت لكم اسما من أسمائي ، لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ، أنتم أوليائي وجيراني وأصفيائي وخاصتي وأهل محبتي وفي داري ، سلام عليكم يا معشر عبادي المسلمين ، أنتم المسلمون وأنا السلام وداري دار السلام ، سأريكم وجهي كما سمعتم كلامي ، فإذا تجليت لكم وكشفت عن وجهي الحجب ، فاحمدوني وادخلوا إلى داري غير محجوبين عني بسلام آمنين ، فردوا عليّ ، واجلسوا حولي حتى تنظروا إليّ وتروني من قريب ، فأتحفكم بتحفي ، وأجيزكم بجوائزي وأخصكم بنوري وأغشيكم بجمالي ، وأهب لكم من ملكي ، وأفاكهكم بضحكي وأعلفكم بيدي ، وأشمكم روحي ، أنا ربكم الذي كنتم تعبدوني ولم تروني ، وتحبوني وتخافوني ، وعزتي وجلالي وعلوي وكبريائي وبهائي وسنائي إني عنكم راض ، وأحبكم وأحب ما تحبون ، ولكم عندي ما تشتهي أنفسكم وتلذّ أعينكم ، ولكم عندي ما تدعون وما شئتم ، وكل ما شئتم أشاء ، فاسألوني ولا تحتشموا ولا تستحيوا ولا تستوحشوا ، وإني أنا الله الجواد الغني الملي الوفي الصادق ، وهذه داري قد اسكنتكموها وجنتي قد أبحتكموها ، ونفسي قد أريتكموها ، وهذه يدي ذات الندى والطل مبسوطة ممتدة عليكم لا أقبضها عنكم ، وأنا انظر إليكم لا أصرف بصري عنكم ، فاسألوني ما شئتم واشتهيتم ، فقد آنستكم بنفسي وأنا لكم جليس وأنيس ، فلا حاجة ولا فاقة بعد هذا ، ولا بؤس ولا مسكنة ولا ضعف ولا هرم ولا سخط ولا حرج ولا تحويل أبدا سرمدا ، نعيمكم نعيم الأبد ، وأنتم الآمنون المقيمون الماكثون المكرمون المنعمون ، وأنتم السادة الأشراف الذين أطعتموني واجتنبتم محارمي فارفعوا إلي حوائجكم أقضها لكم وكرامة ونعمة ، قال : فيقولون : ربنا ما كان هذا أملنا ولا أمنيتنا ، ولكن حاجتنا إليك النظر إلى وجهك الكريم أبدا أبدا ، ورضى نفسك عنا ، فيقول لهم العلي الأعلى مالك الملك السخي الكريم تبارك وتعالى : فهذا وجهي بارز لكم أبدا سرمدا فانظروا إليه وأبشروا ، فإن نفسي عنكم راضية فتمتعوا ، وقوموا إلى أزواجكم فعانقوا وانكحوا ، وإلى ولائدكم ففاكهوا ، وإلى غرفكم فأدخلوا ، وإلى بساتينكم فتنزهوا ، وإلى دوابكم فاركبوا ، وإلى فرشكم فاتكئوا ، وإلى جواريكم وسراريكم في الجنان فاستأنسوا ، وإلى هداياكم من ربكم فاقبلوا ، وإلى كسوتكم فالبسوا ، وإلى مجالسكم فتحدثوا ، ثم قيلوا قائلة

ص 360

لا نوم فيها ولا غائلة ، في ظل ظليل وأمن مقيل ومجاورة الجليل ، ثم روحوا إلى نهر الكوثر والكافور والماء المطهر والتسنيم والسلسبيل والزنجبيل ، فاغتسلوا وتنعموا ، طوبى لكم وحسن مآب ، ثم روحوا فاتكئوا على الرفارف الخضر والعبقري الحسان والفرش المرفوعة ، في الظل المدود والماء المسكوب والفاكهة الكثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ،

ثم تلا رسول الله صلّى الله عليه وسلم (إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) ثم تلا هذه الآية (أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) **- إلى هنا انته حديث أبي بكر النقاش -** ثم إن الحق تعالى بعد هذا الخطاب يرفع الحجاب ويتجلى لعباده ، فيخرون سجّدا فيقول لهم : ارفعوا رءوسكم فليس هذا موطن سجود ، يا عبادي ما دعوتكم إلا لتنعموا بمشاهدتي ، فيمسكهم في ذلك ما شاء الله ، فيقول لهم : هل بقي لكم شيء بعد هذا ؟

فيقولون : يا ربنا وأي شيء بقي ، وقد نجيتنا من النار وأدخلتنا دار رضوانك وأنزلتنا بجوارك وخلعت علينا ملابس كرمك وأريتنا وجهك ؟

فيقول الحق جل جلاله : بقي لكم ، فيقولون : يا ربنا وما ذاك الذي بقي ؟

فيقول : دوام رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبدا ، فما أحلاها من كلمة وما ألذها من بشرى ، وتتفاضل الناس في رؤيته سبحانه ويتفاوتون تفاوتا عظيما على قدر علمهم فمنهم ومنهم ، ثم يقول سبحانه لملائكته : ردوهم إلى قصورهم فلا يهتدون ، لأمرين : لما طرأ عليهم من سكر الرؤية ، ولما زادهم من الخير في طريقهم فلم يعرفوها ، فلو لا أن الملائكة تدل بهم ما عرفوا منازلهم فإذا وصلوا إلى منازلهم تلقاهم أهلهم من الحور والولدان ، فيرون جميع ملكهم قد كسي بهاء وجمالا ونورا من وجوههم أفاضوه إفاضة ذاتية على ملكهم ، فيقولون لهم لقد زدتم نورا وبهاء وجمالا ما تركناكم عليه ، فيقول لهم أهلها :

وكذاكم أنتم قد زدتم من البهاء والجمال ، ما لم يكن فيكم عند مفارقتكم إيانا ، فينعم بعضهم ببعض .

[سورة هود (11) : الآيات 109 إلى 112]

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111)فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(112)

ص 361

أمر الإله من الإله تعلق *** ما أمره في العالمين محقق
إلا بواسطة الرسول فإنّه *** أمر مطاع سرّه يتحقق
إن خالفت أمر الإله إرادة *** منه تكاد النفس منه تزهق
ولذاك شيبت النبي مقالة *** هي فاستقم فيما أمرت توفق
فإذا أراد نقيض ما أمرت به *** نفس المكلّف فالوقوع محقق
[فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ - الآية]
ما خاطب الله نبيه بالاستقامة المطلقة ، إذ ما ثم طريق إلا وهو مستقيم موصل إلى الله من قوله تعالى« إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ »ولكن قيد خطابه بقوله تعالى :« كَما أُمِرْتَ »فمعنى الاستقامة هنا الحركات والسكنات على الطريقة المشروعة ، والصراط المستقيم هو الشرع الإلهي ، والإيمان بالله رأس هذا الطريق ، وشعب الإيمان منازل هذا الطريق التي بين أوله وغايته وما بين المنزلين أحواله وأحكامه .
ولما كان أحد لا يعرف هل وافق أمر الله إرادته فيه أنّه يمتثل أمره أو يخالفه ؟ لهذا صعب على رسول الله صلّى الله عليه وسلم أمر الله واشتدّ ، فقال شيبتني هود ، فإنها السورة التي نزل فيها« فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ » وأخواتها مما فيه هذه الآية أو معناها ، فالناس من ذلك على خطر« وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا » أي لا ترتفعوا عن أمره بما تجدونه في نفوسكم من خلقكم على الصورة الإلهية ، فتقولوا مثلنا لا يكون مأمورا ، فانظر فيما أمرت به أو نهيت عنه من حيث أنك محلّ لوجود عين ما أمرت به أو نهيت عنه ، فمتعلق الأمر عند صاحب هذا النظر أن يهيّئ محله بالانتظار ، فإذا جاء الأمر الإلهي الذي يأتي بالتكوين بلا واسطة ، فينظر أثره في قلبه أولا ، فإن وجد الإباية قد تكونت في قلبه فيعلم

ص 362

أنه مخذول وأن خذلانه منه ، لأنه على هذه الصورة في حضرة الثبوت عينه التي أعطت العلم لله به ، وإن وجد غير ذلك وهو القبول فكذلك أيضا فينظر في العضو الذي تعلق به ذلك الأمر المشروع أن يتكون فيه من أذن أو عين أو يد أو رجل أو لسان أو بطن أو فرج ، فإنا قد فرغنا من القلب بوجود الإباية أو القبول ، فلا نزال نراقب حكم العلم فينا من الحق حتى نعلم ما كنا فيه فإنه لا يحكم فينا إلا بنا .

ألم تعلم بأن الله منّا *** يرانا والوجود لنا شهيد
فيلزمنا الحياء فلا يرانا *** بحيث نهى ونحن له شهود
وذا من أعجب الأشياء عندي *** فيأمرنا ويفعل ما يريد
يقول لي استقم ويريد مني *** مخالفة يؤيدها الوجود
فيا قوم اسمعوا ما قلت فيمن *** هو المولى ونحن له عبيد
يريد الأمر لا المأمور فانظر *** إلى حكم يشيب له الوليد

[سورة هود (11) : آية 113]

وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ(113)

"فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ " وذلك من أثر حكم الدار والموطن ، فقد جعل رسول الله صلّى الله عليه وسلم مولى القوم منهم في الحكم ، فمن جاور مواضع التهم لا يلومن من نسبه إليها ، وكما يحكم على أهل دار الكفر الدار ، وإن كان فيها من لا يستحق ما يستحقه الكفار ،

قال صلّى الله عليه وسلم : [أنا بريء من مسلم يقيم بين أظهر المشركين]

- إشارة - لا تركن إلى غير الله ، واكتف بالله في سؤالك ، تسعد إن شاء الله ، فإن من ركن إلى جنسه فقد ركن إلى ظالم ، فإن الله يقول في الإنسان : إنه كان ظلوما لحمله الأمانة ، وما من أحد من الناس إلا حملها .

[سورة هود (11) : آية 114]

وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ(114)

ص 363

"وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ »أعطى الحق تعالى الصلاة الليل والنهار حتى يعم الزمان بركتها« إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ »يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [أتبع السيئة الحسنة تمحها] فكلما ذكرت خطيئة أتيتها فتب عنها عقيب ذكرك إياها ، واستغفر الله منها واذكر الله عندها بحسب ما كانت تلك المعصية ، وإذا عصيت الله بموضع ، فلا تبرح من ذلك الموضع ، حتى تعمل فيه طاعة وتقيم فيه عبادة ، فكما يشهد عليك إن استشهد يشهد لك وحينئذ تنتزح عنه ، وكذلك ثوبك إن عصيت الله فيه فاعبد الله فيه قبل أن تفارقه« ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ ».

[سورة هود (11) : آية 115]

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115)

-إشارة - لتعلم أن الصلاة انبعثت من الحضرة الصمدانية المقدسة ، فاغتنمها فهي كالخطرة المختلسة ، نظرت إليها الحضرة النورية فوهبتها أسرارها ، وأفاضت عليها الحضرة القيومية أنوارها ، ولما كانت هذه الصلوات تختص بالمناجاة الربانية وترد عليها إذا خاطبت بالمناجاة الإلهية ، وتعمّ جميع المقامات المخصوصة بروحانية أهل السماوات ، وجيئت بجميع الحركات المستقيمة في الإنسانيات عند القراءات ،
والأفقيات في الحيوانات عند الركوع للأذكار المعظمات ، والمنكوسة في النباتات عند السجود لابتغاء القربات ، وكانت الصلوات خمسا لمطابقتها أصول تركيب الإنس (الماء ، التراب ، النار ، الهواء ، الروح)
لأن الخمسة وحدها من بين سائر الأعداد تحفظ نفسها وغيرها ، فاعرف قدرها واشكر خيرها ، واعلم أنه تعالى قسم هذه الصلوات قسمين ، وجعل لها حكمين ، لتحصيل علمين ، في عالمين راجعين إلى حاكمين ، فقسم واحد خصه بالعقل ، وهو الحضور والتدبر لما يتلوه بعد عقد النية ، وقسم آخر خصه بالحس وهو التلاوة وجميع حركات الصلاة ، لما كانت لا توجد إلا في هذه البنية ، وأما الحكمان ، فحكم العقل التوجه إلى القربة ، وحكم الحس التوجه إلى الكعبة ، وإنما قيدنا بجهة واحدة عن الجهات ، لإزالة الحيرة والالتفات ، وإشارة إلى فضل الجمع على الشتات ، وأما العلمان : فالعلم الواحد يختص بالعقل وهو علم التنزلات والعلم الآخر يختص بالحس وهو علم التجليات ، وأما العالمان ، فالعالم الواحد عالم الغيب ، والعالم الآخر عالم الشهادة المقدس عن الريب ، وأما الحاكمان ، فالحاكم الواحد الاسم الظاهر ،

ص 364

والحاكم الآخر الاسم الباطن بلا مؤازر ، ولما اشتق الله تعالى لهذه الصلاة أسماء من أوقاتها لا من ساعاتها ، علمنا أن ذلك لسرّ أبداه ، وخير إلينا أسداه ، فصلاة الظهر في العقل لظهوره بالعلم ، وفي الحس لظهوره بالفعل في خلق الظهيرة والحكم ، وصلاة العصر في العقل لضمه إياه في عقل معرفته عن النقل ، وفي الحسّ لضمه إياه في فروع الأحكام إلى النقل عن العقل ، بضم الشمس إلى الغيب لوجود الفصل والفضل ، وصلاة المغرب في العقل لاستتاره بالأدلة الفكرية ، وفي الحس لاستتاره عن الكيفية ، وصلاة العشاء في العقل لاستسلامه إلى سلطان السمع ، فلاحت له بارقة من بوارق الجمع ، فغشيت عين بصيرته لشدة ظلام الطبع ، وفي الحس لاستتار المبصرات بجلابيب الظلمات ، فكأن العين غشيت عن إدراكها في أصل الوضع ، وصلاة الفجر في العقل لانفجار بحار الأسرار ، وفي الحسّ لانفجار بحار الأبصار .

واعلم أن الصلوات المفروضة كلها نهارية ، إما بالشمس وإما بآثارها ، إلا العشاء الأخيرة فإنّها مشتركة بين الليل وبين النهار أنوارها ، وذلك لسرّ غريب ، ومعنى عجيب ، وهو أن الصلاة تكليف ، ففيها مشقة وتعنيف ، هما صفتان للنهار دون الليل عقلا وإحساسا ، فجعل النهار معاشا وجعل النوم سباتا ، حين جعل الليل لباسا ، وانظر ما أوزن هذا التعريف بحكمة التكليف ، ثم اعلم أن الصلاة البرزخية ، وهي المغرب فرضها سبحانه بين جهر في شفع ، وسرّ في وتر ، وذلك في العقل لأن البرزخ في الصلاة أمر معقول بين عبد ورب علي قدر ، لأن العبد بالليل منوط ، والرب بضوء شمس الله مربوط ، وفي الحسّ بين كشف وستر ، وأن الصلاة النهارية مفروضة بين شفع وسرّ ، فالشفع للخلق ، والسر للوتر ، فإن الخلق إذا ظهر احتجب الحق واستتر ، فلهذا شفع الظهر والعصر ، وبالقراءة أسر ، وجهر في كل صلاة الفجر لقرب طلوع الشمس .

[سورة هود (11) : الآيات 116إلى 118]

فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ (117) وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118)

ص 365

[المشيئة الإلهية]

اعلم أن المشيئة الإلهية ، لما كان لها أثر في الفعل لهذا نفى تعلقها بما لا يقبل الانفعال من حيث مرجحه لا من حيث نفسه ، فإن قلت فما فائدة إخبار الله تعالى بأنه لو شاء لفعل كذا مع كون كذا يستحيل وقوعه عقلا لكون المشيئة الإلهية لم تتعلق به ؟ قلنا : إن ذلك إعلام لنا أن ذلك الأمر الذي نفى تعلق المشيئة الإلهية ، بكونه ، ليس يستحيل كونه بالنظر إلى نفسه لإمكانه ، فإنه يجب له أن يكون في نفسه قابلا لأحد الأمرين ، فيفتقر إلى المرجح بخلاف المحال لنفسه ، فإنه يستحيل نفي تعلق المشيئة بكونه ، فإنه لا يكون لنفسه ، فكانت فائدة إخبار الله تعالى بقوله« لَوْ شاءَ » *فيما لا يقع إعلاما أنه بالنظر إلى ذاته ممكن الوقوع ، ليفرق لنا سبحانه بين ما هو في الإمكان وبين ما ليس بممكن ، فنفى تعلق المشيئة والإرادة به قال تعالى »:وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ »لاختلاف معتقداتهم ، فهم يخالفون المرحومين مخالفيهم .

[سورة هود (11) : آية 119]

إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119)

-الوجه الأول -« إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ »وهم أهل الجمع الذين عرفوه في الاختلاف في التجلي فلم ينكروه - الوجه الثاني -« إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ »فما زالوا من الخلاف لأنهم قد خالفوا المختلفين« وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ »أي من أجل الخلاف خلقهم لتظهر أسماؤه في الوجود ، فما تعدى كل خلق ما خلق له ، فالكل طائع وإن كان فيهم من ليس بمطيع مع كونه طائعا ، فما ثم إلا اختلاف ، ولا يكون إلا هكذا ، فإذا سمعت أن ثمّ أهل جمع فليس إلا من جمع مع الحق على ما في العالم من الخلاف ، لأن الأسماء الإلهية مختلفة وما ظهر العالم إلا بصورتها ، فأصل اختلاف المعتقدات في العالم الكثرة في العين الواحدة ، فإن الله من حيث نفسه له أحدية الأحد ، ومن حيث أسماؤه له أحدية الكثرة ، فهذا هو السبب الموجب

ص 366

لتجليه تعالى في الصور المختلفة ، وتحوله فيها لاختلاف المعتقدات في العالم إلى هذه الكثرة ، فكان الحق سبحانه أول مسئلة خلاف ظهر في العالم ، لأن كل موجود في العالم أول ما ينظر في سبب وجوده ، لأنه يعلم في نفسه أنه لم يكن ثم كان بحدوثه لنفسه ، واختلفت فطرهم في ذلك ، فاختلفوا في السبب الموجب لظهورهم ما هو ؟ فلذلك كان الحق أول مسئلة خلاف في العالم ، ولما كان أصل الخلاف في العالم في المعتقدات ، وكان السبب أيضا وجود كل شيء من العالم على مزاج لا يكون للشيء الآخر ، لهذا كان مآل الجميع إلى الرحمة لأنه خلقهم وأظهرهم في العماء وهو نفس الرحمن .

[سورة هود (11) : آية 120]
وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (120)

[خصّ صلّى الله عليه وسلم بعلم إحياء الأموات معنى وحسا]
خصّ صلّى الله عليه وسلم بعلم إحياء الأموات معنى وحسا ، فحصل العلم بالحياة المعنوية وهي حياة العلوم والحياة الحسية ، وهو ما أتى في قصة إبراهيم عليه السلام تعليما وإعلاما لرسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وهو قوله تعالى :« وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ »وذلك تسكين ورفق من الله لما يجده رسوله صلّى الله عليه وسلم من ردّ أمره ، فيجد لذلك عزاء في نفسه ، لما يرى من منازعة أمته إياه فيما جاء به عن الله ، وليري نبيه صلّى الله عليه وسلم ما قاست الأنبياء من أممهم فيعزي نفسه بذلك وتثبيتا لفؤاده صلّى الله عليه وسلم ، إن وقع منا في أمر الله ما وقع من هؤلاء« وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ » « وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى »لنا نحن« لِلْمُؤْمِنِينَ »لنشكر الله على ما أولانا من نعمه ، حيث آمنا واستسلمنا ولم نكلف نبينا أن يسأل ربه شيئا مثل ما كلّفت الأمم رسلها ، فنشكره سبحانه على هذه النعمة إذ لو شاء لألقى في قلوبنا ، ما ألقاه في قلوب الأمم قبلنا . واعلم أن جميع هذا القصص ، إنما هو قناطر وجسور موضوعة نعبر عليها إلى ذواتنا وأحوالنا المختصة بنا ، فإن فيها منفعتنا ، إذ كان الله نصبها معبرا ، فما أبلغ قوله تعالى« وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى »لما فيك وما عندك بما نسيته ، فيكون هذا الذي قصصته عليك يذكرك بما فيك وما نبهتك عليه.

ص 367

[سورة هود (11) : الآيات 121 إلى 123]
وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)
لما تغرّب الأمر عند المحجوبين عن موطنه بما ادعوه فيه لأنفسهم قيل لهم: [" وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ »]
« وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ »لو نظرتم من نسبتم إليه هذا الفعل منكم ، إنما هو الله لا أنتم ، فأضاف الحق الأفعال إليه ليحصل للعبد الطمأنينة ، بأن الدعوى لا تصح فيها مع التمييز بين ما يستحقه الحق عزّ وجل وما لا يستحقه ، فإذا بلغ العبد هذا الحدّ ردّ الأمور كلها لله ، ولما رجع الأمر كله لله مما وقعت فيه الدعاوى الكاذبة ، لم يدل رجوعها إلى الله تعالى على أمر لم يكن عليه الله ، بل هويته هي هي في حال الدعاوى في المشاركة وفي حال رجوع الأمر إليه ، والمقام ليس إلا للتمييز والحقيقة ، ما عصى الله أحد ولا أطاعه بل الأمر كله لله ، فأفعال العبد خلق لله والعبد محلّ لذلك الخلق ، فالأصل في العالم قبول الأمر الإلهي في التكوين ، والعصيان أمر عارض له نسبي ، فإليه يرجع الأمر كله ، يعني الذي عليه العالم بأسره ، ما صح منه وما اعتل ، فلا تنظر إلى المناصب وانظر إلى الناصب الذي يعمل بحكم الموطن لا بما يقتضيه النظر العقلي ، فمن موطن الدنيا أن يعامل فيها الجليل بالإجلال في وقت ، وفي وقت يعامل الجليل بالصغار ، وفي وقت يعامل الصغير بالصغار ، وفي وقت يعامل الصغير بالجلال بخلاف موطن الآخرة ،
فإن العظيم بها يعامل بالعظمة ، والحقير بها يعامل بالحقارة ، ولو نظر الناظر لرأى في الدنيا من يقول في الله ما لا يليق به تعالى ومن يقول فيه ما يليق به من التنزيه والثناء ، فالناظر إذا كان عاقلا علم بعقله أن موطن الدنيا كذا يعطي ويترك عنه الجواز العقلي الذي يمكن في كل فرد فرد من أفراد العالم ،
فإن هذا الجواز في عين الشهود ليس بعلم ولا صحيح ، وليكن العاقل مع الواقع في الحال ، فإن ذلك صورة الأمر على ما

ص 368

هو عليه في نفسه ، فإنّ الله تعالى ذكرنا بنفسه لنعلم أن المرجع إليه ، فلا نقوم في شيء نحتاج فيه إلى الاعتذار عنه أو نستحي منه عند المرجع إليه ، فهو تعالى على صراط مستقيم ، ومنه بدأ الأمر كله ولذلك جاء بالرجوع ، لأنه لا يمكن أن يكون الرجوع إلا من خروج متقدم ، والموجودات كلها والمحدثات ما خرجت إلى الوجود إلا عن الله ، فلهذا ترجع أحكامها إليه ولم تزل عنده ، وإنما سميت راجعة لما طرأ للخلق من رؤية الأسباب التي هي حجب على أعين الناظرين ، فلا يزالون ينظرون ويخترقون الأسباب من سبب إلى سبب حتى يبلغوا إلى السبب الأول ، وهو الحق فهذا معنى الرجوع ، ومن جهة أخرى لما كانت الأسماء والصفات كلها لله تعالى حتى ما يزعم العبد أنها له ،

قال تعالى: " وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ " فأخذ منه جميع ما كان يزعم أنه له إلا العبادة ، فإنه لا يأخذها إذ كانت ليست بصفة له ،

فقال له تعالى: " وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ »وهو أصله الذي خلق له (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) فالعبادة اسم حقيقي للعبد ، فهي ذاته وموطنه وحاله وعينه ونفسه وحقيقته ووجهه ، وأتى باسمه المضمر في « فَاعْبُدْهُ »لأنه إن عبدته من حيث عرفته فنفسك عبدت ، وإن عبدته من حيث لم تعرفه فنسبته إلى المرتبة الإلهية فالمرتبة عبدت ، وإن عبدته عينا من غير مظهر ولا ظاهر ولا ظهور ، بل هو هو لا أنت ، وأنت أنت لا هو ،

فهو قوله :« فَاعْبُدْهُ »فقد عبدته ، وتلك المعرفة التي ما فوقها معرفة ، فإنها معرفة لا يشهد معروفها ،« فَاعْبُدْهُ » أي تذلّل له في كل صراط يقيمك فيه ، لا تتذلل لغيره ، فإن غيره عدم ، ومن قصد العدم لم تظفر يداه بشيء ، ولا تقل أنت المدرك ، فإن الأبصار لا تدركه ، إذ لو أدرك الغيب ، ما كان غيبا ، لذلك جاء بضمير الغائب في قوله« فَاعْبُدْهُ »فاعبد ذاتا منزهة مجهولة لا تعرف منها سوى نسبتك إليها بالافتقار ، ولهذا تمم فقال »: وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ »أي اعتمد عليه« وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »من دعواكم أن الأمر إليكم ، وهو لله ، وقطع بهذا ظهر المدّعين بالاستقامة على العبودية والتوكل ، إذا لم يكن صفتهم ولا حالهم ، فقوله تعالى« وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ »يشير به للإنسان للبراءة من نفسه ، ورد الأمر كله إلى الله ، فالحق سبحانه غاية الطرق ، قصدت الطرق أو لم تقصد ، فما هو غاية قصد السالك ، فإن السالك مقيد القصد)ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها) وفيه إشارة إلى أنه ما في الوجود بحكم الحقيقة إلا طاهر ، فإن الاسم القدوس يصحب الموجودات ، وبه يثبت

ص 369

قوله :" وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » من تفريقكم بين الله وبين عباده ، ولا ينبغي أن يحال بين العبد وسيده ، ولا يدخل بين العبد والسيد إلا بخير ولهذا شرع الشفاعة وقبل العذر ، وأما النجاسة فهي أمر عرضي ، عيّنه حكم شرعي ، والطهارة أمر ذاتي ، ولما كان الوجود منه قال تعالى »: وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ » بين البدء والختم وهو الرجوع« وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ »فيهما ، فهل طلب منك ما ليس لك فيه تعمل ؟

" وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " فلا بد من حقيقة هنا تعطي إضافة العمل إليك مع كونه خلقا لله تعالى ، حيث أنتم مظاهر أسمائه الحسنى ، وبها تسعدون وتشقون ، (وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ) فأضاف العمل لك ، وجعل نفسه رقيبا عليه وشهيدا ، لا يغفل ولا ينسى ، ذلك لتقتدي أنت به فيما كلفك من الأعمال ، فلا تغفل ولا تنسى لأنك أولى بهذه الصفة لافتقارك إليه وغناه عنك ، فسلّم الأمر إليه واستسلم ، تكن موافقا لما هو الأمر عليه في نفسه ، فتستريح من تعب الدعوى بين الافتتاح والختم ، وإذا علمت هذا فارجع إليه مختارا ولا ترجع مضطرا ، فإنه لا بد من رجوعك إليه ، ولا بد أن تلقاه كارها كنت أو محبا ، فإنه يلقاك بصفتك لا يزيد عليها ، فانظر لنفسك يا ولي ،

قال صلّى الله عليه وسلم : [من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله ، كره الله لقاءه]

ولما كان لقاء الله لا يكون إلا بالموت ، فمن علم الموت استعجله في الحياة الدنيا ، فيموت في عين حياته عن جميع تصرفاته وحركاته وإراداته فيلقى الله بحكم من يلقاه محبا للقائه ، فإذا جاء الموت المعلوم في العامة وانكشف غطاء هذا الجسم ، لم يتغير عليه حال ولا زاد يقينا ، فما يذوق إلا الموتة الأولى ، وهي التي ماتها في حياته ، قال عليّ رضي الله عنه : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، فمن رجع إلى الله هذا الرجوع سعد وما أحس بالرجوع المحتوم الاضطراري ، فإنه ما جاءه إلا وهو هناك عند الله ، فغاية ما يكون الموت المعلوم في حقه أن نفسه التي هي عند الله يحال بينها وبين تدبير هذا الجسم الذي كانت تدبره ،

فتبقى مع الحق على حالها ؛ وينقلب هذا الجسد إلى أصله ، وهو التراب الذي منه نشأت ذاته ،

فكأن دارا رحل عنها ساكنها ، فأنزله الملك في مقعد صدق عنده إلى يوم يبعثون ، ويكون حاله في بعثه كذلك لا يتغير عليه حال مع كونه مع الحق لا من حيث ما يعطيه الحق مع الأنفاس ، وهكذا في الحشر العام وفي الجنان التي هي مقره ومسكنه ، وفي النشأة

ص 370

التي ينزل فيها ، وهذا الرجوع ما هو رجوع التوبة فإنّه لذلك الرجوع حدّ خاص ، وهذا رجوع عام في كل الأحوال التي يكون عليها الإنسان .

- **تحقيق -** المسافر ترك الحق في أهله خليفة ، شفقة عليهم وحذرا وخيفة ، وما خاف عليهم إلا منه ، لأنه ما يصدر شيء إلا عنه ، إذا كان السيد راعي الغنم ، فما جار وما ظلم ، وما ينال منها إلا ما يقوته ، وقوته ما يفوته ، قوته آثار أسمائه في عباده ، وبها عمارة بلاده ، فحراثة وزراعة ، وتجارة وبضاعة ، لذلك وصف باليدين ، وأظهر في الكون النجدين ، فالواحدة بائعة والأخرى مبتاعة ، إلى قيام الساعة ، ولكل يد طريق ، هذا هو التحقيق ، فإن حكم المشتري ما هو حكم البائع ، وهذا ما لا شك فيه من غير مانع ولا منازع ، آئبون تائبون وهو التواب وإليه المآب .

- **تحقيق -** قال تعالى :« وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ »سمّي رجوعا لكونه منه خرج ، وإليه يعود وفيما بين الخروج والعود ، وضعت الموازين ، ومد الصراط ووقعت الدعاوى ، وظهرت الآفات ، وكانت الرسل وجاءت الأدواء ، فمنهم المستعمل لها ، والآخذ بها والتارك لها .

(12) سورة يوسف مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[سورة يوسف (12) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (3)

« وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ »فانتبه قلبك من سنة الغفلة ، والغفلة لا تكون إلا عن سلطنة الأمر الطبيعي والمزاج.

ص 371

[سورة يوسف (12) : الآيات 4 إلى 5]
إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (4) قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5)
وذلك لما علم يعقوب عليه السلام من علم أبنائه بتأويل ما مثّل الحق ليوسف عليه السلام في رؤياه ، إذ ما كان ما رآه ومثل له إلا عين إخوته وأبويه ، فأنشأ الخيال صورة الإخوة كواكب ، وصورة الأبوين شمسا وقمرا ، وكلهم لحم ودم وعروق وأعصاب ، فانظر هذه النقلة من عالم السفل إلى عالم الأفلاك ، ومن ظلمة هذا الهيكل إلى نور الكوكب ، فقد لطف الكثيف ، ثم عمد إلى مرتبة التقدم وعلو المنزلة والمعاني المجردة فكساها صورة السجود المحسوس فكثف لطيفها ، والرؤيا واحدة ، ولولا قوة الخيال وجمعيته ما جرى ما جرى ثم برأ يعقوب عليه السلام أبناءه عن ذلك الكيد وألحقه بالشيطان ، وليس إلا عين الكيد ، فقال :« إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ »أي ظاهر العداوة
[- الرؤيا -]
-الرؤيا - اعلم أيدك الله أن للإنسان حالتين حالة تسمى النوم وحالة تسمى اليقظة ، وفي كلتا الحالتين جعل الله له إدراكا يدرك به الأشياء ، تسمى تلك الإدراكات في اليقظة حسا ، وتسمى في النوم حسا مشتركا ، فكل شيء تبصره في اليقظة يسمى رؤية ، وكل ما تبصره في النوم يسمى رؤيا مقصورا ، وجميع ما يدركه الإنسان في النوم هو مما ضبطه الخيال في حال اليقظة من الحواس ، وهو على نوعين :
إما ما أدرك صورته في الحس ،
وإما ما أدرك أجزاء صورته التي أدركها في النوم بالحس لا بد من ذلك ،
فإن نقصه شيء من إدراك الحواس في أصل خلقه ، فلم يدرك في اليقظة ذلك الأمر فقد المعنى الحسي الذي يدركه به في أصل خلقته ، فلا يدركه في النوم أبدا ، فالأصل الحسّ ، والإدراك به في اليقظة والخيال تبع في ذلك ، وقد يتقوى الأمر على بعض الناس فيدركون في اليقظة ما كانوا يدركونه في النوم ، وذلك نادر وهو للنبي والولي ، واعلم أن مبدأ الوحي الرؤيا الصادقة ، وهي لا تكون إلا في حال النوم ، قالت عائشة في الحديث الصحيح
[أول ما بدئ به رسول الله صلّى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح]
وسبب ذلك صدقه صلّى الله عليه وسلم ، فإنه

ص 372

ثبت عنه أنه قال أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ، فكان لا يحدث أحدا صلّى الله عليه وسلم بحديث عن تزوير يزوره في نفسه ، بل يتحدث بما يدركه بإحدى قواه الحسية أو بكلها ، ما كان يحدث بالغرض ولا يقول ما لم يكن ، ولا ينطق في اليقظة عن شيء يصوره في خياله مما لم ير لتلك الصورة بجملتها عينا في الحس ، فهذا سبب صدق رؤياه ، وإنما بدئ الوحي بالرؤيا دون الحس لأن المعاني المعقولة أقرب إلى الخيال منها إلى الحس ، لأن الحس طرف أدنى ، والمعنى طرف أعلى وألطف ، والخيال بينهما والوحي معنى ، فإذا أراد المعنى أن ينزل إلى الحس فلا بد أن يعبر على حضرة الخيال قبل وصوله إلى الحس ، والخيال من حقيقته أن يصور كل ما حصل عنده في صورة المحسوس ، لا بد من ذلك ، فإن كان ورود ذلك الوحي الإلهي في حال النوم سمي رؤيا ، وإن كان في حال اليقظة سمي تخيلا أي خيل إليه ، فلهذا بدئ الوحي بالخيال ، ثم بعد ذلك انتقل الخيال إلى الملك من خارج ، فكان يتمثل له الملك رجلا أو شخصا من الأشخاص المدركة بالحس ، وقد ينفرد هذا الشخص المراد بذلك الوحي بإدراك هذا الملك ، وقد يدركه الحاضرون معه ، فيلقي على سمعه حديث ربه وهو الوحي ، وتارة ينزل على قلبه صلّى الله عليه وسلم فتأخذه البرحاء وهو المعبر عنه بالحال ، فإن الطبع لا يناسبه ، وانفرد الأنبياء في ذلك بالتشريع ، فقد يكون الولي بشيرا ونذيرا ولكن لا يكون مشرعا ، فإن الرسالة والنبوة بالتشريع قد انقطعت فلا رسول بعده ولا نبي ، أي لا مشرع ولا شريعة ،

ثبت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال : [إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي]

فشق ذلك على الناس فقال : [لكن المبشرات]

فقالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟

فقال : [رؤيا المسلم ، وهي جزء من أجزاء النبوة] هذا حديث حسن صحيح من حديث أنس بن مالك ،

وعن أبي هريرة وحذيفة وابن عباس وأم كرز ، أنه صلّى الله عليه وسلم أخبر أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوة ، فقد بقي للناس من النبوة هذا وغيره ، ومع هذا لا يطلق اسم النبوة ولا النبي إلا على المشرع خاصة ، فحجر هذا الاسم لخصوص وصف معيّن في النبوة ، وما حجر النبوة التي ليس فيها هذا الوصف الخاص ، وإن كان حجر الاسم ، فنتأدب ونقف حيث وقف صلّى الله عليه وسلم بعد علمنا بما قال وما أطلق وما حجر ، فنكون على بينة من أمرنا ، وإذا علمت هذا فلنقل إن الرؤيا ثلاث ، منها بشرى ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه في اليقظة ، فيرتقم في خياله ، فإذا نام أدرك ذلك بالحس المشترك لأنه تصوره في يقظته ، فبقي مرتسما

ص 373

في خياله ، فإذا نام وانصرفت الحواس إلى خزانة الخيال أبصرت ذلك ، والرؤيا الثالثة من الشيطان ، عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا ، ورؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ،
والرؤيا ثلاث : فالرؤيا الصالحة بشرى من الله تعالى ، ورؤيا من تحزين الشيطان ، ورؤيا مما يحدث الرجل به نفسه ، وإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم وليتفل ولا يحدث به الناس] - الحديث - وفي حديث أبي قتادة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم]إذا رأى أحدكم شيئا يكرهه فلينفث عن يساره ثلاث مرات ، وليستعذ بالله من شرها فإنها لا تضرّه] وهو حديث حسن صحيح ،
وفي الحديث الصحيح عن النبي صلّى الله عليه وسلم [إن رؤيا المسلم على رجل طائر ما لم يحدث بها فإذا حدث بها وقعت]
واعلم أن لله ملكا موكلا بالرؤيا يسمى الروح ، وهو دون السماء الدنيا ، وبيده صور الأجساد التي يدرك النائم فيها نفسه وغيره ، وصور ما يحدث من تلك الصور من الأكوان ، فإذا نام الإنسان ، أو كان صاحب غيبة أو فناء أو قوة إدراك لا يحجبه المحسوسات في يقظته عن إدراك ما بيد هذا الملك من الصور ، فيدرك هذا الشخص بقوته في يقظته ما يدركه النائم في نومه ، وذلك أن اللطيفة الإنسانية تنتقل بقواها من حضرة المحسوسات إلى حضرة الخيال المتصل بها ، الذي محله مقدم الدماغ ، فيفيض عليها ذلك الروح الموكل بالصور من الخيال المنفصل عن الإذن الإلهي ما يشاء الحق أن يريه هذا النائم أو الغائب أو الفاني أو القوي ، من المعاني متجسدة في الصور التي بيد هذا الملك ، فمنها ما يتعلق بالله وما يوصف به من الأسماء ، فيدرك الحق في صورة ، أو القرآن أو العلم أو الرسول الذي هو على شرعه ، فهنا يحدث للرائي ثلاث مراتب أو إحداهن ،
المرتبة الواحدة أن تكون الصورة المدركة راجعة للمرئي بالنظر إلى منزلة ما من منازله وصفاته التي ترجع إليه ، فتلك رؤيا الأمر على ما هو عليه بما يرجع إليه ،
والمرتبة الثانية أن تكون الصورة المرئية راجعة إلى حال الرائي في نفسه ،
والمرتبة الثالثة أن تكون الصورة المرئية راجعة إلى الحق المشروع والناموس الموضوع ، أي ناموس كان في تلك البقعة التي ترى تلك الصورة فيها ، في ولاة أمر ذلك الإقليم القائمين بناموسه ، وما ثم مرتبة رابعة سوى ما ذكرناه ،
فالأولى وهي رجوع الصورة إلى عين المرئي فهي حسنة كاملة ولا بد ، لا تتصف بشيء من القبح والنقص ، والمرتبتان الباقيتان قد تظهر الصورة فيها بحسب الأحوال من الحسن والقبح

ص 374

والنقص والكمال ، فلينظر إن كان من تلك الصورة خطاب فبحسب ما يكون الخطاب يكون حاله ، وبقدر ما يفهم منه في رؤياه ، ولا يعول على التعبير في ذلك بعد الرجوع إلى عالم الحس ، إلا إن كان عالما بالتعبير أو يسأل عالما بذلك ، ولينظر أيضا حركته أعني حركة الرائي مع تلك الصورة ، من الأدب والاحترام أو غير ذلك ، فإن حاله بحسب ما يصدر منه في معاملته لتلك الصورة ، فإنها صورة حق بكل وجه ، وقد يشاهد الروح الذي بيده هذه الحضرة وقد لا يشاهده ، وما عدا هذه الصورة فليست إلا من الشيطان إن كان فيه تحزين ، أو مما يحدث المرء به نفسه في حال يقظته ، فلا يعول على ما يرى من ذلك ، ومع هذا وكونها لا يعول عليها إذا عبّرت كان لها حكم ولا بد ، يحدث لها ذلك من قوة التعبير لا من نفسها ، وهو أن الذي يعبرها لا يعبرها حتى يصورها في خياله من المتكلم ، فقد انتقلت تلك الصورة من المحل الذي كانت حديث نفس أو تحزين شيطان إلى خيال العابر لها ، وما هي له حديث نفس ، فيحكم على صورة محققة ارتسمت في ذاته ، فيظهر لها حكم أحدثه حصول تلك الصورة في نفس العابر ، كما جاء في قصة يوسف مع الرجلين ، وكانا قد كذبا فيما صوراه ، ثم إن الله تعالى إذا رأى أحد رؤيا فإن صاحبها له فيما رآه حظ من الخير والشر بحسب ما تقتضي رؤياه ، أو يكون الحظ في ناموس الوقت في ذلك الموضع ، وأما في الصورة المرئية فلا ، فيصور الله ذلك الحظ طائرا وهو ملك في صورة طائر ، كما يخلق من الأعمال صورا ملكية روحانية جسدية برزخية ، وإنما جعلها في صورة طائر لأنه يقال طار له سهمه بكذا ، والطائر الحظ ، ويجعل الرؤيا معلقة في رجل هذا الطائر ، وهي عين الطائر ، ولما كان الطائر إذا اقتنص شيئا من الصيد من الأرض إنما يأخذه برجله لأنه لا يد له ، وجناحه لا يتمكن له الأخذ به ، فلذلك علق الرؤيا برجله ، فهي المعلقة وهي عين الطائر ، فإذا عبرت سقطت لما قيلت له ، وعندما تسقط ينعدم بسقوطها ، ويتصور في عالم الحس بحسب الحال التي تخرج عليه تلك الرؤيا ، فترجع صورة الرؤيا عين الحال لا غير ، ثم إن تسمية النبي صلّى الله عليه وسلم لها بشرى ومبشرة لتأثيرها في بشرة الإنسان ، فإن الصورة البشرية تتغير بما يرد عليها في باطنها مما تتخيله ، من صورة تبصرها أو كلمة تسمعها إما بحزن أو فرح ، فيظهر لذلك أثر في البشرة لا بد من ذلك ، فإنه حكم طبيعي أودعه الله في الطبيعة ، فلا يكون إلا هكذا . واعلم أن للرؤيا مكان ومحل وحال ، فحالها النوم ، وهو الغيبة عن

ص 375

المحسوسات الظاهرة الموجبة للراحة ، لأجل التعب الذي كانت عليه في هذه النشأة في حال اليقظة من الحركة ، وإن كان في هواها ، فتعب الآلات والجوارح والأعضاء البدنية في حال اليقظة ، وجعل زمانه الليل وإن وقع بالنهار ، كما جعل النهار للمعاش وإن وقع بالليل ، ولكن الحكم للغالب ، فتنتقل هذه الآلات من ظاهر الحس إلى باطنه في النوم الذي يكون معه الرؤيا ، ليرى ما تقرر في خزانة الخيال الذي رفعت إليه الحواس ما أخذته من المحسوسات ، وما صورته القوة المصورة التي هي من بعض خدم هذه الخزانة ، لترى هذه النفس الناطقة التي ملّكها الله هذه المدينة ما استقر في خزانتها ، وعلى قدر ما كمل لهذه النشأة من الآلات التي هي الجوارح والخدام الذين هم القوى الحسية يكون الاختزان ، فثمّ خزانة كاملة لكمال الحياة ، وثمّ خزانة ناقصة كالأكمه ، فإنه لا ينتقل إلى خزانة خياله صور الألوان ، والخرس لا ينتقل إلى خزانة خياله صور الأصوات ولا الحروف اللفظية ، هذا كله إذا عدمها في أصل نشأته ، وأما إذا طرأت عليه هذه الآفات فلا ، فإنه إذا انتقل بالنوم إلى باطن النشأة ودخل الخزانة وجد صور الألوان التي اختزنها فيها قبل طرق الآفة ، وكذلك كل ما أعطته قوة من قوى الحس الذين هم جباة هذه المملكة ، فإذا ارتقى الإنسان في درج المعرفة علم أنه نائم في حال اليقظة المعهودة ، وأن الأمر الذي هو فيه رؤيا ، إيمانا وكشفا ، ولهذا ذكر الله أمورا واقعة في ظاهر الحس وقال(فَاعْتَبِرُوا)وقال :(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً) *أي جوزوا واعبروا مما ظهر لكم من ذلك إلى علم ما بطن به وما جاء له ، قال عليه السلام : (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) ولكن لا يشعرون ، فمن اعتبر الرؤيا يرى أمرا هائلا ويتبين له ما لا يدركه من غير هذا الوجه ، ولهذا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذا أصبح في أصحابه سألهم : هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ لأنها نبوة ، فكان يحب أن يشهدها في أمته ، والناس اليوم في غاية الجهل بهذه المرتبة التي كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يعتني بها ويسأل كل يوم عنها ، والجهلاء في هذا الزمان إذا سمعوا بأمر وقع في النوم لم يرفعوا به رأسا وقالوا : بالمنامات يريد أن يحكم ، هذا خيال ، وما هي إلا رؤيا ، فيستهونوا بالرائي إذا اعتمد عليها وهذا كله لجهله بمقامها ، وجهله بأنه في يقظته وتصرفه في رؤيا ، وفي منامه في رؤيا في رؤيا ، فهو كمن يرى أنه استيقظ في نومه وهو في منامه ، وهو قوله عليه السلام : [الناس نيام] وأما المكان والمحل ، فأما المحل فهو هذه النشأة العنصرية ، لا يكون للرؤيا محل غيرها ، فليس للملك رؤيا ، وإنما ذلك للنشأة

ص 376

العنصرية الحيوانية خاصة ، وأما المكان فهو ما تحت مقعر فلك القمر خاصة ، وفي الآخرة ما تحت مقعر فلك الكواكب الثابتة ، وذلك لأن النوم قد يكون في جهنم في أوقات ، ولا سيما في المؤمنين من أهل الكبائر ، وما فوق فلك الكواكب فلا نوم ، وأعني به النوم الكائن المعروف في العرف . واعلم أن الإنسان إذا زهد في غرضه ورغب عن نفسه وآثر ربه ، أقام له الحق عوضا من صورة نفسه صورة هداية إلهية حقا من عند حق ، حتى يرفل في غلائل النور ، وهي شريعة نبيه ورسالة رسوله ، فيلقى إليه من ربه ما يكون فيه سعادته ، فمن الناس من يراها على صورة نبيه ، ومنهم من يراها على صورة حاله ، فإذا تجلت له في صورة نبيه فليكن عين فهمه فيما تلقي إليه تلك الصورة لا غير ، فإن الشيطان لا يتمثل على صورة نبي أصلا ، فتلك حقيقة ذلك النبي وروحه ، أو صورة ملك مثله عالم من الله بشريعته ، فما قال فهو ذاك ، فمن صبر نفسه على ما شرع الله له على لسان رسوله صلّى الله عليه وسلم فإن الله لا بد أن يخرج إليه رسوله صلّى الله عليه وسلم في مبشرة يراها أو كشف بما يكون له عند الله من الخير ، وإنما يخرج الله إليه رسوله صلّى الله عليه وسلم لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلم لا يتصور على صورته غيره ، فمن رآه رآه لا شك فيه ، فالمبشرات وهي جزء من أجزاء النبوة إما أن تكون من الله إلى العبد ، أو من الله على يد بعض عباده إليه ، وهي الرؤيا يراها الرجل المسلم أو ترى له ، فإن جاءته من الله في رؤياه على يد رسوله صلّى الله عليه وسلم ، فإن كان حكما تعبد نفسه به ولا بد ، بشرط أن يرى الرسول صلّى الله عليه وسلم على الصورة الجسدية التي كان عليها في الدنيا ، كما نقل إليه من الوجه الذي صح عنده ، حتى إنه إن رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلم يراه مكسور الثنية العليا ، فإن لم يره بهذا الأثر فما هو ذاك ، وإن تحقق أنه رسول الله صلّى الله عليه وسلم ورآه شيخا أو شابا مغايرا للصورة التي كان عليها في الدنيا ومات عليها ، ورآه في حسن أزيد مما وصف له ، أو قبح صورة أو يرى الرائي إساءة أدب في نفسه معه ، فذلك كله الحق الذي جاء به رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ما هو رسول الله ، فيكون ما رآه هذا الرائي عين الشرع ، إما في البقعة التي يراه فيها عند ولاة الأمور من الناس ، وإما أن يرجع ما يراه إلى حال الرائي أو إلى المجموع ، غير ذلك لا يكون ، فيكون تغير صورته صلّى الله عليه وسلم عين إعلامه وخطابه إياه بما هو الأمر عليه ، في حقه أو حق ولاة العصر بالموضع الذي يراه فيه ، فإن جاءه بحكم في هذه الصورة فلا يأخذ به إن اقتضى ذلك نسخ حكم ثابت بالخبر المنقول الصحيح المعمول به ، وكل ما أتى به

ص 377

من العلوم والأسرار مما عدا التحليل والتحريم فلا تحجير عليه فيما يأخذه منه ، لا في العقائد ولا في غيرها ، وذلك بخلاف حكمه لو رآه صلّى اللہ عليه وسلم على صورته ، فيلزمه الأخذ به ولا يلزم غير ذلك ، فإن اللہ يقول): الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)هذا هو الفرقان بين الأمرين ، فقد يرى رسول اللہ صلّى اللہ عليه وسلم في الرؤيا أو في الكشف ، فيصحح من الأخبار ما ضعف بالنقل ، وقد ينفي من الأخبار ما ثبت عندنا بالنقل ، كما ذكر مسلم في صدر كتابه عن شخص أنه رأى رسول اللہ صلّى اللہ عليه وسلم في المنام ، فعرض عليه ألف حديث كان في حفظه ، فأثبت صلّى اللہ عليه وسلم من الألف ستة أحاديث وأنكر صلّى اللہ عليه وسلم ما بقي ، فمن رآه صلّى اللہ عليه وسلم في المنام فقد رآه في اليقظة ما لم تتغير عليه الصورة ، فإن الشيطان لا يتمثل على صورته أصلا ، فهو معصوم الصورة حيا وميتا ، فمن رآه فقد رآه في أيّ صورة رآه .

[سورة يوسف (12) : آية 6]

وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)

اعلم أنه كل ما يتخيل يعبر كالرؤيا ، كذلك يعبر كل كلام ويتأول ، فما في الكون كلام لا يتأول

ولذلك قال تعالى :(وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ)وكل كلام فإنه حادث عند السامع ، فمن التأويل ما يكون إصابة لما أراده المتكلم بحديثه ، ومن التأويل ما يكون خطأ عن مراد المتكلم ، فقول يعقوب عليه السلام لابنه يوسف عليه السلام :« وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ »يعني الإصابة في التأويل بما يريد المتكلم .

[سورة يوسف (12) : الآيات 7 إلى 20]

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (9) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (10) قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (11)

أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (12) قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (13) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (14) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (15) وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (16) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ (17) وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (18) وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (19) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ(20)

ص 378

اعلم أن الذي تحقق مقام العبودة تعرّض صاحبه للبلاء ، ثم إن من شأن هذا الموطن أن لا يكمل فيه عز لأحد ولا راحة ، فإنه لما وهب الله عز الحسن يوسف عليه السلام ابتلي بذل الرق ، ومع ذلك الحسن العالي الذي لا يقاومه شيء بيع بثمن بخس دراهم معدودة ، من ثلاثة دراهم إلى عشرة لا غير ، وذلك مبالغة في الذلة تقاوم مبالغته عزة الحسن ، ثم سلب الرحمة من قلوب الإخوة ، والحسن مرحوم أبدا بكل وجه ، فظهر أن الأمر الإلهي لم يكن بيد الخلق منه شيء سوى التصريف تحت القهر ، فزال بهذا الذل العظيم عن ذلك الحسن

379

العرضي ، فبقي يوسف عليه السلام في سفره (إلى الله) طيب النفس عزيزا بالعزة الإلهية لا غير

[- إشارة - وبيع بثمن بخس]
-إشارة - وبيع بثمن بخس ، ليعلم أن الإنسان من حيث هو صاحب نقص ، فإن غلا ثمنه وعلا ، فلصفة زائدة على ذاته حضرتها الملأ الأعلى .

[سورة يوسف (12) : آية 21]
وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (21)
"وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ »يعني الإصابة في التأويل بما يريد المتكلم« وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ »الصورة قد تكون في اللسان الأمر والشأن ، فقوله تعالى :« وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ »أي على من أظهره بصورته أي بأمره ، فإن له حكم العزل فيه مع بقاء نشأته ، فتدل هذه الآية على أن قوله صلّى الله عليه وسلم : [خلق الله آدم على صورته] أنه ما أراد بالصورة النشأة وإنما أراد الأمر والحكم« وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ »لأنهم لا يسمعون ولا يشهدون ، فالعالم لا يعدل عن سنن العلم ، ومراد الله في الأشياء .

[سورة يوسف (12) : الآيات 22 إلى 23]
وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)
« هَيْتَ لَكَ »أي حسنت هيئتي لك .

[سورة يوسف (12) : آية 24]
وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ(24)

ص 380

["وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها »]
« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها »ولم يعيّن الله في الآية فيما ذا ، فإنه قد يتبادر أنه في اللسان يدل على أحدية المعنى ، ولكن إذا نظرنا إلى قول يوسف للملك على لسان رسوله أن يسأل عن النسوة وشأن الأمر ، فما ذكرت المرأة إلا أنها راودته عن نفسه ، وما ذكرت أنه راودها ،
فزال ما كان يتوهم من ذلك فإن قلت : لا زال الاشتراك في اللسان ولا بد منه ، ففي ما ذا يقع الاشتراك ؟
قلنا : إنها همت به لتقهره على ما تريد منه ، وهمّ هو بها ليقهرها في الدفع عن ذلك ، فالاشتراك وقع في طلب القهر منه ومنها ،
فلهذا قال تعالى :« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ »يعني في عين ما همّ بها ، وليس إلا القهر فيما يريد كل واحد من صاحبه ،
دليل ذلك قولها(الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ) وما جاء في السورة قط أنه راودها عن نفسها ،
فأراه الله البرهان عند إرادته القهر في دفعها عنه فيما تريد منه« لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ »فكان البرهان الذي رآه أن يدفع عن نفسه بالقول اللين ، فإن القول اللين قد يأتي في مواطن بما لا يأتي به القهر ، كما قال تعالى لموسى وهارون(فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً)فكان البرهان لا تعنف عليها ولا تسبها ، فإنها امرأة موصوفة بالضعف على كل حال ،« كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ »والهم بالسوء من السوء وهو مصروف عنه أعني السوء ، فلم يكن يهم بسوء« إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ »بفتح اللام ، إذا ولد المولود ونشأ محفوظا قبل التكليف ولم يرزأ في عهده الذي أخذ الله من بني آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم ، وهو الفطرة التي يولد عليها كل مولود ، فبقي عهده على أصله خالصا ، وهو الدين الخالص ، لا المخلص من غير شوب خالطه ، فهو صاحب العهد الخالص فلا يشقى .

[سورة يوسف : (12) الآيات 25 إلى 27]
وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (25) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (26) وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ(27)

ص 381

هذا الشاهد هو صبي كان في المهد .

[سورة يوسف (12) : الآيات 28 إلى 30]
فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28)
يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (29)
وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (30)
" شَغَفَها حُبًّا " أي صار حبها يوسف على قلبها كالشغاف ، وهو الجلدة الرقيقة التي تحتوي على القلب ، فهي ظرف له محيطة ، وهو العشق ، فإنه إفراط المحبة .

[سورة يوسف (12) : آية 31]
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (31)
لما رأينه في تقديسه نفسه عن الشهوات الطبيعية ، وهذا ما يدل على عصمته من أن يهم بسوء ، فإن الملك ليس من السوء في شيء قالت النسوة :« إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ »لاختصاصه عموما بأحسن تقويم .

[سورة يوسف (12) : الآيات 32 إلى 33]
قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ(33) .

ص 382

قول يوسف عليه السلام« السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ »محبة إضافة لا محبة حقيقية .

[سورة يوسف (12) : الآيات 34 إلى 36]

فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)

العصر ضم شيء إلى شيء لاستخراج مطلوب .

[سورة يوسف (12) : الآيات 37 إلى 39]

قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (38) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (39)

" أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ »فهو توحيد الإله ونفي ربوبية ما سواه ، قال تعالى :(ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) وأما قوله :« الْواحِدُ الْقَهَّارُ » فعن الفردية ظهرت الأفراد ، وعن الاثنين ظهرت الأشفاع ، ولا يخلو كل عدد أن يكون شفعا أو وترا

ص 383

إلى ما لا يتناهى التضعيف فيه ، والواحد يضعفه أبدا ، فبقوة الواحد ظهر ما ظهر من حكم العدد ، والحكم للّه الواحد القهار ، ولولا أنه سمي بالمتقابلين ما تسمى بالقهار ، لأنه محال أن يقاومه مخلوق أصلا ، فإذا ما هو قهار إلا من حيث أنه تسمى بالمتقابلين ، فلا يقاومه غيره ، فهو المعز المذل ، فيقع بين الاسمين حكم القهر والمقهور بظهور أحد الحكمين في المحل ، فلذلك هو الواحد من حيث أنه يسمى ، القهار من حيث أنه يسمى بالمتقابلين ، ولا بد من نفوذ حكم أحد الاسمين ، فالنافذ الحكم هو القاهر والقهار ، من حيث أن أسماء التقابل له كثيرة ، فهو القهار في مقابلة المنازعين .

[سورة يوسف (12) : الآيات 40 إلى 41]
ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (40) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (41)
كان الرجلان قد كذبا فيما صوراه فكان مما حدّثا به أنفسهما ، فتخيلاه من غير رؤيا ، فلما قصاه على يوسف حصل في خيال يوسف عليه السلام صورة من ذلك لم يكن يوسف حدث بذلك نفسه ، فصارت حقا في حق يوسف وكأنه هو الرائي الذي رأى تلك الرؤيا لذلك الرجل ، فلما عبر لهما رؤياهما قالا له : أردنا اختبارك وما رأينا شيئا ، فقال يوسف :« قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ »فخرج الأمر في الحسّ كما عبّر .

[سورة يوسف (12) : آية 42]
وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42)
راجع الهامش .
(-)قال سيدي أحمد بن إدريس في كتابه العقد النفيس« وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ »الظان هو الرجل لا يوسف ، لأنه لا يجوز الظن على يوسف عليه السلام ، لأنه أوحى الحق سبحانه وتعالى بتأويل الرؤيا ، والظن لا يغني من الحق شيئا ، وإياكم والظن فإنه أكذب الحديث ، فكيف يظن يوسف فيما أوحى إليه ربه سبحانه وتعالى ؟. !

ص 384

[سورة يوسف (12) : آية 43]
وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ(43)
[لم سمى الرؤيا عبارة ؟]
حضرة الخيال في النوم ، وهو الرؤيا كالجسر بين الشطين للعبور عليه من هذا الشط إلى هذا الشط ، فجعل النوم معبرا ، وجعل المشي عليه عبورا ، وما سمي الإخبار عن الأمور عبارة ولا التعبير عن الرؤيا تعبيرا إلا لكون المخبر يعبر بما يتكلم به ، أي يجوز بما يتكلم به من حضرة نفسه إلى نفس السامع ، فهو ينقله من خيال إلى خيال ، لأن السامع يتخيله على قدر فهمه ، فقد يطابق الخيال الخيال ، خيال السامع مع خيال المتكلم وقد لا يطابق ، فإذا طابق سمي فهما ، وإن لم يطابقه كان لفظا لا عبارة ، لأنه ما عبر به عن محله إلى محل السامع ، غير أن التعبير عن غير الرؤيا رباعي ، والتعبير عن الرؤيا ثلاثي ، ففي الأول عبّر بالتشديد ، وفي الثاني عبر بالتخفيف ، ولما كان عالم الخيال ليس مطلوبا لنفسه ، وإنما هو مطلوب لما نصب له لهذا سمي تأويل الرؤيا عبارة ، لأن المفسر يعبر منها إلى ما جاءت له ، كما عبر النبي صلّى اللّه عليه وسلم من القيد إلى الثبات في الدين ، ومن اللبن إلى العلم.

[سورة يوسف (12) : آية 44]
قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (44)
الرؤيا الصادقة ما هي بأضغاث أحلام ، وهي جزء من أجزاء النبوة ، أما قولهم « أَضْغاثُ أَحْلامٍ »أي لا حقيقة لها .[سورة يوسف (12) : الآيات 45 إلى 48]
وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ(48)

ص 385

لما كان يوسف عليه السلام من أئمة علم التعبير بصور التمثيل والخيال ، علم أن صور البقر هي السنوات ، وأن سمنها يعني الخصب ، وأن عجافها هو جدبها ، وذلك كله من تجسد المعاني .

[سورة يوسف (12) : الآيات 49 إلى 50]

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49) وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50)

لما دعا الملك يوسف عليه السلام إلى الخروج من السجن فلم يخرج ، وقال لرسول الملك« ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ »يعني العزيز الذي حبسه« فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ »ليثبت عنده براءته فلا تصح له المنة عليه في إخراجه من السجن ، بل الله يمن عليكم ، إذ لو بقي احتمال لقدح في عدالته ، وهو رسول من الله ، فلا بد من عدالته أن تثبت في قلوبهم ، وقال صلّى الله عليه وسلم في معرض الثناء على يوسف عليه السلام وتعظيما لحقه [لو كنت أنا بدل أو محل يوسف لأجبت الداعي] وهذه إشارة من رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى فتوة يوسف عليه السلام ، فإنه قد اجتمع في يوسف حالان ، حال السجن وحال كونه مفترى عليه ، وهو رسول ، والرسول يطلب أن يقرر في نفس المرسل إليه ما يقبل به دعاء ربه فيما يدعوه به إليه ، والذي نسب إليه معلوم عند كل أحد أنه لا يقع من مثل من جاء بدعوته إليهم ، فلا بد أن يطلب البراءة في ذلك عندهم ليؤمنوا بما جاء به من عند ربه ، فلم يحضر بنفسه ذلك المجلس حتى لا تدخل الشبهة في نفوس الحاضرين بحضوره ، وفرق كبير بين من يحصر في مثل هذا الموطن وبين من لا يحضره ، فإن صحة البراءة في غيبته أدل على براءته من حضوره ،[فتوة يوسف (ع)]

فمن فتوة يوسف عليه السلام إقامته في السجن بعد أن دعاه الملك إليه ، وما علم قدر ذلك إلا رسول الله صلّى الله عليه وسلم حيث قال عن نفسه [لأجبت الداعي] ثناء على يوسف ، فإنه اختار الإقامة في السجن ولم يخرج حتى يرجع إليه الرسول بالجواب.

ص 386

[سورة يوسف (12) : آية 51]

قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51)

فما ذكرت المرأة إلا أنها راودته عن نفسه ، وما ذكرت أنه راودها« وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ».

[سورة يوسف (12) : آية 52]

ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (52)

لم تخن المرأة يوسف في غيبته لما برأته وأضافت المراودة إلى نفسها ، لتعلم أن يوسف لم يخن العزيز في أهله ، وعلمت أنه أحق بهذا الوصف منها في حقه ، فما برأت نفسها ، بل قالت .

[سورة يوسف (12) : آية 53]

وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)

[النفس ليست أمارة بالسوء من حيث ذاتها]

النفس ليست أمارة بالسوء من حيث ذاتها ، وإنما ينسب إليها ذلك من حيث أنها قابلة لإلهام الشيطان بالفجور ، ولجهلها بالحكم المشروع في ذلك ،

ثم إن قول الله تعالى :« إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » ما هو حكم الله عليها بذلك ، وإنما الله حكى ما قالته امرأة العزيز في مجلس العزيز ، وهل أصابت في هذه الإضافة أو لم تصب هذا حكم آخر مسكوت عنه ، فهذا الإخبار عن النفس أنها أمارة بالسوء ما هو حكم الله عليها ، ولا من قول يوسف عليه السلام ، فبطل التمسك بهذه الآية لما دل عليه الظاهر ، والدليل إذا دخله الاحتمال سقط الاحتجاج به ،

والذي هو للنفس أنها لوامة نفسها إذا قبلت من الشيطان ما يأمرها به ، والنفس ما ينسب إليها ذم إلا بعد تصريفها آلاتها في المذموم ، وما لم يظهر الفعل على

ص 387

الآلات لم يتعلق بها ذم ، والذي أجرأ النفوس على ارتكاب المحارم والدخول في المآثم هو كونها ليست على بصيرة من المؤاخذة ، فإن الله أدخلها في حكم المشيئة« إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي »إلا من عصم الله ، بخوف أو رجاء أو حياء ، أو عصمة في علم الله به خارجة عن هذه الثلاثة ، ولا خامس لهذه الأربعة المانعة من وقوع المخالفة والتعرض للعقوبة . واعلم أن النفس أشد الأعداء شكيمة وأقواهم عزيمة ، فجهادها هو الجهاد الأكبر ، فمن ثبت قدمه في هذا الزحف ، وتحقق بمعنى ذلك الحرف انتهض بأعضائه في الملكوت مليكا ، وكان له الملك جليسا ، غير أن هذه النفس العدوة الكافرة الأمارة بالسوء لها على الإنسان قوة كبيرة وسلطان عظيم ، بسيفين عظيمين ماضيين ، تقطع بهما رقاب صناديد الرجال وعظمائهم ، وهما شهوتا البطن والفرج ، اللتان قد تعبدتا جميع الخلائق وأسرتهم ، ومن عظمهما وكبير فعلهما حتى أفرد الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه كتابا سمّاه (كسر الشهوتين) في إحياء علوم الدين له ، وكذلك اعتنى بهما كبار العلماء رضي الله عنهم ، والذي يتوجه عليك في هذا الباب أن تبدأ بالحسام الواحد الذي هو البطن ، ثم يليه الفرج .

-**استدراك وموعظة** - لا ينبغي لواعظ أن يخرج في وعظه عن الكتاب والسنة ، ولا يدخل في هذه الطوام ، فينقل عن اليهود والنصارى والمفسرين الذين ينقلون في كتب تفاسيرهم ما لا يليق بجناب الله ولا بمنزلة رسل الله عليهم السلام ، فإن لله ملائكة في الأرض سياحين فيها يتبعون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلس ذكر نادى بعضهم بعضا هلموا إلى بغيتكم ، وهم الملائكة الذين خلقهم الله من أنفاس بني آدم ، فينبغي للمذكر أن يراقب الله ويستحي منه ، ويكون عالما بما يورده ، وما ينبغي لجلال الله ويجتنب الطامات في وعظه ، فإن الملائكة يتأذون إذا سمعوا في الحق وفي المصطفين من عباده ما لا يليق ، وهم عالمون بالقصص ، وقد أخبر صلّى الله عليه وسلم أن العبد إذا كذب الكذبة تباعد منه الملك ثلاثين ميلا من نتن ما جاء به ، فتمقته الملائكة ، فإذا علم المذكر أن مثل هؤلاء يحضرون مجلسه فينبغي له أن يتحرى الصدق ، ولا يتعرض لما ذكره المؤرخون عن اليهود من زلات من أثنى الله عليهم واجتباهم ، ويجعل ذلك تفسيرا لكتاب الله ، ويقول : قال المفسرون ، وما ينبغي أن يقدم على تفسير كلام الله بمثل هذه الطوام ، كقصة يوسف وداود وأمثالهم عليهم السلام ومحمد صلّى الله عليه وسلم ، بتأويلات فاسدة وأسانيد واهية ، عن قوم قالوا في الله ما ذكر الله عنهم ، فإذا أورد

388

المذكر مثل هذا في مجلسه مقتته الملائكة ونفروا عنه ، ومقته الله ، ووجد الذي في دينه نقص رخصة يلجأ إليها في معصيته ، ويقول : إذا كانت الأنبياء قد وقعت في مثل هذا ، فمن أكون أنا ؟ وحاشا والله الأنبياء مما نسبت إليهم اليهود لعنهم الله ، فينبغي للمذكر أن يحترم جلساءه ولا يتعدى ذكر تعظيم الله بما ينبغي لجلاله ، ويرغب في الجنة ويحذر من النار وأهوال الموقف ، والوقوف بين يدي الله ، من أجل من عنده من البطالين المفرطين من البشر ، فهؤلاء المذكرون الذين يرددون افتراءات اليهود نقلة عن اليهود لا عن كلام الله لما غلب عليهم من الجهل ، فواجب على المذكر إقامة حرمة الأنبياء عليهم السلام والحياء من الله أن لا يقلد اليهود فيما قالوا في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من المثالب ونقلة المفسرين خذلهم الله ، ومنها مراعاة من يحضر مجلسه من الملائكة السياحين ، فمن يراعي هذه الأمور ينبغي أن يذكر الناس ، ويكون مجلسه رحمة بالحاضرين ومنفعة .

[سورة يوسف (12) : آية 54]

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (54)

فأعطته المملكة مقاليدها ، وملكته الخلافة أزمتها ، ووهبته مطاريفها ومتاليدها ، فلم يخفر عهدها وذمتها ، ولم يزل يسوس مملكته بحسن النظر ، ويقيمها بسديد الفكر ، حتى قامت الدولة على ساقها ، وعمتها خيراته على بعد أقطارها وآفاقها ، وتجلى شمسا باهرة بين أزرتها وطوقها ، وحيد دهره ، وفريد عصره ، فقال :

[سورة يوسف (12) : آية 55]

قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55)

قوله عليه السلام« إِنِّي حَفِيظٌ »والحفظ أمانة ، ولو همّ بسوء لم يكن أمينا ، ولو فعل لم يكن حفيظا ، وطلب يوسف عليه السلام من الملك صاحب مصر أن يجعله على خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم ، ليفتقر الكل إليه فتصح سيادته عليهم ، ولهذا أخبر بالصفة التي يستحق من قامت به هذا المقام فقال »: إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ »حفيظ عليها فلا نخرج منها إلا

ص 389

بقدر معلوم ، كما أن الله سبحانه يقول :(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)
فإذا كانت هذه الصفة فيمن كانت ملك مقاليدها ،
ثم قال بعد قوله« حَفِيظٌ » « عَلِيمٌ »أخبرنا أنه عالم بحاجة المحتاجين لما في هذه الخزائن التي خزن فيها ما به قوامهم ، عليم بقدر الحاجة .
واعلم أن الغفلة ما تعمّ قط ، لا في العموم ولا في الخصوص ، والعبد لا بد له أن يغفل عن شيء دون شيء ، وحفظه للأشياء ما هو حفظ الحق لها ، فحفظ العبد بالتضمين ، وحفظ الحق ما خلق ليس كذلك ، بل حفظ لكل صورة على التعيين .

[سورة يوسف (12) : الآيات 56 إلى 64]
وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (57) وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (60)
قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (61) وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (63) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64)

يقول الله : [شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين]
فاعلم أن الله يشفع من حيث أسماؤه ، فيشفع اسمه أرحم الراحمين عند اسمه القهار والشديد

ص 390

العقاب ليرفع عقوبته عن بعض الطوائف ، فيخرج من النار من لم يعمل خيرا قط .

[سورة يوسف (12) : الآيات 65 إلى 67]
وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (66) وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67)

[وعليه فليتوكل المتوكلون]
اعلم أن الوكالة لا تصح إلا في موكل فيه ، وذلك الموكل فيه أمر يكون للموكل ليس لغيره ، فيقيم فيه وكيلا ويتصرف فيما للموكل أن يتصرف فيه مطلقا ، فمن نظر أنّ الأشياء ما عدا الإنسان خلقت من أجل الإنسان كان كل شيء له فيه مصلحة يطلبها بذاته ملكا له ، ولما جهل مصالح نفسه ، ومصالحه ما فيها سعادته ، خاف من سوء التصرف في ذلك ، فقال : إذ وقد خلق الله الأشياء من أجلي فما خلق إلا ما يصلح لي ، وأنا جاهل بالمصلحة التي في استعمالها نجاتي وسعادتي ، فلنوكله في أموري فهو أعلم بما يصلح لي ، فكما أنه خلقها هو أولى بالتصرف فيها ، هذا يقتضيه النظر والعقل ، فكيف وقد ورد به الأمر الإلهي ، فالمؤمن يتخذ الحق وكيلا يسلم إليه أموره ، ويجعل زمامها بيده كما هو في نفس الأمر ، فما زاد شيئا مما هو الأمر عليه في الوجود ، ومدحه الله بذلك ، وما أثر في الملك شيئا ، وهذا غاية الكرم الثناء بالأثر على غير المؤثر ، بل الكل منه وإليه ، فنتخذ الحق وكيلا في المصلحة لنا لا في الأشياء ، فنوكله ليسخر لنا من هذه الأشياء ما يرى فيه المصلحة لنا ، امتنانا منه وامتثالا لأمره ، فنكون في توكلنا عليه عبيدا مأمورين ممتثلين أمره نرجو بذلك خيره ، فوقع التوكل في المصالح لا في عين الأشياء.

ص 391

[سورة يوسف (12) : الآيات 68 إلى 72]
وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (68)
وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (70) قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (71) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72)
-إشارة - جعل يوسف عليه السلام الصواع حجابا يقرع بذلك للاتصال بالأحبة بابا.

[سورة يوسف (12) : الآيات 73 إلى 83]
قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ (73) قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (74) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76) قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (77)
قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (79)
فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (81) وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (82)
قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(83)

ص 392

فهو سبحانه العليم ولا عالم ، وهو الحكيم في ترتيب العالم ، فالعالم والعليم أعم ، والحكيم تعلق خاص للعلم .

[سورة يوسف (12) : الآيات 84 إلى 86]

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (85) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (86)

البث هو تفرق هموم المحبوب في وجوه كثيرة ، فإن المحبة تورث الحيرة ، والحيرة تفرق ولا تجمع ، ولهذا وصفت المحبة بالبث .

[سورة يوسف (12 : (الآيات 87 إلى 88]

يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (87) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88)

ص 393

لكل متصدق عليه صدقة تليق به من المخلوقين ، فيبدأ بنفسه ثم بجوارحه ، ثم الأقرب إليه بعد ذلك وهو الأهل والولد ، ثم الخادم ثم الرحم والجار ، كما يتصدق على تلميذه وطالب الفائدة منه .

[سورة يوسف (12) : الآيات 89 إلى 92]
قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (89) قالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (91) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) .

قال يوسف عليه السلام لمن أساء في حقه فقطع رحمه« لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ »فالحق أولى بهذه الصفة لمن أساء في حقه بقطع رحمه« يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »بعباده .

[سورة يوسف (12) : الآيات 93 إلى 95]
اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (95) .

قال ذلك إخوة يوسف ليعقوب عليه السلام يريدون حيرته في حب يوسف ، لأن الحب من أوصافه الضلال والحيرة ، والحيرة تنافي العقل.

394

[سورة يوسف (12) : الآيات 96 إلى 100]

فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (96) قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (97) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)

« وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ »، أي مآل :« رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا »أي حقا في الحس وقد كانت حقا في الخيال في موطن الرؤيا ، فكان الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا هم أبا يوسف وخالته وإخوته ، لما دخلوا عليه خرّوا له سجّدا ، فوقع حسّا ما كان أدركه خيالا في صورة كوكبية ، فإن قلت : ما هو الرأي في هذا السجود ؟ قلنا :[من سجد لغير الله عن أمر الله فقد أدى قربة]
سجود قربة لله ، فإن من سجد لغير الله عن أمر الله فقد أدى قربة ، ومن سجد لغير الله عن غير أمر الله قربة إلى الله فقد شقي ، فإن رؤيا يوسف عليه السلام كانت حقا من حق ، فهي مأمور بها ، كالسجود لآدم وللكعبة ولصخرة بيت المقدس« إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ »الفرق بين العلم والحكمة أن الحكمة لها الجعل ، والعلم ليس كذلك ، لأن العلم يتبع المعلوم ، والحكمة تحكم في الأمر أن يكون هكذا ، فيثبت الترتيب في أعيان الممكنات في حال ثبوتها بحكمة الحكيم في الزمان والحال قبل وجودها ، فتعلق بها العلم الإلهي بحسب ما رتبها الحكيم عليه ، فالحكمة أفادت الممكن ما هو عليه من الترتيب الذي يجوز خلافه ،

ص 395

والترتيب أعطى العالم العلم بأن الأمر كذا هو ، فلا يوجد إلا بحسب ما هو عليه في الثبوت ، فالعارف يعلم بالجملة أن الظاهر في الوجود والواقع إنما هو في قبضة الحكمة الإلهية ، فيزول عنه التسخط والضجر ، ويقوم به التسليم والتفويض إلى الله في جميع الأمور ، فإن الله ما رجح إلا الواقع ، فأوقع ما أوقع حكمة منه ، وأمسك ما أمسك حكمة منه ، وهو الحكيم العليم ، فالعارف عنده الحكيم يتقدم العليم ، والعامي يقدم العليم ثم الحكيم ، وقد ورد الأمران معا ، فالحكيم خصوص والعليم عموم ، ولذلك ما كل عليم حكيم ، وكل حكيم عليم ، فالحكمة الخير الكثير .

[سورة يوسف (12) : آية 101]
رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)
ليس فوق الصلاح مرتبة ، وهي مطلب رسل الله من الله ، وهم أعلم الخلق بالله .

[سورة يوسف (12) : الآيات 102 إلى 104]
ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (104)
العالمون أصحاب العلامات والدلائل .

[سورة يوسف (12) : آية 105]
وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (105)
الآية العلامة ، غير أن الآيات على قسمين معتادة وغير معتادة ، فأرباب الفكر والمستبصرون الموفقون هي عندهم سواء ، يتخذونها أدلة ، وما عدا هؤلاء فلا ينظرون إلا في الآيات غير المعتادة ، فيحصل لهم استشعار الخوف فيردهم ذلك القدر إلى الله ، ثم إن الذين يتخذون غير المعتادة آية منهم من يخلصها دليلا على الله ، ومنهم من يشرك ، لذلك قال تعالى:

ص 396

[سورة يوسف (12) : آية 106]

وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106)

لمعرفتهم بالأسباب المولدة لتلك الآيات ، كالزلازل والكسوفات وما يحدث من الآثار العلوية

[« وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ »]

« وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ »ولم يقل بتوحيد الله ، فالمشرك مؤمن بوجود الله لا بتوحيده« إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »والشرك منه جلي وخفي ، فالمؤمن بتوحيد الله مؤمن بوجود الله ، وما كل مؤمن بوجود الله يكون مؤمنا بتوحيد الله ، فينقص عن درجته في قوة الإيمان ، فإنّه لما أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم« أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قالُوا بَلى »وما كان إلا التصديق بالوجود والملك لا بالتوحيد ، وإن كان فيه توحيد فغايته توحيد الملك ،

فجاء قوله تعالى« وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »لما خرجوا إلى الدنيا ، لأن الفطرة إنما كانت إيمانهم بوجود الحق والملك لا بالتوحيد ، فلما عدم التوحيد من الفطرة ظهر الشرك في الأكثر ممن يزعم أنه موحد ، وما أدّى من أدّاه إلى ذلك إلا التكليف ، فإنه لما كلفهم تحقق أكثرهم أن الله ما كلفهم إلا وقد علم أن لهم اقتدارا نفسيا على إيجاد ما كلفهم به من الأفعال ، فلم يخلص لهم توحيد ، فلو علموا من ذلك أن الله ما كلفهم إلا لما فيهم من الدعوى في نسبة الأفعال إليهم ، التي نسبوها إلى أنفسهم لتجردوا عنها بالله لا بنفوسهم ، كما فعل أهل الشهود ، فمن علم ذلك أقام العذر عند الله لعباد الله فيما أشركوا فيه عند إيمانهم ، فإن الله أثبت لهم الإيمان بالله وهو خير كثير وعناية عظمى ، فإذا سمع السامع الخبر النبوي بوجود الله آمن به على ما يتصوره ، فما آمن إلا بما تصوره ، والله موجود عند كل تصور كما هو موجود في خلاف ذلك التصور بعينه ،

فما آمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ، لما يطرأ عليهم في نفوسهم من مزيد العلم بالله ، ولو في كل مزيد تصور فيه ليس عين الأول ، وليس إلا الله في ذلك كله ، فما جاء الله بهذه الآية إلا لإقامة عذرهم ، ولم يتعرض سبحانه للتوحيد ، ولو تعرض للتوحيد لم يصح قوله« إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »مع ثبوت الإيمان ،

فدل أنه ما أراد الإيمان بالتوحيد ، وإنما أراد الإيمان بالوجود ، ثم ظهر التوحيد لمن ظهر في ثاني حال

- **وجه آخر** - الشرك الخفي هو الاعتماد على الأسباب الموضوعة ، والركون إليها بالقلب ، فإن ذلك من أعظم رزيّة دينية في المؤمن ، وهو المراد بقوله تعالى« وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ»

ص 397

قال عليه السلام [أتدرون ما حق الله على العباد ، أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا]
فدخل فيه الشرك الخفي والجلي الذي هو قطع الإسلام ،
ثم قال [أتدرون ما حقهم على الله إذا فعلوا ذلك ، أن لا يعذبهم]
وذلك بأن لا تتوجه إلا إلى الله ، عذبهم بالاعتماد على الأسباب ، لأنها معرضة للفقر ، ففي حال وجودها يعذبهم بتوهم فقدها ، وبعد فقدها بفقدها ، فهم معذبون دائما ، والذين لم يشركوا استراحوا ولم ينالوا بفقدها ألما

- **الوجه الثالث** - من رحمة الله بالعالم أن أحالهم على الأسباب وما جعل لهم رزقا إلا فيها ليجدوا العذر في إثباتها ، فمن أثبتها جعلا فهو صاحب عبادة ، ومن أثبتها عقلا فهو مشرك ، وإن كان مؤمنا ، فما كل مؤمن موحد عن بصيرة شهودية أعطاه الله إياها

- **لطيفة** - ليس المراد بالشرك هنا أن تجعل مع الله إلها آخر ، ذلك هو الجهل المحض ، فإنه ما ثمّ إله آخر ، بل هو إله واحد عند المشرك وغير المشرك ، فكل شرك يقتضيه العلم ويطلبه الحق فهو حق ، فليس المقصود إلا العلم ، فما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ، فكثر العلماء بالله ، وأبقى طائفة من المؤمنين هم في الشرك ، ولا يعلمون أنهم فيه ، فلذلك لم ينسبهم إلى الشرك لعدم علمهم بما هم فيه من الشرك ، وهم لا يشعرون ، فالاسم الله هو الذي وقع عليه الشرك فيما يتضمنه ، فشاركه الاسم الرحمن قال تعالى« قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى »فجعل للاسم الله شريكا في المعنى ، وهو الاسم الرحمن ،
فالمشركون هم الذين وقعوا على الشركة في الأسماء الإلهية ، لأنها اشتركت في الدلالة على الذات ، وتميزت بأعيانها بما تدل عليه من رحمة ومغفرة وانتقام وحياة وعلم وغير ذلك ، فإن من شأن الشركة اتحاد العين المشترك فيه ، فيكون لكل واحد الحكم فيه على السواء ، وإلا فليس بشريك مطلق ، فإن الشريك الذي أثبته الشقي لم يتوارد مع الله على أمر يقع فيه الاشتراك ، فليس بمشرك على الحقيقة ، بخلاف السعيد فإنه أشرك الاسم الرحمن بالاسم الله ، وبالأسماء كلها في الدلالة على الذات ، فهو أقوى في الشرك من هذا ، فإن الأول شريك دعوى كاذبة ، وهذا أثبت شريكا بدعوى صادقة[لا شقاء مع التوحيد]
-تحقيق - أهل لا إله إلا الله سعدوا سعادة الأبد ولو شقوا يوما ما ، ولا شقاء مع التوحيد ، ولا سعادة مع الشرك المعتقد ، وشرك الغفلة معفو عنه.

ص 398

[سورة يوسف (12) : الآيات 107 إلى 108]

أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (107) قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(108)

[الدعوة إلى الله على بصيرة]

قال عليه السلام عن ربه« أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ »ولم يقل أدعو إلى نفسي ، وإلى حرف موضوع للغاية ، فهو النبي الأمي الذي يدعو على بصيرة مع أميته ، وبهذا يزيد العالم الإلهي على غيره ، والأميون الذين يدعون معه إلى الله على بصيرة ، فهم التابعون له في الحكم ، إذ كان رأس الجماعة ، فالبصيرة هي الفتح الإلهي والعلم اللدني ، والمجتهد وصاحب الفكر لا يكون أبدا على بصيرة فيما يحكم به ، فأما المجتهد فقد يحكم اليوم في نازلة شرعية بحكم فإذا كان في غد لاح له أمر آخر أبان له خطأ ما حكم به بالأمس في النازلة ، فرجع عنه وحكم اليوم بما ظهر له ، ويمضي الشرع حكمه في الأول والآخر ، ويحرم عليه الخروج عما أعطاه دليله في اجتهاده في ذلك الوقت ، فلو كان على بصيرة لما حكم بالخطإ في النظر الأول ، فالخطأ لا يكون مع البصيرة ، وكذلك صاحب العقل ، يزن المتكلم بميزان عقله ما هو خارج عن العقل لكونه وراء طوره ، وهو النسب الإلهية ، لم يقبله ميزانه ويرمي به ، وكفر به وتخيل أنه ما ثمّ حق إلا ما دخل ميزانه ، والمجتهد الفقيه وزن حكم الشرع بميزان نظره كالشافعي المذهب مثلا ، أراد أن يزن بميزانه تحيل النبيذ الذي قبله ميزان أبي حنيفة فرمى به ميزان الشافعي فحرمه ، وقال أخطأ أبو حنيفة ، ولم يكن ينبغي للشافعي المذهب مثلا أن يقول مثل هذا دون تقييد ، وقد علم أن الشرع قد تعبد كل مجتهد بما أداه إليه اجتهاده ، وحرم عليه العدول عن دليله ، فما وفّى الصنعة حقها ، وأخطأ الميزان العام الذي يشمل حكم الشريعة على الإطلاق ، فالبصيرة في الحكم مثل الضروريات للعقول عند من يدعو إلى الله على بصيرة ، فما يدعو إلى الله على بصيرة إلا من كان على بينة من ربه« أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي »من اتبعه صلّى الله عليه وسلم هم ورثة الأنبياء لاشتراكهم في الخبر ، فهو يدعو بمثل دعوة النبي عليه السلام عباد الله إلى توحيد الله والعمل بطاعته ، بشرعه المنزل المنطوق به حاليا ، لا يزيد على دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسلم وعلى ما جاء به من الإخبار بالأمور

ص 399

المغيبة ، إلا إن أطلعه الله على شيء من الغيب مما علّمه الله ، فله أن يدعو به مما لا يكون مزيلا لما قرره الشرع بالتواتر عندنا ، أي على طريق يفيد العلم ، وذلك أن الوحي كله موجود في رجال الله من الأولياء ، والذي اختص به النبي من هذا دون الولي الوحي بالتشريع ، فلا يشرع إلا النبي ، ولا يشرع إلا رسول خاصة ، فيحلل ويحرم ويبيح ويأتي بجميع ضروب الوحي ، والأولياء ليس لهم من هذا الأمر إلا الإخبار بصحة ما جاء به هذا الرسول وتعيينه ، حتى يكون هذا التابع على بصيرة فيما تعبده به ربه على لسان هذا الرسول ، إذا كان هذا الولي لم يدرك زمانه حتى يسمع منه كما سمع أصحابه ، فصار هذا الولي بهذا النوع من الخطاب بمنزلة الصاحب الذي سمع من لفظ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ما شرع

قال تعالى(يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ)

وقال تعالى(يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ)فما جاء إلا بالإعلام ، فما أغلق باب التنزل بالعلم بالشريعة على قلوب أوليائه ، وأبقى لهم التنزل الروحاني بالعلم بها ليكونوا على بصيرة في دعائهم إلى الله بها ، كما كان من اتبعوه وهو الرسول ، فهو أخذ لا يتطرق إليه تهمة لاحتمال التأويل وما يتطرق إلى الناظر صاحب الدليل إلى دليله من الدخل عليه فيه ، فإن من يدعو إلى الله على بصيرة فإن علمه من حق اليقين ، أي حق استقراره في القلب ، لا يزلزله شيء عن مقره ، فهو إدراك الأمر على ما هو ، لأنه علم محقق ،

لذلك جاء في القرآن« أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » وهم هؤلاء الذين ذكرناهم ، فرب حديث صحيح من طريق رواية الثقات عندنا ليس بصحيح في نفس الأمر ، فنأخذه على طريق غلبة الظن لا على العلم ، وهذه الطائفة التي ذكرناها تأخذه من هذا الطريق فتكون من عدم صحة ذلك الخبر الصحيح عندنا على بصيرة أنه ليس بصحيح في نفس الأمر ، وبالعكس ،

وهو أن يكون الحديث ضعيفا من أجل ضعف الطريق ، من وضّاع فيه أو مدلس ، وهو في نفس الأمر صحيح ، فتدرك هذه الطائفة صحته ، فتكون فيه على بصيرة ، فهؤلاء هم ورثة الأنبياء لاشتراكهم في الخبر ،

وانفراد الأنبياء بالتشريع ، واشترك الرسول ومن اتبعه في الدعوة إلى الله على بصيرة ، ومنها الأخذ عن الله مباشرة دون واسطة ،

ومن هذا المقام قال أبو يزيد البسطامي : حدثني قلبي عن ربي ، فأنكر عليه من أنكر وغاب عنه نص الكتاب وهو هذه الآية ، فكل علم لا يكون حصوله عن كشف بعد فتح الباب يعطيه الجود الإلهي ويبديه ويوضحه فهو شعور لا علم ،

400

وليس ينبغي لعاقل أن يدعو إلى أمر حتى يكون من ذلك الأمر على بصيرة ، وهو أن يعلمه رؤية وكشفا بحيث لا يشك فيه ، وما اختصت بهذا المقام رسل الله ، بل هو لهم ولأتباعهم الورثة ، ولا وارث إلا من كمل له الاتباع في القول والعمل والحال الباطن خاصة ، فإن الوارث يجب عليه ستر الحال الظاهر ، فإن إظهاره موقوف على الأمر الإلهي الواجب ، فإنه في الدنيا فرع والأصل البطون ، ولهذا احتجب الله في العموم في الدنيا ، وفي الآخرة يتجلى عامة لعباده ، فإذا تجلى لمن تجلى له على خصوصه كتجليه للجبل ، كذلك ما ظهر من الحال على الرسل من جهة الدلالة على صدقه ليشرّع لهم ، والوارث داع لما قرره هذا الرسول ، وليس بمشرع ، فلا يحتاج إلى ظهور الحال كما احتاج إليه المشرع ، فالوارث يحفظ بقاء الدعوة في الأمة عليها ، وما حظه إلا ذلك ، حتى إن الوارث لو أتى بشرع - ولا يأتي به - ولكن لو فرضناه ما قبلته منه الأمة ، فلا فائدة لظهور الحال إذا لم يكن القبول كما كان للرسول ، فما أظهر الله عليهم من الأحوال فذلك إلى الله لا عن تعمد ولا قصد من العبد ، وهو المسمى كرامة في الأمة ، فالذي يجهد فيه ولي الله إنما هو فتح ذلك الباب ليكون من الله في أحواله عند نفسه على بصيرة ، لا أنه يظهر بذلك عند خلقه ، فكرامة مثل هذا النوع علمه بالله وما يتعلق به من التفضيل في أسمائه الحسنى وكلماته العليا ، فأخبر رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن من اتبعه يدعو إلى الله على بصيرة ، فجعل الله التابع هنا على صورة نبيه صلّى الله عليه وسلم في نوره وإمداده ، فإن المؤمن إذا أجاب ومشى إلى ربه على الطريقة التي شرع له هذا الرسول فإنه يصل إلى الله ، فيتلقاه الحق تلقي إكرام وهبات ومنح وعطايا ، فصار يدعو إلى الله على بصيرة كما دعا ذلك الرسول ، فكل من أخذ عن النبوة النور ودعا إلى الله على بصيرة فذلك الدعاء والنور الذي يدعو به هو نور الإمداد الإلهي ، لا النور الذي اقتبسه من سراج النبوة ، فينسب إلى الله في ذلك لا إلى الرسول ، فيقال عبد الله ، وهو الداعي إلى الله عن أمر الله بوساطة رسول الله ، بحكم الأصل لا بحكم ما فتح الله به عليه في قلبه من العلوم الإلهية التي هي فتح عين فهمه لما جاء به الرسول صلّى الله عليه وسلم من القرآن والأخبار ، لا أن هذا الداعي يأتي بشرع جديد ، وإنما يأتي بفهم جديد في الكتاب العزيز لم يكن غيره يعرف أن ذلك المعنى في ذلك الحرف المتلو أو المنقول ، فللرسل صلوات الله عليهم وسلامه العلم ولنا الفهم وهو علم أيضا ، فالبصيرة هي الدرجة التي تقع فيها المشاركة مع الأنبياء

401

عليهم السلام ، وهي هنا الكشف ، فالمتبع على كشف مثل كشف الرسل ، فإن العلم الصحيح لا يعطيه الفكر ولا ما قررته العقلاء من حيث أفكارهم ، إنما هو ما يقذفه الله في قلب العالم ، وهو نور إلهي يختص به من يشاء من عباده من ملك ورسول ونبي وولي ومؤمن ، ومن لا كشف له لا علم له ، ولهذا جاءت الرسل والتعريف الإلهي بما تحيله العقول فتضطر إلى التأويل في بعضها لتقبله ، وتضطر إلى التسليم والعجز في أمور لا تقبل التأويل أصلا ، وغايته أن يقول له وجه لا يعلمه إلا الله لا تبلغه عقولنا ، وهذا كله تأنيس للنفس لا علم حتى لا ترد شيئا مما جاءت به النبوة ، هذا حال المؤمن العاقل ، وأما غير المؤمن فلا يقبل شيئا من ذلك ، وقد وردت أخبار كثيرة مما تحيلها العقول في الجناب العالي مما وصف الحق به نفسه في كتابه وعلى لسان رسله مما يجب الإيمان به ، ولا يقبله العقل بدليله على ظاهره إلا إن تأوله بتأويل بعيد ، فإيمانه إنما هو بتأويله لا بالخبر ، ولم يكن له كشف إلهي كما كان للنبي فيعرف مراد الحق في ذلك الخبر ، فوصف نفسه سبحانه بالظرفية الزمانية والمكانية ، ووصفه بذلك رسوله صلّى الله عليه وسلم وجميع الرسل ، وكلهم على لسان واحد في ذلك ، لأنهم يتكلمون عن إلّ واحد ، والعقلاء أصحاب الأفكار اختلفت مقالاتهم في الله تعالى على قدر نظرهم ، فالإله الذي يعبد بالعقل مجردا عن الإيمان كأنه بل هو إله موضوع بحسب ما أعطاه نظر ذلك العقل فاختلفوا ، والرسل عليهم السلام ما نقل عنهم اختلاف فيما ينسبونه إلى الله من النعوت ، بل كلهم على لسان واحد في ذلك ، والكتب التي جاءوا بها كلها تنطق في حق الله بلسان واحد ما اختلف منهم اثنان ، يصدق بعضهم بعضا مع طول الأزمان وعدم الاجتماع ، وما بينهم من الفرق المنازعين لهم ، ما اختل نظامهم ، وكذلك المؤمنون بهم على بصيرة المسلمون المسلّمون الذين لم يدخلوا نفوسهم في تأويل ، فهم أحد رجلين ، إما رجل آمن وسلم وجعل علم ذلك إليه إلى أن مات وهو المقلد ، وإما رجل عمل بما علم من فروع الأحكام ، واعتقد الإيمان بما جاءت به الرسل والكتب ، فكشف الله عن بصيرته وصيره ذا بصيرة في شأنه كما فعل بنبيه ورسوله صلّى الله عليه وسلم وأهل عنايته ، فكاشف وأبصر ودعا إلى الله عزّ وجل على بصيرة ، كما قال الله تعالى في حق نبيه صلّى الله عليه وسلم مخبرا له« أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي »وهؤلاء هم العلماء بالله العارفون ، وإن لم يكونوا رسلا ولا أنبياء ، فهم على بينة من ربهم في علمهم به وبما جاء من عنده ، وكذلك وصف نفسه

402

بكثير من صفات المخلوقين في كل خبر صحيح ورد في كتاب أو سنة ، والأخبار أكثر من أن تحصى ، مما لا يقبلها إلا مؤمن بها من غير تأويل ، أو بعض أرباب النظر من المؤمنين بتأويل اضطره إليه إيمانه ، فانظر مرتبة المؤمن ما أعزها ، ومرتبة أهل الكشف ما أعظمها ، حيث ألحقت أصحابها بالرسل والأنبياء عليهم السلام فيما خصوا به من العلم الإلهي ، لأن العلماء ورثة الأنبياء ، وما ورثوا دينارا ولا درهما بل ورثوا العلم بقوله صلّى الله عليه وسلم [إنّا معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة]

وهذا العلم المأخوذ من الكشف إنما هو على صورة الإيمان سواء ، فكل ما يقبله الإيمان عليه يكون كشف أهل الله ، فإنه حق كله ،

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم [العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء ما ورثوا دينارا ولا درهما ، ورثوا العلم]

فالوارث الكامل من انقطع إلى الله بشريعة رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى أن فتح الله له في قلبه في فهم ما أنزل الله عزّ وجل على نبيه ورسوله محمد صلّى الله عليه وسلم بتجل إلهي ،

فرزق الفهم في كتابه عزّ وجل وجعله من المحدثين في هذه الأمة ، فقام له هذا مقام الملك الذي جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ثم رده إلى الخلق يرشدهم إلى صلاح قلوبهم مع الله ، ويفرق لهم بين الخواطر المحمودة والمذمومة ، ويبين لهم مقاصد الشرع وما ثبت من الأحكام عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم وما لم يثبت ، بإعلام من الله ، آتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما ، فيرقي هممهم إلى طلب الأنفس بالمقام الأقدس ، ويرغبهم فيما عند الله كما فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلم في تبليغ رسالته ، غير أن الوارث لا يحدث شريعة ولا ينسخ حكما مقررا ، لكن يبين ، فإنه على بينة من ربه وبصيرة في علمه ويتلوه شاهد منه بصدق اتباعه ، وهو الذي شركه الله تعالى مع رسوله صلّى الله عليه وسلم في الصفة التي يدعو بها إلى الله ، فأخبر وقال »أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي »وهم الورثة ، يدعون إلى الله على بصيرة ، وكذلك شركهم مع الأنبياء عليهم السلام في المحنة وما ابتلوا به فقال(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ)

وهم الورثة ، فشرك بينهم في البلاء كما شرك بينهم في الدعوة إلى الله ، فمتبع الرسول صلّى الله عليه وسلم لا يخطئ ، فإنّه يقفو أثره ، وما أفرد نفسه صلّى الله عليه وسلم ، بل ذكر أتباعه معه ، فإنهم لا يكونون أتباعه إلا حتى يكونوا على قدمه ، فيشهدون ما يشهد ويرون ما يرى ، فقوله« وَمَنِ اتَّبَعَنِي »هم أهل المجاهدات الذين اتبعوه في أفعاله أسوة واقتداء ، فأوصلهم ذلك الاتّباع إلى البصيرة ، وهو الكشف ، فكان ما أتوا به علما لهم ، فدعوا

ص 403

إلى الله في أحكامه على بصيرة ، وغاية المجتهدين من علماء الرسوم ، الذين لم يتبعوا الرسول صلّى الله عليه وسلم في أفعاله ولا اقتدوا به ، الحكم بغلبة الظن ، فكان ما أتوا به علما في نفسه ظنا لهم ، فدعوا إلى الله على غير بصيرة ، والبصيرة التي يكون عليها الداعي والبينة إنما ذلك فيما يدعو إليه ، وليس إلا الطريق إلى السعادة ، لا إلى العلم بالله ، فإنه إذا دعا إلى العلم أيضا إنما يدعو إلى الحيرة على بصيرة أنه ما ثم إلا الحيرة في الله ، لأن الأمر عظيم والمدعو إليه لا يقبل الحصر ولا ينضبط ، فليس في اليد منه شيء ، فما هو إلا ما تراه في كل تجل ، والحق لا يتجلى في صورة مرتين ، فهؤلاء الأتباع هم العلماء بالله من أهل الله الذين أقامهم الحق مقام الرسل في الدعوة إلى الله بلسان حق عن نبوة مطلقة ، اعتنى بهم في أن وصفهم بها لا نبوة الشرائع ، بل نبوة حفظ لأمر مشروع على بصيرة من الحافظ لا عن تقليد ،« وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ».

[سورة يوسف : (12)الآيات 109 إلى 111]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلا تَعْقِلُونَ (109) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)

اعلم أن جميع هذا القصص إنما هو قناطر وجسور موضوعة نعبر عليها إلى ذواتنا وأحوالنا المختصة بنا ، فإن فيها منفعتنا ، إذ كان الله نصبها لنا معبرا ، لذلك قال تعالى« لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ »فإن اللب يحجب بصورة القشر ، فلا يعلم اللب إلا من علم أن ثم لبا ، ولولا ذلك ما كسر القشر ، فيكون هذا القصص يذكرك بما فيك« ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.«

ص 404

(13) سورة الرّعد مدنيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[سورة الرعد (13) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (1)

أشار تعالى بقولهذلِكَ الْكِتابُفي أول البقرة أولا لوجود الجمع أصلا قبل الفرق ثم أوجد الفرق فإن الكتاب للجمع والآيات للتفرقة .

[سورة الرعد (13) : آية 2]

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)

[" اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها "]

الوجه الأول -" اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها »يدل ذلك على أن هناك عمدا قائما عليه اعتماد السبع الشدائد لكنه عن البصر محجوب فهو ملحق بالغيوب ، فقال من أوجد عينها ، فأقامها بغير عمد ترونها ، فما نفى العمد ، لكن ما يراه كل أحد ، فلا بد لها من ماسك ، وما هو إلا المالك ، فمن أزالها بذهابه ، فهو عمدها المستور في إهابه ، وليس إلا الإنسان الكامل ، وهو الأمر الشامل ، الذي إذا قال : الله ، ناب بذلك القول عن جميع الأفواه ، فهو المنظور إليه ، والمعول عليه ، فأقام سبحانه الصورة الإنسانية بالحركة المستقيمة صورة العمد الذي للخيمة ، فجعله لقبة هذه السماوات ، فهو سبحانه يمسكها أن تزول بسببه ، فعبرنا عنه بالعمد ، فإذا فنيت هذه الصورة ولم يبق منها على وجه الأرض أحد يتنفس انشقت السماء فهي يومئذ واهية لأن العمد زال وهو الإنسان ، ولما انتقلت العمارة إلى الدار

ص 405

الآخرة بانتقال الإنسان إليها وخربت الدنيا بانتقاله عنها ، علمنا قطعا أن الإنسان هو العين المقصودة لله من العالم ، وأنه الخليفة حقا ، وأنه محل ظهور الأسماء الإلهية ، فالإنسان الكامل عمد السماء الذي يمسك الله بوجوده السماء أن تقع على الأرض ، فإذا زال الإنسان وانتقل إلى برزخ دار الحيوان مارت قبة السماء وانشقت وهوت ، فكانت شعلة نار سيال كالدهان ، فالعمد لقبة السماء المعنى الماسك ، فإن لم ترد أن يكون الإنسان فاجعله قدرة المالك.»

ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى » فهو يثبت إلى وقت معين ثم يزول حكمه لا عينه ، فإذا بلغ جريانه الأجل زال جريانه وإن بقي عينه ، ولما كان الاسم الرب من خصائصه الإصلاح - فقد حد الاسم الرب الحدود ووضع المراسم لإصلاح المملكة وفعل ما تقتضيه المصلحة في بقاء أعيان الممكنات - اتخذ وزيرين يعينانه على ما أمر به ، الوزير الواحد الاسم المدبر ، والوزير الآخر المفصل ، فكان أصل وضع الشريعة في العالم وسببها طلب صلاح العالم ومعرفة ما جهل من الله مما لا يقبله العقل ، أي لا يستقل بإدراكه العقل من حيث نظره ، فنزلت بهذه المعرفة الكتب المنزلة ونطقت بها ألسنة الرسل والأنبياء عليهم السلام ، لذلك قال تعالى« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ »عامة« يُفَصِّلُ الْآياتِ "بالكلام" لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »

- **الوجه الثاني** -« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ »اعلم أن حكم المدبر في الأمور إحكامها في موضع الجمع والشهود وإعطاؤها ما تستحقه ، وهذا كله قبل وجودها في أعيانها وهي موجودة له ، فإذا أحكمها كما ذكرناه أخذها المفصل وهذا الاسم مخصوص بالمراتب ، فأنزل كل كون وأمر في مرتبته ومنزلته ، فالمعنى المراد من قوله تعالى« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ »هو التقدير والإيجاد فالتدبير للتقدير ، والتفصيل للإيجاد من فصلت الشيء عن الشيء إذا قطعته منه وفصلت بينه وبينه حتى تميز ، فإن كان الفصل عن تقدير فهو على صورته وشكله ، وإن كان عن غير تقدير فقد لا يكون على صورته وإن أشبهه في أمر ما

- **الوجه الثالث** - قوله تعالى« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ »يعني أن الحق على الحقيقة هو مدبر العالم ، وما وصف الحق نفسه بأنه يدبر الأمر إلا أن يعرفنا أنه ما عمل شيئا إلا ما تقتضيه حكمة الوجود وأنه أنزله موضعه الذي لو لم ينزله فيه لم يوف الحكمة حقها ، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه« يُفَصِّلُ الْآياتِ »يعني الدلالات على توحيده ، فيعطي كل خلق دلالة تخصّه على توحيد موجده ، ويفصل الآيات أي يقسمها على خلقه

ص 406

بحسب ما فطرهم الله تعالى عليه ، فإن الآيات معتادة وغير معتادة ، فالخواص العالم كله عندهم آيات بينات ، والعامة ليست الآيات عندهم إلا التي هي عندهم غير معتادة ، فتلك تنبههم إلى تعظيم الله ، والله قد جعل الآيات المعتادة لأصناف مختلفين من عباده فمنها للعقلاء وآيات للموقنين وآيات لأولي الألباب ، وآيات لأولي النهي وآيات للسامعين ، وآيات للعالمين وآيات للعالمين وآيات للمؤمنين ، وآيات للمتفكرين وآيات لأهل الذكر ، فهؤلاء كلهم أصناف نعتهم الله بنعوت مختلفة وآيات مختلفة ذكرها لنا في القرآن إذا بحثت عليها وتدبرتها علمت أنها آيات ودلالات على أمور مختلفة ترجع إلى عين واحدة ، غفل عن ذلك أكثر الناس ، ولهذا عدد الأصناف ، فيتلوها جميع الناس ولا يتنبه لها إلا الأصناف الذين ذكرهم في كل آية خاصة ، فكأن تلك الآيات في حق أولئك أنزلت ، وفي حق غيرهم لمجرد التلاوة ليؤجروا عليها »لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »أي انتقالكم من وجود الدنيا إلى وجود الآخرة أقرب في العلم إن كنتم توقنون من انتقالكم من حال العدم إلى حال الوجود ، وتوقنون أي تثبتون على موازين الحكم .

[سورة الرعد (13) : آية 3]

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)

[إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ]

وهو الاعتبار والنظر المأمور به شرعا« إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »فيما أخفاه من غامض حكمته في أحكامه ، فلو لا ما نصب الله الأدلة ما شرع للعقلاء التفكر ولا طالبهم ، وكذلك في معرفتهم به سبحانه ، فإذا تعدى بالفكر حدّه وفكر الإنسان فيما لا ينبغي له أن يفكر فيه عذب يوم القيامة بنار فكره ، ثم إنّ الإنسان يشغله الفكر فيما لم يشرع له التفكر فيه عن شكر المنعم على النعم التي أنعم الله عليه بها ، فيكون صاحب عذاب ، عذاب الفكر فيما لا ينبغي وعذاب عدم الشكر على ما أنعم به عليه ، فإن الله سبحانه قد شاء أن يبرز العالم في الشفعية لينفرد سبحانه بالوترية ، فيصح اسم الواحد الفرد ، ويتميز السيد من العبد ، فقال« وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »فإذا أخذت في الفكر والاعتبار في هذه الآية رأيت أن الإنسان من جملة الثمرات ، ينمو كنمائها ويتغذى كغذائها ، ثم ينتهي كنهايتها ، ويؤخذ منه

ص 407

الفوائد كالأخذ منها ، ثم يأخذ في النقص كنقصانها ، ثم يهرم كهرمها ، ثم يموت كموتها ، ثم تراه يولد كتوليدها ، فيؤخذ بذر منها فيزرع فيحدث فيه الشباب كذلك حتى يصير إلى مثل حالها ، فقد يؤخذ منه كما أخذ منها وقد يترك فينقطع النسل من تلك الثمرة المعينة ، وكذلك الإنسان في التوالد والتناسل على ذلك المهيع ، فإن قلت : هذه شجرة ، فأين أختها التي تصح بها شفعيتها وإطلاق هذه الآية عليهما فكرا واعتبارا ؟ فإذا تتبعت وجود الحكمة في الإنسان وتفضيله على سائر الحيوان وتقصيت أسراره وحكمه ولطائفه ، رأيتها بأعيانها في العالم المحيط الأكبر قدما بقدم ، حتى تجده كأنه هو ، فتعلم أن الثمرة الواحدة العالم الكبير المحيط ، والثمرة الأخرى الإنسان الذي هو العالم الصغير ، وعلى ذلك نبه الكتاب العزيز بقوله : (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ) وبقوله(سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

فانظر نوّر الله بصيرتك إلى ما تفرق في العالم الأكبر تجده في هذا العالم الإنساني ، من ملك وملكوت« إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »اعلم أن الله تعالى ابتلى الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض ببلاء ما ابتلى به أحدا من خلقه ، إما لأن يسعده أو يشقيه على حسب ما يوفقه إلى استعماله ، فكان البلاء الذي ابتلاه به أن خلق فيه قوة تسمى الفكر ، وكلف العقل معرفته سبحانه ليرجع إليه في اقتناء العلوم لا إلى غيره ، ففهم العقل نقيض ما أراد به الحق بقوله تعالى(أَ وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا) *" لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ "

*فاستند إلى الفكر وجعله إماما يقتدى به ، وغفل عن الحق في مراده بالتفكر أنه خاطبه أن يتفكر فيرى أن علمه بالله لا سبيل إليه إلا بتعريف الله ، فيكشف له عن الأمر على ما هو عليه ، فلم يفهم كل عقل هذا الفهم إلا عقول خاصة الله من أنبيائه وأوليائه ، يا ليت شعري هل بأفكارهم قالوا بلى حين أشهدهم على أنفسهم في قبضة الذرية من ظهر آدم ؟

لا والله ، بل عناية إشهادهم إياه ذلك عند أخذه إياهم عنهم من ظهورهم ، ولما رجعوا إلى الأخذ عن قواهم المفكرة في معرفة الله لم يجتمعوا قط على حكم واحد في معرفة الله ، وذهبت كل طائفة إلى مذهب ، وكثرت القالة في الجناب الإلهي الأحمى ، واجترءوا غاية الجرأة على الله ، وهذا كله من الابتلاء الذي ذكرناه من خلقه الفكر في الإنسان ، فالخاصة افتقروا إليه فيما كلفهم من الإيمان به في معرفته ، وعلموا أن المراد منهم رجوعهم إليه في ذلك وفي كل حال ، فمنهم القائل ، سبحان من لم يجعل سبيلا إلى معرفته إلّا العجز عن معرفته ،

ومنهم من قال : العجز عن درك الإدراك

ص 408

إدراك ، وقال صلّى الله عليه وسلم [لا أحصي ثناء عليك] وقال تعالى(وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)فرجعوا إلى الله في المعرفة به وتركوا الفكر في مرتبته ووفوه حقه ، لم ينقلوه إلى ما لا ينبغي له التفكر فيه ، وقد ورد النهي عن التفكر في ذات الله ، فوهبهم الله من معرفته ما وهبهم ، وأشهدهم من مخلوقاته ومظاهره ما أشهدهم ، فعلموا أنه ما يستحيل عقلا من طريق الفكر لا يستحيل نسبة إلهية ، فالفكر لا يتعدى النظر في الإله من كونه إلها ، وفيما ينبغي أن يستحقه من له صفة الألوهية من التعظيم والإجلال والافتقار إليه بالذات ، وهذا كله يوجد حكمه قبل وجود الشرائع ، ثم جاء الشرع به مخبرا وآمرا ، فأمر به وإن أعطته فطرة البشر ، ليكون عبادة يؤجر عليها ، وليس للفكر حكم ولا مجال في ذات الحق لا عقلا ولا شرعا ، فإن الشرع قد منع من التفكر في ذات الله ، فالفكر يصيب العاقل به ويخطئ ، ولكن خطأه أكثر من إصابته ، لأن له حدا يقف عنده ، فمتى وقف عنده أصاب ولا بد ، ومتى جاوز حدّه إلى ما هو لحكم قوة أخرى يعطاها بعض العبيد قد يخطئ ويصيب ، عصمنا الله وإياكم من غلطات الأفكار .

[سورة الرعد (13) : آية 4]

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

« وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ »والأرض تقلب ما يزرع فيها إلى طبيعتها ، وتختلف الطعوم والروائح ، فإن الثمرة الطيّبة والخبيثة من خبث مزاج البقعة أو طيبها ، أو من خبث البذرة أو طيبها« وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ »مع كونها تسقى بماء واحد ، وما ثمّ آية أحق بما هو الوجود عليه من التفاضل من هذه الآية حيث قال« يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ »فظهر الاختلاف عن الواحد في الطعم بطريق المفاضلة ، والواقع من هذا كثير في القرآن من تفضيل كل جنس بعضه على بعض ، ولما كان الماء واحدا ، والماء سبب في ظهور الروائح المختلفة والطعوم المختلفة ، قال« إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »من العقل ، والعقل القيد ، فقيدهم من

ص 409

العقال وهو التقييد ، وما سميت العقول عقولا إلا لقصورها على من عقلته من العقال ، والعاقل يهوله المعتاد وغير المعتاد من الآيات ، ولذلك قال في المعتاد »إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »والسعيد من عقله الشرع لا من عقله غير الشرع .
إشارة - اللذات في المطاعم ، والمطاعم في الثمر ، والثمر في الأغصان ، والأغصان تتفرع من الأصل ، والأصل واحد ، ولولا الأرض ما ثبت الأصل ، ولولا الأصل ما ثبت الفرع ، ولولا الفرع ما كان الثمر ، ولولا الثمر ما وجد الأكل ، ولولا الأكل ما وجدت اللذة ، فالكل متعلق بالأرض ، والأرض مفتقرة إلى الماء ، والماء مفتقر إلى السحاب ، والسحاب مفتقر إلى الريح ، والريح يسخرها الأمر ، والأمر من الحضرة الربانية يصدر ، ومن هنا ارق وانظر وتنزه ولا تنطق - إشارة - يسقى بماء واحد وفضل بعضها على بعض في الشاهد ! ! لأن للمزاج أثرا والغذاء واحد ، وتستمد منه القوى على اختلافها فيظهر في كل موطن بما تقتضيه حقيقة ذلك الموطن ، وكل إناء بما فيه ينضح ، انظر إلى بني آدم ! !

[سورة الرعد (13) : الآيات 5 إلى 7]

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (5)
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (6)وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (7)
" وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ " أي رسول من عند الله مبلغ عن الله ، لا هاد بمعنى موفّق ، فهو مبيّن فله الإبانة خاصة .

[سورة الرعد (13) : آية 8]

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (8)

410

إن الله تعالى وكّل ملائكة بالأرحام عند مساقط النطف ، فيقلبون النطف من حال إلى حال كما قد شرع لهم الله ، وقدر ذلك التنقل بالأشهر ، وهو قوله تعالى« وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ »أي ما تنقص عن العدد المعتاد« وَما تَزْدادُ »عن العدد المعتاد« وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ »فهو سبحانه يعلم شخصية كل شخص ، وشخصية فعله وحركاته وسكونه ، وربط ذلك بالحركات الكوكبية العلوية ، فنسب من نسب الآثار لها ، وجعلها الله عندها لا لها ، فلا يعلم ما في الأرحام ولا ما تخلّق مما لم يتخلّق من النطف على قدر معلوم إلا الله تعالى ، ومن أعلمه الله تعالى من الملائكة الموكلة بالأرحام« وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ »فالأمور كلها بيديه ، ومع هذا لو ارتفعت الحاجات ، وزالت الفاقات وانعدمت الشهوات ، وذهبت الأغراض والإرادات ، لبطلت الحكمة ، وتراكمت الظلمة ، وطمست الأنوار وتهتكت الأستار ، ولاحت الأسرار ، وزال كل شيء عنده بمقدار ، فذهب الاعتبار وهذا لا يرتفع ولا يندفع وبقي الحكم للأقدار ، فكل شيء عنده بمقدار .

[سورة الرعد (13) : آية 9]

عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (9)

« الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ »الذي لا يحدّه الحد ، ولا يعرفه السيد والعبد ، تقدست الألوهة أن تدرك ، وفي منزلها أن تشرك ، فهو الكبير عن الاتصاف بمثل ما هو عليه الخلق ، وهو تعالى كبير لنفسه« الْمُتَعالِ »على من أراد علوا في الأرض وادعى ما ليس له بحق .

[سورة الرعد (13) : الآيات 10 إلى 11]

سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (10) لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (11)

[المعقبات]

هؤلاء المعقبات ملائكة تسخير تكون مع العبد بحسب ما يكون العبد عليه ، فهم تبع له ، ويحفظونه من أمر الله ، أي من حيث أن الله أمرهم بحفظه ، أي من أجل أن أمرهم

ص 411

الله ، فهو معصوم محفوظ ، وقد يحفظونه من الأمر النازل به فيدفعونه ، كما فعل بالزاني في حين زناه ، أخرج عنه الإيمان حتى صار عليه كالظلّة ، يحفظه من أمر الله النازل به حيث تعرض بالمخالفة لنزول البلاء ، فهؤلاء المعقبات يتبعون العبد حيث تصرف ، فهو مطلق التصريف في إرادته ، وإن حجر عليه بعض التصرف ، فإنه يتصرف فيما حجر عليه ، ولا يستطيع الملك منعه من ذلك لأمرين : الواحد لكون الحق قد ذهب بسمع هذا العبد عن قوله وببصره عن شهوده ، والأمر الآخر لكون الملك الحافظ الموكل به لا يمنعه لشهوده الحق معه في تصرفه الذي أمره بحفظه ، فهؤلاء المعقبات يحفظون العبد في تصرفه« إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ »وهذا لمناسبة التحويل ، فيطلب العباد التحويل بالتحويل ، ولسان الأفعال أفصح من لسان الأقوال ، وإلى هذه الآية يشار بتحويل الرداء في صلاة الاستسقاء ، إشارة إلى تحويل الحال الذي أخرج العباد من الجدب إلى الخصب ، ومن حال شظف العيش إلى رغده ، فإنّ تحول أهل المصر في خروجهم إلى الاستسقاء إنما هو تحول من حال البطر والأشر وكفران النعم إلى حال التوبة والافتقار وإظهار الفاقة والمسكنة ، فطلبوا التحويل بالتحويل ، فإنهم القائلون بهذا الفعل ، أي ربنا إنا هدنا إليك ورجعنا عما كنا عليه من مخالفتك ، فإن التنعم بالنعم وما كنا فيه من الخصب على جهة البطر أوجب لنا الجدب والقحط ، ونرجو بكرمك أن توجب لنا بالافتقار والذلة والمسكنة والخشوع الخصب« وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ »الوالي هو الذي يلي الأمور بنفسه ، فإن وليها غيره بأمره فليس بوال ولا إمام ، وإنّما الوالي والإمام هو المنصوب للولاية ، وإنما سمي واليا لأنه يوالي الأمر من غير إهمال لأمر ما مما له عليه ولاية ، وإن لم يفعل فليس بوال ، والوالي لا يكون أبدا إلا في الخير ، لا بد من ذلك ، فإنه موجد على الدوام ، فلا تراه أبدا إلا في فضل وإنعام وإقامة حد لتطهير ، والتطهير خير ، فإن الوالي على الحقيقة هو الله .

[سورة الرعد (13) :الآيات 12 إلى 13]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ(13)

ص 412

الملك المسمى بالرعد مخلوق من الهواء ، كما خلقنا نحن من الماء ، وذلك الصوت المسمى عندنا بالرعد تسبيح ذلك الملك ، وفي ذلك الوقت يوجده الله ، فعينه نفس صوته ، ويذهب كما يذهب البرق وذوات الأذناب« وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ »المحال الشدة والقوة .

[سورة الرعد : (13)الآيات 14 إلى 15]

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (14) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (15)

[سجود الظلال]

السجود من كل ساجد مشاهدة أصله الذي غاب عنه حين كان فرعا عنه ، فلما اشتغل بفرعيته عن أصليته قيل له : اطلب ما غاب عنك ، وهو أصلك الذي عنه صدرت ، فسجد الجسم إلى التربة التي هي أصله ، وسجد الروح إلى الروح الكل ، وسجد السر إلى ربه الذي به نال المرتبة ، والأصول كلها غيب ، ألا تراها قد ظهرت في الشجر ، أصولها غيب ، كذلك الحق أصل وجود الأشياء ، وهو غيب لها ، والسجود تحية الملوك لما كان السوقة دون الملك ، فالملك له العلو والعظمة ، فإذا دخل عليه من دونه سجد له ، أي منزلتنا منك منزلة السفل من العلو ، فإنهم نظروا إليه من حيث مكانته ورتبته ، ومن سجد فقد تطأطأ ، والتطأطؤ لا يكون إلا عن رفعة ، والرفعة في حق كل ما سوى الله خروج عن أصله ، فقيل له : اسجد ، أي تطأطأ عن رفعتك المتوهمة ، واخضع من شموخك ، بأن تنظر إلى أصلك فتعرف حقيقتك ، فإنك ما تعاليت حتى غاب عنك أصلك ، ومن عرف أصله عرف عينه أي نفسه ، ومن عرف نفسه عرف ربه ، ومن عرف نفسه لم يرفع رأسه ، فالسجود قربة تعريف وتنزيه بما يستحقه الإله من العلو والرفعة عن صفات المحدثات ، فأخبر تعالى بقوله« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ »وهم الأعلون ،

قال صلّى الله عليه وسلم [أطت السماء وحق لها أن تئطّ ، ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد لله]

« وَالْأَرْضِ »أي ومن في الأرض ،

ص 413

وهم الأسفلون عالم الأجساد ، الذين قاموا بالنشأة العنصرية« طَوْعاً وَكَرْهاً »ويدخل في قوله تعالى« كَرْهاً »المنافقون فإنهم سجدوا كرها ، وآمنوا كرها ، لظهور أهل الإيمان بالسيف عليهم« وَظِلالُهُمْ »

- **الوجه الأول في الظلال** - الموجودات الممكنات التي أوجدها الحق تعالى هي للأعيان التي يتضمنها برزخ الممكن ، أي حضرة الإمكان بمنزلة الظلالات للأجسام ، بل هي الظلالات الحقيقية ، وهي التي وصفها الحق سبحانه بالسجود له مع سجود أعيانها ، فما زالت تلك الأعيان ساجدة له قبل وجودها ، فلما وجدت ظلالها وجدت ساجدة لله تعالى لسجود أعيانها التي وجدت عنها ، وظل الأشخاص أشكالها ، فهي أمثالها ، وهي ساجدة بسجود أشخاصها والسجود لا يكون إلّا مع الشهود والمعرفة ، لا غير ذلك

- **الوجه الثاني** - من أسرار العالم أنه ما من شيء يحدث إلا وله ظل يسجد لله ليقوم بعبادة ربه على كل حال ، سواء كان ذلك الأمر الحادث مطيعا أو عاصيا ، فإن كان من أهل الموافقة كان هو وظله على السواء ، وإن كان مخالفا ناب ظله منابه في الطاعة لله ، والظلالات أبدا تابعة للصورة المنبعثة عنها حسا ومعنى ، فالحس قاصر ، لا يقوى قوة الظل المعنوي للصورة المعنوية ، لأنه يستدعي نورا مقيدا ، لما في الحس من التقييد والضيق وعدم الاتساع

- **الوجه الثالث** - ظلال الأرواح أجسادها ، فالأجساد ظلال الأرواح ، فإنها لا تتحرك إلا بتحريك الأرواح إياها تحريكا ذاتيا ، وأظهر الله الظلال عن أشخاصها بالأنوار المحصورة ، ضرب مثال لأنوار العقائد المحصورة ، فإله كل معتقد محصور في دليله ، فأراد الحق منك أن تكون معه كظلك معك من عدم الاعتراض عليه فيما يجريه عليك ، والتسليم والتفويض إليه فيما تصرف فيك به ، وينبهك بذلك أن حركتك عين تحريكه ، وأن سكونك كذلك ، ما الظل يحرك الشخص ،

كذلك فلتكن مع الله ، فإن الأمر كما شاهدته ، فهو المؤثر فيك ، لذلك سجدت الظلال لمشاهدتها من خرجت عنه ، وهي الأشخاص ، يتستر ظل الشخص عن النور بأصله الذي انبعث عنه لئلا يفنيه النور ، فلم يكن له بقاء إلا بوجود الأصل ،

فلا بقاء للعالم إلا بالله ، فأخبر تعالى عمّن ذكر أنهم يسجدون « طَوْعاً » للأرواح من حيث علمهم ومقامهم ، فسجدت الملائكة لمرتبة العلم فكان سجودها(لا عِلْمَ لَنا)

*وللأجسام من حيث ذواتهم وأعيانهم« وَكَرْهاً »

في الأرواح من حيث ذواتهم ، وفي الأجسام من حيث رياستهم وتقدمهم على أبناء جنسهم ، ولما كان هذا السجود سجود إخبار ، تعيّن على العبد أن يصدّق

ص 414

الله في خبره عمن ذكر ، فإنه من أهل الأرض بجسده ومن أهل السماوات بعقله ، فيسجد لربه طوعا وكرها ، من تقييده بجهة خاصة لا يقتضيها علمه ، وإن كان ساجدا في نفس الأمر سجودا ذاتيا وإن لم يشعر بذلك ، فيوقعها عبادة ، فإن ذلك أنجى له .
وذكر« بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ »لامتداد الظلال في هذه الأوقات ، فجعل امتدادها سجودا ، فهي في الغدو تتقلص رجوعا إلى أصلها الذي منه انبعثت ، وفي الآصال تمتد وتطول بالزيادات ، والغدو والآصال من الأوقات المنهي عن الصلاة فيها ، فأخرج حكم السجود في هذه الأوقات عن حكم النافلة ، وجعل حكمه حكم الفرائض ، أو المقضي من النوافل ، فتعيّن على التالي في هذه الآية السجود ، فيجازى من باب من صدّق ربه تعالى في خبره ، فهي سجدة تصديق بتحقيق
- **نكتة** - أنفت الظلال من السجود للشمس لما هي عليه من شرف النفس ، فاستدبرتها في هذه الأوقات ، وامتدت ساجدة لمن بيده ملكوت الأرض والسماوات ، حين سجد لها من يزعم أنه من أهل التمكين ، وتعبدت من يدعي العقل الرصين ، ألا ترى تبعية ظلال الأشخاص لها ، ما أحسنها وما أكملها ، ولقد أخبر سبحانه عن الظلال أنها تسجد له بالغدو والآصال ، فمن أولى بهذه الصفة في علمك ؟
أنت أم الظلال التي هي جماد في زعمك ؟!
هيهات ، لشغلك بالترهات .

[سورة الرعد (13) : آية 16]
قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (16)
كما لا تستوي الظلمات ولا النور ، كذلك لا يستوي الأعمى وهو الذي لا يفهم فيعلم ولا البصير الذي يفهم فيعلم« أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ »فما في الوجود إلا الله ونحن ، وإن كنا موجودين فإنما كان وجودنا به ، ومن كان وجوده بغيره فهو في حكم العدم ، لأن العالم من حيث ذاته عدم ،
ص 415

ولا يكتسب الوجود إلا من كونه قابلا ، وذلك لإمكانه واقتدار الحق المخصص المرجّح وجوده على عدمه ، فلو زال القبول من الممكن لكان كالمحال لا يقبل الإيجاد ، وقد اشترك المحال والممكن قبل الترجيح بالوجود في العدم ، كما أنه مع قبوله لو لم يكن اقتدار الحق ما وجد عين هذا المعدوم الذي هو الممكن ، فلم تظهر الأعيان المعدومة للوجود إلا بكونها قابلة ، فإذا اطلعت على حقيقتك وجدت نفسك عبدا محضا عاجزا ميتا ضعيفا عدما لا وجود لك ، وأول اسم تلبسه الوجود ، فتظهر موجودا لنفسك حتى تقبل جميع ما يمكن أن يقبله الموجود من حيث ما هو موجود ، فتقبل جميع ما يخلع عليك الحق من الأسماء الإلهية ، فتتصف عند ذلك بالحي والقادر والعليم والمريد والسميع والبصير والمتكلم والشكور والرحيم والخالق والمصور وجميع الأسماء ، ومع وجود هذه الصفات لا يزول عن الإنسان حقيقة كونه عبدا إنسانا مع وجود هذه الأسماء الإلهية فيه« وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ »الواحد من حيث ألوهته ، فلا إله إلا هو« الْقَهَّارُ »من نازعه من عباده بجهالة ولم يتب .

[سورة الرعد : (13) آية 17]

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (17)

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً »فجعله كالباطل

كما قال(وَزَهَقَ الْباطِلُ)" وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ "أي يثبت « فِي الْأَرْضِ »

ضربه مثلا للحق« كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ »

فالأمثال كلها للاعتبار ليست مرادة لأنفسها ، وإنما هي مرادات لما رمزت له ، ليعلم منها ما ضربت له وما نصبت من أجله ، وهذا المثل ضربه الحق للقلوب ، مثلها بالأودية تسيل بقدرها في نزول الماء ، ليقرب تصورها على من لا يتصور المعاني من غير ضرب مثل ، فالعالم كله بما فيه ضرب مثل ليعلم أنه هو ، فجعله دليلا عليه وأمرنا بالنظر فيه

- إشارة - الوادي محل التكليم والمناجاة حيث وقع لموسى عليه السلام ما وقع ، وما سالت به الأودية

ص 416

إشارة إلى المعارف الإلهية القدسية الموسوية ، فالوادي مسيل المعارف في قلوب العباد من حيث هم عباد .

[سورة الرعد (13) : الآيات 18 إلى 20]

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (18) أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (20)

وهم الذين لا يغدرون إذا عهدوا ، فلا ينقضون عهدا مع الله كان ما كان ، من قليل الخير وكثيره ، ولا لرخصة تظهر تسقط الإثم ، فيوفي العهد ولا ينقضه تماما للمقام الأعلى وكمالا ، فإن النفس إذا تعودت نقض العهد واستحلته لا يجيء منها شيء أبدا ، ومن جملة ما سأل قيصر ملك الروم عنه أبا سفيان بن حرب حين سأله عن صفة النبي صلّى الله عليه وسلم هل يغدر ؟

فالوفاء من شيم خاصة الله ، فمن أتى في أموره التي كلفه الله أن يأتي بها على التمام ، وكثر ذلك في حالاته كلها ، فهو وفيّ ، وقد وفّى ، يقال : وفى الشيء وفيّا ، على فعول بضم فاء الفعل ، إذا تم وكثر ، وأوفى على الشيء إذا أشرف .

[سورة الرعد (13) : آية 21]

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (21)

« وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ »يعني من صلة الأرحام ، وأن يصلوا من قطعهم من المؤمنين بما أمكنهم من السلام عليهم فما فوقه من الإحسان ، ولا يؤاخذ بالجريمة التي له الصفح عنها والتغافل ، ولا يقطعون أحدا من خلق الله إلا من أمرهم الحق بقطعه فيقطعونه ، قال صلّى الله عليه وسلم [الرحم شجنة من الرحمن] أي هذه اللفظة أخذت من الاسم الرحمن ، فمن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله ، وقطعه إياها هو قطع الله ، وقد

ص 417

ورد في الخبر [لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا] فنهوا عن التقاطع ، فالواصلون ما أمر الله به أن يوصل ذلك عين وصلتهم باللّه تعالى ، فأثنى عليهم .

[سورة الرعد (13) : آية 22]
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22)
ولنا في الصبر والرضا :
إن التحرك عن ضجر *** سخط على حكم القدر
الساكنون لحكمنا *** قوم أعزاء صبر
فهمو لنا وأنا لهم *** وهم المراد من البشر
لا تركنن لغيرنا *** واصبر تعش مع من صبر
إني لكل مسلّم *** عرف الحقيقة فاعتبر
في كل ما يجري عليه *** من المكاره والضرر
قل للذين تحركوا *** من حكمنا أين المفر ؟
ما ثمّ إلا حكمنا *** عند الإقامة والسفر
فاربح قعودك تسترح *** فتكون من أهل الظفر
فاللّه ليس بغائب *** وهو الكفيل لمن نظر

[سورة الرعد (13) : آية 23]
جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (23)
الجنات الثمانية أعلاها جنة عدن ، وهي قصبة الجنة وقلعتها ، وحضرة الملك وخواصه ، لا تدخلها العامة إلا بحكم الزيارة ، فيها الكثيب الذي يكون اجتماع الناس فيه لرؤية الحق تعالى ، وهي أعلى الجنة في الجنات ، وهي في الجنات بمنزلة دار الملك ، يدور عليها ثمانية أسوار ، بين كل سورين جنة ، فالتي تلي جنة عدن إنما هي جنة الفردوس ، وهي أوسط

ص 418

الجنة التي دون جنة عدن وأفضلها ، ثم جنة الخلد ، ثم جنة النعيم ، ثم جنة المأوى ، ثم دار السلام ، ثم دار المقامة ، وأما الوسيلة فهي أعلى درجة في جنة عدن لرسول الله صلّى الله عليه وسلم .

[سورة الرعد (13) : آية 24]

سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)

هذا الصنف المذكور هنا هم الصابرون أهل البلاء من البشر ، وأما الملائكة التي تدخل على أصحاب النعيم الشاكرين فلم يجر لهم ذكر ، مع أنه لا بد من دخول الملائكة عليهم من كل باب ، ومن رأى أن النعم التي أنعم الله بها على عباده في الدنيا ليست بخالصة من البلاء لما وجه عليهم من التكليف بالشكر عليها ، وهو أعظم البلاء ، إذ كانت النعم أشد في الحجاب عن الله من الرزايا ، فدخل أهل النعيم على هذا في قول الملائكة« بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ »أي حصلتم في دار نعيمها غير مشوب بتكليف ولا طلب حق ، فلذلك لم يجر ذكر لأحوال الملائكة مع الشاكرين ، واقتصروا على ما جاء به الحق من التعريف وهو الصحيح ، فإن الدار تعطي هذا ، وجميع من في الدار الدنيا من مبتلى ومنعم عليه له حال الصبر ، فالصبر أعم من الشكر ، والبلاء أعم من النعم في هذه الدار .

[سورة الرعد (13) : الآيات 25 إلى 26]

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتاعٌ (26)

يختلف البسط لاختلاف المحالّ والأحوال ، فأما في محل الدنيا فلو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، فأنزل بقدر ما يشاء ، وأطلق في الجنة البسط ، لكونها ليست بمحل تعنّ ولا تعدّ ، فإن الله قد نزع الغل من صدور أهلها .

[سورة الرعد (13) : الآيات 27 إلى 28]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)

[ألا بذكر الله تطمئن القلوب]

-الوجه الأول -« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ »الذي ذكرها به« أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ »الذي ذكرها به ، إذا كانت مؤمنة« تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ »في تقلبها فتسكن إلى التقليب مع الأنفاس ، وتعلم أن الثبات على حال واحدة لا يصح ، فهو كل يوم في شأن حيث كان ، فما زال الأمر مذ كان من حال إلى حال ، والقلب له عين تبصر ، ومن أبصر أمرا فقد علمه ، وإذا علمه سكن إليه ، فأبصر التقليب دائما ، فعلمه دائما ، فاطمأن به وسكن إليه ، فهو في كل نفس ينظر إلى آثار ربه في قلبه - فيما يقيمه وفيما يخرج عنه - ما يعطيه فيه وينبهه به عليه ، فلا يزال صاحب هذا المقام في كل نفس في علم جديد

- الوجه الثاني - القرآن ذكر الله ، والطمأنينة سكينة أنزلها القرآن في قلوب المؤمنين ، فكانت آيات بني إسرائيل ظاهرة ، وآياتنا في قلوبنا ، إذ قال الله تعالى في بني إسرائيل في آية طالوت (وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) فكانت السكينة شهادة في غير هذه الأمة ، غيبا في هذه الأمة ، وبها وبأمثالها كانت الأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس ، فعلامة هذه الأمة في قلوبهم . ومقام الوارث المحمدي في تلاوته كلام ربه عزّ وجل ، هو سكونه لما يتلوه من كشفه واطلاعه على معانيه ، فهو في حال تلاوته يستذكر ما عنده ، فيطلع على نفسه ، ويسمعه الله نثر كلامه بتأييد الروح القدسي ، فكل من تلا وسكن لما تلا بصدق ، بصورة ظاهر وحكمة باطن ، فذلك تال وصاحب سكينة ، فإن هو تلا وسكن ظاهرا ولم يسكن باطنا -والسكون الباطن فهم المعنى الساري في الوجود من تلك الآية المتلوة ، لا يقتصر على ما تدل عليه في الظاهر خاصة - فمن تلا هكذا فليس بصاحب سكينة أصلا ولا هو وارث محمدي ، وإن كان من أمة محمد صلّى الله عليه وسلم ، فإن تلا وسكن باطنا ولم يسكن ظاهرا وتعدى الظاهر المشروع ، فذلك ليس بوارث ولا محمّدي ولا بمؤمن ، وهو أبعد الناس من الله ، فإن الروح القدسي أول من يرميه ويرمي به ، والنبي محمد صلّى الله عليه وسلم يقول لربه فيه يوم القيامة : سحقا سحقا . والله عند ذلك لا يسعده ولا يساعده.

ص 420

[سورة الرعد (13) : آية 29]
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29)
[شجرة طوبى]
شجرة طوبى غرسها الحق تعالى بيده في جنة عدن ، وأطالها حتى علت فروعها سور جنة عدن ، وتدلت مطلة على سائر الجنات كلها ، وليس في أكمامها ثمر إلا الحلي ، والحلل لباس أهل الجنة وزينتهم زائدا في الحسن والبهاء على ما تحمل أكمام شجر الجنات من ذلك ، لأن لشجرة طوبى اختصاص فضل بكون الله خلقها بيده ، فإن لباس أهل الجنة ما هو نسج ينسج ، وإنما تشقق عن لباسهم ثمر الجنة كما تشقق الأكمام هنا عن الورد وعن شقائق النعمان وما شاكلهما من الأزهار كلها ، كما ورد في الخبر الصحيح كشفا والحسن نقلا ، أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يخطب بالناس فدخل رجل فقال : يا رسول الله ، أو قام رجل من الحاضرين - الشك مني - فقال : يا رسول الله ، ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج ؟
فضحك الحاضرون من كلامه ، فكره ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلم منهم وقال : [أتضحكون إن سأل جاهل عالما ؟ يا هذا ، وأشار إلى السائل بل تشقق عنها ثمر الجنة]
وشجرة طوبى زينها بثمر الحلي والحلل اللذين فيهما زينة للابسهما ، وأعطت في ثمر الجنة كله من حقيقتها عين ما هي عليه ، كما أعطت النواة النخلة وما تحمله من النوى الذي في ثمرها ، وكل من تولاه الحق بنفسه من وجهه الخاص بأمر ما من الأمور فإن له شفوفا وميزة على من ليس له هذا الاختصاص ولا هذا التوجه .

[سورة الرعد (13) : آية 30]
كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ (30)

« وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ »لأنه لم يكن عندهم هذا الاسم ولا سمعوا به قبل هذا ، فلما قيل لهم
(اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ) فزادهم هذا الاسم نفورا ، فإنهم لا يعرفون إلا الله ، الذين يعبدون الشركاء ليقربوهم إلى الله زلفى ، ولما قيل لهم(اعْبُدُوا اللَّهَ) *لم يقولوا : وما الله ؟ وإنما أنكروا توحيده ، وقد نقل أنهم كانوا يعرفونه مركبا (الرحمن الرحيم) اسم واحد كبعلبك ورام هرمز ، فلما أفرده بغير نسب أنكروه ، فقال لهم الداعي:
ص 421

الرحمن« هُوَ رَبِّي »ولم يقل هو الله ، وهم لا ينكرون الرب ، وفسره بالرب لأنه المغذي ، وبالغذاء حياتهم ، فلا يفرقون من الرب ويفرقون من الله ، ولهذا عبدوا الشركاء ليشفعوا لهم عند الله ، إذ بيده الاقتدار الإلهي والأخذ الشديد ، وهو الكبير عندهم المتعالي ، فهم معترفون مقرون به ، فتلطف لهم بالعبارة بالاسم الرب ليرجعوا ، فهو أقرب مناسبة بالرحمن ، فأمر نبيه أن يقول بحيث يسمعون« قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ »في أمركم« وَإِلَيْهِ مَآبِ »أي مرجعي في أمركم ، عسى يهديكم إلى الإيمان ، فما أغلظ لهم ، لتتوفر دواعي المخاطبين للنظر فيما خاطبهم به ، إذ لو خاطبهم بصفة القهر ، وهو غيب لا عين له في الوقت إلا مجرد إغلاظ القول ، لنفرت طباعهم وأخذتهم حمية الجاهلية لما نصبوهم آلهة ، فأبقى عليهم ، وهذا هو التوحيد الرابع عشر في القرآن وهو توحيد الرجعة وهو توحيد الهوية .

[سورة الرعد (13) : آية 31]

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (31)

قال تعالى :« وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً »فقال قرآنا بالتنكير دليل على أحد أمرين إما على آيات منه مخصوصة كما ضرط الجبار عندما سمع(صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ)وإما أن يكون ثم أمر آخر ينطلق عليه اسم قرآن غير هذا لغة ، ولو حرف امتناع لامتناع فهل هو داخل تحت الإمكان فيوجد أو ما هو ثم إلا بحكم الفرض ، وعندنا كل كلام إلهي من كلمة مركبة من حرفين إلى ما فوق ذلك من تركيبات الحروف والكلمات المنسوبة إلى الله بحكم الكلام فإنه قرآن لغة وله أثر في النزول في المحل المنزل عليه (سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى) والتقدير لكان هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد فحذف الجواب لدلالة الكلام عليه ومعنى ذلك لو أنزلناه على من ذكرناه لسارت الجبال وتقطعت الأرض وأجاب الميت ،

ص 422

وما ظهر شيء من ذلك فينا وقد كلمنا به ، وهو يحيي الموتى بما فيه من العلم إن كان المقصود بالموت الجهل فإن من أصناف الموت الجهل
يقول تعالى: (أَ وَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ) وتقطع به الأرض وتسير الجبال بما فيه من الزجر والوعيد ولذلك كان نزول القرآن شديدا على هذا الهيكل الإنساني ، فكان الوحي يؤثر الغت والغطّ على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، عند نزوله بالقرآن ،
وهذه الآية أيضا تدل على شرف الجماد على الإنسان وشرف الإنسان إذا مات وصار مثل الأرض في الجمادية على حاله حيا في الإنسانية (بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً) كل ما سوى الواجب الوجود لنفسه فهو لله ، حتى ما توصف أنت به ويوصف الحق به هو لله كله ووجود ما سوى الله إنما هو بالله فلا موجود ولا موجد إلا الله« أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً »فكان حكم هذه المشيئة في الدنيا بالتكليف وأما في الآخرة فالحكم لقوله تعالى »: يَفْعَلُ ما يُرِيدُ « *فله الإطلاق سبحانه .

[سورة الرعد (13) : آية 32]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (32)

العقاب هو ما يعقب الشر ، وبذلك سمي العقاب عقوبة وعقابا ، وهو سائغ في الخير والشر من حيث أنه ما يعقب كل حال من الأحوال ، غير أن العرف سماه في الخير ثوابا وفي الشر عقابا .

[سورة الرعد (13) : آية 33]

أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33)

« أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ »فهو قيامه بمصالح عباده ونظره لهم في قيامه بهم بعين الرحمة فيرزقهم ويحسن إليهم وهم به مشركون وكافرون وقل عن الأدباء ما شئت ، ويدعوهم وهم عنه معرضون وعلى هواهم الذي اتخذوه إلها مقبلون ، وفي هذه الآية إشارة

ص 423

إلى أن الفعل لله من خلف حجاب الأكوان التي هي محل ظهور الأفعال فيها« وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ »يريد أسماء الاعلام وذلك في معرض الدلالة فإذا سموهم قالوا هذا حجر ، هذا شجر ، هذا كوكب والكل اسم عبد فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله فقال تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلم (قُلْ سَمُّوهُمْ)فتعرفوا عند ذلك الحق بيد من هو ؟ هل هو بأيديكم أو بيدي ؟

وقد قال الحق تعالى وأبان ذلك كله ليعقل عنه(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ)فلما عرفوا قوله وتحققوه علموا أنهم في فضيحة لأنهم إذا سموهم لم يسموهم بالله بل آباؤكم نصبوهم آلهة ، وهذا الإله الذي أدعوكم إليه تعرفونه وأن اسمه الله لا تنكرونه ، وأنتم القائلون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ثم وصفهم الله بأنهم في شركهم قد ضلوا ضلالا مبينا فقال :« وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ »فما له من هاد معناه موفق ، لأنهم أوقعوا أنفسهم في الحيرة لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم من الله شيئا ، فهي شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم .

[سورة الرعد (13) : الآيات 34 إلى 35]

لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (34) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (35)

« مَثَلُ الْجَنَّةِ »أي صفة الجنة التي وعد المتقون »تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها »فإن الآخرة دار بقاء ، فالإنسان في بقائه آكل لا صائم ، فهو متغذ بالذات صائم بالعرض فالغذاء باق فأكلها دائم لا ينقطع والدوام في الأكل إنما هو عين النعيم بما يكون به الغذاء للجسم فأهل الجنة يأكلون ويشربون عن شهوة لالتذاذ لا عن جوع فإنهم ما يتناولون الشيء المسمى غذاء إلا عن علم بأن الزمان قد حان)وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا)فلا يزال في لذة ونعيم لا يحوج الطبيعة إلى طلب وحاجة للكشف الذي هم عليه بخلاف أهل النار فإنهم يجوعون ويظمئون لأن المقصود منهم أن يتألموا .

[سورة الرعد (13) : الآيات 36إلى 39]

وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ (37) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (39)

424

[« يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ »]

« يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ »فذكر المحو بعد الكتابة ، فثبت المحو وهو المعبر عنه بالنسخ عند الفقهاء ، فهو نسخ إلهي رفعه الله ومحاه بعد ما كان له حكم في الثبوت والوجود وهو في الأحكام انتهاء مدة الحكم ، وفي الأشياء انتهاء المدة فإنه تعالى قال): كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى)فهو يثبت إلى وقت معين ثم يزول حكمه لا عينه(وَيُثْبِتُ)ما شاء مما كتبه ، قال صلّى الله عليه وسلم في إسرائه إنه أسري به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، فوصل إلى سماع أصوات الأقلام وهي تجري بما يحدث الله في العالم من الأحكام وهذه الأقلام رتبتها دون القلم الأعلى ودون اللوح المحفوظ فإن الذي كتبه القلم الأعلى لا يتبدل وسمي اللوح بالمحفوظ من المحو فلا يمحى ما كتب فيه وهذه الأقلام تكتب في ألواح المحو والإثبات على قدر ما تأتي به إليهم رسل الله من عند الله من رأس الديوان وهو القلم الأعلى من إثبات ما شاء ومحو ما شاء وهو قوله تعالى :(يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ) ومن هذه الألواح تنزل الشرائع والصحف والكتب على الرسل صلوات الله عليهم وسلامه ولهذا يدخل في الشرائع النسخ ويدخل في الشرع الواحد النسخ في الحكم وإلى هنا كان يتردد صلّى الله عليه وسلم في شأن الصلوات الخمسين بين موسى وبين ربه إلى هذا الحد كان منتهاه فيمحو الله عن أمة محمد صلّى الله عليه وسلم ما شاء من تلك الصلوات التي كتبها في هذه الألواح إلى أن أثبت منها هذه الخمسة وأثبت لمصليها أجر الخمسين وأوحى أنه لا يبدل القول لديه ، فما رجع بعد ذلك من موسى في شأن هذا الأمر ، ومن هذه الكتابة« ثُمَّ قَضى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ »ومن هذه الحقيقة التردد الكوني في الأمور والحيرة فيها ،

425

وهو إذا وجد الإنسان أنّ نفسه تتردد في فعل أمر ما ، هل يفعله أو لا يفعله ؟ وما تزال على تلك الحال حتى يكون أحد الأمور التي ترددت فيها فيكون ويقع ذلك الأمر الواحد ويزول التردد فذلك الأمر الواقع هو الذي ثبت في اللوح من تلك الأمور المتردد فيها وذلك أن القلم الكاتب في لوح المحو يكتب أمرا ما وهو زمان الخاطر الذي يخطر للعبد فيه فعل ذلك الأمر ثم تمحى تلك الكتابة يمحوها الله فيزول ذلك الخاطر من ذلك الشخص لأنه ما ثم رقيقة في هذا اللوح تمتد إلى نفس هذا الشخص في عالم الغيب فإن الرقائق إلى النفوس من هذه الألواح تحدث بحدوث الكتابة وتنقطع بمحوها فإذا أبصر القلم موضعها في اللوح ممحوا كتب غيرها مما يتعلق بذلك الأمر من الفعل أو الترك فيمتد من تلك الكتابة رقيقة إلى نفس ذلك الشخص الذي كتب هذا من أجله فيخطر لهذا الشخص ذلك الخاطر الذي هو نقيض الأول ، فإذا أراد الحق إثباته لم يمحه ، فإذا ثبت بقيت رقيقة متعلقة بقلب هذا الشخص وثبتت ، فيفعل ذلك الشخص ذلك الأمر أو يتركه بحسب ما ثبت في اللوح فإذا فعله أو ثبت على تركه وانقضى فعله محاه الحق من كونه محكوما بفعله وأثبته صورة عمل حسن أو قبيح على قدر ما يكون ، ثم إن القلم يكتب أمرا آخر هكذا الأمر دائما ، وهذه الأقلام هذه مرتبتها والموكل بالمحو ملك كريم على الله تعالى هو الذي يمحو على حسب ما يأمر به الحق تعالى والإملاء على ذلك الملك ومن أحكام هذه الأقلام تكون جميع التأثيرات في العالم دائما ولا بد لها أن تكتب وتثبت انتثار الكواكب وانحلال هذه الأجرام الفلكية وخراب هذه الدار الدنياوية وانتقال العمارة في حق السعداء إلى الجنان العلية وفي حق الأشقياء إلى جهنم وهي أسفل سافلين - وجه آخر - للقلب وجهان ظاهر وباطن فباطنه لا يقبل المحو بل هو إثبات مجرد محقق وظاهره يقبل المحو [وهو لوح المحو] والإثبات فيه وقتا أمرا ما »يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ »فقلب العبد هو محل الإلقاء الإلهي من خير وشر شرعا ، وهو لوح المحو والإثبات ، فيخطر للعبد خاطر أن يفعل أمرا ما من الأمور ، ثم ينسخه خاطر آخر ، فيمحو الأول ويثبت الثاني ، وهذا ما دام العبد مهتما لخواطره ، محجوبا عن كشف الإلقاء الإلهي ، فإذا أيّد بالعصمة إن كان نبيا ، أو بالحفظ إن كان وليا ، عاد قلبه لوحا محفوظا عن المحو ، فإن ظهر ممن هذا مقامه محو في ظاهر الكون بعد إثبات ، وهو عن أمر يقوم بالقلب من الحق ، فلا يقال فيه إنه لوح محو وإثبات لأنه صاحب كشف ، وإنما وقع المحو في ظاهر الكون وبقيت حكمته

426

في القلب« وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ »فلو كان صاحب الكتاب مؤمنا بكل كتابه ما ضل أبدا - إشارة -« يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ »يمحو الأسباب من قلوب الموحدين ويثبت نفسه ، ويمحو الوحدانية من قلوب الناظرين ويثبت الأسباب« وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ »وهي السابقة التي لا تتبدل ولا تمحى ، فأم الكتاب هو الكتاب الذي فيه ما كان قبل إيجاده وما يكون ، كتاب ذو قدر معلوم فيه بعض أعيان الممكنات وما يتكون عنها وفيه قضاء اللّه وحكمه وهو كتاب محصور لأنه موجود وعلم اللّه في الأشياء لا يحصره كتاب مرقوم ولا يسعه رق منشور ولا لوح محفوظ ولا يسطره قلم عليّ ، ومن هذا الكتاب سمي الحق عليما وله القضاء الذي يحكم على القدر - الوجه الثاني -« وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ »اعلم أن تحقيق عندية كل شيء نفسه والعندية في اللسان ظرف مكان أو ظرف محلي كالجسم للعرض اللوني الذي يدركه البصر فهو أجلى فيما ترومه من الدلالة فهو بحيث محله وصاحب المكان ما هو بحيث المكان والعندية جامعة للأمرين« وَعِنْدَهُ »أي الحق فهو« أُمُّ الْكِتابِ »وهو القرآن فإنه صفة الحق فالقرآن أم الكتاب الذي عنه خرجت الكتب المنزلة واختلفت الألسنة به لقبولها إياه بحقيقته فقيل فيه : إنه عربي وإنه عبراني وإنه سرياني بحسب اللسان الذي أنزل به والقرآن من جملة الكتب إلا أن له الجمعية دون سائر الكتب .

[سورة الرعد (13) : آية 40]

وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (40)

فإنما عليك البلاغ وقد فعل صلّى اللّه عليه وسلم وأبان« وَعَلَيْنَا الْحِسابُ ».

[سورة الرعد (13) : آية 41]

أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (41)

" وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ »فإنه المقيت فقد ترتبت الأمور ترتيب الحكمة فلا معقب لحكمه فهو في كل حال يفعل ما ينبغي كما ينبغي لما ينبغي فعل حكيم عالم بالمراتب .

[سورة الرعد (13) : آية 42]

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ(42)

ص 427

" فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً »يعني المكر المضاف إلى عباده والمكر المضاف إليه سبحانه فنفى المكر عنهم« يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ «فأتى بلفظ كل وهي حرف شمول فشملت كل نفس فما تركت شيئا في هذا الموضع »وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ »الكافر الذي ستر عنه هذا العلم في الحياة الدنيا« لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ »في الدار الآخرة حيث ينكشف الغطاء عن الأعين فيعلم من كان يجهل .

[سورة الرعد (13) : آية 43]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ(43)

(14) سورة إبراهيم مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[سورة إبراهيم (14) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) .

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ »اعلم أن القرآن قرآن في الصدور ، وفي اللسان كلام ، وفي المصاحف كتاب ،« لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ »من ظلمة العدم إلى نور الوجود« بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » فكنا نورا بإذن ربنا« إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ » فهو صراط العزة ، صراط التنزيه الذي ليس لمخلوق فيه قدم في العلم به ، فإنه صراط الله الذي عليه ينزل لخلقنا ، وعليه يكون معنا أينما كنا ، وعليه نزل من العرش إلى السماء الدنيا وإلى الأرض ، وهو قوله :(وَهُوَ)

ص 428

(اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ)وعليه يقرب من العبد أضعاف ما يتقرب إليه عبده إذا سعى إليه بالطريق التي شرع له ، فهو يهرول إليه إذا رآه مقبلا تهمما بعبده وإكراما له ، ولكن على صراط العزة ، وهو صراط نزول لا عروج لمخلوق فيه ، ولو كان لمخلوق فيه سلوك ما كان عزيزا ، فهو صراط ممنوع لنفسه ، فالحق سبحانه يختص بالنزول فيه« الْحَمِيدِ »أي الحامد والمحمود ، لأن فعيل إذا ورد يطلب اسم الفاعل والمفعول ، فإما أن يعطي الأمرين معا مثل هذا ، وإما أن يعطي الأمر الواحد لقرينة الحال ، وقد أثنى على نفسه ، فهو الحامد والمحمود .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 2 إلى 4]
اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (3) وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(4)
[« وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ »]« وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ »يعني بلغتهم ولحنهم ، ليعلموا ما هو الأمر عليه ، فإذا خاطبهم ما يخاطبهم إلا بما تواطئوا عليه من التعبير عن المعاني التي يريد المتكلم أن يوصل مراده فيما يريد منها إلى السامع ، فالمعنى لا يتغير البتة عن دلالة ذلك اللفظ عليه ، وإن جهل كيف ينسب فلا يقدح ذلك في المعقول من تلك العبارة ، وإذا ظهر لهم في فعل من الأفعال فلا يظهر لهم إلا بما ألفوه في عاداتهم ، لأنه يريد إفهامهم ، فمن المحال أن يخرج في خطابه إياهم عما تواطئوا عليه في لسانهم ، فالشرائع تنزلت بحسب ما وقع عليه التواطؤ في ألسنة العالم ، فلا يرسل رسول إلا بما تواطأ قومه عليه ، وقد يكون التواطؤ على صورة ما هي الحقائق عليه وقد لا يكون ، والحق سبحانه تابع لهم في ذلك كله ، ليفهم عنه ما أنزله من أحكامه ، وما وعد به وأوعد عليه ، كما قد دل دليل العقل على استحالة حصر الحق

ص 429

في أينية ، ومع هذا جاء لسان الشرع بالأينية في حق الحق من أجل التواطؤ الذي عليه لسان المرسل إليهم ، فقال صلّى الله عليه وسلم للسوداء : أين الله ؟ فلو قالها غير الرسول لشهد الدليل العقلي بجهل القائل ، فإنّه لا أينية له ، فلما قالها الرسول وبانت حكمته وعلمه ، علمنا أنه ليس في قوة فهم هذا المخاطب أن يعقل موجده إلا بما تصوره في نفسه ، فلو خاطبه بغير ما تواطأ عليه وتصوره في نفسه لارتفعت الفائدة المطلوبة ولم يحصل القبول ، فمن حكمته أن سأل مثل هذه بمثل هذا السؤال وبهذه العبارة ، ولذلك لما أشارت إلى السماء ، قال فيها : إنها مؤمنة ، أي مصدقة بوجود الله ولم يقل عالمة ، واعلم أن إخلاف ما أوعدت به من الشر يسمّى تجاوزا ، وهذه شبهة المعتزلة ، وغاب عنها قوله تعالى :« وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ »وما تواطئوا عليه أعني الأعراب ، إذا أوعدت أو وعدت بالشر التجاوز عنه ، وجعلت ذلك من مكارم الأخلاق ، فعاملهم الحق بما تواطئوا عليه ، فزلت هنا المعتزلة زلة عظيمة ، أوقعها في ذلك استحالة الكذب على الله تعالى في خبره ، وما علمت أن مثل هذا لا يسمّى كذبا في العرف الذي نزل به الشرع ، فحجبهم دليل عقلي عن علم وضع حكمي ، وهذا من قصور بعض العقول ووقوفها في كل موطن مع أدلتها ، ولا ينبغي لها ذلك ، ولتنظر إلى المقاصد الشرعية في الخطاب ، ومن خاطب ، وبأي لسان خاطب ، وبأي عرف أوقع المعاملة في تلك الأمة المخصوصة ، فنقول للمعتزلي الذي يقول بإنفاذ الوعيد فيمن مات على غير توبة . إن الله عرفنا أنّ وعيده ينفذ فيمن شاء ويغفر لمن شاء ، والخبر الإلهي الصدق لا يدخله الكذب ، فإنه محال على الجناب الإلهي ، وإن نظر العالم إلى أنّ خطاب الحق لعباده إنما يكون بحسب ما تواطئوا عليه ، وهذا خطاب عربي لسائر العرب ، بلسان ما اصطلحوا عليه من الأمور التي يتمدحون بها في عرفهم ، ومن الأمور التي يذمونها في عرفهم ، فعند العرب من مكارم الأخلاق ، أن الكريم إذا وعد وفي وإذا أوعد تجاوز وعفا ، وهي من مكارم أخلاقهم ومما يمدحون بها الكريم ، ونزول الوعيد عليهم بما هو في عرفهم ، لم يتعرض في ذلك لما تعطيه الأدلة العقلية من عدم النسخ لبعض الأخبار ولاستحالة الكذب ، بل المقصود إتيان مكارم الأخلاق يقول بعض الأعراب في كرم خلقه :وإني إذا أوعدته أو وعدته * لمخلف إيعادي ومنجز موعديمدح نفسه بالعفو والتجاوز عمن جنى عليه بما أوعد على ذلك من العقوبة بالعفو

ص 430

والصفح ، ومدح نفسه بإنجاز ما وعد به من الخير ، يقال في اللسان : وعدته في الخير والشر ، ولا يقال أوعدته بالهمز إلا في الشر خاصة ، والتجاوز والعفو عند العرب مما تواطئوا على الثناء به على من ظهر منه ، فالله أولى بهذه الصفة ، وقد عرفنا أن وعيده ينفذ فيمن شاء ويغفر لمن شاء ، ولا ينبغي أن يقال مخلف ، بل ينبغي أن يقال إنه عفو متجاوز عن عبده ، ومع هذه الوجوه فلا يتمكن زوال الرهبة من قلب العبد من نفوذ الوعيد ، لأنه لا يدري هل هو ممن يؤاخذ أو ممن يعفى عنه ؟« لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »لتقوم عليهم الحجة إذا خالفوا ، أو يعملوا بما فهموا فيسعدوا ، فوقع البيان ، فما رمز نبي شيئا قط ، لأنه بعث للبيان« فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ »مطلق الضلالة الحيرة والجهل بالأمر وبطريق الحق المستقيم ، فقوله تعالى »: فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ »أي من عرّفه بطريق الضلالة فإنه يضل فيها »وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ »ومن عرّفه بطريق الهداية فإنه يهتدي فيها ، ولما كان العقل السليم يحار في الأخبار الموهمة للتشبيه ويتيه ، فهذا معنى يضل ، أي يحير العقول بمثل هذه الخطابات - الصادرة من الله على ألسنة الرسل الصادقة - المجهولة الكيفية ، ولا يتمكن للعقل أن يهتدي إلى ما قصده الحق بذلك مما لا يليق بالمفهوم ، ثم يرى العقل أنه سبحانه ما خاطبنا إلا لنفهم عنه ، والمفهوم من هذه الأمور يستحيل عليه سبحانه من كل وجه يفهمه العبد بضرب من التشبيه المحدث ، إما من طريق المعنى أو طريق الحس ، ولا يتمكن للعقل أن لا يقبل هذا الخطاب فيحار ، فثمّ حيرة يخرج عنها العبد ويتمكن له الخروج منها بالعناية الإلهية ، وثمّ حيرة لا يتمكن له الخروج عنها بمجرد ما أعطى الله العقل من أقسام القوة التي أيده الله بها ، فيحار الدال في المدلول لعزة الدليل ، لذلك قال تعالى :« وَهُوَ الْعَزِيزُ »ثم يجيء الشرع بعد هذا في أمور حكم العقل بدليله على إحالتها ، فيثبت الشرع ألفاظا تدل على وجوب ما أحاله ، فيقبل ذلك إيمانا ولا يدري ما هو ، فإنه« الْحَكِيمُ ".

[سورة إبراهيم (14) : آية 5]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)

[" وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ "]

-الوجه الأول -« وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ »أي ذكرهم بنعم الله وآلائه ، فإنما نابت

431

الأيام مناب النعم لأنها الآتية بأنواع الكرم ، أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام :
يا بن عمران حببني إلى عبادي ، قال : يا رب كيف أصل إلى ذلك ؟
فأوحى الله تعالى إليه :
يا بن عمران ذكرهم إحساني إليهم ، وعظيم تفضلي عليهم ، فإنهم لا يعرفون مني إلا الحسن الجميل .
وأيام الله هي أيام الأنفاس على الحقيقة ، فإنها أقل ما ينطلق عليه اسم يوم ، فهو أن يذكرهم بقوله تعالى :(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)فتلك أيام الله وأنت في غفلة عنها ، وهذه الأيام التي ينبغي أن يذكر العبد بها ، مثل أيام النعم وأيام الانتقام التي أخذ الله فيها القرون الماضية .
واعلم أن البلايا أكثر من النعم في الدنيا ، فإنه ما من نعمة ينعمها الله على عباده تكون خالصة من البلاء ، فإن الله يطالبه بحقها من الشكر عليها ، وإضافتها إلى من يستحقها بالإيجاد ، وأن يصرفها في الموطن الذي أمره الحق أن يصرفها فيه ، فمن كان شهوده في النعم هذا الشهود متى يتفرغ للالتذاذ بها ؟
وكذلك الرزايا هي في نفسها مصائب وبلايا ، ويتضمنها من التكليف ما يتضمنه من النعم من طلب الصبر عليها ، ورجوعه إلى الحق في رفعها عنه ، وتلقيها بالرضى أو الصبر الذي هو حبس النفس عن الشكوى بالله إلى غير الله ، فقد علمت من أيام الله أن الدار دار بلاء ، لا يخلص فيها النعيم من البلاء وقتا واحدا ، وأقله طلب الشكر من المنعم بها عليه ، وأي تكليف أشق منه على النفس ، ولذلك تمم تعالى بقوله :« إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »
واعلم أن الله إذا مدح الصابرين فهم الذين حبسوا نفوسهم عن الشكوى لغير الله ولا يحبسونها عن الشكوى إلى الله
- **الوجه الثاني** -« وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ »اعلم أن الله لما أعلمنا أنه هو الدهر ، ذكر لنا سبحانه أن له أياما من كونه دهرا ، وهي أيام الله ، فعيّن هذه الأيام أحكام أسمائه تعالى في العالم ، فلكل اسم أيام ، وهي زمان حكم ذلك الاسم ، والكل أيام الله ، وتفاصيل الدهر بالحكم في العالم ، وهذه الأيام تتوالج ويدخل بعضها في بعض ، ويغشي بعضها بعضا ، وهو ما نراه من اختلاف الأحكام في الزمان الواحد ،
فذلك لتوالجها وغشيانها وتقليبها وتكرارها ، ولهذه الأيام الإلهية ليل ونهار ، فليلها غيب ، وهو ما غاب عنّا منها ، وهو عين حكمها في الأرواح العلوية الكائنة فوق الطبيعة والأرواح المهيّمة ، ونهارها شهادة ، وهو عين حكمها في الأجسام الطبيعية إلى آخر جسم عنصري ، وهي ما تحت الطبيعة ، والاسم الإلهي النور هو الذي أظهر الليل والنهار في أيام الله ، والدهر من حيث عينه يوم واحد لا يتعدد ، ولا ليل له ولا نهار ، فإذا أخذته

ص 432

الأسماء الإلهية عينت بأحكامها في هذا اليوم الأزلي - الذي هو عين الدهر - الأيام الإلهية التي أمر المذكّر أن يذكرنا بها ، لنعرفها من أيام الزمان ، ثم جعل اللّه هذه الأيام المعلومة عندنا ليقدر بها أحكام الأيام الإلهية التي للأسماء ، فهي كالموازين لها ، يعرف بها مقادير تلك الأيام ،
فقال :(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) فإذا ضربت ثلاثمائة يوم وستين يوما في ألف سنة ، فما خرج لك بعد ذلك الضرب من العدد فهو أيام التقدير التي ليوم الرب ، فينقضي ، ثم ينشئ في الدهر يوما آخر لاسم آخر غير اسم الرب ،
وكذلك يضرب ثلاثمائة يوم وستين يوما في خمسين ألف سنة ، فما خرج لك بعد الضرب من الأيام فهو أيام التقدير التي ليوم ذي المعارج من الأسماء الإلهية ، فإذا انقضى ذلك اليوم أنشأ في الدهر يوما آخر لاسم آخر غير الذي لذي المعارج ، هكذا الأمر دائما ، فلكل اسم إلهي يوم ، وإنما ذكرنا هذين اليومين يوم الرب ويوم ذي المعارج لكونهما جاءا في كتاب الله ، فلا يقدر المؤمنون بذلك على إنكارهما ، فما من اسم إلهي مما يعلم ويجهل إلا وله يوم في الدهر ، وتلك أيام الله ، والكل على الحقيقة أيام الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون
- **إشارة** - التذكر للعلماء الغافلين ، والوعظ لا يكون للناس أجمعين ، فالواعظ إنما يعظ بما يكون من الله لا بالله ، وكذلك من يخوف الناس إنما يخوفهم بما يكون من الله لا من الله ، فالترغيب لا يجري مجرى الترهيب ، فإن الترغيب قد يكون في الله ، والترهيب لا يكون إلا مما يكون من الله لا من الله .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 6 إلى 7]
وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (7)
[» لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ «]
الشكر صفة تقتضي الزيادة من المشكور للشاكر ، فيزيدنا نعمة إذا شكرناه على نعمه وآلائه ، ولا يصح الشكر إلا على النعم ، فإذا شكرت الله على ما أنعم به عليك زادك من

ص 433

نعمه ، فإن الشاكر في حال شكره هو عين فقره إلى ما ليس عنده وهو الزيادة التي تزاد له على النعمة التي يكون فيها .

شكر لنعمة ربي نعمة أخرى *** منه عليّ لهذا يطلب الشكرا
فقري إليه وما عندي سوى نعم *** من الإله بها أرساله تترى
هو الغني وفقري منة ظهرت *** منه عليّ فنلت الزهو والفخرا
بالفقر فخري وبالفاقات سلطنتي *** على الوجود فلا أدري

ولا أدريفكلما زاد العبد في العبادة شكرا لله ، زاده الحق في الهداية والتوفيق في موطن الأعمال حتى الآخرة ، حيث لا عمل ولا ألم على السعداء ، ولما كان الشكر فعلا يطلب الماضي والواقع ، كانت الزيادة من النعم للشاكر فضلا من الله ، ولهذا سماها زيادة يطلبها الشكر لا الشاكر ،

ولما قرر الله هذه النعم على عبده وهداه السبيل إليها قال : إما شاكرا فيزيده منها ، وإما كفورا بنعمه فيسلبها عنه ويعذبه على ذلك فليحترز الإنسان لنفسه في أي طريق يمشي ، فما بعد بيان الله بيان.

[سورة إبراهيم (14) : آية 8]

وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8)

« وَقالَ مُوسى »لبني إسرائيل »إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ »ينبه أن الله تعالى ما أوجد العالم إلا للعالم ، وما تعبّده بما تعبّده به إلا ليعرفه بنفسه ، فإنه إذا عرف نفسه عرف ربه ، فيكون جزاؤه على علمه بربه أعظم الجزاء ، ولذلك قال :(إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)ولا يعبدونه حتى يعرفوه ، فإذا عرفوه عبدوه عبادة ذاتية ، فإذا أمرهم عبدوه عبادة خاصة مع بقاء العبادة العامة الذاتية ، فجازاهم على ذلك ، فما خلقهم إلا لهم ، وما ذكر موسى الأرض إلا لكمالها بوجود كل شيء فيها ، وهو الإنسان الجامع حقائق العالم ، فقوله :« فِي الْأَرْضِ »لأنها الذلول ، فهي الحافظة مقام العبودية ، فكأنه قال :« إِنْ تَكْفُرُوا »أنتم وكل عبد الله« فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ».

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 9 إلى 11]

أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (10) قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(11)

لما كانت الخلافة ربوبية في الظاهر ، لأن الخليفة يظهر بحكم الملك فيتصرف في الملك بصفات سيده ظاهرا ، وإن كانت عبوديته له مشهودة في باطنه ، فلم تعم عبوديته جميعه عند رعيته الذين هم أتباعه ، وظهر ملكه بهم وباتباعهم والأخذ عنه ، فكان في مجاورتهم بالظاهر أقرب ،
وبذلك المقدار يستتر عنه من عبوديته ، فإن الحقائق تعطي ذلك ،
لذلك كثيرا ما ينزل الوحي على الأنبياء « قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ » *وهذه آية دواء لهذه العلة .

[سورة إبراهيم (14) : آية 12]
وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)
المتوكلون هم أرباب مقام العبودية وأهل الاستكفاء بالله ، وهم المتوكلون على اللّه توكل العبد على سيده ، لا توكل الابن على أبيه ، ولا الميت على غاسله ، ولا الأجير على آجره ، ولا توكل الموكّل على وكيله ، فإن القائلين بالأسباب أهل الاكتساب مع الاعتماد على الله

ص 435

-

وإن اعتمدوا على الله - فما في ظاهرهم الاكتفاء بالله ، وهكذا كل ذي سبب وإن كان من المتوكلين ، فما كل متوكل يظهر منه الاكتفاء على ظاهره .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 13 إلى 15]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15)

لا تكن في الأرض جبارا فيخدعك الطريق ، حتى يصيرك ضجيع الغريق ، فلا تتصف بالتكبر والجبروت من غير أن يعطيك الحق ذلك ، فتضل عن الطريق ، كما فعل بفرعون لما تكبر بغير الحق ، فأغرقه الله تعالى .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 16 إلى 17]

مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (17)

التجرع عن كراهة ومرارة .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 18 إلى 19]

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (18) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19)

« أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ »اعلم أن الله تعالى وصف نفسه بأن له نفسا بفتح الفاء ، وأضافه إلى الاسم الرحمن ، فهو أول غيب ظهر لنفسه ، فكان فيه الحق من اسمه الرب ، فكان العماء الذي كان فيه الرب قبل خلق الخلق ، ثم أوجد الله في

ص 436

هذا العماء جميع صور العالم الذي قال فيه إنه هالك ، يعني من حيث صوره ، وفي هذا العماء ظهرت الملائكة المهيمة والعقل والنفس والطبيعة ، والطبيعة هي أحق نسبة بالحق مما سواها ، فإن كل ما سواها ما ظهر إلا فيما ظهر منها ، والنفس بفتح الفاء هو الساري في العالم ، أعني في صور العالم ، فالعماء أصل الأشياء والصور كلها ، وهو أول فرع ظهر من أصل« إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ »ولكن ما فعل مع جواز إعدام الأشياء بمسكه الإمداد بما به بقاء أعيانها ، ولكن قضى القضية أن لا يكون الأمر إلا هكذا ، ولذلك علق الإذهاب بالمشيئة ، يريد مسك الشرط المصحح لبقاء الوجود عليكم ، فتنعدمون إذ لم يوجده سبحانه ، فإن له التخيير في إيجاد كل ممكن أو تركه على حاله من اتصافه بالعدم . واعلم أن الله لا يرد ما أوجده إلى عدم ، بل هو يوجد على الدوام ولا يعدم ، فالقدرة فعالة دائما ، فإنه ما شاء إلا الإيجاد ، »]إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ [« ولهذا قال :« إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ »- الوجه الأول - الذهاب انتقالكم من الحال التي أنتم فيها إلى حال تكونون فيها ، ويكسو الخلق الجديد عين هذه الأحوال التي كانت لكم لو شاء ، لكنه ما شاء ، فليس الأمر إلا كما هو ، فإنه لا يشاء إلا ما هي عليه ، لأن الإرادة لا تخالف العلم ، والعلم لا يخالف المعلوم ، والمعلوم ما ظهر ووقع ، فلا تبديل لكلمات الله ، فإنها على ما هي عليه - الوجه الثاني -« إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ »أي يلحقكم بالعدم أي إعدام الموجود« وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ »إيجاد المعدوم وفي ذلك وصف العدم بالكينونة فانظر كيف أضاف الإلحاق بالعدم إلى المشيئة ولم يضفه إلى القدرة التي يقع الخلق والجعل بها ، والصحيح في ذلك أن الموجودات إذا كانت كما ذكرنا لها أعيان ثابتة حال اتصافها بالعدم الذي هو للممكن لا للمحال فكما أبرزها للوجود وألبسها حاله وعراها عن حال العدم فيسمى بذلك موجدا وتسمى هذه العين موجودة ، لا يبعد أن يردها إلى ما منه أخرجها وهي حالة العدم فيتصف الحق بأنه معدم لها وتتصف هي بأنها معدومة - الوجه الثالث »-إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ »معناه إن يشأ يشهدكم في كل زمان فرد الخلق الجديد الذي أخذ الله بأبصاركم عنه ، فإن الأمر هكذا هو في نفسه والناس منه في لبس ، فبقاء الجوهر ليس لعينه وإنما بقاؤه للصور التي تحدث فيه ، فلا يزال الافتقار منه إلى الله دائما ، فالجوهر فقره إلى الله للبقاء ، والصور فقرها إلى الله لوجودها ، فالكل في عين الفقر إلى الله.

ص 437

[سورة إبراهيم (14) : آية 20]
وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20)
أي بممتنع . عزة الشيء لا تكون إلا على أمثاله ، فالشيء على عزته حقير بالنسبة لعزة الله التي لا تقبل التأثير ، فإن كل شيء في العالم بالنظر إلى عظمة الله حقير ، ولكنه بتعظيم الله لا بعظمته عظيم .

[سورة إبراهيم : (14) الآيات 21 إلى 22]
وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (21) وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (22)
لما كانت المعجزات تشهد بصدق الدعوة من الرسل أنها دعوة من الله ، حكى الله لنا من قول الشيطان« لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ »أي من قوة ولا حجة ولا برهان« إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي »وليس كل من دعا تلزم إجابته ، فإن الشيطان ما أقام برهانا لهم لما دعاهم ، فيا عجبا إن الناس جحدوا دعوة الحق مع ظهور البرهان وكفروا بها ، وأجابوا دعوة الشيطان العرية عن البرهان ، فقال لهم :« فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ »وحكى الله عن إبليس قوله ، فأقره عليه ولم ينكره ، فاحذر أن تقوم عليك حجة الشيطان ، فإنه ليس له عليك سلطان ، فلا تقل زيّن لي ودعاني فأوقعني في الخسران ، أنت الذي أجبت ووقعت منه ، ولعنه ليس إلا التنحي عنه ، فما دعاك إلا بلسان الحال ، فإن أجبته بلسان الحال لم ينفع لعنه بالمقال.

ص 438

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 23 إلى 24]

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ (23) أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (24)

[« أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ »]

قوله تعالى :« أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ »أطلق النظر على الكيفيات والمراد بذلك بالضرورة المكيفات لا التكييف ، فإن التكييف راجع إلى حالة معقولة لها نسبة إلى المكيّف وهو الله تعالى ، وما أحد شاهد تعلق القدرة الإلهية بالأشياء عند إيجادها ، فالكيفيات المذكورة التي أمرنا بالنظر إليها لا فيها ، إنما ذلك لنتخذها عبرة ودلالة على أن لها من كيّفها ، أي صيّرها ذات كيفيات ، وهي الهيئات التي تكون عليها المخلوقات المكيّفات .

[سورة إبراهيم (14) : آية 25]

تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)

اعلم أن الحق وإن أوجد العالم ووصف نفسه بما وصف ، ما زال في منزلة تنزيهه وتمييزه عن خلقه بذاته ، مع معيته بكل خلق من خلقه .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 26 إلى 32]

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (26) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (27) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30)

قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (31) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ(32)

ص 439

"وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ »باطن المعتقد كون الله هو لفاعل للأشياء ، لا أثر لمخلوق ولا لسبب ظاهر ولا باطن فيها ، فإن الأسباب جعلها الله ابتلاء ليتميز من يقف عندها ممن لا يرى وقوع الفعل إلا بها ممن لا يرى ذلك ويرى الفعل لله من ورائها ، عندها ، لا بها .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 33 إلى 34]

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (33) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

[وآتاكم من كل ما سألتموه]

« وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ »- إشارة - أوحى الله إلى بعض أنبيائه : يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي ، فلا تهتك ما خلقت من أجلي فيما خلقت من أجلك ، يا ابن آدم إني وحقي لك محب ، فبحقي عليك كن لي محبا ، كيف لا يحب الصانع صنعته ؟ ! ونحن مصنوعاته بلا شك ، فإنه خالقنا وخالق أرزاقنا ومصالحنا ، والصنعة مظهرة علم الصانع لها بالذات واقتداره وجماله وعظمته وكبريائه ، فإن لم يكن فعلى من وفيمن وبمن ، فلا بد منا ولا بد من حبه فينا ، فهو بنا ونحن به ، كما قال صلّى الله عليه وسلم في ثنائه على ربه : [فإنما نحن به وله] فلم يزل يحب ، فلم يزل ودودا ، فهو يوجد دائما في حقنا ، فهو كل يوم في شأن ، ولا معنى للوداد إلا هذا ، فنحن بلسان الحال والمقال لا نزال نقول له : افعل كذا ، افعل كذا ، ولا يزال هو تعالى يفعل ، ومن فعله فينا نقول له : افعل ، أترى هذا فعل مكره ولا مكره له ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل هذا حكم الاسم الودود منه.

ص 440

سمع الله صوت سائله *** بالذي قد أراده منا
فلهذا نكونه أبدا *** ولهذا عنا فما زلنا
فأعطانا الحق تعالى الوجود أولا ، وهو الخير الخالص ، وهو صفته تعالى ، ولو كان عنده أكمل من ذلك ما بخل به علينا ، ثم لم يزل يعطي ما يستحقه الموجود مما به قوامه وصلاحه ، فقال :« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها »نعم الله لا تحصى من حيث أسبابها الموجبة لها ، أي للذة والتنعم ، فالأسباب لا تحصى كثرة ، واللذة واحدة ، وهي النعمة المحققة ، فسمى الشيء باسم الشيء إذا كان مجاورا له أو كان منه بسبب« إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ »للبقاء على المخالفة مع إرداف النعم ، فالصبر على إرداف النعم لما في طيها من المكر الإلهي أعظم من الصبر على الرزايا ، فإن النعم أعظم حجاب عن الله إلا من وفقه الله .

[سورة إبراهيم : (14)الآيات 35 إلى 43]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (39)
رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (41) وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ(43)

ص 441

وصف الله تعالى الظالمين يوم القيامة بكونهم مقنعي رؤوسهم ، أي رافعين إلى الله يسألونه المغفرة عن جرائمهم ، فإن الإقناع ارتفاع
« لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ » بهتا لتعظيم ما يروا « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ ».

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 44 إلى 47]
وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَ وَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (46) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ (47)
يستدل بهذه الآية على عموم الرحمة ، فإن الخبر الصدق إذا لم يكن حكما لا يدخله النسخ ، وقد ورد بطريق الخبر الوعد والوعيد ،
ولما كانت الشريعة نزلت بلسان قوم الرسول صلّى الله عليه وسلم ، فخاطبهم بحسب ما تواطئوا عليه فممّا تواطئوا عليه في حق المنعوت بالكرم والكمال إنفاذ الوعد وإزالة حكم الوعيد ،
والوعد يكون في الخير والشر معا ، والإيعاد في الشر خاصة ، وما ورد في الشرع نص في نفاذ الإيعاد وورد في الوعد ،
والله أكرم من أن ينسب إليه إنفاذ الوعيد ، بل ينسب إليه المشيئة وترجيح الكرم ،
وصف بعض الأعراب مع كونه من أهل الأغراض نفسه على طريق التمدح :
وإني إذا أوعدته أو وعدته *** لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

ص 442

وقد ورد في الصحيح ليس شيء أحب إلى الله من أن يمدح ، والمدح بالتجاوز عن المسئ غاية المدح ، فالله أولى به تعالى ، والصدق في الوعد مما يتمدح به ، فقال تعالى« فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ »فذكر الوعد ، فالثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد ، والحضرة الإلهية تطلب الثناء المحمود بالذات ، فيثنى عليها بصدق الوعد لا بصدق الوعيد ، بل بالتجاوز ،
قال تعالى :(وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ)مع أنه توعد على ذلك ،
وأخبر عن الإيعاد في تمام الآية بقوله :« إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ »وقال في الوعيد بالمشيئة وفي الوعد بنفوذه ولا بدّ ، ولم يعلّقه بالمشيئة في حقّ المحسن ، لكن في حقّ المسئ علّق المشيئة بالمغفرة والعذاب ، والله عند ظن عبده به ، فليظن به خيرا ، والظن هنا ينبغي أن يخرج مخرج العلم
« إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ »لما كان الانتقام من رحمة المنتقم بنفسه في الخلق ، قال الله تعالى :« إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ »عن مثل هذا« ذُو انتِقامٍ ».

[سورة إبراهيم (14) : آية 48]
يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (48)
-الوجه الأول - كما كان في أول الخلق أن الأرض خلقت قبل السماء في ترتيب وجود خلق العالم ، كذلك لما وقع التبديل ابتدأ بالأرض قبل السماوات ، فوقف الخلق على الجسر دون الظلمة ، وبدل الأرض غير الأرض ، لا في الصفة ، فلو كان في الصفة ما ذكر العين ، فبدل الأرض والسماء في العين
- الوجه الثاني - تبدل الأرض كيف شاء سبحانه إما بالصورة وإما بأرض أخرى ما نيم عليها تسمى بالساهرة - الوجه الثالث - إذا بدلت السماء والأرض فإنما يقع التبديل في الصور لا في الأعيان ، فقوله تعالى :« يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ »التبديل في الصفة لا في العين ، فتكون أرض صلاح لا أرض فساد ، وتمد مد الأديم فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا« وَالسَّماواتُ »هنا هي السماوات المعروفة ، وهي السبع السماوات خاصة ، لا السماء ذات البروج ، ولا فلك المنازل الذي هو سقف النار ، فإن ما دون فلك المنازل يخرب نظامه وتبدل صورته ويزول ضوء كوكبه« وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ ».

[سورة إبراهيم (14) : آية 49]
وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ(49)

ص 443

أورثهم ذلك غضب الله تعالى مكانا ضيقا لما في الغضب من الضيق ، فكان المشرك مع أمثاله من المشركين ، كونهم مقرنين في الأصفاد .

[سورة إبراهيم : (14) الآيات 50 إلى 52]

سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (51) هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ(52)

[» هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ] «

-الوجه الأول -» هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ »فهو بلاغ للإنسان من كونه من الناس« وَلِيُنْذَرُوا بِهِ »من كونه على قدم غرور وخطر فيحذروا »وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ »
أي بفعل ما يريد ما ثمّ آخر يرده عن إرادته فيك ويصده« وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ »
بما أشهدهم على نفسه أنه ربه ، ليقوم بما يجب على المملوك في حق سيده الذي أقر له بالملك ، فإن التذكر لا يكون إلا عن علم متقدم منسي ، فيذكره من يعلم ذلك ، فالقرآن بلاغ من وجه وإنذار من وجه وإعلام من وجه وتذكرة لما نسيه من وجه ، والمخاطب بهذا كله واحد العين وهو الإنسان

- الوجه الثاني - ميز الله بين طبقات العالم ليعلموا أن الله قد رفع بعضهم فوق بعض درجات فقال :« هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ »يريد طائفة مخصوصة لا يعقلون منه سوى أنه بلاغ ، يسمعون حروفه إيمانا بها أنها من عند الله لا يعرفون غير ذلك« وَلِيُنْذَرُوا بِهِ »في حق طائفة أخرى عينها بهذا الخطاب« وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ »في حق طائفة أخرى عينها بهذا الخطاب ، وأراد بالعلم هنا الإيمان ، وهو الذي يعول عليه في السعادة ، فإن الله به أمر ،
وسميناه علما لكون المخبر هو الله فقال :(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ)وقال تعالى :« وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ » « وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ » في حق طائفة أخرى وهم العلماء بالله وبالأمر على ما هو عليه ، فيتذكر أرباب العقول ما كانوا قد علموه قبل ، أي ما جاءوا بما تحيله الأدلة الغامض إدراكها ،
فإنها لب الدلالات ، والقرآن واحد في نفسه ، تكون الآية منه تذكرة لذي اللب ، وتوحيدا لطالب العلم بتوحيده ، وإنذارا للمترقب الحذر ، وبلاغا للسامع ليحصل له أجر السماع ، كالأعجمي الذي لا يفهم اللسان ، فيسمع

ص 444

فيعظم كلام الله من حيث نسبته إلى الله ، ولا يعرف معنى ذلك اللفظ حتى يشرح له بلسانه ويترجم له عنه .

(15) سورة الحجر مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[سورة الحجر (15) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(3)

[» وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ » الآية]
من مال إلى الآمال اخترمته الآجال ، لله رجال أعطاهم التعريف طرح التسويف فأزال عنهم الحذر والخوف السين والسوف ، تعبدهم الحال في زمان الحال ، ليس بالمؤاتي من اشتغل بالماضي والآتي ، إذا علم صاحب الأمل أن كل شيء يجري إلى أجل اجتهد في العمل ، فإذا انقضى العدد ، وانتهت المدد وطال الأمد ، وجاء الرحيل ، ووقف الداعي على رأس السبيل ، لم يحز قصب السبق ، إلا المضمر المهزول في الحق .

[سورة الحجر (15) : الآيات 4 إلى 6]

وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (4) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (5) وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(6)

[أخفى الله تعالى في الدنيا ما يجب من تعظيم محمد صلّى الله عليه وسلم لعلو منزلته]
أخفى الله تعالى في الدنيا ما يجب من تعظيم محمد صلّى الله عليه وسلم لعلو منزلته ، كما أخفى ما يستحقه جل جلاله من تعظيم عباده إياه وأطلق الألسنة عليه بأن له صاحبة وولدا وما وقع به التعريف مما لا يليق به ، كذلك قيل فيه صلّى الله عليه وسلم إنه ساحر مجنون كذاب وغير ذلك ، فإذا كان يوم القيامة ، وظهر الحق سبحانه في عزته وكبريائه ، فذل كل موجود تحت عزته على الكشف ، وذهبت الدعاوى وتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ظهر أيضا في ذلك اليوم مقام محمد

ص 445

صلّى الله عليه وسلم وسيادته على الناس ، وافتقار الخلق إليه من سائر الأمم في فتح باب الشفاعة ، وبان فضله على سائر الأنبياء والرسل ، فعلم هنالك عظم منزلته عند ربه ، كما تظهر عزة كل مقرب عند سلطان عند ظهور سلطانه ودولته .

[سورة الحجر (15) : الآيات 7 إلى 9]

لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (9)

[(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا) نون العظمة في الواحد]

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا)نون العظمة في الواحد قول من لا علم له بالحقائق ولا بلسان العرب ، والله كثير بالأحكام ، فإن له الأسماء الحسنى ، وكل اسم علامة على حقيقة معقولة ليست هي الأخرى ، فمعقول نحن ما هو معقول إني ، فالجمع على حقيقته من حيث الأسماء الإلهية ،

فالنون على بابها في الجمع ، وغاية من قدر على معناها وقرب أن قال إذا قال بقوله جماعة لمكانته وشرفه ولا يرد له قول ، فبذلك الاعتبار يكنى بالنون عن الواحد ، وليس كذلك ولكنه أقرب الوجوه ،

بل الوجه الصحيح أن الكناية هنا عن الأسماء التي عنها تقع الآثار على اختلافها ، وإن جمعتها ذات واحدة ، فهو العالم من حيث كذا ، والقادر من حيث كذا ، والمريد من حيث كذا ، والرازق من حيث كذا ، فكثرت الوجوه والنسب فطلبت النون

(الذِّكْرَ)يريد القرآن ، فالذكر هو القرآن(وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) من التغيير والتبديل والتحريف ، فهو محفوظ أن يزاد فيه أو ينقص منه بطريق التغيير لكونه معجزة ، ولم يكن ذلك لغيره من الكتب ، لأن سائر الكتب لم تتنزل على طريق الإعجاز ، فلذلك حرف فيها من حرف وبدل من بدل ، ولما كان الحق في هذه الأمة سمع العبد وبصره ولسانه ويده تولى الله فينا حفظ ذكره ، واستحفظ كتابه غير هذه الأمة فحرفوه .

[سورة الحجر (15) : الآيات 10 إلى 21]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (11) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15) وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (17) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (18) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19)

وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (20) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21)

ص 446

[" وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ " الآية]
إن هنا بمعنى ما ، فعم بها وبشيء ، وجعله مخزونا في خزائن غيبه ، ولهذا قلنا إن الكون صادر من وجود ، وهو ما تحويه هذه الخزائن إلى وجود ، وهو ظهورها من هذه الخزائن لأنفسها بالنور الذي تكشف به نفسها ، فإنها في ظلمة الخزائن محجوبة عن رؤية ذاتها ، فهي في حال عدمها ، والحقيقة أنّا عن الحق صدرنا من كوننا عنده في الخزائن كما أعلمنا فعلمنا ، فهو صدور لم يتقدمه ورود كما هو في بعض الأمور فمن قال إن الصدور بعد الورود فما عنده علم بحقائق الوجود ، فلو لا نحن ثابتين في العدم ما صح أن تحوي علينا خزائن الكرم ،
فلنا في العدم شيئية غير مرئية ، أما قوله :(لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) فذلك إذ لم يكن مأمورا ، فقيده بالذكر في محكم الذكر(إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ)
عندية الله على قسمين ، أعني ما هو عنده ، القسم الواحد ما هو عليه من الأمر الذي يعقل زائدا على هويته ،
وإن لم نقل فيه إنه غير ولا عينه أيضا ، كالصفات المنسوبة إليه ،
لا هي هو ولا هي غيره ، وقد يكون عنده ما يحدث فينا ولنا ، والكل عند الله ، فما ثم معقول ولا موجود يحدث عنده ، بل الكل مشهود العين له بعين ثبوت ووجود ،
فالثبوت خزائنه ،
والوجود ما يحدثه عندنا من تلك الخزائن ، والعندية أضيفت إلى الحق ،
فاختلفت إضافات العندية باختلاف ما أضيفت إليه من اسم وضمير وكناية ، وهي ظرف ثالث ليس بظرف زمان ولا ظرف مكان مخلص ، بل ما هو ظرف مكانة جملة واحدة على الإطلاق
- **الوجه الأول -** الخزائن:

ص 447

ثم إن الله جعل عنديته ظرفا لخزائن الأشياء ، ومن هذه الخزائن تخرج الأشياء إلى وجود أعيانها ، فهي في الخزائن محفوظة موجودة لله ، ثابتة لأعيانها غير موجودة لأنفسها ، فالأشياء الموجودة بالنظر إلى أعيانها موجودة عن عدم ، وبالنظر إلى كونها عند الله في هذه الخزائن هي موجودة عن وجود ، فأعيان العالم محفوظون في خزائنه عنده ، وخزائنه علمه ، ومختزنه نحن ، فنحن أثبتنا له حكم الاختزان ، لأنه ما علمنا إلا منا ، ومعلوم أن الله يخلق الأشياء ويخرجها من العدم إلى الوجود ، وهذه الإضافة تقتضي بأنه يخرجه من الخزائن التي عنده ، فهو يخرجها من وجود لم تدركه إلى وجود تدركه ، فما خلصت الأشياء إلى العدم الصرف ، بل ظاهر الأمر أن عدمها من العدم الإضافي ، فإن الأشياء في حال عدمها مشهودة له يميزها بأعيانها ،

مفصلة بعضها عن بعض ، ما عنده فيها إجمال ، فخزائنها أعني خزائن الأشياء التي هي أوعيتها المخزونة فيها إنما هي إمكانات الأشياء ليس غير ذلك ، لأن الأشياء لا وجود لها في أعيانها ، بل لها الثبوت ،

والذي استفادته من الحق الوجود العيني ، فتفصلت للناظرين ولأنفسها بوجود أعيانها ، ولم تزل مفصلة عند الله تفصيلا ثبوتيا ، ثم لما ظهرت في أعيانها وأنزلها الحق من عنده أنزلها في خزائنها ، فإنّ الإمكان ما فارقها حكمه ، فلو لا ما هي في خزائنها ما حكمت عليها الخزائن ، فما لها خروج من خزائن إمكانها ، والخزائن لا تكون خزائن إلا بما يختزن بها ،

فالأشياء عند الله مختزنة في حال ثبوتها ، فإذا أراد تكوينها لها أنزلها من تلك الخزائن وأمرها أن تكون ، فتكتسي حلة الوجود فيظهر عينها لعينها ، ولم تزل ظاهرة لله في علمه أو لعلمه بها ، فليست الخزائن إلا المعلومات الثابتة ، فإنها عنده ثابتة يعلمها ويراها ويرى ما فيها ، فيخرج منها ما شاء ، وهي مع كونها في خزائن ، فيتخيل فيها الحصر والتناهي ، وإنما هي غير متناهية ،

- **الوجه الثاني -** اعلم أن الخزائن التي عند الحق على نوعين ، نوع منها خزائن الثبوت للممكنات ، والنوع الثاني منها خزائن وجودية لمختزنات موجودة ، كشيء يكون عند زيد ، من جارية أو غلام أو فرس أو ثوب أو دار أو أي شيء كان ، فزيد خزانته ،

وذلك الشيء هو المختزن ، وهما عند الله ، فإن الأشياء كلها بيد الله ، فيفتقر عمرو إلى الله تعالى في ذلك الذي عند زيد أن يكون عنده ، كان ما كان ،

فيلقي الله في قلب زيد أن يهب ذلك الشيء أو يبيعه أو يزهد فيه ويكرهه فيعطيه عمروا ، فمثل هذا من خزائن الحق التي عنده ، والعالم على هذا كله خزائن بعضه لبعض ، وهو عين

ص 448

المختزن ، والعالم خزانة مخزون ، وانتقال مختزن من خزانة إلى خزانة فما أنزل منه شيء إلى غير خزانة ، فكله مخزون عنده ، فهو خزانته على الحقيقة التي لا يخرج شيء عنها ، وما عدا الحق فإن المختزن يخرج عنها إلى خزانة أخرى ، فالافتقار للخزائن من الخزائن إلى الخزائن ، والكل بيد الله وعنده ، فهو الصمد الذي يلجأ إليه في الأمور ويعول عليه ، ومن هنا يتعلق المتوكلون في حال توكلهم على ما توكلوا عليه ، فمنهم المتوكل على الله ، ومنهم المتوكل على الأسباب ، غير أن الأسباب قد تخون من اعتمد عليها ولجأ إليها في أوقات ، والحق تعالى لا يسلم من توكل عليه وفوض أمره إليه .

ـ **الوجه الثالث** - في هذه الخزائن : هي الخزائن الموجودة في الفلك الأطلس فلك البروج ، فإن لكل ملك من الأملاك الاثني عشر في كل برج ملكه إياه ثلاثين خزانة ، تحتوي كل خزانة منها على علوم شتى يهبون منها لمن ينزل بهم على قدر ما تعطيه رتبة هذا النازل (وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) فله موازين ، فما يتميز عنده إلا ما هو موجود له ، ولا يجري القدر إلا في عين مميزة عن غيرها ، وليس هذا صفة المعدوم من كل وجه ، فدل ذلك كله على وجود الأعيان لله تعالى في حال اتصافها بالعدم لذاتها ، وهذا هو الوجود الأصلي لا الإضافي والعدم الإضافي ،

كما يدل قوله تعالى(وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) على أن ترتيب الإيجاد يؤذن بالتوقيت على مقتضى الحكمة من اسمه الحكيم ، فينزل الأرزاق بقدر معلوم في الدنيا ، فإذا كان في الآخرة عاد الحكم فيما تحوي عليه هذه الخزائن التي عند الله إلى العبد العارف الذي كمل الله سعادته ، فيدخل فيها متحكما فيخرج منها ما يشاء بغير حساب ، ولا قدر معلوم ، بل بحكم ما يختاره في الوقت ، فإن المسعود في الآخرة يعطى التكوين ، ويكشف له عن نفسه أنه عين الخزانة التي عند الله ، فإنه عند الله ، فكل ما خطر له تكوينه كونه ، فلا يزال في الآخرة خلاقا دائما ، فارتفع التقدير فهو يتبوأ من الجنة حيث يشاء .

[سورة الحجر (15) : الآيات 22 إلى 26]

وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(26)

ص 449

[خلق الإنسان الأول]
لما خلق الله الإنسان من طين تركه مدة يختمر بما يمر عليه من الهواء الحار الذي يتخلل أجزاء طينته ، فتخمر وتغيرت رائحته فكان حمأ مسنونا متغير الريح ، ثم طبخت هذه الطينة بركن النار فظهرت فخارة الإنسان والتأمت أجزاؤه وقويت وصلبت ، فكان صلصالا كالفخار .

[سورة الحجر (15) : آية 27]
وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (27)
الجان خلقه الله قبل خلق آدم ، والجان مخلوق من الأركان ، وجعل أغلب جزء فيه النار ، كما جعل أعظم جزء في آدم التراب ، لذا علا إبليس عند نفسه لأن أصله من اللهب ، ولهب النار يطلب العلو ، فلهذا تكبر ، ولما كان لهبا كان إذا جاءه الهواء من أعلاه عكس رأس اللهب إلى السفل قسرا وقهرا ، كذلك إبليس لما جاءه هواه من تكبره على آدم لنشأته عكسه إلى الأرض فأهبط ، لا بل أهبط إلى أسفل سافلين .

[سورة الحجر (15) : آية 28]
وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28)
لما غلب على آدم في نشأته التراب ، وله السكون بخلاف لهب النار ، ثبت على عبوديته وتواضعه فسعد ، وكونه(مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)لهذا يتغير كل ما يحل فيه من الأطعمة والأشربة ويستحيل إلى الروائح القبيحة ، ويندرج في هذا الكلام النشأة الأخروية واستحالة ما يحل فيها من الطعام والشراب إلى الروائح الطيبة .

[سورة الحجر (15) : آية 29]
فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (29)
خلق الإنسان الأول - لما خلق الله العالم من أفلاك وسماوات وجان ومعدن ونبات وحيوان أخذ التراب اللزج وخلطه بالماء ، فصيره طينا بيديه تعالى كما يليق بجلاله ، إذ ليس كمثله شيء ، وتركه مدة يختمر بما يمر عليه من الهواء الحار الذي يتخلل أجزاء طينته ، فتخمر
450

وتغيرت رائحته فكان حمأ مسنونا متغير الريح ، ثم طبخت هذه الطينة بركن النار ، فظهرت فخارة الإنسان والتأمت أجزاؤه وقويت وصلبت ، فقصرها بالماء الذي هو عنصر الحياة ، فأعطاها الماء من رطوبته وألان بذلك من صلابة الفخار ما ألان ، فسرت فيه الحياة وأمده الركن الهوائي بما فيه من الرطوبة والحرارة ليقابل بحرارته برد الماء ، فامتنعا فتوفرت الرطوبة عليه فأحال جوهرة طينته إلى لحم ودم وعضلات وعروق وأعصاب وعظام ، وهذه كلها أمزجة مختلفة لاختلاف آثار طبيعة العناصر الأربعة ، وهي الماء والتراب والهواء والنار واستعدادات أجزاء هذه النشأة ، فلذلك اختلفت أعيان هذه النشأة الحيوانية فاختلفت أسماؤها لتتميز كل عين عن غيرها ، فلما أكمل النشأة الجسمية النباتية الحيوانية وظهر فيها جميع قوى الحيوان أعطاه الفكر من الاسم الإلهي المدبر ،

فإن الحيوان جميع ما يعمله من الصنائع وما يعلمه ليس عن تدبير ولا روية ، بل هو مفطور على العلم بما يصدر عنه ، لا يعرف من أين حصل له ذلك الإتقان والإحكام ، كالعناكب والنحل بخلاف الإنسان ،

فإنه يعلم أنه ما استنبط أمرا من الأمور إلا عن فكر وروية وتدبير ، فيعرف من أين صدر ، وبهذا القدر سمي إنسانا لا غير ، وهي حالة يشترك فيها جميع الناس إلا الإنسان الكامل ، فإنه زاد على الإنسان الحيواني بتصريفه الأسماء الإلهية التي أخذ قواها من خلقه على الصورة ، فجعل الإنسان الكامل خليفة ،

وأما الإنسان الحيواني فحكمه حكم سائر الحيوان ، إلا أنه يتميز عن غيره من الحيوان بالفصل المقوم له ، كما يتميز الحيوان بعضه عن بعض بالفصول المقومة لكل واحد من الحيوان ،

فالإنسان الحيوان من جملة الحشرات ، فإذا كمل فهو الخليفة فاجتمعا لمعان وافترقا لمعان ، وبعد استعداد خلق الجسد نفخ فيه الحق من روحه فصار للإنسان نفس أصلها الطهارة من حيث أبوها ، ولم يظهر لها عين إلا بوجود الجسد الطبيعي ، فكانت الطبيعة الأب الثاني ، فخرجت النفوس ممتزجة فلم يظهر فيها إشراق النور الخالص المجرد عن المواد ولا الظلمة الغائية التي هي حكم الطبيعة ،

واعلم أن النفس التي هي لطيفة العبد المدبرة هذا الجسم لم يظهر لها عين إلا عند تسوية هذا الجسد وتعديله ، فحينئذ نفخ فيه الحق من روحه ، فظهرت النفس بين النفخ الإلهي والجسد المسوى ، ولهذا كان المزاج يؤثر فيها ، فالنفوس الإنسانية نتيجة عن هذه الأجسام العنصرية ومتولدة عنها ، فإنها ما ظهرت إلا بعد تسوية هذه الأجسام واعتدال أخلاطها ، فهي للنفوس المنفوخة فيها من الروح

ص 451

المضاف إليه تعالى كالأماكن ، تطرح الشمس شعاعاتها عليها فتختلف آثارها باختلاف القوابل ، أين ضوء الشمس في الأجسام الكثيفة منه في الأجسام الصقيلة ؟
فلهذا تفاضلت النفوس لتفاضل الأمزجة ، فترى نفسا سريعة القبول للفضائل والعلوم ، ونفسا أخرى من الضد منها ، وبينهما متوسطات ، فكانت النفوس عن الطبيعة فهي أمها وأبوها الروح ، ولا تتقوى النفس بأبيها إلا إذا أيدها الله بروح قدسي ينظر إليها ، فحينئذ تقوى على حكم الطبيعة ، فلا تؤثر فيها التأثير الكلي وإن بقي فيها أثر ، فإنه لا يمكن زواله بالكلية ، ففرّق الحق بين روح الأمر وبين روح ياء الإضافة ، فجعل روح الأمر لما يكون به التأييد ، وجعل روح الياء لوجود عين الروح الذي هو كلمة الحق المنفوخ في الطبيعة ، فمن حيث النفخ الإلهي لا تفاضل ، وإنما التفاضل في القوابل ، فالنفس لها وجه إلى الطبيعة ووجه إلى الروح الإلهي ، وأضاف الروح إلى نفسه بياء الإضافة ينبه على مقام التشريف ، أي أنك شريف الأصل فلا تغفل إلا بحسب أصلك ، لا تفعل فعل الأراذل ، وسميت حقيقة الإنسان لطيفة لأنها ظهرت بالنفخ عند تسوية البدن للتدبير من الروح المضاف إلى الله ، من قوله): فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)وهو النفس الإلهي ، فهي سر إلهي لطيف ينسب إلى الله على الإجمال من غير تكييف ، وأعطيت هذه الحقيقة في هذا المركب الآلات الروحانية والحسية لإدراك علوم لا يعرفها إلا بوساطة هذه الآلات ، وهذا من كونه لطيفا أيضا ، فإنه من الإمكان العقلي فيما يظهر لبعض العقلاء من المتكلمين أن يعرف ذلك الأمر من غير وساطة هذه الآلات ، وهذا ضعيف في النظر ، فإنا ما نعني بالآلات إلا المعاني القائمة بالمحل ، فنحن نريد السمع والبصر والشم ، لا الأذن والعين والأنف ، وهو لا يدرك المسموع إلا من كونه صاحب سمع لا صاحب أذن ، وكذلك لا يدرك المبصر إلا من كونه صاحب بصر لا صاحب حدقة وأجفان ، فإذا إضافات هذه الآلات لا يصح ارتفاعها ، ولما ظهر عين هذه اللطيفة التي هي حقيقة الإنسان كان هذا أيضا عين تدبيرها لهذا البدن من باب اللطائف ، لأنه لا يعرف كيف ارتباط الحياة لهذا البدن بوجود هذا الروح اللطيف ، لمشاركة ما تقتضيه الطبيعة فيه من وجود الحياة التي هي الروح الحيواني ، فظهر نوع اشتراك ، فلا يدري على الحقيقة هذه الحياة البدنية الحيوانية هل هي لهذه اللطيفة الظاهرة عن النفخ الإلهي المخاطبة المكلفة أو الطبيعة أو للمجموع إلا من علم ذوقا أنه ما في العالم

ص 452

إلا حي ناطق بتسبيح ربه تعالى بلسان فصيح ينسب إليه بحسب ما تقتضيه حقيقته ،
واعلم أنه لما خلق الله تعالى الإنسان من جملة خلقه ، خلقه إماما وأعطاه الأسماء ، وأسجد له الملائكة وجعل له تعليم الملائكة ما جهلوه ، ولم يزل في شهود خالقه ، فلم تقم به عزة بل بقي على أصله من الذلة والافتقار ، ولما حمل الأمانة عرضا وجرى ما جرى قال هو وزوجته إذ كانت جزءا منه (رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا) بما حملاه من الأمانة ،
ثم إن بنيه اعتزوا لمكانة أبيهم من الله لما اجتباه ربه وهدى به من هدى ، ورجع عليه بالصفة التي كان يعامله بها ، ابتداء من التقريب والاعتناء الذي جعله خليفة عنه في خلقه وكمل به وفيه وجود العالم ، وحصّل الصورتين ، صورة خلقه على صورة الحق وصورة خلقه مجموعا لصورة العالم ،
ففاز بالسورتين أعني المنزلتين ، منزلة العزة بالسجود له ومنزلة الذلة بعلمه بنفسه ، وجهل من جهل من بنيه ما كان عليه أبوه من تحصيل المنزلتين والظهور بالصفتين ، فراضهم الاسم المذل من حضرة الإذلال ،
فأخرجهم عن الإدلال بالدال اليابسة ، وذلك لما اعتنى الله به من بنيه فأشهدهم عبوديتهم فتقربوا إليه بها ، ولا يصح أن يتقرب إلى الله إلا بها ، وكان سبب ذلك ما حصل في نفوس البنين من العزة التي حصلت له من رتبة أبيه من خلقه على الصورة الإلهية ،
كما أخبر رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن الله خلق آدم على صورته ، واختلف في ضمير الهاء من صورته على من يعود ، فهو على الصورة الإلهية وفي رواية وإن ضعفت على صورة الرحمن ، ولو علم من يجهل هذا أنه ما من شيء في العالم إلا وله حظ من الصورة الإلهية ، والعالم كله على الصورة الإلهية ، وما فاز الإنسان الكامل إلا بالمجموع ، وما كملت الصورة من العالم إلا بوجود الإنسان ،
فامتاز الإنسان الكامل عن العالم ، مع كونه من كمال الصورة للعالم الكبير بكونه على الصورة بانفراده من غير حاجة إلى العالم ،
فلما امتاز سرى العز في أبنائه ، أي في بعض بنيه ، فراضهم الله بما شرع لهم ، فقال لهم إن كنتم اعتززتم بسجود الملائكة لأبيكم فقد أمرتكم بالسجود للكعبة ، فالكعبة أعز منكم إن كان عزكم للسجود ، فإنكم في أنفسكم أشرف من الملائكة التي سجدت لكم أي لأبيكم ، وأنتم مع دعواكم في هذا الشرف تسجدون للكعبة الجمادية ،
ومن عصى منكم عن السجود لها التحق بإبليس الذي عصى بترك سجوده لأبيكم ، فلم يثبت لكم العز بالسجود مع سجودكم للكعبة وتقبيلكم الحجر الأسود على أنه يمين الله محل البيعة الإلهية كما أخبرتكم ، وإن كنتم اعتززتم بالعلم لكون أبيكم علم الملائكة الأسماء كلها

ص 453

[سر في السجود]
فإن جبريل عليه السلام من الملائكة وهو معلم أكابركم ، وهم الرسل صلوات الله عليهم وسلامه ، والنبي محمد صلّى الله عليه وسلم يقول حين تدلى إليه ليلة إسرائه رفرف الدر والياقوت فسجد جبريل عليه السلام ولم يسجد النبي صلّى الله عليه وسلم ، وقال : فعلمت فضل جبريل علي في العلم عند ذلك ، ثم إنكم عن لمة الملك تتصرفون في مرضاة الله ، فهم الذين يدلونكم على طرق سعادتكم والتقرب ، فبأي شيء تعتزون على الملائكة ، فكونوا مثل أبيكم تسعدوا ، وما ثم فضل إلا بالسجود والعلم وقد خرج من أيديكم ، والذين لهم العزة من النبيين ليس إلا الرسل والمؤمنون ، فمن ارتاض برياضة الله فقد أفلح وسعد .

ـ سر في السجود ـ قال تعالى في الملأ الأعلى إذ يختصمون ، ولهذا أمروا بالسجود لآدم عليه السلام ، فإن الاعتراض خصام في المعنى والخصم قوي ، فلما أعطي الإمامة والخلافة وأسجدت له الملائكة ، وعوقب من أساء الأدب عليه وتكبر عليه بنشأته ، وأبان عن رتبة نفسه بأنها عين نشأته ، فجهل أوّلا فكان بغيره أجهل ، ولا شك أن هذا المقام يعطي الزهو والافتخار لعلو المرتبة ، والزهو والفخر داء معضل وإن كان بالله تعالى ، فأنزل الله لهذا الداء دواء شافيا ،
فأمر الإمام بالسجود للكعبة ، فلما شرب هذا الدواء برئ من علة الزهو وعلم أن الله يفعل ما يريد وما تقدم على من تقدم عليه من الملائكة بالصفة التي أعطاه الله لعلو رتبته على الملائكة ، وإنما كان ذلك تأديبا من الله لملائكته في اعتراضهم ، وهو على ما هو عليه من البشرية ، كما أنه قد علم أنه ما سجد للكعبة لكون هذا البيت أشرف منه ، وإنما كان دواء لعلة هذه الرتبة ، فكأن الله حفظ على آدم صحته قبل قيام العلة به ، فإنه من الطب حفظ الصحة ، وهو أن يحفظ المحل أن يقوم به مرض لأنه في منصب الاستعداد لقبول المرض ، وقد علم أنه وإن سجد للبيت فإنه أتم من البيت في رتبته ، فعلم أن الملائكة ما سجدت له لفضله عليهم ، وإنما سجدت لأمر الله ، وما أمرها الله إلا عناية بها لما وقع منهم مما يوجب وهنهم ، ولكنهم لما لم يقصدوا بذلك إلا الخير اعتنى الله بهم في سرعة تركيب الدواء لهم بما علمهم آدم من الأسماء ، وبما أمروا به من السجود له ، وكل له مقام معلوم ، فابتليت الملائكة بالسجود جبرا لما أخذت من طهارتها الدعوى (وهي قولها أتجعل فيها . . .) ،
فكان ذلك للملائكة كالسهو في الصلاة للمصلي ، فأمر أن يسجد لسهوه ، كذلك أمرت الملائكة أن تسجد لدعواها ، فإن الدعوى سهو في حقها ، فكان ذلك ترغيما للدعوى لا لهم

ص 454

[وجه : أول ما خلق الله العقل]
-وجه - اعلم أن أول ما خلق الله العقل ، وهو الذي ظهرت منه هذه العقول بوساطة هذه النفوس الطبيعية ، وسماه الله في كتابه العزيز الروح ، وأضافه إليه فقال في حق النفوس الطبيعية وحق هذا الروح وحق هذه الأرواح الجزئية التي لكل نفس طبيعية(فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي (وهو هذا العقل الأكبر« فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ ».

[سورة الحجر (15 : (آية 30]
فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30)
فما بقي ملك إلا سجد لأنهم الذين قال الله لهم اسجدوا لآدم ، والملائكة هي الرسل من الأرواح خاصة ، فإن الألوكة هي الرسالة في لسان العرب ، والسجود هو التطأطؤ في اللسان فأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لمعلمهم سجود أمر - كسجود الناس إلى الكعبة - وتشريف ، لا سجود عبادة نعوذ بالله ، وهو التواضع والخضوع والإقرار بالسبق والفخر والشرف والتقدم له ، كتواضع التلميذ لمعلمه ، وإذا حصل موجود في مقام تتعلم منه الملائكة ، فأحرى من دونهم ، وذلك تشريف من الله سبحانه ، ودليل قاطع على ثبوت إرادته (يختص برحمته من عباده من يشاء)
- إشارة - إن المقام المحمود يكون لرسول الله صلّى الله عليه وسلم في الآخرة ، وكان في الدنيا لآدم أبي البشر ، وقام فيه حين سجدت له الملائكة ، وظهر آدم في ذلك المقام لكونه كان يتضمن جسده بشرية محمد صلّى الله عليه وسلم ، وآدم هو الأب الأعظم في الجسمية والمقرب عند الله ، وأول هذه النشأة الترابية الإنسانية ، فظهرت فيه المقامات كلها حتى المخالفة ، إذ كان جامعا للقبضتين قبضة الوفاق وقبضة الخلاف

[سورة الحجر (15) : آية 31]
إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31)
ونصب إبليس على الاستثناء المنقطع لا المتصل ، ولولا ما ذكر الله إبليس بالإباية ما عرفنا أنه أمر بالسجود .
[سورة الحجر (15) : الآيات 32 إلى 35]
قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ(35)

ص 455

فأقّت الله اللعنة إلى يوم الدين ، فإنه تعالى أخبر عنه حاكيا وأقره عليه ولم ينكره(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ (. . .الآية وأخبر عنه بقوله :(إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ (الآية ، فالشيطان جرم النار لو فهمت .

[سورة الحجر (15) : الآيات 36 إلى 39]

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39)

« قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ »فالتزيين الذي جاء به من قوله تعالى(وَعِدْهُمْ) فإنه يتضمنه وقوله (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) هو عن تخلق من قوله (فَبِما أَغْوَيْتَنِي) ولولا التكليف ما قرب شيطان إنسانا بإغواء أبدا ، واعلم أن إبليس يستدرج كل طائفة من حيث ما هو الغالب عليها ، فإنه عالم بمواقع المكر والاستدراج ، فيرسل خواطره الشيطانية على العامة بالمحظور فعلا كان أو تركا ، وبالمكروه فعلا كان أو تركا في حق العبّاد من العامة ، ويأتي بالمباح في حق المبتدئ من أهل طريق الله ، ويأتي بالمندوب في حق المتوسطين من أهل الله أصحاب السماع ، ويأتي العارفين بالواجبات ، فلا يزال بهم حتى نووا مع الله فعل أمر ما من الطاعات ، وهو في نفس الأمر عهد يعهده مع الله ، فإذا استوثق منه في ذلك وعزم وما بقي إلا الفعل أقام له عبادة أخرى أفضل منها شرعا ، فيرى العارف أن يقطع زمانه بالأولى ويشرع في الثاني ، فيفرح إبليس حيث جعله ينقض عهد الله بعد ميثاقه والعارف لا خبر له بذلك ، وكل متمكن من أهل الله من ورثة الأنبياء يراها مع كونها حسنة هي خواطر شيطانية .

[سورة الحجر (15) : آية 40]

إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40)

وهم الذين أخلصهم الله إليه مما ألقى إليهم العدو وفيهم من نور الحفظ والعصمة.

ص 456

[سورة الحجر (15) : الآيات 41 إلى 42]

قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (42)

« إِنَّ عِبادِي »فأضافهم إليه ، وعبيد الله عبدان : عبد ليس للشيطان عليه سلطان ، وهو عبد الاختصاص ، وهو الذي لا ينطق إلا بالله ، ولا يسمع إلا بالله ، فالحجة لله لا له ،(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ)فإنها حجة الله ومن عبيد الاختصاص من ينطق عن الله ويسمع من الله ، فهذا أيضا من أهل الحجة البالغة ، لأنه لا ينطق عن الهوى (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى)

والعبد الثاني ، عبد العموم ، وهو الذي قال عنهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلم(وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ)فأضافهم إليه« لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ » أي قوة وقهر وحجة ، لأن الله تولى حفظهم وتعليمهم بما جعل فيهم من التقوى ، وما تجد في القرآن عبادا مضافين إليه سبحانه إلا السعداء خاصة ، وجاء اللفظ في غيرهم بالعباد ، فكل عبد توجه لأحد عليه حق من المخلوقين فقد نقص من عبوديته لله بقدر ذلك الحق ، فإن ذلك المخلوق يطلبه بحقه وله عليه سلطان به ، فلا يكون عبدا محضا خالصا لله ، فالمضاف إليه سبحانه من عباده الذين هم عباده ، وهم الذين لا سلطان لمخلوق عليهم في الآخرة ، وهم المعصومون المحفوظون القائمون بحدود سيدهم الواقفون عند مراسمه ، وقطع الله بهذه الآية يأس إبليس من عباد الله المخلصين أن يكون له عليهم سلطان وحكم فيهم ، فهم المعصومون والمحفوظون في الباطن وفي الظاهر من الوقوع عن قصد انتهاك حرمة الله ، فخواطر المعصومين والمحفوظين كلها ما بين ربانية أو ملكية أو نفسية ، وعلامة ذلك عند المعصوم أنه لا يجد ترددا في أداء الواجب بين فعله وتركه ، ويجد التردد بين المندوب والمكروه ، ولا في ترك واجب تركه ، لا يجد فيه التردد ، لأن التردد في مثل هذين هو من خواطر الشيطان ، فمن وجد في نفسه هذه العلامة علم أنه معصوم .

[سورة الحجر (15 : (الآيات 43 إلى 44]

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44).

ض 457

اعلم أن جهنم تحتوي على السماوات والأرض والكواكب كلها فيها طالعة وغاربة على أهل النار بالحرور والزمهرير ، وأبوابها سبعة بحسب أعضاء التكليف الظاهرة ، لأن باب القلب مطبوع عليه لا يفتح من حين طبع الله عليه عندما أقر له بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية ، فللنار على الأفئدة اطلاع لا دخول لغلق هذا الباب ،

[أبواب جهنم السبعة]

وأسماء أبواب النار السبعة : باب جهنم ، باب الجحيم ، باب السعير ، باب سقر ، باب لظى ، باب الحطمة ، باب سجين ، وقيل باب الحامية والهاوية بدلا من جهنم وسجين ، والباب المغلق وهو الثامن الذي لا يفتح ، فهو الحجاب عن رؤية الله تعالى ، والأبواب السبعة مفتحة ، لكل باب جزء من العالم ومن العذاب مقسوم ، وعلى كل باب ملك من الملائكة ملائكة السماوات السبع ، وسميت الأبواب بصفات ما وراءها مما أعدت له ، ووصف الداخلون فيها بما ذكر الله تعالى في مثل قوله في لظى (إنهاتَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعى)وقال ما يقول أهل سقر إذا قيل لهم(ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ)وقال في أهل الجحيم) إنه يكذب بيوم الدين) ووصفه بالإثم والاعتداء ثم قال فيهم(إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ)وهكذا في الحطمة والسعير .

[سورة الحجر (15) : الآيات 45 إلى 47]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (47)

« عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ »أي يقابل بعضهم بعضا .

[سورة الحجر (15) : آية 48]

لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (48)

النشأة التي تقوم من العناصر كلما نزل فيها من معدن إلى نبات إلى حيوان إلى إنسان كان التعب أقوى في آخر الدرجات وهو الإنسان ، والنصب أعم من التعب ، فإنه سريع التغير فإن له الوهم ، ولا شك أن الأوهام تلعب بالعقول« وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ »أي باقون في دار الكرامة لا يخرجون منها.

ص 458

[سورة الحجر (15) : آية 49]
نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49)
[- إشارة - لا يمتحن بالدليل إلا صاحب الدعوى]
-إشارة - لا يمتحن بالدليل إلا صاحب الدعوى ، فمن ادعى فقد عرض نفسه للبلوى« نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »فقلنا بالجرأة على الخطايا .
[سورة الحجر (15) : آية 50]
وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (50)
فحلت الرزايا بحلول البلايا .
[سورة الحجر (15) : آية 51]
وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (51)
[- إشارة - الصوفية أضياف الله]
-إشارة - الصوفية أضياف الله ، فإنهم سافروا من حظوظ أنفسهم وجميع الأكوان إيثارا للجناب الإلهي ، فنزلوا به ، فلا يعملون عملا إلا بإذن من نزلوا عليه ، وهو الله ، فلا يتصرفون ولا يسكنون ولا يتحركون إلا عن أمر إلهي ، ومن ليست هذه صفته فهو في الطريق يمشي يقطع مناهل نفسه حتى يصل إلى ربه ، فحينئذ يصح أن يكون ضيفا ، وإذا أقام عنده ولم يرجع كان أهلا ،
لأن أهل القرآن - وهو الجمع به تعالى - هم أهل الله وخاصته .
[سورة الحجر (15) : الآيات 52 إلى 56]
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (53) قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (55) قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (56)
لا يقنط من رحمة الله ، إلا من ضل عن الطريق وتاه .
[سورة الحجر (15) : الآيات 57 إلى 75]
قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (60) فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (69) قالُوا أَ وَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (70) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ(75)
ص 459

[إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ]
السمة هي العلامة وقوله تعالى :« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ »
قوله صلّى الله عليه وسلم (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) فالفراسة نور من أنوار الله عزّ وجل يهدي له عباده ، ولها دلائل ، والفراسة الشرعية لا تشذ لأنها عن أمر إلهي ، فهي مستمرة عند أهلها لأن دلائلها ، في نفس من قامت به ، بخلاف الفراسة الحكمية فإن أدلتها في نفس المتفرس فيه فقد تشذ ، فالفراسة الشرعية هي أعلى درجات المكاشفة وذلك أن لها علامات في الحس ، بينها وبين عالم الغيب ارتباط ، وهذا علم موقوف على الذوق خلاف الفراسة الحكمية فإنها موقوفة على التجربة والعادة وقد لا تصدق ، ولما كانت الفراسة الشرعية نور الله تعالى فهي لا تعطي إلا الحقائق ، وسبب حصولها جلاء عين البصيرة ، وقد جعل الله لعالم علمها علامات في ظاهر الموجودات ، كما جاء في الأثر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه حين أخذ على الرجل في نظره إلى ما لا يحل له فقال له الرجل أوحي بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال لا ولكن قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » رأيت ذلك في عينيك ، فما جار وما ظلم ، من تفرس وحكم ، يستخرج خفايا الأسرار ، بما عنده من الأنوار ، يعرف الماء في

ص 460

الماء ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ليس بقائف ، بل هو العارف يعرف الأول من كل شيء فيكشف بها كل خبء ، يفور من بصره النور ، ولا يبور ، هو بالإيمان مشروط ، وبحكمه مربوط ، يمده المؤمن بما شاء من أسمائه ، عند إنبائه ، فلا يبطئ ، ولا يخطي ، له النفوذ والمضاء ، وله الحكم والقضاء ، ولا إمساك إن شاء ولا مضاء ، فإن شاء لم يقض وإن شاء قضى ، بما يكون وهو كائن وما قد مضى ، نوره لا يحتاج إلى مدد ، ولا انقضاء مدد ، ولا استبصار بأحد .

[سورة الحجر (15) : الآيات 76 إلى 79]

وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77) وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (79)

الإمام المبين وهو الدفتر الأعظم الذي مع الحق على عرشه ، ونقل منه في اللوح المحفوظ قدر ما يقع به التصريف في الدنيا إلى يوم القيامة ، يتضمن ما في العالم من حركة وسكون ، واجتماع وافتراق ، ورزق وأجل وعمل .

[سورة الحجر (15) : الآيات 80 إلى 85]

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (81) وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (84)

وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85)

» وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ »وهو كل عالم علوي« وَالْأَرْضَ »كل عالم سفلي ، فالسماء من عالم الصلاح ، والأرض من عالم الفساد ، ومنه اشتقت اسم الأرضة لما تفسده من الثياب والورق والخشب« وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ «وهو الحق المخلوق به العالم ، وفي تفسيره وجوه

461

-**الوجه الأول -** هو الوجود الصرف ، لأنه قد قام الدليل على أنه ما ثمّ وجود أزلا إلا وجود الحق ، فهو واجب الوجود لنفسه
- **الوجه الثاني -** الحق المخلوق به هو العماء ، وهو نفس الرحمن الذي هو علة الإيجاد من جانب الرحمة بالخلق ، ليخرجهم من شر العدم إلى خير الوجود
- **الوجه الثالث -** قال صلّى الله عليه وسلم أول ما خلق الله العقل ، وهو الحق الذي خلق به السماوات والأرض
- **الوجه الرابع -** الحق هنا هو ما يحكم الله به يوم القيامة بين عباده وفي عباده وبه أنزل الشرائع –

[كنت كنزا لم أعرف فأحببت أن أعرف]
تحقيق - قال تعالى كما ورد (كنت كنزا لم أعرف فأحببت أن أعرف) ولما كان المحب من شأنه إذا قام بالصورة أن يتنفس ، لما في ذلك التنفس من لذة المطلوب ، فخرج ذلك النفس من شأنه إذا قام بالصورة أن يتنفس ، لما في ذلك التنفس من لذة المطلوب ، فخرج ذلك النفس عن أصل محبة في الخلق الذي يريد التعرف إليهم ليعرفوه ، فكان العماء المسمى بالحق المخلوق به ، فكان ذلك العماء ماء جوهر العالم ، فقبل صور العالم وأرواحه وطبائعه كلها ، وهو قابل إلى ما لا يتناهى ، فجميع الموجودات ظهرت في العماء بكن ، أو باليد الإلهية ، أو باليدين ، إلا العماء فظهوره بالنفس خاصة ، ولولا ما ورد في الشرع النفس ما أطلقناه ، مع علمنا به ، وأصل ذلك حكم الحب ، فبهذا الحب وقع التنفس فظهر النفس ، فكان العماء ، فهذا العماء هو الحق المخلوق به كل شيء ، وسمي الحق لأنه عين النفس والنفس مبطون في المتنفس ، فالعماء من تنفسه تعالى ، والصور المعبر عنها بالعالم من كلمة كن ، فلما سمعنا كلامه تعالى ونحن ثابتون في جوهر العماء لم نتمكن أن نتوقف عن الوجود ، فكنا صورا في جوهر العماء ، فأعطينا بظهورنا في العماء الوجود للعماء بعد ما كان معقولي الوجود ، حصل له الوجود العيني ، فالأصل على هذا كان وهو العماء من النفس ، وهو وجود وهو عين الحق المخلوق به وأجناس العالم مخلوقون من العماء ، وأشخاص العالم مخلوقون من العماء أيضا ومن أنواع أجناسه ، فما خلق شيء من عدم لا يمكن وجوده ، بل ظهر في أعيان ثابتة .
[سورة الحجر (15) : آية 86]
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86)
ولا يعلم أحد للعالم مدة يقف عندها بجملتها ، إلا أن الله تعالى بالجملة لم يزل خالقا ولا يزال دنيا وآخرة ، والآجال في المخلوق بانتهاء المدد لا في الخلق ، فالخلق مع الأنفاس يتجدد ، فما أعلم به خلقه علمه.

ص 462

[سورة الحجر (15) : آية 87]

وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87)

[السبع المثاني]

يراجع تفسير فاتحة الكتاب في السبع المثاني - الفاتحة هي السبع المثاني ، فهي سبع آيات تحتوي على جميع الآيات ، فظهرت في الوجود حضرة تفرد وحضرة تجمع ، فمن البسملة إلى الدين إفراد إلهي ، ومن اهدنا إلى الضالين إفراد العبد المألوه ، وقوله(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) تشمل ، وما هي العطاء ، وإنما العطاء ما بعدها ، وإياك في الموضعين ملحق بالإفراد الإلهي ، فصحت السبع المثاني ، يقول العبد فيقول الله« وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ »

- الوجه الأول - العظيم الصفات ، والقرآن الجمع ، وليس سوى إياك نعبد وإياك نستعين

- الوجه الثاني -« وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ »قيد وصف القرآن في هذه الآية بالعظمة ، فإن نزوله إذا كان بصفة العظمة أثر في القلب هيبة وجلالا وحياء ومراقبة وحضورا وإخباتا وانكسارا وذلة وافتقارا وانقباضا وحفظا ومراعاة وتعظيما لشعائر الله ، وانصبغ القرآن كله عنده بهذه الصفة ، فأورثه عظمة عند الله وعند أهل الله ، ولم يجهل أحد من المخلوقات عظمة هذا الشخص ، إلا بعض الثقلين لأنهم ما سمعوا نداء الحق عليه بالتعريف ،

وقد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال : [إذا أحب الله عبدا قال لجبريل : إني أحب فلانا ، فيحبه جبريل ، ثم يأمره أن يعلم بذلك أهل السماء ، فيقول ألا إن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء كلهم ، ثم يوضع له القبول في الأرض] .

[سورة الحجر (15 : (الآيات 88 إلى 91]

لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91)

في قسم الله جل ثناؤه بالربوبية على إنفاذ سؤال التقرير على المشركين يوم القيامة ، أقسم سبحانه على نفسه باسم الرب المضاف إلى نبيه محمد عليه السلام ، فقال عزّ من قائل .

[سورة الحجر (15) : الآيات 92 إلى 94]

فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(94)

ص 463

فانصدع بأمر الله ، لأنه ما قال له اصدع إلا ولا بد أن يكون قابلا لنفوذ أمر الله فيه حتى يسمى مصدوعا ، فلو كان لا يقبل النفوذ لكان هذا الأمر عبثا ، ألا ترى إلى قوله تعالى« وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ »فإنه لا ينفذ في المشرك ، إذ لو نفذ لوحّد ، فقال له :
وأعرض ، لأنهم ليسوا بمحل ، فيأمر الرسول المشرك من غير صدع ، والذي علم منه أنه يجيب ويقبل الأمر ولو كان على كره هو الذي يصدع بالأمر .

[سورة الحجر (15) : الآيات 95 إلى 96]
إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)
وهم الذين قالوا(ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى)وقالوا(أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ)أقسم سبحانه باسمه لنبيه وأضافه إليه إضافة الحضور والمشاهدة ، تفريجا لغمه وطردا لهمه ، وثلجا لفؤاده ، وشرحا لما ناله من الضيق والحرج مما سمع في سيده ومرسله وحبيبه من رد أمره وخطابه وتكذيبه ، وهذا هو المقام العالي الذي لا أعلى منه ولا أسنى ، ويقع فيه التفاضل بين الرسل وبين الأنبياء وبين الأولياء ، ولما كان عند النبي صلّى الله عليه وسلم سؤال الحق عباده عن أعمالهم بالتقرير والإنكار والتوبيخ والتقريع من المشقات الكبيرة والآلام العظام ، أقسم له سبحانه بنفسه ليشتفي من أعدائه في ذلك الموطن ، فقدّم له إخباره هذا ، وأقسم عليه تأكيدا ، لينقص عنه من ذلك الضيق الذي يجده بعض الشيء .

[سورة الحجر (15) : آية 97]
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ (97)
يعني في حق الله وتكذيبه ، فهو لذلك يضيق صدره ، فلما علم أن نبيه صلّى الله عليه وسلم في المقام الذي أوصله إليه سبحانه بعنايته التي تقتضي له أن يعامل الوقت كما ينبغي بما ينبغي لما ينبغي ، أمره بالتسبيح الرباني ليشغله به عن ضيقه وألمه وجرحه ، وزواله بالكلية محال من أجل الموطن ، ولهذا قال له في هذا الموطن في آية أخرى(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا) فأمره

ص 464

سبحانه بالاشتغال بالرب من مقام التذلل فقال .

[سورة الحجر (15) : آية 98]

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98)

فالرب هنا بمعنى السيد ، وفي التسبيح بمعنى الثابت ، فأراد سبحانه بما أمره به من التسبيح الرباني والعبادة الربانية أن يغنيه عنهم إلى يوم يلقاه ، والتسبيح التنزيه ، وهو قسم من أقسام الحمد ، فهو ثناء بعدم ، وهو التنزه عن كل صفة تدل على الحدوث لاتصافه بالقدم ، واحذر أن تسبح الحق بعقلك ، واجعل تسبيحه منك بالقرآن الذي هو كلامه ، فتكون حاكيا لا مخترعا ولا مبتدعا ، فهو أعلم بنفسه منك ، وهو يحمد ذاته بأتم المحامد وهو قوله »بِحَمْدِ رَبِّكَ »فلا تسبحه تسبيحة واحدة بعقلك جملة واحدة ، فإن الأدلة العقلية كثيرة التنافر للأدلة الشرعية في الإلهيات ، فسبح ربك بكلام ربك وبتسبيحه ، لا بعقلك الذي استفاده من فكره ونظره ، فإنه ما استفاد أكثر ما استفاد إلا الجهل ، فلا تتعد بالفكر محله« وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ »يريد الذين لا يرفعون رؤوسهم أبدا ، ولا يكون ذلك إلا في سجود القلب ، ولهذا قال له عقيب قوله« وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ »تمم فقال .

[سورة الحجر (15) : آية 99]

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

[« حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »]

ولما كان القسم بالرب ، جعل الحكم بالتسبيح لهذا الاسم والعبادة له ، حتى لا يكون لاسم آخر سلطان عليه في هذه النازلة على هذا المقام ، فقال له تعالى :(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)وقال :« وَاعْبُدْ رَبَّكَ »المنعوت في الشرع« حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »

- **الوجه الأول** - فتعرف باليقين من سجد منك ، ولمن سجدت ، فتعلم أنك آلة مسخرة بيد حق قادر ، اصطفاك وطهرك وحلاك بصفاته

- **الوجه الثاني** - اعلم أن الأسماء الإلهية نسب ، فمن عرف النسب فقد عرف الله ، ومن جهل النسب فقد جهل الله ، ومن عرف أن النسب تطلبها الممكنات فقد عرف العالم ، ومن عرف ارتفاع النسب فقد عرف ذات الحق من طريق السلب ، فلا يقبل النسب ولا تقبله ، وإذا لم يقبل النسب لم يقبل العالم ، فقوله تعالى :« وَاعْبُدْ رَبَّكَ »نسبة خاصة من الاسم الرب المضاف« حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »فتعلم من عبده ومن العابد والمعبود

ـ **الوجه الثالث** -« وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »فينكشف الغطاء ويحتد البصر ، فترى ما رأى

ص 465

الرسول صلّى الله عليه وسلم وتسمع ما سمع ، فتلحق به في درجته من غير نبوة تشريع ، بل وراثة محققة لنفس مصدقة متبعة - لذلك قرأ بعضهم من باب الإشارة« وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ »

- الوجه الرابع -« حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »يعني الموت ، لأنه أمر متيقن لا اختلاف في وقوعه في كل حيوان

- الوجه الخامس - « اليقين »

[« اليقين »]

حكم اليقين سكون النفس بالمتيقن ، أو حركتها إلى المتيقن وهو ما يكون الإنسان فيه على بصيرة ، أي شيء كان ، فإذا كان حكم المبتغى حكم الحاصل فذلك اليقين ، سواء حصل المتيقن أو لم يحصل في الوقت ، وهو قول القائل لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، مع أن المتيقن ما حصل في الوجود العيني ، فقال الله لنبيه ولكل عبد يكون بمثابته« وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »ولما كان شرف اليقين بشرف المتيقن ، لهذا جاء بالألف واللام في قوله« حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »يريد متيقنا خاصا ، ما هو يقين يقع المدح به ، بل هو يقين معيّن ، واليقين هو الذي يأتي طالبا المحل الذي ينزل فيه ، فإذا تيقنت علمت بمن آمنت - الوجه السادس - إذا أضاف الحق نفسه إلى شيء من خلقه ، فانظر إلى عبادة ما أضاف نفسه إليه فقم بها أنت ، فإنك النسخة الجامعة ، وما عرفك الحق بهذه الإضافة الخاصة إلا لهذا ، مثال الإله المضاف : وإلهكم ، ربنا الذي أعطى ، رب المشرق والمغرب ، رب السماوات ، ورب آبائكم ، رب المشرقين ورب المغربين فعطف ، وما أظهر الإضافة كما فعل في غير ذلك ، ما فعله سدى ، فاعبد ربك على ما قلته لك في كل إضافة حتى يأتيك اليقين ، وإذا أتاك اليقين انجلى لك الأمر وعرفت شرف الإضافة ، فإنه ما عبد أحد الإله المطلق عن الإضافة فإنه الإله المجهول .

بحث في اليقين - اليقين مقام شريف بين العلم والطمأنينة ، وربما اشتق اليقين من يقن الماء إذا استقر ، فاليقين استقرار الإيمان في القلب ، واعلم أن اليقين لما اعتنى به الله دون غيره من المقامات ، أكمل نشأته فسوى ذاته أولا حين أرسله مطلقا ، مثل قوله تعالى :« حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »ثم جعل له عينا وعلما وحقا وأخفى حقيقته ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : [لكل شيء حقيقة] وقد ثبت حق اليقين ، فلا بد لهذا الحق من حقيقة ، وهو حقيقة اليقين ، فصار اليقين على هذا نشأة قائمة على أربعة أركان : علم وعين وحق وحقيقة ، فالحقيقة سنّية ، والثلاثة الأركان الباقية كتابية ، فاليقين اسم يكون منه فعل فيظهر في حضرة الأفعال على مراتبها ، ولا يتمكن أن يوصف بوجه ، بخلاف العلم ، فلا يوصف بالقدم

ص 466

ويوصف بالعلم والعين والحق وغير ذلك ، ولما كان فلك اليقين واسعا ، كان في حركته بطء لاتساع فلكه ولعلوه وارتفاعه ، فلا يظهر له في عالم التركيب ذلك الأثر الظاهر إلا عند القليل من المتروحنين من البشر ، وذلك لعلو هممهم ، فإنها جازت عليه من فلكه وقربت منه فحصل آثاره فيها ، ولذلك قال تعالى): لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) *فجعلهم قوما ، فإن الشكوك هي الغالبة والقطع على جهالة لا على يقين ، فسمي القطع يقينا ، واليقين من جهة الحقيقة غير حاصل عند أكثر الناس ، وإن القطع عندهم حاصل عندهم ويسمونه يقينا ، وليس كذلك ، فلو كانت دائرة فلك اليقين قريبة منا سريعة الدور ضيقة الفلك لكانت سريعة الأثر ، وكان الخلق أكثرهم على اليقين ، فكانوا على سبيل الحق ، لكن الأمر كما ترى بالعكس ، وانظر في إشارة الشارع بقوله تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلم(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)وقلّل الصالحين فقال :(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ)فأين أنت من أصحاب اليقين الذين هم أقل من عمّال الصالحات ، بل نبّه عليهم(بِقَوْمٍ) *فهم أقل من القليل ، واليقين فوق الإيمان بلا شك ، فأين الطمأنينة أبعد وأبعد ، وأخبر صلّى الله عليه وسلم أنه يتعلم اليقين ، وقيل له« وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »وسر ذلك أنه قيل له(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)والعلم لا بد بأن يستند إلى اليقين ، لأن اليقين روح العلم والطمأنينة حياته ، فلا يزال يطلب الزيادة من العلم ، فلا يزال يتعلم اليقين لارتباطه به ، وهكذا في كل دقيقة من دقائق التفاصيل ، ولما كان العلم بهذه المثابة انبغى لكل عاقل أن لا يسأل سواه في كل شيء ، ولما كان لليقين نشأة كاملة كانت له عين مميزة ، فقيل عين اليقين ، لئلا يتخيل السامع أنا نريد عين الشمس وغير ذلك ، ونقول علم اليقين في العلم ، لئلا يتخيل علم النحو أو علم الأدب ، وكذلك حقّ اليقين ، لئلا يتخيل حق قدره وحق تقاته إذا قلنا حق ولا نضيفه إلى اليقين ، كذلك نقول حقيقة اليقين ، لئلا يتخيل أنا نريد حقيقة الإيمان وحقيقة الوجود ، فجاءت الإضافة قطعا ، لأن اليقين هو مجموع هذه الأشياء فجازت ، واليقين ما بأيدي الناس منه إلا مجرد ذاته الجسمانية ، أي حروفه اللفظية والرقمية ، ولذلك ما تجد أحدا إلا وهو يشك في المقدور ، إما بعقده وإما بحاله ضرورة ، وأدناها مرتبة هذه الكسيرة التي وقع القسم من الله عليها بضمانها ، ولا بد أن يعطيها ولم يشترط فيها إيمانا ولا كفرا ، ومع هذا كله لم يثلج صدره ولا حصل في النفس من اليقين

467

علم ولا عين ولا حق ولا حقيقة ، فأين أنت يا مسكين ؟ فمن كشف الله له عن بصيرته وانحل قفله من أهل الكمال قليلون جدا ، فانظر ما أعلى درجة اليقين ، فإن عين اليقين بها ينظر إلى الهمم عند تسابقها إليه وتجاريها على براقات الأعمال الصالحات ، فيشهدها خارجة من النفوس المسجونة في الهياكل الظلمانية ، واختراقها عالم الوهم والمثال الذي هو البحر الخضم الذي تهلك فيه أكثر الهمم ، وتعاين هذا اليقين بالعين المضافة ، فالصاحب يقول :

إن رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يكلم دحية ، وإنما كان جبريل عليه السلام ، فإذا قال : إنه دحية فلا علم عنده ولا يقين ، لكنه عنده القطع الذي يسميه يقينا ، واليقين إذا نظر بعينه إلى مثل ما ذكرناه ورأى رجوع الهمم يتعجب مما خلق الله عليه العقول من القصور ، فما أشأم من وثق بعقله ، أو قال إنه يعرف ربه بعقله ، وإذا وصلت الهمم بالمسابقة إلى اليقين وهو ينظر إليها بعينه ، أنزلها في حضرته وحصل من صور الهمم التي يمتاز بعضها من بعض صورة معقولة ، لا يمكن للبصر أن يدركها ، لأنها غيب ، فيسلط علمه عليها ، وهذا هو علم اليقين المضاف إليه ، فعينك إذا لم تغلط من عين اليقين ، وإذا غلطت من عين القطع ، وعلمك إذا لم يغلط من علم اليقين وإذا غلط فمن علم القطع ، وهو قوله تعالى : [كنت سمعه وبصره] فلا يرى إلا اليقين ولا يعلم إلا اليقين ، وأما حق اليقين فهو أن ينظر عندما تميزت له صفات الفصل بين الهمم في الأمر الذي انبعثت عنه وحكم مزاج صاحب تلك الهمة وأين محله من عالمه وعلى ما ذا قامت بنيته حين يبدو له ما يعطي امتزاج أخلاطه من القوة ، فيكون الإمداد بحسب ذلك ، وأما حقيقة اليقين فهو أن ينظر في المقام المعلوم الذي منه نزل إلى أسفل سافلين ، فإنه إلى ذلك ينتهي بعد التكليف والالتحاق بالروحانيات العلى ، فإن الله تعالى أوجد كل لطيفة إنسانية في مقامها الذي تؤول إليه كالملائكة سواء ، ثم نزلت إلى تدبير الأبدان فهكذا الإنسان لا يزال يترقى إلى آخر نفسه الذي يموت عليه ، وهو مقامه الذي نزل منه ، ولذلك قال(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) *ولا يرجع إلى شيء إلا من خرج منه ، فبذلك المقام تتعلق حقيقة اليقين.

ص 468

(16) سورة النّحل مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[سورة النحل (16) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1)

« أَتى »بالماضي« أَمْرُ اللَّهِ »يوم القيامة وإن كان لم يأت بعد ولكن تقطع النفس المؤمنة بإتيانه فلا فرق عندها بين حصوله وعدم حصوله وعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه ولا بد وزوال حكم الإمكان فيه إلى حكم الوجوب وكل ما كان بهذه المثابة فحكم الماضي فيه والمستقبل على السواء وسياقه بالماضي آكد في الوقوع وتحققه من بقائه على الاستقبال.

[سورة النحل (16) : آية 2]

يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (2)

»يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ »لما كان العلم تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح أعيان الأجسام كلها سمي العلم روحا تنزل به الملائكة على قلوب عباده فهم المعلمون والأستاذون في الغيب ، يشهدهم من نزلوا عليه ، فإذا نزل هذا الروح في قلب العبد بتنزيل الملك أو بإلقاء الله ووحيه ، حيي به قلب المنزل عليه ، فكان صاحب شهود ووجود ، لا صاحب فكر وتردد ولا علم يقبل عليه دخلا فينتقل صاحبه من درجة القطع إلى حال النظر« مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ »وهي النبوة العامة لأن من نكرة« أَنْ أَنْذِرُوا »فما جاء إلا بالإعلام ، وفيه ضرب من الزجر حيث ساق الإعلام بلفظة الإنذار ، فهو إعلام بزجر فإنه البشير والنذير ، والبشارة لا تكون إلا عن إعلام ، فغلب في الإنزال الروحاني باب الزجر والخوف ، لما قام بالنفوس من الطمأنينة الموجبة إرسال الرسل ليعلموهم أنهم عن الدنيا إلى الآخرة منقلبون ، وإلى الله من نفوسهم راجعون« أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا »هذا هو التوحيد الخامس عشر في القرآن

ص 469

وهو توحيد الإنذار ، وهو توحيد الإنابة (أَنَا) « فَاتَّقُونِ »وهي نبوة خاصة بنبوة التشريع ، لأن الإنذار مقرون أبدا بنبوة التشريع ، ويكون الروح صورة قوله« لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ »فإنه لم يقل هو ، فكان الروح هو الملقى

- وجه آخر - الملائكة هنا هي التي نزلت بالإنذار من أجل أمر الله لهم بذلك ، فاستوى في هذا التنزل في التوحيد رسل البشر والمرسلون إليهم ، والروح هنا ما نزلوا به من الإنذار ، ليحيى بقبوله من قبله من عباده كما تحيى الأجسام بالأرواح ، فحييت بهذا الروح المنزل رسل البشر ، فأنذروا بهذا التوحيد العظيم الذي نزل من جبار عظيم بتخويف وتهديد مع لطف خفي في قوله« فَاتَّقُونِ »أي فاجعلوني وقاية تدفعون بي ما أنذرتكم به ، هذا لطفه ، ليس معناه فخافوني ، لأنه ليس لله وعيد وبطش مطلق شديد ليس فيه شيء من الرحمة واللطف ، ومثل هذه الآية قوله تعالى (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ (نبوة عامة) لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ) نبوة تشريع لا نبوة عموم

- بحث في نزول الملائكة على البشر –

قال بعض أصحابنا كالإمام أبي حامد الغزالي وغيره بأن الفرق بين الولي والنبي نزول الملك ، فإن الولي ملهم ، والنبي ينزل عليه الملك مع كونه يكون ملهما ، فإنه جامع بين الولاية والنبوة ، وهذا غلط عندنا من القائلين به ، ودليل عدم ذوق القائلين به ، وإنما الفرقان إنما هو فيما ينزل به الملك لا في نزول الملك ، فالذي ينزل به الملك على الرسول والنبي خلاف الذي ينزل به الملك على الولي التابع ، فإن الملك قد ينزل على الولي التابع بالاتباع ، وبإفهام ما جاء به النبي مما لم يتحقق هذا الولي العلم به وإن كان متأخرا عنه بالزمان ، أعني متأخرا عن زمان وجوده ، فقد ينزل عليه بتعريف صحة ما جاء به النبي وسقمه مما قد وضع عليه ، أوتوهم أنه صحيح عنه ، أو ترك لضعف الراوي وهو صحيح في نفس الأمر ، وقد ينزل عليه الملك بالبشرى من الله بأنه من أهل السعادة والفوز وبالأمان ، كل ذلك في الحياة الدنيا ، فإن الله عزّ وجل يقول :(لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا)وقال في أهل السعادة القائلين بربوبية الله أن الملائكة تنزل عليهم ،

قال تعالى :(إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا)

[بحث في نزول الملائكة على البشر]

من أولياء الله من يكون له ذوق الإنزال في التنزيل ، فما طرأ ما طرأ على القائلين بخلاف هذا إلا من اعتقادهم في نفوسهم أنهم قد عموا بسلوكهم جميع الطرق والمقامات ، وأنه ما بقي مقام إلا ولهم فيه

ص 470

ذوق ، وما رأوا أنهم نزل عليهم ملك ، فاعتقدوا أن ذلك مما يختص به النبي ، فذوقهم صحيح وحكمهم باطل ، فمن هناك وقع الغلط ، ولو وصل إليهم ممن تقدمهم أو كان معهم في زمانهم من أهل الله القول بنزول الملك على الولي قبلوه وما ردوه .

[سورة النحل (16) : آية 3]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3)

[»خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ «]

« خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ »الحق هنا ليس عينا موجودة ، بل الباء هنا بمعنى اللام ، ولهذا قال تعالى في تمام الآية« تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ »من أجل الباء ، والأمر في نفسه في حق السماء والأرض ، وما أنزل (ما بَيْنَهُما (حتى يعم الوجود كله ، مثل قوله(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) كذلك ما خلق السماوات والأرض إلا بالحق ، أي للحق ، فاللام التي نابت الباء هنا منابها عين اللام في قوله« لِيَعْبُدُونِ »فخلق السماوات والأرض للحق ، والحق أن يعبدوه ، ولهذا قال :« تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ »فالحق تعالى لا يخلق شيئا بشيء ، لكن يخلق شيئا عند شيء ، فكل ما يقتضي الاستعانة والسببية فهي لام الحكمة ، فما خلق الله شيئا إلا للحق ، والحق أن يعبدوه ، فعلى الحقيقة إن الله لا يخلق شيئا بشيء ، وإن خلقه لشيء فتلك لام الحكمة ، وعين خلقه عين الحكمة ، إذ خلقه تعالى لا يعلل ، فالخلق عبد بالذات أثرت فيه العوارض ، ولا سيما الشخص الإنساني ، بل ما أثرت العوارض إلا في الشخص الإنساني وحده دون سائر الخلق ، وما سواه فعلى أصله من التنزيه ، تنزيه خالقه عن الشريك ، من هذا يتضح خطأ من جعل هذا الحق المخلوق به عين علة الخلق ، والحق تعالى لا يعلل خلقه ، هذا هو الصحيح في نفسه ، حتى لا يعقل فيه أمر يوجب عليه ما ظهر من خلقه ، بل خلقه الخلق منة منه على الخلق ابتداء فضل وهو الغني عن العالمين ، وكذلك خطأ من جعل هذا الحق المخلوق به عينا موجودة بها خلق الله ما سواها ، وهو صدور معلول عن علة أوجبت العلة صدوره ، وهذا فيه ما فيه« تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ »اعلم أن الله هو اللطيف الخبير العلي القدير الحكيم العليم ، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، لما خلق الأشياء وذكر أن له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، وضع الأسباب وجعلها له كالحجاب فهي توصل إليه تعالى كل من علمها حجابا ، وهي تصد عنه كل من اتخذها أربابا ، فذكرت الأسباب في أنبائها أن الله من ورائها ، وأنها غير متصلة بخالقها - فإن الصنعة

ص 471

لا تعلم صانعها - ولا منفصلة عن رازقها فإنها تأخذ عنه مضارها ومنافعها ، فخلق الأرواح والأملاك ورفع السماوات قبة فوق قبة على عمد الإنسان ، وأدار الأفلاك ، ودحى الأرض ليميز بين الرفع والخفض ، وعيّن الدنيا طريقا للآخرة ، وأرسل بذلك رسله تترى ، لما خلق في العقول من العجز والقصور عن معرفة ما خلق الله من أجرام العالم وأرواحه ولطائفه وكثائفه ، فإن الوضع والترتيب ليس العلم به من حظ الفكر ، بل هو موقوف على خبر الفاعل لها والمنشئ لصورها ، ومتعلق علم العقل من طريق الفكر إمكان ذلك خاصة لا ترتيبه ، ثم إن الله تعالى قدّر في العالم العلوي المقادير والأوزان والحركات والسكون في الحال والمحل والمكان والمتمكن ، فخلق السماوات وجعلها كالقباب على الأرض قبة فوق قبة ، وجعل هذه السماوات ساكنة ، وخلق فيها نجوما ، وجعل في سيرها وسباحتها في هذه السماوات حركات مقدّرة لا تزيد ولا تنقص ، وجعلها عاقلة سامعة مطيعة ، ثم إن الله تعالى يحدث عند هذه الحركات الكوكبية في الطرق السماوية في عالم الأركان وفي المولدات أمورا مما أوحى في أمر السماء ، وجعل ذلك عادة مستمرة ابتلاء من الله ابتلى بها عباده ، فمن الناس من جعل ذلك الأثر عند هذا السير لله تعالى ، ومن الناس من جعل ذلك لحركة الكوكب وشعاعه ، لما رأى أن عالم الأركان مطارح شعاعات الكواكب ، فأما الذين آمنوا بالله فزادتهم إيمانا بالله ، وأما الذين آمنوا بالباطل فزادتهم إيمانا بالباطل وكفروا ، وهم الخاسرون الذين ما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .

[سورة النحل (16) : الآيات 4 إلى 5]

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (5)

الأنعام من الإنعام ، تحمل الأثقال والرحال ، وعليها تمتطي الرجال ، ومن أعجب ما يكون أن الوضوء من أكل لحومها مسنون ، لشربها من بئر شطون .

[سورة النحل (16) : الآيات 6 إلى 7]

وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ(7)

ص 472

»لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ »وهو نصف ذاتك ، أي ما كنت تصل إليه إلا بالوهم والتخيل لا بالحس إلا بواسطة هذه المراكب .

[سورة النحل (16) : آية 8]

وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (8)

فهي من زينة الله التي قال فيها(مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ).

[سورة النحل (16) : آية 9]

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (9)

[« وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ " الآية "]

أوجب الحق على نفسه أن يعرّف طريق سعادة العباد - وهو الإيمان بالله ، وبما جاء من عند الله ، مما ألزمنا فيه الإيمان به ، فإن العالم في حال جهل بما في علم الله من تعيين تلك الطريق - عن طريق الرسول ، لذلك قال تعالى :« وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ »أي هذا الذي أوجبته على نفسي ، كأن الله يقول : الذي يلزم جانب الحق منكم أن يبيّن لكم السبيل الموصل إلى سعادتكم ، وقد فعلت ، فإنكم لا تعرفونه إلا بإعلامي لكم به وتبييني ، وجاء بالألف واللام للشمول في السبيل ، فإنها كلها سبل يراها من جاهد في الله ، فأبان له ذلك الجهاد السبل الإلهية ، فسلك منها الأسدّ في نفسه ، وعذر الخلق فيما هم عليه من السبل وانفرد بالله ، فهو على نور من ربه« وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ »أي أنتم قابلون لذلك ، ولكن حقت الكلمة وسبق العلم ونفذت المشيئة ، فلا راد لأمره ولا معقّب لحكمه ، إن الله فعال لما يريد .

[سورة النحل (16) : الآيات 10 إلى 12]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(12)

ص 473

اعلم أن الله تعالى لما رفع السماء ووضع الميزان في سباحة الكواكب في أفلاكها التي هي طرق السماوات ، لتجري بالمقادير الكائنة في العالم على قدر معلوم لا تتعداه ، فهي تعطي وتمنع بذلك الميزان الذي وضع الحق لها ، لأنها تشاهد الميزان الذي بيد الحق حين يخفض به ويرفع ، فإذا نظرت إلى من رفعه الحق بميزانه أعطته ما يستحقه مقام الرفع ، وإذا رأت الحق يضع بميزانه من شاء أعطته ما يستحقه مقام الوضع ، وذلك هو التسخير الذي ورد في القرآن في النجوم أنها مسخرات بأمره ، فيقول العالم والمؤمن :
مطرنا بفضل الله ورحمته ، بالوزن الذي جعله في سباحة كوكب من الكواكب وما قدره الله له من المنازل التي ينزل فيها ، والمحجوب والكافر يقول : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فيذكر الكوكب المجبور في ذلك ، ويضيف ما ظهر من المطر الصائب إليه« إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » *الذين يعقلون عن الله كل شيء في العادة عندهم فيه تعجب ، وأما أصحاب العوائد فإنهم لا تعجب عندهم إلا فيما ظهر فيه خرق العادة .

[سورة النحل (16) : الآيات 13 إلى 15]
وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15)
فالأرض هي الثابتة الراسية ، سكّن ميدها جبالها التي جعلها الله أوتادها ، لما تحركت من خشية الله آمنها الله بهذه الأوتاد ، فسكنت سكون الموقنين .

[سورة النحل (16) : آية 16]
وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(16)

ص 474

العامة لا ترى الأنوار التي في كواكب السماء إلا زينة خاصة ، ويراها العلماء بمنازلها وسيرها وسباحتها في أفلاكها موضوعة للاهتداء بها ، فاتخذوها علامات على ما يبغونه في سيرهم في ظلمات البر والبحر .

[سورة النحل (16) : آية 17]

أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (17)

لما كانت القدرة الحادثة التي للمخلوق الذي اتّخذ إلها ، لا تزيد على قدرة العابد إياه ، فهي قاصرة عن سريانها في جميع الأفعال ، فإن القدرة الحادثة لا تخلق المتحيزات من أعيان الجواهر والأجسام ، فعبدوا من لم يخلق أعيانهم ، لهذا وبخهم تعالى بقوله :« أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ »فالخلق هنا بمعنى الإيجاد ، ولذلك تمدح به تعالى ، وجعله فرقانا بين من ادعى الألوهية أو ادعيت فيه ، وفيه رد على عبدة الأوثان ، فنفى الخلق عن الخلق ، فلو لم يرد عموم نفي الخلق عن الخلق لم تقم به حجة على من عبد فرعون وأمثاله ممن أمر من المخلوقين أن يعبد من دون الله ، فإن الخلق من خصوص وصف الإله ، فلو وقعت المشاركة في الخلق لما صح أن يتخذها تمدحا ولا دليلا مع الاشتراك في الدلالة ، هذا لا يصح فيعلم قطعا أن الخالق صفة أحدية لله لا تصح لأحد غير الله ، وما جعل الله الخلق دليلا عليه من جملة الأدلة على توحيده إلا لانفراده بالخلق ، فيقول تعالى لمن يدعي الخلق أو ينسب الفعل إلى نفسه« أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ »فلما تمدح بالخلق دل من مضمون الكلام أن لا خالق للأشياء كلها إلا هو ، من أفعال العباد وغيرها ، ولو كانت أفعال العباد خلقا لهم ، لم يكن ذكره للخلق تمدحا خاصا لوقوع الاشتراك ، فتحقق مذهب أهل الحق في أن لا موجد ولا فاعل إلا هو ، فنسبة الأفعال إلى نفس الإنسان ألوهية خفية في نفس كل إنسان ، وهو الشرك الخفي المعفو عنه .

[سورة النحل : (16) آية 18]

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18)

[« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها »]

اتبع الحق الخلق الذي هو الإيجاد بقوله تعالى« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها »فإن أول نعمة عقلتها من ربك إخراجك من العدم إلى الوجود ، وقد عدد هذا المقام عليك من

ص 475

جملة نعمه فقال :(أَ وَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً)فهذه أول نعمة أنعم بها عليك ، لو كلّفك الله شكر هذه النعمة وحدها ، وجعل معك أهل السماوات والأرض بعبادتهم مؤيدين لك عمرك الأخروي الذي لا نهاية له ، ما قمت بشكرها ، كيف وقد انضاف إليها نعم كثيرة ؟ ! منها كونه أوجدك متغذيا ناميا ، ولم يجعلك جمادا صلدا ، فكانت القدرة ممكنة لما أوجدتك ولم تك شيئا ، أن تنزلك في أمة الجمادات ، ولكن مقام النبات أعلى ، وأمته أفضل ، فجعلك متغذيا ولم يجعلك جمادا ، وهذه نعمة كبيرة ولا يؤدى شكرها ولا يقدّر قدرها ، ثم زادك الله نعمة على هذه النعمة بأن نقلك من أمة النبات والشجر ، إلى أمة الحيوان ، فجعلك حساسا ، فوجب عليك من الشكر والعبادة ما وجب على الجماد والنبات والحيوان ، فإنك قد جمعت حقائقهم وزدت على كل واحد منهم ، ثم زادك الله تبارك وتعالى ، نعمة أخرى إلى هذه النعم ، فجعلك ناطقا ، وفضلك على الحيوان الحساس خاصة ، فزدت معرفة بما لا يعرفه الحيوان ، فأعطاك بنطقك حقيقة الملك ، وهو الاشتراك في العقل الإلهي ، فوجب عليك ما وجب على الملك من جهة روحك ، فأنت مطالب بالحضور الدائم ، ثم أنعم الله عليك بنعمة الاختصاص ، فجعلك موحدا ولم يجعلك مشركا ، لا ليد تقدمت لك عليه ، فهذا اختصاص ، إذ قد قسّم جنسك إلى موحد وإلى مشرك وجعلك من حزب الموحدين ، ثم زادك إلى هذه النعمة نعمة أخرى ، وهي إيمانك بالرسول صلّى الله عليه وسلم ، ولم يجعلك مكذبا برسوله كما فعل بغيرك من أبناء جنسك حيث كفر برسوله ، فقد حبانا الله بالإيمان بالنبي صلّى الله عليه وسلم حين خذل غيرنا ، ثم نعمة أخرى لما جعلك مؤمنا بنبي جعلك من أمة محمد صلّى الله عليه وسلم ، ولم يجعلك من أمة غيره من الأنبياء ، وهنا نعم منها أن ألحق هذه الأمة بدرجة الأنبياء باتباعهم محمدا صلّى الله عليه وسلم ، وعيسى عليه السلام من جملة أمة محمد صلّى الله عليه وسلم ، وهو رسول الله وروحه وكلمته ، والنعمة الأخرى أن جعلك شهيدا على سائر الأمم ، وهي مرتبة النبوة ، فإنهم الشهداء على أممهم ، فهذه مواطن تحشر فيها غدا مع النبيين ، ونعمة أخرى لم يعطها أحدا قبلك من الأمم ، فإنك مؤمن بنبيك آخر الأنبياء وبمن تقدم إلى آدم ، ولكل نعمة شكر يخصها وعمل يطابقها ، ثم أنه حفظك من البدعة وميزك في ديوان السنة ، فهذا اختصاص ، ثم أهل السنة قسمهم قسمين : عالم وجاهل ، فجعلك عالما بما تعبدك به من شريعته ولم يجعلك جاهلا بذلك ، فهذه نعمة يجب أيضا شكرها ،

ص 476

ثم جعل العالمين على قسمين : طائع وعاصي ، فجعلك من الطائعين ولم يجعلك من العاصين ، فهذه نعمة عظيمة ، فقد غمرتك النعم ، ولا يتسع الليل والنهار لأداء شكر واجبات هذه النعم ، وأنه إن اشتغلنا بواحدة منها ، فغايتنا أن نقطع ضياءنا وظلامنا ببعض ذرة من واحدة ، فعلى هذا يجب علينا الذي يمكننا أن نفعله أن لا يرانا الله وقتا واحدا بطالين ولا متصرفين في مباح إلا حاضرين بقلوبنا على الدوام ، مكفوفي الجوارح عن التصرف المحظور علينا ، مطلوقي الألسنة بالذكر ، وبإظهار العلم والشكر عليه ، والاعتراف بالتقصير دائما ، وتوبيخ النفوس الذي أراده الحق منا ، لا تعديلها وتزكيتها ، وعطايا الحق كلها نعم ، إلا أن النعم في العموم موافقة الغرض وعوارف الحق مننه ونعمه على عباده ، فما أطلعك منها على شيء إلا ليردك ذلك الشيء منك إليه ، فهو دعاء الحق في معروفه ، لما رأى عندك من الغفلة عنه ، فتحبب إليك بالنعم« إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ».

[سورة النحل (16) : الآيات 19 إلى 22]

وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ (19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22)

« وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ »فنؤمن به من حيث ما جاء به الخبر ، لا من حيث الدليل ، فذلك التصديق هو الإيمان .

[سورة النحل (16) : الآيات 23 إلى 29]

لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (25) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)

ص 477

[سبب تكبر الثقلين دون سائر الموجودات]

اعلم أنه ما تكبر أحد من خلق الله على أمر الله غير الثقلين ، ولا عصى الله أحد من خلق الله سوى الثقلين ، واعلم أن السبب الموجب لتكبر الثقلين دون سائر الموجودات ، أن سائر الموجودات توجه على إيجادهم من الأسماء الإلهية أسماء الجبروت والكبرياء والعظمة والقهر والعزة ، فخرجوا أذلاء تحت هذا القهر الإلهي ، وتعرف إليهم حين أوجدهم بهذه الأسماء ، فلم يتمكن لمن خلق بهذه المثابة أن يرفع رأسه ولا أن يجد في نفسه طعما للكبرياء على أحد من خلق الله ،

فكيف على من خلقه ؟

وقد أشهده أنه في قبضته وتحت قهره ، وشهدوا كشفا نواصيهم ونواصي كل دابة بيده ، فمن كان حاله في شهوده نظره إلى ربه كيف يتصور منه عزّ وكبرياء على خالقه مع هذا الكشف ؟

وأما الثقلان فخلقهم بأسماء اللطف والحنان والرأفة والرحمة والتنزل الإلهي ، فعند ما خرجوا لم يروا عظمة ولا عزا ولا كبرياء ، ورأوا نفوسهم مستندة في وجودها إلى رحمة وعطف وتنزل ، ولم يبد الله لهم من جلاله ولا كبريائه ولا عظمته في خروجهم إلى الدنيا شيئا يشغلهم عن نفوسهم ، فلو أشهدهم أن نواصيهم بيد الله شهادة عين ، أو إيمان كشهادة عين :

- **كشهادة الأخذ من الظهور** - ما عصوا الله طرفة عين ، وكانوا مثل سائر المخلوقات يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فلما ظهروا عن هذه الأسماء الرحمانية ،

قالوا : يا ربنا لم خلقتنا ؟

قال :

(لتعبدون) أي لتكونوا أذلاء بين يدي ، فلم يروا صفة قهر ولا جناب عزة تذلهم ، بل نظروا إلى الأسماء التي وجدوا عنها ، فما رأوا اسما إلهيا منها يقتضي أخذهم وعقوبتهم إن عصوا أمره ونهيه وتكبروا على أمره ، فلم يطيعوه وعصوه.

ص 478

[سورة النحل (16) : آية 30]
وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (30)

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً »فكل شيء من الله حسن ساء ذلك الشيء أم سر .

[سورة النحل (16) : آية 31]
جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31)

[لا بد أن الآخرة تطلب حشر الأجساد وظهورها]
إذا كانت الآخرة ، عاد الحكم فيما تحوي عليه الخزائن التي عند الله إلى العبد الذي كمّل الله سعادته ، فيدخل فيها متحكما ، فيخرج منها ما يشاء بغير حساب ولا قدر معلوم ، بل يحكم بما يختاره في الوقت ، فإنه يعطى التكوين ، فكل ما خطر له تكوينه كوّنه ، فلا يزال خلّاقا دائما ، فلا بد أن الآخرة تطلب حشر الأجساد وظهورها ، ولا بد من إمضاء حكم التكوين فيها ، فإن الأمر فيها على أتم الوجوه وأكملها ، ففي الدنيا في العموم تقول للشيء كن فيكون في التصور والتخيل ، لأن موطن الدنيا ينقص في بعض الأمزجة عن التكوين في العين في الظاهر ، وفي الآخرة تقول ذلك بعينه لما تريد أن يكون كن فيكون في عينه من خارج ، كوجود الأكوان هنا عن كن الإلهية عند أسبابها ، فكانت الآخرة أعظم كمالا من هذا الوجه ، لتعميم الكلمة في الحضرتين الخيال والحس .

[سورة النحل (16) : الآيات 32 إلى 33]
الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(33)

«وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ »فإنهم لا يرجعون عندما يبصرون ، ولا يعقلون عندما يسمعون ، ولا يصيبون عندما يتكلمون« وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »فكانوا هم الظالمين ، فإنهم ظلموا الحقوق أهلها ، فإن لهم قلوبا يعقلون ويفقهون بها ، وإن لهم أعينا يبصرون بها ، وإن لهم آذانا يسمعون بها ، فأنزلوا أنفسهم منزلة الأنعام بل أضل سبيلا .

[سورة النحل (16) : الآيات 34 إلى 40]

فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (34) وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (35)
وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36)
إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (37)
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (38)
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (39)
إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)

« إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ »الإرادة هنا التوجه الإلهي بالإيجاد ، فنفى الأثر فيه عن السبب إن كان أوجده عند سبب مخلوق ، ولما توقف حكم الإرادة على حكم العلم قال :« إِذا أَرَدْناهُ »فجاء بظرف الزمان المستقبل في تعليق الإرادة ، والإرادة واحدة العين ، فانتقل حكمها من ترجيح بقاء الممكن في شيئية ثبوته إلى حكمها بترجيح ظهوره في شيئية وجوده ،

ص 480

[مسألة الوجود العيني والأعيان الثابتة]
والشيء هو الممكنات ، وأجناسها محصورة في جوهر متحيز وجوهر غير متحيز ، وأكوان وألوان ، وما لا ينحصر هو وجود الأنواع والأشخاص« أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »فجعل سبحانه نسبة التكوين إلى نفس المأمور به ، والقدرة لا تتعلق بإيجاد الممكن إلا بعد تخصيص الإرادة ، كما لا تتمكن القدرة من الممكن حتى يأتيه أمر الآمر من ربه ، فإذا أمره بالتكوين وقال له« كُنْ »مكّن القدرة من نفسه ، وتعلقت القدرة بإيجاده ، فكونته من حينه ، فالاسم المريد هو المرجح والمخصص جانب الوجود على جانب العدم - مسئلة الوجود العيني والأعيان الثابتة - ما ورد في الشرع قط أن الله يشهد الغيوب ، وإنما ورد يعلم الغيوب ،
ولهذا وصف نفسه بالرؤية فقال :(أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى)
ووصف نفسه بالبصر وبالعلم ، ففرّق بين النسب وميز بعضها عن بعض ليعلم ما بينها ، ولما لم يتصور أن يكون في حق الله غيب ، علمنا أن الغيب أمر إضافي لما غاب عنا ، وما يلزم من شهود الشيء العلم بحده وحقيقته ، ويلزم من العلم بالشيء العلم بحده وحقيقته ، عدما كان أو وجودا ، وإلا فما علمته ، وقد وصف الحق نفسه بأنه(عَلَّامُ الْغُيُوبِ) *
والأشياء كلها مشهودة للحق في حال عدمها ، ولو لم تكن كذلك لما خصص بعضها بالإيجاد عن بعض ، إذ العدم المحض الذي ليس فيه أعيان ثابتة لا يقع فيه تمييز شهود ، بخلاف عدم الممكنات ، فكون العلم ميز الأشياء بعضها عن بعض وفصل بعضها عن بعض ، هو المعبر عنه بشهوده إياها وتعيينه لها ، أي هي بعينه يراها ، وإن كانت موصوفة بالعدم فما هي معدومة لله الحق من حيث علمه بها ، كما أن تصور الإنسان المخترع للأشياء صورة ما يريد اختراعها في نفسه ثم يبرزها ، فيظهر عينها لها ، فاتصفت بالوجود العيني ، وكانت في حال عدمها موصوفة بالوجود الذهني في حقنا ، والوجود العلمي في حق الله ، فظهور الأشياء من وجود إلى وجود ، من وجود علمي إلى وجود عيني . واعلم أن الطبيعة للأمر الإلهي محل ظهور أعيان الأجسام ، فيها تكونت وعنها ظهرت ، فأمر بلا طبيعة لا يكون ، وطبيعة بلا أمر لا تكون ، فالكون متوقف على الأمرين ، ولا تقل إن الله قادر على إيجاد شيء من غير أن ينفعل أمر آخر ،
فإن الله يرد عليك في ذلك بقوله :« إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »فتلك الشيئية العامة لكل شيء خاص - وهو الذي وقع فيها الاشتراك - هي التي أثبتناها ، وإن الأمر الإلهي عليها يتوجه لظهور شيء خاص في تلك الشيئية المطلقة ، فإذا ظهرت الأجسام أو الأجساد

ص 481

ظهرت الصور والأشكال والأعراض وجميع القوى الروحانية والحسية ، وربما قيل
: هو المعبر عنها بلسان الشرع العماء الذي هو للحق قبل خلق الخلق ، ما تحته هواء
وما فوقه هواء ، فذكره وسماه باسم موجود يقبل الصور والأشكال ، وعلى ذلك فثبوت
عين الممكن في العدم به يكون التهيؤ لقبول الآثار ، وثبوته في العدم كالبذر لشجرة
الوجود ، فهو في العدم بذرة وفي الوجود شجرة .

ثبوت العين في الإمكان بذر *** ولولا البذر لم يك ثم نبت
ظهوري عن ثبوتي دون أمر *** إلهي محال حين كنت
فلو لا ثبوت العين ما كان مشهودا *** ولا قال كن كونا ولا كان مقصودا
فما زال حكم العين لله عابدا *** وما زال كون الحق للعين معبودا
فلما كساه الحق حلة كونه *** وقد كان قبل الكون في الكون مفقودا
تكونت الأحكام فيه بكونه *** فما زال سجّادا فقيدا وموجودا

وحكم الثبوت بين الله والخلق خلاف حكم الوجود ، فبحكم الوجود يكون الخلق هو
الذي ثنى وجود الحق ، وليس لحكم الثبوت هذا المقام ، فإن الخلق والحق معا في
الثبوت ، وليس معا في الوجود

ولنشرح لك ذلك المعنى : اعلم أن **المعلومات ثلاثة لا رابع لها ،**
وهي الوجود المطلق الذي لا يتقيد ، وهو وجود الله تعالى الواجب الوجود لنفسه ،
والمعلوم الآخر العدم المطلق الذي هو عدم لنفسه ، وهو الذي لا يتقيد أصلا وهو
المحال ، وهو في مقابلة الوجود المطلق ،
فكانا على السواء حتى لو اتصفا لحكم الوزن عليهما ، وما من نقيضين إلا **وبينهما**
فاصل ، به يتميز كل واحد من الآخر ، وهو المانع أن يتصف الواحد بصفة الآخر ،
وهذا الفاصل الذي بين الوجود المطلق والعدم المطلق ، لو حكم الميزان عليه لكان
على السواء في المقدار من غير زيادة ولا نقصان ،
وهذا هو البرزخ الأعلى ، وهو برزخ البرازخ ، له وجه إلى الوجود ووجه إلى العدم
، فهو يقابل كل واحد من المعلومين بذاته ،
وهو المعلوم الثالث ، وفيه جميع الممكنات ، وهي لا تتناهى ،
كما أنه كل واحد من المعلومين لا يتناهى ، وللممكنات في هذا البرزخ أعيان ثابتة من
الوجه الذي ينظر إليها الوجود المطلق ،
ومن هذا الوجه ينطلق عليها اسم الشيء الذي إذا أراد الحق إيجاده قال له : كن فيكون
،

ص 482

وليس له أعيان موجودة من الوجه الذي ينظر إليه منه العدم المطلق ، ولهذا يقال له : كن ، وكن حرف وجودي ، فإنه لو أنه كائن ما قيل له :« كُنْ »وهذه الممكنات في هذا البرزخ بما هي عليه وما تكون إذا كانت مما تتصف به من الأحوال والأعراض والصفات والأكوان ، وهذا هو العالم الذي لا يتناهى ، وما له طرف ينته إليه ، ومن هذا البرزخ وجود الممكنات ، وبها يتعلق رؤية الحق للأشياء قبل كونها ، وكل إنسان ذي خيال وتخيل إذا تخيل أمرا ما ، فإن نظره يمتد إلى هذا البرزخ ، وهو لا يدري أنه ناظر ذلك الشيء في هذه الحضرة ، وهذه الموجودات الممكنات التي أوجدها الحق تعالى ،

هي للأعيان التي يتضمنها هذا البرزخ بمنزلة الظلالات للأجسام ، ولما كان الظل في حكم الزوال لا في حكم الثبات ،

وكانت الممكنات وإن وجدت في حكم العدم سميت ظلالات ، ليفصل بينها وبين من له الثبات المطلق في الوجود **- وهو واجب الوجود –**

وبين ما له الثبات المطلق في العدم **- وهو المحال -** لتتميز المراتب ،

فالأعيان الموجودات إذا ظهرت ففي هذا البرزخ هي ، فإنه ما ثمّ حضرة تخرج إليها ففيها تكتسب حالة الوجود ، والوجود فيها متناه ما حصل منه ، والإيجاد فيها لا يتناهى ، فما من صورة موجودة إلا والعين الثابتة عينها والوجود كالثوب عليها ،

<u>والعجب من الأشاعرة كيف تنكر على من يقول</u> :

إن المعدوم شيء في حال عدمه وله عين ثابتة يطرأ على تلك العين الوجود ، وهي تثبت الأحوال ، اللهم منكر الأحوال لا يتمكن له هذا ،

ثم إن هذا البرزخ الذي هو الممكن بين الوجود والعدم ، سبب نسبة الثبوت إليه مع نسبة العدم هو مقابلته للأمرين بذاته ،

فالممكن ما هو - من حيث ثبوته - عين الحق ولا غيره ، ولا هو من حيث عدمه عين المحال ولا غيره ، فكأنه أمر إضافي ،

ولهذا نزعت طائفة إلى نفي الممكن وقالت : ما ثمّ إلا واجب أو محال ولم يتعقل لها الإمكان ، فالممكنات على ما قررناه أعيان ثابتة من تجلي الحق ، معدومة من تجلي العدم ، ومن هذه الحضرة علم الحق نفسه فعلم العالم ، وعلمه له بنفسه أزلا ،

فإن التجلي أزلا ، وتعلق علمه بالعالم أزلا على ما يكون العالم عليه أبدا مما ليس حاله الوجود ، لا يزيد الحق به علما ولا يستفيد رؤية ، تعالى الله عن الزيادة في نفسه والاستفادة ،

وقوله تعالى« إِذا أَرَدْناهُ »هنا الإرادة تعلق المشيئة بالمراد ،

قال عليه السلام : [ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن]

فالممكن ما خرج عن حضرة الإمكان لا في حال وجوده ولا في حال عدمه ،

والتجلي له

ص 483

مستصحب والأحوال عليه تتحول وتطرأ ، فهو بين حال عدمي وحال وجودي ،
والعين هي تلك العين فما في الوجود إلا الله تعالى وأسماؤه وأفعاله ، فهو الأول من
الاسم الظاهر ، وهو الآخر من الاسم الباطن ،
فالوجود كله حق فما فيه شيء من الباطل ، إذ كان المفهوم من إطلاق لفظ الباطل
عدما فيما ادعى صاحبه أنه موجود ، ولو لم يكن الأمر كذلك لانفرد الخلق بالفعل ولم
يكن الاقتدار الإلهي يعمّ جميع الكائنات ، بل كانت الإمكانات تزول عنه ،
فسبحان الظاهر الذي لا يخفى ، وسبحان الخفي الذي لا يظهر ، حجب الخلق به عن
معرفته وأعماهم بشدة ظهوره ، فهم منكرون مقرون ، مترددون حائرون ، مصيبون
مخطئون ،
ومن أراد أن يعرف حقيقة ما أومأت إليه في هذه المسألة فلينظر خيال الستارة
وصوره ، ومن الناطق من تلك الصور عند الصبيان الصغار ، الذين بعدوا عن
حجاب الستارة المضروبة بينهم وبين اللاعب بتلك الأشخاص والناطق فيها ،
فالأمر كذلك في صور العالم ، والناس أكثرهم أولئك الصغار الذين فرضناهم ،
فالصغار في المجلس يفرحون ويطربون ، والغافلون يتخذونه لهوا ولعبا ، والعلماء
يعتبرون ويعلمون أن الله ما نصب هذا إلا مثلا لعباده ليعتبروا ، وليعلموا أن أمر
العالم مع الله مثل هذه الصور مع محركها ،
وأن هذه الستارة حجاب سر القدر المحكّم في الخلائق ، ولما كان تقدم العدم للممكنات
نعتا نفسيا ، لأن الممكن يستحيل عليه الوجود أزلا ، فلم يبق إلا أن يكون أزلي العدم ،
فتقدم العدم له نعت نفسي ، والممكنات متميزة الحقائق والصور في ذاتها ، لأن
الحقائق تعطي ذلك ، فلما أراد الله أن يلبسها حالة الوجود خاطبها من حيث حقائقها ،
فقال :« إِنَّما قَوْلُنا »من كونه تعالى متكلما »لِشَيْءٍ »
وهو المخاطب من الممكنات في شيئية ثبوتها ، فسماه شيئا في حال لم تكن فيه الشيئية
المنفية بقوله ولم يكن شيئا ، فهي الشيئية المتوجه عليها أمره بالتكوين إلى شيئية
أخرى ،
فإن الممكنات في حال عدمها بين يدي الحق ينظر إليها ويميز بعضها عن بعض بما
هي عليه من الحقائق في شيئية ثبوتها ، ينظر إليها بعين أسمائه الحسنى ، وترتيب
إيجاد الممكنات يقتضي بتقدم بعضها على بعض ،
وهذا ما لا يقدر على إنكاره ، فإنه الواقع ، فالدخول في شيئية الوجود إنما وقع مرتبا
بخلاف ما هي عليه في شيئية الثبوت ، فإنها كلها غير مرتبة ، لأن ثبوتها منعوت
بالأزل لها ، والأزل لا ترتيب فيه ولا تقدم ولا تأخر ،
فتوقف حكم الإرادة على حكم العلم ، ولهذا قال تعالى :« إِذا أَرَدْناهُ »فجاء بظرف
الزمان المستقبل في تعليق

ص 484

الإرادة ، فأدخل الله تعلق إرادته تحت حكم الزمان ، فجاء بإذا وهي من صيغ الزمان ، والزمان قد يكون مرادا ولا يصح فيه إذا ، لأنه لم يكن بعد فيكون له حكم ، والإرادة واحدة العين ، فانتقل حكمها من ترجيح بقاء الممكن في شيئية ثبوته إلى حكمها بترجيح ظهوره في شيئية وجوده ،

فقوله تعالى :« إِذا أَرَدْناهُ »

هو التوجه الإلهي على الشيء في حال عدمه" أَنْ نَقُولَ لَهُ "

وهو قوله لكل شيء يريده وذلك من كون الحق متكلما ، وما يؤمر إلا من يسمع بسمع ثبوتي أو وجودي ، يسمع الأمر الإلهي« كُنْ »

بالمعنى الذي يليق بجلاله ، وكن حرف وجودي ، أو إن شئت أمر وجودي ، فما ظهر عنها إلا ما يناسبها ، فلا يكون عن هذا الحرف إلا الوجود ، ما يكون عنه عدم ، لأن العدم لا يكون ، لأن الكون وجود ، وكن كلمة وجودية من التكوين ، فكن عين ما تكلم به ، وهو الأمر الذي لا يمكن للمأمور به مخالفته ، لا الأمر بالأفعال والتروك ، فظهر عن هذا الأمر الذي قيل له« كُنْ »فيكون ذلك الشيء في عينه ، فيتصف ذلك المكوّن بالوجود بعد ما كان يوصف بأنه غير موجود ،

فإذا ظهر عن قوله« كُنْ »لبس شيئية الوجود ، وهي على الحقيقة شيئية الظهور ، ظهور لعينه ،

وإن كان في شيئية ثبوته ظاهرا متميزا عن غيره بحقيقته ، ولكن لربه لا لنفسه ، فما ظهر لنفسه إلا بعد تعلق الأمر الإلهي من قوله« كُنْ »بظهوره ، فاكتسب ظهوره لنفسه ، فعرف نفسه وشاهد عينه ، فاستحال من شيئية ثبوته إلى شيئية وجوده ، وإن شئت قلت استحال في نفسه من كونه لم يكن ظاهرا لنفسه إلى حالة ظهر بها لنفسه ، فما ثمّ إلا الله والتوجه وقبول الممكنات لما أراد الله بذلك . وأضاف الله التكوين إلى الذي يكون لا إلى الحق ولا إلى القدرة ، بل أمر فامتثل السامع في حال عدم شيئيته وثبوته أمر الحق بسمع ثبوتي ، فأمره قدرته ، وقبول المأمور بالتكوين استعداده ، فإن الممكنات لها الإدراكات في حال عدمها ، ولذا جاء في الشرع أن الله يأمر الممكن بالتكوين فيتكون ، فلو لا أن له حقيقة السمع ، وأنه مدرك أمر الحق إذا توجه عليه لم يتكون ، ولا وصفه الله بالتكوين ، ولا وصف نفسه بالقول لذلك الشيء المنعوت بالعدم ، فتعلق الخطاب بالأمر لهذه العين المخصصة بأن تكون ، فامتثلت فكانت ، فلو لا ما كان للممكن عين ولا وصف لها بالوجود ، يتوجه على تلك العين الأمر بالوجود لما وقع الوجود ، فالمأمور به إنما هو الوجود ، ولذلك أعلمنا الله أنه خاطب الأشياء في حال عدمها ، وأنها امتثلت أمره عند

ص 485

بالنعوت التي لها في حال وجودها ما وصفها الحق بما وصفها به من ذلك ، وهو الصادق المخبر بحقائق الأشياء على ما هي عليه ، فما ظهرت أعيان الموجودات إلا بالحال التي كانت عليه في حال العدم ، فما استفادت إلا الوجود من حيث أعيانها ومن حيث ما به بقاؤها ، فكل ما هي عليه الأعيان القائمة بأنفسها ذاتي لها ، وإن تغيرت عليها الأعراض والأمثال والأضداد ، إلا أن حكمها في حال عدمها ليس حكمها في حال وجودها من حيث أمر ما ، وذلك لأن حكمها في حال عدمها ذاتي لها ليس للحق فيها حكم ، ولو كان لم يكن لها العدم صفة ذاتية ، فلا تزال الممكنات في حال عدمها ناظرة إلى الحق بما هي عليه من الأحوال لا يتبدل عليها حال حتى تتصف بالوجود ، فتتغير عليها الأحوال للعدم الذي يسرع إلى ما به بقاء العين ، وليست كذلك في حال العدم ، فإنه لا يتغير عليها شيء في حال العدم ، بل الأمر الذي هي عليه في نفسها ثابت ، إذ لو زال لم تزل إلا إلى الوجود ، ولا يزول إلى الوجود إلا إذا اتصفت العين القائم به هذا الممكن الخاص بالوجود ، فالأمر بين وجود وعدم في أعيان ثابتة على أحوال خاصة« فَيَكُونُ »يعني حكم ما توجه عليه أمر« كُنْ »كان ما كان ، فيعدم به ويوجد ، فليس متعلقه إلا الأثر ، فترى الكائنات ما ظهرت ولا تكونت من شيئيتها الثابتة إلا بالفهم لا بعدم الفهم ، لأنها فهمت معنى« كُنْ »فتكونت ، ولهذا قال« فَيَكُونُ »يعني ذلك الشيء ، لأنه فهم عند السماع ما أراد بقوله« كُنْ »فبادر لفهمه دون غير التكوين من الحالات ، وكذلك يكون الانتقال من حال إلى حال ، أي من حال يكون عليه السامع إلى حال يعطيه سماعه عند كلام المتكلم ، وسمي ذلك بالحركة من العدم إلى الوجود ، فكان للأعيان في ظهورها شيئية وجودية ، فسميت هذه الحركة بالوجد لحصول الوجود عندها ، أعني وجود الحكم ، سواء كان بعين ، أي في تقلبه أثناء وجوده من حال إلى حال ، أو بلا عين قبل إبرازه من العدم إلى الوجود ، فإنه عين في نفسه هذا الكائن ، أي له عين ثابتة في العلم يتوجه عليها الخطاب ، فتسمع فتمتثل ، فعندنا قوله تعالى :« فَيَكُونُ »ما هو قبول التكوين وإنما قبوله للتكوين ، أن يكون مظهرا للحق ، فهذا معنى قوله« فَيَكُونُ »لا أنه استفاد وجودا ، وإنما استفاد حكم المظهرية حيث أنه قبل السماع من حيث عينه الثابتة الموجودة فالحق عين كل شيء في الظهور وما هو عين الأشياء في ذواتها سبحانه وتعالى ، بل هو هو والأشياء

ص 456

[مسائل مستفادة من قوله تعالى : « إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ «]
أشياء ، فلولا الحق ما تميزت الموجودات بعضها عن بعض ولكان الأمر عينا واحدا ، فعين تمييز الحق لها وجودها ، وعين تمييز بعضها عن بعض فلأنفسها ، ولذلك لم تزد كلمة الحضرة في كل كائن عنها على كلمة« كُنْ »شيئا آخر ، بل انسحب على كل كائن عين« كُنْ »لا غير ، فلو وقفنا مع كن لم نر إلا عينا واحدة ، وإنما وقفنا مع أثر هذه الكلمة وهي المكونات ،
فكثرت وتعددت وتميزت بأشخاصها ، فلما اجتمعت في عين حدها علمنا أن هذه الحقيقة وجدت كلمة الحق فيها وهي كلمة كن ، وكن أمر وجودي لا يعلم منه إلا الإيجاد والوجود ،
ولهذا لا يقال للموجود كن عدما ، ولا يقال له كن معدوما لاستحالة ذلك ، فالعدم نفسي لبعض الموجودات ، ولبعضها تابع لعدم شرطه المصحح لوجوده ، وبهذه الحقيقة كان الله خلاقا دائما وحافظا دائما ، والخلاصة هي أن الله سبحانه يرانا في حال عدمنا في شيئية ثبوتنا كما يرانا في حال وجودنا ،
لأنه تعالى ما في حقه غيب ، فكل حال له شهادة ، فيتجلى تعالى للأشياء التي يريد إيجادها في حال عدمها من اسمه النور تعالى ، فينفهق على تلك الأعيان أنوار هذا التجلي فتستعد لقبول الإيجاد ، فيقول له عند هذا الاستعداد « كن » فيكون من حينه من غير تثبط - مسائل مستفادة من هذه الآية
- **المسألة الأولى** - اعلم أن القول والكلام نعتان لله ، فبالقول يسمع المعدوم ، وهو قوله تعالى :« إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »وبالكلام يسمع الموجود ،
وهو قوله تعالى :(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً)وقد يطلق الكلام على الترجمة في لسان المترجم وينسب الكلام إلى المترجم عنه في ذلك ، فالقول له أثر في المعدوم وهو الوجود ، والكلام له أثر في الموجود وهو العلم
- **المسألة الثانية** - لم يرد نص عن الله ولا عن رسوله في مخلوق أنه أعطي« كُنْ »سوى الإنسان خاصة ، فظهر ذلك في وقت في النبي صلّى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فقال : كن أبا ذر ، فكان أبو ذر ، وورد في الخبر في أهل الجنة أن الملك يأتي إليهم فيقول لهم بعد أن يستأذن في الدخول عليهم ، فإذا دخل ناولهم كتابا من عند الله بعد أن يسلم عليهم من الله ، فإذا في الكتاب لكل إنسان يخاطب به ، من الحي القيوم الذي لا يموت إلى الحي القيوم الذي لا يموت ، أما بعد فإني أقول للشيء كن فيكون ، وقد جعلتك تقول للشيء كن فيكون ، فقال صلّى الله عليه وسلم : فلا يقول أحد من أهل الجنة للشيء كن إلا ويكون
- **المسألة الثالثة** - اعلم أن للأسباب أحكاما في المسببات فهي كالآلة للصانع ، فتضاف

ص 487

الصنعة والمصنوع للصانع لا للآلة ، وسببه أن لا علم للآلة بما في نفس الصانع أن يصنع بها على التعيين ، بل لها العلم بأنها آلة للصنع الذي تعطيه حقيقتها ، ولا عمل للصانع إلا بها ، فصنع الآلة ذاتي ، وما لجانب الصانع بها إرادي ، وهو قوله تعالى :« إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ »وكن آلة الإيجاد ، فما أوجد إلا بها ، وكون تلك الكلمة ذاته أو أمرا زائدا علم آخر ، إنما المراد هو فهم هذا المعنى وأنه ما حصل الإيجاد بمجرد الإرادة دون القول ودون المريد والقائل ، فظهر حكم الأسباب في المسببات ، فلا يزيل حكمها إلا جاهل بوضعها وما تعطيه أعيانها - المسألة الرابعة - المعلول لولا علته ما ظهرت له عين ، والعالم لولا الله ما وجد في عينه ، والعين عند العرب تذكر وتؤنث وذلك لأجل التناسل الواقع بين الذكر والأنثى ، ولهذه الحقيقة جاء الإيجاد الإلهي بالقول وهو مذكر ، والإرادة وهي مؤنثة ، فأوجد العالم عن قول وإرادة ، فظهر عن اسم مذكر ومؤنث ،
فقال :« إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ »وشيء أنكر النكرات والقول مذكر« إِذا أَرَدْناهُ »والإرادة مؤنثة« أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »فظهر التكوين في الإرادة عن القول ، والعين واحدة بلا شك ، والأمر في نفسه صعب تصوره ، من الوجه الذي يطلبه الفكر ، سهل في غاية السهولة من الوجه الذي قرره الشرع ، فالفكر يقول : ما ثمّ شيء ثم ظهر شيء من لا شيء ، والشرع يقول وهو القول الحق :بل ثمّ شيء فصار كونا * وكان غيبا فصار عينا

[سورة النحل (16) : الآيات 41 إلى 43]
وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (43)
[« فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ »]
« فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ »فألحق أهل الذكر بالعلماء ، وأمرنا الله أن نسأل أهل الذكر وهم أهل القرآن ، لأنهم ما يخبرون إلا عنه ، لأنهم جلساء الحق ، فما يخبر الذاكر الذي يشهد الله فيه أنه ذاكر له إلا عن جليسه ، فيخبر بالأمر على ما هو عليه ، وذلك

ص 488

هو العلم ، فإنه على بينة من ربه ، ولو لم يكن عند الذاكرين بهذه المثابة لم يكن بينهم وبين غيرهم من البشر فرقان ، فإنه تعالى معهم حيثما كانوا وأينما كانوا ، فلا بد أن يكون مع الذاكرين له بمعية اختصاص ، وما ثمّ إلا مزيد علم ، به يظهر الفضل ، فكل ذاكر لا يزيد علما في ذكره بمذكوره فليس بذاكر وإن ذكر بلسانه ، لأن الذاكر هو الذي يعمه الذكر كله ، فذلك هو جليس الحق ، فلا بد من حصول الفائدة - وجه - أهل الذكر هم أهل القرآن فإن الله تعالى يقول :(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ)
وهو القرآن الذين يعملون به ، وهم أهل الله وخاصته ، وهم أهل الاجتهاد ومنهم المصيب والمخطئ ، فيتعين على المقلد إذا لم يعلم ،
السؤال عن الحكم في الواقعة لمن يعلم أنه يعلم من أهل الذكر ، فيفتيه ، فإن قال له : هذا حكم الله أو حكم رسوله أخذ به ،
وإن قال له : هذا رأيي كما يقول أصحاب الرأي في كتبهم فإنه يحرم عليه اتباعه فيه ، فإن الله ما تعبده إلا بما شرع له في كتاب أو سنة ، وما تعبد الله أحدا برأي أحد ، والأشياخ يسألون ولا يقتدى بأفعالهم إلا إن أمروا بذلك في أفعال معينة ، قال تعالى »:فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ »وهم أهل القرآن أهل الله وخاصته ، وأهل القرآن هم الذين يعملون به ، وهو الميزان المشروع من الله تعالى ، فلا ينبغي أن يقتدى بفعل أحد دون رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فإن أحوال الناس تختلف ، فقد يكون عين ما يصلح للواحد يفسد به الآخر إن عمل به ، وإذا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد اختلف الناس في أفعاله هل هي على الوجوب أم لا ؟ فكيف بغيره مع قوله الله تعالى :(لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)وقوله(فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)؟ وهذا كله ليس بنص منه في وجوب الاتباع في أفعاله ، فإنه صلّى الله عليه وسلم قد اختص بأشياء لا يجوز لنا اتباعه فيها ، ولو اقتدينا به فيها كنا عاصين مأثومين .

[سورة النحل (16) : آية 44]
بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44).
وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »بعد تبليغه ، فما اكتفى الله بنزول الكتب الإلهية حتى جعل الرسل المترجمين عن الله تبيّن ما أنزل الله على عباده ، تبيّن ما فيها لما في العبارة من الإجمال وما تطلبه من التفصيل ، ولا تفصل العبارة إلا بالعبارة ، فنابت الرسل مناب الحق في التفصيل فيما لم يفصله وأجمله ، فما أبان عنه الرسول وما فصّله فهو تفصيل

ص 489

ما نزل ، لا عين ما نزل ، ويقع البيان بعبارة خاصة ويعقل بأي شيء كان ، فلو لا البيان ما فصل بين المتشابه والمحكم ، فلو لم ينزل المتشابه لنعلم أنه متشابه لم يعلم أنه ثمّ في علم الله ، ما يكون متشابها ، وهذا غاية البيان حيث أبان لنا أن ثمّ ما يعلم وثمّ ما لا يعلمه إلا الله ، وقد يمكن أن يعلّمه الله من يشاء من خلقه بأي وجه شاء أن يعلمه ، فالرسول ملزم بتبيين ما جاء به حتى يفهم عنه لإقامة الحجة على المبلغ إليه ، وعلمنا أن كل رواية ترفع الإشكال هي الصحيحة وإن ضعفت عند أهل النقل .

[سورة النحل : (16) الآيات 45 إلى 48]

أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (47) أَ وَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ (48)

" أَ وَلَمْ يَرَوْا »خاطب بذلك أهل الكشف وهم عامة الإنس وكل عاقل ، فخاطبهم بالنعيم البصري« إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ »الضمير في ظلاله يعود على الشيء ، وقد قلنا : إن الأجساد ظلال الأرواح ، وإن الموجودات الممكنات التي أوجدها الحق تعالى هي للأعيان التي يتضمنها برزخ الممكنات بمنزلة الظلالات للأجساد ،
فقال تعالى :« عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ »وهو ما قلنا في الآية السابقة : فما زال سجادا فقيدا وموجودا ، فالأعيان الثابتة ساجدة للّه ، وظلالها وهي الأعيان الموجودة تخرج على صورتها ساجدة للّه ، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أن ذلك التفيؤ يمينا وشمالا أنه سجود للّه وصغار وذلة لجلاله ، ولذلك قال :« وَهُمْ داخِرُونَ »أي أذلاء ، فوصفهم بعقليتهم أنفسهم حتى سجدوا للّه داخرين ، ثم أخبر فقال متمما .

[سورة النحل (16) : آية 49]

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (49)

ص 490

"وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ »أي ممن يدب عليها ، يقول
يمشي« وَهُمْ »يعني أهل السماوات ، فكل ما في السماوات والأرض موصوف
بالسجود دائما لافتقاره ، ومن افتقر فقد كسر فقار ظهره ، فلا يتمكن له أن يرفع رأسه
أبدا ، فالعالم الذي هو ما عدا الثقلين ساجد للّه ، فهو مطيع قائم بما تعين عليه من عبادة
خالقه ومنشيه »وَالْمَلائِكَةُ »يعني التي ليست في سماء ولا أرض« وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ
»يعني عن عبادة ربهم .

[سورة النحل (16) : آية 50]

يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (50)

ثم وصفهم بالخوف ليعلمنا أنهم عالمون بمن سجدوا له ، فأفعالهم أفعال الخائفين ،
وخوفهم خوف نزول عن مرتبة إلى مرتبة أدنى ، ولا سيما وقد روي أن إبليس كان
من أعبد الخلق للّه تعالى ، وحصل له الطرد والبعد من السعادة التي كان يرجوها في
عبادته للّه تعالى لما حقّت عليه كلمة العذاب ، وقوله تعالى« مِنْ فَوْقِهِمْ »فوصف نفسه
تعالى بالفوقية لشرفها ، فهي فوقية مرتبة ، ثم وصف المأمورين منهم أنهم« يَفْعَلُونَ
ما يُؤْمَرُونَ »وهم الذين قال فيهم(لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ
)وتتضمن هذه السجدة سجود العالم الأعلى والأدنى في مقام الذلة والخوف ، والسجود
عند قوله تعالى :« وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ »ولما كان الحق قد ذكر الملائكة وسجودها
في سورة الأعراف ، والظلال وسجودها في سورة الرعد ، وسجدت الملائكة في
سورة الأعراف سجود اختيار لما يقتضيه جلال الله ، أثنى الله عزّ وجل عليهم هنا
بأنهم« يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ »فسجدوا شكرا للّه لما أثنى الله عزّ وجل عليهم بما وفقهم
إليه من امتثال أوامره ، وشرع للعبد هنا أن يسجدها رغبة في أن يكون ممن أثنى الله
عليه بما أثنى على ملائكته ، فهي للعبد سجود ذلة وخضوع ، فإنه قد ذكر قبل هذه
السجدة(أَ وَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ)والضمير في ظلاله يعود
على الشيء المخلوق ثم قال)عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ)أي أذلاء
فهو سجود ذلة وخضوع .

[سورة النحل (16) : الآيات 51 إلى 53]

وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ(53)

ص 491

الإنسان إذا أصابه الضر وانقطعت به الأسباب ، وهو أشد العذاب ، ذكر ربه فرجع إليه مضطرا لا مختارا .

[سورة النحل (16) : الآيات 54 إلى 57]
ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (57)

فجعلوا لله ما يكرهون فقالوا : الملائكة بنات الله ، فحكموا عليه بأنه اصطفى البنات على البنين ، فتوجه عليهم الحكم بالإنكار في حكمهم مع كونهم يكرهون ذلك لنفوسهم.

[سورة النحل (16) : الآيات 58 إلى 60]
وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(60)
وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى »أي الوصف الأعلى عند التجلي في الصور الثابت نقلا لا عقلا ، فإن رؤية الله من محارات العقول ومما يوقف عندها »وَهُوَ الْعَزِيزُ »الذي لا يرى من حيث

ص 492

هويته« الْحَكِيمُ »في تجليه حتى يقال إنه رؤي .

[سورة النحل (16) : الآيات 61 إلى 62]

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62)

كان المشركون يكرهون نسبة البنات إليهم ثم إنهم قالوا : إن الملائكة بنات الله وأخبرنا الله بذلك في قوله :« وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ »فإنهم كانوا يكرهون البنات ، وبهذا أخبرنا الله عنهم في قوله تعالى:

(وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ).

[سورة النحل (16) : الآيات 63 إلى 65]

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (63) وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65)

حقيقة السمع الفهم عن الله تعالى فيما يتلوه عليك .

[سورة النحل (16) : الآيات 66 إلى 68]

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(68)

ص 493

لما خلق الله تعالى كل شيء حيا ناطقا ، جمادا كان أو نباتا أو حيوانا ، في العالم الأعلى والأسفل ، مصداق ذلك قوله تعالى :
(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)
جاز بل وقع وصح أن يخاطب الحق جميع الموجودات ويوحي إليها فقال :« وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ »
[الشكل السداسي في بيوت النحل]
الستة أكمل الأعداد ، وليس في الأشكال شكل فيه زوايا إذا انضمت إليها الأمثال لم يكن بينها خلو إلا الستة ، وبها أوحى الله إلى النحل في قوله في هذه الآية« وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »فأوحى إليها بصفة عملها ، فعملت بيوتها مسدسة الشكل ، وهو أكمل الأشكال لأنه لا يدخله خلاء ويقارب الاستدارة مع ظهور الزوايا ، فهو لا يقبل الخلل مع الكثرة فيظهر الخلو ، والمستدير ليس كذلك ، وإن أشبه غيره في عدم قبول الخلل كالمربع ، فإنه يبعد عن المستدير ، ووصف الشكل المستدير بالكمال لأنه يظهر عن نصفه وثلثه وسدسه فيقوم من عين أجزائه ، فلو لا ما فهمت النحل من الله وحيه لما صدر منها ما صدر ، وهذا من النبوة سارية في الحيوان والنبات والجماد قال تعالى):كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)فالنبوة سارية في كل موجود ، لكنه لا ينطلق من ذلك اسم نبي ولا رسول على واحد منهم إلا على الملائكة خاصة والرسل منهم وهم المسمون الملائكة ، وقد يكون ذلك علما ضروريا في أصل الخلقة ، فيريد الله بذلك أنه فطرها في أصل نشأتها على ذلك .

[سورة النحل : (16) آية 69]
ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(69)
« فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ »وهو ما شرع الله لها من السبل أن تسلكها »ذُلُلًا »فتدل هذه الآية على أن لكل شيء من المخلوقات كلاما يخصه يعلمه الله ، ويسمعه من فتح الله سمعه لإدراكه« يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ »فعمّر النحل بيته بالعسل ، وما ذكر الله مضرة العسل وأن بعض الأمزجة يضره استعماله ، ولكن ما تعرض لذلك ،
ص 494

أي أن المقصود منه الشفاء بالوجود ، كما المقصود بالغيث إيجاد الرزق الذي يكون عن نزوله بالقصد وإن هدم الغيث بيت الشيخ الفقير الضعيف ، فما كان رحمة في حقه من هذه الجهة الخاصة ، ولكن ما هي بالقصد العام الذي له نزل المطر ، وإنما كان من استعداد القابل للتهدم لضعف البنيان ، كما كان الضرر الواقع لآكل العسل من استعداد مزاجه لم يكن بالقصد العام ، جاء رجل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال : إن أخي استطلق بطنه ، فقال : اسقه عسلا ، فسقاه عسلا ، فزاد استطلاقه ، فرجع فأخبره ، فقال : اسقه عسلا ، فزاد استطلاقه ، وما علم هذا الرجل ما علمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من ذلك ، فإنه كان في المحل فضلات مضرة لا يمكن إخراجها إلا بشرب العسل ، فإذا زالت عنه أعقبته العافية والشفاء ، فلما رجع إليه قال له : يا رسول اللّه سقيته عسلا فزاد استطلاقه ، فقال : صدق اللّه وكذب بطن أخيك ، اسقه عسلا في الثالثة ، فسقاه فبرأ ، فإنه استوفى خروج الفضلات المضرة.

[سورة النحل (16) : آية 70]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70)

« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ »وهو الهرم الكائن عن مرور الزمان ، وهو قوله تعالى :(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً)وهو رجوع إلى الضعف الأول إلى أرذل العمر ، وأرذل العمر ما لا يحصل لنا فيه علم ، فيفارق الإنسان فيه ما كان يعلمه ، فقال :« لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً »فإما أن يكون منع الزيادة ، وإما أن يكون اتصف بعدم العلم في حال الهرم ، لشغله بما هو عليه من الضعف المفرط .

[سورة النحل (16) : الآيات 71 إلى 74]

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(74)

ص 495

[سورة النحل (16) : الآيات 72 إلى 74]
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (74)
[فلا تضربوا لله الأمثال]
-الوجه الأول - نهينا أن نضرب الأمثال لله لجهلنا بالنسب التي هي بها أمثال ، فقال تعالى » : فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ « فإن الله هو الذي يضرب الأمثال للناس لعلمه بمواقعها ، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم ، فهو عزّ وجل يضرب لنا الأمثال بما له وجود في عينه ، ونحن لسنا كذلك إلا بحكم المصادفة ، فنضرب المثل إذا ضربناه بما له وجود في عينه وبما لا وجود له إلا في تصورنا ، فالله يضرب الأمثال لنفسه ولا تضرب له الأمثال ، فيشبه الأشياء ولا تشبهه الأشياء ،
فيقال : مثل الله في خلقه مثل الملك في ملكه ، ولا يقال مثل الملك في ملكه مثل الله في خلقه ، فإنه عين ما ظهر ، وليس ما ظهر هو عينه ،
فإنه الباطن كما هو الظاهر في حال ظهوره ،
فلهذا قلنا : هو مثل الأشياء وليست الأشياء مثله ، إذ كان عينها وليست عينه ، فإن الممكن ما استفاد الوجود وإنما استفاد حكم المظهرية ،
وهو قوله تعالى للشيء : كن فيكون ، فقبوله للتكوين هو أن يكون مظهرا للحق ،
فالحق عين كل شيء في الظهور ما هو عين الأشياء في ذواتها ، سبحانه وتعالى ، بل هو هو والأشياء أشياء ، ففي نفس الأمر ليس إلا وجود الحق ، والموصوف باستفادة الوجود هو على أصله ما انتقل من إمكانه ، فحكمه باق وعينه ثابتة ،
واعلم أن ما يشرك به الشيء من ليس مثله فهو مثله من ذلك الوجه الذي أشركه فيه خاصة ، وينفصل عنه بأمور أخر له فيها أمثال ، فما ثمّ معلوم ما له مثل جملة واحدة ، فما ثمّ إلا أمثال وأشباه ، ولذلك ضرب الله الأمثال ونهى عن ضربنا الأمثال له ، وعلل فقال : " إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ "
فمن علّمه الحق ضرب الأمثال ضربها على علم ، فلا يضرب الأمثال إلا العلماء بالله الذين تولى الله تعليمهم ، وليس إلا الأنبياء والأولياء ، وهو مقام وراء طور العقل ، يريد أنه لا يستقل العقل بإدراكه من حيث ما هو مفكر ،
فإن الذي عند العقل من العلم بالله من حيث فكره علم التنزيه ، وضرب الأمثال تشبيه ، وموضع التشبيه من ضرب المثل دقيق لا يعرفه إلا من عرف المشبه والمشبّه

به ، والمشبه به غير معروف ، فالأمر الذي يتحقق منه ضرب المثل له مجهول ، فالنظر فيه من حيث الفكر حرام على كل مؤمن ، وهو في نفس الأمر ممنوع الوصول إليه عند كل ذي عقل سليم ،
ولذلك قال الله تعالى :« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ »فضرب الله تعالى لنفسه الأمثال لأنه يعلم ونحن لا نعلم ، فإن الله يعلم كيف يضربها وأنتم لا تعلمون ، فناط بهم الجهل بالمواطن ، فيشهد الولي ما ضرب الله من الأمثال فيرى في ذلك الشهود عين الجامع الذي بين المثل وبين ما ضرب له ذلك المثل ، فهو عينه من حيث ذلك الجامع ، وما هو عينه من حيث ما هو مثل ، فالولي لا يضرب لله الأمثال بل هو يعرف ما ضرب الله له الأمثال

- الوجه الثاني – فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ »قال الله تعالى(اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ)أي صفة نوره ، يعني المضاف إلى السماوات والأرض ،(كَمِشْكاةٍ)إلى أن ذكر المصباح ومادته ، فقال(اللَّهُ) وما ضرب المثل للاسم الله ، وإنما عيّن سبحانه اسما آخر وهو(نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ)فضرب المثل بالمصباح لذلك الاسم النور المضاف ، فإن الله اسم جامع لجميع الأسماء الإلهية ، محيط بمعانيها كلها ، وضرب الأمثال يخص اسما واحدا معينا ، فإن ضربنا الأمثال لله وهو اسم جامع شامل فما طبقنا المثال على الممثل ،
فإن المثال خاص والممثل به مطلق ، فوقع الجهل بلا شك ، فنهينا أن نضرب المثل من هذا الوجه إلا أن نعين اسما خاصا ينطبق المثل عليه ، فحينئذ يصح ضرب المثل لذلك الاسم الخاص ، كما فعل الله في قوله تعالى (اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ)
فهمنا الله وإياكم مواقع خطابه ، وجعلنا ممن تأدب بما عرفناه من آدابه ، إنه اللطيف بأحبابه ، فإنه قال »فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ »فإني ما ضربتها ،
فافهموا« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ »فعلمنا سبحانه الأدب في النظر في أسمائه إذا أطلقناها عليه بالإضافة كيف نفعل ، وإذا أطلقناها عليه بغير الإضافة كيف نفعل ، فالعالم يقطع عمره في نظر ما ضرب الله له من الأمثال ولا يستنبط مثلا من نفسه ، ولا سيما لله ، وما أظن يفي عمر الإنسان بتحصيل ما ضرب الله له من الأمثال التي هي من عالم الخيال الذي انفرد الحق بعلمه في قوله« وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ».

[سورة النحل : (16) الآيات 75 إلى 77]
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (76) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(77)
ص 497

" وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ »ما سميت الساعة ساعة إلا لأنها تسعى إلينا بقطع هذه الأزمان لا بقطع المسافات وبقطع الأنفاس ، فمن مات وصلت إليه ساعته ، وقامت قيامته إلى يوم الساعة الكبرى ، التي هي لساعات الأنفاس كالسنة لمجموع الأيام التي تعينها الفصول باختلاف أيامها ، فأمر الساعة وشأنها في العالم أقرب من لمح البصر ، فإن عين وصولها عين حكمها ، وعين حكمها عين نفوذ الحكم في المحكوم عليهم ، وعين نفاذه عين تمامه ، وعين تمامه عين عمارة الدارين ، ففريق في الجنة وفريق في السعير ، ولا يعرف هذا القرب إلا من عرف قدرة الله في وجود الخيال في العالم الطبيعي ، وما يجده العالم به من الأمور الواسعة في النفس الفرد والطرفة ، ثم يرى أثر ذلك في الحس بعين الخيال ، فيعرف هذا القرب وتضاعف السنين في الزمن القليل من زمان الحياة الدنيا ، فشبّه تعالى الإمضاء بلمح البصر أو هو أقرب ، وكذلك هو أقرب ، فإن أمره تعالى في الموقف يوم القيامة وهو المقدار الزماني ، خمسون ألف سنة من أيام الدنيا ، وعدها اليوم الشمسي ، وهو يوم ذي المعارج ، فإن أمر الله فيه مثل لمح البصر ، للإفهام والتوصيل ، وربما هو في القلة أقل من هذا المقدار ، بل مقدارها الزمان الفرد المتوهم الذي هو يوم الشأن ، فكما صارت الخمسون ألف سنة كيوم واحد ، وفي يوم واحد ، كذلك صار أمره كلمح بالبصر ، وسبب ذلك أن الذي يصدر منه الأمر لا يتقيد ، فهو في كل مأمور بحيث أمر ، فينفذ الأمر بحكمه دفعة واحدة ، ولمح البصر كالبرق ، يضرب فيظهر ، ويظهر ويزول ، فلو بقي أهلك.

ص 498

[سورة النحل (16) : آية 78]
وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)
« وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً »وذلك مثل من ردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وما يلزم العالم حضوره دائما مع علمه ، فهكذا حال الجنين إذا خرج من بطن أمه« وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »اعلم أن الله أعطى كل شيء خلقه ، فأعطى السمع خلقه فلا يتعدى إدراكه ، وجعل العقل فقيرا إليه ، يستمد منه معرفة الأصوات وتقطيع الحروف وتغيير الألفاظ وتنوع اللغات ، فيفرق بين صوت الطير وهبوب الرياح وصرير الباب وخرير الماء وما أشبه هذه الأصوات كلها ، وليس في قوة العقل من حيث ذاته إدراك شيء من هذا ما لم يوصله إليه السمع ، وكذلك القوة البصرية جعل الله العقل فقيرا إليها فيما توصله إليه من المبصرات ، فلا يعرف الخضرة ولا الصفرة ولا ما بينهما من الألوان ما لم ينعم البصر على العقل بها ، وهكذا جميع القوى المعروفة بالحواس ، فالسمع والأبصار والأفئدة أنوار جعلها الله فيك تدرك بها الأشياء ، وقدّم تعالى السمع على العلم والبصر فإن أول شيء علمناه من الحق وتعلق به منا القول منه والسمع منا ، فكان عنه الوجود ، وكما لم يصح الوجود - أعني وجود العالم - إلا بالقول من الله والسماع من العالم ، لم يظهر وجود طرق السعادة وعلم الفرق بينها وبين طرق الشقاء إلا بالقول الإلهي والسماع الكوني ، فجاءت الرسل بالقول جميعهم من قرآن وتوراة وإنجيل وزبور وصحف ، فما ثمّ إلا قول وسماع ، غير هذين لم يكن ، فلو لا القول ما علم مراد المريد ، ما يريده منا ، ولولا السمع ما وصلنا إلى تحصيل ما قيل لنا ، فبالقول نتصرف ، وعن القول نتصرف مع السماع ، فهما مرتبطان لا يصح استقلال واحد منهما دون الآخر ، وهما نسبتان ، فبالقول والسماع نعلم ما في نفس الحق ، إذ لا علم لنا إلا بإعلامه بقوله ، ومن وجه آخر : حقيقة السمع أن لا يتقيد المسموع بجهة معينة ، بخلاف البصر الحسي فإنه يتقيد إما بجهة خاصة معينة وإما بالجهات كلها ، والسمع ليس كذلك ، فإن متعلقه الكلام ، فإن كان المتكلم ذا جهة أو في جهة فذلك راجع إليه ، وإن كان لا في جهة ولا ذا جهة فذلك راجع إليه لا للسامع ، فالسمع أدل في التنزيه من البصر ، وأخرج من التقييد

ص 499

وأوسع وأوضح في الإطلاق - إشارة - قرأ بعضهم : والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا .

[سورة النحل (16) : آية 79]

أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79)

[وما عند الله باق]

كم بيّن الله ورسوله لنا ما هي المخلوقات عليه من العلم بالله والطاعة له والقيام بحقه ، ولا نؤمن ولا نسمع ! !

ونتناول ما ليس الأمر عليه لنكون من المؤمنين ، ونحن على الحقيقة من المكذبين ، ورجحنا حسّنا على الإيمان بما عرفنا به ربنا لمّا لم نشاهد ذلك مشاهدة عين ، فالموجودات كلها ما منها إلا من هو حي ناطق أو حيوان ناطق ، المسمى جمادا أو نباتا أو ميتا ، لأنه ما من شيء من قائم بنفسه وغير قائم بنفسه إلا وهو مسبح بحمد ربه ، وهذا نعت لا يكون إلا لمن هو موصوف بأنه حي يوحي إليه الله تعالى ، فهل سمعتم في النبوة الأولى والثانية قط أن حيوانا أو شيئا من غير الحيوان عصى أمر الله أو لم يقبل وحي الله ، فمن كان مشهده هذا من الموجودات استحى كل الحياء في خلوته التي تسمى خلوة في العامة كما يستحي في جلوته ، فإنه في جلوة أبدا ، لأنه لا يخلو عن مكان يقله وسماء تظله ، ولو لم يكن في مكان لاستحى من أعضائه ورعية بدنه .

[سورة النحل (16) : الآيات 80 إلى 81]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ(81)

ص 500

" وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ »وهذه حجب وقايات وجنن تقي الأجسام الحيوانية من البرد القوي والحر الشديد ، فيدفع بذلك الألم عن نفسه ، وكذلك الطوارق يدفع بها في الحرب المقاتل عن نفسه سهام الأعداء ورماحهم وسيوفهم ، فيتقي هذا وأمثاله بمجنه الحائل بينه وبين عدوه ، ويدفع بذلك عن نفسه الأذى من خوذة وترس ودرع .

[سورة النحل (16) : الآيات 82 إلى 88]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (83) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (86)
وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (87) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ (88).

"زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ »الزيادة في العذاب لما زادوا هنا من المرض في قلوبهم عند ورود الآيات الإلهية لإثبات الشرائع ، كما أن ذلك لطائفة مخصوصة وهم الأئمة المضلون ، يقول تعالى (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ)وهم الذين أضلوا العباد وأدخلوا عليهم الشبه المضلة ، فحادوا بها عن سواء السبيل ، فضلوا وأضلوا ، وقالوا لهم :
اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : [من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها دون أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئا] فهؤلاء قيل فيهم« زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ »وما أنزلوا من النار إلا منازل استحقاق.

501

[سورة النحل (16) : آية 89]

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (89)

" وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ »وهم الرسل ، وألحقنا الله تعالى بأنبيائه بأن جعلنا شهداء على أممهم معهم حين يبعثهم ، فقال تعالى(لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ).

[سورة النحل (16) : آية 90]

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ »لما فيه من الفضل لمن أخذ له بالحق ، واعلم أن العدل ما ولي مدينة قط ولا مملكة إلا ظهرت فيها البركة ونمت الأرزاق وعمت الخيرات جميعها ، وهو موجود محبوب على ممر الدهور والأعصار ، وهو الميزان الموضوع في الأرض ، وبه يكون الفصل في العرض الأكبر بين العباد ، وهو الحاكم في ذلك اليوم ، وهو المأمور به شرعا ، وإن الملك جسد روحه العدل ، ومتى لم يكن العدل خرب الملك ، وكانت الحكماء تقول :

عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان ، وقد أمر الله تبارك وتعالى عباده فقال :« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ »وذم من لم يتصف به ولا جعله حاكما عليه فقال(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)ومن فعله صلّى الله عليه وسلم وقد انقطعت إحدى نعليه أن نزع الأخرى ومشى حافيا حتى يعدل في أقدامه ، فاجعل العدل حاكما على نفسك وأهلك ورجلك وخولك وعبيدك وأصحابك وجميع من توجه عليه حكمك ، وفي كلامك وفعلك ظاهرا وباطنا« وَالْإِحْسانِ »معطوف على العدل في الأمر به ، فيكون من ظهر فيه سلطان العدل وأخذ بجريمته أن يعطف عليه بالإحسان ، فينقضي أمد المؤاخذة ولا ينقضي أمد الإنعام والإحسان ، وقد يكون الإحسان ابتداء وجزاء للإحسان ، كما جاء في قوله تعالى(هَلْ جَزاءُ

ص 502

الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ)والإحسان قبل المؤاخذة(وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ) ولم يجاز السيئة على السيئة فهو أولى(فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)فإقامة العدل إنما هو في حق الغير لا فيما يختص بالجناب الإلهي ، فما كان الله ليأمر بمكارم الأخلاق ولا يكون الجناب الإلهي موصوفا به ، فعدل فيما حكم به من الجزاء بالسوء ، وأحسن بعد الحكم ونفوذه بما آل إليه عباده من الرحمة ورفع الأمور الشاقة عليهم وهي الآلام ، فعمت رحمته كل شيء .

[سورة النحل (16) : الآيات 91 إلى 93]

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (91) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93)

فهو تعالى الذي يرزق الإصابة في النظر والذي يرزق الخطأ .

[سورة النحل (16) : الآيات 94 إلى 96]

وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (94) وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (96)

-الوجه الأول - ما ينسب إلى العبد مآله إلى الفناء ، وما ينسب إلى الحق فمآله إلى

ص 503

البقاء والوجود ، وهو معنى قوله تعالى :« ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ »فوصف بالنفاد ما نسبه إلينا ، وما لفظة تدل على كل شيء ، كذا قاله سيبويه ، فكل ما نسب إلى المخلوق فإنه ينفد بالموت أو الشهادة ، وكل ما ينفد فقد فارق من كان عنده ، وهذا لا يوجد في الحق ، فإنه لا يفارقه شيء ، لأنه معنا وإليه تصير الأمور« ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ »فلا تعتمد عليه« وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ »فتعتمد على الله في بقائه ، والخطاب هنا لعين الجوهر ، والذي عند الجوهر من كل موجود إنما هو ما يوجده الله في محله من الصفات والأعراض والأكوان ، وهي في الزمان الثاني أو في الحال الثاني - كيف شئت قل - من زمان وجودها أو حال وجودها ، تنعدم من عندنا ، والله يجدد للجوهر الأمثال أو الأضداد دائما من خزائنه ، وهذا معنى قول المتكلمين إن العرض لا يبقى زمانين ، وهو قول صحيح ، خبر لا شبهة فيه ، لأنه الأمر المحقق الذي عليه نعت الممكنات ، ويتجدد ذلك على الجوهر ويبقى عينه دائما ما شاء الله ، وقد شاء أنه لا يفنى فلا بد من بقائه »وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ »فعند الله التوجه وهو قوله تعالى :(إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) فلا يكون عنه إلا الوجود وما يكون عنه عدم ، واعلم أن تحقيق عندية كل شيء راجعة إلى نفسه ، ولهذا قال تعالى :« ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ »فإن حكمكم النفاد« وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ »فإن له البقاء ، فلو كانت عندية الشيء غير نفس الشيء ما نفد ما عندنا ، لأنا وما عندنا عند الله ، وما عند الله باق ، فنحن وما عندنا باق ، فتبين لك أن عندية كل شيء نفسه

- **الوجه الثاني** - الكل عند الله فله البقاء في العدم كان أو الوجود ، وما نفد ما عندك إلا بأخذه منك ، وأنت عنده فما عندك عنده ، وما خرج شيء من عنده ، فالكل عنده

- **الوجه الثالث** - « ما عندك ينفد » من العلم بالله ، فما عندنا منه في موطن ينفد في موطن آخر ، فإن الحكم للمواطن ، فإنها تحكم بنفسها في كل من ظهر فيها« وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ »من علمه بنفسه لا يتغير ولا يتبدل ولا يتنوع في نفسه بتنوع المواطن .

فنحن وما عندنا عنده *** وليس الذي عنده عندنا

[سورة النحل (16) : آية 97]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ(97)

ص 504

العمل الصالح له الحياة الطيبة ، وهي تعجيل البشرى في الحياة الدنيا ، كما قال تعالى(لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا)فيحيى في باقي عمره حياة طيبة لما حصل له من العلم بما سبق له من سعادته في علم الله مما يؤول إليه في أبده ، فتهوّن عليه هذه البشرى ما يلقاه من المشقات والعوارض المؤلمة ، فإن وعد الله حق وكلامه صدق ، وقد خوطب بالقول الذي لا يبدل لديه ، ولا تكون الحياة طيبة إلا أن تكون مستصحبة ، وما ينالها إلا الصالحون من عباد الله ، وإن ظهر منهم ما توجبه الأمور المؤلمة في العادة وظهر عليهم آثار الآلام ، فالنفوس منهم في الحياة الطيبة ، لأن النفوس محلها العقل ليس الحس محلها ، فآلامهم حسية لا نفسية ، فالذي يراهم يحملهم في ذلك على حاله الذي يجده في نفسه لو قام به ذلك البلاء ، وهو في نفسه غير ذلك ، فالصورة صورة بلاء ، والمعنى معنى عافية وإنعام ، وكذلك للعمل الصالح التبديل ، فيبدل الله سيئاته حسنات ، حتى يود لو أنه أتى جميع الكبائر الواقعة في العالم ، وكذلك للعمل الصالح شكر الحق لأنه الغفور الشكور ، فسعيه مقبول وكلامه مسموع ، ولو لم يكن في العمل الصالح إلا إلحاق عامله بالصالحين وإطلاقه هذا الاسم عليه لكان كافيا ، فإنه مطلب الأنبياء عليهم السلام وهم أرفع طوائف عباد الله .

[سورة النحل (16) : آية 98]
فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (98)

[« فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ » الآية]
إذا قرأت القرآن فاجتمع عليه فإنه قرآن ، وإذا قرأته من كونه فرقانا فكن بحسب الآية التي أنت فيها في جميع قراءتك« فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ »فإن القرآن جمع ، والجمعية تدعوه للحضور فهي معينة له ، بخلاف الفرقان ، فالقرآن يحضره والفرقان يطرده ، يقال يوم القيامة لصاحب القرآن : اقرأ وارق ، فإن منزلك عند آخر آية تقرأ . فدرجات الجنة على هذا على عدد آي القرآن ، والتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند افتتاح قراءة القرآن في الصلاة وفي غيرها فرض للأمر الإلهي الوارد في هذه الآية ، فأمر الله القارئ للقرآن أن يتعوذ ، وعلمه المكلّف وهو الله تعالى عند قراءة القرآن كيف يستعيذ وبمن يستعيذ وممن يستعيذ ، فقال له« فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ »فأعطاه الاسم الجامع ، وذكر له القرآن ، وما خص آية من آية ، لذلك لم يخص اسما من اسم ، بل أتى بالاسم الله ، فالقارئ ينظر في حقيقة ما يقرأ ، وينظر فيما ينبغي أن يستعاذ

ص 505

منه في تلك الآية ، فيذكره في استعاذته وينظر فيما ينبغي أن يستعاذ به من أسماء الله ، أي اسم كان ، فيعيّنه بالذكر في استعاذته ، وللمصلي في صلاته بعد أن يفرغ من التوجه وقبل أن يشرع في القراءة أن يتعوذ
وليقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا نص القرآن ،
وقد ورد في السنة الصحيحة [أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم]
ولما كان قارئ القرآن جليس الله من كون القرآن ذكرا ، والذاكر جليس الله ، ثم زاد أنه في الصلاة في حال مناجاة الله ، فهو أيضا في حال قرب على قرب ، كنور على نور ، كان الأولى أن يستعيذ هنا بالله ، وتكون استعاذته من الشيطان لأنه البعيد ، يقال : بئر شطون إذا كانت بعيدة القعر ، والبعد يقابل القرب ، فتكون استعاذته في حال قربه مما يبعده عن تلك الحالة ، فلم يكن أولى من اسم الشيطان ، ثم نعته بالرجيم ، وهو فعيل ، فأما بمعنى المفعول فيكون معناه من الشيطان المرجوم ، يعني بالشهب ، وهي الأنوار المحرقة ، والصلاة نور ، ورجمه الله بالأنوار ، فكانت الصلاة مما تعطي بعد الشيطان من العبد ، وإن كان بمعنى الفاعل فهو لما يرجم به قلب العبد من الخواطر المذمومة واللمات السيئة والوسوسة ، ولهذا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذا قام يصلي من الليل وكبر تكبيرة الإحرام ،
قال : [الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا والحمد لله كثيرا والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا وسبحان الله بكرة وأصيلا وسبحان الله بكرة وأصيلا ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه] قال ابن عباس : همزه ما يوسوسه في الصلاة ، ونفثه الشعر ، ونفخه الذي يلقيه من الشبه في الصلاة ، يعني السهو . ولهذا قال النبي صلّى الله عليه وسلم : إن سجود السهو ترغيم للشيطان ، فوجب على المصلي أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم بخالص من قلبه ، يطلب بذلك عصمة ربه ، ولما لم يعرف المصلي بما يأتيه الشيطان من الخواطر السيئة في صلاته والوسوسة لم يتمكن أن يعين له ما يدفعها به ، فجاء بالاسم الله الجامع لمعاني الأسماء ، إذ كان في قوة هذا الاسم حقيقة كل اسم دافع في مقابلة كل خاطر ينبغي أن يدفع .

[سورة النحل : (16) الآيات 99 إلى 102]
إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100) وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ(102)

ص 506

روح القدس أي الطاهر عن تقييد البشر .

[سورة النحل (16) : الآيات 103 إلى 106]
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (105) (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (106).

"إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ »أكره من الإكراه ، ومن حصول الكراهة في نفس العامل لذلك العمل الخارج عن ميزان الأدب المشروع« وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ »وطمأنينته في هذه النازلة إنما هو بما له من الكراهة ، فإن اللّه حبب الإيمان للمؤمن وكره إليه الفسوق والعصيان مع وقوعه منه ، فغير المكره إذا كفر أخذ بكفره ، وأي شيء فعل جوزي بفعله ، بخلاف المجبور ، فإن اللّه أجل وأعظم وأعدل من أن يعذب مكرها مقهورا ، فإن شئت سترت دينك ونفسك ، وتظهر لهم فيما هم بسبيله بظاهرك إن جبروك على ذلك فاضطررت إليه ، واعتزل عنهم ما استطعت في بيتك لإقامة دينك من حيث لا يعلمون ، فقد كان بدء الإسلام على هذه الصورة من التكتم ، وقد ثبت حكم المكره في الشرع ، وعلم حدّ المكره الذي اتفق عليه والمكره الذي اختلف فيه ، وما بقي النظر إلا في معرفة المجبور المكره وما صفته ، فإن بعض العلماء لم يصح عنده الجبر والإكراه على الزنا فيؤاخذ به ، فإن الآلة لا تقوم إلا بسريان

ص 507

الشهوة وحكمها فيه ، وعندنا أنه مجبور في مثل هذا ، مكره على أن يريد الوقاع ، ولا يظهر حكم إرادته إلا بالوقوع ، ولا يكون الوقاع إلا بعد الانتشار ووجود الشهوة ، وحينئذ يعصم نفسه من المكره له على ذلك المتوعد له بالقتل إن لم يفعل ، فصح الإكراه في مثل هذا بالباطن ، بخلاف الكفر فإنه يقنع فيه بالظاهر وإن خالفه الباطن ، فالزاني يشتهي ويكره تلك الشهوة ، فإنه مؤمن ، ولولا أن الشهوة إرادة بالتذاذ لقلنا إنه غير مريد لما اشتهاه .

[سورة النحل (16) : الآيات 107 إلى 111]

ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (107) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (108) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (111).

فكل نفس مطلوبة من الحق في نفسها ، لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، فإن الله ما كلف أحدا إلا بحاله ووسعه ، ما كلف أحدا بحال أحد ، وأقيم الكسب مقام العمل والعمل مقام الكسب ، فجاء في الآية« وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ »أي ما كسبت ، وفي آية(ما كَسَبَتْ)فسمي العمل كسبا .

[سورة النحل (16) : آية 112]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ(112)

« يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ »وهذا غاية النعم من النعم« فَكَفَرَتْ »يعني

ص 508

الجماعة التي أنعم عليها المنعم بهذه النعم« بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ »بإزالة الرزق« وَالْخَوْفِ »بإزالة الأمن« بِما كانُوا يَصْنَعُونَ »من ستر النعم وجحدها والأشر والبطر بها.

[سورة النحل (16) : الآيات 113 إلى 114]

وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ (113) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114)

» فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً »طالب سبيل النجاة يتوجه عليه وجوبا تجنب الحرام ، والورع في الشبهات المظنونة ، وأما المحققة فواجب عليه تجنبها كالحرام على كل حال من الأحوال ، فإنه ما أتي أحد إلا من بطنه ، منه تقع الرغبة وقلة الورع في المكسب وتعدي حدود الله تعالى ، فالله الله يا بني التقليل من الغذاء الطيب ، فإن الجسم لا يطلب منك إلا سد جوعته بما كان ، والنفس لا تطلب منك إلا الطعام الطيب الحسن الطعم والمنظر ، ولا تبالي حراما كان ذلك أو حلالا ، فإن كانت النفس المغذية للجسم والناظرة في صونه خاض في الشبهات وتورط في المحرمات ، لأنها أمارة بالسوء مطمئنة بالهوى ، فهلكت وأهلكته في الدارين ، وإن كان العقل الشرعي المغذي له تقيد وأخذ الشيء من حلّه ووضعه في حقه ، وترك الشهوة في الطعام وإن كان حلالا رغبة فيما هو خير منه« وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ »إذا كان وقتك وقتها ودخل وقتها بوجودها عندك دعيت إلى شكر المنعم .

[سورة النحل (16) : آية 115]

إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115)

تغير الأحوال يغير الأحكام ، فالشخص الواحد الذي لم يكن حاله الاضطرار أكل الميتة عليه حرام ، فإذا اضطر ذلك الشخص عينه فأكل الميتة له حلال ، فاختلف الحكم لاختلاف الحال والعين واحدة ، ثم قال تعالى في ذم من قال عن الله ما لم يقل .

[سورة النحل (16) : آية 116]

وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ(116)

ص 509

[الذي يحرم بالعموم في الخطاب المشروع على واحد يعم جميع المكلفين]
الذي يحرم بالعموم في الخطاب المشروع على واحد يعم جميع المكلفين من غير اختصاص ، حتى لو قال بتحليل ذلك في حق شخص يتوجه عليه به لسان الذم في الظاهر كان كافرا عند الجميع ، وكان كاذبا في دعواه ، ولا تصح المنكرات إلا بما لا يتطرق إليه الاحتمال ، والحرام النص مأمور باجتنابه ، لأنه ممنوع تناوله في حق من منع منه لا في عين الممنوع ، فإن ذلك الممنوع بعينه قد أبيح لغيره لكون ذلك الغير على صفة ليست فيمن منع منه ، أباحته له تلك الصفة بإباحة الشارع ، فلهذا قلنا : لا في عين الممنوع ، فإنه ما حرّم شيء لعينه جملة واحدة ، ولهذا قال تعالى(إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ (فعلمنا أن الحكم بالمنع وغيره مبناه على حال المكلّف ، وفي مواضع على اسم الممنوع ، فإن تغير الاسم لتغير قام بالمحرم تغير الحكم على المكلّف في تناوله ، إما بجهة الإباحة أو الوجوب ، وكذلك إن تغير حال المكلّف الذي خوطب بالمنع من ذلك الشيء واجتنابه لأجل تلك الحال فإنه يرتفع عنه هذا الحكم ولا بد ، وإن كان الأمر على هذا الحد فما ثمّ عين محرمة لعينها.

[سورة النحل (16) : الآيات 117 إلى 120]
مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (117) وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120)

أخبر صلّى الله عليه وسلم أن العابد لله بما يعطيه نظره إذا لم يكن على شرع من الله معيّن أنه يحشر أمة وحده بغير إمام يتبعه ، فجعله خيرا وألحقه بالأخيار ، كما قال تعالى في إبراهيم عليه السلام« إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً »وذلك قبل أن يوحي إليه ، والأمة معلم الخير« قانِتاً لِلَّهِ »أي مطيعا لله في السر والعلانية ، ولا تكون الطاعة إلا عند المراسم الإلهية والأوامر الموقوفة على الخطاب« حَنِيفاً »مائلا في جميع أحواله من الله إلى الله عن مشاهدة وعيان ، ومن نفسه إلى الله عن
ص 510

أمر الله وإيثارا لجناب الله ومن كل ما ينبغي أن يمال عنه عن أمر الله« وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »مطلق الشرك المعفو عنه والمذموم فيما نسب إليه من قوله في الكوكب هذا ربي ، فإن من مقام إبراهيم عليه السلام أنه أوتي الحجة على قومه بتوحيد الله .

[سورة النحل (16) : آية 121]

شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ(121)

» اجْتَباهُ »فهو مجتبى« وَهَداهُ »أي وفقه بما أبان له« إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ »وهو صراط الرب الذي ورد في قول هود(إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ)والشكر هو الثناء على الله بما يكون منه خاصة ، لصفة هو عليها من حيث ما هو مشكور ، ولا يصح الشكر إلا على النعم ، فالشاكرون من العباد هم الذين يشكرون الله على مسمى النعمة خاصة .

[سورة النحل (16) : آية 122]

وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122)

لما كان الصلاح من خصائص العبودية ، وذكر تعالى عن أنبيائه أنهم من الصالحين ، ذكر عن إبراهيم الخليل« وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ »من أجل الثلاثة الأمور التي صدرت منه في الدنيا ، وهي قوله عن زوجته سارة : إنها أخته ، بتأويل ، وقوله : إني سقيم ، اعتذارا ، وقوله : بل فعله كبيرهم ، إقامة حجة ، فبهذه الثلاثة يعتذر يوم القيامة للناس إذا سألوه أن يسأل ربه فتح باب الشفاعة ، فلهذا ذكر صلاحه في الآخرة إذ لم يؤاخذه بذلك .

[سورة النحل (16) : الآيات 123 إلى 125]

ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124) ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(125)

ص 511

[« ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » الآية]
الحكمة إنزال الأمر منزلته ولا يتعدى به مرتبته ، وهي كلها أخلاق ، ولا تكون إلا لمن جعل القرآن إمامه ، فينظر إلى ما وصف الحق به نفسه ، وفي أي حالة وصف نفسه بذلك الذي وصف نفسه ، ومع من صرف ذلك الوصف الذي وصف به نفسه ، فليقم الداعي بهذا الوصف بتلك الحال مع ذلك الصنف ، فأنزل الله الميزان ، وبيّن المواطن والأحوال ، فلا تخرج شيئا عن مقتضى ما تطلبه الحكمة »وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ »فهي الموعظة التي تكون عند المذكّر بها عن شهود ، فإن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فكيف بمن حقق أنه يراه ؟ فإنه أعظم وأحسن ، ولا تكون الموعظة بصفة قهر ولا منفرة ،
فإن جادلوك قال تعالى :« وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم بالجدال الذي تطلبه الأسماء الإلهية ، وهو قوله« بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »كما ورد في الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإذا جادل بالإحسان جادل كأنه يرى ربه ،
قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم لأبي هريرة : [إذا خلوت بيهودي أو نصراني أو مجوسي فلا يحل لك أن تفارقه حتى تدعوه إلى الإسلام ، يا أبا هريرة لا تجادل أحدا منهم فعسى ، أن يأتيك بشيء من التنزيل فتكذبه ، أو تجيء بشيء فيكذبك ، لا يكون من حديثك إلا أن تدعوه إلى الإسلام]
وهو قول الله تعالى« وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »الدعاء إلى الإسلام ، هذه هي الصفة اللازمة التي ينبغي أن يكون الداعي إلى الله عليها ، ولا ينبغي لمسلم ممن ينتمي إلى الله أن يجادل إلا فيما هو فيه محق عن كشف لا عن فكر ونظر ، فإذا كان مشهودا له ما يجادل عنه ، حينئذ يتعيّن عليه الجدال فيه بالتي هي أحسن إذا كان مأمورا بأمر إلهي ، فإن لم يكن مأمورا فهو بالخيار ، فإن تعين له نفع الغير بذلك كان مندوبا إليه ، وإن يئس من قبول السامعين له فليسكت ولا يجادل ، فإن جادل فإنه ساع في هلاك السامعين عند الله« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »أي بالقابلين التوفيق ، فإنهم على مزاج خاص أوجدهم عليه ، فمن لا علم له بالحقائق يقول : إن العبد إذا صدق فيما يبلغه عن الله في بيانه أثر ذلك في نفوس السامعين ، وليس كما زعموا ، فإنه لا أقرب إلى الله ومن الله ولا أصدق في التبليغ عن الله ولا أحب في القبول فيما جاء به من عند الله من الرسل صلوات الله عليهم وسلامه ، ومع هذا فما عمّ القبول من السامعين ، بل قال الرسول الصادق في التبليغ [فلم يزدهم دعائي إلا فرارا] فلما لم يعم مع تحققنا هذه الهمة ، علمنا أن الهمة ما لها أثر جملة واحدة في المدعو ، والذي قبل من السامعين ما قبل من أثر

ص 512

همة الداعي - الذي هو المبلغ - وإنما قبل من حيث ما وهبه الله في خلقه من مزاج يقتضي له قبول هذا وأمثاله ، وهذا المزاج الخاص لا يعلمه إلا الله الذي خلقهم عليه ، وهو قوله تعالى :« وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »
فلا تقل بعد هذا إذا حضرت مجلس مذكر داع إلى الله فلم تجد أثرا لكلامه فيك أن هذا من عدم صدق المذكر ، لا بل هو العيب منك من ذاتك ، حيث ما فطرك الله في ذلك الوقت على القبول ، فإن المنصف ينظر فيما جاء به هذا الداعي المذكر ،
فإن كان حقا ولم يقبله فيعلم على القطع أن العيب من السامع لا من المذكر ، فإذا حضر في مجلس مذكر آخر وجاء بذلك الذكر عينه وأثر فيه ،
فيقول السامع بجهله : صدق هذا المذكر ، فإن كلامه أثر في قلبي ، والعيب منك وأنت لا تدري ، فلتعلم أن ذلك التأثير لم يكن لقبولك الحق ، فإنه حق في المذكرين في نفس الأمر ، وإنما وقع التأثير فيك في هذا المجلس دون ذلك لنسبة بينك وبين هذا المذكر ، أو بينك وبين الزمان ، فأثر فيك هذا الذكر ،
والأثر لم يكن للمذكر إذ قد كان الذكر ولا أثر له فيك ، وإنما أثرت المناسبة التي بيّنتها لك ، الزمانية أو النسبة التي بينك وبين المذكر ، وربما أثر لاعتقادك فيه ولم يكن لك اعتقاد في ذلك الآخر ، فما أثر فيك سواك أو ما أشبه ذلك ، وأقل فائدة في هذه المسألة سلامة المذكر من تهمتك إياه بعدم الصدق في تذكيره ورده وردك الحق ، فإن السليم العقل يؤثر فيه الحق جاء على يد من جاء ، ولو جاء على لسان مشرك بالله ، عدو لله كاذب على الله ممقوت عند الله ، لكن الذي جاء هو به حق ، فيقبله العاقل من حيث ما هو حق لا من حيث المحل الذي ظهر به ، وبهذا يتميز طالب الحق من غيره.

[سورة النحل (16) : الآيات 126 إلى 127]
وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126)
وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127)
« وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ »أي اعلم أن صبرك ما كان إلا بالله ، ما كان من ذاتك ولا من حولك وقوتك .

[سورة النحل (16) : آية 128]
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ(128)

ص 513

[الفرق بين الوارث المحمدي وباقي ورثة الأنبياء عليهم السلام]

-الوجه الأول - من جمع الإحسان والتقوى كان الله معه ، ومن أحسن إلى نفسه بأداء الزكاة كان متقيا أذى شح نفسه فهو من المتقين ، ومن المحسنين من يعبد الله كأنه يراه ويشهده ، ومن شهوده للحق علمه بأنه ما كلفه التصرف إلا فيما هو للحق وتعود منفعته على العبد ، منة وفضلا ، مع الثناء الحسن له على ذلك ، فإن عمل ما كلفه الله به لا يعود على الله من ذلك نفع ، وإن لم يعمل لا يتضرر بذلك ، والكل يعود على العبد ، فالزم الأحسن إليك تكن محسنا إلى نفسك

- الوجه الثاني - إن الله مع المحسنين كما هو مع المتقين ، والإحسان عيان وفي منزل كأنه عيان .

(17) سورة الإسراء مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[سورة الإسراء (17) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)

[اعلم أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم لولا بعثه الله تعالى رسولا ما ظهرت عليه آية ظاهرة في العموم]

اعلم أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم لولا بعثه الله تعالى رسولا ما ظهرت عليه آية ظاهرة في العموم كما ظهرت على من تقدم ، فما ظهر عنه صلّى الله عليه وسلم من الآيات المنقولة في العموم إنما كان ذلك من كونه رسولا ، رفقا من الله تعالى بهذه الأمة وإقامة حجة على من كذبه وكذب ما جاء به ، ألا ترى إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم كيف أسري به إلى المقام الذي قد عرف وجاء به القرآن والخبر الصحيح ، فلما خرج إلى الناس بكرة تلك الليلة وذكر للأصحاب ما ذكر مما جرى له في إسرائه بينه وبين ربه تعالى ، أنكر عليه بعض أصحابه ، لكونهم ما رأوا لذلك أثرا في الظاهر ، بل زادهم حكما في التكليف ، وموسى عليه السلام لما جاء من عند ربه كساه الله نورا على وجهه يعرف به صدق ما ادعاه ، فما رآه أحد إلا عمي من شدة نوره ، فكان يتبرقع حتى لا يتأذى الناظر إلى وجهه عند رؤيته ، من ذلك نعلم الفرق بين الورثة المحمديين وورثة سائر الأنبياء ، فورثة الأنبياء يعرفون في العموم بما يظهر عليهم من خرق العوائد ، ووارث محمد

ص 514

صلّى الله عليه وسلم مجهول في العموم معلوم في الخصوص ، لأن خرق عادته إنما هو حال وعلم في قلبه ، فهو في كل نفس يزداد علما بربه ، علم حال وذوق ، لا يزال كذلك ، ولولا ما طلب الرسول صلّى الله عليه وسلم بالمعراج ما رحل ، ولا صعد إلى السماء ولا نزل ، وكان يأتيه شأن الملأ الأعلى وآيات ربه في موضعه ، كما زويت له الأرض وهو في مضجعه ، ولكنه سر إلهي لينكره من شاء - لأنه لا يعطيه الإنشاء - ويؤمن به من شاء ، فقال تعالى« سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ »

[العبودية المحضة أشرف الحالات]

فسبّح الحق نفسه ، وقرن سبحانه التسبيح بهذا السفر الذي هو الإسراء فقال »سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ »وهو خبر ، ينفي بذلك عن قلب صاحب الوهم ومن تحكم عليه خياله من أهل الشبه والتجسيم ، ما يتخيله في حق الحق من الجهة والحد والمكان ، فلهذا قال« لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا »فجعله مسافرا به صلّى الله عليه وسلم ، يعلم أن الأمر من عنده عزّ وجل هبة إلهية وعناية سبقت له مما لم يخطر بسره ولا اختلج في ضميره ، وقوله« بِعَبْدِهِ »يعني عبدا لم يكن فيه شيء من الربوبية التي يدعيها الخلق ، فوصفه بأشرف الحالات وهي العبودية المحضة ، فجعله عبدا محضا ، وجرده عن كل شيء حتى عن الإسراء ، فجعله يسرى به وما أضاف السرى إليه ، فإنه لو قال : سبحان الذي دعا عبده لأن يسري إليه أو إلى رؤية آياته فسرى ؛ لكان له أن يقول ، ولكن المقام منع من ذلك ، فجعله مجبورا لاحظ له من الربوبية في فعل من الأفعال ، فإن العبودية في غاية البعد من صفات الربوبية ،
فاختار سبحانه لنبيه الشرف الكامل بأعلى ما يكون من صفات الخلق ، وليس إلا العبودية ، فإن الله إذا أكرم عبدا سافر به في عبوديته ، فما سماه إلا بأشرف أسمائه عنده ، لأنه ما تحسّن عبد بحسن أحسن ولا زينة أزين من حسن عبوديته ، ولأن الربوبية لا تخلع زينتها إلا على المتحققين بمقام العبودية« لَيْلًا »وجعل الإسراء ليلا ، تمكينا لاختصاصه بمقام المحبة ، لأنه اتخذه خليلا حبيبا ، وأكده بقوله" لَيْلًا "
مع أن الإسراء لا يكون في اللسان إلا ليلا لا نهارا ، لرفع الإشكال حتى لا يتخيّل أنه أسرى بروحه ، ويزيل بذلك من خاطر من يعتقد من الناس أن الإسراء ربما يكون نهارا ، فإن القرآن وإن كان نزل بلسان العرب ، فإنه خاطب به الناس أجمعين ، أصحاب اللسان وغيرهم ،
والليل أحب زمان المحبين لجمعهما فيه ، والخلوة بالحبيب متحققة بالليل ، ولتكون رؤية الآيات بالأنوار الإلهية خارجة عن العادة عند العرب بما لم تكن تعرفها ، فإن البصر لا يدرك شيئا من المرئيات بنوره خاصة إلا الظلمة ، والنور الذي به يكشف الأشياء إذا
ص 515

كان حيث لا تغلب قوة نور البصر ، فإذا غلب حكمه مع نور البصر حكم الظلمة لا يراه سواه ، إذ كان البصر لا يدرك في الظلمة الشديدة سوى الظلمة ، فالبصر يرى بالنور المعتدل النور وما يظهر له النور من الأشياء المدركة ،

ولا فائدة عند السامع لو كان العروج به نهارا من رؤية الآيات فإنه معلوم له ، فلهذا كان ليلا ، وأتى أيضا بقوله« لَيْلًا »

ليحقق أن الإسراء كان بجسده الشريف صلّى الله عليه وسلم فإن قوله« أَسْرى »

[سر الإسراء ليلا]

يغني عن ذكر الليل ، قليلا في موضع الحال من عبده ، فالإسراء لا يكون إلا بالليل ، وكذا معارج الأنبياء لم تكن قط إلا بالليل ، لأنه محل الأسرار والكتم وعدم الكشف« مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ »سمي المسجد الأقصى لأنه أقصي من الأولية ، لأن البيت الذي هو الكعبة قد حاز الأولية ، وبين الأقصى وبينه أربعون سنة ، ولم يكن ظهوره للعبادة بعد المسجد الحرام ، إلا بعد أربعين سنة« لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا »

اعلم أنه ما نقل الله عبدا من مكان إلى مكان ليراه ، بل ليريه من آياته التي غابت عنه ، فإن الله تعالى قال : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ) فهو تعالى معنا أينما كنا ، في حال نزوله إلى السماء الدنيا في الثلث الباقي من الليل في حال كونه استوى على العرش ، في حال كونه في العماء ، في حال كونه في الأرض وفي السماء ، وفي حال كونه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد منه ، وهذه نعوت لا يمكن أن يوصف بها إلا هو ، فنقله عبده من مكان إلى مكان ليريه ما خص الله به ذلك المكان من الآيات الدالة عليه تعالى ، من حيث وصف خاص لا يعلم من الله تعالى إلا بتلك الآية ،

فكأنما سبحانه وتعالى يقول ما أسريت به إلا لرؤية الآيات لا إليّ ، فإنه لا يحويني مكان ، ونسبة الأمكنة إليّ نسبة واحدة ، فأنا الذي وسعني قلب عبدي المؤمن ، فكيف أسري به إليّ وأنا عنده ومعه أينما كان ؟.

" إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " يقول له صلّى الله عليه وسلم : أخبر العباد بما رأيته ، تشوقهم إليّ وترغبهم فيّ ، وتكون رحمة لهم . فلما أراد الله تعالى أن يري النبي محمدا صلّى الله عليه وسلم من آياته ما شاء ، أنزل إليه جبريل عليه السلام وهو الروح الأمين بدابة يقال لها البراق ، إثباتا للأسباب وتقوية له ، ليريه العلم بالأسباب ذوقا ، ليعلمنا بثبوت الأسباب التي وضعها في العالم ، والبراق دابة برزخية فإنه دون البغل الذي تولد من جنسين مختلفين وفوق الحمار الذي تولد من جنس واحد ، وهو مركب المعارج فإنه يجمع بين ذوات الأربع وذوات الجناح فهو علوي سفلي ، فركبه صلّى الله عليه وسلم وأخذه جبريل عليه السلام ، والبراق للرسل مثل فرس النوبة الذي يخرجه المرسل

ص 516

إلى المرسل إليه بالرسول ليركبه تهمما به في الظاهر ، وفي الباطن أن لا يصل إليه إلا على ما يكون منه « 1 » لا على ما يكون من غيره ليتنبه بذلك ، فهو تشريف وتنبيه لمن لا يدري مواقع الأمور ، فهو تعريف في نفس الأمر ، فجاء صلّى الله عليه وسلم إلى البيت المقدس ونزل عن البراق وربطه بالحلقة التي تربطه بها الأنبياء ، كل ذلك إثبات للأسباب ، فإنه ما من رسول إلا وقد أسري به راكبا على ذلك البراق ، وإنما ربطه مع علمه بأنه مأمور ولو أوقفه دون ربط بحلقة لوقف ، ولكن حكم العادة منعه من ذلك إبقاء لحكم العادة التي أجراها الله في مسمى الدابة ، وقد قلب البراق في الطريق بحافره القدح الذي كان يتوضأ به صاحبه في القافلة الآتية إلى مكة ، فلما صلى جاءه جبريل عليه السلام بالبراق فركب عليه ومعه جبريل ، فطار البراق به في الهواء فاخترق به الجو ، فعطش واحتاج إلى الشرب ، فأتاه جبريل عليه السلام بإناءين :

إناء لبن وإناء خمر - وذلك قبل تحريم الخمر - فعرضهما عليه ، فتناول اللبن ، فقال جبريل عليه السلام : أصبت الفطرة أصاب الله بك أمتك ، فلما وصل إلى السماء الدنيا استفتح جبريل فقال له الحاجب : من هذا ؟ فقال : جبريل ، قال : ومن معك ؟ قال : محمد صلّى الله عليه وسلم ، قال وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ، ففتح : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [فدخلنا فإذا بآدم صلّى الله عليه وسلم وعن يمينه أشخاص بنيه السعداء أهل الجنة ، وعن يساره نسم بنيه الأشقياء عمرة النار]

ورأى صلّى الله عليه وسلم نفسه في أشخاص السعداء الذين عن يمين آدم فشكر الله تعالى ، وعلم عند ذلك كيف يكون الإنسان في مكانين وهو عينه لا غيره ، فقال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ، ثم عرج به البراق وهو محمول عليه في الفضاء الذي بين السماء الأولى والسماء الثانية أو سمك السماوات ، فاستفتح جبريل السماء الثانية كما فعل في الأولى ، وقال وقيل له ، فلما دخل إذا بعيسى عليه السلام بجسده عينه ، فإنه لم يمت إلى الآن بل رفعه الله إلى هذه السماء وأسكنه بها ، فرحب به وسهل ، ثم جاء السماء الثالثة فاستفتح وقال وقيل له ففتحت ، وإذا بيوسف عليه السلام فسلم عليه ورحب وسهل ، وجبريل في هذا كله يسمي له من يراه من هؤلاء الأشخاص ، ثم عرج به إلى السماء الرابعة ، فاستفتح وقال وقيل له ففتحت ، فإذا بإدريس عليه السلام بجسمه فإنه ما مات إلى الآن بل رفعه الله مكانا عليا ، وهو هذه السماء قلب السماوات وقطبها ، فسلم عليه ورحب وسهل ، ثم عرج به إلى السماء

---

(1)الوجه الأول : أن براقه عمله ، والوجه الثاني : على ما يكون منه أي أن هذا الانتقال من فضل الله ونعمته لا من غيره.

ص 517

الخامسة ، فاستفتح وقال وقيل له ، فإذا بهارون ويحيى عليهما السلام ، فسلما عليه ورحبا به وسهلا ، ثم عرج به إلى السماء السادسة ، فاستفتح وقال وقيل له ففتحت ، وإذا بموسى عليه السلام فسلم عليه ورحب وسهل ، ثم عرج به إلى السماء السابعة ، فاستفتح وقال وقيل له ففتحت ، فإذا بإبراهيم الخليل عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور ، فسلم عليه ورحب وسهل وسمى له البيت المعمور الضراح ، فنظر إليه وركع فيه ركعتين ، وأعلمنا أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك من الباب الواحد ويخرجون من الباب الآخر ، وأخبره أن أولئك الملائكة يخلقهم الله كل يوم من قطرات ماء الحياة التي تسقط من جبريل حين ينتفض كما ينتفض الطائر عندما يخرج من انغماسه في نهر الحياة ، فإن له كل يوم غمسة فيه ،

ثم عرج به إلى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها كالقلال وورقها كآذان الفيلة ، فرآها وقد غشاها الله من النور ما غشى ، فلا يستطيع أحد أن ينعتها لأن البصر لا يدركها لنورها ،

ورأى يخرج من أصلها أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان ، فأخبره جبريل أن النهرين الظاهرين النيل والفرات ، والنهرين الباطنين نهران يمشيان إلى الجنة ، وأن هذين النهرين النيل والفرات يرجعان يوم القيامة إلى الجنة ، وهما نهرا العسل واللبن ، -

وفي الجنة أربعة أنهار نهر من ماء غير آسن ، ونهر من لبن لم يتغير طعمه ، ونهر من خمر لذة للشاربين ، ونهر من عسل مصفى - وأخبره أن أعمال بني آدم تنتهي إلى تلك السدرة ، وأنها مقر الأرواح ، فهي نهاية لما ينزل مما هو فوقها ونهاية لما يعرج إليها مما هو دونها ، وبها مقام جبريل عليه السلام وهناك منصته ،

فنزل صلى الله عليه وسلم عن البراق بها وجيء إليه بالرفرف - وهو نظير المحفة عندنا - فقعد عليه وسلمه جبريل إلى الملك النازل بالرفرف ، فسأله الصحبة ليأنس به ،

فقال : لا أقدر لو خطوت خطوة احترقت ، فما منا إلا له مقام معلوم ، وما أسرى الله بك يا محمد إلا ليريك من آياته ، فلا تغفل .

فودعه وانصرف على الرفرف مع ذلك الملك يمشي به ، إلى أن ظهر لمستوى سمع منه صريف القلم ، والأقلام في الألواح بما يكتب الله بها مما يجريه في خلقه وما تنسخه الملائكة من أعمال عباده ، وكل قلم ملك ، قال تعالى: (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

ثم زج في النور زجة فأفرده الملك الذي كان معه وتأخر عنه ، فاستوحش لما لم يره ، وبقي لا يدري ما يصنع ، وأخذه هيمان في ذلك النور ، وأصابه الوجد فأخذ يميل ذات اليمين وذات الشمال ، واستفزعه الحال وكان سببه سماع إيقاع تلك

ص 518

الأقلام وصريفها في الألواح ، فأعطت من النغمات المستلذة ما أداه إلى ما ذكرناه من سريان الحال فيه وحكمه عليه ، فتقوى بذلك الحال ، وأعطاه الله في نفسه علما علم به ما لم يكن يعلمه قبل ذلك ، عن وحي من حيث لا يدري وجهته ، فطلب الإذن في الرؤية بالدخول على الحق ، فسمع صوتا يشبه صوت أبي بكر وهو يقول له : « يا محمد قف إن ربك يصلي » فراعه ذلك الخطاب وقال في نفسه : أربي يصلي ؟ ! ! فلما وقع في نفسه هذا التعجب من هذا الخطاب ، وأنس بصوت أبي بكر الصديق ، تلي عليه(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ)فعلم عند ذلك ما هو المراد بصلاة الحق ، فلما فرغ من الصلاة وأوحى الله إليه في تلك الوقفة ما أوحى ، أمره بالدخول فدخل ، فرأى عين ما علم لا غير وما تغيرت عليه صورة اعتقاده ، ثم فرض عليه في جملة ما أوحى به إليه خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزل حتى وصل إلى موسى عليه السلام ، فسأله موسى عما قيل له وما فرض عليه ، فأجابه وقال إن الله فرض على أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة ،

فقال له : يا محمد قد تقدمت إلى هذا الأمر قبلك وعرفته ذوقا وتعبت مع أمتي فيه ، وإني أنصحك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجع ربك وسله التخفيف ، فراجع ربه فترك له عشرا ، فأخبر موسى بما ترك له ربه ، فقال له موسى : راجع ربك ، فراجعه فترك له عشرا ، فأخبر موسى ، فقال له : راجع ربك ، فراجعه فترك له عشرا ، فأخبر موسى ، فقال له : راجع ربك ، فراجعه فترك له عشرا ، فأخبر موسى ، فقال له : راجع ربك ، فراجعه ،

فقال له ربه : هي خمس وهي خمسون ، ما يبدل القول لدي . فأخبر موسى ، فقال : راجع ربك

. فقال : إني أستحي من ربي وقد قال لي كذا وكذا ، ثم ودعه وانصرف ونزل إلى الأرض قبل طلوع الفجر ، فنزل بالحجر فطاف ومشى إلى بيته ، فلما أصبح ذكر ذلك للناس ، فالمؤمن به صدقه وغير المؤمن به كذبه والشاكّ ارتاب فيه ، ثم أخبرهم بحديث القافلة وبالشخص الذي كان يتوضأ ، وإذا بالقافلة قد وصلت كما قال ، فسألوا الشخص فأخبرهم بقلب القدح كما أخبرهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم ،

وسأله من حضره من المكذبين ممن رأى بيت المقدس أن يصفه لهم - ولم يكن رأى منه صلّى الله عليه وسلم ، إلا قدر ما مشى فيه وحيث صلى - فرفعه الله له حتى نظر إليه ، فأخذ ينعته الحاضرين ، فما أنكروا من نعته شيئا ، فكان قوله تعالى« لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا »أي ليريه ما أودع من الآيات والحقائق فيما أبدع من الخلائق ، فأراه الله من الآيات ما زاده علما بالله

ص 519

[إسراء الرسول صلّى الله عليه وسلم كان بجسمه]
إلى علمه ، لذا قرن به« إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ »لما خوطب به ولما يخبر به الحق من التعريفات« الْبَصِيرُ »
لما شاهده من الآيات وتقلبات الأحوال في العالم كله آيات من أحكام الأسماء الإلهية ، فلو كان الإسراء بروحه وتكون رؤيا رآها كما يراه النائم في نومه ما أنكره أحد ولا نازعه ، وإنما أنكروا عليه كونه أعلمهم أن الإسراء كان بجسمه في هذه المواطن كلها ، وله صلّى الله عليه وسلم أربعة وثلاثون مرة ، الذي أسري به منها الإسراء واحد بجسمه ، والباقي بروحه رؤيا رآها ، وبهذا زاد رسول الله صلّى الله عليه وسلم على الجماعة بإسراء الجسم واختراق السماوات والأفلاك حسا ، وقطع مسافات حقيقية محسوسة .
واعلم أنه لما ذكر الله سبحانه في كتابه العزيز أنه تعالى استوى على العرش ، على طريق التمدح والثناء على نفسه ، إذ كان العرش أعظم الأجسام ، فجعل لنبيه صلّى الله عليه وسلم من هذا الاستواء نسبة على طريق التمدح والثناء عليه به ، حيث كان أعلى مقام ينتهي إليه من أسري به من الرسل ، وذلك يدل أنه أسري به صلّى الله عليه وسلم بجسمه ،
ولو كان الإسراء به رؤيا لما كان الإسراء ولا الوصول إلى هذا المقام تمدحا ، ولا وقّع من الأعراب في حقه إنكار على ذلك ، لأن الرؤيا يصل الإنسان فيها إلى مرتبة رؤية الله تعالى ، وهي أشرف الحالات ،
وفي الرؤيا ما لها ذلك الموقع من النفوس ، إذ كل إنسان بل الحيوان له قوة الرؤيا ، فقال صلّى الله عليه وسلم عن نفسه على طريق التمدح لكونه جاء بحرف الغاية وهو (حتى) فذكر أنه أسري به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، وهو قوله تعالى »: لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »فالضمير في »إِنَّهُ هُوَ »يعود على محمد صلّى الله عليه وسلم ،
فإنه أسري به فرأى الآيات وسمع صريف الأقلام ، فكان يرى الآيات ويسمع منها ما حظّه السماع وهو الصوت ، فإنه عبّر عنه بالصريف ، والصريف الصوت ، فدل أنه بقي له من الملكوت قوة ما لم يصل إليه بجسمه من حيث هو راء ولكن من حيث هو سميع ، فوصل إلى سماع أصوات الأقلام وهي تجري بما يحدث الله في العالم من الأحكام .
واعلم أن قصة الإسراء وإن كانت مشتملة على الترقي بالنبي صلّى الله عليه وسلم ، فليست منافية إلى عموم إحاطة ربنا سبحانه بجميع الجهات وعدم اختصاصه ، ولا مستلزمة لإثبات الجهة ، ويدل عليه أمور : منها افتتاح السورة " بسبحان الذي " المقتضي للتنزيه تنبيها على تعاليه عن التحيز بالجهات وعلى عدم اختصاصه بجهة .
الثاني : قوله« أَسْرى بِعَبْدِهِ »فأتى بهاء الإضافة المفيدة للمصاحبة في تعدية الفعل ، تنبيها على مصاحبته له في حالة إسرائه ، وأنه ليس نائيا ولا بعيدا عنه ، فيحتاج في
ص 520

قربه إلى قطع مسافة مكانية ، وتحقيقا لقوله صلّى الله عليه وسلم (اللهم أنت الصاحب في السفر) .

الثالث : قوله« بِعَبْدِهِ »تنبيها على أنه على حسب التحقق لخضوع العبودية يكون الترقي إلى حضرة الربوبية .

الرابع : قوله« لَيْلًا »وإن كان لفظ الإسراء مفيدا لذلك تنبيها على أن كل ما تضمنه الإسراء كان خارجا عن العادة في مثله ، فإنه جعل العلة فيه أن يريه من آياته ، والإرادة العادية سلطانها النهار ،

فقال« لَيْلًا »ليعلم أن الرؤية المقصودة ليست عادية ، بل هي رؤية ربه بنور رباني سلطانه الليل دون النهار .

الخامس : قوله« مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى »نبه على أن الإسراء لو كان لضرورة رؤية ربه لكونه مخصوصا بجهة العلو لم تكن حاجة بالذهاب إلى المسجد الأقصى ، ولأمكن الترقي من مكة إلى السماء ، فدل على أن الإسراء والترقي من مكان لمكان لحكمة وراء ما زعم مثبت الجهة ، والسر فيه وفي كونه ذكره تعالى في كتابه على أن العبد لا يصل إلى الله تعالى إلا فردا تحقيقا ، لقوله(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً)ولا تتحقق له الفردية إلّا بعد مفارقة الحوادث وتجرده عنها ، فهناك يصل إلى حضرة عنديته ، وقد جاء الكتاب العزيز بالتنبيه على أن حضرة عنديته وراء دوائر السماوات والأرض ، فقال تعالى(وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ)فعطف من عنده على من في السماوات والأرض ، وهي مع ذلك محيطة بالسماوات والأرض كإحاطة ربنا بذلك كله ، مباينة لها كمباينته ، فمن أرادها فعليه بتفرقة الحوادث ومباينته لها ، فعلم أن الفرقة فرقة قلبية غيبية ، وفرقة حسية ، فإن فارقها بقلبه وصل إلى الله تعالى بقلبه ، وإن فارقها بحسه تبعا لقلبه وصل إلى الله تعالى بحسه وقلبه ، ولذلك كان الإسراء مرتين مرة بالروح ومرة بالجسد ، تنبيها على أنه صلّى الله عليه وسلم شرع لأمته فراق الحوادث مرتين ، مرة بالروح وهو الإسراء الأول ، ومرة بالجسد حسا وهو الإسراء الثاني ، ومن المعلوم أنه لا تحقق لفرقة الحوادث حسا إلا بمجاوزة دوائر الأفلاك كلها كما ثبت ليلة الإسراء ، وأما ترتيب نقلته صلّى الله عليه وسلم وترقيه في توجهه ففيه أسرار بديعة ، أظهرها وأجلاها أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء ، والصلاة حضرة القرب والمناجاة والمراقبة المثمرة لنعيم الرؤية ، ومن المعلوم أن التوجه توجهان : روحاني وحسي ، فقبلة التوجه الروحاني وجه الله تعالى ولا اختصاص له بمكان ، وأما التوجه الحسي فله قبلتان بيت المقدس والكعبة ، فبيت المقدس هو قبلة الأنبياء ، والكعبة هي قبلة إبراهيم صلّى الله عليه وسلم ، فجاء الإسراء الروحاني أولا

ص 521

تأسيسا للشريعة في قوله تعالى(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)وجاء الإسراء الحسي مبدوءا بالتوجه لبيت المقدس ثم إلى السماء ثم بالرجوع إلى الكعبة ، تأسيسا للشريعة في التوجه الحسي في الصلاة أولا لبيت المقدس ثم للسماء في قوله تعالى(قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ)ثم بالرجوع إلى قبلة مكة في قوله)فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ)

كذلك قوله تعالى(ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى)إياك أن تفهم أن ذلك يشعر بتحديد في القرب أو تخصيص في جهة ، وإنما هو دنو تجل وكشف ، لأنه ذكره في قصة الإسراء بالروح ، ألا ترى قوله تعالى بعد(ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى)ثم ذكر بعده الإسراء الحسي فقال تعالى(وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى)إلى قوله(لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى) فإذا علمت أنه دنو تجل روحاني وكشف عرفاني ،

فهمت سر قوله تعالى(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى)ثم دنا عن الأفق الأعلى في نعيم الرؤية وفي بيان الحق(فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى)أي قدر قوسين ، والقوس في اللغة يستعمل في الذراع وما يقدر ويقاس به ، وهو المراد هنا وهو من قوله تعالى في الصحيح [أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني] الحديث وفيه

[فإن تقرب إليّ شبرا تقربت منه ذراعا ، وإن تقرب إليّ ذراعا تقربت منه باعا]

وليس فيهما ذراع حسي محدود ، وإنما المراد تمثيل التقريب لدنو الذاكر من المذكور في مجالس النجوى والذكرى وتجلي سر المعية للقلب ، وأدنى الرتب في ذلك تحقق القلب بسر سبحان الله وسر الحمد لله ، وكذلك كان صلّى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وإذا أردت التحقيق فخذه من افتتاح سورة الإسراء بسبحان واختتامها بقوله(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) *ثم نبه على انتفاء التقدير في دنوه بقوله تعالى(أَوْ أَدْنى)وهو التحقيق بالتوحيد في نعيم الرؤية بالآية الكبرى وهي(لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ)

*ولذلك وصفه بقوله آخر سورة الإسراء(الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً)إلى قوله(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً)

تحقيقا لقوله [وما بينهم وبين النظر إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن]

وإذا أردت أن تفهم سر التدلي في قوله تعالى(فَتَدَلَّى)

فتأمل ما رواه أبو عيسى الترمذي من حديث العنان ، وفيه ذكر الأرضين السبع وأن بين كل أرض وأرض كما بين السماء والأرض ، ثم قال صلّى الله عليه وسلم

[والذي نفسي بيده لو دلى أحدكم حبلا لوقع على الله]

فنبه صلّى الله عليه وسلم على عدم تحيزه في السماء وأنه ليس مختصا بجهة ، كما نبه على ذلك قوله تعالى(ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى)

فإن الإسراء كان للعلو ، فربما يوهم المحجوب أن الدنو في قوله(دَنا) زيادة

ص 522

العلو ، فنبه بقوله(فَتَدَلَّى)على أن قربه قاب قوسين كان ثمرة التدلي المشعر بالتنزيل ، وأنه تعالى لا يختص قربه بجهة العلو ، بل التدلي إليه بالخضوع أقرب تحقيقا لقوله(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

وفي الصحيح [أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد] وإذا أردت زيادة التبصر بأن الإسراء وعروج الملائكة ورفع عيسى وإدريس صلى الله عليهم وسلم إلى السماء لا يدل على أن الله تعالى مخصوص بجهة السماء ، فاعتبر فرض الحج على العباد إلى البيت الحرام ، وأمر الله تعالى الناس بالتوجه إليه من جميع الجهات ، وجعل سكانه جيران الله ، وحجاجه وفده وضيفانه ، والحجر الأسود يمينه ، مع أن نسبة البيت وغيره إلى الله تعالى سبحانه كاعتبار المسافة بسفر أحد ، فعلم أن القصد بالسير إلى البيت لا أن السير يقتضي القرب والوصول إليه بالمكان ، وإنما لله سبحانه تعبدات وأسرار في ضمن مشروعات يقتضيها من عباده بحكم ظاهر وحقيقة ، ألا تراه كيف ناجى موسى صلّى الله عليه وسلم بالواد المقدس وأسمعه كلامه من الشجرة ، ووصفه بالقرب إلى مجلس حضرته ونجواه ، مع الاتفاق على أنه تعالى لا يختص بجهة الواد المقدس ،

ولا يحل كلامه - وهو صفته - بالشجرة ، وأن موسى صلّى الله عليه وسلم قرب إليه مع كونه بالأرض ، وسمع نداء ربه من جانب الطور ، ولم يكن ربه بجانب الطور ، وإنما لتجلياته مظاهر وحجب روحانية وجسمانية ، لا يشهدها إلا من فتق الله رتق قلبه ، وفلق أصباح ليله ، ونوّر مصباح مشكاته بزيت شجرة توحيده(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ)واعلم أن الله تعالى نبه بقوله« سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ »إلى قوله« وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً »أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم لما تحقق (سبحان الله) أولا (وبحمد الله) آخرا تجلى له وجه ربه بكماله الجامع للجلال والإكرام ، في شرف لا إله إلا الله الجامع لسبحان الله والحمد لله ، آية ربه الكبرى ، ولهذا قال آخر السورة(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً)

[- مشهد روحاني]

-مشهد روحاني - كان الإسراء مقاما خصّ به رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وهو مقام رؤية المعبود جل وعلا ، وهو مقام قاب قوسين أو أدنى ، وذلك أنه لما كان صلّى الله عليه وسلم ثمرة شجرة الكون « 1 » ،

ودرة صدفة الوجود وسره ، ومعنى كلمة كن ، ولم تكن الشجرة مرادة لذاتها ، وإنما كانت مرادة لثمرتها ، فهي محمية محروسة لاجتناء ثمرتها واستجلاء زهرتها ، ولما كان المراد عرض هذه الثمرة بين يدي مثمرها ، وزفها إلى حضرة قربه ، والطواف بها على ندمان حضرته ،

....

(1)ثمرة شجرة الكون يعني بالكون كل ما خلق من الكلمة الإلهية وهي " كُنْ " .

قيل له : يا يتيم أبي طالب ، قم فإن لك طالب ، قد ادخر لك مطالب ، فأرسل إليه أخص خدام الملك ، فلما ورد عليه قادما ، وافاه على فراشه نائما ، فقال له : يا جبريل إلى أين ؟

فقال : يا محمد ارتفع الأين من البين « 1 » ، فإني لا أعرف في هذه النوبة أين ، لكني رسول القدم ، أرسلت إليك من جملة الخدم ، وما نتنزل إلا بأمر ربك ، قال : يا جبريل فما الذي مراد مني ؟ قال : أنت مراد الإرادة ، مقصود المشيئة ، فالكل مراد لأجلك ، وأنت مراد لأجله ، وأنت مختار الكون ، أنت صفوة كأس الحب ، أنت درة هذه الصدفة ، أنت ثمرة هذه الشجرة ، أنت شمس المعارف ، أنت بدر اللطائف ، ما مهّدت الدار إلا لرفعة محلك ، ما هيئ هذا الجمال إلا لوصلك ، ما روّق كأس المحبة إلا لشربك ، فقم فإن الموائد لكرامتك ممدودة ، والملأ الأعلى يتباشرون بقدومك عليهم ، والكروبيون « 2 » يتهللون بورودك إليهم ، وقد نالهم شرف روحانيتك ، فلا بد لهم من نصيب جسمانيتك ، فشرّف عالم الملكوت كما شرفت عالم الملك ، وشرّف بوطء قدميك قمة السماء ، كما شرفت بهما أديم البطحاء ،

قال : يا جبريل الكريم يدعوني ، فما ذا يفعل بي ؟

قال : ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : هذا لي فما لعيالي وأطفالي ؟ فإن شر الناس من أكل وحده ، قال : ولسوف يعطيك ربك فترضى ، قال : يا جبريل الآن طاب قلبي ، ها أنا ذاهب إلى ربي .

فقرب له البراق ، فقال : ما لي بهذا ؟ قال : مركب العشاق ، قال : أنا مركبي شوقي وزادي توقي ودليلي ليلي ، أنا لا أصل إليه إلا به ، ولا يدلني عليه إلا هو ، وكيف يطيق حيوان ضعيف أن يحمل من يحمل أثقال محبته ، ورواسي معرفته ، وأسرار أمانته التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال ؟ وكيف تطيق أن تدل بي وأنت الحائر عند سدرة المنتهى ، وقد أنتهي إلى حضرة ليس لها منته ؟

يا جبريل أين أنت مني ولي وقت لا يسعني فيه غير ربي ، يا جبريل إذا كان محبوبي ليس كمثله شيء فأنا لست كأحدكم ، المركوب يقطع به المسافات ، والدليل يستدل به إلى الجهات ، وإنما ذلك محل الحدثات ، وأنا حبيبي مقدس عن الجهات ، منزه عن الحدثات ، لا يوصل إليه بالحركات ، ولا يستدل عليه بالإشارات ، فمن عرف المعاني عرف ما أعاني ، هلم إن قربي منه مثل قاب قوسين أو أدنى . فوقعت هيئة الوقت

....

(1)أي ستذهب إلى حضرة لا توصف بأين ، وهي ظرف مكان .

(2)الكروبيون أعلى صنف من الملائكة .

ص 524

على جبريل ، فقال : يا محمد ، إنما جيء بي إليك لأكون خادم دولتك وصاحب حاشيتك ، وجيء بالمركب إليك لإظهار كرامتك ، لأن الملوك من عاداتهم إذا استزاروا حبيبا ، أو استدعوا قريبا ، وأرادوا ظهور كرامتهم واحترامهم ، أرسلوا أخص خدامهم وأعز دوابهم لنقل أقدامهم ، فجئناك على رسم عادة الملوك وآداب السلوك ، ومن اعتقد أنه سبحانه وتعالى يوصل إليه بالخطإ وقع في الخطا ، ومن ظن أنه محجوب بالغطاء فقد حرم العطاء ، يا محمد ، إن الملأ الأعلى في انتظارك ، والجنان قد فتحت أبوابها وزخرفت رحابها وتزينت أترابها وروق شرابها ، كل ذلك فرحا بقدومك وسرورا بورودك ، والليلة ليلتك والدولة دولتك ، وأنا منذ خلقت منتظر هذه الليلة ، وقد جعلتك الوسيلة في حاجة قلّت فيها حيلتي ، وانقطعت وسيلتي ، فأنا فيها حائر العقل ، ذاهل الفكر داهش السر ، مشغول البال زائد البلبال ، يا محمد ، حيرتي أوقفتني في ميادين أزله وأبده ، فجلت في الميدان الأول فما وجدت له أول ، وملت إلى الميدان الآخر فإذا هو في الآخر أول ، فطلبت رفيقا إلى ذلك الرفيق فتلقاني ميكائيل في الطريق ، فقال لي : إلى أين ؟ الطريق مسدودة والأبواب دونه مردودة ، لا يوصل إليه بالأزمان المعدودة ، ولا يوجد في الأماكن المحدودة ، قلت : فما وقوفك في هذا المقام ؟

قال : شغلني بمكائيل البحار وإنزال الأمطار ، وإرسالها في سائر الأقطار ، فأعرف كما أجاجها مددا ، وكم تقذف أمواجها زبدا ، ولا أعرف للأحدية أمدا ، ولا للفردية عددا ، قلت :

فأين إسرافيل ؟ قال : ذلك أدخل في مكتب التعليم ، يصافح بصفحة وجهه اللوح المحفوظ ، ويستنسخ منه ما هو مبروم ومنقوض ، ثم يقرأ على صبيان التعليم - في مثال - ذلك تقدير العزيز العليم ، ثم هو في زمن تعلمه لا يرفع رأسه حياء من معلمه ، فطرفه عن النظر مقصور ، وقلبه عن الفكر محصور ، فهو كذلك إلى يوم ينفخ في الصور ، قلت : فهلم نسأل العرش ونستهديه ، ونستنسخ منه ما علمه ونستمليه ، فلما سمع العرش ما نحن فيه اهتز طربا ، وقال : لا تحرك به لسانك ولا تحدث به جنانك ، فهذا سر لا يكشفه حجاب ، وستر لا يفتح دونه باب ، وسؤال ليس له جواب ، ومن أنا في البين حتى أعرف له أين ؟ وما أنا إلا مخلوق من حرفين ، وبالأمس كنت لا أثر ولا عين ، من كان بالأمس عدما مفقودا ، كيف يعرف رؤية من لم يزل موجودا ، ولا والدا ولا مولودا ، وهو سبقني بالاستواء ، وقهرني بالاستيلاء ، فلو لا استواؤه لما استويت ، ولولا استيلاؤه لما اهتديت ، استوى إلي

ص 525

السماء وهي دخان ، واستوى على العرش لقيام البرهان ، فو عزته لقد استوى ولا علم لي بما استوى ، وأنا والثرى بالقرب منه على حد سوى ، فلا أحيط بما حوى ولا أعرف ما زوى ، ولكني عبد له ولكل عبد ما نوى ، ثم إني أخبرك بقصتي ، وأبث إليك شكوة غصتي ، أقسم بعلي عزته وقوي قدرته ، لقد خلقني وفي بحار أحديته غرقني ، وفي بيداء أبديته حيرني ، تارة يطلع من مطالع أبديته فينعشني ، وتارة يدنيني من مواقف قربه فيؤنسني ، وتارة يحتجب بحجاب عزته فيوحشني ، وتارة يناجيني بمناجاة لطفه فيطربني ، وتارة يواصلني بكاسات حبه فيسكرني ، وكلما استعذبت من عربدة سكري ، قال لسان أحديته : لن تراني ، فذبت من هيبته فرقا ، وتمزقت من محبته قلقا ، وصعقت عن تجلي عظمته كما خر موسى صعقا ، فلما أفقت من سكرة وجدي به ، قيل لي : أيها العاشق ، هذا جمال قد صناه ، وحسن قد حجبناه ، فلا ينظره إلا حبيب قد اصطفيناه ، ويتيم قد ربيناه ، فإذا سمعت سبحان الذي أسرى بعبده ، فقف على طريق عروجه إلينا ، وقدومه علينا ، لعلك ترى من يرانا ، وتفوز بمشاهدة من لم ينظر إلى سوانا ، يا محمد إذا كان العرش مشوقا إليك فكيف لا أكون خادم يديك ؟ .

قدم إليه مركبه الأول وهو البراق إلى بيت المقدس ، ثم المركب الثاني وهو المعراج إلى سماء الدنيا ، ثم المركب الثالث وهو أجنحة الملائكة من سماء إلى سماء ، وهكذا إلى السماء السابعة ، ثم المركب الرابع وهو جناح جبريل عليه السلام إلى سدرة المنتهى ، فتخلف جبريل عليه السلام عندها ، فقال : يا جبريل نحن الليلة أضيافك ، فكيف يتخلف المضيف عن ضيفه ؟

أهاهنا يترك الخليل خليله ؟ قال : يا محمد أنت ضيف الكريم ، ومدعو القديم ، لو تقدمت الآن بقدر أنملة لاحترقت ، وما منا إلا له مقام معلوم ،

قال : يا جبريل إذا كان كذلك ألك حاجة ؟

قال : نعم ، إذا انتهى بك إلى الحبيب حيث لا منته ، وقيل لك : ها أنت وها أنا ، فاذكرني عند ربك . ثم زج به جبريل عليه السلام زجة فخرق سبعين ألف حجاب من نور ، ثم تلقاه المركب الخامس وهو الرفرف من نور أخضر قد سد ما بين الخافقين ، فركبه حتى انته به إلى العرش ، فتمسك العرش بأذياله ، وناداه بلسان حاله ، وقال : يا محمد إلى متى تشرب من صفاء وقتك آمنا من معتكره ، تارة يتشوق إليك حبيبك وينزل إلى سماء الدنيا ، وتارة يطوف بك على ندمان حضرته ويحملك على رفرف رأفته(سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ)وتارة يشهدك جمال أحديته(ما

ص 526

كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى)وتارة يشهدك جمال صمدانيته(ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى)وتارة يطلعك على سرائر ملكوتيته(فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى)وتارة يدنيك من حضرة قربه(فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى)يا محمد هذا أوان الظمآن إليه واللهفان عليه ، والمتحير فيه لا أدري من أي جهة آتية ، جعلني أعظم خلقه فكنت أعظمهم وأشدهم خوفا منه ، يا محمد خلقني يوم خلقني فكنت أرعد من هيبة جلاله ، فكتب على قائمتي (لا إله إلا الله) فازددت لهيبة اسمه ارتعادا وارتعاشا ، فلما كتب عليّ (محمد رسول الله) سكن لذلك قلقي وهدأ روعي ، فكان اسمك أمانا لقلبي وطمأنينة لسري ورقية لقلقي ، فهذه بركة وضع اسمك عليّ ، فكيف إذا وقع جميل نظرك إليّ ؟ يا محمد أنت المرسل رحمة للعالمين ولا بد لي من نصيب في هذه الليلة ، ونصيبي من ذلك أن تشهد لي بالبراءة من النار مما نسبه إليّ أهل الزور وتقوّله عليّ أهل الغرور ، فإنه أخطأ فيّ قوم فضلّوا وظنوا أني أسع من لا حد له ، وأحمل من لا هيئة له ، وأحيط بمن لا كيفية له ، يا محمد من لا حد لذاته ولا عد لصفاته ، فكيف يكون مفتقرا إليّ أو محمولا عليّ ؟ فإذا كان الرحمن اسمه ، والاستواء صفته ونعته ، وصفته ونعته متصل بذاته ، فكيف يتصل بي أو ينفصل عني ، ولا أنا منه ولا هو مني ؟

يا محمد وعزته لست بالقرب منه وصلا ولا بالبعد عنه فصلا ، ولا بالمطيق له حملا ولا بالجامع له شملا ، ولا بالواجد له مثلا ، بل أوجدني من رحمته منة وفضلا ، ولو محقني لكان فضلا منه وعدلا ، يا محمد أنا محمول قدرته ومعمول حكمته ، فكيف يصح أن يكون الحامل محمولا ؟(لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا)فأجابه لسان حاله صلّى الله عليه وسلم : أيها العرش إليك عني فأنا مشغول عنك فلا تكدر عليّ صفوتي ولا تشوش علي خلوتي ، فما في الوقت سعة لعتابك ولا محل لخطابك ، فما أعاره صلّى الله عليه وسلم طرفا ولا قرأ من مسطور ما أوحى إليه حرفا(ما زاغَ الْبَصَرُ)ثم قدم المركب السادس وهو التأييد ، فنودي من فوقه ولم ير : حافظك قدامك ، ها أنت وربك . قال : فبقيت متحيرا لا أعرف ما أقول ولا أدري ما أفعل ، إذ وقعت على شفتي قطرة أحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وألين من الزبد ، وأطيب ريحا من المسك ، فصرت بذلك أعلم من جميع الأنبياء والرسل ، فجرى على لساني : التحيات المباركات لله الصلوات الطيبات لله .

فأجبت : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . فأشركت إخواني الأنبياء فيما

ص 527

خصصت به ، فقلت : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .
أراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا قيل لأبي بكر رضي الله عنه ليلة أسري برسول الله صلّى الله عليه وسلم : إنه رأى ربه ، قال : صدق وكنت معه متمسكا بأذياله ، مشاركه في مقاله ، قيل : كيف ؟ قال : في قوله : السلام علينا.
فأجابه الملائكة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله قال : ثم نوديت ادن يا محمد ، فدنوت ، ثم وقفت ، وهو معنى قوله عزّ وجل(ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى) وقيل : دنا محمد في السؤال فتدلى فتقدم للرب عزّ وجل ، وقيل : دنا بالشفاعة وتقرب إلى الرب بالإجابة ، وقيل : دنا بالخدمة وتقرب للرب بالرحمة . ثم دنا فتدلى معناه ، دنا محمد من ربه فتدلى عليه الوحي من ربه ، دنا لطافة فتدلى عليه رأفة ورحمة . لا يوصف بقطع مفازة ولا مسافة ، قد ذهب الأين من البين ، وتلاشى الكيف واضمحل الأين(فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ)فلو اقتصر على(قابَ قَوْسَيْنِ)لاحتمل أن يكون للرب مكان ، وإنما قوله(أَوْ أَدْنى)لنفي المكان . وكان معه حيث لامكان ولا زمان ، ولا أوان ولا أكوان ، فنودي :
يا محمد تقدم ، فقال : يا رب إذا انتفى الأين فأين أضع القدم ؟
قال ضع القدم على القدم « 1 » حتى يعلم الكل أني منزه عن الزمان والمكان والأكوان ، وعن الليل وعن النهار ، وعن الحدود والأقطار ، وعن الحد والمقدار ، يا محمد انظر ، فنظر فرأى نورا ساطعا ، فقال : ما هذا النور ؟
قيل : ليس هذا نورا ، بل هو جنات الفردوس ، لما ارتقيت صارت في مقابلة قدميك ، وما تحت قدميك فداء لقدميك ، يا محمد مبدأ قدمك منقطع أوهام الخلائق ، يا محمد ما دمت في سير الأين جبريل دليلك والبراق مركبك ، فإذا ذهب المكان وغبت عن الأكوان ، وانتفى الأين وارتفع البين من البين ، ولم يبق إلا قاب قوسين ، فأنا الآن دليلك يا محمد ، أفتح لك الباب ، وأرفع لك الحجاب ، وأسمعك طيب الخطاب ، في عالم الغيب وحدتني تحقيقا وإيمانا ، فوحدني الآن في عالم الشهود مشاهدة وعيانا ، فقال :
أعوذ بعفوك من عقوبتك ، فقيل : هذا لعصاة أمتك ، ليس هذا حقيقة مدّعي وحّدني ، فقال : لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فقال : يا محمد ، إذا كلّ لسانك عن العبارة فلأكسونه لسان الصدق(وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى)فإذا ضلّ عيانك عن الإشارة فلأجعلن عليك خلعة الهداية(ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى)ثم لأعيرنك نورا تنظر به جمالي ،

....

(1)ضع القدم على القدم : أي ضع قدمك في حضرة القدم حيث لامكان ولا زمان.

وسمعا تسمع به كلامي ، ثم أعرفك بلسان الحال معنى عروجك عليّ ، وحكمة نظرك إليّ ، فكأنه يقول مشيرا : يا محمد إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا - والشاهد مطالب بحقيقة ما شهد به ، ولا يجوز له الشهادة على غائب - فأريك جنتي لتشاهد ما أعددته لأوليائي ، وأريك ناري لتشاهد ما أعددته لأعدائي ، ثم أشهدك جلالي وأكشف لك عن جمالي ، لتعلم أني منزه في كمالي عن المثيل والشبيه والبديل والنظير والمشير ، وعن الحد والقد وعن الحصر والعد وعن الجوز والفرد ، وعن المواصلة والمفاصلة والمماثلة والمشاكلة والمجالسة والملامسة والمباينة والممازجة ، يا محمد إني خلقت خلقي ودعوتهم إليّ فاختلفوا عليّ ، فقوم جعلوا العزيز ابني وأن يدي مغلولة وهم اليهود ، وقوم زعموا أن المسيح ابني وأن لي زوجة وولدا وهم النصارى ، وقوم جعلوا لي شركاء وهم الوثنية ، وقوم جعلوني صورة وهم المجسمة ، وقوم جعلوني محدودا وهم المشبهة ، وقوم جعلوني معدوما وهم المعطلة ، وقوم زعموا أني لا أرى في الآخرة وهم المعتزلة ، وها أنا قد فتحت لك بابي ورفعت لك حجابي ، فانظر يا حبيبي يا محمد هل تجد فيّ شيئا مما نسبوني إليه ؟ فرآه صلّى الله عليه وسلم بالنور الذي قواه به وأيده به من غير إدراك ولا إحاطة ، فردا صمدا ، لا في شيء ولا على شيء ، ولا قائما بشيء ولا مفتقرا إلى شيء ، ولا هيكلا ولا شبها ولا صورة ولا جسما ولا محيزا ولا مكيّفا ولا مركبا ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فلما كلمه شفاها وشاهده كفاحا ، فقال :

يا حبيبي يا محمد ، لا بد لهذا الخلق من سر لا يذاع ، وزمن لا يشاع)فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى)فكان سر من سر في سر ، وصل اللهم وسلم وبارك على أشرف مخلوقاتك ، سيدنا ومولانا محمد بحر أنوارك ومعدن أسرارك ، ولسان حجتك وإمام حضرتك ، وعروس مملكتك وطراز ملكك ، وخزائن رحمتك وطريق شريعتك ، وسراج جنتك وعين حقيقتك ، المتلذذ بمشاهدتك ، عين أعيان خلقك ، المقتبس من نور ضيائك ، صلاة تحل بها عقدتي وتفرج بها كربتي ، وتقضي بها أربي وتبلغني بها طلبي ، صلاة دائمة بدوامك باقية ببقائك قائمة بذاتك ، صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين.

ص 529

[سورة الإسراء (17) : آية 2]
وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (2)
[« . . . أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا » الآية]
فنهى تعالى أن نتخذ وكيلا غيره ، وهي نيابة الحق عن العبد ، فالوكالة نيابة عن الموكل فيما وكله فيه أن يقوم مقامه ، كما قال تعالى (لا إله إلا الله فاتخذه وكيلا) فأثبت لك الشيء وسألك أن تستنيبه فيه بحكم الوكالة ، فمن قال : إن الأموال ما خلقت إلا لنا إذ لا حاجة لله إليها ، فهي لنا حقيقة ،
ثم وكلنا الحق تعالى أن يتصرف لنا فيها ، لعلمنا أنه أعلم بالمصلحة فتصرف على وجه الحكمة التي تقتضي أن تعود على الموكل منه منفعة ، فأتلف ماله هذا الوكيل الحق تعالى بغرق أو حرق أو خسف أو ما شاء ، تجارة له ليكسبه بذلك في الدار الآخرة أكثر مما قيل إنه في ظاهر الأمر إتلاف ، وما هو إتلاف بل هو تجارة بيع بنسيئة ، يسمى مثل هذا تجارة رزء لكن ربحها عظيم ،
وهذا علم يعرفه الوكيل لا الموكل ، وهو يحفظ عليه ماله لمصلحة أخرى يقتضيها علمه فيها ، ومن الناس من وكل الله فاستخلفه الوكيل في التصرف على ما يرسمه الوكيل ، لعلم الوكيل بالمصلحة ، فصار الموكل وكيلا عن وكيله ، وهو الذي لا يتعدى الأمر المشروع في تصرفه وإن كان المال له ، فالتصرف فيه بحكم وكيله

[سورة الإسراء (17) : الآيات 3 إلى 7]
ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (3) وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (4) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً (5) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (6) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً(7)

ص 530

"إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها «اعلم أن التكاليف إن عملتها لا يعود على الله منها نفع ، وإن أنت لم تعملها لا يتضرر بذلك ، وأن الكل يعود عليك ، فالزم الأحسن إليك تكن محسنا إلى نفسك .

[سورة الإسراء (17) : آية 8]

عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (8)

اعلم أيدك الله أن جهنم من أعظم المخلوقات ، وهي سجن الله في الآخرة ، وسميت جهنم جهنم لبعد قعرها ، يقال : بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر ، وهي تحوي على حرور وزمهرير ، ففيها البرد على أقصى درجاته والحرور على أقصى درجاته ، وهي الآن مخلوقة وتحدث فيها آلات التعذيب بحدوث أعمال الجن والإنس الذين يدخلونها ، وجميع ما يخلق فيها من الآلام التي يجدها الداخلون فيها من الغضب الإلهي ، ولا يكون ذلك إلا عند دخول الخلق فيها من الجن والإنس متى دخولها ، وأما إذا لم يكن فيها أحد من أهلها فلا ألم فيها في نفسها ولا في نفس ملائكتها ، بل هي ومن فيها من زبانيتها في رحمة الله منغمسون ملتذون يسبحون لا يفترون ، وحد جهنم بعد الفراغ من الحساب ودخول أهل الجنة الجنة من مقعر فلك الكواكب الثابتة إلى أسفل سافلين ، فهذا كله يزيد في جهنم مما هو الآن ليس مخلوقا فيها ، ولكن ذلك معد حتى يظهر ، إلا الأماكن التي عيّنها الله من الأرض ، فإنها ترجع إلى الجنة يوم القيامة ، مثل الروضة التي بين منبر رسول الله صلّى الله عليه وسلم وبين قبره صلّى الله عليه وسلم ، وكل مكان عيّنه الشارع وكل نهر فإن كل ذلك يصير إلى الجنة ، وما بقي فيعود نارا كله وهو من جهنم ، وأشد الخلق عذابا في النار إبليس الذي سن الشرك وكل مخالفة ، وعذابه بما فيها من الزمهرير ، فإنه يقابل النار الذي هو أصل نشأة إبليس« وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً »يريد سجنا يحصرهم فيه ، لأن المحصور مسجون ممنوع من التصرف ، بخلاف أهل الجنة فإن لهم التبوّؤ منها حيث يشاءون وليس كذلك أهل النار.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 10 إلى 11]

وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (10) وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً(11)

ص 531

"وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا" التلبيس أصله العجلة من الإنسان ، فلو اتئد وتفكر وتبصر لم يلتبس عليه أمر وقليل فاعله .

[سورة الإسراء (17) : آية 12]
وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً (12)
[تعريف الزمان]
آية الليل هو القمر ، فلا يظهر لنوره حكم في البصر إلا بالليل ، ونوره معار فإنه انعكاس نور الشمس ، فإنه لها كالمرآة ، فالنور الذي يعطيك القمر إنما هو للشمس ، وهو موصل لا غير لأنه محو« وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً »وآية النهار هي الشمس يعني نورها ظاهرا للبصر ، وجعل الله تعالى الليل والنهار آيتين دلالة على عالم الغيب والشهادة ، فمحا آية الليل لدلالتها على الغيب فآية القمر ممحوة عن العالم الظاهر ، وجعل آية النهار مبصرة لدلالتها على عالم الشهادة ، وجعل ذلك الطلوع والغروب لمن يكون حسابه بالشمس ليعلم فصول السنة ، وقد يكون حسابه بالقمر عدد السنين والحساب يقول الله في الأهلة(هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)فقال تعالى »: لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ » *بسير القمر في منازله والشمس فيها ، فإن الليل والنهار واليوم والشهر والسنة هي المعبر عنها بالأوقات ، وتدق إلى مسمى الساعات ودونها ، والوقت لا وجود له في عينه وانه نسب وإضافات ، وان الموجود إنما هو عين الفلك والكوكب لا عين الوقت والزمان ، فإنه عبارة عن الأمر المتوهم الذي فرضت فيه الأوقات ، فالوقت فرض متوهم في عين موجودة وهو الفلك ، والكوكب يقطع حركة ذلك الفلك والكواكب بالفرض المفروض فيه ، في أمر متوهم لا وجود له يسمى الزمان ، الذي جعله الله ظرفا للكائنات المحيّزات الداخلة تحت هذا الفلك الموقت فيه المفروض

ص 532

في عينه تعيين الأوقات ، ليقال : خلق كذا وظهر كذا في وقت كذا ، فبطلوع كوكب الشمس سمي المطلع مشرقا والطلوع شروقا ، لكون ذلك الكوكب المنير طلع منه وأضاء به الجو ، وبالشمس سميت المقارنة استواء ، وعند بدء نزوله عن الاستواء سمي زوالا ، وغيابها غروبا والموضع الذي غربت فيه مغربا ، وأظلم الجو فسميت مدة استنارة الجو من مشرق الشمس إلى مغربها نهارا ، وسميت مدة الظلمة من غروب الشمس إلى طلوعها ليلا ، وكان اليوم مجموع الليل والنهار ، وسميت المواضع التي يطلع منها هذا الكوكب كل يوم درجا ، وانتقال الشمس في الفروض المقدرة في الفلك المحيط درجة درجة حتى يقطع ذلك بشروق سميت أياما ، وكلما أكمل قطع فرض من تلك الفروض شرع في قطع فرض آخر إلى أن أكملت الشمس الاثني عشر فرضا بالقطع ، ثم شرعت في كرة أخرى في قطع تلك الفروض ، فسمي ابتداء كل فرض إلى انتهاء قطع ذلك الفرض شهرا ، وسمي قطع تلك الفروض كلها سنة« لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا »سبحانه لا إله إلا هو الحكيم القدير .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 13 إلى 14]

وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (13) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14)

إنما شرع الله قراءة الكتب في الدار الآخرة ليعلم العبد المصطفى قدر ما أنعم الله عليه به ، والهالك ليعذر من نفسه فيعلم أنه جنى على نفسه ، فحاسب نفسك والله هو الحسيب .

[سورة الإسراء (17) : آية 15]

مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (15)

لما كان العالم في حال جهل بما في علم الله من تعيين طريق السعادة ، تعيّن الإعلام به بصفة الكلام ، فلا بد من الرسول ، ومن وجه آخر فإن الله ما كلف عباده ولا دعاهم إلى تكليف قط بغير واسطة ، فإنه بالذات لا يدعو إلى ما فيه مشقة ، فلهذا اتخذ الرسل عليهم

ص 533

الصلاة والسلام ،[« وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »]
وقال جل ثناؤه« وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا -« الوجه الأول - يعني نبعثه بالآيات البينات على صدق دعواه ، وكذا أخبر الله تعالى أنه أيّد الرسل بالبينات ليعذر الإنسان من نفسه ، فإنه قبل إرسال الرسل لم يقيد الإنسان ، بل كان يجري بطبعه من غير مؤاخذة أصلا ، فوجد العذر لمن لم تبلغه الدعوة الإلهية ، فحكمه حكم من لم يبعث الله إليه رسولا ، والرسول ما هو رسول لمن أرسل إليه حتى يؤدي رسالته لمن أرسل إليه ، ففي هذه الآية رحمة عظيمة لما هو الخلق عليه من اختلاف الفطر المؤدي إلى اختلاف النظر ، فإن الله تعالى قال« وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »لم يقل حتى نبعث شخصا ، فلا بد أن تثبت رسالة المبعوث عند من وجه إليه ، فلا بد من إقامة الدلالة البينة الظاهرة عند كل شخص شخص ممن بعث إليهم ، فإن ربّ آية يكون فيها من الغموض أو الاحتمال بحيث أن لا يدرك بعض الناس دلالتها ، فلا بد أن يكون الدليل من الوضوح عند كل من أقيم عليه حتى يثبت عنده أنه رسول ، وحينئذ إن جحد بعد ما تيقن تعينت المؤاخذة ، وما فعل الله ذلك إلا رحمة بعباده لمن علم شمول الرحمة الإلهية التي أخبر الله تعالى أنها وسعت كل شيء - الوجه الثاني - هذه الآية تدل على أن الشرائع قد عمت جميع الخلق من آدم إلى نبينا محمد صلّى الله عليه وسلم وقد قال تعالى(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ)- الوجه الثالث - قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم في الصحيح : [من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة] ولم يقل هنا يؤمن ، فإن الإيمان موقوف على الخبر ، وقد قال« وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »وقد علمنا أن لله عبادا كانوا في فترات وهم موحدون علما ، وما كانت دعوة الرسل قبل رسول الله صلّى الله عليه وسلم عامة فيلزم أهل كل زمان الإيمان ، فعم بهذا الكلام جميع العلماء بتوحيد الله المؤمن منهم من حيث ما هو عالم به من جهة الخبر الصدق الذي يفيد العلم لا من جهة الإيمان وغير المؤمن ، فالإيمان لا يصح وجوده إلا بعد مجيء الرسول ، والرسول لا يثبت حتى يعلم الناظر العاقل أن ثم إلها وأن ذاك الإله واحد ، لا بد من ذلك ، لأن الرسول من جنس من أرسل إليهم ، فلا يختص واحد من الجنس دون غيره إلا لعدم المعارض وهو الشريك ، فإذا حصل التصديق بأنه رسول الله تتأهب العقلاء أولو الألباب والأحلام والنهى لما يورده في رسالته هذا الرسول ، فمن مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة بلا شك ولا ريب وهو من السعداء فأما من كان من أهل الفترات فيبعثه الله أمة وحده كقس بن

ص 534

ساعدة ، لا تابع لأنه ليس بمؤمن ، ولا هو متبوع لأنه ليس برسول عند الله ، بل هو عالم بالله .

[سورة الإسراء (17) : آية 16]

وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (16)

إذا حق القول من الله تعالى فهو القول الواجب لا يبدل ، فإن القول الإلهي منه ما يقبل التبديل ، ومنه ما لا يقبل التبديل وهو إذا حق القول منه ، والقول المعروض يقبل التبديل .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 17 إلى 20]

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (17) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (18) وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19) كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20)

[« كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ . . . »]« كُلًّا نُمِدُّ »وذكر المذموم والمحمود ، وهو من إمداد الأسماء الإلهية التي من حقائقها التقابل ، فالنافع ما هو الضار ، ولا المعطي هو المانع ،« هؤُلاءِ »أصحاب الجنة« وَهَؤُلاءِ »أصحاب النار« مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ »فعم العطاء الجميع يعني الطائع والعاصي ، وأهل الخير وأهل الشر مع اختلاف الذوق ، وقد يكون عطاؤه الإلهام ، وقد يكون خلق العمل« وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً »وهذا إبانة عن حقيقة صحيحة بما هو الأمر عليه وفي نفسه ، من أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقوله تعالى« وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً »أي ممنوعا لأنه يعطي لذاته ، والمحال القوابل تقبل باستعدادها ، واستعدادها أثر الأسماء الإلهية فيها ، ومن الأسماء الإلهية الموافق والمخالف ، مثل الموافق الرحيم الغفور وأشباهه ، ومثل المخالف المعز والمذل ، فلا بد أن يكون استعداد هذا المحل في حكم اسم من هذه الأسماء ، فيكون

ص 535

قبوله للحكم الإلهي بحسب ذلك ، فإما مخالف وإما موافق ، ومن كان هذا حاله كيف يتعلق به ذم ذاتي ؟
والأعراض لا ثبات لها ، فالجود الإلهي مطلق والمنع عدم القبول ، فمن المفيض المعطي وجود جود صرف خالص محض ، وما ثم إلا عطاء في عين منع ومنع في عين عطاء ، فحضرة المنع تعطي المنع بعطاء العين ، فالمنع تبع ، فإن المحل إذا كان في اللون الأبيض فقد أعطاه البياض ، وعين إعطاء البياض منع ما يضادّه من الألوان ، لكن ليس متعلق الإرادة إلا إيجاد عين البياض فامتنع ضده بحكم التبع ، وهكذا كل ضد في العين ، فالله يعطي على الدوام والمحال تقبل على قدر حقائق استعداداتها ، فترد الآية مثلا من كتاب الله واحدة العين على الأسماع ، فسامع يفهم منها أمرا واحدا ، وسامع آخر لا يفهم منها ذلك الأمر ويفهم منها أمرا آخر ، وآخر يفهم منها أمورا كثيرة ، ولهذا يستشهد كل واحد من الناظرين فيها بها لاختلاف استعداد الأفهام ، فإذا فهمت هذا علمت أن عطاء الله ليس بممنوع ، إلا أنك تحب أن يعطيك ما لا يقبله استعدادك ، وتنسب المنع إليه فيما طلبته منه ، ولم تجعل بالك إلى الاستعداد الذي هو على ترتيب الحكمة الإلهية في العالم وما تعطيه حقائق الأشياء ، والكل من عند الله ، فمنعه عطاء وعطاؤه منع ، ولكن بقي لك أن تعلم لكذا ومن كذا ، وفي هذه الآية إشارة إلى عدم سرمدة العذاب على أهل النار ، فعطاؤه تعالى عين الرحمة التي سبقت ، فوسعت كل شيء من مكروه وغيره وغضب وغيره ، فما في العالم عين قائمة ولا حال إلا ورحمة الله تشمله وتحيط به ، وهي محل له ولا ظهور له إلا فيها ، فبالرحمن استوى على العرش ، وما انقسمت الكلمة إلا من دون العرش من الكرسي فما تحته ، فإنه موضع القدمين وليس سوى انقسام الكلمة ، فظهر الأمر والخلق ، والنهي والأمر ، والطاعة والمعصية ، والجنة والنار ، كل ذلك عن أصل واحد وهي الرحمة التي هي صفة الرحمن .

[سورة الإسراء (17) : آية 21]
انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21)
إنما ظهر الفضل في العالم ليعلم أن الحق له عناية ببعض عباده وله خذلان في بعض عباده .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 22 إلى 23]
لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (22) وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (23)
ص 536

علماء الرسوم يحملون لفظ« قَضى »على الأمر ، ونحن نحملها على الحكم ، فقوله تعالى« وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ »أي حكم ، وقضاء الحق لا يردّ ، والعبادة ذلة في اللسان المنزل به هذا القرآن ، قال تعالى)وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [على الحقيقة ما عبد المشرك إلا الله]

فإن العبادة ذاتية للمخلوق لا يحتاج فيها إلى تكليف ، فكما قال : (يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ) ولم يذكر افتقار مخلوق لغير الله ، قضى أن لا يعبد غير الله ، فمن أجل حكم الله عبدت الآلهة ، فلم يكن المقصود بعبادة كل عابد إلا الله ، فما عبد شيء لعينه إلا الله ، وإنما أخطأ المشرك حيث نصب لنفسه عبادة بطريق خاص لم يشرع له من جانب الحق ، فشقي لذلك ،

فإنهم قالوا في الشركاء(ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ) فاعترفوا به ، وأنزلوهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم ، وما ثم صورة إلا الألوهية فنسبوها إليهم ،

ولهذا يقتضي الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه ، غيرة منه على المقام أن يهتضم ، وإن أخطئوا في النسبة فما أخطئوا في المقام ،

ولهذا قال(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها)أي أنتم قلتم إنها آلهة ، وإلا فسموهم ، فلو سموهم لقالوا : هذا حجر وشجر أو ما كان ، فتتميز عندهم بالاسمية ، إذ ما كلّ حجر عبد ولا اتخذ إلها ، ولا كل شجر ، ولا كل جسم منير ، ولا كل حيوان ، فلله الحجة البالغة عليهم بقوله(سَمُّوهُمْ)فكانت الأصنام والأوثان مظاهر له في زعم الكفار ، فأطلقوا عليها اسم الإله ، فما عبدوا إلا الإله ، وهو الذي دل عليه ذلك المظهر ، فقضى حوائجهم وسقاهم ، وعاقبهم إذ لم يحترموا ذلك الجناب الإلهي في الصورة الجمادية ، فهم الأشقياء وإن أصابوا أو لم يعبدوا إلا الله ، فكان قوله تعالى :« وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ »من الغيرة الإلهية حتى لا يعبد إلا من له هذه الصفة ، فكان من قضائه أنهم اعتقدوا الإله ، وحينئذ عبدوا ما عبدوا ، مع أنهم ما عبدوا في الأرض من الحجارة والنبات والحيوان ، وفي السماء من الكواكب والملائكة ، إلا لاعتقادهم في كل معبود أنه إله ، لا لكونه حجرا ولا شجرة ولا غير ذلك ، وإن أخطئوا في النسبة فما أخطئوا في المعبود ، فعلى الحقيقة ما عبد المشرك إلا الله ، وهي المرتبة التي سماها إلها ، لأنه لو لم يعتقد الألوهة في الشريك ما عبده ، فإنه ما عبد ما عبد إلا بتخيل الألوهة فيه ، ولولاها ما عبد ، ولذلك قال تعالى« وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ »فما عبد أحد سوى الله ، حتى المشركون ما عبدوه إلا في الهياكل المسماة

ص 537

شركاء ، فما عبدت إلا الألوهية في كل من عبد من دون الله ، لأنه ما عبد الحجر لعينه ، وإنما عبد من حيث نسبة الألوهة له ، فإن المشرك ما عبد شيئا إلا بعد ما نسب إليه الألوهة فما عبد إلا الله ، فالألوهية هي المعبودة من كل معبود ، ولكن أخطئوا النسبة فشقوا شقاوة الأبد ، وغار الحق لهذا الوصف فعاقبهم في الدنيا إذ لم يحترموه ، ورزقهم وسمع دعاءهم ، وأجابهم إذا سألوا إلههم في زعمهم ، لعلمه سبحانه أنهم ما لجئوا إلا لهذه المرتبة وإن أخطئوا في النسبة ، فشقوا في الآخرة شقاء الأبد ، حيث نبههم الرسول على توحيد من تجب له هذه النسبة فلم ينظروا ولا نصحوا نفوسهم ، ولهذا كانت دلالة كل رسول بحسب ما كان الغالب على أهل زمانه ، لتقوم عليهم الحجة ، فتكون لله الحجة البالغة - تحقيق - قوله تعالى« وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ »قضاء صحيحا(وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ)

فإن الآثار لا تكون إلا للألوهة ، وبها ظهرت الآثار عن الأكوان كلها في الأكوان ، ولولا هذا السريان الدقيق ، والحجاب العجيب الرقيق ، والستر الأخفى ، ما عبدت الألوهية في الملائكة والكواكب والأفلاك والأركان والحيوانات والنباتات والأحجار والأناسي ، إذ الألوهية هي المعبودة من الموجودات ، فأخطئوا في الإضافة من وجه لا غير ، ولكن كان في ذلك الوجه شقاوة الأبد ، فالمحقق تحقق ذلك الوجه ورفع الخطأ من جهة العقل لا من جهة الحكم ، فإن النظر الإلهي كان تمكنه من هؤلاء المعبودين أكبر من غيرهم ، فربط الآثار بهم فظهرت عندهم ، ليضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وربما ارتفعت طائفة عن مدرج نسبة الألوهية لهم مطلقا ولحظت الوجه الخفي فقالت(ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى)فاتخذوهم حجبة ووزراء نعوذ بالله ، ولكن هي أشبه من الأولى ، ولو رأت هذه الطائفة هذا الوجه من أنفسها ما عبدت الألوهية في كون خارج عنها ، بل كانت تعبد نفسها ، ولكن أيضا لتحققها بها ووقوفها مع عجزها وقصورها وإتلافها لم يتمكن لها ذلك ، ولو لاح لها ما ذكرناه ما اختصت بعبودة الألوهية في كون بعينه ، ومحصول ما قلناه أن الألوهية هي المعبودة على الإطلاق لا الأكوان ، ولهذا قال(وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ)

وقال« وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ »وقضاؤه غير مردود ، فمن وقف على هذه الوجوه الإلهية من الأكوان فما يصح عنده أن يعبده كون أصلا ، ومن لم يعرفها ولا يشاهدها تعبده وجه الحق في الكون لا الكون ، وبهذا القدر يعاقب ويطلق عليه اسم الشرك »وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ

ص 538

الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً »لما كانت الأخلاق تختلف أحكامها باختلاف المحل الذي ينبغي أن يقابل بها ، احتاج صاحب الخلق إلى علم يكون عليه حتى يصرف في ذلك المحل الخلق الذي يليق به عن أمر الله ، فيكون قربة إلى الله ، فلهذا نزلت الشرائع لتبيّن للناس محال أحكام الأخلاق التي جبل الإنسان عليها ، فقال الله في مثل ذلك« فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ »لوجود التأفف في خلقه ، فأبان عن المحل الذي لا ينبغي أن يظهر فيه حكم هذا الخلق ، ثم بيّن المحل الذي ينبغي أن يظهر فيه هذا الخلق فقال(أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)ومن الناحية الفقهية اعتبر أهل القياس هذه الآية دليلا على تحريم ضرب الرجل أباه بالعصا أو بما كان ، فقال أهل القياس : لا نص عندنا في هذه المسألة ، ولكن لما قال تعالى« فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما »[مقارنة بين استخراج الحكم بالقياس وبين استخراجه بالنص]

قلنا : فإذا ورد النهي عن التأفف وهو قليل ، فالضرب بالعصا أشد ، فكان تنبيها من الشارع بالأدنى على الأعلى ، فلا بد من القياس عليه ، فإن التأفف والضرب بالعصا يجمعهما الأذى ، فقسنا الضرب بالعصا المسكوت عنه على التأفف المنطوق به ، وقلنا نحن : ليس لنا التحكم على الشارع في شيء مما يجوز أن يكلف به ولا التحكم ، ولا سيما في مثل هذا لو لم يرد في نطق الشرع غير هذا لم يلزمنا هنا القياس ولا قلنا به ولا ألحقناه بالتأفيف ، وإنما حكمنا بما ورد وهو قوله في الآية« وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً »فأجمل الخطاب ، فاستخرجنا من هذا المجمل الحكم في كل ما ليس بإحسان ، والضرب بالعصا ما هو من الإحسان المأمور به من الشرع في معاملتنا لآبائنا ، فما حكمنا إلا بالنص وما احتجنا إلى قياس ، فإن الدين قد كمل ولا تجوز الزيادة فيه كما لم يجز النقص منه ، فمن ضرب أباه بالعصا فما أحسن إليه ، ومن لم يحسن لأبيه فقد عصى ما أمره الله به أن يعامل به أبويه ، ومن رد كلام أبويه وفعل ما لا يرضي أبويه مما هو مباح له تركه فقد عقهما ، وقد ثبت أن عقوق الوالدين من الكبائر .

[سورة الإسراء (17) : آية 24]

وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (24)

« وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ »الجناح عبارة عن اللطف .

[سورة الإسراء (17) : آية 25]

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً(25)

ص 539

الأوابون من رجال ونساء تولاهم الله بالأوبة في أحوالهم يقال آبت الشمس لغة في غابت ، فالرجال الغائبون عند الله فلم يشهد حالهم مع الله أحد من خلق الله فإن الله وصف نفسه بأنه غفور لهم أي ساتر أي يستر مقامهم عن كل أحد سواه لأنهم طلبوا الغيبة عنده حتى لا يكون لهم مشهود سواه سبحانه ، والآئب أيضا الذي يأتي القوم ليلا كالطارق والليل ستر ، وهم الراجعون إلى الله في كل حال من كل ناحية يقال : جاءوا من كل أوبة أي ناحية ، فالأواب الراجع إلى الله من كل ناحية من الأربع التي يأتي منها إبليس إلى الإنسان من ناحية أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فهم يرجعون في ذلك كله إلى الله أولا وآخرا .

[سورة الإسراء (17) : آية 26]

وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (26)

[أهل القرآن هم أهل الله وخاصته]

-إشارة - قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [أهل القرآن هم أهل الله وخاصته]

اعلم أن المتصدق على أهل الله هو المتصدق على أهله إذا كان المتصدق بهذه المثابة ، كنت يوما عند شيخنا أبي العباس العريبي بإشبيلية جالسا ، وأردنا أو أراد أحد إعطاء معروف ، فقال شخص من الجماعة للذي يريد أن يتصدق : الأقربون أولى بالمعروف ، فقال الشيخ من فوره متصلا بكلام القائل : إلى الله . فيا بردها على الكبد ، والله ما سمعتها في تلك الحالة إلا من الله ، حتى خيّل إليّ أنها كذا نزلت في القرآن ، مما تحققت بها وأشربها قلبي ، وكذا جميع من حضر ، فلا ينبغي أن يأكل نعم الله إلا أهل الله ، ولهم خلقت ، ويأكلها غيرهم بحكم التبعية ، فهم المقصودون بالنعم ومن عداهم إنما يأكلها تبعا ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم :

[دينار أنفقته في سبيل الله ، دينار أنفقته في رقبة ، دينار تصدقت به على مسكين ، دينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك]

<u>فقول الشيخ رضي الله عنه :</u> إلى الله ، كذلك هو الأمر في نفسه ، فلا أقرب من الله ، فهو القريب سبحانه الذي لا يبعد إلا بعد تنزيه ، وتنقطع الأرحام بالموت ولا ينقطع الرحم المنسوبة إلى الحق ، فإنه معنا حيثما كنا ، ونحن ما بيننا نتصل في وقت وننقطع في وقت بموت أو فقد وارتحال ،

وعن النبي صلّى الله عليه وسلم قال : [الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة] .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 27 إلى 29]

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (28) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً(29)

ص 540

»وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ »كناية عن البخل« وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ »كناية عن السرف« فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ».

[سورة الإسراء (17) : الآيات 30 إلى 31]

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (30) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً (31)

شكى شخص إلى بعض الصالحين كثرة العائلة فقال له : ادخل إلى بيتك وانظر كل من ليس له رزق على الله فأخرجه ، فقال له : كلهم رزقهم على الله . فقال له : ما تضرك كثرتهم أو قلتهم .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 32 إلى 34]

وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً (32) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (33) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً (34)

ما أعجب قوله تعالى« إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا »أي الصفة المسماة بالعهد هي التي تسأل ، فيقال لها : هل وفّى بك هذا العبد ؟ تجيب وذلك أنه يتصور من المعاهد والمعاهد أن يصدقا أو أن ينكرا ، ولا يتصور ذلك في العهد الذي هو الصفة ، فلذلك سئل العهد لتحققه بقيامه بالقسط وبما عهد إليه من أمانة وخيانة .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 35 إلى 36]

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35) وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً(36)

ص 541

[الحق لا يدرك لا علما ولا رؤية]
تعتبر هذه الآية منعا من النظر في ذات الله ، فهي لا تعلم ، فهو تعالى عن الإدراك فلم يدرك بعقل كنه جلاله ، ولم يدرك ببصر كنه ذاته عند تجليه حيثما تجلى لعباده ، فهو تعالى المتجلي الذي لا يدرك - الإدراك الذي يدرك فيه هو نفسه - لا علما ولا رؤية ، فلا ينبغي أن يقفو الإنسان علم ما قد علم أنه لا يبلغ إليه ، لذلك قال الصديق رضي الله عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك .

تعالى عن التحديد بالفكر والخبر *** كما جل عن حكم البصيرة والبصرفليس لنا منه سوى ما يرومه *** على كل حال في الدلالات والعبر
فأعلم أني ما تحققت غيره *** وأعلم أني ما علمت سوى البشر
لذا منع الرحمن في وحيه على *** لسان رسول الله في ذاته النظر
فقال ولا تقف الذي لست عالما *** به فيكون الناظرون على خطر
فلم يولد الرحمن علما ولم يلد *** وجودا فحقق من نهاك ومن أمر

« كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا »اسم كان هو النفس المدبرة ، تسأل النفس عن سمعه وبصره وفؤاده ، وتدل هذه الآية على أن الأعضاء المكلفة طاهرة بحكم الأصل ، لا تزول عنها تلك الطهارة والعدالة ، وتستشهد يوم القيامة وتقبل شهادتها لزكاتها الأصلية ، وبدأ الحق في هذه الآية بالسمع وإن كان من خدم القلب ، لأن السمع إنما يكون بالقلب ، ولأنه أعم الأعضاء فائدة في الشرائع ، إذ لا بد للإنسان من معلم مرشد ، داخل فيه أو خارج عنه ، وجميع التكليف الوارد على القلب بذاته أو بواسطة الأعضاء إنما يوجد من قبل السمع ، ويدخل في ذلك قلب غير المؤيد بالوحي الإلهي أو المؤيد إذ قيل : فبهداهم اقتده ، وثنّى بالبصر ، لأنه أعظم شاهد بتصديق المسموع منه ، وبه حصول ما به التفكر والاعتبار غالبا ، تنبيها على عظمة ذلك ، وإن كان البصر هو القلب ، ثم رجع إلى الفؤاد الذي هو العمدة في ذلك ، فتقديمهما على جهة التعظيم له ، كما يقال : الجناب والمجلس ، وهما المبلغان إليه وعنه ، وفي تكليفه تكليف جميع خدمه ، وإنما شاركاه بالذكر تنبيها على عظيم مشاركتهما

ص 542

إياه في الوزارة ، ولولاهما ما أمكن أن يبلغ قلب في الغالب . في هذا العالم ما يريد إبلاغه إليه ، فهما معه في عالم التكليف كالجسد والنفس مع الروح في عالم الخلافة ، ولا يتم لأحدهما ذلك إلا بالآخرين وإلا نقص بقدره ، والمراد في جميع التكليف سلامة القلب ، والخطاب إليه من جهة كل عضو على انفراده ، ومن جهة المجموع ، ثم على انفراده (راجع سورة ق آية 37)

[- نصيحة - قف مع الظاهر في كل الأحوال]

-نصيحة - قف مع الظاهر في كل الأحوال ، ولا تقف ما ليس لك به علم من ظاهر الأقوال .

[سورة الإسراء (17) : آية 37]

وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (37)

« إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ »فإن الله ما جعلها تقبل الكثافة والظلمة والصلابة إلا لستر ما أودع الله فيها من الكنوز لما جعل فيها من الغيرة ، فحار السعاة في الأرض فلم يخرقوها ولم يبلغوا جبالها طولا .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 38 إلى 44]

كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (38) ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (39) أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40) وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (41) قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42)

سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (44)

[« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . . » الآية]

التسبيح تنزيه ، وراعى الحق في هذا الموطن تسبيح السماوات والأرض ، فإن لكل عالم ثناء خاصا لا يكون لغيره« وَمَنْ فِيهِنَّ »يعني الملائكة وإن كان البعض من العالم ، وجمع

ص 543

[حياة كل الصور]
السماوات والأرض جمع من يعقل ، وهذا التسبيح بوحي ذاتي تقتضيه ذواتهم ، وهو أنهم يسبحون بحمد الله لا يحتاجون في ذلك إلى تكليف ، بل هو لهم مثل النفس للمتنفس ، وذلك لكل عين على الانفراد ، فذكر سبحانه في كل حال ومن كل عين ، فالوجود كله حي ناطق بتعظيم الحق سبحانه ، لكنه يختلف نطقهم باختلاف حقائقهم ، وقوله تعالى« وَمَنْ فِيهِنَّ »ردّ على من يقول بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه يقول أهل السماوات السبع وأهل الأرض ، فنفى هذا الاحتمال بقوله« وَمَنْ فِيهِنَّ »إذ قد ورد مثل ذلك في قوله)وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ)وليس هذا كذلك ،
وقوله عليه السلام في أحد [هذا جبل يحبنا ونحبه] وقوله [يشهد للمؤذن مدى صوته من رطب ويابس]
وقوله [وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة شفقا من الساعة] وهذه أمور كلها تقتضي العلم وهو مشروط بالحياة ، ولكن الحياة منها ما ظهر للحس ومنها ما لم يظهر ، فما لم يظهر بالعادة ظهر بخرق العادة ، فالكل حي ناطق بتسبيح الله وحمده ، ومعلوم أن ما هنا صوت معهود ولا حرف من الحروف المعلومة عندنا ، ولكنّ كلام كل جنس مما يشاكله ، وعلى حسب ما يليق بنشأته ويعطيه استعداد القبول للروحانية الإلهية السارية في كل موجود ، فالكل حي في نفس الأمر ذو نفس ناطقة ، ولا يمكن أن يكون في العالم صورة لا نفس لها ولا حياة ولا عبادة ذاتية وأمرية ، سواء كانت تلك الصورة مما يحدثها الإنسان من الأشكال أو يحدثها الحيوان ، ومن أحدثها من الخلق عن قصد وعن غير قصد ، فما هو إلا أن تتصور الصورة كيف تصورت وعلى يد من ظهرت ، إلا ويلبسها الله تعالى روحا من أمره ، ويتعرف إليها من حينه فتعرفه منها وتشهده فيها ، هكذا هو الأمر دنيا وآخرة ، فأكد ذلك بقوله« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »وزاد في التوكيد بقوله« وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »وأتى بلفظة من في قوله« وَمَنْ فِيهِنَّ »ولم يأت بما ، وأتى في الحشر بما ولم يأت بمن ، فإن سيبويه يقول : إن اسم ما يقع على كل شيء إلا أنه لم يعم الموجودات ، فوجلت قلوب من بقي منها ولم يقع له ذكر في التسبيح ، فجبر الله كسرها وأزال وجلها بقوله عقيب هذا القول »وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »وزاد في الثناء عليهم بجهل الناس تسبيحهم بقوله« وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »فأخبر تعالى أن كل شيء يسبح بحمده كما هو الأمر عليه في نفسه ، وسد خلل الانكسار بقوله« لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »بحرف الاستدراك وهو قوله« وَلكِنْ »طمعا في أن ينفردوا

544

دون من سواهم بهذا التسبيح الخاص ، وهذه الآية دليل على أنه تعالى ما خلق العالم لنفس العالم ، وإنما خلقه لنفسه ، فقال فيه« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »فإن الله لما أوجد العالم ما خلقهم إلا ليعبدوه ويسبحوه ، فما من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا نفقه تسبيحه ، ففطر العالم كله على تسبيح الله وحمده وعبادته بالقصد الأول ، وكان انتفاعنا بالأشياء بحكم التبعية ، فما من شيء من العالم إلا وهو يسبح بحمد خالقه ، فلنفسه أوجده لأنه ما شغله إلا به ، وقال فيمن جعل فيه استعدادا يمكن أن يسعى به لنفسه ولغير الله ، فنبه أنه ما خلقهم إلا لعبادته فقال(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)فكونهم ما فعل بعضهم ما خلق له ، لا يلزم منه بالقصد المذكور أنه خلق لما تصرف فيه ، ولذلك يسأل ويحاسب ، ومن ذلك نعلم أن كل مخلوق ما سوى الإنس والجان مفطورون على تعظيم الحق والتسبيح بحمده ، وكذلك أعضاء جسد الإنس والجان كلها ولكن لا على جهة التقريب وابتغاء المنزلة العظمى ، بل التسبيح لهم كالأنفاس من المتنفسين لما تستحقه الذات ، وهكذا يكون تسبيح الإنس والجان في الجنة والنار لا على طريق القربة ولا ينتج لهم قربة ، بل كل واحد منهم على مقام معلوم ، فتصير العبادة طبيعية تقتضيها حقائقهم ، ويرتفع التكليف ولا يتصور منهم مخالفة لأمر الله إذا ورد عليهم ، ولا يبقى هنالك نهي أصلا بعد قوله لأهل النار) اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ)وكلامنا إذا نزل الناس منازلهم في كل دار وغلقت الأبواب واستقرّت الداران بأهلها الذين هم أهلها ، وعلى ذلك فكل جزء من العالم مسبح لله تعالى ، وكل شيء ينزه ربه من كافر وغير كافر ، فإن أعضاء الكافر كلها مسبحة لله ، ولهذا يشهد عليه يوم القيامة جلده وسمعه وبصره ويده ورجله ، غير أن العالم لا يفقهون هذا التسبيح وسريان هذه العبادة في الموجودات ، فلم يبق كافر ولا مؤمن إلا وقد شملت تفاصيله هذه الآية ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، لأنهم لا يسمعون ولا يشهدون ، وعلماء الرسوم يخرجون هذا على أنه لسان حال ، وكذلك قوله تعالى(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها)فجعلوا هذه الإباية والإشفاق حالا لا حقيقة ، وكذلك قوله عنهما(أَتَيْنا طائِعِينَ)قول حال لا قول خطاب ، وهذا كله ليس بصحيح ولا مراد في هذه الآيات ، بل الأمر على ظاهره كما ورد ، ولو كان تسبيح حال كما يزعم بعض علماء النظر لم تكن فائدة في قوله« وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »يريد بذلك التسبيح الثناء على الله لا للجزاء ، لأنه في عبادة ذاتية لا يتصور معها طلب مجازاة ، وقد يعذر علماء

ص 545

الرسوم فإن التسبيح هنا نسب إلى من لا ينسب إليه قول ولا نطق ، وهو التسبيح الذي لا يفقه ، وما قال لا يسمع ، إذ الكلام أو القول هو الذي من شأنه أن يتعلق به السمع ، والتسبيح لو كان قولا أو كلاما لنفى عنه سمعنا ، وإنما نفى عنه فقهنا وهو العلم ، والعلم قد يكون عن كلام وقول وقد لا يكون ، والتحقيق أن كل ما سوى الله حي ، فإنه ما من شيء إلا يسبح بحمده ، ولا يكون التسبيح إلا من حي عاقل عالم بمسبحه ، فإذا ما ثمّ إلا من يسبح الله بحمده ، ولا يسبحه إلا حي سواء كان ميتا أو غير ميت فإنه حي ، لأن الحياة للأشياء فيض من حياة الحق عليها ، فهي حية في حال ثبوتها ، ولولا حياتها ما سمعت قوله)كُنْ)بالكلام الذي يليق بجلاله فكانت ، وقوله تعالى« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ* « والشيء أنكر النكرات ، وإن كان الله قد أخذ بأسماعنا عن تسبيح الجمادات والنبات والحيوان الذي لا يعقل كما أخذ بأبصارنا عن إدراك حياة الجماد والنبات ، إلا لمن خرق الله له العادة كرسول الله صلّى الله عليه وسلم ومن حضره من أصحابه حين أسمعهم الله تسبيح الحصى ، فما كان خرق العادة في تسبيح الحصى وإنما انخرقت العادة في تعلق أسماعهم به ، روي في الصحيح أن الحصى سبح في كف رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فجعل الناس خرق العادة في تسبيح الحصى ، وأخطئوا ، وإنما خرق العادة في سمع السامعين ذلك ، فإنه لم يزل مسبحا كما أخبر الله ، فالذي سمع السامع كونه سمع نطق ما لم تجر العادة أن يسمعه ، فقوله تعالى« يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »تسبيح نطق يليق بذلك الشيء لا تسبيح حال ، ولهذا قال« وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »لاختلاف ما يسبحون به إلا لمن سمعه ، فهذا التسبيح لا يفقه بالنظر العقلي من جهة الفكر والنظر إلا أن يمنّ الله على بعض عباده بعلم ذلك ، فالكل ناطق وتقع العين على ناطق وصامت ، فالمؤمن يدرك ذلك إيمانا وصاحب الكشف يدرك الكيفية ، والكشف منحة من الله يمنحها الله من شاء من عباده ، فكل نطق في الوجود تسبيح وإن انطلق عليه اسم الذم ، وجاء بضمير الجمع في »تَفْقَهُونَ »وما يشير إليه هذا الضمير إنما هم الناس خاصة ، فجميع المخلوقات عبدوا الله إلا بعض الناس ، فالخلق عبد بالذات أثرت فيه العوارض ولا سيما الشخص الإنساني ، بل ما أثرت العوارض إلا في الشخص الإنساني وحده دون سائر الخلق ، وما سواه فعلى أصله من تنزيه خالقه عن الشريك« إِنَّهُ كانَ حَلِيماً »فلم يعجل عليكم بالعقوبة ، وبإمهالكم حيث لم يؤاخذكم سريعا بما رددتم من ذلك وقلتم إنه تسبيح حال ، فإن الله ما خلق شيئا

ص 546

من الكون إلا حيا ناطقا جمادا كان أو نباتا أو حيوانا في العالم الأعلى والأسفل ، فكل شيء من عالم الطبيعة جسم متغذ ، فهو حيوان ناطق بين جلي وخفي ، والكل حيوان ناطق مسبح بحمد الله تعالى ، ولما كان الأمر هكذا ، جاز بل وقع وصح أن يخاطب الحق جميع الموجودات ويوحي إليها من سماء وأرض وجبال وشجر وغير ذلك من الموجودات ، ووصفها بالطاعة لما أمرها به والإباية لقبول عرضه ، وأسجد له كل شيء ، لأنه تجلى لكل شيء وأوحى إلى كل شيء بما خاطب ذلك الشيء به ، تقول الجلود يوم القيامة(أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ)
فعمّت فكانت الجلود أعلم بالأمر ممن جعل النطق فصلا مقوما للإنسان خاصة ، وعرى غير الإنسان عن مجموع حده من الحيوانية والنطق ، فإن الله تعالى ما قال« وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »إلا في معرض الرد على من يقول إنه تسبيح حال ، فإن العالم كله قد تساوى في الدلالة ، فمن يقول بتسبيح الحال فقد أكذب الله في قوله تعالى« لا تَفْقَهُونَ »ولذلك قال تعالى« إِنَّهُ كانَ حَلِيماً »وأما قوله تعالى« غَفُوراً »حيث ستر عنكم تسبيح هؤلاء فلم تفقهوه ، فكان غفورا أي ساترا نطقهم عن أن تتعلق به الأسماع إلا لمن خرق الله له العادة ، ومن هذه الآية نعلم أن سر الحياة الإلهية سرى في جميع الموجودات فحييت بحياة الحق ، فمنها ما ظهرت حياتها لأبصارنا ومنها ما أخذ الله بأبصارنا عنها في الدنيا ، إلا الأنبياء وبعض أولياء الله فإنه كشف لهم عن حياة كل شيء ، ولسريان هذه الحياة في أعيان الموجودات نطقت كلها مسبحة بالثناء على موجدها ، وهذه الحياة وباقي الصفات نسب وإضافات وشهود حقائق ، فإن الله هو العلي الكبير عن الحلول والمحل ، وعن ذلك نزهته الأشياء في تسبيحها فإن التسبيح تنزيه ، فإن المولدات في عالم العناصر ثلاثة عوالم طبيعية ، ويسري في كل عالم مولد من هذه الثلاثة أرواح ، هي نفوس هذه المولدات ، بها تعلم خالقها ومنشئها ، وبها سرت الحياة فيها كلها ، وبها خاطبها الحق وكلفها ، وهو رسول الحق إليها وداع كل شخص منه إلى ربه ، فما بطنت حياته سمّي جمادا ونباتا ، وانفصل هذان المولدان ، وتميزوا بالنمو والغذاء ، فقيل في النامي منه نبات وفي غير النامي جماد ، وما ظهرت حياته وحسه سمي حيوانا ، والكل قد عمته الحياة ، فنطق بالثناء على خالقه من حيث لا نسمع ، وعلّمهم الله الأمور بالفطرة من حيث لا نعلم ، فلم يبق رطب ولا يابس ولا حار ولا بارد ولا جماد ولا نبات ولا حيوان إلا وهو مسبح لله تعالى بلسان خاص بذلك الجنس ، فكل جسم في

ص 547

[الفرق بين روح التدبير وروح التسبيح]
العالم مقيد بصورة روح إلهي يلازم تلك الصورة ، به تكون مسبحة لله ، فمن الأرواح ما تكون مدبرة لتلك الصورة لكون الصورة تقبل تدبير الأرواح ، وهي كل صورة تتصف بالحياة الظاهرة والموت ، فإن لم تتصف بالحياة الظاهرة والموت فروحها روح تسبيح لا روح تدبير ، فما من صورة في العالم - وما العالم إلا صور - إلا وهي مسبحة خالقها بحمد مخصوص ألهمها إياه ، وما من صورة في العالم تفسد إلا وعين فسادها ظهور صورة أخرى في تلك الجواهر ، عينها مسبحة لله تعالى حتى لا يخلو الكون كله عن تسبيح خالقه ، فتسبحه أعيان أجزاء تلك الصورة بما يليق بتلك الصورة ، والأرواح الجزئية متفاضلة بالعلم بالأشياء ، فمنهم من له علم بأشياء كثيرة ، ومنهم من لا يعلم إلا القليل ، ولا أعلم بالله من أرواح الصور التي لاحظ لها في التدبير ، لكون الصورة لا تقبل ذلك وهي أرواح الجماد ، ودونهم في رتبة العلم بالله أرواح النبات ودونهم في العلم بالله أرواح الحيوان ، وكل واحد من هؤلاء مفطور على العلم بالله والمعرفة به ، ولهذا ما لهم همّ إلا التسبيح بحمده تعالى ، ودون هؤلاء في العلم بالله أرواح الإنس ، وأما الملائكة فهم والجمادات مفطورون على العلم بالله لا عقول لهم ولا شهوة ، والحيوان مفطور على العلم بالله وعلى الشهوة ، والإنس والجن مفطورون على الشهوة والمعارف من حيث صورهم لا من حيث أرواحهم ، وجعل الله لهم العقل ليردوا به الشهوة إلى الميزان الشرعي ويدفع عنهم به منازعة الشهوة في غير المحل المشروع لها ، لم يوجد الله لهم العقل لاقتناء العلوم ، والذي أعطاهم الله لاقتناء العلوم إنما هي القوة المفكرة ، فلذلك لم تفطر أرواحهم على المعارف كما فطرت أرواح الملائكة وما عدا الثقلين ، فإذا علمت هذا علمت أن العالم كله ما عدا الإنس والجان مستوفي الكشف لما غاب عن الإحساس البشري ، فلا يشاهد أحد من الإنس والجن ذلك الغيب إلا في وقت خرق العوائد لكرامة يكرمه الله بها ، كما أن كل جماد ونبات وحيوان في العالم كله ، وفي عالم الإنسان والجن وأجسام الملائكة والأفلاك ، وكل صورة يدبرها روح محسوسا كان ذلك التدبير فيمن ظهرت حياته أو غير محسوس فيمن بطنت حياته - كأعضاء الإنسان وجلوده وما أشبه ذلك - كل هؤلاء في محل كشف الغيوب الإلهية ، المستورة عن الأرواح المدبرة لهذه الأجسام من ملك وإنس وجن لا غير ، فإنها محجوبة عن إدراك هذا الغيب الإلهي ، وهو من الغيوب الإلهية فيجهل كل روح مثل هذا إلا أن يعرفه الله به إلا من ذكرناهم ، فإنهم يعرفونه بالفطرة التي فطرهم

ص 548

الله عليها . واعلم أن الكشف لا سبيل إلى حصوله إلا بعناية أزلية تعطيك استعدادا تاما لقبوله ، برياضات نفسية ومجاهدات بدنية وتخلق بأسماء إلهية ، وتحقق بأرواح طاهرة ملكية وتطهير بطهارة شرعية مشروعة لا معقولة ، وعدم تعلق بأكوان وتفريغ محل عن جميع الأغيار ، لأن الحق ما اصطفى لنفسه منك إلا قلبك حين نوّره بالإيمان فوسع جلال الحق ، فعاين من هذه صفته الممكنات بعين الحق ، فكانت له مشهودة وإن لم تكن موجودة ، فما هي له مفقودة ، وقد كشف لبصيرته بل لبصره وبصيرته نور الإيمان حين انبسط على أعين الممكنات أنها في حال عدمها مرئية رائية مسموعة سامعة برؤية ثبوتية وسمع ثبوتي لا وجود له ، فعيّن الحق ما شاء من تلك الأعيان ، فوجه عليه دون غيره من أمثاله قوله المعبر عنه باللسان العربي المترجم بكن ، فأسمعه أمره ، فبادر المأمور فتكون عن كلمته ، لا بل كان عين كلمته ، ولم تزل الممكنات في حال عدمها الأزلي لها تعرف الواجب الوجود لذاته وتسبحه وتمجده بتسبيح أزلي وتمجيد قديم ذاتي ولا عين لها موجودة ولا حكم لها مفقود ، فإذا كان حال الممكنات كلها على ما ذكرناه من هذه الصفات التي لا هل معها ، فكيف تكون في حال وجودها وظهورها لنفسها ، جمادا لا ينطق ؟ أو نباتا بتعظيم خالقه لا يتحقق ؟ أو حيوانا بحاله لا يصدق ؟ أو إنسانا بربه لا يتعلق ؟ هذا محال ، فلا بد أن يكون كل ما في الوجود من ممكن موجود يسبح الله بحمده بلسان لا يفقه ، ولحن ما إليه كل أحد يتنبه ، فيسمعه أهل الكشف شهادة ، ويقبله المؤمن إيمانا وعبادة ، فقال تعالى :« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً »فجاء باسم الحجاب والستر ، وهو قوله غفورا ، وجاء بالاسم الذي يقتضي تأخير المؤاخذة إلى الآجل وعدم حكمها في العاجل ، وهو الحليم ، لما علم أن في عباده من حرم الكشف والإيمان ، وهم العقلاء عبيد الأفكار ، والواقفون مع الاعتبار ، فجازوا من الظاهر إلى الباطن مفارقين الظاهر ، فعبروا عنه إذ لم يكونوا أهل كشف ولا إيمان ، لما حجب الله أعينهم عن مشاهدة ما هي عليه الموجودات في أنفسها ، ولا رزقوا إيمانا في قلوبهم يكون له نور يسعى بين أيديهم .

وأما المؤمنون الصادقون أولو العزم من الأولياء ، فعبروا بالظاهر معهم لا من الظاهر إلى الباطن ، وبالحرف عينه إلى المعنى ، ما عبروا عنه ، فرأوا الأمور بالعينين ، وشهدوا بنور إيمانهم النجدين ، فلم يتمكن لهم إنكار ما شهدوا ، ولا جحدوا ما تيقنوه ، فأسمعهم الله نطق

ص 549

الموجودات ، لا بل نطق الممكنات قبل وجودها ، فإنها حية ناطقة درّاكة بحياة ثبوتية ونطق ثبوتي ، إذ كانت في أنفسها أشياء ثبوتية ، فلما قبلت الوجود قبلته بجميع نعوتها وصفاتها - وليس نعتها سوى عينها - فهي في حال شيئية وجودية حية بحياة وجودية ناطقة بنطق وجوديّ درّاكة بإدراك وجودي ، فلو لا أن الله أسرى بسر الحياة في الموجودات ما كانت ناطقة ، ولولا سريان العلم فيها ما كانت ناطقة بالثناء على الله موجدها ، ولهذا قال« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »فأتى بلفظ النكرة وما خص شيئا ثابتا من شيء موجود ، لأنها قبلت شيئية الوجود على الحال التي كانت عليها في شيئية الثبوت ، إلا أن الله أخذ بأبصار بعض عباده عن إدراك هذه الحياة السارية والنطق والإدراك الساري في جميع الموجودات ، كما أخذ الله ببصائر أهل العقول والأفكار عن إدراك ما ذكرناه في جميع الموجودات وفي جميع الممكنات ، وأهل الكشف والإيمان على علم مما هو الأمر عليه في هذه الأعيان في حال عدمها ووجودها ، فمن ظهرت حياته سمي حيا ومن بطنت حياته فلم تظهر لكل عين سمي نباتا وجمادا ، فانقسم عند المحجوبين الأمر وعند أهل الكشف والإيمان لم ينقسم ، فأما أصحاب الكشف والشهود أهل الاختصاص فقد أعطاهم الشهود ، وما أعطى المحجوبين شهودهم ، فيقول أهل الشهود : سمعنا ورأينا . ويقول المحجوبون : ما سمعنا ولا رأينا .

ويقول أهل الإيمان : آمنا وصدقنا ، قال تعالى :« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »وشيء نكرة وقال (أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ)

فذكر الجماد والنبات والحيوان الذين وقع فيهم الخلاف بين المحجوبين من أهل العقول والأفكار وبين أهل الشهود والإيمان ، وغير ذلك من الآيات القرآنية ،

وقد صح عنه صلّى الله عليه وسلم أنه قال : [يشهد للمؤذن مدى صوته من رطب ويابس] وقال في أحد : [هذا جبل يحبنا ونحبه]

وقال : [إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث]

ثم أنه قد صح أن الحصى سبح في كفه ، وصح حنين الجذع إليه ، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة ، فكل شيء حي مسبح بحمد الله ولا يسبح إلا من يعقل من يسبحه ، ويثني عليه بما يستحقه ، فالله تعالى يرزقنا الإيمان إذا لم نكن من أهل العيان والكشف والشهود لهذه الأمور ، التي أعمى الله عنها أهل العقول الذين تعبدتهم أفكارهم وغير المؤمنين الذين طمس الله على قلوبهم ، فمن علم أن كل شيء ناطق ناظر إلى ربه لزمه الحياء من كل شيء ، حتى من نفسه

ص 550

[دور العقل في الإنس والجن]
وجوارحه ، فكل شيء في العالم يقال فيه عند أهل النظر وفي العامة إنه ليس بحي ولا حيوان ، فإن الله عندنا قد فطره لمّا خلقه على المعرفة به والعلم ، وهو حي ناطق بتسبيح ربه ، يدركه المؤمن بإيمانه ويدركه أهل الكشف عينا ، وأما الحيوان ففطره الله على العلم به تعالى ونطّقه بتسبيحه ، وجعل له شهوة لم تكن لغيره من المخلوقات ، وفطر الملائكة على المعرفة والإرادة لا الشهوة ، وفطر الجن والإنس على المعرفة والشهوة - وهو تعلق خاص في الإرادة - لأن الشهوة إرادة طبيعية ، فليس للإنس والجن إرادة إلهية كما للملائكة بل إرادة طبيعية تسمى شهوة ، وفطرهما على العقل لا لاكتساب العلم ، ولكن جعله الله آلة للإنس والجن ليردعوا به الشهوة في هذه الدار خاصة لا في الدار الآخرة ، فإذا استفاد الإنسان أو الجان علما من غير كشف فإن ذلك مما جعل الله فيه من قوة الفكر ، فكل ما أعطاه الفكر للنفس الناطقة وكان علما في نفس الأمر فهو من الفكر بالموافقة ، فالعلوم التي في الإنسان إنما هي بالفطرة والضرورة والإلهام ، والكشف الذي يكون له إنما يكشف له عن العلم الذي فطره الله عليه ، فيرى معلومه وأما بالفكر فمحال الوصول به إلى العلم ، وأما الإلهام والإعلام الإلهي فتتلقاه النفس الناطقة من ربها كشفا وذوقا من الوجه الخاص الذي لها ولكل موجود سوى الله ، فالفكر الصحيح لا يزيد على الإمكان وما يعطي إلا هو ، ومن علم البهائم بالله ولما خلقت له ،
ما قاله رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [إن بقرة في زمن بني إسرائيل حمل عليها صاحبها ، فقالت : ما خلقت لهذا ، وإنما خلقت للحرث ، فقال الصحابة : أبقرة تكلم ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر]
ومر بعض أهل الله على رجل راكب على حمار وهو يضرب رأس الحمار حتى يسرع في المشي ، فقال له الرجل : لم تضرب على رأس الحمار ؟
فقال له الحمار : دعه فإنه على رأسه يضرب . فهذا حمار قد علم ما تؤول إليه الأمور بالفطرة ، وكان ابن عطاء راكبا على جمل فغاصت رجل الجمل ، فقال ابن عطاء الله : جل الله ، فقال الجمل : جل الله يزيد على إجلالك . فكان الجمل أعلم بالله من ابن عطاء ، فاستحى ابن عطاء ، فهذه البهائم تعرفك وتعرف ما يؤول إليه أمرك ، وتعرف ما خلقت له ، وأنت جهلت هذا كله مع قول الله تعالى لك(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (فانظر يا محجوب أين مرتبتك من البهائم ؟ فكم بيّن الله لنا ما هي المخلوقات عليه من العلم بالله والطاعة له والقيام بحقه ولا نؤمن ولا نسمع ، ورجحنا حسّنا على الإيمان بما عرّفنا به

ص 551

ربنا ، لما لم نشاهد ذلك مشاهدة عين ، فكل ما سوى الله مسبح بحمد الله ، وقد وردت الأخبار بحياة كل رطب ويابس وجماد ونبات وأرض وسماء ، وهنا وقع الخلاف بين أهل الكشف والإيمان وبين من لا يقول بالشرائع أو من يتأول الشرائع على غير ما جاءت له ، فيقولون إنه تسبيح حال ، وأما ما أدرك الحس حياته فلا خلاف في حياته ، وإنما الخلاف في سبب حياته ما هو ؟

وفي تسبيحه بحمد ربه لما ذا يرجع ؟

إذ لا يكون التسبيح إلا من حي عاقل يعقل ذلك ، وما عدا الإنسان والجن من الحيوان ليس بعاقل عند المخالف ، بخلاف ما يعتقده أهل الكشف والإيمان الصحيح ، فيدرك المكاشف الحياة الذاتية التي في الأجسام ، وهي صفة نفسية لها بها تسبح ربها دائما ، سواء كانت أرواحها المدبرة فيها أو لم تكن ، فالحياة الذاتية لكل جوهر فيه غير زائلة ، وبتلك الحياة الذاتية التي أخذ الله بأبصار بعض الخلق عنها ، بها تشهد الجلود يوم القيامة على الناس والألسنة والأيدي والأرجل ، وبها تنطق فخذ الرجل في آخر الزمان فتخبر صاحبها بما فعل أهله ، وبها تنطق الشجرة في آخر الزمان إذا اختفى اليهود حين يطلبهم المسلمون للقتل ، وإنما كانت هذه الحياة في الأشياء ذاتية لأنها عن التجلي الإلهي للموجودات كلها ، لأنه خلقها لعبادته ومعرفته ، ودوام التجلي أعطاها الحياة الذاتية الدائمة ، وبهذه الحياة يسبح كل شيء ، فالعالم كله - الذي هو عبارة عن كل ما سوى الله - حيوان ناطق ، لكن تختلف أجسامه وأغذيته وحسه ، فهو الظاهر بالصورة الحيوانية وهو الباطن بالحياة الذاتية ، فأنطق الحق العالم كله بالتسبيح بحمده بلسان فصيح ينسب إليه بحسب ما تقتضيه حقيقته ، وكل موجود من الأجسام له لطيفة روحانية إلهية تنظر إليه من حيث صورته لا بد من ذلك ، والتسبيح تنزيه ما هو ثناء بأمر ثبوتي ، لأنه لا يثنى عليه إلا بما هو أهل له ، وما هو له لا يقع فيه المشاركة ، وما أثني عليه إلا بأسمائه ، وما من اسم له سبحانه عندنا معلوم إلا وللعبد التخلق به والاتصاف به على قدر ما ينبغي له ، فلما لم يتمكن في العالم أن يثني عليه بما هو أهله ، جعل الثناء عليه تسبيحا من كل شيء ، ولهذا أضاف الحمد إليه فقال« يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »أي بالثناء الذي يستحقه وهو أهله ، وليس إلا التسبيح ، فإنه سبحانه يقول(سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ)والعزة المنع من الوصول إليه بشيء من الثناء عليه الذي لا يكون إلا له(عَمَّا يَصِفُونَ)وكل مثن واصف ، فذكر سبحانه تسبيحه في كل حال ومن كل عين ، فقال(تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ

ص 552

وَمَنْ فِيهِنَّ)وما ثم إلا هؤلاء ، ولما كان الأمر بالثناء على الله على ما قررناه لم يتمكن لنا أن نستنبط له ثناء ، فإن كان التسبيح ثناء ، فقد قيد ثناء كل موجود في العالم بقوله تعالى « بحمده » فقيد تسبيح كل شيء بحمده المضاف إليه ، أي الثناء الذي أثنى به على نفسه ، وهو الذي أنزله من عنده ، في كتبه وعلى ألسنة رسله ، على حد ما يعلمه هو لا على حد ما نفهمه ، فإنه تعالى نبّه بقوله« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »إلا هذا الإنسان فإن بعضه يسبحه بغير حمده ، فنحن نكون في الثناء عليه بما أثنى به على نفسه حاكين تالين ، لأن الثناء على المثنى عليه مجهول الذات ، لا يقبل الحدود والرسوم ، ولا يدخل تحت الكيفية ، ولا يعرف كما هو عليه في نفسه ، وهو الغني عن العالمين ، فلا تدل على المعرفة به الدلالات ، وإنما تدل على استنادنا إليه من حيث لا يشبهنا أو لا يقبل وصفنا ، وما من اسم إلهي إلا ونتصف به ، فما تلك هي المعرفة المقصودة التي يعلم بها نفسه ، فشرع التسبيح وفطر عليه كل شيء ، وهو نفي عن كل وصف لا إثبات ، فالتسبيح تنزيه ونفي لا إثبات ، والثناء على الله بالتسبيح لا تكل به الألسنة ، وهو تسبيح كل ما سوانا ، أي الأنفس الناطقة ، فإنا لا نفقه تسبيحهم إلا إذا أعلمنا به ، فالمحامد لا تقف عند حد ، والمسبّح لا يسبحه إلا بحمده ، بخلاف الثناء بالأسماء ، فإن الألسنة (أي ألسنة الأنفس الناطقة) تكل وتعيا وتقف فيها ، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلم خاتما عند الإعياء والحصر [لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك] ، وتتبعنا الكتاب والسنّة في التسبيح إذا سبح به المسبح - أعني بلفظه الخاص به الدال عليه - فوجدناه أنه لا بد أن يقيد باسم من الأسماء الإلهية الظاهرة أو المضمرة والمضافة والمطلقة ، فطلبنا هذه الأسماء فوجدناها تدور على الله ، والرب المضاف ، والاسم الناقص ، والاسم المضمر كالهاء ، والملك والعلي ، فالله يقول)فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ)والرب قوله(سُبْحانَ رَبِّكَ)والاسم الناقص(سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ)

والمضمر قوله (سبحانه وتعالى) والملك مثل الذي ورد في السنة (سبحان الملك القدوس) والعلي كما ورد في السنة (سبحان العلي الأعلى)

وقد ورد من غير تقييد في السنة مثل قول (سبوح) وهذا ذكر المذكور ، ونتيجته أعظم النتائج ، لأنه كناية عن عين المسبّح بالتسبيح ، فاسمه هنا عينه ، وهذا أكمل تسبيح العارفين ، لأنه غاب عن الاسم فيه بالمسمّى ، ولما كان التسبيح بحمده قربة به، فقال في الصحيح عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [سبحان الله والحمد لله أنهما يملآن أو يملآ ما بين

ص 553

السماء والأرض] وأراد قوله : سبحان الله وبحمده ، فإن الحمد لله تملأ الميزان ، فإنها آخر ما يجعل في الميزان فبها يمتلئ ، فالعارف من سبح الله بما أثنى به على نفسه وما استنبط شيئا ، ولهذا قال تعالى :« وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »فدل على أن كل شيء يسبح إلهه بما تقرر عنده منه مما ليس عند الآخر ، فلو كان تسبيحهم راجعا إلى أمر واحد لم يجهل أحد تسبيح غيره ، وفي ذلك إشارة إلى الذين استنبطوا الثناء عليه تعالى بعقولهم فنسوا قوله تعالى « بحمده » فحجبهم عن ذلك أدلة عقولهم ، إذ ستر الله عنها ذلك بستر أفكارهم فلم يؤاخذهم على ذلك لقوله :« إِنَّهُ كانَ حَلِيماً »فلم يؤاخذ مع القدرة على ما تركتم من الثناء عليه بما أثنى به على نفسه ، ولم يعجل عليكم بالعقوبة فيمن يزعم أنه على وصف كذا خاصة وما هو على وصف كذا ، فكان حليما مع ما في ذلك من سوء الأدب منكم« غَفُوراً »بما ستره عنكم من علم ذلك ممن هو بهذه المثابة ، فوصف نفسه تعالى في آخر هذه الآية بأنه غفور لما ستر به قلوبهم عن العلم به إلا من شاء من عباده ، فإنه أعطاه العلم به على الإجمال ، فإذا أراد العبد نجاة نفسه وتحصيل أسباب سعادته ، فلا يحمد الله إلا بحمده ، كان ما كان ، على علم الله في ذلك من غير تعيين ، فإذا قام فضول بالإنسان واستنبط له ثناء لم يجئ بذلك اللفظ خطاب إلهي فما سبحه بحمده بل بما استنبطه من عنده ، فينقص عن درجة ما ينبغي ، فقل ما قاله عن نفسه ولا تزد في الرقم وإن كان حسنا تكن من أهل الحق ، فإن الله خلق العالم للتسبيح بحمده لا لأمر آخر ، فالعالم لا يفتر عن التسبيح طرفة عين لأن تسبيحه ذاتي كالنفس للمتنفس ، وهذه الآية إخبار من الحق عن الأشياء أنها تنزه بحمده أي بالثناء عليه ، والتنزيه البعد ، وما ذكر الله أنه أمرهم بتسبيحه ، بل أخبر أنهم يسبحون بحمده ، فاجعل بالك لقول الله في تلاوتك لما يقول ربك عن نفسه وما يقوله العالم عنه ، وفرّق ، ولا تحتج فيه إلا بما قاله عن نفسه لا بما يحكيه من قول العالم فيه ، تكن من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته - نصيحة - لما كان المؤمن لا يشك في أن كل شيء مسبح ، وكل مسبح حي عقلا ، فإن أهل الورع يتورعون عن صيد الحيوان كما يفعل الملوك ومن لا حاجة له بذلك ، للفرجة واللهو واللعب ، فقد ورد أن العصفور يأتي يوم القيامة فيقول : يا رب سل هذا لم قتلني عبثا ؟ وكذلك من يقطع شجرة لغير منفعة أو ينقل حجرا لغير فائدة تعود على أحد من خلق الله.

ص 554

[سورة الإسراء (17) : الآيات 45 إلى 46]

وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (46)

[آيتان أمان من الوسواس]

من قرأ هاتين الآيتين كانتا له أمانا من الوسواس ، وقوله تعالى :« وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً »لأنهم لم يسمعوا بذكر شركائهم واشمأزت قلوبهم ، هذا مع علمهم بأنهم هم الذين وضعوها آلهة ، ولهذا قال : سموهم ، فإنهم إن سموهم قامت الحجة عليهم .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 47 إلى 55]

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48) وَقالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (49) قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (50) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (51)

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (52) وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً(55)

ص 555

[" وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ "]

« وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ »مع أن النبوة موجودة ، فما زالوا في النبوة مع فضل بعضهم على بعض ، فتفضل منازلهم بتفاضلهم وإن اشتركوا في الدار ، فقوله تعالى« وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ »بما يقتضيه الشرف مع اجتماعهم في درجة النبوة ، أي يزيد كل واحد على صاحبه برتبة تقتضي المجد والشرف ، أي جعلنا عند كل واحد من صفات المجد والشرف ما لم نجعل عند الآخر ، فقد زاد بعضهم على بعض في صفات الشرف والمراتب التي فضلوا بها بعضهم على بعض ، أي أعطينا هذا ما لم نعط هذا ، وأعطينا هذا ما لم نعط من فضله ولكن من مراتب الشرف ، فمنهم من كلم الله ، وآتينا عيسى البينات وأيدناه بروح القدس ، ومنهم من فضل بأن خلقه بيديه وأسجد له الملائكة ، ومنهم من فضل بالكلام القديم الإلهي بارتفاع الوسائط ، ومنهم من فضل بالخلة ، ومنهم من فضل بالصفوة وهو إسرائيل يعقوب ، فهذه كلها صفات شرف ومجد ، ولا يقال : إن خلّته أشرف من كلامه ولا أن كلامه أفضل من خلقه بيديه ، بل كل ذلك راجع إلى ذات واحدة لا تقبل الكثرة ولا المفاضلة ، ومذهب الجماعة أن كل واحد من الأنبياء فاضل مفضول ، فخص آدم بعلم الأسماء الإلهية ، وخص موسى بالكلام ، وخص رسول الله صلّى الله عليه وسلم بما ذكر عن نفسه ، وخص عيسى بكونه روحا ، ومع علمنا بأن الله فضّل بعضهم على بعض ، فله سبحانه أن يفضل بين عباده بما شاء ، وليس لنا ذلك ، فإنا لا نعلم ذلك إلا بإعلامه ، فإن ذلك راجع إلى ما في نفس الحق سبحانه منهم ، ولا يعلم أحد ما في نفس الحق ، ولا دخول هنا للمراتب الظاهرة والتحكم ، وقد نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن نفضل بين الأنبياء وأن نفضله صلّى الله عليه وسلم عليهم إلا بإعلامه أيضا ، وعيّن يونس عليه السلام وغيره ، فمن فضّل من غير إعلام الله فقد خان رسول الله صلّى الله عليه وسلم وتعدى ما حده له رسول الله صلّى الله عليه وسلم - وجه في هذه المفاضلة - الرسالة ونبوة الشرائع المتعدية إلى الأمم ، والخاصة بكل نبي ، اختصاص إلهي في الأنبياء والرسل لا ينال بالاكتساب ولا بالتعمل ، وخطاب الحق قد ينال بالتعمل ، والذي يخاطب به إن كان شرعا يبلّغه أو يخصه ، ذلك هو الذي نقول فيه : لا ينال بالتعمل ولا بالكسب ، وهو الاختصاص الإلهي المعلوم ، فكل شرع ينال به عامله هذه المرتبة فإن نبي ذلك الشرع من أهل هذا المقام ، وهو زيادة على شريعة نبوته له ، فضلا من الله ونعمة ، وكل شرع لا ينال العامل به هذا المقام فإن نبي ذلك الشرع لم يحصل له هذا المقام الذي

ص 556

حصل لغيره من أنبياء الشرائع ، فهذا وجه من الوجوه التي قال تعالى فيها »: وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ »وقوله تعالى(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ)قال الخضر لموسى في هذا المقام(وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً)فإن موسى عليه السلام في ذلك الوقت لم يكن له هذا المقام الذي نفاه عنه العدل بقوله ، وتعديل الله إياه بما شهد له به من العلم ، وما رد عليه موسى في ذلك ولا أنكر عليه بل قال(سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً).

[سورة الإسراء (17) : آية 56]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (56)

[- تحقيق - تعلم الخصام]

-تحقيق - تعلم الخصام ، فإن الحق سيجعلك بين المشتركين ، فلا تتخلص منهم إلا بالحجة ، فانظر من عبد غير الحق فقل له : ما لك وكذا ؟ اطلب منه كذا . ولا يكون هذا القول إلا غيرة منك في حق الحق ، فإن الذي يطلبه منهم لا يكون ، فتبقى حجتهم داحضة ، وإن قلت ذلك لا من أجل الغيرة يكون ما طلبت منهم ، فيزداد الكافر كفرا ، وقد ترتاب أنت ، فلا تتعرض للفتن إلا بقدم راسخة عند الحق ، ومن لا قدم له عند الحق لا صدق له ، ومن لا صدق له سقط حظه من الحق .

[سورة الإسراء (17) : آية 57]

أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (57)

[مقام الرجاء]

« وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ »إن الرجاء مقام مخوف ، يحتاج صاحبه إلى أدب حاضر حاصل ومعرفة ثابتة لا يدخلها شبهة ، فإنه مقام على جانب الطريق ما هو في نفس الطريق ، تحته مهواة بأدنى زلة يسقط صاحبه من الطريق ، وهو على طريق الحياة الدائمة التي بها بقاء العالم في النعيم ، والحال التي ينبغي أن يظهر سلطانه فيها عند الاحتضار ، وأما قبل ذلك فيساوى بين حكمه وحكم الخوف إن كان مؤمنا حقيقة ،
قال الله تعالى : [أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا] وكذلك ينبغي أن يظن بنفسه شرا لا بربه ، إلا عند الموت يشتغل بربه في تلك الحال ويظن به خيرا ، ويعرض عن ظنه بنفسه جملة واحدة ، بخلاف حاله في دنياه.

ص 557

إن الرجاء كمثل الخوف في الحكم *** فاعزم عليه وكن منه على علم
إن الرجاء مقام ليس يعلمه *** إلا أولو العلم بالرحمن والفهم

[سورة الإسراء (17) : الآيات 58إلى 60]
وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (58) وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً (59) وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْياناً كَبِيراً (60)
الشجرة مشتقة من التشاجر لتداخل أغصانها بعضها على بعض ، كالمتشاجرين يدخل كلام بعضهم في كلام بعض بالمخالفة والمنازعة ، ولذلك ما ذكر الله تعالى في القرآن إلا ثمرات الجنة ، فإنه جعلها منزل موافقة ، فقد يكون أغصانها تخرج على الاعتدال والاستقامة ، وذكر ذلك في النار فقال :« وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ »
وقال : [إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم] فإن جهنم دار نزاع وتشاجر .

[سورة الإسراء (17) : آية 61]
وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61)
اعلم أن كل مخلوق ما عدا بني آدم في مقام الخشوع والتواضع إلا الإنسان ، فإنه يدعي الكبرياء والعزة والجبروت على الله تعالى ، وأما الجن فتدعي ذلك على من دونها في زعمها من المخلوقين ، كاستكبار إبليس من حيث نشأته على آدم عليه السلام ، ولذا قال :« أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً »لأنه رأى عنصر النار أشرف من عنصر التراب ، وقال(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) *فلم يتكبر على الله عزّ وجل ، فاختص الإنسان وحده من سائر المخلوقات بهذه الصفة .
واعلم أن سبب سجود الملائكة لآدم إنما كان لأجل الصورة ، لا لأن علّمهم الأسماء ، فأمروا بالسجود قبل أن يعرفوا فضله عليهم بما علمه الله من الأسماء ،

ص 558

ولو كان السجود بعد ظهوره بالعلم ما أبى إبليس ولا قال(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ) *ولا استكبر عليه ، ولهذا قال« أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً »وقال)خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) *ثم بعد ذلك أعلم الله الملائكة بخلافته فقالوا ما أخبر الله عنهم ، ولهذا قال تعالى في بعض ما كرره من قصته« وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ » *فأتى بالماضي من الأفعال ، وبأداة إذ وهي لما مضى من الزمان ، فاجعل بالك لهذه المسألة ، لتعلم فضل آدم بعلمه على فضله بالسجود له لمجرد ذاته ، ولما ذا نهي في الشرع أن يسجد إنسان لإنسان ، فإنه سجود الشيء لنفسه ، فإنه مثله من جميع وجوهه ، والشيء لا يخضع لنفسه ، ولهذا لما سئل صلّى الله عليه وسلم في الرجل إذا لقي الرجل أينحني له ؟ قال : لا ، قيل له : أيصافحه ؟ قال : نعم .

[سورة الإسراء (17) : آية 62]

قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (62)

فقال تعالى من كرمه لإبليس وعموم رحمته .

[سورة الإسراء (17) : آية 63]

قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (63)

ومن الأمر اللطيف الذي تجعله قرائن الأحوال وعيدا وتهديدا ، والظاهر تعلق بالحكم ، لاستواء الرحمن على العرش ، واتساع الرحمة وعمومها حيث لم تبق شيئا إلا حكمت عليه ، ومن حكمها كان قوله تعالى .

[سورة الإسراء (17) : آية 64]

وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (64)

لما كان للجن - شياطينهم وغير شياطينهم - الإغواء ، أمرهم الله من خلف حجاب البعد بالاستفزاز والمشاركة في الأموال والأولاد ، ابتلاء لهم وامتحانا ، فيقول الشيطان للإنسان اكفر ، فإذا كفر يقول الشيطان(إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ)ولو أن هذه الآية وأمثالها فيما يختص بإبليس أوامر إلهية ، فإنها لم تكن ابتداء من الله ، فلو كانت ابتداء ما شقي إبليس ، ولكن لما كانت إجابة لإبليس لما قال(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

ص 559

(لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ)شقي بها ، كما تعب المكلف فيما سأله من التكليف ، فإبليس مصدّق لله فيما أخبر به عنه ممتثل أمر الله بشبهة في أمره في قوله(وَعِدْهُمْ)فأخبر الله تعالى عنه(الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ)فما جاء إبليس إلا بأمر الله تعالى ، وهو أمر إلهي يتضمن وعيدا وتهديدا ، ولكن لطف الله بإبليس بأن جعل له متعلقا يتعلق به في موطن خاص ، فأدرج الرحمة من حيث لا يشعر بها ، ولو شعر إبليس بهذا الاستدراج الرحماني ، ما طلب الرحمة من عين المنة ، ولكن حجبته قرائن الأحوال عن اعتبار صفة الأمر الإلهي ، وكان ابتلاء شديدا في حقنا ، ليريه تعالى أن في ذرية آدم من ليس لإبليس عليه سلطان ولا قوة فقال تعالى .

[سورة الإسراء (17) : آية 65]

إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (65)[الحفظ للأولياء والعصمة للأنبياء]

كلّما قربت أحوالك من أحوال الأنبياء أي باتباع الرسول والجري على سنته ، كنت في العبودة أمكن ، وكانت لك الحجة ، ولم يكن للشيطان عليك سلطان ، كما قال تعالى :« إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ »وقال)يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً)فلا أثر للشيطان فيهم ، فإن السجدة القلبية إذا حصلت للإنسان حالة مشاهدة عين فقل كمل وكملت معرفته وعصمته فلم يكن للشيطان عليه سبيل ، وتسمى هذه العصمة في حق الولي حفظا كما تسمى في حق النبي والرسول عصمة ، ليقع الفرق بين الولي والنبي ، فالأنبياء محفوظون ظاهرا وباطنا ، والولي محفوظ من الأمر الذي يقصد الشيطان عند إلقائه في قلب الولي ما شاء الله أن يلقي إليه ، فيقلب عينه بصرفه إلى الوجه الذي يرضي الله ، فيحصل بذلك على منزلة عظيمة عند الله ، ولولا حرص إبليس على المعصية ما عاد إلى هذا الولي مرة أخرى ، فإنه يرى ما جاءه به ليبعده بذلك من الله يزيده قربا وسعادة ، والأنبياء معصومون أن يلقي الشيطان إليهم ، فلهم العصمة من الشيطان ظاهرا وباطنا ، وهم المحفوظون من الله في جميع حركاتهم ، وذلك لأنهم قد نصبهم الله للناس ، ولهم المناجاة الإلهية ، فالأنبياء المرسلون معصومون من المباح أن يفعلوه من أجل نفوسهم ، لأنهم يشرعون بأفعالهم وأقوالهم ، فإذا فعلوا مباحا يأتونه للتشريع ليقتدى بهم ، ويعرفون الأتباع عين الحكم الإلهي فيه ، فهو واجب عليهم ليبينوا للناس ما أنزل إليهم . فهذا الفرق بين العصمة والحفظ ، وإنما جعلوا الحفظ للولي أيضا أدبا مع النبي ، فإن الشيطان ما له سبيل على قلوب بعض الأولياء من

ص 560

أجل العلم الذي أعطاه التجلي الإلهي لقلوبهم ، وهذا لا يكون لأحد من الأولياء إلا لمن سجد قلبه ، فإن الشيطان لا يعتزل عن الإنسان إلا في حال سجوده في الظاهر والباطن ، فإن لم يسجد قلب الولي فليس بمحفوظ« وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا »فيحفظ الله أولياءه من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، إذ لا دخول للشيطان على بني آدم إلا من هذه الجهات ، والأديب من عباد الله خلّاق في هذه الدار بالعمل ببسم الله الرحمن الرحيم ، ليسلم عمله من مشاركة الشيطان ، حيث أمره الله بالمشاركة في الأموال والأولاد ، فهو ممتثل هذا الأمر حريص عليه ، ونحن مأمورون باتقائه في هذه المشاركة ، فطلبنا ما نتقيه به لكونه غيبا عنا لا نراه ، فأعطانا الله اسمه ، فلما سمينا الله على أعمالنا عند الشروع فيها توحدنا بها ، وعصمنا من مشاركة الشيطان ، فإن الاسم الإلهي هو الذي يباشره ويحول بيننا وبينه ، وإن بعض أهل الكشف ليشهدون هذه المدافعة التي بين الاسم الإلهي من العبد في حال الشروع وبين الشيطان ، وإذا كان العبد بهذه الصفة كان على بينة من ربه وفاز ونجا من هذه المشاركة ، وكان له البقاء في الحفظ والعصمة في جميع أعماله وأحواله .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 66 إلى 67]

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (66) وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (67)

»وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ »نبه بذلك على موضع انقطاع الأسباب« ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ »يعني الأسباب ، ضل منكم وتلف ، فلم تجدوه ، وما وجدتم عند فقده إلا الله ، فحيث تفنى الأسباب هناك يوجد الله ، فقال« إِلَّا إِيَّاهُ » *فتدعونه في دفع الشدائد ، فكان هو السبب الذي ينجي في أوقات الضرورات المهلكة ، التي يقطعون فيها أن آلهتهم لا تغني عنهم فيها شيئا ، فيلجئون إلى الله في رفعها ، فإن الإنسان بحكم الطبع يجري إذا مسه الضر إلى طلب من يزيله عنه وليس إلا الله ، فما من شيء إلا ويرجع في ضرورته إذا انقطعت به الأسباب إليه« فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً »فلما نجاه الله وأغاثه

ص 561

واستقل ، قال : هذا أيضا من جملة الأسباب التي يقوم بعضها عن بعض فيما تريده ، فجعله واحدا من الأسباب وهو المشرك .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 68 إلى 72]

أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً (69) وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً (70) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71) وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72)

"وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ »يعني في الدنيا ، وسماها دنيا لأنها أقرب إلينا من الآخرة« أَعْمى »وهو حال الجهل بالله كما هو في نفس الأمر »فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى »كما هو في الدنيا ، فإن الإنسان إنما يموت على ما عاش عليه ، فإذا كان أعمى في الدنيا - والعمى هنا الجهل بالله - ويموت على ذلك فيجيء في الآخرة بذلك الجهل ،

فهو ما عاش إلا حائرا ، فإذا وقع الكشف هناك زاد حيرة ، وهو قوله تعالى« وَأَضَلُّ سَبِيلًا »أي أشد عمى ، فهو أضل من كونه في الدنيا ، فإنه كان يترجى في الدنيا لو كشف له أن تزول عنه الحيرة ، والسبيل هو الطريق ،

وليس إلا الفكر فيما منع التفكر فيه« وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ »الدنيا« أَعْمى »عن إدراك أنوار ما جاءت به الشرائع من الحق« فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى »كذلك هم في النار عمي عن إدراك أنوار السيارة وغيرها من الكواكب« وَأَضَلُّ سَبِيلًا »

وإنما كان أضل سبيلا ، فإنه كان في الدنيا يجد من يرشده إلى الطريق ولكن لا يسمع ، وفي النار ما يجد من يرشده إلى الطريق ،

فإنه ما ثمّ طريق ، لكن يجد من يندّمه على ما فاته ليزيده حسرة إلى حسرته ، فكما تكون

ص 562

اليوم تكون غدا ، فاجهد أن تكون هنا ممن أبصر الأمور على ما هي عليه .

[سورة الإسراء (17) : آية 73]

وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73)

وما سامحه سبحانه في طمعه باستدراجهم بذلك ليؤمنوا بقوله تعالى .

[سورة الإسراء (17) : آية 74]

وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74)« وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ »بما أوحينا إليك في ذلك »لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا ».

[سورة الإسراء (17 :)آية 75]

إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (75)

هذا مع القصد الحسن ، فكيف بغير ذلك ؟ والضعف أشد من العذاب المستحق بالأصالة وسببه الركون .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 76 إلى 78]

وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (77) أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (78)

[في معنى إقامة الصلاة]

دلوك الشمس هو زوالها عن استوائها - تحقيق وإشارة في معنى إقامة الصلاة - يا عقل ، ربك قد دعاك إلى الدخول عليه ، والوقوف بين يديه ، فتسوك بعود أراك تفاؤلا ، فإن الفأل مشروع ، فهو خير من سبعين صلاة ، وفي رواية من أربعمائة كما جاء في الموضوع ، فالزم الأدب واحضر مع النسب ، فإن علم النسب يوجب أدبك ، وينهج مذهبك وهذا أنت خلف الباب ، تريد رفع الحجاب ، فقل:

ص 563

الله أكبر ، إثباتا لمن تكبر عليه وإعظاما ، ونزولا عليه وإلماما ، وقهرا له وإرغاما ، ورحمة به وإكراما .

أشهد أن لا إله إلا الله : إثباتا لمن ادعى الألوهية في نفسه ، حين أوجدها له في يومه دون أمسه ، فتنعم بها في حسه ، وظهر بها عند أبناء جنسه ، فحال بينه وبين دوام أنسه .

أشهد أن محمدا رسول الله : تحققا أن الرسالة في الثرى ، وأن كل الصيد في جوف الفرا ، فسرت سريان النفس في الورى ، فمنهم من تقدم ومنهم من طلب الوراء ، وعند الصباح يحمد القوم السرى .

حي على الصلاة : إثباتا للغفلات ، وتعشق الغافلين بالكائنات ، فاتحدوا بها في عالم الكلمات ، وانفصلوا عنها في عالم السماوات ، انفصال الروحانيات الملكوتيات .

حي على الفلاح : تعينا للبقاء « 1 » ، ونجاة السعداء ، وعدمها من الأشقياء ، والفصل بين الأرض والسماء ، يوم الفصل والقضاء .

قد قامت الصلاة : فقاموا إجلالا لقيامها ، وبادروا إليها تعظيما لإمامها ، فوهبتهم الأسرار القدسية ، بين افتتاحها بتكبيرها ، وتمامها بسلامها ، فمن فارح بقدومها ، جزع من إقدامها ، ومن فارح بقضائها ، إذ كان على بيّنة من تمامها ، ومن محب في دوامها للتلذذ بكلامها .

الله أكبر : تكبيرا من غير مفاضلة ، وقربا من غير مواصلة ، وبعدا من غير مفاصلة ، وإنباء من غير مراسلة ، وإنعاما بمعاملة وغير معاملة ، ورؤية من غير مقابلة .

لا إله إلا الله : إثباتا للشرك والتوحيد في عالم الجمع والوجد ، في عالم الفرق والفقد ، سر التعطيل والوجود ، والنسبة والتمجيد ، لانفراد الوعد والوعيد ، من القريب والبعيد ، بمحل التعظيم والتأييد .

وأنت يا حس ، فقل :

الله أكبر : تنفي تكبير المتكبرين من غير طريق دعوى المدعين ، وإرغاما لأنوف الحاسدين ، ودحضا لحجة المبطلين ، وإقامة لبرهان المؤمنين.

....

(1)الفلاح هو البقاء لغة.

ص 564

أشهد أن لا إله إلا الله : ردا على من قال : إنه الله ، فإن الحكيم الأواه ، من قال بنفي الأشباه ، وساوى في الذكر بين القلوب والأفواه ، وفي السجود بين الأقدام والجباه .
أشهد أن محمدا رسول الله : إثباتا لقربه من ربه ، بعالم تربه ، ومن حبّه بعالم قلبه ، لصحة حبّه ، فاتّخذ حبيبا وخليلا ، وعبدا ورسولا ، فصحت له السيادة على صحبه .
حي على الصلاة : إثباتا للإيمان ، وتعشقا في العيان ، بالبصر والجنان ، في الإساءة والإحسان ، والجحيم والجنان ، فليس العجب من ورد في بستان ، إنما العجب من ورد في قعر النيران " 1 " .
حي على الفلاح : إقبالا على الإحسان بالأمان ، فإن البقاء بقاءان ، والنجاة نجاتان ، وكل ذلك قد ظهر في الإنسان .
قد قامت الصلاة : من قعدتها ، وانحلت (لام ألفها) « 2 » من عقدتها ، فصارت سلطانة بوحدتها ، وظهرت في المؤمنين بقوتها ونجدتها ، وفي العارفين بترك عددها وعدتها ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين .
الله أكبر : مفاضلة روحانية ، ومرتبة ربانية ، ومعادلة رحمانية ، وتكملة إنسانية ، ونكتة رهبانية .
لا إله إلا الله : شرك مقبول « 3 » ، في توحيد معلول ، صاحبها مقيد مغلول ، وتاركها في روض مطلول ، لا ملول ولا مملول .
جعلنا الله وإياكم ممن أقامها دائما ، وكان بأسرارها عالما .

يا مقيم الصلاة ما لك تدعو *** للمناجاة من حماه العيان
وهي عندي إزاحة لحجاب *** قررته عند الحكيم الكيان
ودليلي من قال : قم يا بلال *** فأرحنا بها فسر الزمان
فأقام الصلاة فارتاح قلب *** جاءه الخوف تارة والأمان
قل لمن يقرأ القرآن : تبحر *** في علوم شتى حواها القران

---

(1)راجع كتابنا شرح كلمات الصوفية صفحة 354.
(2)راجع الإشارة في لام ألف ص 408 الجزء الأول آل عمران آية. (1)
(3) راجع معنى الشرك هنا في كتابنا شرح كلمات الصوفية ص 404 .

ص 565

خلف ستر أدق من وهم سر *** شاهد الله إذ أتته الحسان
هو وهم وليس علما ولكن *** فيه سر لربنا وامتنان
فإذا ما قرأت قرآن ربي *** أظهر القول ما حواه الجنان
للفؤاد الكلام من غير حرف *** يا ولي ، وللحروف اللسان

عجبا ألا ترى كل عبادة لا تمنع من قامت به التصرف في بعض أسبابه ، إلا الصلاة ، فإنها تغلق على من قامت به جميع أبوابه ، فمقامها الغيرة ، ومشهدها الحيرة ، إنية المحتد والمولد والمشهد ، وهي أسنى تكليف يقصد ، ولما كانت محل إدراك المنى ، طولب المكلف فيها بالفناء .

[سورة الإسراء (17) : آية 79]
وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (79)

[« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ «] »وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ »المتهجد عبارة عمن يقوم وينام ويقوم وينام ويقوم ، فمن لم يقطع الليل في مناجاته ربه هكذا فليس بمتهجد ، فنوم المتهجد لحقّ عينه وقيامه لحق ربه« نافِلَةً لَكَ »لا تصح نوافل الخيرات إلا بعد كمال الفرائض ، ولا تكمل الفرائض إلا باستكمال حقوقها ، ولذلك منعنا أن تصح لأحد على التعيين نافلة إلا بإخبار أو مشاهدة ،
وذلك أن الفرائض تستغرقها بالتكميل منها ، فإنه قد ورد في الصحيح عن الله تعالى أنه يقول يوم القيامة [انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئا قال : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟
فإن كان له تطوع وهو النافلة قال : أكملوا لعبدي فريضته من تطوعه] قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم] فالنافلة لا تكون إلا بعد تمام الفريضة ، فمن كانت فريضته من الصلاة ناقصة فإنها تكمل من نوافله ، فإن استغرقت الفرائض نوافل العبد المتهجد ، لم يبق له نافلة وليس بمتهجد ولا صاحب نافلة ، وهذه الآية نص في إثبات النافلة لرسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فإن الله ما شهد لأحد بالنوافل إلا لرسوله صلّى الله عليه وسلم ، فقال له آمرا« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ »فشهد الله لمحمد صلّى الله عليه وسلم بأن له نافلة ، فلا بد أن يكون سمعه الحق ، وبصره الحق ، وكلامه الحق ، ولم يشهد بها لأحد على التعيين ، فعلامة من لم تستغرق فرائضه نوافله وفضلت له نوافل أن يحبه الله تعالى هذه المحبة الخاصة ، وجعل علامتها أن يكون الحق سمعهم وبصرهم ،
قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم

ص 566

عن ربه : [لا زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به] - الحديث -« عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً »وعسى من الله واجبة ، والمقام المحمود هو الذي له عواقب الثناء والمقامات كلها ، أي إليه يرجع كل ثناء ، وإليه تنظر جميع الأسماء الإلهية المختصة بالمقامات ، وهو لرسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ويظهر ذلك لعموم الخلق يوم القيامة ، وبهذا صحت له السيادة على جميع الخلق يوم العرض ، فلا يجمع المحامد يوم القيامة كلها إلا محمد صلّى الله عليه وسلم ، وهو الذي عبر عنه بالمقام المحمود ، فإنه لما كان إليه ترجع المقامات كلها - وهو الجامع لها - لم يصح أن يكون صاحبه إلا من أوتي جوامع الكلم ، لأن المحامد من صفة الكلام ، فإنه موقف خاص بمحمد صلّى الله عليه وسلم يحمد الله فيها بمحامد لا يعرفها إلا إذا دخل ذلك المقام ، فمحمد صلّى الله عليه وسلم بيده لواء الحمد ، ولآدم عليه السلام علم الأسماء ، ولمحمد صلّى الله عليه وسلم علم الثناء بالمقام المحمود ، فأعطي في القيامة لأجل المقام المحمود العمل بالعلم ، ولم يعط لغيره في ذلك الموطن ، فصحت له السيادة ، فقال :

[آدم فمن دونه تحت لوائي] وما له لواء إلا الحمد ، وهو رجوع عواقب الثناء إلى الله ، وهو قوله الحمد لله لا لغيره ، وهذا يدلك أن علوم الأنبياء أذواق لا عن فكر ونظر ، فإن الموطن يقتضي هنالك بآثاره أسماء إلهية يحمد الله بها ، ما يقتضيه موطن الدنيا ، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلم في هذا المقام [فأحمده بمحامد لا أعلمها الآن]

وهذا المقام المحمود هو المقام المثنى عليه ، الذي أثنى الحق عليه ، الذي يقيم الحق فيه سبحانه محمدا صلّى الله عليه وسلم ، هو الوسيلة ، لأن منه يتوسل إلى الله فيما توجه فيه من فتح باب الشفاعة ، وهو شفاعته للجميع ، فهو مقام شفاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلم في الشافعين أن يشفعوا يوم القيامة ، فمن المقام المحمود يفتح باب الشفاعة للملائكة فمن دونهم ، وله الأولية في الشفاعة ،

وأول شفاعة يشفعها عند الله تعالى في حق من له أهلية الشفاعة من ملك ورسول ونبي وولي ومؤمن وحيوان ونبات وجماد ، فيشفع رسول الله صلّى الله عليه وسلم عند ربه لهؤلاء أن يشفعوا ، وأن يخرج الحق من النار أو يدخل الجنة من لم يعمل خيرا قط ، حتى لا يبقى في النار إلا أهلها الذين هم أهلها ،

فيجيبه الله لما سأل فيه ، فكان محمودا بكل لسان وبكل كلام ، فله أول الشفاعة ووسطها وآخرها ، فإنه إذا قام الناس ، ومدّت الأرض ، وانشقت السماء وانكدرت النجوم ، وكورت الشمس وخسف القمر ، وحشرت الوحوش وسجرت البحار ، وزوجت النفوس

ص 567

بأبدانها ، ونزلت الملائكة على أرجائها - أعني أرجاء السماوات - وأتى ربنا في ظلل من الغمام ، ونادى المنادي : يا أهل السعادة ، فأخذ منهم ثلاث طوائف إلى الجنة ، وهم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ، والذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والطائفة الثالثة هم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ليجزي الصادقين بصدقهم ، ثم يخرج عنق من النار فيقبض ثلاث طوائف إلى النار وهم : كل جبار عنيد ، والطائفة الثانية كل من آذى الله ورسوله ، والطائفة الثالثة أهل التصاوير الذين يصورون صورا في الكنائس لتعبد تلك الصور والذين يصورون الأصنام ، فإذا ماج الناس ، واشتد الحر وألجم الناس العرق ، وعظم الخطب وجل الأمر ، وكان البهت فلا تسمع إلا همسا ، وجيء بجهنم ، وطال الوقوف بالناس ولم يعلموا ما يريد الحق بهم ،

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [فيقول الناس بعضهم لبعض تعالوا ننطلق إلى أبينا آدم فنسأله أن يسأل الله لنا أن يريحنا مما نحن فيه فقد طال وقوفنا ، فيأتون آدم فيطلبون منه ذلك ، فيقول آدم : إن الله قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وذكر خطيئته فيستحي من ربه أن يسأله ، فيأتون إلى نوح بمثل ذلك فيقول لهم مثل ما قال آدم ، ويذكر دعوته على قومه قوله(وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً)

ثم يأتون إلى إبراهيم عليه السلام بمثل ذلك ، فيقولون له مثل مقالتهم لمن تقدم ، فيقول كما قال من تقدم ، ويذكر كذباته الثلاث ، ثم يأتون إلى موسى وعيسى ويقولون لكل واحد من الرسل مثل ما قالوه لآدم ، فيجيبونهم مثل جواب آدم ، فيأتون إلى محمد صلّى الله عليه وسلم وهو سيد الناس يوم القيامة ، فيقولون له مثل ما قالوا للأنبياء ، فيقول محمد صلّى الله عليه وسلم : أنا لها ، وهو المقام المحمود الذي وعد الله به يوم القيامة ، فيأتي ويسجد ويحمد الله بمحامد يلهمه الله تعالى إياها في ذلك الوقت لم يكن يعلمها قبل ذلك ، ثم يشفع إلى ربه أن يفتح باب الشفاعة للخلق ، فيفتح الله ذلك الباب ، فيأذن في الشفاعة للملائكة والرسل والأنبياء والمؤمنين ، فبهذا يكون سيد الناس يوم القيامة ، فإنه شفع عند الله أن تشفع الملائكة والرسل ،

ومع هذا تأدب صلّى الله عليه وسلم وقال : [أنا سيد الناس] ولم يقل سيد الخلائق فتدخل الملائكة في ذلك مع ظهور سلطانه في ذلك اليوم على الجميع ، وذلك أنه صلّى الله عليه وسلم جمع له بين مقامات الأنبياء عليهم السلام كلهم ،

ص 568

ولم يكن ظهر له على الملائكة ما ظهر لآدم عليه السلام من اختصاصه بعلم الأسماء كلها ، فإذا كان في ذلك اليوم افتقر إليه الجميع من الملائكة والناس من آدم فمن دونه في فتح باب الشفاعة ، وإظهار ما له من الجاه عند الله ، إذ كان القهر الإلهي والجبروت الأعظم قد أخرس الجميع ، وكان هذا المقام مثل مقام آدم عليه السلام وأعظم ، في يوم اشتدت الحاجة فيه ، مع ما ذكر من الغضب الإلهي الذي تجلى فيه الحق في ذلك اليوم ، ولم تظهر مثل هذه الصفة فيما جرى في قصة آدم ، فدل بالمجموع على عظيم قدره صلّى الله عليه وسلم حيث أقدم مع هذه الصفة الغضبية الإلهية على مناجاة الحق فيما سأل فيه ، فأجابه الحق ، كما جاء في حديث عثمان بن عفان في الصحيح لمسلم بن الحجاج ، وقد أقيم آدم عليه السلام في هذا المقام لما سجدت له الملائكة في الدنيا ، وهو لمحمد صلّى الله عليه وسلم في الآخرة ، وإنما ظهر به أولا أبو البشر لكونه كان يتضمن جسده بشرية محمد صلّى الله عليه وسلم ، فكانت العاقبة لمحمد صلّى الله عليه وسلم في الدار الآخرة ، فظهر في المقام المحمود ، ومنه يفتح باب الشفاعات ، فكان لآدم السجود ، ولمحمد المقام المحمود ، بمحضر الشهود ، وأين المقام المحمود من مقام السجود ؟ سجد المقربون والأبرار ، لبناء قائم من التراب والأحجار ، فالمجد الطريف والتليد ، فيمن اختص بالمقام الحميد .

[سورة الإسراء (17) : آية 80]

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (80)

أمر الحق نبيه صلّى الله عليه وسلم بأن يدعوه بهذا الدعاء المعيّن ، وهو قوله له« وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ »يعني المقام المحمود ، فإنه موقف خاص بمحمد صلّى الله عليه وسلم ،« وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ »أي إذا انتقل عنه إلى غيره من المقامات والمواقف أن تكون العناية به معه في خروجه منه كما كانت معه في دخوله إليه - نصيحة - الزم الصدق والإخلاص ، فبالصدق تعتصم ولا يؤثر فيك شيء ، وبالإخلاص تصح عبوديتك وربوبيته .« وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً »من أجل المنازعين فيه ، فإن المقام الشريف لا يزال صاحبه محسودا ، فطلب صاحب هذا المقام النصرة بالحجة - التي هي السلطان - على الجاحدين شرف هذه المرتبة ، وهم القادحون في هذا المقام تعظيما لحالهم التي هم عليها حتى لا ينسب النقص إليهم ، عن هذا

ص 569

المقام الشريف فأمره تعالى .

[سورة الإسراء (17) : آية 81]

وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (81)

" إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً" أي لا ثبات له ، وما كان القرآن معجزا إلا لكونه إخبارا عن حق ، فإن المعارض للقرآن أول ما يكذب فيه أنه يجعله من الله وليس من الله ، فيقول على الله ما لا يعلم ، فلا يثمر ولا يثبت ، فلا بد أن يعجز المعارض عن الإتيان بمثله .

[سورة الإسراء (17) : آية 82]

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً (82)

[« وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »]

« وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »لأن التخلق به والوقوف عنده يزيل المرض النفسي ، لا بد من ذلك ، ولكن للمؤمنين فهو أمان ، ومنه شفاء كفاتحة الكتاب وآيات الأدعية كلها ، وكونه رحمة لما فيه مما أوجب الله على نفسه من الوعد لعباده بالخير والبشرى ، مثل قوله (لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)وقوله(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)وكل آية رجاء« وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً »لأنهم يعدلون به عن موطنه ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فيعممون الخاص ويخصصون العام ، فسموا ظالمين قاسطين .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 83 إلى 84]

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (84)

الشكل القيد وبه سمي ما تقيد به الدابة في رجلها شكالا ، والمتشكل هو المقيد بالشكل الذي ظهر به ، يقول الله .« كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ »أي ما يعمل إلا ما يشاكله ، يعني الذي ظهر منه يدل على أنه في نفسه عليه ، والعالم عمل الحق ، فخلق الله العالم فظهر بصفات الحق ، فكان العالم حيا سميعا بصيرا عالما مريدا قادرا متكلما ، فما في العالم إلا من يسمع الأمر الإلهي في حال عدمه بقوله (كن) وما في العالم إلا حي ، فإن كل شيء مسبح بحمد الله ولا يسبح إلا حي ، وما في العالم جزء إلا وهو يشاهد خالقه من حيث عينه لا من حيث عين خالقه ، وما في العالم جزء إلا وهو يريد ويقصد تعظيم موجده ، وما في الوجود جزء

ص 570

إلا وهو متمكن قادر على الثناء على موجده ، وما في العالم جزء إلا وهو يعلم موجده من حيث ذاته لا من حيث ذات موجده ، وما في الوجود جزء إلا وهو متكلم يسبح بحمد خالقه ، وأعلمنا سبحانه أن من أسمائه تعالى الكريم ، ومن نزوله إلينا في كرمه يقول :

يا عبدي إن شردت عني دعوتك إليّ ، يا عبدي إن عصيتني سترت عليك ، سترتك عن أعين من وليته إقامة حدودي فيك وفي أمثالك فلم أؤاخذك ، وتحببت إليك بالنعم ، وجررت على خطيئتك ذيل الكرم ، فمحا آثارها كرمي ، ودعوتك إليّ بالقدوم على نعمي فإذا رجعت إليّ قبلتك على ما كان منك ، ومن يفعل معك ذلك مع غناه عنك وفقرك إليه غيري ؟

فهذا من معاملة الحق لنا على شاكلته من اسمه الكريم .

[سورة الإسراء (17) : آية 85]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)

[« وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . . . » الآية]

الروح روحان : روح الأمر وهو الذي قال فيه تعالى :(وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا)وقال :(يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ) وقال :(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (فذكر الإنذار ، وهكذا قوله)يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ (وكذلك) يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا)

فما جاء إلا بالإعلام وفيه ضرب من الزجر ، حيث ساق الإعلام بلفظة الإنذار ، فهو إعلام بزجر ، فإنه البشير النذير ، والبشارة لا تكون إلا عن إعلام ، فغلب في الإنزال الروحاني باب الزجر والخوف ، وأما الروح الثاني فهو الروح المضاف إلى نفس الحق تعالى بقوله :(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) * بياء الإضافة تنبيه على مقام التشريف ، فكان السؤال عن الروح الأول ، روح الأمر ، فإنه قال: " وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ »أي من أين ظهر ؟ فقيل له« قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي »فما كان سؤالا عن الماهية كما زعم بعضهم ، فإنهم ما قالوا ما الروح ؟ وإن كان السؤال بهذه الصيغة محتملا ، ولكن قوّى الوجه الذي ذهبنا إليه في السؤال ما جاء في الجواب من قول« مِنْ أَمْرِ رَبِّي »ولم يقل هو كذا ، فعلوم الغيب تنزل بها الأرواح على قلوب العباد ، فإن الروح هو الملقي إلى القلب علم الغيب ،

قال تعالى :(يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ)الآية« وَما أُوتِيتُمْ »أي أعطيتم« مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »فجعله هبة وهو علم الوهب لا علم الكسب ، فإنه لو أراد الكسب لم

ص 571

يقل أوتيتم ، بل كان يقول أوتيتم الطريق إلى تحصيله ، لا هو ، ونحن نعلم أن ثمّ علما اكتسبناه من أفكارنا ومن حواسنا ، وثمّ علما لم نكتسبه بشيء من عندنا بل هبة من الله عزّ وجل ، أنزله في قلوبنا وعلى أسرارنا فوجدناه من غير سبب آخر ظاهر ، مثل قوله في عبده خضر(وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً)

وليست الآية بنص في الوهب ، ولكن له وجهان : وجه يطلبه »أُوتِيتُمْ »ووجه يطلبه« قَلِيلًا »من الاستقلال ، أي ما أعطيتم من العلم إلا ما تستقلون بحمله ، وما لا تطيقونه ما أعطيناكموه فإنكم ما تستقلون به ، فيدخل في هذا العطاء علوم النظر ، فإنها علوم تستقل العقول بإدراكها . وأما إذا كان السؤال عن الماهية فيكون قوله تعالى« قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي »أي الروح الذي هو من أمر ربي هو الذي لم يوجد عن خلق ، فإن عالم الأمر كل موجود لا يكون عند سبب كوني يتقدمه ،

فقد قال البعض :

إن الروح من عالم الأمر وليس من عالم الخلق اصطلاحا ، ومن هنا للتبيين ، وأرادوا بعالم الأمر كل ما صدر عن الله بلا واسطة إلا بمشافهة الأمر العزيز ، وعالم الخلق كل موجود صدر عن سبب متقدم من غير مشافهة الأمر ، التي هي الكلمة التي لا يتصور واسطة في حقه البتة ، وأما من دونه فلا بد من واسطة .

ولما أوجد الله تعالى الكلمة المعبر عنها بالروح الكلي إيجاد إبداع ، أوجدها في مقام الجهل ومحل السلب ، أي أعماه عن رؤية نفسه فبقي لا يعرف من أين صدر ولا كيف صدر ، وكان الغذاء فيه ، الذي هو سبب حياته وبقائه وهو لا يعلم ، فحرك الله همته لطلب ما عنده وهو لا يدري أنه عنده ، فأخذ في الرحلة بهمته ، فأشهده الحق تعالى ذاته فسكن ، وعرف أن الذي طلب لم يزل به موصوفا ، وعلم ما أودع الله فيه من الأسرار والحكم ، وتحقق عنده حدوثه وعرف ذاته معرفة إحاطية ، فكانت تلك المعرفة له غذاء معينا يتقوت به وتدوم حياته إلى غير نهاية ، فقال له عند ذلك التجلي الأقدس : ما اسمي عندك ؟ فقال : أنت ربي ، فلم يعرفه إلا في حضرة الربوبية ، وتفرد القديم بالألوهية فإنه لا يعرفه إلا هو ، فقال له سبحانه : أنت مربوبي وأنا ربك ، أعطيتك أسمائي وصفاتي ، فمن رآك رآني ، ومن أطاعك أطاعني ، ومن علمك علمني ، ومن جهلك جهلني ، فغاية من دونك أن يتوصلوا إلى معرفة نفوسهم منك ، وغاية معرفتهم بك العلم بوجودك لا بكيفيتك ، كذلك أنت معي لا تتعدى معرفة نفسك ولا ترى غيرك ، ولا يحصل لك العلم بي إلا من حيث الوجود ، ولو أحطت علما بي لكنت أنت أنا ، ولكنت

ص 572

محاطا لك ، وكانت أنيتي أنيتك ، وليست أنيتك أنيتي . فأمدك بالأسرار الإلهية وأربيك بها فتجدها مجعولة فيك فتعرفها وقد حجبتك عن معرفة كيفية إمدادي لك بها ، إذ لا طاقة لك بحمل مشاهدتها ، إذ لو عرفتها لا تحدث الإنية ، واتحاد الإنية محال ، فمشاهدتك لذلك محال ، واعلم أن من دونك في حكم التبعية لك كما أنت في حكم التبعية لي ، فأنت ثوبي وأنت ردائي وأنت غطائي . ثم خلق الله من الروح النفس وهي أول مفعول عن الانبعاث - بحث - في قوله تعالى »وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي »

[مراتب الأرواح وأقسامها]

اعلم أن الله خلق الأرواح على ثلاث مراتب لا رابع لها : أرواح ليس لهم شغل إلا تعظيم جناب الحق ، ليس لهم وجه مصروف إلى العالم ولا إلى نفوسهم ، قد هيمهم جلال الله واختطفهم عنهم ، فهم فيه حيارى سكارى ، وأرواح مدبرة أجساما طبيعية أرضية ، وهي أرواح الأناسي وأرواح الحيوانات وأرواح كل شيء ، فإن كل شيء مسبح بحمد ربه ولا يسبح إلا حي ، وأرواح مسخرات لنا وهم على طبقات كثيرة ، فمنهم الموكل بالوحي والإلقاء ، ومنهم الموكل بالأرزاق ، ومنهم الموكل بقبض الأرواح ، ومنهم الموكل بإحياء الموتى ، ومنهم الموكل بالاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم ، ومنهم الموكلون بالغراسات في الجنة جزاء لأعمال العباد ، والأرواح حياتها ذاتية لها ، لذلك لم يصح فيها موت البتة . واعلم أن الأرواح المدبرة للأجسام العلوية والسفلية لها أحكام فيها ، فحكمها في الأجسام النورية هو تشكلها في الصور خاصة ، كما أن حكمها في الأجسام الحيوانية الإنسانية التشكل في القوة الخيالية مع غير هذا من الأحكام ، فإن الأجسام النورية لا خيال لها بل هي عين الخيال ، والصور تقلباتها عن أرواحها المدبرة لها ، فكما لا يخلو خيال الإنسان عن صورة كذلك ذات الملك لا تخلو عن صورة ، وبيد هذه الأرواح تعيين الأمور التي يريدها الحق ، بهذه الأجسام كلها . واعلم أن الناس قد اختلفوا في أرواح صور العالم ، هل هي موجودة عن صورة أو قبلها أو معها ؟ ومنزلة الأرواح في صور العالم كمنزلة أرواح صور أعضاء الإنسان الصغير ، كالقدرة روح اليد ، والسمع روح الأذن ، والبصر روح العين ، والتحقيق عندنا أن الأرواح المدبرة للصور كانت موجودة في حضرة الإجمال غير مفصلة لأعيانها ، مفصلة عند الله في علمه ، فكانت في حضرة الإجمال كالحروف الموجودة بالقوة في المداد ، فلم تتميز لأنفسها وإن كانت متميزة عند الله مفصلة في حال إجمالها ، فلما سوى الله صور العالم ، أي عالم شاء ، كان الروح

ص 573

الكلي كالقلم واليمين الكاتبة ، والأرواح كالمداد في القلم ، والصور كمنازل الحروف في اللوح ، فنفخ الروح في صور العالم ، فظهرت الأرواح متميزة بصورها ، فقيل هذا زيد ، وهذا عمرو ، وهذا فرس ، وهذا فيل ، وهذه حية ، وكل ذي روح ، وما ثمّ إلا ذو روح لكنه مدرك وغير مدرك ، فمن الناس من قال : إن الأرواح في أصل وجودها متولدة من مزاج الصورة ، ومن الناس من منع من ذلك ، والطريقة الوسطى ما ذهبنا إليه ، فإذا سوى الله الصورة الجسمية ، ففي أي صورة شاء من الصور الروحية ركبها ، فتنسب إليها ، وهي معينة عند الله ، فامتازت الأرواح بصورها ، فإن الله لمّا سوى جسم العالم ، وهو الجسم الكل الصوري في جوهر الهباء المعقول ، قبل فيض الروح الإلهي الذي لم يزل منتشرا غير معيّن ، إذ لم يكن ثم من يعينه ، فحيي جسم العالم به فكما تضمن جسم العالم أجسام شخصياته ، كذلك تضمن روحه أرواح شخصياته(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ)ومن هنا قال من قال : إن الروح واحد العين في أشخاص نوع الإنسان ، وإن روح زيد هو روح عمرو وسائر أشخاص هذا النوع ، ولكن ما حقق صاحب هذا الأمر صورة هذا الأمر فيه ، فإنه كما لم تكن صورة جسم آدم جسم كل شخص من ذريته ، وإن كان هو الأصل الذي منه ظهرنا وتولدنا ، كذلك الروح المدبرة لجسم العالم بأسره ، كما أنك لو قدرت الأرض مستوية لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وانتشرت الشمس عليها أشرقت بنورها ، ولم يتميز النور بعضه عن بعضه ، ولا حكم عليه بالتجزي ولا بالقسمة ، فلما ظهرت البلاد والديار على الأرض ، وبدت ظلالات هذه الأشخاص القائمة ، انقسم النور الشمسي وتميز بعضه عن بعضه ، لما طرأ من هذه الصور في الأرض ، فإذا اعتبرت هذا علمت أن النور الذي يخص هذا المنزل ليس النور الذي يخص المنزل الآخر ولا المنازل الأخر ، وإذا اعتبرت التي ظهر منها هذا النور وهو عينها من حيث انفهاقه عنها ، قلت : الأرواح روح واحدة ، وإنما اختلفت بالمحال الشمس ، كالأنوار نور عين واحدة غير أن حكم الاختلاف في القوابل مختلف لاختلاف أمزجتها وصور أشكالها ، ويمكن أن يشبه بالماء في النهر لا يتميز فيه صورة ، بل هو عين الماء لا غير ، فإذا حصل ما حصل منه في الأواني تعين عند ذلك ماء الجب من ماء الجرة من ماء الكوز ، وظهر فيه شكل إنائه ولون إنائه ، فحكمت عليه الأواني بالتجزي والأشكال ، مع علمك أن عين ما لم يظهر فيه شكل إذا

ص 574

كان في النهر ، عين ما ظهر إذا لم يكن فيه ، غير أن الفرقان بين الصورتين في ضرب المثل ، أن ماء الأواني وأنوار المنازل إذا فقدت رجعت إلى النور الأصلي والنهر الأصلي ، وكذلك هو في نفس الأمر لو لم تبق آنية ولا يبقى منزل ، لأنه لما أراد الله بقاء هذه الأنوار على ما قبلته من التمييز ، خلق لها أجسادا برزخية تميزت فيها هذه الأرواح عند انتقالها عن هذه الأجسام الدنياوية ، في النوم وبعد الموت ، وخلق لها في الآخرة أجساما طبيعية كما جعل لها في الدنيا ذلك ، غير أن المزاج مختلف ، فنقلها عن جسد البرزخ إلى أجسام نشأة الآخرة ، فتميزت أيضا بحكم صور أجسامها ، ثم لا تزال كذلك أبد الآبدين ، فلا ترجع إلى الحال الأول من الوحدة العينية أبدا . فإذا فارقت الأرواح المواد ، فطائفة تقول : إن الأرواح تتجرد عن المواد تجردا كليا وتعود إلى أصلها كما تعود شعاعات الشمس المتولدة عن الجسم الصقيل إذا صدئ إلى الشمس ، واختلفوا هنا على طريقين : فطائفة قالت : لا تمتاز بعد المفارقة لأنفسها كما لا يمتاز ماء الأوعية التي على شاطئ النهر إذا تكسرت فرجع ماؤها إلى النهر ، فالأجسام تلك الأوعية والماء الذي ملئت به من ذلك النهر كالأرواح من الروح الكل . وقالت طائفة بل تكتسب بمجاورتها الجسم هيئات رديئة وحسنة ، فتمتاز بتلك الهيئات إذا فارقت الأجسام ، كما أن ذلك الماء إذا كان في الأوعية أمور تغيره عن حالته إما في لونه أو رائحته أو طعمه ، فإذا فارق الأوعية صحبه في ذاته ما اكتسبه من الرائحة أو الطعم أو اللون ، وحفظ الله عليها تلك الهيئات المكتسبة ، ووافقوا في ذلك بعض الحكماء . وطائفة قالت :

الأرواح المدبرة لا تزال مدبرة في عالم الدنيا ، فإذا انتقلت إلى البرزخ دبرت أجسادا برزخية ، وهي الصورة التي يرى الإنسان نفسه فيها في النوم ، وكذلك هو الموت وهو المعبر عنه بالصور ، ثم تبعث يوم القيامة في الأجسام الطبيعية كما كانت في الدنيا« وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »- بحث في العلم - اعلم أن العلم بالأشياء واحد ، والكثرة في المعلوم لا في ذاته ، فإن الأشعري يرى ويزعم أنه متعدد في ذاته وصفاته ، والحقيقة أبت ما قاله ، فإن العلم لو تعدد أدى أن يدخل في الوجود ما لا يتناهى وهو محال ، فإن المعلومات لا نهاية لها فلو كان لكل معلوم علم لزم ما قلناه ، ومعلوم أن الله يعلم ما لا يتناهى ، وعلمه واحد ، فلا بد أن يكون للعلم عين واحدة ، لأنه لا يتعلق بالمعلوم حتى يكون موجودا ، فإن العلم نسبة لا تتصف بالوجود ولا بالعدم كالأحوال ، وما وصف الله العلم بالقلة إلا العلم الذي

ص 575

أعطى الله عباده ، وهو قوله« وَما أُوتِيتُمْ »أي أعطيتم ، وقال في حق عبده خضر(وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً)وقال(عَلَّمَ الْقُرْآنَ)فهذا كله يدلك على أنه نسبة ، لأن الواحد في ذاته لا يتصف بالقلة ، ولا بالكثرة لأنه لا يتعدد ، فإن كان العلم نسبة فإطلاق القلة والكثرة عليه إطلاق حقيقي ، فإن النسب لا تتناهى لأن المعلومات لا تتناهى ، فيمكن على هذا أن يكون لكل معلوم علم ، وإن كان غير ذلك فإطلاق القلة والكثرة عليه إطلاق مجازي ، وكلام العرب مبني على الحقيقة والمجاز عند الناس ، وإن كنا خالفناهم في هذه المسألة بالنظر إلى القرآن ، فإنا ننفي أن يكون في القرآن مجاز بل في كلام العرب - رقيقة - كان الشيخ أبو مدين يقول إذا سمع من يتلو هذه الآية« وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »القليل أعطيناه ما هو لنا بل هو معار عندنا وهبناه عناية منه والكثير منه لم نصل إليه ، فنحن الجاهلون على الدوام فليس لنا شيء ندعيه .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 86 إلى 88]

وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً (86) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (87) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(88)

[إعجاز القرآن]

ما منع المعارض إلا من العربي لا من الأعجمي ، فاختص الإعجاز بالقرآن ، وإن كانت الكتب المنزلة كلام الرحمن ، لكن البيان والشرف والامتنان ، والمجد العظيم الشان ، إنما ظهر في اللسان عند البيان ، فهذا القرآن هو معجزة الرسول ، رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وقد ثبت أنه معجزته بطلب معارضته والعجز عن ذلك ، ثم قطع أن المعارضة لا تكون أبدا بهذه الآية الإخبارية« لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً »فليس في مقدور البشر أن يأتوا بمثل هذا القرآن« وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً »أي معينا من الجن والإنس ، وذلك لأنه القول المعجز وهو قول الحق والصدق ، ولأنه أتى من خزائن الحجة - محمد خير مبعوث من الرسل –

أتى بإعجاز قول لا خفاء به *** أعجازه انعطفت منه على الأول

حوى على كل لفظ معجز ولذا *** حوى على كل علم جاء من مثل

ص 578

أتى به الناطق المعصوم معجزة *** إلى الذي كان في الدنيا من الملل
فما يعارضه جن ولا بشر *** بسورة مثله في غابر الدول
ولو يعارضه ما كان معجزة *** فليس إعجازه يجري إلى أجل
رأيت ربي في نومي فقلت له *** ما صورة الصرف في القرآن حين تلي ؟
فقال لي أصدق فإن الصدق معجزة *** ولا تزوّر أمورا إن أردت تلي
لكن كلامك إن تفعله معجزة *** فقلت يا رب غفرا ليس ذلك لي
هذا دليل بأن القول قولكمو *** لا قوله وهو عندي أوضح السبل
أتى به روحه من فوق أرقعة *** سبع إلى قلبه والقلب في شغل
أتى على سبعة من أحرف نزلت *** ميسر الذكر يتلوه على عجل
إذا تكرر فيه قصة ذكرت *** تكون أقوى على الإعجاز بالبدل
والكل حق ولكن ليس يعرفه *** إلا الذي بدليل العقل فيه بلي
هذا هو الحق لا تضرب له مثلا *** فإنه من صفات الحق في الأزل
لا يحجبنك ما تتلوه من سور *** بأحرف وأصوات على مهل
فكله قوله إن كنت ذا نظر *** فيه على حد إنصاف بلا ملل

[سورة الإسراء (17) : الآيات 89 إلى 93]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (89) وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (93)

من رحمة الله بمحمد صلّى الله عليه وسلم حين قال له الكفار ذلك أن أعطاه المعراج والقرآن.

ص 577

[سورة الإسراء (17) : آية 94]

وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (94)

اعلم أن الله ما بعث الرسل سدى ، ولو استقلت العقول بأمور سعادتها ما احتاجت إلى الرسل ، وكان وجود الرسل عبثا ، ولكن لما كان من استندنا إليه لا يشبهنا ولا نشبهه ، ولو أشبهنا عينا ما كان استنادنا إليه بأولى من استناده إلينا ، فعلمنا قطعا علما لا يدخله شبهة أنه ليس مثلنا ولا تجمعنا حقيقة واحدة ، فبالضرورة يجهل الإنسان مآله وإلى أين ينتقل ، وما سبب سعادته إن سعد أو شقاوته إن شقي عند هذا الذي استند إليه ، لأنه يجهل علم الله فيه ، ولا يعرف ما يريد به ، ولا لما ذا خلقه تعالى ، فافتقر بالضرورة إلى التعريف الإلهي بذلك ، فلو شاء تعالى عرّف كل شخص بأسباب سعادته وأبان له عن الطريق التي ينبغي له أن يسلك عليها ، ولكن ما شاء إلا أن يبعث في كل أمة رسولا من جنسها لا من غيرها ، قدّمه عليها وأمرها باتباعه والدخول في طاعته ، ابتلاء منه لها لإقامة الحجة عليها لما سبق في علمه فيها ، ثم أيده بالبينة والآية على صدقه في رسالته التي جاء بها ، ليقوم له الحجة عليها ، وإنما قلنا من جنسها لأنه كذا وقع الأمر ، قال تعالى :(وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا)أي لو كان الرسول للبشر ملكا لنزل في صورة رجل حتى لا يعرفوا أنه ملك ، فإن الحسد على المرتبة إنما يقع بين الجنس ، فقد علم الإنسان أن البهائم وجميع الحيوانات دونه في المرتبة ، فلو تكلم حيوان ولو كان خنفساء ونطقت وقالت : أنا رسول من الله إليكم ، احذروا من كذا وافعلوا كذا ، لتوفرت الدواعي من العامة على اتباعها والتبرك بها وتعظيمها ، وانقادت لها الملوك ، ولم يطلبوها بآية على صدقها ، وجعلوا نطقها نفس الآية على صدقها ، وإن كان الأمر ليس كذلك ، وإنما لما نال المرتبة غير الجنس لم يقم بهم حسد لغير الجنس ، فأول ابتلاء ابتلى الله به خلقه بعث الرسل إليهم منهم لا من غيرهم ، ومع الدلالات التي نصبها لهم على صدقهم واستيقنوها حملهم سلطان الحسد الغالب عليهم أن يجحدوا ما هم به عالمون موقنون ، ظلما وعلوا .

[سورة الإسراء (17) : آية 95]

قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (95)

ص 578

يعني من جنسهم ، فإن كل نذير من جنس من بعث إليه ، وإنما جعل الرسول من الجنس لاستخراج عيب النفس ، وأنزل بلسان قومه لرفع اللبس ، فالرسول من جنس المرسل إليه ، لذلك قال ملكا رسولا ، ولم يقل رجلا ، لأن المرسل إليهم ملائكة ، فإن دعا أمر أن يكون من غير الجنس في الحقيقة ، فلا بد وأن يظهر لهم في صورة الجنس في عالم تمثيل الرقيقة ، مثل تمثل الروح لمريم بشرا سويا –

خليفة القوم من أبناء جنسهم *** لأن ذلك أنكى في نفوسهم

لو لم يكن منهم لصدقوه ولم *** يقم بهم حسد لغير جنسهم

[- إشارة - الفرق بين الخلافة والرسالة ، ومعرفة النبوة والولاية]

-إشارة - الفرق بين الخلافة والرسالة ، ومعرفة النبوة والولاية : الرسالة عرش الرب وسماء المربوب ، ومقام الرسول بينهما ، لأنه طالب مطلوب ، فلو لم ينادى الرسول من مقامه الإلهي ما أجاب ، ولو سقي من غير مشربه ما طاب ،

فإن قيل له في ذلك الخطاب :

بلغ ما أنزل إليك من ربك فذلك الرسول ، وإن زيد عليه : وقاتلهم إن أبوا القبول ، فذلك الخليفة الرسول ، فله أن يصول ، فقد مضى زمن النبوة المشهورة ، وأنت في زمن النبوة المستورة ، فلو نزلت عليك في عالم الكون والفساد ، لكفرك أهل النظر في الاعتقاد ، فإنّ بغلبة الحال تقول : قلت وقال ، وهنا قد ارتفع الإنكار ، وزال الاضطرار ، فالرسول وجّه إلى قومه ، والنبي تعبد في نفسه إلى يومه ، والولي أيقظه الرسول من نومه ، فالرسول هو الإمام ، والولي هو المأموم ، والنبي إمام مأموم ، محفوظ غير معصوم ، والرسول من هذا النمط هو المطلوب ، ومنه وإليه يكون الهرب المرغوب ، فالمؤمن به صدقه وانصرف ، والعالم قام له البرهان فأقر بصدقه واعترف ، والجاهل نظر فيه وانحرف ، والشاك تحير فيه فتوقف والظان تخيل وما عرف ، والناظر تطلع وتشوف ، والمقلد مع كل صنف تصرف ، إن مشى متبوعه مشى ، وإن وقف وقف ، فهو معه حيثما كان إما في النجاة وإما في التلف« كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ ، فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ »فأسكنه تقليده دار البوار .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 96 إلى 97]

قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (96) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً(97)

ص 579

" وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ "
فالكل بيده وإلى الله يرجع الأمر كله »وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً »هذه الآية تدل على أن النار محسوسة بلا شك ، فإن النار ما تتصف بهذا الوصف إلا من كون قيامها بالأجسام ، لأن حقيقة النار لا تقبل هذا الوصف من حيث ذاتها ولا الزيادة ولا النقص ، وإنما هو الجسم المحرق بالنار وهو الذي يسجّر بالنارية ، وإن حملنا هذه الآية على الوجه الآخر قلنا : قوله تعالى »كُلَّما خَبَتْ »يعني النار المسلطة على أجسامهم ، أي كلما سكن لهيبها » زِدْناهُمْ »يعني المعذبين« سَعِيراً » بتبديل الجلود ، فإنه لم يقل زدناها ،
ومعنى ذلك أن العذاب ينقلب إلى بواطنهم وهو أشد العذاب ، العذاب الحسي يشغلهم عن العذاب المعنوي ، فإذا خبت النار في ظواهرهم ووجدوا الراحة من حيث أجسامهم ، فإن من رحمة الله بأهل النار في أيام عذابهم خمود النار عنهم ، سلّط الله عليهم في بواطنهم التفكر فيما كانوا فرطوا فيه من الأمور التي لو عملوا بها لنالوا السعادة ، وتسلط عليهم الوهم بسلطانه ، فيتوهمون عذابا أشد مما كانوا فيه ، فيكون عذابهم بذلك التوهم في نفوسهم أشد من حلول العذاب بتسلط النار المحسوسة على أجسامهم .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 98 إلى 105]

ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَقالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (98) أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (100) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (101) قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (102)
فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (103) وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (104)وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً(105)

ص 580

"وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ »لتحكم به بين الناس فيما اختلفوا فيه »وَبِالْحَقِّ »نزل لذاته ، فالحق المنزل والحق التنزيل والحق المنزل« وَما أَرْسَلْناكَ »خطاب لمن أنزل عليه تبيانا لكل شيء« إِلَّا مُبَشِّراً »تبشر قوما برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، وتبشر قوما بعذاب أليم »وَنَذِيراً »معلما بمن تبشره وبما تبشر .

[سورة الإسراء (17) : آية 106]

وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (106)

« وَقُرْآناً »وكلاما جامعا لأمور شتى »فَرَقْناهُ »أي فصلناه آيات بينات في سور منزلات« لِتَقْرَأَهُ »أي تجمعه وتجمع عليه الناس ، وهو قوله« عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ »تؤدّه مرتلا »وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا »عما يجب له من التعظيم إلى مخاطبة من لا يعرف قدره(وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) *فما نزل القرآن إلا للبيان ، فمن تلا المحامد ولم يكن عين ما يتلوه منها فليس بتال ، وكذلك من تلا المذام وكان عين ما يتلوه منها فليس بتال .

[سورة الإسراء (17) : آية 107]

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً(107)

" قُلْ " يا أيها النبي« آمِنُوا بِهِ »صدقوا به« أَوْ لا تُؤْمِنُوا »أو تردونه ولا تصدقون

ص 581

به »إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ »أعطوا العلامات التي تعطي اليقين والطمأنينة في الأشياء« مِنْ قَبْلِهِ »ممن تقدمه من أمثاله« إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ »تتبع آياته بعضها بعضا بالمناسبة التي بين الآية والآية »يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً »يقعون على وجوههم مطأطئين أذلاء ، والسجود التطأطؤ ، يقال : أسجد البعير إذا طأطأه ليركبه .

[سورة الإسراء : (17) آية 108]
وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً »(108)

وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا »أي وعده صدق وكلامه حق« إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا »واقعا كما وعد ، الوعد يستعمل في الخير والشر ، والوعيد في الشر خاصة ، فالوعد في الخير من الله لا بد منه ، والوعيد قد يعفو ويتجاوز عنه ، فإنه من صفة الكريم عند العرب ومما تمدح به الأعراب ساداتها وكبراءها يقول شاعرهم :وإني إذا أوعدته أو وعدته * لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

[سورة الإسراء (17) : آية 109]
وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً(109)
» وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ »على ما فرط منهم مما لا يستدركونه ولو عفا« وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً »أي ذلة ، فهذه السجدة سجدة العلماء ، وهي سجود تسليم وبكاء وخشوع وزيادة في الخشوع .

[سورة الإسراء (17) : آية 110]
قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (110)

[« قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ « . . .]
لما أنكروا الاسم الرحمن وقالوا(وَمَا الرَّحْمنُ ؟)قيل لهم« قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ »فما أنكر أحد الله وأنكر الرحمن ، فقالوا : وما الرحمن ؟ فكان مشهد الألوهة أعم لإقرار الجميع بها ، فإنها تتضمن البلاء والعافية ، وهما موجودان في الكون ، فما أنكرهما أحد ، ومشهد الرحمانية لا يعرفه إلا المرحومون بالإيمان ، وما أنكره إلا المحرومون من حيث

ص 582

لا يشعرون أنهم محرومون ، لأن الرحمانية لا تتضمن سوى العافية والخير المحض ، فالله معروف بالحال والرحمن منكور بالحال ، فقيل لهم« قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ »من حيث المسمى ، فإنه قال« أَيًّا ما تَدْعُوا »من حيث دلالته على عين المسمى« فَلَهُ »أي لذلك المسمى »الْأَسْماءُ الْحُسْنى »التي الله والرحمن منها من حيث ما هي أسماء ، فلم يفرق الحق في دعائه بين الاسم الله والاسم الرحمن ، بل جعل الاسمين من الألفاظ المترادفة ، وإن كان في الرحمن رائحة الاشتقاق ، ولكن المدلول واحد من حيث العين المسماة بهذين الاسمين ، والمسمى هو المقصود في هذه الآية ، ولذلك قال« فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى »ومن أسمائه الحسنى الله والرحمن ، إلى كل اسم سمى به نفسه مما نعلم ومما لا نعلم ومما لا يصح أن يعلم ، لأنه استأثر بأسماء في علم غيبه ، فالحكم للمدعو بالأسماء الإلهية لا للأسماء ، فإنها وإن تفرقت معانيها وتميزت ، فإن لها دلالة على ذات معينة في الجملة وفي نفس الأمر ، وإن لم تعلم ولا يدركها حدّ فإنه لا يقدح ذلك في إدراكنا وعلمنا أن ثمّ ذاتا ينطلق عليها هذه الأسماء .

الحكم للمدعو بالأسماء *** ما الحكم للأسماء في الأشياء
لكن لها التحكيم في تصريفها *** فيه كمثل الحكم للأنواء
في الزهر والأشجار في أمطارها *** وقتا وفي الأشياء كالأنداء
لعبت بها الأرواح في تصريفها *** كتلاعب الأفعال بالأسماء

وقد وحّد بقوله« فَلَهُ »لما أراد المسمى ولم يراع اختلاف الحقائق التي تدل عليها ألفاظ هذه الأسماء الحسنى ، فإن الأسماء لو لم تختلف معانيها لكانت اسما واحدا كما هي واحد من حيث مسماها ، فإن قلت الرحمن سميته بجميع الأسماء الحسنى ، وإن قلت الله سميته بجميع الأسماء الحسنى ، فجميع الأسماء دلائل على الاسم الرحمن والاسم الله ، فإنه لما كان الله جامعا لكل شيء ، وكان الرحمن جامعا لحقائق العالم وما يكون فيه ، ولهذا قيل : رحمن الدنيا والآخرة ، لهذا قيل لهم« قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى »فإن دعاءهم إنما هو تعلقهم به لمنافعهم على قدر معارفهم وهي عنه - اسمه الرحمن - وهذا الاسم الرحمن يتضمن جميع الأسماء الحسنى إلا الله ، فإن له الأسماء الحسنى والرحمن وما يتضمنه الاسم الله ، وإذا ناديت الله فإنما تنادي منه الرحمن خاصة ، وتنادي من الرحمن الاسم

ص 583

الذي تطلبه الحقيقة الداعية إلى الدعاء ، فيقول الغريق : يا غياث ، والجائع : يا رزاق ، والمذنب : يا غفار ، يا غفور ، وكذلك في جميع الأسماء ، فافهم ما أشرنا به إليك ، فإنه باب عظيم نافع - بحث في الأسماء الإلهية - الأسماء الإلهية وإن دلت على ذات واحدة ، فإنها تتميز في أنفسها من طريقين :

الواحد من اختلاف ألفاظها ،

والثاني من اختلاف معانيها وإن تقاربت غاية القرب وتشابهت غاية الشبه ، وأسماء المقابلة في غاية البعد ، فلا بد من مراعاة حكم ما تدل عليه من المعاني ، وبهذا يتميز العالم من الجاهل ، وما أتى الحق بها متعددة إلا لمراعاة ما تدل عليه من المعاني ، قال تعالى« وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى »

وليس سوى الحضرات الإلهية التي تطلبها وتعيّنها أحكام الممكنات ، والحضرة الإلهية وهي الاسم الله هي الحضرة الجامعة للحضرات كلها ،

لأنه لما كان في قوة الاسم الله بالوضع الأول كل اسم إلهي ، بل كل اسم أثر في الكون يكون عن مسماه ، ناب مناب كل اسم لله تعالى ،

فإذا قال قائل : يا الله ، فانظر في حالة القائل التي بعثته على هذا النداء ، وانظر أي اسم إلهي يختص بتلك الحال ،

فذلك الاسم الخاص هو الذي يناديه هذا الداعي بقوله :يا الله ، لأن الاسم الله بالوضع الأول إنما مسماه ذات الحق عينها ، التي بيدها ملكوت كل شيء ،

فلهذا ناب الاسم الدال عليها على الخصوص مناب كل اسم إلهي ، ويتضمن هذا الاسم أسماء التنزيه - وإن كان كل اسم إلهي بهذه المثابة من حيث دلالته على ذات الحق جل جلاله وعز في سلطانه –

لكن لما كان ما عدا الاسم الله من الأسماء مع دلالته على ذات الحق يدل على معنى آخر من سلب أو إثبات بما فيه من الاشتقاق ، لم يقو في أحدية الدلالة على الذات قوة هذا الاسم ، كالرحمن وغيره من الأسماء الإلهية الحسنى ، وإن كان قد ورد قوله تعالى آمرا نبيه صلّى الله عليه وسلم« قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى »فالضمير في « له » يعود على المدعو به تعالى ، فإن المسمى الأصلي الزائد على الاشتقاق ليس إلا عينا واحدة ، ثم إن الله تعالى قد عصم هذا الاسم العلم أن يسمى به أحد غير ذات الحق جل جلاله ، ولهذا قال الله عزّ وجل في معرض الحجة على من نسب الألوهة إلى غير هذا المسمى(قُلْ سَمُّوهُمْ)فبهت الذي قيل له ذلك ، فإنه لو سماه سماه بغير الاسم الله ، وأما ما فيه من الجمعية ، فإن مدلولات الأسماء الزائدة على مفهوم الذات مختلفة كثيرة ، وما بأيدينا اسم مخلص علم للذات سوى هذا الاسم الله ، فالاسم الله يدل على الذات بحكم المطابقة كالأسماء الأعلام على

ص 584

مسمياتها ، وثمّ أسماء تدل على تنزيه وثمّ أسماء تدل على إثبات أعيان صفات ، - وإن لم تقبل ذات الحق قيام الأعداد - وهي الأسماء التي تعطي أعيان الصفات الثبوتية ، كالعالم والقادر والمريد والسميع والبصير والحي والمجيب والشكور ، وأمثال ذلك ، وأسماء تعطي النعوت فلا يفهم منهم في الإطلاق إلا النسب والإضافات ، كالأول والآخر والظاهر والباطن ، وأمثال ذلك ، وأسماء تعطي الأفعال ، كالخالق والرازق والبارئ والمصور ، وأمثال ذلك من الأسماء ، وانحصر الأمر ، وجميع الأسماء الإلهية - بلغت ما بلغت - لا بد أن ترجع إلى واحد من هذه الأقسام أو إلى أكثر من واحد ، مع ثبوت دلالة كلّ اسم منها على الذات لا بد من ذلك ، فاجعل ذلك كله نسبا أو أسماء أو صفات ، والأولى أن تكون أسماء ولا بد ، لأن الشرع الإلهي ما ورد في حق الحق بالصفات ولا بالنسب ، وإنما ورد بالأسماء فقال« وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى »وليست سوى هذه النسب ، وهل لها أعيان وجودية أم لا ؟

ففيه خلاف بين أهل النظر ، وأما عندنا فما فيها خلاف أنها نسب وأسماء على حقائق معقولة غير وجودية ، فالذات غير متكثرة بها ، لأن الشيء لا يتكثر إلا بالأعيان الوجودية لا بالأحكام والإضافات والنسب« وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها »فإنه يعلم الجهر وما يخفى ، كما أنه يعلم السر وأخفى وأصفى« وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا »فإنه أخفى من السر ، أي أظهر ، فإن الوسط الحائل بين الطرفين المعيّن للطرفين والمميز لهما هو أخفى منهما.

[سورة الإسراء : (17) آية 111]

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (111)

أمرك الحق في هذه الآية أن تكبره تكبيرا عن الولد والشريك والولي ، فإذا كبرت ربك فقيّده في ذلك بما قيده الحق ، ولا تطلق فيفتك خير كثير وعلم كبير ، فتكبيرك للحق عن أن يتخذ ولدا ، فإن الولد للوالد ليس بمتخذ ، لأنه لا عمل له فيه على الحقيقة ، وإنما وضع ماء في رحم صاحبته ، وتولى إيجاد عين الولد سبب آخر ، والمتخذ الولد إنما هو المتبني ،

[« وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً »]

فقال تعالى لنا« وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً »لأنه لو اتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، فكان يتبنى ما شاء ، فما فعل فعل من لم يتخذ ولدا ،

وقوله تعالى (لَمْ يَلِدْ)

ص 585

ذلك ولد الصلب ، فليس له تعالى ولد ولا تبنى أحدا ، فنفى عنه الولد من الجهتين ، لما ادعت طائفة من اليهود والنصارى أنهم أبناء الله ، وأرادوا التبني ، فإنهم عالمون بآبائهم ، وقالوا في المسيح : إنه ابن الله ، إذ لم يعرفوا له أبا ولا تكوّن عن أب« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ »وقيد تعالى التكبير عن الشريك في الملك لا في الإيجاد ، لأن الله تعالى أوجد الأشياء على ضربين : ضرب أوجده بوجود أسبابه ، وضرب أوجده بلا سبب ، وهو إيجاد أعيان الأسباب الأول ، ولما كان السبب من الملك لم يثبت الشريك في الملك ، ولهذا قيد التكبير عن الشريك في الملك ، وهو كل ما سوى الله ، وقد ثبت شرعا وعقلا أن الله تعالى أحدي المرتبة ، فلا إله إلا هو وحده لا شريك له في الملك ، فما هو مثل الشريك في الملك ، فإن ذلك منفي على الإطلاق ، لأنه في نفس الأمر منفي العين« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ »أي ناصر من أجل الذل ، فإن الولي موجود العين ، وهو ينصر الله ابتغاء القربة إليه والتحبب ، عسى يصطفيه ويدنيه ، لا لذل ناله فينصره على من أذله ، أو ينصره لضعفه تعالى ، فأمرنا أن نكبره أن يكون له ولي من الذل ، فقيد بقوله تعالى« مِنَ الذُّلِّ »

لأنه تعالى يقول : (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) فما نصرناه من ذل وهو سبحانه الناصر ،

وقد قال تعالى : (كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ) والناصر هو الولي ، فلهذا قيده ، فإذا كبرته عن الولي فاعلم عن أي ولي تكبره « وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً » عن هذين الوصفين ، فإذا كبرت ربك فكبره كما كبر نفسه ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وهم الذين يكبرونه عما لم يكبر نفسه ، في قوله : يفرح بتوبة عبده ، ويتبشش إلى من جاء إلى بيته ، ويباهي ملائكته بأهل الموقف ،

ويقول : جعت فلم تطعمني ، فأنزل نفسه منزلة عبده ، فإن كبرته بأن تنزهه عن هذه المواطن فلم تكبره بتكبيره ، بل أكذبته ، فهؤلاء هم الظالمون على الحقيقة ، فليس تكبيره إلا ما يكبر به نفسه ، فقف عند حدّك ولا تحكم على ربك بعقلك - بحث في الحمد - قال الله تعالى آمرا« وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ »

اعلم أن الحمد والمحامد هي عواقب الثناء ، ولهذا يكون آخرا في الأمور ، كما ورد أن آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ،

وقوله صلّى الله عليه وسلم في الحمد : إنها تملأ الميزان ، أي هي آخر ما يجعل في الميزان ، وذلك لأن التحميد يأتي عقيب الأمور ،

ففي السراء يقول : [الحمد لله المنعم المفضل]

وفي الضراء يقال : [الحمد لله على كل حال] والحمد هو الثناء على الله ، وهو على قسمين ، ثناء عليه بما هو له ، كالثناء بالتسبيح

ص 586

والتكبير والتهليل ، وثناء عليه بما يكون منه ، وهو الشكر على ما أسبغ من الآلاء والنعم ، وله العواقب فإن مرجع الحمد ليس إلا إلى الله ، فإنه المثني على العبد والمثنى عليه ، وهو قوله صلّى الله عليه وسلم : [أنت كما أثنيت على نفسك] وهو الذي أثنى به العبد عليه ، فرد الثناء له من كونه مثنيا اسم فاعل ومن كونه مثنيا عليه اسم مفعول ، فعاقبة الحمد في الأمرين له تعالى ،

وتقسيم آخر : وهو أن الحمد يرد من الله مطلقا ومقيدا في اللفظ ، وإن كان مقيدا بالحال فإنه لا يصح في الوجود الإطلاق فيه ، لأنه لا بد من باعث على الحمد ، وذلك الباعث هو الذي قيده وإن لم يتقيد لفظا ، كأمره في قوله تعالى« وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ »فلم يقيد ، وأما المقيد فلا بد أن يكون مقيدا بصفة فعل كقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ)

وكقوله(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ) و(الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ) وقد يكون مقيدا بصفة تنزيه كقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً » واعلم أن الحمد لما كان يعطي المزيد للحامد ، علمنا أن الحمد بكل وجه شكر ، لأنه ثناء على الله ، ولا نحمده تعالى إلا بما أعلمنا أن نحمده به ، فحمده مبناه على التوقيف ، وقد خالفنا في ذلك جماعة من علماء الرسوم ، فإن التلفظ بالحمد على جهة القربة لا يصح إلا من جهة الشرع

- **مسألة** - قوله تعالى" وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ " على هذه المسألة تبتني مسألة : العبد هل يملك أم لا يملك ؟

فمن رأى شركة الأسباب التي لا يمكن وجود المسببات إلا بها لم يثبت الشريك في الملك ، لأن السبب من الملك ، وهو كالآلة ، والآلة يوجد بها ما هو ملك للموجد ، كما هي الآلة ملك للموجد ، وما تملك الآلة شيئا ، فنفى الشريك في الملك لا في الإيجاد ، فيضاف التابوت إلى النجار من كونه صنعة لصانعه - ولم يصنع إلا بالآلة ،

ثم ثمّ إضافة أخرى ، وهو إن كان النجار صنع في حق نفسه أضيف التابوت إليه لأنه ملكه ، وإن كان الخشب لغيره فالتابوت من حيث صنعته يضاف إلى النجار ومن حيث الملك يضاف للمالك لا إلى النجار ،

فالنجار آلة للمالك ، والله ما نفى إلا الشريك في الملك لا الشريك في الصنعة.

المراجع

1 - كتاب الفتوحات المكية - طبعة الميمنية .
2 - إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن .
3 - كتاب التنزلات الموصلية .
5 - كتاب الإسرار إلى مقام الأسرى .
6 - كتاب النجاة في رفع حجب الاشتباه .
6 - كتاب مراتب التقوى .
7 - كتاب ترجمان الأشواق وذخائر الأعلاق .
8 - كتاب مواقع النجوم .
9 - كتاب التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية .
10 - كتاب فصوص الحكم .
11 - كتاب رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات .
12 - كتاب منزل القطب .
13 - كتاب الإعلام بإشارات أهل الإلهام .
14 - كتاب الشاهد .
15 - كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار .
16 - كتاب عقلة المستوفز .
17 - كتاب مسائل ابن سودكين .
18 - كتاب التراجم .
19 - كتاب روح القدس في محاسبة النفس .
20 - كتاب الأزل .
21 - كتاب الشأن .
22 - كتاب المشاهد القدسية.

23 - كتاب الفناء .
24 - كتاب الجلال والجمال .
25 - ديوان الشيخ الأكبر .
26 - كتاب الوصية .
27 - كتاب مسامرة الأبرار ومحاضرة الأخيار .
28 - كتاب تلقيح الأذهان .
29 - كتاب نقش الفصوص .
30 - كتاب العقد النفيس لسيدي أحمد بن إدريس .
31 - كتاب المسائل .
32 - كتاب التجليات .
33 - كتاب القسم الإلهي .
34 - رسالة اليقين .
35 - كتاب شجرة الكون (المعراج).

ص 589

مراجع جمع آيات ج 2 رحمة من الرحمن سورة المائدة

(1)ف ح 3 / 140 - ح 2 / 592 - ح 3 / 259 ، 261 - ح 1 / 686 (2) ف ح 2 - 101 / ح 1 / 655 - ح 3 / 351 (3) ف ح 4 / 438 - ح 1 / 752 - إيجاز البيان آية 144 - ف ح 3 / 502 - ح 4 / 434 - ح 3 / 156 - ح 1 / 687 (5) ف ح 1 / 632 - إيجاز البيان آية 221 - ف ح 3 / 512 - إيجاز البيان آية 221 (6) ف ح 1 / 335 - ح 1 / 331 - ح 4 / 486 - ح 1 / 335 ، 338 ، 339 - ح 3 - 301 / ح 1 / 339 ، 341 - ح 4 / 235 - ح 1 / 343 - ح 4 / 366 - ح 1 / 365 ، - 364التنزلات الموصلية (12) التنزلات الموصلية (13) ف ح 2 / 3 (15) ف ح 4 / 303 - ح 2 / 107 - ح 4 / 424 (17) ف ح 1 / 664 - ح 4 / 381 - ح 1 (18) 652 /ف ح 4 / 93 - ح 2 / 405 - ح 3 / 162 (19) ف ح 3 / 400 (20 (ف ح 3 / 273 - ح 1 / 419 (23) ف ح 3 / 200 ، 73 (24) ف ح 1 / 745 (26) ف ح 1 / 745 (27) ف ح 1 / 754 - كتاب الإسراء (30) ف ح 3 / 195 (31) ف ح 2 / 140 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (32) ف ح 1 / 520 - ح 4) 61 / (33ف ح 4 / 262 - ح 2 / 161 - ح 4 / 262 (35) كتاب مراتب التقوى - ف ح 2 / 97 - ح 4 / 177 - ح 3 / 488 - ح 4 / 378 - كتاب مراتب التقوى (37 (ف ح 4 / 338 (38) ف ح 3 / 304 (44) كتاب الأعلاق (45) ف ح 1 / 725 ، 733 (48) ف ح 4 / 400 ، 205 - كتاب الأعلاق - ف ح 4 / 274 - ح 3 / 413 -ح 2 / 414 ، 217 - ح 1 / 322 - ح 3 / 164 - ح 1 / 265 - ح 3 / 413 - ح 4 - 131 /ح 3 / 153 (51) إيجاز البيان آية 15 (52) ف ح 1 / 475 (54) ف ح 1 / 474 - ح 4 / 102 - ح 2 / 20 ، 345 - ح 4 / 37 (60) ف ح 2 / 553 (64) ف ح 1 / 530 - ح 3 / 535 ، 317 ، 430 - ح 1 / 530 - ح 3 / 317 ، 483 (66) كتاب الأعلاق - ف ح 4 / 431 - ح 2 / 594 - ح 3 / 439 - ح 2 / 594 ، - 488ح 1 / 631 ، 192 - ح 2 / 595 - ح 4 / 431 (67) ف ح 3 / 158 - ح 2572 / ، 595 ، 654 ، 388 - ح 4 / 393 - ح 2 / 118 (69) ف ح 1 / 450 - كتاب النجاة (71) ف ح 4 / 250 (72) ف ح 1 / 652 (73) ف ح

ض 590

- 370 / 4ح 3 / 499 - ح 2 / 215 - ح 3 / 126 - ح 4 / 382 (80) ف ح 3 (82) 495 / ف ح 2 / 533 (83) ف ح 4 / 193 - ح 3 / 554 - ح 4 / 378 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة - ف ح 4 / 54 (84) ف ح 4 / 54 (85) كتاب مواقع النجوم (88) ف ح 2 / 463 (89) ف ح 3 / 299 - ح 4 / 47 - كتاب النجاة (90) ف ح 1 / 171 - ح 4 / 381 - إيجاز البيان آية 220 - ف ح 1 / 385 - ح 2 (94) 197 / ف ح 1 / 574 - ح 2 / 411 (95) ف ح 1 / 727 - ح 4 / 235 - ح 3 - 27 /ح 1 / 728 - ح 4 / 236 - ح 1 / 727 (96) ف ح 1 / 686 ، 685 (97) ف ح 1 / 666 ، 757 (99) ف ح 1 / 523 - ح 2 / 272 (101) كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 2 / 685 (105) إيجاز البيان آية 144 (106) إيجاز البيان آية 144 (109) ف ح 3 / 184 - ح 1 / 327 - ح 4 / 162 - ح 2 / 83 - إيجاز البيان آية 120 - ف ح 4 / 80 (110) ف ح 3 / 149 ، 558 - ح 2 / 401 - ح 4 - 108 / ح 2 / 51 ، 143 - ح 4 / 108 - ح 2 / 401 - ح 3 / 370 (114) ف ح 5381 / ، 518 ، 517 (115) كتاب الإسراء - كتاب النجاة (116) ف ح 3 / 354 ، - 267ح 2 / 631 - ح 3 / 278 - ح 4 / 410 - ح 2 / 631 - فصوص الحكم فص 15 - ف ح 3 / 278 - ح 2 / 631 - فصوص الحكم فص 15 - ف ح 4 / 332 - ح 2 / 300 ، - 538ح 1 / 550 - ح 3 / 267 - ح 1 / 538 ، 267 ، 538 - فصوص الحكم فص 15 - كتاب رد الآيات المتشابهات (117) ف ح 3 / 267 - كتاب فصوص الحكم فص 15 - إيجاز البيان آية 144 - كتاب فصوص الحكم فص 15 (118) ف ح 2 / 250 - ح 4 - 387 / كتاب رد الآيات المتشابهات (119) ف ح 2 / 222 - ح 4 / 351 ، 432 - ح 2 / 212 - ح 4 / 351 - ح 2 / 212 - ح 4 / 27 ، 18 - ح 2 / 212

سورة الأنعام

(1)ف ح 4 / 236 (2) ف ح 3 / 288 - ح 2 / 587 (3) ف ح 4 / 346 ، 251 - ح 3 / 363 - ح 2 / 315 - ح 4 / 346 (6) ف ح 2 / 173 (9) ف ح 3 / 83 - كتاب التنزلات الموصلية - كتاب منزل القطب (12) ف ح 3 / 496 - ح 4 / 303 - ح 2 / 662 - ح 3 / 72 - ح 1 / 556 ، 590 - ح 2 / 45 ، 589 ، 408 (13) ف ح - 473 / 2ح 3 / 304 - كتاب الإعلام - ف ح 1 / 202 - ح 2 / 294 ، 295 - ح 1 - 202 /ح 4 / 374 ، 48 - كتاب الشاهد (14) ف ح 2 / 69 - ح 1 / 418 ، - 434ح 4 / 251 - كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 3 / 221 - كتاب التنزلات الموصلية

ص 591

(18)ف ح 4 / 216 ، 72 - كتاب رد الآيات المتشابهات - ف ح 4 / 374 (19) ف ح 2 / 56 ، 57 ، 84 ، 99 (20) إيجاز البيان آية 43 ، آية 7 (22) ف ح 4 (27) 108 /ف ح 3 / 245 (28) ف ح 2 / 55 - ح 3 / 24 ، 243 - إيجاز البيان آية 167 (29) ف ح 1 / 641 (31) ف ح 4 / 347 (32) كتاب مواقع النجوم (35) إيجاز البيان آية 4 - كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار - ح 3193 / ، 565 ، 552 - ح 1 / 728 - ح 3 / 552 - ح 4 / 284 (36) كتاب مواقع النجوم - ف ح 4 / 162 (38) ف ح 3 / 352 - ح 1 / 220 - ح 3 / 491 - ح 4 / 8 -ح 2 / 107 - ح 4 / 377 - ح 3 / 94 ، 56 (40) ف ح 4 / 137 (41) ف ح 4 (43) 137 /إيجاز البيان آية 12 (54) ف ح 3 / 72 - ح 1 / 210 ، 556 - ح - 274 / 4ح 2 / 94 - ح 4 / 274 - ح 2 / 662 ، 45 - إيجاز البيان ، الفاتحة آية 3 - ف ح 4 / 274 - ح 2 / 45 - ح 4 / 422 - - ح 1 / 590 (57) ف ح 2 / 39 - ح 4 / 4 (59) ف ح 3 / 397 ، 542 - ح 2 / 101 - ح 3 / 350 - ح - 584 / 2ح 3 / 279 ، 228 - ح 1 / 142 ، 593 (61) ف ح 4 / 216 - ح 3 - 464 / ح 4 / 216 - ح 3 / 221 (68) ف ح 4 / 141 ، 473 - ح 2 / 81 (70) ف ح 4 / 270 (71) ف ح 4 / 313 (73) كتاب عقلة المستوفز - ف ح 2 / 95 ، 394 ، 50 -ح 1 / 85 - ح 4 / 360 - ح 1 / 305 - ح 3 / 10 ، 79 ، 530 (74) ف ح 4 / 106 (75) كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 2 / 240 - ح 3 / 340 (76ف ح 4 / 289 - ح 1 / 706 - ح 4 / 342 (78) ف ح 2 / 278 - ح 3 / 350 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (79) كتاب الإسراء - كتاب النجاة - ف ح 4181 / ، 434 ، 412 ، 419 - كتاب التنزلات الموصلية (81) ف ح 1 / 118 (82) ف ح 1 / 135 - ح 4 / 136 - ح 1 / 135 - ح 2 / 136 - ح 3 / 522 (83) ف ح 3 - 448 /ح 2 / 289 - ح 4 / 20 - ح 2 / 278 - ح 3 / 448 - ح 1 / 498 (88) ف ح 2 / 653 (89) ف ح 1 / 586 (90) ف ح 4 / 313 ، 408 ، 77 - إيجاز البيان الفاتحة آية 7 - ف ح 2 / 125 - ح 4 / 82 - ح 1 / 635 - ح 3 / 45 (91) ف ح 1 / 466 - ح 3 / 535 ، 317 - ح 4 / 407 ، 132 - ح 3 / 535 - ح 1424 / ، 350 ، 435 ، 400 (93) ف ح 1 / 367 ، 282 (94) كتاب الأعلاق - ف ح (95) 474 / 4ف ح 2 / 575 - ح 3 / 369 - ح 4 / 347 (96) ف ح 4 / 398 - ح 2 / 575 (97) ف ح 1 / 192 - ح 3 / 249 (99) ف ح 2 / 462 (101) ف ح 329 / 1 (102)ف ح 2 / 408 - ح 1 / 167 - ح 3 / 78 (103) كتاب الأعلاق -ف ح 3 / 392 - ح
ص 592

685 / 1 ، 305 - كتاب مسائل ابن سودكين - ف ح 4 / 39 ، 301 ، 38 - ح 2 / 499 -ح 4 / 30 - ح 2 / 220 - ح 4 / 30 - ح 3 / 151 - ح 1 / 220 - ح 3 / 395 - ح 4 / 2 ، 301 ، 2 ، 301 ، 238 - ح 1 / 285 - ح 4 / 2 ، 301 - ح 1 / 77 (106) ف ح 2 / 408 (112) ف ح 1 / 281 - ح 3 / 522 - إيجاز البيان آية 15 - ف ح 1 / 281 - ح 4 / 400 - ح 3 / 530 - ح 1 / 281 (113) ف ح 3 / 474 (117) ف ح 2 / 654 (119) ف ح 3 / 156 - ح 2 / 175 ، 463 (121) ف ح 3 - 491 / كتاب التراجم - ف ح 3 / 562 (122) ف ح 1 / 350 ، 558 - ح 3 / 369 - ح 2 / 274 ، 342 - ح 3 / 100 - فصوص الحكم فص 25 - ف ح 2 / 618 - ح 4 - 312 / ح 2 / 618 - ح 1 / 312 - ح 3 / 100 - ح 2 / 342 - ح 4 / 312 (123) إيجاز البيان آية 66 - ف ح 2 / 530 (124) ف ح 4 / 405 ، 122 - فصوص الحكم فص 22 (125) ف ح 3 / 412 (126) ف ح 3 / 413 (127) ف ح 4 / 202 (130 (ف ح 3 / 367 - ح 4 / 436 (133) فصوص الحكم فص 5 (145) إيجاز البيان آية 173 - ف ح 1 / 381 (149) ف ح 4 / 240 ، 72 ، 240 ، 16 - ح 3 / 112 - ح - 507 / 2ح 3 / 135 - فصوص الحكم فص 5 (150) كتاب النجاة (152) ف ح 1 552 / ، 584 - ح 2 / 60 (153) ف ح 2 / 217 ، 471 - ح 3 / 69 - ح 2 / 148 ، 217 ، 471 - ح 3 / 69 - ح 4 / 391 (154) ف ح 4 / 275 (158) ف ح 217 - 471 : ح 3 / 69 - ح 4 / 391 (154) ف ح 4 / 275 (158) ف ح 4 / 434 - ح 2 - 121 /ح 4 / 262 ، 396 (160) ف ح 3 / 9 (162) ف ح 4 / 434 - ح 1 418 / (163)ف ح 1 / 418 (164) ف ح 2 / 471 (165) ف ح 2 / 447 - كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 2 / 68 ، 60 ، 68 ، 401 .

سورة الأعراف

(8)كتاب عقلة المستوفز (9) ف ح 4 / 35 (11) كتاب الأعلاق (12) ف ح - 449 / 2ح 1 / 131 - ح 2 / 449 - ح 3 / 74 - ح 2 / 467 - ح 1 / 131 ، (13) 283ف ح 3 / 144 (17) ف ح 2 / 550 ، 668 - كتاب الأعلاق - ف ح 5502 / ، 668 - ح 1 / 644 - ح 3 / 482 - ح 1 / 749 ، 158 - كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 1 / 158 - كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 1 / 158 ، 302 ، 709 -كتاب الإسراء - كتاب النجاة - ف ح 3 / 229 (18) ف ح 1 / 718 (19) إيجاز البيان آية 36 - ف ح 1 / 231 ، 508 - ح 2 / 218 (22) ف ح 2 / 565 - كتاب الإسراء (23) كتاب

ص 593

الإسفار عن نتائج الأسفار - ف ح 2 / 141 - ح 1 / 419 - ح 2 / 142 (24)
ف ح 1 - 231 / كتاب الإسراء (26) ف ح 4 / 69 ، 163 - ح 1 / 680 - ح
4 / 163 - ح 2 - 30 /ح 1 / 518 ، 468 ، 383 - ح 4 / 163 ، 423 (27
) ف ح 3 / 89 ، 541 - ح 2 / 466 ، 467 (28) ف ح 1 / 735 ، 44 - ح
2 / 66 - ح 1 / 44 (29) ف ح 24 / 3 ، 514 ، 493 ، 24 ، 41 - ح 2 /
184 ، 469 - ح 4 / 316 - ح 2 / 184 - ح 3 / 41 - ح 1 / 312 - ح 4 /
420 ، 369 (31) ف ح 4 / 453 - ح 1 / 560 ، 468 ، 192 - ح 4 /
270 - كتاب الأعلاق - ف ح 3 / 560 - كتاب مواقع النجوم (32) ف ح 4 /
453 - كتاب روح القدس - ف ح 3 / 15 - إيجاز البيان آية 168 - ف ح 1 /
740 - ح 2 / 483 ، 381 (33) إيجاز البيان آية 219 - ف ح 2 / 10 - ح 4
/ 410 - ح 2 / 358 - فصوص الحكم فص 10 - ف ح 3 / 514 (34) ف ح
/ 2883 ، 468 (39) إيجاز البيان آية 166 - ف ح 3 / 112 (40) ف ح 4
/ 405 - ح 2 / 124 (42) كتاب التنزلات الموصلية (43) ف ح 1 / 530 -
ح 4 / 224 - ح 1 / 317 ، 318 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (46) ف ح 1
/ 316 - ح 4 - 10 / ح 1 / 316 ، 509 - ح 4 / 10 - ح 2 / 211 - ح 4 /
354 ، 10 - ح 1 (47) 316 / ف ح 1 / 316 (51) ف ح 4 / 270 (52
) ف ح 4 / 388 (54) كتاب الأزل - ف ح 1 / 646 - كتاب الشأن - ف ح 3 /
408 - ح 1 / 395 - ح 2 / 170 - ح 3 / 548 - ح 2 / 170 ، 161 ، 457 ،
678 - ح 4 / 210 - ح 1 / 46 ، 434 - ح - 423 / 2ح 4 / 116 - ح 1 /
382 - ح 2 / 129 - ح 4 / 297 - كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 4 / 297 -
كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 2 / 575 - ح 3 / 123 (55) ف ح 1 / 390 (
56) ف ح 1 / 390 (57) ف ح 4 / 172 (58 (ف ح 4 / 172 (62)
كتاب التنزلات الموصلية (64) كتاب الإعلام (72 (73) (كتاب النجاة (87)
ف ح 3 / 401 (89) ف ح 2 / 39 (96) ف ح 2 (99) 472 / ف ح 3 /
147 - ح 2 / 530 - ح 3 / 147 - ح 2 / 221 ، 530 - ح 3954 / ، 401
(102)ف ح 4 / 35 (105) ف ح 4 / 334 (122) ف ح 2 / 276)
(127ف ح 3 / 494 - ح 4 / 190 (128) ف ح 3 / 563 - ح 4 / 278 -
ح 2 - 421 / ح 4 / 317 (135) ف ح 4 / 374 (136) ف ح 3 / 164 (
142) ف ح 1 - 460 / كتاب الإسراء - كتاب النجاة (143) ف ح 1 / 258 -
ح 3 / 349 ، 443 ، 195 ، 395 ، 116 - ح 4 / 55 - ح 3 / 116 ، 349 -
ح 2 / 304 ، 540 - ح 4863 / ، 554 - ح 2 / 540 - كتاب
ص 594

النجاة -ف ح 3 / 349 - ح 4 / 63 ، 300 - ح 2 / 78 - ح 3 / 349 ، 486 -
ح 2 / 540 -ح 3 / 486 - ح 4 / 65 - ح 3 / 116 ، 349 - ح 4 / 300 ،
63 - ح 3 / 116 - ح 4 / 300 ، 63 ، 300 - ح 2 / 495 - ح 3 / 541 -
كتاب الإسراء - كتاب النجاة (144) ف ح 3 / 395 - كتاب الإسراء - كتاب
النجاة (145) ف ح 3 - 260 / ح 1 / 110 - ح 3 / 260 - كتاب الإسراء -
كتاب النجاة (146) ف ح 1494 / ، 436 - ح 2 / 305 - ح 4 / 149 ، 150
(148) ف ح 1 / 584 - كتاب الإسفار (150) كتاب الإسفار - ف ح 4 / 269
- ح 2 / 277 - كتاب الإسفار - كتاب الإسراء - كتاب النجاة - ح 3 / 349 - كتاب
الإسفار (151) ف ح 2 / 39 (154)ف ح 2 / 277 - كتاب النجاة - ف ح 2
/ 277 - ح 1 / 350 (155) ف ح 159 / 2 ، 189 - ح 4 / 454 - ح 2 /
39 ، 159 (156) ف ح 1 / 505 - ح 3 - 172 / ح 4 / 274 - ح 3 / 506
- ح 1 / 77 - ح 4 / 274 - ح 3 / 506 ، 9 ، 171 -ح 2 / 437 - ح 4 /
200 - ح 2 / 45 - ح 1 / 564 - ح 4 / 422 - ح 2 / 76 - ح 3 / 472 ،
496 - ح 4 / 161 - ح 2 / 662 - ح 3 / 466 (157) إيجاز البيان آية 5 -
ف ح 1 / 635 - ح 3 / 403 - ح 2 / 45 - ح 3 / 370 ، 532 (158) ف ح
1 / 251 - ح 2 / 408 - ح 4 / 289 ، 290 (160) كتاب الإسراء - كتاب
النجاة (163) ف ح 4 / 421 ، 11 - ح 1 / 639 (167) ف ح 2 / 401)
(168ف ح 2 / 342 (172) ف ح 4 / 58 - ح 3 / 23 - ح 1 / 381 - ح
4 / 254 - ح 3 / 259 - ح 2 / 618 ، 247 ، 618 - ح 4 / 133 ، 58 -
كتاب عقلة المستوفز -ف ح 1 / 670 - ح 2 / 690 ، 170 - ح 4 / 268 ،
122 - ح 3 / 284 ، 248 ، - 411ح 2 / 213 - ح 3 / 566 - كتاب المشاهد
القدسية - كتاب النجاة (175) ف ح 4 / 178 - كتاب الفناء - ف ح 2 / 121 ،
300 (176) ف ح 2 / 230 (179 ف) ح 3 / 547 - ح 4 / 338 - ح 3 /
297 - ح 4 / 149 - ح 3 / 296 (180) ف ح 1 / 463 - ح 4 / 322 - ح
3 / 441 ، 499 ، 474 ، 499 - ح 4 / 318 ، 412 - ح 3 / 149 - ح 4 /
171 ، 199 - ح 3 / 498 - ح 2 / 462 - ح 4 / 171 ، 77 - إيجاز البيان آية
62 (182) ف ح 4 / 145 - ح 1 / 232 (183) ف ح 2 / 372 (184)
ف ح 2 / 620 (185) ف ح 1 / 195 - ح 2 / 163 - ح 1 / 195 - ح 2 /
- 163ح 3 / 401 (186) ف ح 3 / 498 (187) ف ح 4 / 427 - ح 2 /
630 - ح 3 - 89 /ح 1 / 401 (189) ف ح 2 / 272 ، 190 - ح 4 / 137
(196) ف ح 2462 / ، 247 - ح
ص 595

- 231 / 1ح 4 / 283 - ح 1 / 231 - ح 4 / 283 - ح 1 / 230 (199) ف ح 1 (201) 248 / كتاب الأعلاق - ف ح 2 / 36 - كتاب كتاب الجلال والجمال - كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 1 / 666 (204) ف ح 1 / 509 ، 456 ، 504 ، 298 ، - 343ح 4 / 389 ، 397 - ح 2 / 13 (206) ف ح 1 / 509 .

<u>سورة الأنفال</u>

(1)ف ح 3 / 476 - ح 4 / 80 - ح 3 / 383 (3) ف ح 2 / 39 (4) ف ح 982 / ، 563 - ح 3 / 541 (11) ف ح 2 / 60 ، 110 ، 452 (12) ف ح 2 / 452 (13) ف ح 2 / 447 (14) ف ح 4 / 283 (15) ف ح 1 / 474 (16) ف ح 4 - 395 / ح 1 / 474 (17) ف ح 4 / 362 - ح 3 / 549 ، 286 - ح 4 / 33 ، 414 - ح - 553 / 2ح 3 / 525 - ح 2 / 69 - ح 4 / 213 ، 335 ، 33 - ح 2 / 553 - ح 1 - 731 /ح 4 / 280 - ح 3 / 411 - ح 2 / 69 ، 147 (19) إيجاز البيان آية (21) 91ف ح 3 / 189 - ح 1 / 208 - ح 4 / 162 ، 25 - ح 1 / 208 - ح 5503 / ، 189 ، 469) (23ف ح 4 / 46 - ح 3 / 550 - ح 2 / 484 - ح 4 / 163 (24) ف ح 3 / 550 - ح 4 / 160 - ح 1 / 699 - ح 4 / 160 - ح 1 / 699 - ح 4 161 / (25)ف ح 4 / 239 - الديوان / 107 - ف ح 2 / 160 - ح 4 / 505 (27) ف ح 4 / 138 (28) ف ح 2 / 189 - ح 1 / 555 - ح 3 / 200 - ح 4 / 126 - ح 1 (29) 583 /ف ح 4 / 380 - ح 1 / 372 - ح 3 / 128 ، 111 - ح 1 / 372 ، 506 ، 254 - ح 3 / 434 ، 401 ، 166 ، 401 - ح 4 / 150 - ح 3 / 402 - ح 1504 / ، 399 ، 150 - ح 3 / 434 (32) ف ح 1 / 538 - ح 3 / 268 ، 252 (33) ف ح 4 / 42 (34) ف ح 2 / 52 - ح 3 / 50 (37) ف ح 1 / 721 ، 120 (38) ف ح 1 / 553 (410) ف ح 3 / 475 ، 168 ، 480 ، 475 (42) ف ح 2 / 641 - ح 3 (44) 481 /ف ح 3 / 507 (49) ف ح 1 / 669 (60) ف ح 3 / 22 ، 21 - ح 1 - 636 /ح 4 / 55 - ح 1 / 636 (61) ف ح 4 / 300 ، 470 (63) ف ح 1 - 178 / ح 2 / 123 (64) ف ح 1 / 429 (66) ف ح 3 / 204 (67) ف ح 2 / 568 (68)ف ح 3 / 317 - ح 1 / 349 - ح 4 / 418 ، 422 (69) ف ح 3 / 144 (71) ف ح 1 / 389 (72) ف ح 2 / 145 ، 146 (73) ف ح 3 / 171 (75) ف ح 3 . 531 /

ص 596

سورة التوبة

ف ح 3 / 9 - ح 1 / 83 - ح 3 / 9 - ح 1 / 270 - ح 3 / 148 - ح 1 / 270
- ح 4 (1) 78 /ف ح 3 / 477 (3) ف ح 4 / 78 - ح 1 / 712 ، 754 -
ح 4 / 417 (6) ف ح 3 / 108 - ح 1 / 666 - ح 3 / 283 ، 301 - ح 4 /
431 - ح 2 / 375 - ح 1 / 395 ، 644 - ح 2 / 77 - ح 4 / 402 ، 346 -
ح 3 / 4 (8) ف ح 3 - 544 / ح 1 / 553 (14) كتاب رد الآيات المتشابهات
(15) إيجاز البيان آية 11 ، 120 (21) ف ح 4 / 410 - ح 1 / 698 ، 746
- ح 2 / 280 (23) ف ح 2 (24) 155 / ف ح 3 / 505 - ح 4 / 156 ،
157 - ح 2 / 155 - ح 4 / 157 - ح 2 (25) 156 / ف ح 3 / 328 (26)
ف ح 2 / 59 (28) ف ح 1 / 382 - إيجاز البيان آية 116 (29) ف ح 2 /
592 ، 363 ، 592 - ح 3 / 387 - ح 4 / 547 (30) ف ح 2 / 405 (31
) ف ح 2 / 409 (34) ف ح 1 / 548 (35) ف ح 4 - 416 / ح 1 / 548
- ح 4 / 416 - ح 1 / 548 (37) ف ح 1 / 144 (38) ف ح 4) 351 /
(40ف ح 2 / 414 ، 487 - ح 4 / 370 - ح 1 / 110 - ح 2 / 288 - ح 1
110 / ، 474 (41) ف ح 1 / 474 (42) ف ح 2 / 264 (43) ف ح 1 /
230 - ح 4 410 / ، 41 ، 234 ، 410 - ح 2 / 359 (46) ف ح 1 / 4 (
60) ف ح 3 / 477 - ح 1 / 562 (67) ف ح 2 / 244 - ح 1 / 97 - ح 3
/ 552 (69) إيجاز البيان آية 221 (72) ف ح 1 / 756 - ح 3 / 434 (73
) ف ح 1 / 438 ، 145 (75) ف ح 4 / 440 (76) ف ح 1 / 548 ، 586
، 548 (77) ف ح 1 / 548 (78) ف ح 1 (80) 538 /ف ح 4 / 48 (
86) ف ح 1 / 491 (88) ف ح 2 / 36 (91) إيجاز البيان آية 216 - ف ح
4 / 394 ، 416 (93) إيجاز البيان آية 8 (100 (ف ح 2 / 173 ، 213 (
102) ف ح 2 / 559 - ح 3 / 208 - ح 1 / 336 - ح 4 - 476 / ح 2 / 533
- ح 1 / 634 ، 336 - ح 4 / 476 - ح 1 / 598 - ح 2 / 533 - ح 1 / 598
- ح 4 / 476 - ح 2 / 559 - ح 1 / 336 ، 553 (103) ف ح 1 / 584 ،
551 ، 549 ، 584 ، 586 - إيجاز البيان آية 130 - ح 1 / 481 ، 548 ،
551 (104) ف ح 4 / 302 - ح 3 / 478 (105) ف ح 4 / 192 - ح 3 /
78 (108) ف ح (109) 342 / 2ف ح 4 / 422 (111) ف ح 2 / 147
- ح 4 / 163 - ح 2 / 147 ح- 3 / 471 - ح 2 / 147 - ح 1 / 675 ، 541
- ح 4 / 271 - ح 1 / 270 ، 675 ، 658 - ح 3 / 478 (112) ف ح 2 /
32 ، 17 ، 33 - ح 1 / 530 - ح 2 / 33 ، 527 ، 23 ، 33 ، 392 ، 33 ،
34 ، 30 (113) ف ح
ص 597

(114) 272 / 3ف ح 3 / 272 - ح 4 / 449 - ح 1 / 722 - ح 2 / 352 -
ح 1 - 722 / ح 2 / 35 - ح 4 / 240 (115) ف ح 3 / 243 - ح 4 / 335
، 314 (117) ف ح 1 / 632 - ح 3 / 197 (118) ف ح 2 / 474 ، 139
- ح 3 / 148 - ح 4 - 302 / ح 2 / 144 ، 534 - ح 3 / 374 ، 230 (120
) ف ح 4 / 337 (122) إيجاز البيان آية 217 - ف ح 1 / 371 ، 280 (123
) ف ح 4 / 462 - ح 1 / 467 -ح 4 / 462 - ح 1 / 467 - كتاب الوصية -
كتاب مواقع النجوم - ف ح 4 / 462 -كتاب التدبيرات الإلهية (124) ف ح 3 /
565 - ح 1 / 414 (125) ف ح 1 - 475 / إيجاز البيان آية 17 - ح 3 / 565
- ح 2 / 520 (128) ف ح 3 / 294 - ح 2 / 265 ، 199 ، 126 ، 127 -
ح 4 / 304 - ح 3 / 116 - ح 1 / 245 - ح 4 - 373 / ح 3 / 398 - إيجاز
البيان آية 138 (129) ف ح 2 / 409 ، 199 ، 409 .

سورة يونس

(2)ف ح 3 / 118 - ح 2 / 129 - كتاب مواقع النجوم - ف ح 2 / 281 - ح
3 - 76 / كتاب رد الآيات المتشابهات (3) ف ح 2 / 174 - ح 3 / 171 ، 296
، 67 ، - 163ح 4 / 62 - ح 3 / 462 (4) ف ح 4 / 279 - ح 2 / 471)
5) ف ح 2 - 107 / ح 1 / 157 - ح 2 / 107 - ح 4 / 198 - ح 2 / 107 -
ح 3 / 111 - ح 2 - 440 / ح 3 / 436 - ح 2 / 440 - ح 1 / 121 (6) ف
ح 3 / 111 (10) كتاب التنزلات الموصلية - ف ح 3 / 466 ، 524 - ح 4 /
95 (12) كتاب التدبيرات الإلهية (13) ف ح 3 / 115 (16) ف ح 3 /
467 (18) ف ح 1 / 534 (22) كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار - ف ح 2 /
262 - ح 1 / 562 - كتاب الإسفار - إيجاز البيان آية 20 - ف ح 1 / 208 (23
) ف ح 1 / 208 (24) ف ح 4 / 197 ، 199 ، 198 - ح 3 / 232 (25)
كتاب الأعلاق - ف ح 1 / 699 (26) ف ح 3 - 538 / ح 2 / 358 - ح 3 /
407 - ح 4 / 446 - ح 3 / 540 (32) ف ح 2 / 418 ، 576 ، 95 - ح 4 /
279 (33) ف ح 2 / 535 (34) ف ح 2 / 55 (36) ف ح 2) 612 /
(42كتاب مواقع النجوم (44) ف ح 3 / 468 (47) ف ح 3 / 352 (49)
ف ح 2 / 50 (56) ف ح 4 / 289 (57) ف ح 3 / 58 (58) ف ح 4 / 4
- ح 3 - 433 /ح 4 / 127 ، 440 ، 128 (61) ف ح 4 / 175 - ح 1 /
433 - ح 1754 / ، 407 (62) ف ح 2 / 23 - ح 3 / 14 - ح 4 / 543 -
ح 1 / 229 ، 230 (63) كتاب مواقع النجوم - ف ح 3 / 14 (64) إيجاز
البيان - ف ح
ص 598

211 / 2 ، 605 - ح 3 / 190 - ح 2 / 563 ، 654 ، 563 ، 69 (65) ف
ح 2 / 129 (67)ف ح 1 / 206 - كتاب مواقع النجوم (72) ف ح 2 / 588
- ح 1 / 402 - ح 1 / 575 (90) ف ح 3 / 90 ، 533 ، 90 - ح 4 / 60 -
ح 2 / 410 ، 276 ، (91) 410ف ح 3 / 533 - ح 2 / 410 (92) ف ح
3 / 164 - ح 2 / 276 (94) ف ح 2 / 138 (98) ف ح 3 / 383 - ح 2 /
415 .

سورة هود

ف ح 4 / 182 (1) ف ح 3 / 455 (3) ف ح 4 / 245 (4) ف ح 4 /
245 (6) ف ح 1 / 520 (7) كتاب عقلة المستوفز - ف ح 3 / 65 - ح 1 / 4
- ح 2 / 436 - ح 3 / 65 - ح 4 / 493 - كتاب الأعلاق - إيجاز البيان - ف ح 1
/ 259 - ح 4 (13) 356 / ف ح 4 / 332 (14) ف ح 2 / 410 (15) ف
ح 4 / 121 (17) ف ح - 634 / 2إيجاز البيان - ف ح 2 / 634 ، 632 ،
567 - ح 4 / 404 - ح 2 / 54 -كتاب مواقع النجوم - ف ح 1 / 251 ، 201 -
ح 3 / 311 (29) ف ح 1 / 672 - إيجاز البيان - ف ح 3 / 63 (39) إيجاز
البيان آية 16 (42) كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار (43) كتاب التراجم - كتاب
الإسفار - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (44) ف ح 4 / 372 (45) ف ح 2 /
39 (46) ف ح 2 - 2 / 617 / ح 3 / 552 - ح 2 / 617 - ح 3 / 179 (54)
ف ح 3 / 36 - ح 2 / 154 (56) إيجاز البيان الفاتحة آية 6 - ف ح 4 / 384 -
ح 1 / 406 - ح 4 / 364 - ح 1 / 426 - ح 4 / 273 ، 366 - ح 2 / 217 -
ح 3 / 413 ، 410 - ح 2 / 217 - ح 3 / 413 - ح 2 / 563 ، 217 ، 478 -
ح 1 / 426 - ح 4 / 400 - كتاب التراجم (57) ف ح 2 / 118 - ح 1 / 188
- ح 3 / 169 ، 221 - ح 2 / 75 (60)كتاب المسامرات (65) كتاب
المسامرات - فصوص الحكم فص 11 (70) ف ح 1 - 133 / ح 3 / 452 (73
) ف ح 1 / 429 - ح 4 / 262 ، 261 (75) ف ح 2 / 34 ، 35 ، 36 80)
(ف ح 4 / 53 - ح 3 / 230 - كتاب تلقيح الأذهان - كتاب الإسفار عن نتائج
الأسفار - ف ح 3 / 347 - كتاب الإسفار - كتاب نقش الفصوص - كتاب الإسفار (
81) ف ح 3 / 461 (86) ف ح 3 / 335 - ح 4 / 114 - ح 2) 463 /
(88ف ح 4 / 432 - كتاب مواقع النجوم - ف ح 2 / 687 - ح 3 / 84 ، 131
-ح 1 / 238 ، 334 ، 434 - كتاب التنزلات الموصلية (90) ف ح 1 / 197
(101)ف ح 3 / 309 (102) ف ح 3 / 252
ص 599

(103)ف ح 1 / 715 (104) ف ح 1 / 713 (105) ف ح 3 / 390 - ح 4 / 405 (106) ف ح 2 / 447 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (107) ف ح 2 / 688 - ح 3 7 / ، 387 - ح 2 / 281 - ح 3 / 387 - ح 2 / 381 - ح 3 / 77 - ح 1 / 527 (108) ف ح 2 / 447 ، 688 ، 281 - كتاب الأعلاق - ف ح 1 / 317 (112) ديوان -ف ح 2 / 218 - ح 4 / 182 ، 145 (113) ف ح 2 / 160 - ح 3 / 460 - ح 1602 / ، 198 (114) ف ح 4 / 446 (115) كتاب التنزلات الموصلية (118) ف ح 84 / 3 ، 465 (119) ف ح 2 / 335 - كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 3 / 162 -ح 4 / 404 - ح 3 / 465 (120) ف ح 3 / 145 ، 268 ، 457 - إيجاز البيان آية 56 - كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار (123) ف ح 2 / 144 - ح 1 / 418 ، - 552ح 4 / 28 - ح 3 / 254 - ح 4 / 86 - ح 3 / 471 - ح 4 / 67 - ح 2 - 218 / ح 4 / 427 - ح 2 / 153 ، 74 ، 218 ، 144 ، 218 - ح 1 / 416 ، 470 ، - 707ح 4 / 227 - ح 3 / 88 - ح 1 / 707 - ح 3 / 223 - ح 4 / 380 - كتاب ذخائر الأعلاق .

<u>سورة يوسف</u>

(3)ف ح 2 / 492 - ح 4 / 99 (5) ف ح 3 / 451 - كتاب فصوص الحكم - ف ح 2 - 375 /ح 3 / 70 - ح 4 / 184 ، 27 (6) ف ح 3 / 453 (20) كتاب الإسفار -كتاب الإسراء - كتاب النجاة (21) ف ح 3 / 453 ، 299 - ح 1 / 429 - ح 3 (23) 299 /ف ح 3 / 451 (24) ف ح 3 / 348 - كتاب الإسفار - ف ح 4 / 57 (27)ف ح 3 / 17 (30) ف ح 2 / 323 (31) كتاب الإسفار - كتاب الإسراء (33)ف ح 1 / 625 (36) ف ح 2 / 615 (39) ف ح 2 / 408 - ح 3 / 463 - ح (41) 538 / 2ف ح 2 / 377 (42) كتاب العقد النفيس لسيدي أحمد بن إدريس (43)ف ح 2 / 378 - ح 3 / 454 - كتاب الإسفار (44) كتاب الإسفار - كتاب الأعلاق (48) ف ح 2 / 275 (50) ف ح 4 / 180 - ح 3 / 347 - ح 1 (51) 625 / ف ح 3 / 348 (52) ف ح 3 / 347 (53) ف ح 1 / 286 - ح 2 / 195 -ح 3 / 418 - كتاب مواقع النجوم - ف ح 3 / 562 - ح 2 / 256 (54) كتاب الإسراء - كتاب النجاة (55) كتاب الإسفار - ف ح 3 / 142 - كتاب فصوص الحكم (64) ف ح 2 / 86 (67) ف ح 2 / 200 (72) كتاب الإسراء (83) ف ح 86 (243 / 2 ف) ح 2 / 338 (88) ف ح 1 / 574 (92) ف ح 4 / 28 - ح 2) 39 / (95ف ح 2 / 338 (100) ف ح 3 / 373 - ح 4 / 258 ، 259

ص 600

(101)كتاب الإعلام (104) ف ح 2 / 95 (105) إيجاز البيان آية 40 (
106)ف ح 4 / 284 ، 133 - كتاب المسائل - كتاب الوصية - ف ح 3 / 357 -
ح 4 - 435 / ح 2 / 138 - كتاب الشاهد (108) ف ح 3 / 51 - ح 2 / 645 -
ح 4 / 404 -ح 1 / 403 - ح 2 / 376 ، 569 - ح 3 / 525 - ح 2 / 376 -
ح 4 / 412 - ح 3 458 / ، 52 ، 332 ، 311 - ح 1 / 218 ، 251 - ح 3 /
332 - ح 4 / 183 - كتاب التجليات - ف ح 4 / 186 - ح 2 / 53 (111)
كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار -ف ح 3 / 471 - كتاب الإسفار .
سورة الرعد
(1)ف ح 1 / 64 (2) ف ح 4 / 396 - ح 4 / 396 - ح 1 / 125 - كتاب
التراجم - ف ح 3 / 418 - ح 1 / 4 - ح 2 / 552 - ح 1 / 324 ، 325 ، 325
- ح 2 - 128 /ح 3 / 171 ، 296 ، 67 ، 163 ، 67 - ح 1 / 206 - ح 2 /
62 - ح 3 (3) 28 / ف ح 2 / 556 ، 39 ، 620 - كتاب التدبيرات الإلهية -
ف ح 1 / 126 - ح 2 / 230 ، 595 (4) ف ح 3 / 231 - ح 1 / 209 - ح 2
/ 416 - ح 3 / 186 - ح 4 / 409 ، 411 - كتاب المشاهد القدسية - كتاب
الإسراء - كتاب النجاة (7)ف ح 3 / 498 (8) ف ح 3 / 417 - ح 4 / 350
، 351 (9) ف ح 1 / 51 ، - 748ح 4 / 91 ، 322 (11) ف ح 4 / 187
، 216 ، 187 - ح 1 / 505 - ح 4 (13) 305 / ف ح 2 / 452 - كتاب
النجاة (15) ف ح 2 / 101 - ح 1 / 515 ، - 509ح 3 / 152 - ح 1 / 509
- إيجاز البيان - ف ح 3 / 47 - كتاب الأعلاق - ف ح 1 / 137 ، 509 - ح 4 /
435 - ح 2 / 101 - ح 1 / 509 - ح 4 / 333 - كتاب التنزلات الموصلية (16
) ف ح 3 / 121 - ح 1 / 279 ، 240 ، 236 - ح 4 (17) 322 / ف ح 1 /
189 - ح 3 / 419 - ح 1 / 632 - ح 2 / 556 - ح 2 / 419 - كتاب الأعلاق (
20) ف ح 2 / 37 - ح 1 / 723 - ح 2 / 37 (21) ف ح 2 / 38 (22)
الديوان (23) ف ح 3 / 442 - ح 1 / 319 (24) ف ح 3 / 209 (26) ف
ح 4 / 224 (28) ف ح 4 / 21 ، 50 (29) ف ح 3 / 434 ، 436 (30)
ف ح 2 (31) 411 /ف ح 2 / 194 - ح 3 / 3 - ح 1 / 529 - ح 2 / 194
- ح 3 / 3 - ح (32) 551 / 1كتاب فصوص الحكم (33) ف ح 1 / 481 -
ح 2 / 513 - ح 3 - 544 / ح 4 / 11 ، 106 - ح 2 / 418 - ح 4 / 106 - ح
3 / 498 - ح 4 / 106 (35) إيجاز البيان آية 18 - ف ح 1 / 660 - ح

ص 601

(39) 564 / 3ف ح 2 / 534 ، 552 ، 534 - ح 3 / 61 - ح 4 / 287 - ح 3 / 61 - كتاب الفناء - كتاب مواقع النجوم - رسالة ابن سودكين - ف ح 3 / 112 ، 160 (40) ف ح 1 / 394 (41) ف ح 2 / 357 (42) ف ح 1 / 698 - ح 4 / 249 .

سورة إبراهيم

(1)ف ح 3 / 174 ، 412 ، 411 ، 412 (4) ف ح 2 / 3 ، 632 - ح 4 / 43 - ح - 483 / 3ح 4 / 43 - ح 3 / 530 - ح 4 / 468 - ح 2 / 534 - ح 4 / 468 - ح 2 - 533 / ح 3 / 490 - ح 1 / 420 - كتاب التراجم (5) ف ح 4 / 333 - كتاب المسامرات - ف ح 3 / 564 - ح 2 / 208 - ح 3 / 561 (7) ف ح 2 / 202 - ح 4 - 457 / ح 1 / 505 - ح 2 / 343 - ح 3 / 152 ، 410 (8) ف ح 3 / 410 (11) ف ح 3 / 50 (12) ف ح 2 / 424 (15) كتاب الإسراء - كتاب النجاة (16) كتاب النجاة (19) ف ح 3 / 420 - ح 2 / 539 - ح 3 / 365 ، 548 - ح 4 / 240 -ح 2 / 607 - ح 3 / 460 (20) ف ح 3 / 528 (22) ف ح 3 / 112 - كتاب تلقيح الأذهان (24) ف ح 1 / 195 (25) ف ح 3 / 451 (32) ف ح 2 / 526 (34) ف ح 4 / 259 - ح 3 / 96 - ح 4 / 260 ، 257 - ح 2 / 620 ، 530 ، 531 (43) ف ح 2 / 198 - ح 4 / 354 - ح 3 / 485 (47) ف ح 2 / 474 - ح 1 / 535 -ح 2 / 474 - كتاب فصوص الحكم - ف ح 2 / 474 (48) ف ح 3 / 102 - ح 1 / - 308ح 3 / 421 ، 432 - ح 2 / 439 (49) ف ح 4 / 158 (51) ف ح 4 / 268 - ح 3 / 85 - ح 1 / 513 - ح 3 / 85 - ح 1 / 326 - ح 3 / 85 - ح 1 / 513 - ح 3 . 544 /

سورة الحجر

(3)ف ح 4 / 344 (6) إيجاز البيان (9) ف ح 3 / 369 - إيجاز البيان (الفاتحة آية 5) - ف ح 4 / 461 - ح 3 / 230 - ح 4 / 8 - إيجاز البيان) المقدمة) - ف ح 1 / 145 (21) ف ح 2 / 587 - ح 4 / 340 ، 129 - ح 3 / 193 ، 192 - ح 2 / 281 - ح 4 / 108 - ح 3 / 193 - ح 4 / 293 ، 295 - ح 3 / 434 -كتاب الأعلاق - ف ح 2 / 587 - ح 4 / 426 - ح 2 / 281 - ح 3 / 6 - ح 4 (26) 180 / ف ح 3 / 296 (27) ف ح 3 / 438 - إيجاز البيان آية 40 (28) إيجاز البيان آية (40) - ف ح 3 / 438 (29) ف ح 3 / 296 - ح 2 / 272 ، - 568ح 1 / 663 - ح 3 / 125 - ح 2 / 568 ،

ص 602

- 503ح 4 / 230 - ح 4 / 306 - ح 2 / 46 ، 67 (30) ف ح 3 / 294 -
كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 2 / 86 (35) كتاب تلقيح الأذهان (39) ف ح
2 - 467 / ح 3 / 527 - ح 1 / 283 (40) ف ح 3 / 381 (42) ف ح 1 /
197 - ح 4 - 4 / ح 3 / 381 - ح 1 / 197 - ح 2 / 467 (44) ف ح 3 /
441 - ح 1 / 229 ، (47) 303ف ح 3 / 286 (48) ف ح 1 / 500 -
إيجاز البيان آية 6 ، 26 (49 (ف ح 4 / 342 (50) ف ح 4 / 342 (51)
ف ح 1 / 655 (56) ف ح 4 / 356 (75) ف ح 2 / 241 - كتاب التدبيرات
الإلهية - ف ح 4 / 358 (79) ف ح 4 (85) 26 / ف ح 2 / 285 ، 216 ،
391 ، 95 ، 285 ، 331 ، 310 ، 331 ، 310 (86) ف ح 3 / 348 (87
) ف ح 2 / 134 - ح 3 / 500 ، 130 (91) كتاب القسم الإلهي (94) ف ح
4 / 190 (96) ف ح 1 / 302 - كتاب القسم الإلهي (97) ف ح 4 / 185 -
كتاب القسم الإلهي (98) ف ح 2 / 403 ، 404 - ح 2 / 290 ، 34 (99)
كتاب القسم الإلهي - ف ح 3 / 311 - ح 2 / 34 ، 74 - ح 3 / 311 - كتاب
الإعلام - ف ح 2 / 295 ، 204 - ح 4 / 365 - رسالة اليقين
سورة النحل
(1)إيجاز البيان آية 111 - ف ح 2 / 95 ، 204 - ح 3 / 354 (2) ف ح 2
- 356 /ح 2 / 568 ، 90 ، 638 ، 412 - ح 3 / 316 (3) ف ح 3 / 354
، 416 (5 (ف ح 4 / 339 (7) ف ح 3 / 490 - ح 1 / 560 (9) ف ح 1
/ 209 - ح 3 - 388 / ح 1 / 302 ، 668 (12) ف ح 4 / 34 - ح 3 / 338
(15) ف ح 2 / 455 (16) ف ح 3 / 142 (17) ف ح 2 / 612 - ح 1 /
712 - ح 2 / 511 - ح 1 / 712 ، 400 - إيجاز البيان آية 20 (18) روح
القدس في محاسبة النفس - ف ح 4 (22) 408 / إيجاز البيان آية 4 (29) ف ح
1 / 368 (30) ف ح 4 / 105 (31 (ف ح 4 / 180 ، 252 (33) ف ح 4
/ 149 (40) ف ح 1 / 260 - ح 2 / 495 - ح 3 / 280 - ح 1 / 260 ،
265 ، 323 ، 538 - ح 3 / 90 ، 286 ، 46 ، 68 ، - 255ح 2 / 401 - ح
3 / 254 - ح 2 / 62 - ح 3 / 280 - ح 2 / 302 ، 280 ، 62 ، 401 ، 201
، 280 - ح 3 / 525 - ح 2 / 280 ، 62 ، 401 - ح 3 / 217 ، - 525ح 2 /
401 - ح 3 / 255 - ح 1 / 46 - ح 3 / 263 - ح 4 / 70 - ح 2 - 484 / ح
3 / 282 - ح 1 / 732 - ح 2 / 400 - ح 3 / 295 ، 134 ، 289 - ح 2 /
(43) 402ف ح
ص 603

- 724 / 1ح 4 / 8 - ح 3 / 457 ، 309 - ح 2 / 190 - ح 1 / 373 - ح 2 / 190 (44) ف ح 3 / 301 - ح 2 / 672 ، 259 (48) ف ح 2 / 328 - ح 1 / 510 - ح 3 - 46 /ح 2 / 328 - ح 1 / 510 - ح 2 / 328 (49) ف ح 2 / 328 ، 102 ، 308 ، 328 (50) كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار - ف ح 1 / 340 - ح 2 / 328 - ح (53) 510 / 1ف ح 3 / 207 (56) ف ح 3 / 162 (59) ف ح 3 / 367 (60) إيجاز البيان آية 18 - ف ح 3 / 116 (62) ف ح 3 / 367 (65) كتاب مواقع النجوم (68) ف ح 3 / 393 ، 142 - ح 2 / 434 ، 78 ، 254 - ح 1 / 287 (69) ف ح 3 / 488 ، 120 - ح 4 / 257 - كتاب ذخائر الأعلاق - ف ح 4 / 282 - كتاب ذخائر الأعلاق - ف ح 4 / 282 (74) ف ح 4 / 301 - ح 3 / 344 - ح 4 / 203 - ح 2 / 488 - ح 3 / 291 - ح 4 / 379 - ح 3 / 185 ، 345 - ح 1 / 349 - ح 1853 / ، 450 (77) ف ح 2 / 82 - ح 4 / 46 - ح 2 / 82 - ح 4 / 417 (78) ف ح - 390 / 4ح 1 / 288 - ح 2 / 61 ، 366 - ح 3 / 399 - كتاب الإعلام (79) ف ح 3 / 490 (81) ف ح 3 / 211 (88) ف ح 2 / 472 - ح 1 / 303 (89) ف ح 1 (90) 135 /ف ح 3 / 407 - كتاب التدبيرات الإلهية - ح 3 / 407 (93) ف ح (96) 309 / 3ف ح 2 / 518 ، 201 ، 280 ، 281 - ح 3 / 161 - ح 4 / 413 ، - 108كتاب المسائل - ف ح 4 / 107 (97) ف ح 4 / 123 (98) ف ح 4 / 409 - ح 1 / 413 ، 421 (102) ف ح 2 / 71 (106) ف ح 4 / 125 - ح 3 / 220 - كتاب عقلة المستوفز - ف ح 1 / 560 - ح 3 / 220 (111) ف ح 1 / 628 ، 627 - ح 2 / 145 (112) ف ح 3 / 406 (114) كتاب مواقع النجوم - ف ح 1 / 401 (115) ف ح 2 / 175 (116) ف ح 3 / 559 ، 563 - ح 2 / 175 (120) ف ح 2 562 / ح- 1 / 722 (121) ف ح 1 / 722 - ح 2 / 202 (122) ق ح 1 / 230 (125)ف ح 3 / 563 - ح 2 / 266 ، 267 - ح 3 / 563 - ح 2 / 265 ، 93 - ح 4 - 516 / ح 2 / 265 - ح 3 / 339 ، 498 (127) ف ح 2 / 343 (128) ف ح 1 - 549 / ح 4 / 360 .

سورة الإسراء

(1)ف ح 4 / 50 - ح 1 / 49 - ح 2 / 419 ، 403 - كتاب الإسفار - ح 1 / 276 -ح 3 / 270 - كتاب الإسفار - كتاب الأعلاق - ف ح 1 / 745 - ح 3 / 340 - كتاب المشاهد القدسية - ف ح 3 / 340 - ح 2 / 172 - ح 3 / 340 - ح 1 / 2 - ح

604 ص

- 294 / 2ح 3 / 345 ، 61 - كتاب رد الآيات المتشابهات - كتاب شجرة الكون (
2 (ف ح 1 / 671 (7) ف ح 1 / 549 (8) ف ح 1 / 297 ، 299 ، 300
- ح 4 - 21 / ح 3 / 172 (11) ف ح 3 / 352 (12) ف ح 1 / 514 - ح
3 / 56 - كتاب عقلة المستوفز - ف ح 1 / 514 ، 295 ، 388 (14) ف ح 1 /
514 ، 295 ، 388 (14) ف ح 4 / 419 - كتاب تلقيح الأذهان (15) ف ح
1 / 209 - ح 3 / 468 - ح - 520 / 1ح 3 / 135 - ح 4 / 162 - ح 3 /
469 - ح 1 / 326 (16) ف ح 3 (20) 156 / ف ح 2 / 286 - ح 3 /
183 - ح 4 / 274 - ح 3 / 183 ، 211 - ح 1 - 287 / ح 3 / 183 - ح 4 /
310 - ح 1 / 287 - ح 4 / 274 (23) ف ح 3 / 117 - ح 1 / 405 - ح 4
/ 100 ، 101 - ح 1 / 405 - ح 3 / 117 - ح 2 / 661 - ح 5891 / ،
328 - ح 2 / 326 ، 92 ، 591 - ح 4 / 415 - إيجاز البيان الفاتحة آية - 5ف
ح 1 / 328 - كتاب المسائل - ف ح 1 / 146 ، 371 (24) كتاب النجاة 25)
(كتاب النجاة (25) ف ح 2 / 36 (26) ف ح 1 / 574 - ح 3 / 532 (29
(ف ح 1 / 342 (31) ف ح 3 / 307 (34) كتاب تلقيح الأذهان - كتاب
النجاة - كتاب المشاهد القدسية (36) ف ح 3 / 371 ، 76 - ح 1 / 599 - كتاب
تلقيح الأذهان - كتاب الإسراء (37) ف ح 2 / 455 (44) ف ح 3 / 555 - ح
4 / 213 -ح 3 / 209 - ح 2 / 117 - ح 3 / 148 - كتاب المسائل - كتاب
الشأن - ف ح 3 - 437 /ح 4 / 213 - ح 2 / 218 - ح 4 / 94 - ح 2 / 218
- ح 3 / 120 - ح 6882 / ، 247 - ح 1 / 429 - ح 3 / 333 - ح 1 / 59 -
ح 2 / 330 ، 400 - ح 3811 / ، 147 - ح 4 / 298 - ح 1 / 381 - ح 4 /
451 - ح 1 / 398 - كتاب عقلة المستوفز - ف ح 4 / 404 - ح 3 / 355 ،
393 - ح 1 / 247 ، 398 - ح 3 / 393 - ح 1 / 398 ، 247 ، 398 - كتاب
المسائل - ف ح 3 / 557 ، 99 - ح 2 / 682 - ح - 99 / 3ح 2 / 682 - ح 3
/ 257 ، 263 ، 257 ، 489 ، 65 ، 148 - ح 2 / 504 -ح 3 / 148 - ح 2
/ 404 - ح 4 / 91 - ح 3 / 375 ، 148 ، 375 ، 148 - ح 4 - 93 / ح 3 /
148 - ح 4 / 94 - ح 2 / 404 ، 510 ، 404 - ح 3 / 375 - ح 5102 / ،
404 - ح 3 / 375 - ح 2 / 510 - ح 3 / 375 ، 385 ، 147 - ح 2 / 510 -
ح (55) 247 / 1ف ح 1 / 522 - ح 3 / 442 - ح 1 / 522 - ح 2 / 61 ،
52 - ح 4 - 139 /ح 2 / 19 (56) كتاب الشاهد (57) ف ح 2 / 185 (
60) إيجاز البيان آية 36 (61) ف ح 2 / 683 ، 366 (62 - 63) ف ح 2 /
467 (64) ف ح 143 / 3 ، 368 - ح 4 / 4 - ح 2 / 467 - ح 1 / 301 (
65) ف ح
ص 605

236 / 1 ، 515 ، 516 - ح 2 / 7 - ح 3 / 240 (67) ف ح 4 / 173 ،
148 - ح 3 - 531 / ح 2 / 633 - ح 1 / 614 - ح 4 / 256 ، 173 (72)
ف ح 2 / 641 - ح 3 - 489 / ح 4 / 185 ، 423 ، 185 - ح 3 / 489 ،
565 - ح 4 / 423 (73) إيجاز البيان (74) إيجاز البيان آية 121 (75) ف
ح 3 / 59 (78) ف ح 1 / 388 - كتاب التنزلات الموصلية (79) ف ح 1 /
164 - ح 2 / 268 - ح 1 / 164 ، 487 ، 164 ، 487 - ح 2 / 126 ، 268
- ح 1 / 164 - ح 2 / 86 ، 87 - ح 1 / 164 - ح 4 / 286 - ح 2 / 86 - ح
4 / 29 - ح 4 / 29 - ح 3 / 141 - ح 2 / 86 - ح 4 - 29 /ح 2 / 86 - ح 1
/ 313 - ح 2 / 86 - ح 4 / 368 (80) ف ح 1 / 165 - كتاب الشاهد (81)
ف ح 1 / 223 (82) ف ح 2 / 267 - ح 3 / 94 - ح 2 (84) 267 / ف ح
2 / 435 ، 437 - ح 1 / 481 (85) ف ح 2 / 560 - ح 1 / 254 - ح 2 /
59 - كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 1 / 113 - 3 / 38 - ح 1 / 55 - ح / 3
22 ، 12 ، 187 ، 12 - ح 1 / 253 - كتاب مواقع النجوم (88) ف ح 4 /
- 397ح 3 / 35 - إيجاز البيان آية 24 - ف ح 2 / 148 - الديوان (93) إيجاز
البيان آية 1 / (94) ف ح 3 / 83 (95) إيجاز البيان الفاتحة آية 2 -كتاب
التنزلات الموصلية (97) ف ح 0 2 / 252 - ح 1 / 317 ، 321 - ح 2 36 /
ح- 1 / 316 ، 321 (105) ف ح 1 / 510 - ح 2 / 95 (106) ف ح 1 /
510 -ح 4 / 402 (107) ف ح 1 / 510 (108) ف ح 1 / 510 (109)
ف ح 1 / 510 (110)ف ح 1 / 667 - ح 4 / 108 - ح 3 / 126 - ح 4 /
118 - ح 1 / 611 - ح - 108 / ح4 3 / 544 - كتاب الجلال والجمال - ف ح
1 / 611 - ح 4 / 196 ، - 294ح 1 / 667 (111) ف ح 2 / 404 ، 405
- ح 3 / 483 - ح 2 / 405 - ح 4. 96 /
ص 606

فهرس الجزء الثاني

الموضوع الصفحة

607

608

610

611

612

613

614

615

616

617

618